الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.



الأمير

القصّة السريّة للأمير الأكثر إثارة للاهتمام في العالم

الأمير بندر بن سلطان

وليام سيمبسون

مع مقدمتين بقلم نيلسون مانديلا ومارغريت تاتشر



القصة السرية للأمير الأكثر إثارة للاهتمام في العالم

الأمير بندر بن سلطان



القصة السرية للأمير الأكثر إثارة للاهتمام في العالم

الأمير بندر بن سلطان

The Prince

تأليف

وليام سيمبسون

مع مقدمتين بقلم نيلسون مانديلا ومارغريت تاتشر

William Simpson

ترجمة

عمر سعيد الأيوبي

مراجعة وتحرير

مركز التعريب والبرمجة



الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل

Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

بسم الله الرحمن الرحيم

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الإنكليزي

The Prince

حقوق الترجمة العربية مرخّص بها قانونياً من الناشر

Regan

بمقتضى الاتفاق الخطي الموقّع بينه وبين الدار العربية للعلوم ناشرون، ش.م.ل.

الطبعة الأولى

1431 هـ - 2010 م

ردمك 978-9953-87-151-6



عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم

هاتف: 786233 - 785108 - 785107 (+961-1)

ص.ب: 13-5574 شوران - بيروت 1102-2050 - لبنان

فاكس: 786230 (+961-1) - البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb

الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

التنضيد وفرز الألوان: **أبجد غرافيكس**، بيروت - هاتف 785107 (+9611)

الطباعة: **مطابع الدار العربية للعلوم**، بيروت - هاتف 786233 (+9611)



المحتويات

تقديم

بقلم نلسون مانديلا

غالباً ما تكون الصداقات في عالم السياسة عابرة أو دبلوماسيّة، وبالتالي لا تقاس إلا من خلال اللياقة أو الضرورة. والحال ليست كذلك حتماً بيني وبين الأمير بندر بن سلطان: فأنا أنعم بصداقة شخصيّة دائمة وقويّة مع الأمير بندر، وهو شخصيّة تتحلّى بدفء وذكاء وإخلاص غير عاديّ. فقد قدّم إليّ بندر دعمه الراسخ على مرّ السنين بعدّة طرائق، وكان دائماً مخلصاً وكريماً بقدر ما أتوقّع من رجل دولة بهذه المكانة العظيمة.

لقي وليام سمبسون تحدّياً هائلاً في كتابة السيرة الذاتيّة للأمير بندر، إذ إنّه تمكّن من الإحاطة بجوهر هذا الرجل - اللغز. فالتعامل مع المنعطفات والتحوّلات في هذه الحياة المدهشة إنجاز بحدّ ذاته، وكذا تحديد العوامل التي أنشأت هذا الرجل البارع ذا الحضور المؤثّر الذي أفخر أن أعرفه كصديق وثيق.

لقد كان للأمير بندر تأثير مدهش في أثناء العقدين الماضيين كصانع سلام دوليّ متجوّل، يعمل في الخلفيّة بشكل رئيسيّ، ولا يسعى البتة وراء التقدير العامّ ونادراً ما تقبّل تصفيق نظرائه. لذا لا نعجب نحن الذين نعرفه عن كثب من الاحترام الملحوظ الذي يكنّه للأمير بندر العديد من رؤساء الدول والحكومات ورجال الدولة وصنّاع الرأي في كل أنحاء العالم، لكنّ دوره المركزيّ بقي طيّ الكتمان إلى حدّ كبير حتى الآن.

الأمير بندر رجل متميّز - شخصيّة ساحرة وفصيحة، ومع ذلك متواضعة - وغالباً ما وجّه نمط الأحداث العالميّة. وإنّه ليسعدني أن أتمكّن من المساهمة في كتاب أعرف أنه مليء بالحيويّة والمرح، وتتخلله قصص بندر الخاصّة - المبالغ فيها دائماً - فهو قاصّ لا نظير له.

في الختام، تستحقّ إنجازات الأمير بندر اعترافاً دوليّاً. فقد عمل من دون كلل من أجـــل السلام، وأنا أصفّق له من دون شروط كرجل مبادئ، ودبلوماسيّ ذي قدرات مدهشة، وواحد من صانعي السلام العظام في زماننا.

نلسون مانديلا

تقـدِيـم

بقلم البارونة مارغريت تاتشر

كـنت شاهدة على المواهب المتميّزة للأمير بندر كدبلوماسيّ ورجل أفعال لمدّة تـزيد عن العشرين سنة. فهو بوصفه طيّاراً حربيّاً سابقاً جريء وحاسم، ورجل كما يهوى قلبـي. إنّه يصنع الأحداث بدلاً من أن ينتظر حدوثها. وقد لعب بالطبع دوراً مركـزيّاً في العلاقـات بين المملكة العربيّة السعوديّة والولايات المتحدة، بالإضافة إلى المملكـة المتحدة. كما مكّنته قدرته غير العاديّة على الفوز باحترام وثقة القادة العالميّين مـن خدمـة حكومته في العديد من المهمّات الأخرى التي لا تقلّ حساسيّة في الشرق الأوسـط والصين وروسيا. وأذكر على وجه التحديد دوره الحاسم في بناء الائتلاف لمقاومة احتلال صدّام حسين الكويت في سنة 1990. إنّ هذا الكتاب يروي قصّة رجل في عـصرنا يقـف في قلـب أحداث العالم منذ عقدين من الزمن، وأفخر بأن أدعوه صديقاً.

مارغريت تاتشر

ملاحظة على المصادر

على الرغم من تشديد الأمير بندر على أن تكون هذه السيرة الذاتيّة "غير رسميّة"، فإنّــه منحني مع ذلك فرصة الوصول غير المقيّد إلى عائلته وأصدقائه. وبذلك أتاح لي الاســتفادة مباشــرة مــن الذاكرة الجماعيّة لأقرب معارفه. وبندر، كما يشهد الذين يعرفونه، راوي أخبار مميّز، وقد روى عدّة مرّات على مرّ السنين على هؤلاء الأصدقاء أحداثاً دبلوماسيّة مدهشة. وبمقابلة هؤلاء الأصدقاء، تمكّنت من جمع روايات وطرائف شخــصيّة مفــصّلة، مع المطالبة الصارمة بإغفال الأسماء في الغالب. وقد جُمعت كل الاقتباســات المباشرة والحوارات والمحادثات والقصص من دائرة الأصدقاء هذه، ما لم يُذكر خلاف ذلك. ونــزولاً عند طلب المحافظة على السريّة من بعض المصادر، لم يتمّ في الغالب الإشارة إلى مصادر الروايات الحواريّة للاجتماعات والأحداث المنسوبة إلى الأمير بندر في هذه السيرة الذاتيّة؛ لكنّها دقيقة مع ذلك.

تَمْهيد

في سنة 1986، كنت جالساً حول نار المخيّم ذات ليلة من ليالي الصحراء العربيّة، فالتمعت مجرّة الدرب اللبنيّة وسطعت في عتمة الليل. وفرقعت النار وتموّرت.

كان رفاقي، الذين جلسوا متربّعين على الرمل معي، ضبّاطاً ورتباء شبّاناً في سلاح الجوّ الملكيّ السعوديّ. وقد أكلنا ملء بطوننا من لحم الماعز المشويّ الطازج والأرز، وها هي القهوة بالهال تقدّم إلى الجميع في فناجين صغيرة.

كنّا جميعاً نعرف بعضنا بعضاً، وفيما استرخى الجميع تحوّلت الجلسة لسبب ما إلى الحديث عن الأمير بندر. لم تكن لدى زملائي أي فكرة عن صلاتي الماضية بالأمير بندر، وفاجأني ما سمعته. فقد أظهروا شدّة محبّتهم واحترامهم الحقيقين النابعين من القلب له. فرووا مآثره، وكثير منها مبالغ فيه من دون شكّ، وتفاخروا بإنجازاته. لم يكن ذلك للعرض فحسب - لم تكن ثمة حاجة إلى ذلك في ظل تلك الظروف. من الواضح أنّ الأمير بندر يحظى باحترام ومحبّة كبيرين، لا كجنديّ وطيّار فحسب، وإنّما لشخصه كرجل أيضاً.

لقد تمكّن الأمير بندر من الوصول إلى كل هؤلاء الرجال المتحلّقين حول نار المخيّم في تلك الليلة والتأثير فيهم، مع أنّ جميعهم لم يلتقوا به قطّ. كانت تلك شهادة لن أنساها لهذا الرجل، ولولا المقادير لبقيت غير مدوّنة إلى الأبد.

- مارتن شوري

السرب السادس والتسعون د،

سلاح الجوّ الملكيّ كرانول

(ضابط وحدة درّب أفراد سلاح

الجوّ الملكيّ السعوديّ في المملكة)

مُقَـــدِّمَـــة

"وفي النهاية، لا يعتدّ بالسنين في حياتك، وإنّما بالحياة في تلك السنين".

أبراهام لنكولن (1861 - 1865)

"أحبّ انعدام الأمن الذي يحيط بي. إذا جرحتني أنزف. وإذا وجّهت إلي كلاماً نابياً، أنزعج وأتألّم. وإذا كان عليّ أن أواجه الخطر أو التحدّي، فإنّنا جميعاً مدرّبون على الخروج سالمين وفعل ما يجب علينا فعله... إنّني لست آمناً، وغير آمن، لكنّني لا أسمح لانعدام الأمن الذي يحيط بي بأن يمنعني من عمل ما يجب عمله".

الأمير بندر بن سلطان ابن
عبد العزيز آل سعود

في مارس 1949، عقعق صقر يحلّق عالياً في السماء معلناً عن ولادة أمير بدويّ، أمير سيكون له تأثير عميق في العالم بعد ذلك بعدّة عقود. لكن كان على هذا الصبيّ في طفولته أن يكافح كي يتمكّن من المثول أمام والده. ومضت فترة قبل أن تعترف به العائلة المالكة السعوديّة في نهاية المطاف، فقد وُلد الأمير بندر بن سلطان من معاشرة والده، الأمير سلطان بن عبد العزيز آل سعود، وزير الدفاع والطيران، أَمَةً شابّة تُدعى خيزران.

في السنوات الثماني الأولى من العمر، كان اتصال الأمير بندر بوالده قليلاً. لكنّ جدّته النافذة، الأميرة حصّة بنت أحمد السديريّ، وهي زوجة أثيرة للملك عبد العزيز ابن عبد الرحمن آل سعود، الذي يعرف في الغالب باسم ابن سعود، لمحت نبوغ الصبيّ وسعت لإدخاله كنف العائلة المالكة. وهي التي لاحظت النضوج المبكّر لهذا الولد البشوش والذكيّ وواسع الحيلة، وأتمّت المصالحة اللاحقة مع والده.

وعلى مرّ السنين صار الأمير الشاب يطمح إلى أن يغدو طياراً. وبدافع من حافز فطري كي يثبت ذاته - أمام أبيه على وجه الخصوص - كذب بندر بشأن سنه وتمكّن

مـن الالـتحاق بكلية كرانوِل، الأكاديمية العسكرية الأولى التابعة لسلاح الجو الملكيّ الـبريطاني. في كـرانوِل، تبلورت أحلام الأمير بأن يصبح طياراً حربيّاً. وهناك تعلم النجاح بالاعتماد على مزاياه الخاصّة، فطرح لقب الأمير جانباً، واستوعب عالماً جديداً غـربياً، على الرغم من استمراره بالتمسك بالتقاليد العربية وبثقافته البدوية. وفي هذه البيـئة الغربية، أتقن لغة جديدة، ونال احترام أقرانه المطلق، وتعلم اجتياز الهوّة الثقافية الـتي تفصل بين الشرق والغرب. وأحاط نفسه أيضاً بمجموعة من زملائه الطلاّب في الكليّة الحربيّة، بمن فيهم أنا، الذي لا تزال صداقتي معه، بعد مرور تسعة وثلاثين عاماً، على أشدّها.

عقـب التخـرج في كرانوِل، شهد العقد التالي نضوج بندر كطيّار حربـيّ في سلاح الجو الملكيّ السعودي، وخلال تلك الفترة شرع في مهمّات تدريبية متتالية مع سلاح الجوّ الأميركي. كان ذلك بمثابة الصدام الثقافي المطلق. أمير سعودي، ترعرع في صـحاري شـبه الجزيـرة العربيّة السعودية وتعلّم في ريف لينكولنشير، وها هو الآن منغمس في الأخلاق والعادات الأميركية في تكساس. لكن ذلك بشّر بالاكتمال الثقافي لدى الأمير الشاب. فاحتضن نمط الحياة الجديد، وأصبح من المعجبين المتحمّسين برعاة البقـر في دالاس، ونـسج صداقات جديدة، وطوّر فهماً عميقاً للمجتمع الأميركي، ودأب في الـوقت نفسه على تحسين مهاراته اللغوية، متقبلاً اللغة العامية بحماسة، وما يتخلّلها من قصص رمزية يقصها "فرسان" الطائرات النفاثة.

عـيّن الأمير بندر قائداً لسرب من طائرات "أف – 5"، ثم قائداً لوحدة التحويل العملانـية لطائـرات "أف – 5"، فعمد إلى تدريب الكثير من أبناء الجيل الحالي من طـيّاري مقـاتلات سلاح الجو السعودي. غير أن أيامه في سلاح الطيران وصلت إلى ختامها فجأة في سنة 1977 عندما حاول الهبوط بطائرة "أف – 5" تعطّلت عجلاتها. خلّفـت لـه هـذه الحادثة مشكلات دائمة في عموده الفقري، وأدّت إلى إنهاء مهنة الطيران التي كان يعوّل عليها ويتدرّب من أجلها. لكن مهنته التالية، المهنة التي شغلت الـسنوات الأربـع والعـشرين التالية من حياته، وجعلت منه أسطورة على المسرح الدبلوماسي العالمي، كانت على وشك أن تبدأ.

تـدخّل القدر مرة أخرى، وأمسك بزمام حياة الأمير في سنة 1978 عندما كان الأمـير تركي الفيصل في واشنطن في ذلك الوقت، يمارس ضغوطاً لبيع المملكة العربية

السعودية ستين طائرة من طراز "أف - 15". فلما كان الأمير تركي يدرك خبرة بندر كطيّار، وإتقانه اللغة الإنكليزية، وتقبّله الثقافة الأميركية، فقد طلب المساعدة منه. استمتع بندر بتلك المهمّة، فانبرى يساعد الرئيس جيمي كارتر المثقل بالأعباء، ليس فقط في تمرير بيع الطائرات إلى المملكة العربية السعودية في مجلس الشيوخ المتردّد حيالها، وإنّما أيضاً في تأمين تمرير مشروع قانون معاهدة قناة بنما، الذي تقدّم به كارتر إلى الكونغرس.

نجح الأمير الشاب في هذا المضمار السياسي غير المألوف منذ البداية. فقد أقنعت حماسة بندر، ومعرفته المهنيّة كطيار محنّك، وموهبته الدبلوماسية الفطريّة التي لم تكن ظاهرة حتى ذلك الحين، كثيراً من أعضاء مجلس الشيوخ، وأسفرت عن الهزيمة المدوّية للجنة الشؤون العامة الأميركية الإسرائيلية (أيباك) التي لا تُقهر. وقد قلّل لاحقاً من شأن هذا الإنجاز وغيره من الأحداث المماثلة بالقول المأثور الشائع "خير لي أن أكون محظوظاً من أن أكون ذكياً في أي يوم"[1].

أدّى النجاح في التغلّب على المقاومة الضارية من اللوبي اليهودي المعادي والموالي لإسرائيل، خلال المعركة على طائرات "أف - 15" في سنة 1978، ونجاحه لاحقاً في تمرير صفقة البيع الضخمة لطائرات الإنذار المبكر والقيادة (أواكس)، إلى جانب مشاركته البارعة في التوسّط لتحقيق وقف لإطلاق النار في لبنان بعد ذلك بوقت قصير، إلى اكتسابه تقدير الملك فهد وامتنانه العميقين. وسرعان ما توالت المهمّات بعد نجاحه في الكونغرس الأميركي، فعُيّن بندر ملحقاً عسكرياً في واشنطن، ثم أصبح موفداً خاصاً للملك، وأخيراً عُيّن سفيراً للمملكة العربية السعودية إلى الولايات المتحدة، ولم يكن عمره قد تجاوز الرابعة والثلاثين.

في الأعوام الثلاثة والعشرين التي تلت تعيين بندر سفيراً، يمكن القول إنّه أصبح الجسر الأساسي بين الشرق الأوسط وواشنطن للرؤساء: جيمي كارتر، ورونالد ريغن، وجورج إيتش دبليو بوش، وبيل كلينتون، وجورج دبليو بوش. وقد لاحظ الرئيس كارتر أنّه: "... من بين كل الأشخاص الشرقيين الذين عرفتهم، الجسر الأنسب بين ثقافتنا وثقافة الشرق الأوسط"[2]. لقد كان الرجل الطبيعيّ الذي *يُلجأ إليه*[3] في جميع الأمور المتعلقة بالمملكة العربية السعودية، وما لبث أن أصبح ذا تأثير لا يقبل الجدل. وكعميد نافذ للسلك الدبلوماسي، كان محط اهتمام في واشنطن بوصفه

"الطبقة الخامسة" الفعلية[4]. الرؤساء يأتون ويذهبون، أمّا بندر فيبقى الشخصية الدبلوماسية المهيمنة والمتجذّرة عميقاً داخل دائرة صنع القرار في واشنطن.

مع ذلك، لم يحصر بندر علاقته بواشنطن فحسب. فقرار الملك فهد منح المملكة المتحدة مشروع "اليمامة" الضخم، وهو عقد جارٍ بقيمة هائلة تبلغ 60 مليار دولار لحيازة وصيانة مجموعة كاملة من الطائرات، والسفن، ومعدات أخرى، ما هو إلا صفقة أسلحة قام بندر بهندستها والتفاوض بشأنها. وهي صفقة تشاء المصادفة أن يطلبها الرئيس رونالد ريغن في الأصل، ويقرّها سلاح الجو الأميركي، لكن مجلس الشيوخ رفضها في آخر الأمر. كانت الهيكليّة المبتكرة التي ابتدعها بندر لتمويل مشروع "اليمامة" بارعة، وقد وطّدت علاقته الوديّة مع رئيسة الوزراء مارغريت تاتشر. فالآليّة الماليّة للصفقة، التي أثارت انتقادات جمّة في وسائل الإعلام، توفّر مجالاً مدهشاً للمرونة والتضليل، ما يعود بفائدة عظيمة على المملكة العربية السعودية وبريطانيا العظمى على السواء. ومن مشروع "اليمامة" نشأت علاقة بين بندر وتاتشر تقوم على الإعجاب المتبادل وكانت ذات قيمة لا تقدّر إبّان حرب الخليج سنة 1990.

أجبر الكونغرس الأميركي، برفضه بيع مقاتلات إضافية للمملكة العربية السعودية، السعوديين على طلب المعدات العسكرية من خارج الولايات المتحدة. غير أن ذلك لم يفسد علاقة المملكة بالولايات المتحدة. بل ازدادت علاقتها قوّة بالرئيس ريغن على وجه الخصوص. وشهد عقد الثمانينيات تعاون السعوديين والأميركيين مراراً وتكراراً لمؤازرة السياسة الخارجية الأميركية، لا سيّما البرنامج المعادي للشيوعية المعروف بمبدأ ريغن. وفي أفغانستان، وتشاد، ونيكاراغوا، وإيطاليا، كانت الشراكة السعودية عنصراً أساسياً من عناصر النجاح الأميركي.

وفي حين اعترفت إدارة ريغن الممتنة بالدور الذي أدته المملكة العربية السعودية، فإنه نادراً ما استرعى اهتمام الرأي العام. فانسجاماً مع التقليد العريق المتبع في الشرق الأوسط، عمل بندر بعيداً عن الأضواء، وكان صلة الوصل الأساسية بين المملكة والبيت الأبيض.

بيد أن مثل هذا النجاح لم يكن بمنأى عن الجدل، وأصبح بندر متورّطاً بشدة في قضية إيران – كونترا. وفي حين أنّ مقدار مشاركته في أنشطة وكالة الاستخبارات المركزية (سي آي أيه) السريّة موضع تخمين فحسب، فإنّ اتساع نطاق أنشطته

الدبلوماسية يثير الذهول: التفاوض على وقف إطلاق النار في لبنان، وإنهاء الحرب الإيرانية العراقية، والانسحاب السوفياتي من أفغانستان، ومتابعة إجراءات حرب الخليج، وحل مسألة الطائرة الأميركيّة المنفجرة فوق لوكربي، كل ذلك يدلّ بوضوح على بصمات بندر.

لعل أهمّ ما قام به بندر - مع أن نتيجته في المناخ القائم حالياً تكتنفها كثير من الشكوك - جهوده لإحلال السلام في الشرق الأوسط، وبخاصة بين إسرائيل والفلسطينيين. فقد خلّف بندر بهذا العمل أثراً لا يُمحى على المسرح العالمي كمهندس للسلام والحرب وقوّة هائلة للاعتدال في الشرق الأوسط.

وحينما عمل الرئيس بيل كلينتون على توطيد موقعه في التاريخ عن طريق تحقيق خرق في القضية الفلسطينية - الإسرائيلية في أواخر عهده، بذل بندر جهداً دؤوباً لإقناع ياسر عرفات المتشدّد بقبول صفقة لم تكن واردة حتى ذلك الحين. فالعروض التي قدّمها رئيس الوزراء الإسرائيلي إيهود باراك في كامب ديفيد وأخيراً في طابا أعطت الزعيم الفلسطيني 98 في المئة مما كان يأمل به، ومع ذلك، رفضها عرفات. وإذ وجد بندر نفسه غير قادر على الإفصاح علانية عما يجول في نفسه، اعترف لي والإحباط يعتريه: "ما حدث ليس مأساة - إنه جريمة!".

لدى تناولي هذه السيرة الذاتيّة، كان عليَّ أن أطرح على نفسي السؤال التالي: كيف أستطيع أن أصوّر بدقة رجلاً يشكّل لغزاً في جوهره؟ هل هو رجل سلام - كما سارع الرئيس مانديلا إلى القول - رجل مبادئ وضمير وصواب خُلُقيّ؟ أم يتعين تصويره، كما قد يشيّع بعضهم، بالنظر إلى دبلوماسيته السرية، في الكواليس، كأمير ميكيافيلّي - مجرّد من الأخلاق السياسية، ومدفوع بخدمة مصلحته الشخصية فقط، ماكر، وداهية ولا يستند إلى المبادئ الأخلاقية في سلوكه ونشاطه[5] - رجل يمكن القول عنه إنه عجّل في وقوع حرب الخليج وسهّل أيضاً جهود إدارة بوش الاستباقيّة وغزو العراق؟ الصفحات التالية، بما تحتويه من معلومات عميقة عن الأمير بندر الغامض، تتيح للقارئ إيجاد الإجابة عن هذه الأسئلة.

أقبلتُ على هذه السيرة بأسلوب غير عادي. فقبل ثلاثة أعوام، تلقيت من بندر دعوة مشوّقة للانضمام إلى بعض الرفاق العسكريين القدامى بغية لمّ الشمل. وكان احتمال تجديد الصداقات القديمة لا يقاوَم. ورغبة منّي في رؤية أصدقاء قدامى منذ أيام

كرانوِل، عبرت المحيط الأطلسي إلى مزرعة بندر في أسبِن. وهي مسكن فاخر مساحته 55 ألف قدم مربعة في جبال روكي التي يعجز عنها الوصف. أمضيت مع خمسة عشر شخصاً آخر عطلة نهاية أسبوع رائعة استرجعنا فيها ذكريات الأيام الخوالي. كنت وبندر في القيد نفسه والسرب نفسه - 96D. وكنّا نتشاطر حب المبارزة بالسيف، كان يمارس تلك الرياضة بالحسام، وكنتُ أفضل الشيش. وعندما انتهت عطلة نهاية الأسبوع، ودّعنا بعضنا بعضاً وعدنا أدراجنا إلى ضغوط حياتنا اليومية.

بعد ذلك بعامين، وعقب متاعب صحية غير مطمئنة، استقلت من عملي كمدير تنفيذي لشركة إنترنت، ورحت أقلّب أمور الحياة من جميع وجوهها. وإذ أدهشتني القصص التي سمعتها في مزرعة بندر في أسبِن، وبما أنّ لديّ اهتماماً في الكتابة، تساءلت عما إذا كانت سيرته قد كُتبت من قبل؛ كلا لم تكتب. أثارت الاحتمالات اهتمامي، فاتصلت بروب ديكون إليوت، وهو من الزملاء في كرانوِل المقرّبين جدّاً من بندر. أوضحت له ما أفكر فيه، وسألته إذا كان يعتقد أن الأمير سيوافق.

لم أكن أدري، في تلك اللحظة بالذات، أن ديكون إليوت مقيم في الواقع مع بندر في الرباط، في المغرب. وبالصدفة، وصلت رسالتي الإلكترونية فيما كان كلاهما يستعدان للمغادرة. وقد أوضح لي ديكون إليوت في ما بعد، "بما أنّ بندر كان يهمّ بركوب طائرته باتجاه، وكنت أذهب باتجاه آخر، لم تسنح لي الفرصة لمناقشة الأمر معه، نقلت له رسالتك الإلكترونية كما هي وقلت: "أرسل بيل سمبسون لي هذه الرسالة. رافقتك السلامة، اقرأها عندما يتسنّى لك ذلك". رأيت بندر بعد ذلك بأسابيع قليلة وسألته: "ما رأيك؟". قال بندر: "أرى أن ينضم بيل إلينا في جولتنا في أميركا. فنحن لم نلتقِ كما ينبغي منذ أكثر من ثلاثين عاماً. لنرَ كيف تمضي بنا الأمور".

وهكذا انضممت إلى بندر في جولة خطابات في الولايات المتحدة الأميركية ناقشنا خلالها أفكاري بشأن الكتاب لمدة أربعين دقيقة لا أكثر. لكن سرعان ما عادت صداقتنا القديمة إلى وهجها. وعندما عدنا أخيراً إلى واشنطن، قدّمني بندر إلى زوجته، الأميرة هيفاء بنت فيصل بن عبد العزيز آل سعود، فأثارت فكرة السيرة الذاتيّة حماستها. لم أكن أعرف وقتذاك أن بندر يفكر في الاستقالة من منصبه كسفير إلى الولايات المتحدة: لقد كان توقيت طرحي للفكرة مصادفة.

حينما انهمكت في أبحاثي عن قصة حياة بندر، وأجريت مقابلات مع زعماء وسياسيين ورجال دولة بارزين في العالم، أخذتني الدهشة. "إنها قصة ساحرة، إنها قصة رائعة"، قال لويس فريه، المدير السابق لمكتب التحقيقات الاتحادي (أف بي آي)[6]. تكرّرت تعليقات فريه مراراً على ألسنة أشخاص آخرين. مع ذلك لم أدرك سوى القليل من مقدار تأثير الأمير في المسرح الدولي. ومرّة بعد أخرى، أصابتني المعلومات الجديدة بالذهول. واتضح أنه مارس نفوذاً بخفّة وسريّة، راسماً في الواقع اتجاه أحداث العالم من وراء الستار.

إلا أن مثل هذا النفوذ لا يمكن ممارسته من دون حدوث متاعب، وفي حين يثني كثير من قادة العالم على عمل بندر، يردّ آخرون على النفوذ الذي مارسه بتهكّم. وعندما تحدّث الصحافيّ الكنديّ مات ولش عن قدرته وموهبته في تدبير المكائد، ولاحظ أنّ الأمير تورّط في كثير من أحداث السي آي أيه القاتمة في العالم، كتب يقول: "هذه الحماسة، والتحفّظ الانتقائي، والقدرة على الوصول إلى نظام حكم من القرون الوسطى، تجعل بندر تاجراً متجولاً ذا جاذبيّة كبيرة، عندما يشعر رئيس أميركي ما بأنه مكبّل اليدين بأمور مزعجة كالقوانين، أو الصحافيين، أو الحشمة"[7]. وتعرّض بندر أيضاً لانتقادات قاسية من عميل السي آي أيه السري السابق روبرت بير، الذي تذمّر قائلاً: "كان بوسع بندر أن يجول في البيت الأبيض وفي الكونغرس لإجراء محادثات متى يشاء. لقد لزمني أسابيع كي أحصل على موعد مع موظف صغير في مجلس الأمن القومي، وسيكون الحظ حليفي إذا حصلت حتى على دقائق قليلة. دعك من الكلام الفارغ عن الديمقراطية، وعن عاصمة العالم الحر. لقد كانت واشنطن أشبه بمدينة شركة، ولبندر مقعد في مجلس إدارتها. وإذا أردتَ ولوج المشارف الخارجيّة لفلكه، فمن الأفضل لك أن تلعب وفق قواعده"[8].

مع ذلك كان لأسلوبه الصريح وقع حتى في نفوس أشدّ منتقديه. ففي حين كانت العديد من الجماعات اليهوديّة في الولايات المتحدة عازمة على تقويض موقعه والقضية العربية عموماً، فإنّها كانت تصف بندر على غير رضى بأنّه "يحمل كل الصفات التي يُتوقّع أن يتصف بها الدبلوماسي: جذّاب، ولطيف، وسريع الخاطر، وغامض"[9]. بل إنّه يحظى باحترام صريح حتى داخل المجتمع اليهودي، الذي تلقّى الهزيمة في مناسبتين لا واحدة، عندما رعى بندر أولاً بيع مقاتلات "أف - 15" إلى المملكة

العربية السعودية في عهد كارتر، ولاحقاً بيع تكنولوجيا طائرات الإنذار المبكر والقيادة (أواكس) في عهد ريغن. فقد قال هنري سيغمان، المدير التنفيذي للمؤتمر اليهودي الأميركي: "إنه لا يقع في فخ مناقشة المحاجّات القديمة للنزاع العربي – الإسرائيلي. إنه دبلوماسي مختلف على نحو يبعث البهجة في النفس، إنه ليس إيديولوجياً، وإنّما براغماتي إلى حد بعيد"[10].

خلال إقامة بندر في واشنطن، جمعت وسائل الإعلام قاموساً من الأوصاف والتشبيهات، معزّزة باستهزاء وهم الخداع الذي يحيط به. ثمة كثيرون يرون فيه حرباء سياسية، بينما يثير ثراؤه الفاحش، وكرمه اهتمام آخرين. ويرى بعضهم أنّ موهبته في ممارسة النفوذ في واشنطن وقدرته التي لا نظير لها على الوصول تميّزانه كشخص ينظر إليه بعين الحسد والرهبة. ويركّز آخرون على حماسته للسلام. بيد أن آخرين يشيرون إلى اقترانه بالفضائح والمؤامرات. في بدايات العمل بهذا الكتاب، بهرتني قصة حياة بندر، وارتقاؤه من طفولة مشؤومة كنجل لأَمَة، إلى طيّار حربيّ ورجل دولة. غير أنّ طبيعة شخصيته المحيّرة وشديدة التعقيد هي التي استهوتني أيما استهواء في النهاية.

وأعتقد أنّ هذه التعقيدات هي التي تجعله رجل دولة قوياً وناجحاً. غير أن إخلاصه ودفأه وسخاءه هي الصفات التي تجعل منه رجلاً مرموقاً حقاً. إنّني أعتبر بندر صديقاً، وأعتبر نفسي محظوظاً لأنّني أشغل حيّزاً في حياته، ولأنّه يشغل حيّزاً في حياتي. إنه شخصيّة رائعة ذات حضور طاغٍ، وأنا على قناعة تامّة أن حتى من لا يعرفه سيشدّ إلى مسار حياته المدهش والتأثير الاستثنائي الذي بلغته إنجازاته.

بيل سمبسون

يوليو 2006

من هو الأمير بندر؟

"كل الناس يحلمون، لكن ليس على سوية واحدة. فمن يحلمون ليلاً في تجاويف عقولهم الرماديّة يستيقظون في النهار ليجدوا أن أحلامهم باطلة. لكن حالمي النهار أناس خطرون، إذ قد يؤدّون أحلامهم بعيون مفتوحة كي تتحقّق".

تي. إي. لورانس

"أعمدة الحكمة السبعة"[1]

قبل سبع وخمسين سنة، في خيمة تقليدية بدويّة، أنجبت أَمَة شابة طفلها الوحيد، وكان ذكراً. ولولا جزئيّة واحدة لما عنت ولادة طفل لأمّ شابة ذات منزلة متواضعة، شيئاً سوى لِنفر قليل. بيد أن تلك الجزئيّة كانت مهمّة، لأن والد الطفل هو الأمير سلطان بن عبد العزيز آل سعود، أحد أفراد الأسرة المالكة، ونجل مؤسس المملكة العربية السعودية، الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود (ابن سعود).

في ذلك الوقت، كانت المملكة العربية السعودية نفسها في مهدها، إذ إنّ ابن سعود لم يتمكّن سوى في سنة 1932 من توحيد المناطق القبلية على اختلافها في وسط شبه الجزيرة العربية، وإعادة تسمية البلاد باسم المملكة العربية السعودية، وتعيين نفسه أول ملك عليها.

لم يكن تكوين المملكة العربية السعودية يسيراً. ففي بداية القرن التاسع عشر، حكم أفراد من قبيلة آل سعود نجد، وهي منطقة وسطى معزولة جغرافياً، كانت الدرعيّة عاصمتها. في سنة 1811، طلب السلطان العثماني من محمد علي، حاكم مصر، التي كانت آنذاك جزءاً من الإمبراطورية العثمانية، خلع آل سعود. فأرسل محمد علي اثنين من أبنائه لغزو نجد، وفي سنة 1818، استولى ابنه

الثاني، إبراهيم باشا، على الدرعية. نُفي حاكمها، عبد الله بن سعود، إلى القاهرة أولاً ثم إلى اسطنبول، حيث قُطع رأسه. وبموته، ماتت أيضاً الدولة السعودية الأُولى.

نشأت دولة سعودية ثانية في سنة 1824، عندما طرد تركي بن عبد الله ابن سعود بن عبد العزيز بن محمد آل سعود، المصريين من نجد، واتخذ الرياض عاصمة له. وعلى الرغم من أن هذه الدولة الثانية ازدهرت في أول الأمر، فإنّ النزاعات الداخلية أدّت إلى انتقال القيادة داخل العائلة حتى آلت إلى فيصل بن تركي في سنة 1843، فاستتبّ النظام. غير أن الفوضى والصراع عادا إثر وفاته في سنة 1865. وفي سنة 1891، هزمت قبيلة الرشيدي العثمانية قبيلة آل سعود، ما أجبر زعيمها، عبد الرحمن – جدّ الملك الحالي عبد الله وأبو جدّ الأمير بندر – على الفرار إلى ما أصبح الكويت الآن. وقد نُفي مع عائلته، بمن فيهم ابنه عبد العزيز. وبنفي عبد الرحمن، انتهت الدولة السعودية الثانية.

أمضى عبد العزيز ما تبقّى من طفولته في الكويت، حيث حضر مجالس الحكم اليومية، مجلس أمير الكويت، فتعلّم منه أمور الدنيا الواسعة. وفي مسعى لإعادة المُلك إلى آل سعود، انطلق عبد العزيز في سنة 1901 مع نفر من المحاربين بغية استرجاع الرياض. وكان الحظ والجرأة إلى جانبه عندما تسلّق أسوار الرياض مع عشرين رجلاً فقط ليلة 15 يناير 1902، وكَمَنَ بانتظار الحاكم الرشيدي، عجلان. وفي صباح اليوم التالي، هجم عبد العزيز وعصبته المغيرة، فقتل عجلان وشن حملة أدّت في آخر الأمر إلى نشوء الدولة السعودية الثالثة. وفي الأعوام الثلاثين التالية، أحكم ابن سعود سيطرته بالتدريج على كل منطقة من المناطق القبلية. وفي سنة 1932 ولدت المملكة العربية السعودية.

على الرغم من أن بندر بن سلطان ولد في أسرة ابن سعود المالكة، فإنّ مستقبله لم يكن مؤكّداً البتّة. فقد كانت أمّه خيزران، وهي فتاة داكنة البشرة من عامة الناس في السادسة عشرة من العمر، من محافظة عسير، الواقعة في الطرف الجنوبي من المملكة العربية السعودية. وهي مكان موحش يضمّ سهولاً وسبخات مالحة شاسعة، وجبالاً وعرة، وأودية سحيقة. بيد أن موانئها البحرية أتاحت قروناً من التفاعل مع اليمن والقرن الإفريقي على السواء.

مع أن أباه، الأمير سلطان، هو أحد السديريّة السبعة(*)، أبناء ابن سعود والأميرة حصّة بنت أحمد السديري، وهي إحدى زوجات الملك عبد العزيز المفضّلات، فقد كانت ولادة الصبي منكودة الطالع. ويتحدّث بندر الآن بصراحة تامّة عن مكانه في الأسرة السعودية المالكة قائلاً، "إنّني مولود غير شرعي لأمّ سرِّية".

على الرغم من أن أمه السمراء كانت مجرد جارية في بيت أبيه ولم يكونا متزوجين، فإن الشرع الإسلامي يحمي الأبناء غير الشرعيين إذا اعترف بهم والدهم، وقد أقرّ أبو بندر بالولادة. ويروي ذلك بندر قائلاً: "اعترف أبي بحمل أمي قبل ولادتي... ولذلك ولدت في مضارب الملك عبد العزيز في الطائف. وقد سمّاني الملك عبد العزيز بنفسه إلى جانب أربعة أبناء آخرين". وبذلك أثبت الملك في الواقع نسب الفتى إلى الأسرة المالكة. مع ذلك استمرّ هناك شيء من التفرقة، أي إبعاد الأمير عن الأبناء الآخرين المولودين لزوجات الأمير سلطان العديدات.

لم تخلُ ولادة طفل لأمير عربي وسُرِّية من شجن، مع أنّها ربما تحمل شيئاً من الرومانسية. فقد كانت أمّ بندر جارية قبل أن تصبح خليلة للأمير سلطان البالغ من العمر عشرين عاماً، وكان قد عُين والياً على الرياض في سنة 1947. يتذكر بندر ذلك فيقول، "لم تكن أمي قريبة لأي زعيم قبلي يمدّني بالقوّة، ولا من أسرة مالكة". ولما كانت خيزران تقيم في محافظة عسير السعوديّة، غير البعيدة عن إفريقيا، فقد كانت داكنة البشرة، وتلك من القسَمات التي نقلتها إلى ابنها بندر، الأكثر سمرة من إخوته بشكل ملحوظ. وقد شاع في الصحافة الأميركية اعتقاد خاطئ بأنّ والدة الأمير إفريقية. وغالباً ما يشعر بندر بمتعة غير عاديّة من معرفة حقيقة الموقف، فيما تنهمك وسائل الإعلام في التخمين الخاطئ، من دون أن يحاول البتة إيضاح الخلفية الجغرافية لتراث أمه. وقد اعترف بقوله، "تركت الأمور تجري لحالها مدة طويلة، لأنّني كما تعلم

(*) السديريّون السبعة هم سبعة أشقاء، كلهم أبناء مؤسس المملكة العربية السعودية الملك عبد العزيز بن سعود والأميرة حصة بنت أحمد السديري، ومن هنا جاء الاسم. منذ تولّي الملك فهد العرش سنة 1982، أصبحوا يشكّلون الحلف الأقوى ضمن العائلة السعودية الحاكمة. ويضم السديريّون السبعة: الملك فهد بن عبد العزيز آل سعود، والأمير سلطان بن عبد العزيز آل سعود، والأمير نايف بن عبد العزيز آل سعود، والأمير عبد الرحمن بن عبد العزيز آل سعود، والأمير تركي بن عبد العزيز آل سعود، والأمير سلمان بن عبد العزيز آل سعود، والأمير أحمد بن عبد العزيز آل سعود.

الآن، أســـتمتع بمعـــرفة أمر يتحدث العالم بأكمله عنه بطريقة خاطئة وأعلم أنه ليس صحيحاً".

رغـــم أن الـــصحافة تصرّ على أن الأمير سلطان لم يكن يعترف بابنه، فإنّ بندر يـــؤكّد خـــلاف ذلك بالقول: "إن عدم اعتراف والدي بـــي لا يعدو أن يكون عدم قـــدرتي علـــى الوصول إليه". فالاعتراف بوضعه تم عندما سمّاه الملك. ويوضح ذلك: "كلمـــا كـــان يـــولد طفل في العائلة المالكة في تلك الأيام، كان يخصص له راتب. وأحسب أنه كان آنذاك 10 دولارات أو نحو ذلك. وكان ذلك الراتب يأتي من وزارة المالـــية، لذا ما إن يسمّي الملك طفلاً، حتى يبلّغ الديوان الملكي ذلك إلى وزير الداخلية لـــبدء دفع راتب للولد وأمه. وكانت أمي تتلقى ذلك الراتب. لذا يشكّل ذلك اعترافاً رسمياً بوضعي في ذلك الوقت، واعترافاً من أبـــي في الواقع. أما أنني لم أكن أعيش مع أبـــــي فإنّـــه لا يعني أنه لم يعترف بـــي". ومع ذلك، كان الاتصال ضئيلاً بين بندر وأبيه، وهذا واقع أقرّ أنه مشكلة استغرق التغلّب عليها أعواماً، لأنه لم يكن معه بالمعنى المـــاديّ[2]. وتشرح ابنة بندر، الأميرة ريما، ذلك بالقول: "لقد حاولت وسائل الإعلام جعل الأمر يبدو إقصاء متعمّداً ولم يكن كذلك. كان مجرد أمر واقع. فمن الطبيعيّ أن يكـــون أولاد المـــرأة المتـــزوّجة والمقيمة في البيت أقرب إلى الأب، لذا ليست للنساء المقيمات خارج البيت أو المطلّقات فرصة الاتصال نفسها"[3].

أصـــبح والد بندر، الأمير سلطان - وزير الدفاع منذ عهد بعيد - ولياً للعهد في ســـنة 2005، أي عـــند وفـــاة أخيه الملك فهد. وسلطان أيضاً أخ غير شقيق للملك عـــبد الله، وهـــو بـــلا ريب شخصية قوية ونافذة في آل سعود. ولم يستهن بندر قط باعتراف أبيه به - وبشرعيّته - قائلاً بكثير من التأنّي: "ثمة أمر بشأن أبـــي لن أنساه أبداً، وهو أنه لم يدعني آتي إلى الدنيا والشكوك تحيط بمن هو والدي"[4]. مع ذلك يخفي هـــذا القـــول الجريء أنّ المسافة التي كانت تفصله عن أبيه وفّرت عنصراً أساسياً في شخـــصه، وجانباً من جوانب شخصيته يدفعان رغبته الدائبة في الإنجاز، وإثبات نفسه أمـــام أبيه. ولعل من المفهوم إزاء هذه الخلفية أنّه لم يكن على قدم المساواة مع إخوته الأمراء، على الرغم من أنه ولد في العائلة المالكة.

وكما أوضح بندر: "بموجب الشريعة الإسلامية، إذا كانت لديك جارية أو سُرِّية وضـــاجعتها، ولم تُـــرزق أولاداً، تبقى جارية". ومن الواضح أن أمّه، كانت جارية،

فالـــرقّ لم يلغَ في المملكة حتى سنة 1962. مع ذلك، يتابع بندر: "حالما تصبح حاملاً وتعتـــرف أنت بحملها قبل أن تضع طفلها، تتحرّر عندئذ بصورة تلقائيّة. لكن يتعين علـيك مـــع ذلك التعامل مع الحقائق الثقافية: ستكون دائماً الولد ذا اللون المختلف، ولـــداً لم يتـــزوج والداه قط"[5]. وقد تردّدت كلمات بندر البسيطة على لسان ديفيد أوتـــاواي، من صحيفة "واشنطن بوست"، الذي قال، "نشأ بندر طفلاً وحيداً في بيت أمـــه في الـــرياض، لكن مع اثنين وثلاثين أخاً وأختاً غير أشقّاء، أبناء زوجات سلطان المتعدّدات. وكان الولد الداكن البشرة ذا الشعر الأجعد، المنعزل"[6].

نشأ بندر في السنوات الإحدى عشرة الأولى من عمره، في كنف أمه وخالته لولو في بـــيت ذي مصباح واحد، ومرحاض واحد. ومع أن أم بندر لم تلتحق بمدرسة قط، فقد علّمت نفسها القراءة والكتابة. وانتقلت عزيمة خيزران وقوة شخصيّتها إلى ولدها. وتؤكّد الأميرة هيفاء، زوجة بندر أنّ "أمّ بندر من العوامل الكبرى في حياة ولدها. إنه يـــشبهها في رغبتـــه في الـــنجاح. فهي ذكية جداً، وقد زرعت فيه كل شيء. ولولا الطريقة التي ربّته بها، لما كان بندر كما نعهده اليوم، ذلك أمر مهم جداً"[7].

في تلـــك الـــسنوات، كانت صلة بندر بأبيه ضعيفة أو معدومة، واقتصرت على رؤيـــته في عطـــلات نهاية الأسبوع وتقبيل يده في اللقـــاءات العائلية. ومع ذلك، أشار بندر مراراً إلى أن تلك الحال "علمتني الصبر، وأكسبتني آلية دفاع بـــألاّ أتوقّع أي شيء. كنت أعتقد في ذلك الوقت أنّـــني إذا لم أتوقـــع أي شيء ولم أحصل على أي شيء، فلن أصاب عندئذ بخيبة أمل"[8].

رغـــم أنّ الصغير بندر كان بعيداً عن البلاط الملكـــي، فإنّه كان ينظر إلى والده باهتمام شديد. ويروي قصة سماعه بمرض ألمّ بأبيه، وانـــزعاجه من ذلك: "عندما كنت في التاسعة تقريباً، كنت أعيش مـــع خالتي وسمعت من النساء في البيت أن أبـــي مـــريض. لم أعرف مقدار مرضه أو شدّته، وكنت أربـــأ بنفـــسي أن أسأل الناس أو أظهر لهم أنّني لا



بندر في عمر السادسة
الصورة الأولى المعروفة للأمير

أعلـــم". كان يعرف سائقاً يعمل لدى أبيه، لذا كما أوضح الأمير: "رأيته يعرّج على البيت فناديته وسألته: *سيدي، كيف حال أبـــي؟*".

بـــدا التأثر واضحاً على وجه السائق الذي نقل الحديث الذي دار بينه وبين الفتى إلى الأمـــير ســـلطان، فأرسل في طلب ابنه على الفور. قامت خالة بندر بتنظيف ابن أختـــها وتهيئته استعداداً لزيارة أبيه. وكانت تلك المرة الأولى التي يرى فيها بندر أباه طـــريح الفـــراش. أومأ سلطان إليه بالاقتراب وأدناه منه. يتذكر بندر ذلك بوضوح، "كنت في قمة السعادة، في الحقيقة، شعرت كأنه أعطاني العالم كله"[9].

بعـــد هـــذه الزيارة بوقت قصير انتهت عزلة الأمير عن العائلة. كان الملك عبد العزيز قد توفي قبل ذلك بعدة سنوات، وتقرّر أن يقيم بندر وأمه في القصر مع جدته، الأمـــيرة حصّة. ويقول بندر: "كان قراراً عملياً، لكنه بدّل حياتي كلياً". كانت حصّة توقظ حفيدها في الخامسة من صباح كل يوم لأداء الصلاة، وكانت بعد الصلاة تلقّنه الـــتاريخ والحكايات الشعبية المحيطة بآل سعود. ويصف بندر ذلك: "لم تكن متعلّمة، لكنها تحفظ القرآن عن ظهر قلب". كان يجلّها، وقد بادلته المحبّة بالمثل، وجعلته يشعر بأنـــه مميَز. ويقول عنها من دون تردد: "كانت الشخصية الأشد تأثيراً في حياتي. ومن الممـــتع مجالـــسة هذه المرأة، زوجة مؤسس المملكة العربية السعودية التي عرفت كل أولـــئك الرجال الكبار والعظماء، مثل الملك فيصل، يوم كانوا أطفالاً. كانت توقظني قبل صلاة الفجر كل صباح لأصلّي معها. ويعني ذلك عادة أنّ أمامي نحو ساعة واحدة علـــى الأقل من الفراغ قبل أن أبدأ الاستعداد للذهاب إلى المدرسة. لذا كنت أجلس معها فتروي لي القصص"[10].

يقـــول العميد فيصل مفقي، وهو صديق حميم لبندر منذ الطفولة، إن الأمير أظهر مـــنذ كان فتى اهتماماً كبيراً بتاريخ آل سعود: "كان يحب الجلوس في المجلس، مصغياً إلى مـــا يـــرويه الشيوخ من قصص عن جده، وكان يطرح عليهم أسئلة بطريقة تثير دهـــشتهم. كـــان مفـــتوناً بجده، الملك عبد العزيز، إلى حدود استحواذه على فكره. وباســـتماعه إلى كبار السنّ أصبح ملمّاً بكل ما يتعلق بجدّه، الذي يجلّه كثيراً". ويتابع مفقي قائلاً: "أظهر نضجاً وتعطّشاً للمعرفة يجاوزان سنه".

حيـــنما أقام بندر في القصر، أصبح قيام علاقة أوثق مع والده أمراً ممكناً. ويذكر مفقـــي أن بندر كان منذ طفولته يجول في الصحراء على ظهر جواد مع الأمير سلطان.

"فعلّمه الصيد بالصقور والرماية. وكان الأب حريصاً على أن يتعلم بندر مهارات العيش في الصحراء كالبدو. كانا يمضيان اليوم كله معاً في الصحراء، حيث ينطلقان عند بزوغ الفجر في صقعة الصباح، ويعودان في وقت متأخر من المساء، وأحياناً يبيتان ليلتهما في خيام بدوية"[11].

يذكر بندر إحدى رحلات الصيد، وقد بدأت أولاً باختيار الصقر. وكان آخر من اختار من بين إخوته، وبعد أن اختيرت كل الطيور الجذّابة، لم يتبقّ له سوى طائر رثّ ذي ريش أسود وبني داكن أثار ضحك الجميع. لكنه يذكر باعتزاز أن الصقر نفسه أبدى براعة في الصيد بزت كلّ أقرانه من الصقور المنتفشة في ذلك اليوم. وربما رأى بندر شبهاً بينه وبين صقره.

التقى العميد مفقي وبندر يوم كانا تلميذين في مدرسة في معهد الرياض. ووفقاً لمفقي، كان بندر واحداً من ألمع الطلبة في المعهد. "كان سجلّه الأكاديمي رائعاً. وكان أيضاً طالباً محبوباً جداً... جذّاباً، وأنيساً، ومن الممتع أن يكون في الجوار. كان شاباً ناضجاً وهادئاً ومتزناً. لم يكن سريع الغضب ولم يخرج عن طوره قط، مؤثراً تجاهل المسيء إليه والانصراف عنه". ويتذكّر مفقي على وجه الخصوص حب بندر للطيران، وكيف كان كلما مرت طائرة فوق المدرسة يلتفت الأمير إليه ويقول: "يوماً ما سأكون طياراً"[12].


بندر في الثالثة عشرة

حين كان بندر في الثالثة عشرة، عُيِّن والده وزيراً للدفاع والطيران. وبعد ثلاثة أعوام، وبدافع من عزمه على أن يكون طياراً، زوَّر بندر سنّه في طلبه، واختير للتدرّب على الطيران في كلية كرانوِل التابعة لسلاح الجو الملكي في إنكلترا. ظنّ كثيرون أنّها خطوة لإرضاء أبيه، وكانت أيضاً انعكاساً لوضعه ضمن العائلة، كما أسرّ صديق حميم للأمير: "لم يُرسل إلى إيتون، بل إلى مدرسة عسكرية". ولعل من المصادفة – أو ربما القصد – أنّ بندر أرسل ثلاثة من أبنائه إلى إيتون.

تعلّم بندر الاعتماد على الذات في سن مبكّرة و لم يكن يتوقّع أي شيء من والده. ولأنّه أمضى سنواته الأولى خارج العائلة، لم يكن يشعر بالارتياح من موقعه كأمير، ولطالما أحسّ بشيء من الشك في الاهتمام الذي يظهره الناس له: "لم أكن أشعر أنني فعلت أي شيء لأستحقه إلا من طريق المصادفة والظروف. أصبحت أميراً لأن أبي أمير. لم أعمل يوماً واحداً في حياتي لأكون أميراً. قارن ذلك بشعوري عندما نلت رتبة ملازم ثان. كنت فخوراً للغاية"[13].

وهكذا في مارس 1967، التحق بندر بكلية كرانوِل، وهناك تعرّف إلى الواثق من نفسه، و"الحكواتي" المرح، الذي عرفه آنذاك باسم "بِن".

كان التحوّل من أمير إلى تلميذ ضابط في أكاديمية سلاح الجو الملكيّ العسكريّة الأساسيّة في كرانوِل أمراً مدهشاً. فبدلاً من أصوات الوطن المألوفة والحياة السهلة والمميّزة كفتى، حلّ الواقع القاسي لمعسكر التدريب العسكري، وهو محيط عدائي ومربك لا قيمة فيه للمكانة، بل تشكّل المحافظة على النفس في هذه الآلة الغريبة ضرورة متنامية. لقد ولّت الراحة المعهودة في الثوب العربي والخفّ، وولى دفء الشمس، وحلت محلهما قبّة منشّاة خانقة، والزي "الأزرق الزغب" المسبّب للحكّ، وغير الملائم، وغير المريح على الإطلاق، الذي يتكوّن من سترة سلاح الجو الملكي وبنطاله القياسيين. وانتعلت قدماه "أداتي تعذيب لا تلينان"، جزمة سلاح الجو الجلديّة السوداء الثقيلة ذات النعل الذي تبلغ سماكته إنشاً واحداً تقريباً. لم يكن بندر معتاداً على المناخ البريطاني، وعلى الرذاذ المتواصل وصقعة صباحات لينكولنشير، وقد عبّر عن ذلك لاحقاً بقوله إنّ البرد لازمه ستة أشهر بلا توقّف.

كان اختياره للالتحاق بكليّة سلاح الجو الملكي بكرانوِل إنجازاً عظيماً، بقدر ما كان يمكن لضابط في الجيش البريطاني أن ينظر إلى اختياره للالتحاق بساندهرست، أو لأميركي أن ينظر إلى اختياره للالتحاق بوِست بوينت أو أكاديمية سلاح الجو في كولورادو سبرنغز. وقد حفزته رغبته في الطيران على تزوير تاريخ ميلاده، "كنت أتحرّق شوقاً للانضمام إلى سلاح الجو"، كما قال بندر بحماسة. وقد اعترف الأمير بأنّ تاريخ ميلاده الرسمي في 2 مارس 1949 مزيف، إذ يجب أن يكون في السابعة عشرة من العمر لينضم إلى سلاح الجوّ. وقد أقرّ بأنه أقنع طبيبه بتغيير شهادة ميلاده. لذا حين انضم بندر إلى سلاح الجو، كان عمره في الواقع ستة عشر عاماً لا سبعة عشر، ما

يجعل تاريخ ميلاده أواخر سنة 1950. وذلك ما أكدته زوجته، الأميرة هيفاء، لاحقاً. وعقب هذا الاعتراف، لاحظ بندر أنّ "هذا هو الجزء المضحك في الأمر، فعمي الملك، وعمـي الآخـر ولي العهد، وعمي الثالث النائب الثاني لرئيس الوزراء، وأبـي وزير الدفاع، فلماذا يكون التاريخ مشكلة؟ لأنني لا أستطيع الالتحاق بسلاح الجوّ لو بيّنت شـهادة ميلادي أنني لست في السابعة عشرة". كانت تطلّعات طلاّب الكليّة الحربيّة الشبان عالية، وبرنامج التدريب الصارم يحمّل الجميع أعباء كبيرة جدّاً. لذا، فإنّ مجرد التمكّن من إتمام الدورة بالنسبة إلى امرئ تعوقه معرفته المحدودة باللغة الإنكليزية، يعتبر مـشرّفاً في حد ذاته فما بالك بتحقيق أداء جيّد. وينطبق ذلك بصورة خاصة على فتى في السادسة عشرة من العمر.

كانـت حياة بندر وزملائه في السرب D، الدفعة 96، خاضعة لسيطرة رئيسهم المباشـر الرقيب كِن آدامز. وفي مشهد مألوف من دون شكّ لدى العسكريين في كل أنحاء العالم، أياً يكن السلك، وأياً يكن البلد، كان يوم بندر الأول في كرانونِ قاسياً.

وقف الرقيب آدامز أمام مجموعته من الشبان المرتجفين، ثمّ تقدّم بسرعة نحو الأمير الـشاب، لا يفصل وجهه عن وجه صاحب السمو الملكيّ الأمير بندر بن سلطان بن عبد العزيز آل سعود سوى بضعة إنشات، وصرخ: "عندما أقول قف، يا سيد سلطان، أعـني قـف لحظـة أشاء أنا، لا لحظة تشاء أنت. أعني اليوم، لا غداً! إنك لست في الصحراء الآن، أيها الشابّ المريع. اعتدل الآن وإلا ستجري حول هذه الساحة إلى أن أقول قف. هل فهمت؟!".

"نعم سيدي"، أجاب بندر.

"لم أسمع ما تقول"، صاح الرقيب آدامز.

"نعم سيدي"، صرخ الأمير المبتل، والأمل يحدوه أن يركّز معذّبه على أي طالب عسكريّ آخر.

لكـن الرقيب آدامز لم ينصرف عنه: "لا تنادِني سيدي، أنا أذكى من أن أدعى سيدي، نادني بحضرة الرقيب!".

بعد الانصراف من ساحة العرض، سار بندر وزملاؤه الطلاب سريعاً لا إلى مبنى الكلـيّة (كوليدج هول) الرائع، وإنما إلى الأكواخ القديمة المعروفة باسم ساوث بريك لاينـز التي غدت محل إقامته في الأشهر الستة التالية. كانت تلك الأكواخ تضمّ بعض

المراحيض والحمّامات التي تلي مباشرة المدخل المؤدّي إلى المهاجع. وكان لكل فرد ركن بجانب الفراش، وخزانة صغيرة، وسرير. وفي نهاية الكوخ غرفة جلوس شديدة التقشّف[14].

كانت أمام الشبّان الآن ساعة من أعمال التنظيف وإعداد متعلّقاتهم الشخصية قبل جولة التفتيش التي سيجريها الرقيب آدامز وكيّ الصدرات والقمصان والملابس الرياضية وطيّها في مربّعات ضلعها 9 إنشات. كل ذلك من دون مساعدة من أحد. لا عجب إذاً، في أن يجد بندر المكان بيئة عدائية. وعندما حاول تطبيق مهاراته على متعلّقاته، كان أقرانه قد بدأوا بتنظيف الكوخ، والتثبّت من لمعان النوافذ، وتنظيف جميع السطوح من الغبار والبقع، ومسح الأرضيّات لتصبح لامعة كالمرآة، وتنظيف بلاط حجرة الحمّامات الأبيض، والمراحيض، وحجرة الاستحمام المشتركة حتى تتلألأ. وكان ينتظر أن ينهض كل واحد بنصيبه الكامل في العمل، من دون أي استثناء.

على غرار سلاح الجوّ نفسه، كان كل نشاط في كرانوِل يقاس في سباق مع الزمن، وذلك جزء من برنامج صارم يملأ كل ثانية من وقت التلميذ الضابط الشاب على امتداد ثلاثة أشهر كاملة. كان حضوره مطلوباً في ساحة العرض لأداء التمارين، ثم في قاعة الرياضة للتدريب البدني القاسي، أو الجري في حقول لينكولنشير المحروثة، وهو تمرين يعود فيه المشاركون منهكين ومبللين بالعرق وملطخين بالأوحال. وكانت الدراسة في ويتيل هول تشمل الشؤون الراهنة، ودراسات استراتيجية، والمقرر بكامله في مادتي الرياضيات والعلوم، واللغة الإنكليزية. وكانت الدروس الأكاديمية بمثابة فترة استراحة مستحبة من نظام التمرين البدني المرهق.

كان الغرض من التشديد الأولي على التمارين، والسير جيئة وذهاباً على الساحة نفسها المغطاة بالحصى، بالإضافة إلى أعمال التفتيش الدقيق على الملابس والكوخ، غرس روح الانضباط واحترام الأوامر العسكرية بلا تردد. وكان أيضاً محاولة لدفع التلاميذ الضبّاط إلى بذل أقصى ما لديهم من قدرات بدنية وذهنية، وفي الوقت نفسه إشاعة شكل من أشكال التماسك بين المجموعة المتباينة من الأعضاء الجدد، والمختارة من جميع أرجاء العالم الاستعماري السابق: سنغافورة، وروديسيا، وجنوب إفريقيا، ومالطا، وكينيا، وسيلان، ومن كل الجزر البريطانية. أضف إلى ذلك عدداً قليلاً متفرقاً من الطلبة العسكريين الأجانب، فتصبح الحصيلة جلبة من الأصوات أشبه بالضوضاء في

مستشفى للمجانين، بالنسبة إلى الشاب السعودي الذي بدأ منذ قليل فقط يتعلم "اللغة الإنكليزية الفصحى".

عندما سئل جون وُترفول، وهو تلميذ ضابط زميل، كيف تعامل بندر مع الانتقال إلى الحياة العسكرية، أجاب: "كان عليه القيام ببعض التكيّف، وهو أمر فعلناه جميعاً. فذلك جزء من تقاليد كرانوِل، جمع كل هؤلاء الأشخاص من خلفيات مختلفة والقسوة عليهم"[15]. وعن الأيام الباكرة قال مارتن شوري، وهو زميل آخر في السرب D الدفعة 96: "ما لم أدركه هو مقدار الصدمة الثقافية التي كابدها الأمير بندر عند وصوله إلى كرانوِل. وقول ذلك يتطلّب أن تعرف حال المملكة العربية السعودية في سنة 1966 - كانت السيارات قليلة جدّاً فيها - حيث لا تزال مجتمعاً بسيطاً قياساً بالمملكة المتحدة. لم يكن الأمر سهلاً علينا في كرانوِل، ولا شكّ في أنّه كان أصعب على الأمير بندر من أي شخص آخر"[16].

في الأسابيع الأُولى من التدريب، بعد الوصول، كان الرقيب آدامز يعنِّف الطلاب الشبان بمجموعة من التعابير السوقيّة التي تتفاوت حدتها، لوضع هؤلاء الشبان غير المتمرّسين تحت الضغط وضمان سيطرته على الانضباط. ومع ذلك، كان بندر يكنّ لمدربه مودة عارمة على الرغم من تجاوزاته المتكررة.



يتم تفقده في قاعدة "كرانول" التابعة لسلاح الجو الملكي البريطاني

ضحك الرقيب آدامز حين تذكر: "كما تعلم، كان [بندر] شقياً إلى حد ما في إحدى المراحل". فقد اعتاد الطلاب السعوديون في الدفعات الأعلى على دعوة بندر إلى مشاركتهم في الطعام في لينكولن، وذلك أمر ممنوع تماماً على الطلاب في أسابيع التدريب الأولى. وكان بندر يختفي ببساطة ويدع رفاقه يغطّون غيابه. لكن سرعان ما نُمي إلى آدامز أنّه على الرغم من أنّ الجميع يلازمون ثكنتهم في تلك الأسابيع الأولى من التدريب، فإنّ بندر ينسل لتناول وجبات طعام مع أقرانه السعوديين. وعلم آدامز لاحقاً أن

الـشاب بـندر قال بسذاجة لزملائه الطلاب: "لا شأن لي بهذا العمل المنـزلي، يمكـنكم أن تفعلوا ما تريدون، أمّا أنا فإنّني هنا لأطير فقط". ويقول آدامز: "كان الـشبان الآخرون يقومون بعمله فضلاً عن عملهم، ولا يقولون شيئاً كي يحموه". ويـتابع موضّـحاً: "بعد أن علمت بالأمر، دخلت كوخ بندر مساء أحد الأيام". وعندما سأل آدامز أين هو، ساد صمت مطبق، لا جواب. فأمر أن يمثل بندر أمامه في الـصباح كـي يـؤدي واجبات إضافية، واجبات جعلت بندر يقوم بتنظيف المراحيض لعدة أسابيع.

يـتابع آدامـز: "كان يتمتع بقدر عالٍ من روح الدعابة. لن أنسى أبداً أنّني كنت أؤنبه على أي شيء وكان لا ينفك يضحك". وبعد خلاف الرقيب مع الأمير بشأن الواجبات المنـزلية، استعان بزميل جدّي للغاية هو الأمير مقرِن. شرح آدامز لمقـرِن المـشكلة مـع بندر والتأثير السلبـي في الطلاب العسكريين السعوديين الآخـرين. فأوضـح ذلك الزميل السعودي للأمير الشابّ كيف يجب أن يتصرّف تمامـاً. وهكذا جاء التحوّل، كما يقول آدامز، ملحوظاً وحدث بين ليلة وضحاها تقـريباً. أصبح بندر الطالب العسكري المثالي. ويقول آدامز: "كما تعرف، أصبح أداؤه ممـتازاً بعـد ذلك، وكان دائماً ذكيّاً وأنيقاً جداً، وكان فوق ذلك وسيماً! اعتدت أن أقول له: *بمحيَّاك ومالك، يمكنك أن تشق طريقك إلى النجاح*!"[17]. بل عـندما بلغ بندر فصله الدراسي الأخير، اختير ضابط صف من حملة أعلام الكلية، وتلك مرتبة مرموقة بالنسبة إلى الطلاب المختارين للدفاع عن علم الملكة في كليّة سـلاح الجـوّ الملكيّ في كرانوِل، مرتبة تتطلّب أرقى مستويات الهندام الشخصي والتدرّب على المشية العسكريّة.

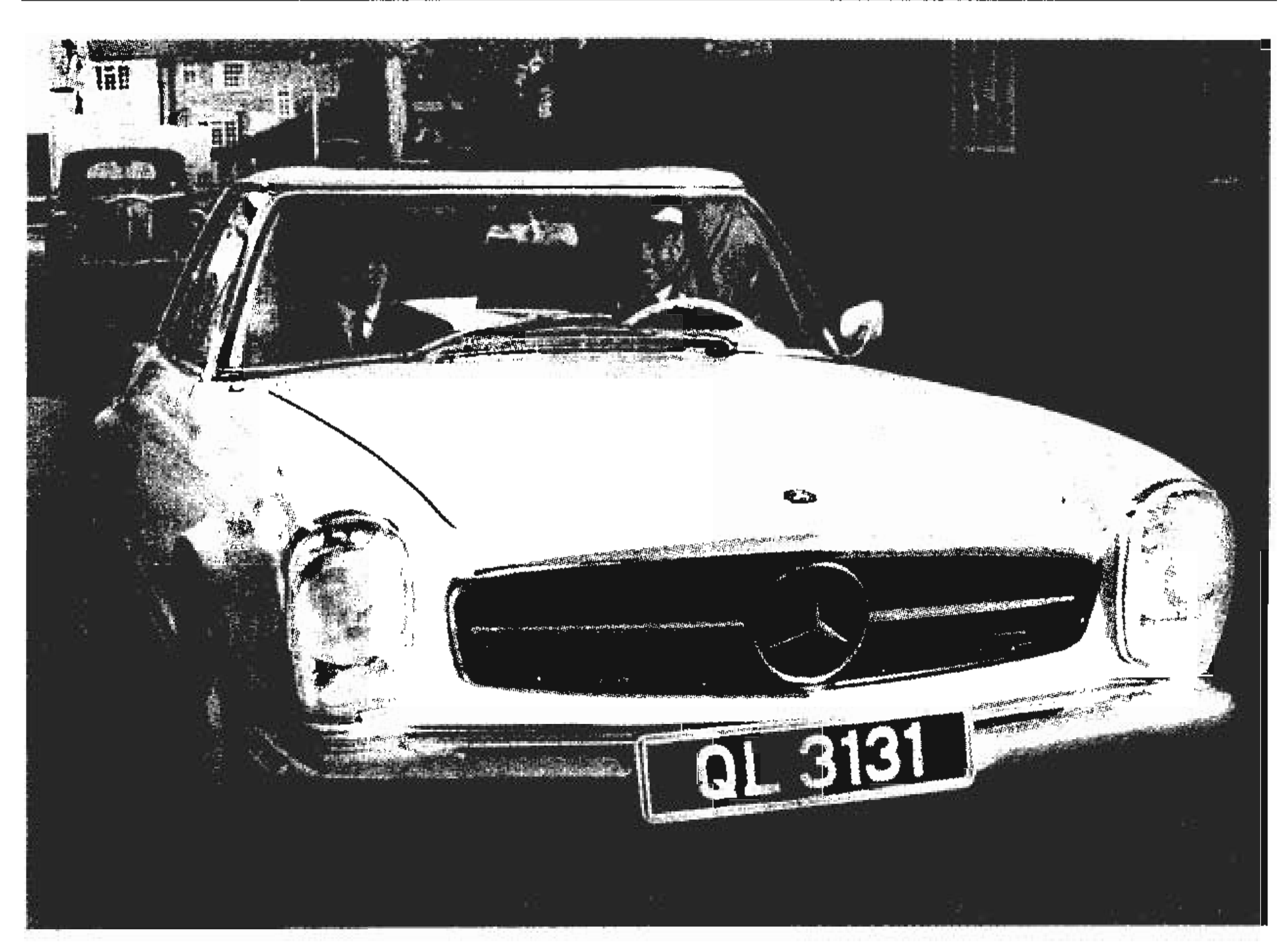
قبل أن يلتحق بندر بكرانوِل كمرشح ضابط، أمضى بعض الوقت في تحسين لغـته الإنكليزية المحكية، وكان ذلك في أول الأمر مع السيدة غنهام، وهي أرملة ضـابط في البحرية الملكية، وابنتها سارة في منـزلهما في ميدستون بمقاطعة كنت. وتابـع بـندر تدرّبه على اللغة الإنكليزية في أبوود التابعة لسلاح الجو الملكي قبل الانـضمام إلى أتـرابه في كرانوِل، حيث ابتاع له أبوه سيارته الأولى "مرسيدس" بيضاء. وكانت تلك بداية حبّه الطويل للسيارات. لكن بعد أسابيع قليلة، هوى بها في حفرة.



بندر في زي غير رسمي لسلاح الجو الملكي السعودي، صممه خلال متابعة دورة في اللغة الإنكليزية في "أبوود" مع سلاح الدو الملكي البريطاني

في تلك الأيام، لم يكن يُسمح للضباط الشبان بلقاء زميلاهم من الضباط في قاعة الطعام. يتذكر بندر: "في أحد الأيام، استرعت شابة جميلة حقاً انتباهي فرغبت في الخروج معها". لذا أخذها الأمير إلى نادي الضباط الأميركيين في ألكونبوري التابع لسلاح الجو الملكي، وهو مكان أكثر استرخاء من قاعة طعام الضباط في أبوود. لكن، في أثناء العودة بالسيّارة على طرق كامبريدجشير الضيّقة، أوقف بندر المحرك عن العمل، من دون قصد ما أدى إلى إقفال مقود السيّارة على الفور. وقد صادفا منعطفاً بسرعة كبيرة فاعتلت السيّارة الركام الجانبيّ وانقلبت. استطاع بندر الخروج من السيارة بعناء، لكنه أدرك فجأة أن رفيقته لم تتحرّك. نظر من الباب المفتوح - كانت السيارة لا تزال مستقرة على سقفها - فرأى الفتاة معلّقة بمقعدها رأساً على عقب. ودونما تفكير فكّ حزام مقعدها فسقطت على رأسها مباشرة. وكما لاحظ ضاحكاً في ما بعد: "لم تصب بأذى إلى أن أنقذها!".

بعد تحطّم "المرسيدس"، اختار بندر سيارة أخرى، كانت هذه المرة من طراز "أستون مارتن". وكما يذكر الرقيب آدامز: "كان الأمير بندر يستخدم هذه السيارة للانتقال إلى لندن في عطلات نهاية الأسبوع، وإذا ضبطه رجل شرطة في أثناء مخالفة ما يبرز له إجازة سوق سعودية ويدّعي التمتّع بحصانة دبلوماسية". ويضيف آدامز: "كان لديه أيضاً جارور مخصّص لمحاضر المخالفات في لندن، التي لم يسدّدها قط، ومجموعة لوحات خاصة بالسلك الدبلوماسي اعتاد وضعها على السيارة في عطلات نهاية الأسبوع"[18].



سيارة بندر الأولى – والتي حطمها بعد هذا بقليل

يـــروي زميله الطالب جون وُترفول: "أذكر يوم كنت وروبـــي (هنتر) عائدين معـــه من لندن في سيارته أستون مارتن. توقفنا قرابة الساعة الثانية بعد منتصف الليل لملء السيارة بالوقود وكانت خلفنا مباشرة سيارة للشرطة".

ويـــتابع جون مهلّلاً: "لم يوقفنا رجلا الشرطة بسبب سرعة أو أي سبب آخر، كانا فقط معجبين بالسيارة".

يذكر بندر أنه سأل أحد رجلي الشرطة: "هل تودّ أن تقود سيارتي؟".

أجاب الشرطي، "أجل، بالتأكيد!".

وهكـــذا ركب سيارة الأمير وابتعد بها. لذا توجه بندر إلى زميل الشرطي وقال: "انظر، زميلك أخذ سيارتي، هل لي أن أقود سيارتك؟"[19].

وتأكيداً لهذه القصّة، روى بندر كيف انتهى به الأمر إلى ملاحقة سيارته بسيارة للـــشرطة، وفي المقعد الخلفي كل من روبـــي هنتر، وجون وُترفول. وبعد عدة أميال، أدركـــوا سيارته والشرطي المزهوّ. انتهى الأمر عند هذا الحد، وتابعوا طريقهم عائدين إلى كرانوِل.

على الرغم من تمكّنه من الهرب من كرانوِل في عطلات نهاية الأسبوع، فإنّ الإجازات كانت أكثر تعقيداً. لكن كانت هناك مجموعة من التلامذة الضبّاط الذين يُعرفون "بالأيتام" لأن أهلهم يعيشون في الخارج. وعلى غرار بندر، لا يستطيعون مغادرة كرانوِل لزيارة عائلاتهم. وقد مكّنت صداقة حميمة مع أحد هؤلاء الأيتام بندر من الذهاب إلى مالطا مع صديقه روب ديكون إليوت، الذي كان أبوه، الفريق الجوي، قائد وحدة جوية هناك. ويقول بندر عن ذلك: "هكذا انضممت إليهم في مالطا، حيث أقمنا في فندق هيلتون".

عندما تحدّثت مع السيدة غريس ديكون إليوت عن رحلة الأمير إلى مالطا، قالت: "التقيت بِن أول مرّة، عندما قدم روبرت من كرانوِل في وقت ما سنة 1967، ووصل مع هذا الفتى الصغير بِن". وتابعت قائلة: "أخذناه بزورق زوجي البخاري - كان زوجي آنذاك قائد وحدة جوية - إلى وسط خليج آيلند مباشرة. كان الأولاد معتادين على الغوص هناك لأنهم سبّاحون ماهرون، فيسبحون حتى الصخور التي تبعد مسافة طويلة. لم أكن أعتقد أنّ بن يحسن السباحة، لكنّ الأولاد قفزوا جميعاً وبدأوا يسبحون. فما كان من بِن إلا أن قفز إلى الماء وأخذ يحرّك يديه كيفما اتفق حتى وصل إليهم. حين رأيت ذلك، طلبت من الطاقم مراقبته عن كثب". وأضافت أن وجود بنات القائد ربما منع بندر من الاعتراف أنه لا يحسن السباحة[20].

حرص روب ديكون إليوت على تمتين العلاقة الحميمة التي نمت بين بندر ووالديه خلال وجوده في كرانوِل. "لم يكن بندر يحترم أبي، الفريق الجوي ديكون إليوت، فحسب[21]، بل يكنّ احتراماً لأمي أيضاً، فقد كانت شخصاً مهمّاً في حياته، بمعنى أنهما كانا بمثابة والدين إنكليزيين له"[22]. وقد أكدت السيدة ديكون إليوت هذا الأمر، قائلة: "درج على مناداتنا بأمي وأبي، وأعتقد أنه أحس بالطمأنينة معنا وانسجم مع نمط حياتنا العائلية. لقد اعتبرته دائماً فتى في مقتبل مدارج الحياة. كان الأمر كما لو أننا عائلة واحدة، وقد أحببت الأمر وكذلك زوجي"[23].

بعد مرور ثلاثين عاماً، وفي التفاتة رائعة، قدم بندر من دون إعلان مسبق ليقدم العزاء إلى العائلة عقب وفاة الفريق الجوي ديكون إليوت في 5 يونيو 1997. وعن ذلك يقول روب ديكون إليوت: "قدم في رحلة خاصة من واشنطن يوم الجنازة لتقديم واجب العزاء شخصياً. ثم قفل عائداً إلى واشنطن"[24]. لم يكن الأمير الذي قطع مسافة

طويلة بالطائرة ثم بالطوّافة ثم بالسيارة، يريد إقحام نفسه في مناسبة عائلية خاصة، لكنه عبّر عن تقديره لصديق بطريقة فريدة تدلّ على طبيعة الرجل ووفائه لأصدقائه.

عندما أنهى بندر تدريبه العسكري الأساسي في كرانوِل، ركّزت الكلية على تدريب هذا الشاب كضابط، لتطوير شخصيته، وشخصية أترابه، بمزيج من الصحبة بين الرفاق، والانضباط، والعلوم الأكاديمية، والحرفة الميدانية، والرياضة، وأخيراً، الطيران.

شارك جميع الطلبة العسكريين في كرانوِل بتمرين في ألمانيا اشتمل على التدريب الميداني، والتجذيف، وتسلّق الصخور، والهبوط على حبال ثابتة، والهرب والمراوغة، كان ذلك يُعرف "بتمرين كينغ روك"(*). وقد شارك بندر في هذا التمرين سنة 1968 وخضع لأساليب اللياقة والتحمّل والتدريب الميداني التي كان جميع الطلبة العسكريين ملزمين بتلقيها. ولم يكن يسمح للطلبة طوال التمرين المضني بحمل ما يكفي من الطعام. لذا كان الجوع الأمر اليومي. وكان التجذيف مرهقاً على نحو خاص، إذ اشتمل على مهارات التجذيف في المياه السريعة المزبدة على امتداد مجرى مائي طوله 12 ميلاً، واختبارات التحمّل عند سدّي إيدر وموهنه الشهيرين منذ تعرضهما للقصف الجوي(**)، إلى جانب تقنيات قلب القوارب.

(*) كان تمرين "كينغ روك" تمريناً ميدانياً قاسياً أُجري في ألمانيا واقتضى جَلَداً ولياقة بدنية من جميع الطلاب. وهو يمكّن المشرفين من تقييم قدرات الطلاب القيادية، وتحديد مدى شجاعتهم في مجموعة من الأنشطة المرهقة. لقد كان تمريناً شاقاً للغاية.

(**) بقيادة قائد السرب غاي غيبسون، هاجم السرب 617 – دامبسترز (مدمّرو السدود) – منطلقاً بقاذفات "لانكستر" من قاعدة سكامبتون في لينكولنشير، سدود موهنه وإيدر وسوربه في وادي الرور الألماني في 16 مايو 1943. كانت تلك السدود في الرور أهدافاً جذابة وإنما مخيفة، وكانت تزود ألمانيا بالطاقة الكهربائية والمياه للصناعة والاستخدام المنزلي، وتحافظ على مستويات في الأقنية التي تنقل المواد بين المصانع الألمانية والمستودعات الحربية. وكان الاعتقاد أن تدمير تلك الأهداف سيؤدي إلى تقليص قدرة العدو على خوض الحرب، وكان الوقع النفسي للنجاح بالغ الأهمية بالنسبة إلى بريطانيا العظمى آنذاك. استخدم السرب قنابل ارتدادية صممها خصيصاً العالِم ومصمم الطائرات اللامع، إن لم يكن غريب الأطوار، بارنز واليس، وحلق وسط دفاعات مهلكة، على ارتفاعات دون 60 قدماً وبسرعة ثابتة بلغت 250 ميلاً في الساعة، وهي السرعة المثلى لتكون القنابل فعالة. وكانت الغارة ناجحة إلى حد ما، حيث هوجم سد موهنه أولا ودُمر كلياً، واقتُلع إسفين مستطيل عرضه 250 قدماً وعمقه 112 قدماً من جدار سماكته 50 قدماً، فأغرقت المياه الوادي في أسفله. وتم اختراق سد إيدر أيضاً، وأُلحقت أضرار طفيفة بسد سوربه. وبلغت خسائر المغيرين 8 قاذفات "لانكستر" و56 رجلاً.

بلـــغ هذا التدريب ذروته في تمرين الهرب والمراوغة على مدى ثلاثة أيام، حيث يُتـــرك الطلبة في مجموعات صغيرة في "أرض معادية" تحاكي وضع الطيار الذي تُسقط طائرته. زُوّدت الفرق المكوّنة من ثلاثة أفراد بخرائط أساسية ورزم أطعمة تكفي أربعاً وعـــشرين ســـاعة فقـــط، وأعطيت تعليمات بالتقدم إلى نقطة لقاء في وقت معين، متحاشـــية الوقـــوع في أسر وحدات من الجيش مكلفة بمهمة القبض على أفراد تلك الفـــرق. وقد قاد بندر فريقه. ولما كان قد عزم على خوض اللعبة بقواعد خاصة به، أخفـــى ورقـــة مالية من فئة المئة مارك ألماني داخل قبعته. يتذكّر الأمير ذلك: "كادت محاولتـــنا العـــثور على ذلك الموقع تفشل نتيجة اصطدامي بسياج كهربائي وإصابتي بـــصدمة كهربائية. وفيما كنت أتخبّط في الحقل في الظلام، تمت وآل بـــي الأمر إلى تلـــوّث وجهي بروث البقر". وفي حالة قصوى من الضيق، قال لزملائه: "لقد نلت ما يكفـــي، ولست على استعداد للسير أربعين كيلومتراً لأعود إلى المعسكر. إنّه في نهاية الأمر تمرين للهرب والمراوغة وعلينا أن نستخدم عقولنا".

قاد بندر مجموعته إلى أقرب طريق سريع واستقلّوا سيارة للعودة إلى نقطة اللقاء. ثم وجـــدوا مطعمـــاً ألمانياً، فالتهموا بسرعة وجبة كبيرة من الدجاج المشوي وسلطة الـــبطاطا. وأدرك أفراد الفريق، بعد أن ملأوا بطونهم، أن من المبكّر الوصول إلى نقطة اللقـــاء، لذا ساروا حتى مسافة ميل منها ثم استلقوا متلفعين بمعاطفهم إلى أن مضى ما يكفـــي من الوقت ليبدو أنّهم أتمّوا رحلتهم مشياً. حضروا إلى المكان في الوقت المحدد وتلقّـــوا التهنـــئة على إنجازهم. ولم يغب عن ذاكرة بندر، بعد مرور أعوام، أن روب ديكـــون إلـــيوت - الذي يصفه بندر أنه ضميره - لم يغفر له قط لجوءه إلى الغش. ومـــضى باقي التمرين من دون أي حادث وتمكّن من تفادي الوقوع في الأسر. وجاء في تقرير قائد السرب: "ثمة دليل على الشجاعة والجَلَد والمهارة في القيادة"[25].

اخـــتار بـــندر كتلميذ ضابط لعبة كرة القدم هواية رياضية مفضّلة لديه، بعد أن اكتـــسب مهـــارات في هذه اللعبة من أيام الدراسة في الرياض. لكن، في السنة الأولى مـــن وجوده في كرانول، بهرته رياضة المبارزة بالسيوف، ومع مرور الوقت، شُغف بها وأصـــبح مـــبارزاً متمكّناً بقدر معقول. ومع تطوّر مهاراته، اختير عضواً في فريق كرانِول للمبارزة، وسافر مع هذا الفريق إلى الأكاديمية الجوية الفرنسية في سالون إن بروفنس، المعـــروفة باســـم "المدرسة الجوية". وكنت أنا أيضاً في عداد ذلك الفريق، مبارِزاً

بالشيش(*). وكان هذا الحدث السنوي مثار تنافس شديد دائماً، حيث يتضمن رياضتي الركبي(**) والمبارزة بالسيوف. وكان التنافس بين فريقي الركبي والمبارزة بالسيوف ضارياً، وتحقيق النصر مهماً للغاية بالنسبة إلى شرف الكلية.

بعد رحلة طويلة من كرانول إلى سالون في طائرة عسكرية من طراز "بريتانيا"، أُرشدت فرق كرانول إلى غرفها وطُلب منها تبديل الملابس استعداداً لمأدبة العشاء. كانت الضيافة ممتازة، وحرص المضيفون على أن تُفرط الفرق البريطانية في تناول الشراب قبل وجبة الطعام وخلالها وبعدها. لكن سرعان ما دفع الإفراط في الشرب إلى التباري في الغناء، حيث يشرب الخاسرون كؤوساً ملأى بالشراب الأحمر. وقد فعل الشراب فعله في الطلبة العسكريين البريطانيين والفرنسيين على السواء.

يتذكّر بندر هذا التجمّع الصاخب ويقول: "سألت أحد مضيفيّ إذا كان من فريق المبارزة بالسيوف أم من فريق الركبي".

أجاب الطالب الفرنسي أنه ليس من هذا الفريق ولا ذاك. عندها سأله بندر إذا كان باستطاعته أن يلتقي أياً من أفراد فريق المبارزة الفرنسيين. فدُهش الأمير حين أبلغ بعدم وجود أحد من فريق المبارزة أو من فريق الركبي: كلهم في الفراش نيام. وفي صباح اليوم التالي، استيقظ معظم أفراد فريق كرانول في حالة سيئة، وكان كثير منهم لا يزالون يرتدون الملابس الكاملة التي ارتدوها في المساء الفائت.

يصف ويلسون (ويلس) ميتكاف، أحد أفراد فريق الركبي وطالب عسكريّ زميل في ذلك الوقت، كيف نهض الجميع باكراً، في صباح اليوم التالي للوصول إلى سالون وحفلة العشاء آنفة الذكر، بعد تلك الليلة العامرة ليشاهد رفع العلم الفرنسي وراية سلاح الجو الملكي، "كان الصداع يلف رؤوس الجميع"[26]. فاجأ فريق الركبي

(*) الشيش نسخة حديثة من سيف المبارزة، وهو مماثل للسيف الطويل foil، لكن نصله أقسى وشبيهاً بحرف v كما أنّه أثقل.

(**) الركبي لعبة رياضية جماعيّة مأخوذة، كما يقال، من قواعد مستخدمة للعب كرة القدم في مدرسة ركبي Rugby في إنكلترا. يؤدي اللعبة فريقان، كل منهما يتكوّن من 15 لاعباً. وعلى كل منهما تسجيل أهداف تفوق أهداف الفريق الآخر. يمسك اللاعبون بكرة شبيهة من حيث الشكل بكرة القدم الأميركية، مستخدمين أيديهم أو أذرعهم، ويمكنهم تمريرها إلى الخلف أو جانبياً عبر حد مرسوم، أو ركلها في أي اتجاه. ويحاول الفريق الآخر إعاقة حركة حامل الكرة بأذرعهم وأجسادهم.

الجميع بالفوز في مباراته ضد فريق فرنسي أوفر نشاطاً وحيوية، بعد منافسة حامية. وفي ذلك الوقت، كان فريق المبارزة بالسيوف يحاول التعافي من تأثير الليلة السابقة قبل حلول موعد المباراة في فترة بعد الظهر. وقد استُضعف طلبة كرانوِل بالفعل، وكان من المتوقّع أن يتمكّن الفريق الفرنسي المتفوّق من سحق فريق سلاح الجو الملكي، بمساعدة تكتيكات التخريب غير العادلة التي اتُّبعت في الليلة السابقة.

لكن كم كانت دهشتنا عظيمة حين استطاع فريق كرانوِل الملهم أن يسجل نصراً مبيناً بفضل الغضب من خديعة الليلة السابقة المنافية للمبادئ. ويذكر بندر أنه كان لا يزال غاضباً فهاجم خصومه ضارباً بسيفه ضحاياه الفرنسيين باندفاع. لم تكن البراعة الفرنسيّة لتجدي أمام حماسته الجنونية، فكسب بندر المباراة.

توضح سجلات الكلية مقدار تصميم بندر على أن يصبح طياراً بارزاً، وتركيزه التام على الطيران، وكانت الأنشطة الأخرى في كرانوِل، وبخاصة الأنشطة المتعلّقة بالبيئة



فريق "كرانول" للمبارزة بالسيف مع بندر (الصف الخلفي، الثاني من اليمين)، والمؤلف بيل سمبسون (الصف الأمامي، إلى اليسار)

الأكاديمــية، تصرف الانتباه عن ذلك الهدف الأساسي. مع ذلك، استطاع أن يكون طالباً مثاليّاً عندما انصرف بكلّيّته لتحقيق هدفه. وهكذا كتب الرقيب آدامز في تقريره الخـــاص بالــتدريب: "عندما يحاول، يكون من أفضل العناصر في السرب. وفي بعض الأحيان يخلو أداؤه من الأخطاء. وفي وسعه أن يبلغ مراتب عالية إذا أدرك أنه ليس هنا للطيران فقط"[27].

لكـــن رغـــبة بـــندر في الطيران، وقبل كل شيء، أن يصبح طياراً حربيّاً كانت تستحوذ عليه. فذلك هو الهدف الوحيد في حياته. وقد بشّر بنبوغ من الناحية العمليّة. فكـــان بـــندر أول طـــيّار في السرب يقود الطائرة بمفرده بعد تسع ساعات فقط من الــتدريب علـــى الطيران، ولم يسبق له الطيران من قبل. لكن أداءه لم يكن منتظماً في الأشهر الأولى. وكان مفرط الثقة بالنفس أيضاً، وهي خاصيّة كادت تؤدي إلى كارثة في عدّة مناسبات. لذلك كان زميله الطيار جون وُترفول صريحاً - كما يجدر بالصديق أن يكون - عند التحدّث عن كفاءة الأمير كطيار: "كان تعيساً في كرانوِل"[28]. وأكّد روبـــي هنتر بداية الأمير الواهية في الجوّ عندما روى كيف دخل بندر ذات مرّة مجال المطـــار الحربـــيّ في الاتجاه الخاطئ، وطار عكس حركة المرور الجوي السائدة، ملقياً الرعب في سائر زملائه الطلبة. كان ذلك أشبه بقيادة السيارة عكس السير على طريق ســـريع. وكـــان التعلـــيق الفعليّ الذي وضعه مدرّبه طوني يول أقل وضوحاً وأوحى بدبلوماســـيّة أن ســـلطان يطير باستعداد نفسي وحماسة. كانت لديه مشكلة مع مجال المطار، لكنه أحسن التكيف معها تماماً في نهاية المقرّر التدريبـــي"[29].

وأسرّ الأمير لاحقاً أن مدرّب الطيران، طوني يول، كان يردّد على مسامعه دائماً أنّـــه لن يصبح طياراً حربيّاً. واعترف بالقول، "كدت أستقيل، محدّثاً نفسي أنني إذا لم أتمكّن من أن أصبح طياراً حربيّاً، فإنّني لا أريد أن أكون طياراً". لكن بعد ثلاثة أعوام مـــن رحـــيله عن كرانوِل، عثر بندر على مكان يول، وتذكّر، برضى جليّ، أنه كان يقود طائرات صهريج من طراز VC-10. فأبلغه الأمير: "إنّني أقود طائرات مقاتلة منذ أن تخـــرّجت من كرانوِل. الآن عرفت لماذا قلت إنني لن أصبح طياراً حربيّاً، لم تكن تدري ماذا تريد".

كان مارشال الجو السير ريتشارد جونـــز قائد السرب 2 في كرانول سنة 1969، ومـــدرّب الأمير على الطيران. قال لي: "أذكر الأمير بندر بن سلطان جيّداً. أولاً، كان

أميراً من العائلة المالكة السعودية والعربي الوحيد في دورته. كان باسم المحيّا دائماً؛ لا أذكر أنّني رأيته يوماً في السرب لا يحوم فيه هنا وهناك والابتسامة الجميلة على محياه... لقد اندمج في كل شيء بحماسة كاملة. هذا ما أذكره حقاً عنه، روح الدعابة والحماسة".



إلى جانب نفاثة بروفوست التي حقق على متنها طيرانه المنفرد الأول

لاحظ جونز متذكراً أداء الأمير خلال فترة التدريب على الطيران: "لا أذكر أنّ أي شكوك أثيرت حول قدرة بندر بن سلطان على إتمام تلك المرحلة من تدرّبه على الطيران، أو حول مقدرته على العموم. كان يُعتبَر "شخصاً طيباً"، لكنه أيضاً الشخص الذي انتقل إلى المملكة المتحدة بارتياح على الرغم من مصاعب اللغة التي واجهها في البداية". وأكّد جونز أنّه: "قَبِل التحديات وارتقى إلى مستوى كل منها. وكان من الواضح تماماً أنه سيتخرج حاملاً شارة الطيّار".

غير أن ثمة حادثة كادت تقضي على مهنته وحياته. وقد روى جونز ما حدث: "كل من مارس مهنة الطيران مدّة طويلة نوعاً ما مرّ بلحظات قال فيها: يا الله كنت قاب قوسين أو أدنى من الموت. أذكر حادثة من هذا النوع مع بندر بن سلطان. كنّا عائدين إلى القاعدة وكنا نقوم بانحدارات مسيطر عليها عبر السحب، لذا لم يكن لدينا من خيار سوى الهبوط خلال السحب، وكان علينا في أثناء ذلك الانعطاف للعودة إلى المطار. كنت أحاول الطيران بأقصى أشكال الملاحة سلاسة، وبدأت الانعطاف للعودة. لكنني نظرت فرأيت أنّ بندر على ميمنتي قد أخذ ينزلق مجدداً".

أوضح جونز محللاً هذه المناورة: "إنها ليست غير مألوفة، إنها صعبة، وبخاصة عندما تتعلّم المحافظة على التشكيل في السحاب، لأنّك تبدأ بفقدان الإحساس بالاتجاه. كان يجب على بندر في تلك الظروف أن يسوّي جناحي الطائرة ويطير بعيداً، لكنه لم يفعل ذلك. بل حاول العودة إلى التشكيل، وفي أثناء ذلك أمال طائرته باتجاهي. لست متأكداً تماماً ماذا حدث بعد ذلك، لكنني أذكر أنّني فكّرت، *تبّاً، هذه هي نهايتي*. لا

شك أنني دفعت ذراع القيادة بقوة لأبتعد عن طريقه. وأظن أن مدرّبه تولّى القيادة عندئذ وافترقنا في السحاب".

وراح جونز، والانزعاج باد عليه، يصف كيف عادت الطائرة إلى كرانول، حيث ناقش المدربون والطيارون ما حدث بالضبط. لم يكن بندر الجذلان يدري أنه كاد يصطدم بعدة طائرات من طراز "جت بروفوست"، بما فيها الطائرة التي كان يقودها صديقه روب ديكون إليوت، وكان بالتأكيد سيقضي على السير ريتشارد، قائد سلاح الجو الملكي لاحقاً، وكذلك على زملائه في الدفعة 96. لم يفصله عن الكارثة سوى إنشات معدودة. ويقول جونز إن "الأمر اللافت أنّ ما حدث لم يؤثّر فيه، لو فعل ذلك غيره لربما توجّه إلى حجرته. لكن ليس هو بالتأكيد، فقد تابع وكأن شيئاً لم يكن"[30].

على الرغم من تقلّب سجل الأمير بندر في الطيران بعض الشيء في كرانول، فإنّه تعلّم الطيران بالفعل، فقد نال شارة الطيّار وتخرّج بنجاح. وجاء في التقرير الخاص به: "كان تدريبه مرضياً على العموم، وفي أثناء التدريب على القيادة في الميدان، كان مهيّأ لتأكيد ذاته وإظهار قدر كبير من الشجاعة والجَلَد". وفي تقرير تقليده رتبة ضابط في 21 يوليو 1969، وفي التدرّب المهمّ جدّاً كطيار، قيل عن الأمير: "إنّ سلطان طيار عازم وكفء ويمكنه تحقيق نتائج طيبة جدّاً عندما تدعو الحاجة. حركاته البهلوانية الجوّية مفعمة بالحيوية لكنها تفتقر إلى البراعة. وهو يميل إلى الإفراط في الثقة بالنفس حين تكون الأمور على ما يرام. وببذل قليل من الجهد الإضافيّ، سيصبح سلطان طياراً جيداً جداً ذا قدرات فوق المتوسّط وقائد طائرة متمرّساً"[31].

شهد بندر حادثة كان لها وقع دائم في نفسه، وهي حادثة رواها خلال لمّ شمل الدفعة 96 وأثّرت في موقفه في حياته اللاحقة. ففي مساء أحد الأيام في قاعدة ألكونبوري الجويّة، التقى بندر صديقاً أميركياً عرَّفه لاحقاً بطيار آخر وبزوجته. يروي الأمير: "كان لا يزال يرتدي ملابس الطيران، بعد عودته للتوّ من طيران ليلي. قلت في نفسي لا بد أنه طيار أميركي، لكنّني لاحظت خلو بذلته مما يدل على اسمه أو رتبته، الأمر الذي أثار استغرابي قليلاً". وعندما اكتشف أن زوجة الضابط من كاليفورنيا، تعزّز افتراضه بأنّ زوجها ضابط أميركي. سارت الأمور في ذلك المساء على ما يرام واستمتع الأمير بها.

في وقت لاحق من ذلك المساء سأل بندر الطيار: "هل أنت من كاليفورنيا أيضاً؟" أجاب الطيار: "لا، أنا من إسرائيل". ويبدو أنّ الطيار اعتقد أنّ الأمير إنكليزي فسأله: "من أين أنت؟" وما إن أجابه: "أنا من المملكة العربية السعودية" حتى تبدّل الجو فجأة، واكتنفه برود شديد فيما أخذ كل منهما ينظر إلى الآخر بصمت مطبق. ويقول بندر: "أحسست فجأة بالكره تجاه هذا الرجل، الذي كنت معجباً جداً به من قبل".

عندما فكّر بندر في الموقف، أخذ يدرك وقع تلك اللحظة، حيث حدث تبدّل في الظروف أو التصوّرات، عند معرفة أن أحدهما إسرائيلي والآخر عربي. ويقول الأمير: "منحني ذلك، على مرّ الزمن، الأمل أننا سنكسر الصورة النمطية إذا ما عرف أحدنا الآخر بشكل أفضل". ويتابع الأمير أنه نتيجة معرفة كل منهما هوية الآخر: "وافق الضابط الإسرائيلي على أن نتصافح وننسى أننا التقينا يوماً".

وفي تلك الأمسية عرف بندر من دون قصد بعملية عسكرية سرية تجري في قاعدة جويّة أميركيّة في إنكلترا. ففي ذلك الوقت لم تكن إسرائيل قادرة على شراء معدات عسكرية من الولايات المتحدة، لأن الحكومة الأميركية فرضت حظراً على جميع المبيعات العسكرية المتوجهة إلى الشرق الأوسط بعد حرب الأيام الستة في سنة 1967. بيد أن الإدارة الأميركية وافقت سرّاً على بيع إسرائيل طائرات "فانتوم F-4"، وقرّر الرئيس جونسون إبقاء الأمر طي الكتمان. وهكذا اتفق على ألا يجري التدريب في الولايات المتحدة وإنما في قاعدة ألكونبوري الجويّة الملكيّة، وهي قاعدة لسلاح الجو الأميركي في المملكة المتحدة. ومن المفارقة أن يكشف بندر، مرشح الضابط الشاب الغر، بمحض المصادفة في ذلك المساء، سرّاً مكنوناً وخطيراً.

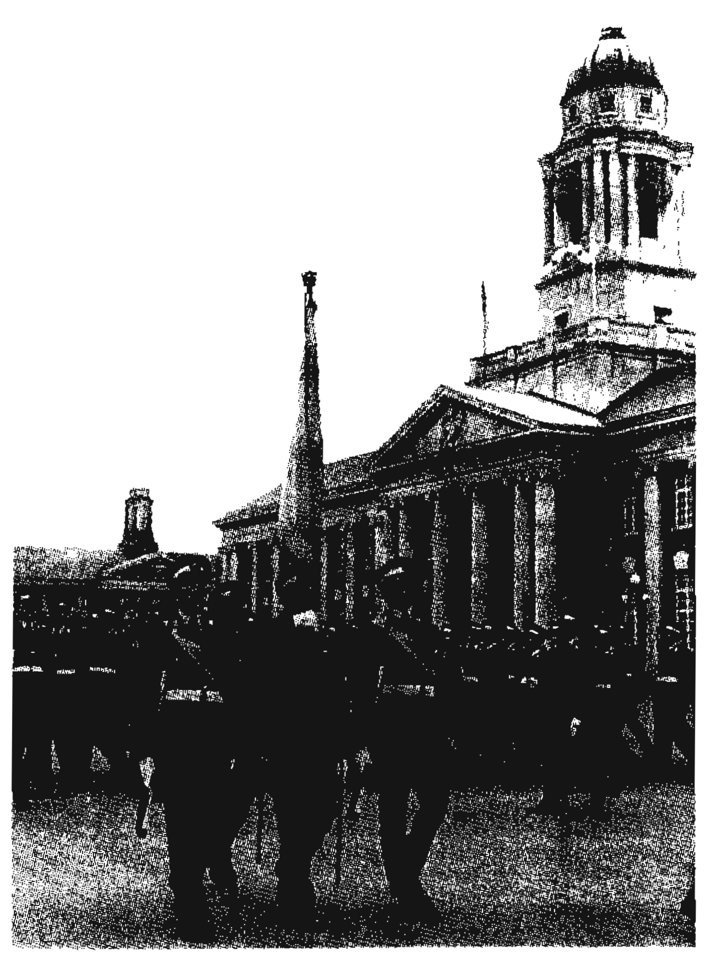
عند اقتراب نهاية الأشهر الثلاثين من التدريب في كرانول، ازداد التركيز على التخرج وتقليد المتخرجين رتباً عسكرية. بالنسبة إلى الطيّارين، ومنهم بندر، كانت هناك أيضاً شارة الطيّار الموعودة التي تحظى بتقدير عظيم. لكن بالنسبة إلى التلامذة الضبّاط، ثمة عقبة أخيرة هي العرض العسكري في حفلة التخرّج. وفي هذا الصدد يذكر الرقيب آدامز تمرُّن الطلاب على تأدية حركات بهلوانية مختلفة خلال تجربة الأداء النهائية لذلك العرض في صباح يوم سبت. وقد جرى التقليد على أن يأتي الطلاب بأعمال متنوعة غير مدرجة على الجدول خلال تجربة الأداء، وقد وصل أفراد الدفعة 96 في حافلة

ركاب ذات طبقتين، قبل انتظامهم في مواقعهم في ساحة العرض. وكما يروي الرقيب آدامز، كان الجو حافلاً "بالمرح والحيوية، ولم يحدث أي أذى!".

ويذكر بندر نبذة أخرى من المرح البريء الذي استمتع به فريق حَمَلة الأعلام أو، كما يسميه، الفريق الملوّن الذي كان ضابط الصف فيه. وكان صديقه الحميم، ديك كالدر، حامل العلم. ففي منتصف الليلة السابقة، أحضروا بعض ألواح الخشب ووضعوها على درج مبنى الكلية، ثم دفعوا بسيارة رياضيّة مكشوفة قديمة من طراز أم جي MG صعوداً على الدرج ومن ثم إلى داخل مبنى الكلية، ثم أزالوا الألواح.

في صبيحة اليوم التالي، استُدعيت الكلية كلها إلى العرض العسكري. وفجأة، أعيدت ألواح الخشب إلى موضعها على درج مبنى الكلية. وعلى صيحة قائد العرض "ليتقدم الفريق الملون"، خرج الفريق - الذي طلى أفراده الإنكليز وجوههم باللون الأسود (طلى بندر وجهه باللون الأبيض). وكم كانت الدهشة كبيرة عندما خرج فريق الأعلام من مبنى الكلية راكبين سيارة أم جي، بدلاً من الخروج من جانب ساحة العرض الأيسر كما جرت العادة، حتى وصلوا إلى موقعهم المعتاد، حيث ترجلوا من السيارة، التي أبعدت على الفور.

بعد ذلك بأسبوع، أي في 2 أغسطس 1969، تخرج بندر من كليّة كرانوِل التابعة لسلاح الجو الملكي. وشهدت المرحلة التالية من حياة الأمير مزيداً من اندماج الشاب، الذي أصبح أكثر نضجاً الآن، في الثقافات الغربية. وكطيّار في سلاح الجوّ السعودي، التحق بدورات تدريبية شاملة، لتحويل مهاراته في الطيران، وكانت لا تزال في بداياتها، إلى مهارات طيّار حربيّ محنّك.



يستعرض بالألوان كضابط صف العلم

الأمير طيار حربيّ

"لا تُفرطوا في التحكّم، كطيارين مبتدئين. وابتعدوا عن قيود الاتجاه السائد بالقدر الكافي الذي يمكّنكم من رصده وتعديله وتحسينه".

دونالد رامسفيلد

وزير الدفاع الأميركي

قال السير ريتشارد جونز، مدرّب بندر على الطيران في كرانول، عن طيران بندر: "من الواضح تماماً أنه تلقّى في كرانوِل التدريب ليصبح طياراً حربيّاً؛ ولن يكون سوى طيار حربيّ إذا ما شاء الانضمام إلى سلاح الجو السعودي، وهذا ما فعله بالضبط. أصبح طياراً لطائرة لايتننغ... وكانت تلك المجموعة من الطيّارين نخبة سلاح الجو آنذاك. كانوا مجموعة متميّزة جداً من الأشخاص وتمكّنوا جميعاً من تحقيق منجزات استثنائية"[1].

بعدما تخرج بندر في كرانوِل سنة 1969، عاد إلى المملكة العربية السعودية كضابط برتبة ملازم ثان، والتحق بقاعدة الظهران الجوية التابعة لسلاح الجو الملكي السعودي. وهناك قاد طائرة تدريب "T-33، تي بيرد"، لتطوير قدرته على الطيران. لكنّه كضابط شاب غضّ كان يُتوقّع منه أيضاً أن ينمّي مهاراته كضابط وقائد للرجال، لذا عُيّن قائداً لسرية من خمسين تلميذاً في معهد التدريب الفنّي التابع لسلاح الجوّ الملكيّ السعوديّ. وقد لاحظ مدرّب طيران من سلاح الجو الأميركي، المقدم كيث فيلبس، وكان حينئذ يدرّب الطيارين السعوديين كجزء من برنامج "صقر السلام" التدريبي السعودي - الأميركي: "كان يتمتّع بجاذبية وروح قيادية بارزتين فوق العادة! وكان الفتية في رفّه متقدمين أشواطاً على غيرهم؛ بل لم تكن هناك منافسة أصلاً"[2]. لم يكن بندر، خلافاً لأبناء جيله، يصرّ على مناداته بلقب أمير عندما كان يعمل في سلاح الجو الملكيّ السعودي. ويقول أحد الطيّارين الذين كان يدرّبهم: "كان يُدعى الكابتن بندر فقط. ولم يحمل لقبه إلى أن أصبح سفيراً. كنا ندعوه الكابتن بندر أو الرائد بندر، من دون زيادة أو نقصان"[3].

في أوائل سنة 1970، بعد أن استقرّ بندر في سلاح الجو الملكيّ السعودي، أرسل إلى قاعدة لاكلاند الجوية في تكساس، حيث تلقى تدريباً عالياً على اللغة الإنكليزية، وكان ذلك شرطاً مسبقاً للتدرب المتقدّم على الطيران. وبعد لاكلاند، أرسل بندر إلى قاعدة ميرتِل بيستش الجويّة في كارولينا الجنوبية، حيث كان يقود طائرة AT-33 كمدخل إلى التدرّب على الطائرات المقاتلة، قبل الانتقال إلى قاعدة بيرِن الجوية في تكساس لإتمام التدريب على الدفاع الجوي بطائرة F-102. ثم انتقل إلى قاعدة وليامز الجوية في أريزونا لبدء التدرب على المقاتلات التكتيكية بطائرة F-5A/B التي بدأ إدخالها إلى سلاح الجو الملكيّ السعودي في ذلك الوقت. وكان هذا التدريب جزءاً من برنامج تحديث "صقر السلام" (Peace hawk)، وهو برنامج تدعمه أميركا وبريطانيا، ومعدّ لتعزيز القدرات العسكرية السعودية، بغية تمكين المملكة من مواجهة التهديد المتزايد من دول على حدودها مدعومة من السوفيات. وقد لاحظ العقيد في سلاح الجو الأميركي بوب ليلاك، رئيس برنامج اختبار F-5 في "صقر السلام" ومدرّب على قيادة طائرة F-5، أنّ "برنامج F-5 هو الذي زرع البذرة التي أتت أُكلها في العلاقة بين الجيشين السعودي والأميركي"[4]. وقد أثبتت تلك الرابطة بالذات أنّها ميزة حيويّة في الأعوام التالية عندما انفجر الصراع في الخليج.

يعترف بندر أنّه تعلّم درسه الأول في التواضع يوم وصوله إلى لاكلاند لبدء التدريب.


إلى جانب طائرة أف – 5

يقول متذكراً: "كنت طياراً حربيّاً مزهواً بنفسه... برتبة ملازم ثان. وكان يومي الأول في أميركا في سان أنطونيو، تكساس، وقررت الاتصال بالديار هاتفياً. في تلك الأيام لم يكن الاتصال المباشر متيسراً، فاتصلت بعاملة الهاتف. قلت: *أود إجراء مكالمة مع المملكة العربية السعودية.*

أحالت عاملة الهاتف بندر إلى عاملة الهاتف الدولي، فقال مرة أخرى: "أود إجراء مكالمة مع المملكة العربية السعودية".

سألته عاملة الهاتف: "أين تقع؟".

أجبت: "في الشرق الأوسط".

"أين؟ وسط الشرق؟".

"لا"، قال بندر: "الشرق الأوسط".

"ماذا؟".

"اسمعي يا سيدة"، قال بندر ثم سألها: "هل تعرفين أين إسرائيل؟".

أجابت، "نعم".

"حسناً، إلى الجنوب قليلاً من هناك"[5].

في قاعـــدة لاكلانـــد الجـــوية التقى العقيد جو رامسي ببندر أول مرة. وأصبح رامـــسي، الذي كان آنذاك قائد تدريب، شخصية مهمة في حياة بندر وصديقاً دائماً له. وقد أوضح قائلاً: "عندما وصل الأمير بندر إلى لاكلاند، انضم إلى طلاب أجانب آخـــرين ســـيتمّ تقييم مقدار إتقانهم للغة الإنكليزية... وكان جميع الطلاب الأجانب تقريباً يلتحقون بمدرسة اللغة، حتى لو كانوا ناطقين باللغة الإنكليزية، وذلك كي يألفوا المصطلحات الأميركية".



بندر مع الكولونيل جو رامسي

يذكر العقيد رامسي أن بندر كان بحاجة إلى مصرف، فقدّمه إلى مدير المصرف الذي يتعامل معه هو، وكان على مقربة من القاعدة، فقام الأمير على الفور بإيداع 5000 دولار عدّاً ونقداً. ويقول العقيد: "أحدث ذلك انطباعاً حسناً عند رئيس المصرف فعرض عليه خدماته. لكن بعد يومين فقط، تلقيت مكالمة من مدير المصرف يقول فيها إن حسابه مكشوف. أبلغني، *كانت هناك وديعة بقيمة 5000 دولار، لكنّني تلقيت شيكات تصل قيمتها إلى 6000 دولار*. لذا، اتصلت ببندر مستفسراً فقال لي *لا عليك*". وتابع العقيد: "في اليوم التالي أتى رجل من السفارة وتوجه بندر إلى المصرف وأودع 10,000 دولار. لذا اتصل بي مدير المصرف وقال إن الأمر كله عبارة عن سوء تفاهم. وبعد يومين اتصل بي مجدداً ليقول لي إن حسابه انكشف أيضاً، *لا يمكننا التعامل مع هؤلاء الناس!*". اتصل العقيد ببندر مرة أخرى، وقال الأمير: *"لا تقلق"*. وختم العقيد، "في اليوم التالي أتى رجل من السفارة في واشنطن ومعه حقيبة مليئة بالمال، ففتحها وقال لمدير المصرف، *كم تحتاج لإبعاده عن المتاعب؟* "[6].

خالف بندر القانون في أثناء وجوده في تكساس عندما كان عائداً من دالاس إلى قاعدة بيرن الجوية. يروي الأمير القصّة: "تأخّرت في العودة ولم يكن ثمة أحد على الطريق السريع، وقلت لنفسي: من سينتبه للأمر؟ سأزيد السرعة قليلاً. فجأة، وعلى غير انتظار، رأيت مصباحاً ومّاضاً، فتوقفت جانباً. تقدّم الشرطي المسنّ اللطيف وطلب مني الخروج من السيارة. أخبرني أنّني كنت مسرعاً فاعتذرت إليه، لكنّني أبلغته أنّني لا أتقن التحدث بالإنكليزية فأنا أجنبي. لم يكن يعلم أنّني أمضيت أربعة أعوام في كلية في إنكلترا. وقد وجدت صعوبة في تصنّع اللكنة، ولم يكن عليّ أن أبذل مجهوداً من أجل ذلك، فلهجتي، البريطانية، كانت مصطنعة على أي حال". غير أن الشرطي طلب منه إجازة القيادة فناوله بندر الإجازة كما ينبغي.

قلّد الأمير بطريقة فكاهية كيف قام الشرطي بتقليب الإجازة مرة بعد أخرى وتفحّصها وعلى وجهه علامات التساؤل قبل أن يقول: "أريد إجازة القيادة يا بنيّ". أجاب بندر: "هذه إجازة القيادة يا سيدي". وكرر الشرطي القول بهدوء: "قلت أعطني إجازة القيادة". قال بندر: "فكرت في أن أوضح له حقيقة الأوراق، فقلت، *هذه هي إجازة القيادة الخاصة بي*، وهي تسمى *إجازة قيادة دولية*". وأضاف: "تابعت الشرح وقلت، *كما تعلم، هناك ذلك النادي الدولي وبإمكان رعايا البلد*

العضو في النادي قيادة سياراتهم في بلد آخر عضو في النادي نفسه. والولايات المتحدة عــضو في هذا النادي". وتذكر بندر مبتسماً: "أصغى إليّ باهتمام وصبر شديدين، ثم نظــر إليّ وقـــال، *يا بنيّ، دعني أقول لك شيئاً، قد تكون الولايات المتحدة الأميركية عضواً في النادي، لكن تكساس ليست عضواً فيه!* "[7].

بعد أن أنهى بندر تدرّبه على الطيران في بيرن، انتقل على الفور إلى قاعدة وليامز الجــوية لمتابعة دورة على قيادة طائرة F-5، التي ستكون العمود الفقريّ لسلاح الجو الملكــيّ السعودي بموجب برنامج "صقر السلام" السعودي - الأميركي. بدأ التدريب الإضافي يظهر في طيرانه، فقد تلقّى جائزة توب غن (Top Gun) في سنة 1971، فائزاً بالجوائــز الــثلاث التي تُمنح في دورة التدريب على قيادة طائرة F-5: الجائزة الأولى أكاديميّاً، والأولى جو-جو، والأولى أرض-أرض.

عــندما عاد بندر من الولايات المتحدة إلى قاعدة الظهران الجوية في المملكة العربية السعودية في أواخر سنة 1971، اكتشف والطيارون الآخرون المدربون على طائــرة F-5 أن سلاح الجو السعودي لن يتسلّم طائرات "نورثروب أف - 5 إي تايغر 2" أميركية الصنع قبل ستة أشهر، وأنّ عليهم في هذه الأثناء قيادة الطائرات الاعتراضــية الــنفاثة الأسرع من الصوت "لايتننغ" بريطانية الصنع. أوضح بندر: "بريطانيا جزيرة صغيرة جداً... لذا صُممت هذه الطائرة لتطير على ارتفاع شاهق وبــسرعة كــبيرة، لكن لا يمكنها التحليق مسافة طويلة من دون إعادة تزويدها بالوقــود. لكــنّ المملكة العربية السعودية تعتبر قارة مقارنة ببريطانيا، لذا كانت العمليات مخيبة للآمال؛ عليك أن تطير وتطلق الصواريخ وتتمّ العملية ثم تعود فوراً للتزود بالوقود مجدداً".

بيــنما كــان بندر في الظهران، انتقل من طائرات "لايتننغ" ليصبح مسؤول العمليات في وحدة التحويل العملاني لطائرات F-5 إلى جانب العقيد جو رامسي، الــذي انتقل إلى المملكة العربية السعودية أيضاً. وأكد رامسي ذلك بقوله: "كنت هــناك عــندما أدخلت طائرة F-5 الخدمة، وتبين أن بندر هو الطيار الأول الذي يعمل معنا في مشروع *F-5 صقر السلام*"[8]. وأوضح المقدّم في سلاح الجو الأميركي كيث فيلبس، الذي خدم في المملكة كمستشار في طائرات F-5: "عندما أحضرنا طائرات F-5، ظهر بندر في محطة الوصول بعد أن تسلّمنا الطائرات الست الأولى


طليع الدورة، بندر يفوز على الجميع خلال التدريب على أف – 5

من طراز F-5B. وكان جعل هذه الطائرة مألوفة لـدى سائر وحدات سلاح الجو السعودي جزءاً من برنامجنا، ولذلك انتقلنا بها إلى جميع القواعد".

أوضـح فيلـبس ملاحظاته بالتفصيل قائلاً: "جمعنا فريقاً مخفّفاً جدّاً للحركات البهلوانية الجوية. كـان لدينا رفّ من أربع طائرات وطائرة منفردة، كان كل ذلك أساسيّاً جداً. ولدينا طيّارون مدرِّبون في المقاعـد الخلفـية وكنت أقود الرف المكوّن من الطائـرات الأربع". يذكر فيلبس أنّه كان يطير مع بـندر لأول مرة: "قلت له، *هذا ما يجب أن تعتاد عليه*. كنا نطير على ارتفاع مئة قدم تقريباً، فقلبت الطائـرة رأسـاً علـى عقب، وهذه حركة مربكة قليلاً لمن لم يؤدّها من قبل". يقول فيلبس: "إنه سريع التعلّم، وقد أدى الحركة بصورة جيّدة جداً، لكن كانت لديه رغبة في تجاوز سرعة الجاذبية الأرضية. يكفي القول إننا منعناه من ذلك".

بعـد أن زُوِّد الطـيارون الآخرون بالمعلومات، قدّمت الطائرات الخمس عروضاً جـوية في أجواء عدة مطارات سعودية. وقال فيلبس: "في تبوك، قدّمنا عرضاً للملك فيـصل في ذكرى القوات المسلحة، وكان الملك قد دعا الملك الأردني الحسين. وفيه طيّر بندر غترتيهما عن رأسيهما". وقال موضحاً: "ضمّ عرض القوات المسلحة دبابات ومظلـيّين وطائـرات، وجرى في ساحة مناورات صحراوية واسعة جنوبـي تبوك. كانـت هذه الساحة تستخدم لعرض المعدات العسكرية السعوديّة، لذا أقيمت منشأة ضـخمة شبيهة بمدرَّج مسرحي، وذات مظلة كبيرة ربما بلغ طولها خمسين إلى سبعين قـدماً". وتابـع المقـدّم: "تمرّنا عدة أيام ودمجنا طائرات F-5 مع طائرات لايتننغ في تشكيلات مختلفة. وفي العرض الختامي، نظمنا الطائرات لتحلق في تشكيل على شكل حرف F، الحرف الأول من اسم الملك فيصل. كان العقيد بحيري يقود ذلك التشكيل وكـان يفترض أن يكون على ارتفاع ألف قدم محلقاً من الجنوب إلى الشمال. وكان علـى بندر أن يأتي من الشمال، في الاتجاه المعاكس، ويطير تحت الطائرات الأخرى. وكـان العقيد عبد الله يقود الرفّ الثاني من طائرات F-5 التي تبعها رف من طائرات

لايتنـــنغ". ويذكر فيلبس: "كان على كل رفّ الطيران في تشكيل ماسيّ الشكل. وقد نفـــذنا أربـــع جولات تقريباً، بينما كان بندر يحلق منفرداً، وكانت مناورته الأخيرة الطيران تحت التشكيلات المجمّعة".

يتابع فيلبس: "حلّق التشكيل الأخير على ارتفاع ألف قدم بحيث يكون أمام بندر مجال كاف. لكن فيما كان التشكيل مقبلاً أخذ ينخفض شيئاً فشيئاً؛ اتصلت ببحيري وقلـــت *أيهـــا القائد، انتبه لارتفاعك!* كنت في المقعد الخلفي مع فهد بن عبد الله في الـــرف الـــثاني، وقلت في نفسي، *يا إلهي، إنه ينخفض كثيراً*. كان على بندر أن يطير تحته، لكنه تأخّر قليلاً وشغّل الحرّاقين الخلفيّين(*). وكان في وسعه رؤية التشكيل أمامه، لكـــن التـــشكيل استمر في الانخفاض، فاضطر بندر إلى الانخفاض بدوره ليتمكن من الطيران تحت التشكيل كما هو مقرر".

أعـــاد فيلبس رواية ما حدث قائلاً: "تمكن بندر من المرور تحت التشكيل، لكنه كان منخفضاً جداً لدى مروره فوق المنصة. وقد أحدثت الدوّامات الناجمة عن طائرته فوضـــى عارمـــة: تطايـــر السجاد الفخم، والأزهار، والكراسي، والملابس في أرجاء المكـــان، وطارت غترتا الملكين عن رأسيهما. وأنا أعني ما أقول، لقد طارت غترتاهما في الحال! لم أكن أعرف أن هذا ما حدث لكنّني سمعت المراقب يقول، *يا إلهي - كان هـــذا رائعاً!* ثم سمعت بالإنكليزية، *هنا الجنرال زهير، قائد سلاح الجو، أوقفوا العرض! هـــنا الجنرال زهير، أوقفوا العرض*. سألت نفسي *ماذا حدث؟* لم يكن باستطاعتنا أن نعرف لأنّنا كنّا في الجوّ وانتهى العرض على أي حال. وهكذا هبطنا جميعاً واصطفت الطائـــرات وأفراد أطقمها. ثم أقبل الملك في سيارة جيب مكشوفة ومعه الملك حسين للاستعراض وأدى أفراد الأطقم كلهم التحية لهما عند مرورهما بهم".

تابع فيلبس: "عندما وصلا إلى طائرة بندر، توقفا وترجّل الملك حسين وتوجّه إلى بـــندر وصـــافحه، فخفف بذلك عنه شيئاً من الضغط. كان الأمير سلطان بين الجمع وقال لبندر، *ستحاكم عسكريّاً؛ وستُمنع من الطيران*". وأضاف فيلبس: "عقب حركة الطـــيران الـــتي أداها بندر، أدرك أنه في ورطة عصيبة، وعندما تحدثت إليه لاحقاً عن

(*) فـــي مـــصطلح الطيران، يقوم الطيار في سياق إعادة التسخين بتشغيل حراق خلفي، وهو مكون إضـــافي فـــي بعض المحركات النفاثة، يعطي طاقة إضافية كبيرة لمضاعفة سرعة الطائرة لمدة محددة من الوقت.

الحادثة، قال مازحاً، *ارتقيت بشكل عمودي وارتفعت إلى أقصى ما استطعت. قلت في نفسي، سأقفز من طائرتي وإذا أكرمني الله ستدفعني الريح إلى إسرائيل*". وختم فيلبس، وهو يضحك: "كان يعلم أنه أفسد الأمر"[9]. لكن، على الرغم من وقوع الأمير في حرج شديد، فإنّه اختير بكياسة لدورة أخرى في الولايات المتحدة وطوى النسيان الحادثة في غيابه.

في أثناء الخدمة في الظهران، كان بيت بندر الأول مبنى صغيراً من طبقة واحدة، وقد بناه بأحجار خرسانية. لكنّه استخدم تقنية بناء غير عادية: كدّست الأحجار بعضها فوق بعض بشكل عمودي، ودقّت فيها قضبان الفولاذ لتثبيتها، وأخيراً، صبّت الخرسانة في ثقوب في الحجارة، ثم كسيت. وقد لاحظ جو رامسي أنّ "بوسع البيت تحمّل هجوم نووي"[10]. وعلى نحو مغاير لمساكنه الرحيبة والفخمة في الأعوام اللاحقة، كان هذا البيت الأول صغيراً ومتواضعاً، لكنه يفي بنمط حياته في ذلك الوقت، حياة طيار شاب، متزوج حديثاً وعازم على إثبات نفسه كعضو في فريق منسجم من الطيارين الزملاء. في ديسمبر 1972، تزوج بندر بصاحبة السموّ الملكيّ الأميرة هيفاء بنت فيصل بن عبد العزيز آل سعود، إحدى بنات العاهل السعودي الملك فيصل. وعند عودهما من شهر العسل وكانت الأميرة حاملاً بابنتهما الأولى. مارست الأميرة هيفاء الدور التقليدي للزوجة السعودية، فنهضت بأعباء الواجبات المنزلية وتربية الأطفال.

في سنة 1973، رُقي بندر إلى رتبة نقيب. فقد صقل مهاراته في الطيران بعد تدرّبه على الطيران في كرانول، والتدريب كطيار حربيّ متقدّم في الولايات المتحدة، وإعادة التدريب على طائرة F-5. وأصبح - بالتعبير السعوديّ - طياراً متمرساً نسبياً وعلى أتم الجهوزية لتأدية مهمات.

أدخلت حرب أكتوبر 1973 الشرق الأوسط في صراع واسع النطاق، حيث هددت القوات المصرية والسورية باكتساح إسرائيل في هجوم مفاجئ. ومع بداية الأعمال العدائيّة، من دون علم البلدان الغربية، بما فيها الولايات المتحدة، وافق سلاح الجو الملكيّ السعودي على مؤازرة الهجوم المصري والسوري على إسرائيل، وأعطى تفويضاً بمهمّة لعشر طائرات F-5 "هجومية ضاربة" بقيادة بندر. في هذا الوقت، كانت القوات الإسرائيلية تتراجع إلى حدود ما قبل 1967. وبذلت الإدارة الأميركية



في حالة الاستنفار خلال حرب أكتوبر

المستنفرة، بقيادة وزير الخارجية هنري كيسنجر، جهوداً محمومة في محاولة للتفاوض على وقف إطلاق نار لحماية إسرائيل ضمن حدود 1967.

كانت المهمة الخاصة التي تدرّب عليها بندر وفريقه تضمّ خمسة أطقم متمرّسة، كُلفت بشن هجمات على علو منخفض بالنابالم على منشآت النفط والتكرير الإسرائيلية، تليها خمسة أطقم أقل خبرة تتابع القصف بقنابل حارقة. وخلصت التحليلات المستندة إلى محاكاة المهمة إلى أن طياراً واحداً فقط سيعود، على الرغم من أنّ المهمة ستنجز. توجّه بندر وزملاؤه والطيارون إلى المدرج وهم مقتنعون تقريباً باحتمال ألا ينجو في هذه المهمة سوى شخص واحد.

وصف بندر العملية، قائلاً: "كنا - نحن العشرة المؤهلين - نقلع ونتمرن على مهمتنا. كانت هناك خمس طلعات بقنابل شديدة الانفجار، وخمس طلعات بقنابل حارقة تتم بالتحليق خلف البحرين ثم الالتفاف، والوصول إلى الشاطئ على علو 30 قدماً فوق سطح البحر - وهي مناورة صعبة - ثم إسقاط قنابل نابالم على هدف في المملكة العربية السعودية محاكٍ لإيلات". ولاحظ بندر: "كنّا نتوقع أن يكون احتمال الإصابة 9 إلى 1. وبالتالي سيتعرض تسعة من الطيارين العشرة للقتل مع احتمال عودة طيار واحد حياً. وهكذا كانت خطتنا تقضي إذا تعرضت أي طائرة للإصابة أن ينعطف طيارها إلى اليمين بحدة ويعد حتى العشرة، ثم يقفز من الطائرة، لأنه سيكون عندئذ في أجواء الأردن. كانت المسافة قريبة جدّاً. لماذا إيلات؟ لأن في إيلات مخزن وقود إسرائيلي ضخماً - وحرمانهم منه يؤدي إلى تعطيل آلتهم الحربية". وأوضح بندر أنهم تدربوا على المهمة كل ليلة، لكن لم يكونوا في السرب، على علم بموعد تنفيذ المهمة الحيّة الحقيقية. قال: "لذا كانت تلك الليلة، وكل ليلة، تمريناً حيّاً".

يقول بندر، قبل الانطلاق: "كنت أشعر بخوف شديد، ومع ذلك عازماً على إنجاز المهمة. تقدّمت رفّي إلى نهاية المدرج وانتظرت الإذن بالانطلاق. بدت اللحظة دهراً. أذكر كيف كان العرق يتصبّب على وجهي، وكانت ركبتاي ترتجفان رغماً

عـــني". غير أن الأمر بالانطلاق لم يصدر قط. ولم يعرف بندر السبب إلا بعد ثلاثين عاماً.

ففـــي أثناء جولة لإلقاء الخطب في الولايات المتحدة في سبتمبر 2003، كان بـــندر يقـــرأ كـــتاب هنري كيسنجر، "الأزمة: تحليل أزمتين كبيرتين في السياسة الخارجـــية"، حول جهوده لتحقيق وقف إطلاق النار خلال حرب 1973. وتذكّر بـــندر كـــيف أن إدارة نيكسون قالت للمصريين: "إذا واصلتم الحرب، فسناعد الإسرائيليين؛ لن نسمح البتة أن تُهزم إسرائيل. سننشئ جسراً جوياً إلى أن يربحوا". ثم لاحظ "أنّ ذلك حدث تقريباً عندما كان يُفترض أن ننفذ مهمتنا. لقد بلغنا نهاية المدرج استعداداً للانطلاق. كنّا نوشك على تنفيذ الهجوم الحقيقيّ حين تلقينا أمر الإلغاء في اللحظة الأخيرة".

وعلّـــق بندر، الواقعي دوماً، بالقول: "لذا عدنا أدراجنا، ولا بد أن أقول لك إننا تفاجأنـــا جميعاً، إذ في مثل هذه الظروف كنّا كلنا ننفخ ونلهث ونتصبّب عرقاً. ما من شـــجاعة في الحرب، صدقني، إلا بعد خوض غمارها، وبخاصة إذا لم يذق المرء طعمها ويحـــسب أنـــه ذاهب إلى حتفه. وكل الهراء الذي تشاهده في الأفلام السينمائية غير صـــحيح. حينما عدنا إلى السرب، قيل لنا إن المهمة ألغيت. وأصارحك القول إنه ما من أحد في الغرفة كان غير سعيد".

عـــندما أجـــريت مقابلة مع هنري كيسنجر، طرحت عليه السؤال التالي: "هل عرفت أنك في يوم ما أنقذت حياة الأمير بندر ذات يوم؟" ثم كشفت له أنّ بندر كان علـــى وشك قيادة هجوم جويّ شبه انتحاريّ على منشأة نفط إسرائيلية مع انعدام احتمال عودته حياً من تلك المهمة. وأنّ المهمة لم تُلغَ إلا بسبب جهود كيسنجر للتفاوض على وقف إطلاق النار.



هنري كيسنجر

حـــتى ذلـــك الحـــين، كان كيسنجر جالساً باســـترخاء على كرسيّه، وكان يغلق عينيه المبطّنتين وهـــو يـــصغي باهـــتمام، مجيباً عن أسئلتي بصوته العمـــيق. فجأة، اعتدل في جلسته، والتمعت عيناه، وبدت عليه علامات الصدمة بفعل ما بحت به. قال

متعجباً: "لم أكن أعلم البتّة أن السعوديين يوشكون على دخول الحرب"[11]. ولم تكن أميركا تعلم أيضاً.

غادر جو رامسي المملكة العربية السعودية في أغسطس 1973، قبل اندلاع حرب 1973. لكن قبل رحيله، طلب منه بندر القيام بالترتيبات اللازمة كي يعود إلى الولايات المتحدة لتلقي مزيد من التدريب، وبالتحديد لقيادة طائرة F-5E الجديدة التي كانت آنذاك تدخل الخدمة في سلاح الجو الملكي السعودي. يذكر رامسي: "قال، *عليك أن تضع لي برنامجاً متكاملاً*. وضعت له سلسلة مقترحة من التدريبات. على أي حال، عاد بندر وهيفاء إلى سان أنطونيو". وبالتالي، انتقل بندر مجدداً إلى الولايات المتحدة في سنة 1974، حيث التحق بمدرسة ضباط الأسراب في قاعدة ماكسويل الجوية في ألاباما، وتابع دورة تدريب للطيارين (PIT) في قاعدة راندولف الجوية في تكساس. والتحق أخيراً، بدورة تدريب على قيادة F-5E في قاعدة وليامز الجوية قرب فينكس، أريزونا[12]. وهناك التقى للمرة الأولى بالعقيد بوب ليلاك، صديقه الحميم اليوم، الذي كان رئيس برنامج اختبار طائرة F-5E في قاعدة وليامز الجوية.

عندما انتهت الدورات التدريبية، عاد الأمير إلى الظهران في سنة 1975 كقائد سرب في وحدة التحويل العملاني لطائرة F-5، ومسؤول عن تدريب طيارين سعوديين على قيادة طائرة F-5. وعُين أيضاً مسؤولاً عن مشروع "صقر السلام" لتنشيط طائرات F-5 في قاعدة خميس الجوية التابعة لسلاح الجو الملكي السعودي، ونجح في التنسيق مع العاملين الأميركيّين في "صقر السلام" لإدخال الطائرة الجديدة إلى سلاح الجو الملكي السعودي وتدريب طياريه. وأدى دوراً مماثلاً في قاعدة مشيط الجوية من 1976 إلى 1977، فطوّر مهاراته في الطيران فيما كان يعمل على ضمان وصول سلاح الجو الملكي السعودي إلى أرقى المستويات العملانية.

في ذلك الوقت، أصبح مشاركاً في عملية شراء غير عادية للمعدّات بعد لقاء عرَضيّ مع اللورد مونتباتن في صالة الشخصيات المهمة في مطار هيثرو. يذكر بندر كيف أن رجلاً مسنّاً انضم إليه في الصالة وراح يستجوبه.

"من أنت؟ أنا مونتباتن".

أجاب بندر: "أعرفك يا حضرة اللورد. لقد ألقيتَ محاضرة في كرانولِ يوم كنت طالباً فيها".

وعندما اكتشف مونتباتن أن بندر من المملكة العربية السعودية، سأله: "ما هي العلاقة التي تربطك بالعائلة المالكة؟".

أجاب بندر المتهيب: "أنا واحد منها".

وبلكنة بريطانية راقية، قال مونتباتن: "جيد، جيّد. لقد جبت كل أنحاء العالم، ما عدا المملكة العربية السعودية".

أجاب بندر بسذاجة: "إنّني واثق أنك ستكون على الرحب والسعة حين تزور المملكة العربية السعودية".

ردّ مونتباتِن: "نعم، سيكون ذلك جيّداً جداً... هل لديكم طوافات (هوفركرافت)؟ ينبغي أن تكون لديكم طوافات! هل تعلم أن الطوافات بريطانية، وأن إحداها سُميت مونتباتن؟ إذا جئتُ إلى المملكة العربية السعودية، سأتحدث مع جماعتك عن شراء طوافات".

غاب أمر اللقاء عن بال بندر إلى أن استُدعي بعد نحو شهرين إلى وزارة الدفاع في الرياض على الفور. وظناً منه أنه في ورطة ما، عاد كما يجب إلى عمه، الأمير تركي، نائب وزير الدفاع آنذاك، فاتهمه بدعوة مونتباتن لزيارة المملكة العربية السعودية. قال الأمير: "لم أدعُ اللورد مونتباتن"، فقيل له: "لقد بعثت السفارة البريطانية رسالة إلى الديوان الملكي مفادها أن اللورد مونتباتن يود إبلاغ جلالته والديوان الملكي أنه يقبل الدعوة التي وجهها جلالته إليه من خلال الأمير بندر، الضابط في سلاح الجو السعودي". وعلى الرغم من إنكار الأمير ذلك مراراً، فإنّ الأمير تركي أبلغه: "لقد وقع الضرر. سيصل في الأسبوع التالي كضيف على جلالته في الرياض، عليك أن ترافقه طوال رحلته". رد بندر: "حسناً، لكن صدّقني، لم أفعل شيئاً".



مونتباتن بورما

في الحديث عن تلك الزيارة، قال بندر: "حين وصل مونتباتن، أمضيت وقتاً ممتعاً، كان أشبه بكتاب تاريخ يمشي على قدمين. فإذا ذكرتَ اسم أيزنهاور، يبادرك بالقول *أبلغني آيك كذا وكذا...*

وإذا ذكـــرتَ اسم باتون، يقول لك، *آه، أبلغني جورج كيت وكيت*... والأمر نفسه بالنـــسبة إلى مونتغمـــري وتـــشرشل، وما إلى هنالك. لقد علمني في التاريخ، في يوم ونصف اليوم، أكثر مما تعلمته طوال حياتي".

مـــن نـــتائج زيـــارة مونتـــباتن أن المملكة العربية السعودية وافقت على شراء الطوافات.

بين 1977 و1978، أصبح بندر قائداً للسرب رقم 3 الذي يضم طائرات F-5 في قاعـــدة الطائف الجوية، وفي تلك الفترة كافأه سلاح الجو الملكي بميدالية الصقر تقديراً لمهارته في الطيران والقيادة. وعُين بعد ذلك قائداً للسرب رقم 15 الذي يضمّ طائرات F-5 أيـــضاً في قاعدة خميس مشيط الجوية، مع احتفاظه بمسؤوليته في مشروع "صقر السلام".

غـــير أن بـــندر تعرض في سنة 1977 لحادثة طيران سبّبت له مشكلات دائمة في ظهره. كان عمله الأخير قائداً لوحدة التحويل العملانية ومدرّباً رئيسياً؛ وكانت لديه معـــايير صارمة، ويصرّ على التقيد الحرفي بإجراءات السلامة. وكان لا ينثني يردد في تعلـــيماته الوجيزة لطيّاريه في صباح كل يوم: "أنتم أكثر قيمة من كل هذه المعدات. لذا، عندما يعتريكم الشكّ، اقذفوا بأنفسكم خارج طائراتكم".

في نقـــاش عامّ على مأدبة عشاء مع أصدقاء في مكلين، في فرجينيا، توقّف بندر عـــند حادثـــة خالف فيها قواعده بشكل واضح جداً. فذكر أنّ السرب كان يؤدي دوريـــات روتينـــية فور انتهاء شهر رمضان. وقد أعطيت الأوامر إلى اثنين من طياريه بالتحليق فوق معرض جوي في أبها وتأدية بعض الحركات البهلوانية. وأوضح أن الأمر كان ببساطة عرضاً عاماً يقتصر على التحليق على علو منخفض فوق المطار ثم الهبوط. إلا أن أحد الطيارين أصيب بوعكة صحية وكان لا بد من بديل، فقرر الأمير المشاركة في المهمة "كرقم 2".

كانـــت جـــولة خالـــية مـــن الحوادث المهمة، وبعد عودته، قال بندر: "تهيأت لاستخدام الكوابح واخترت إنـــزال العجلات، لكن لم يحدث شيء، لذا طلبت القيام بمـــناورة هبوط بحيث أقترب من أرض المدرج وأسرع في الابتعاد عنها. ثم طلبت من الـــرقم 1 أن يـــتفحص الطائرة فيما حاولت إعادة تشغيل عجلات الهبوط. لم يحدث شـــيء أيضاً، وقيل لي إن أبواب العجلات مفتوحة جزئياً". وتابع بندر روايته والجدية

بادية على وجهه: "في هذه المرحلة يجدر التأكيد على أن إيروديناميات الطائرة F-5 لا ترحم، وهي تتطلّب الهبوط بزاوية حادّة في مواجهة الريح. وكانت قواعد سلامة الطيران بسيطة: إذا لم تستطع إنزال العجلات، فلا خيار أمامك سوى القفز من الطائرة".

وأوضح الأمير: "عند مواجهة الريح بزاوية عالية، تفقد الطائرة سرعتها، ولهذا السبب كانت تعليماتي لكل طيار، في الأعوام السبعة الماضية، *لا تحط بالطائرة البتة إذا لم تنزل العجلات*". ووفقاً لاعتراف بندر: "وقف الأنا بالمرصاد. وحدّثت نفسي، *إنني مدرّب متمرّس في هذا النوع من الطائرات وأنا أيضاً الطيار الانفرادي البهلواني في سلاح الجو السعودي*. ومع أنني أعرف أنّ عليّ القفز من الطائرة، قلت في نفسي، *الهبوط متعذّر، لكن إذا تمكّنت من ذلك، أكون إذ ذاك الرجل الرجل!*".

أوعز بندر إلى برج المراقبة أن يفرش المدرج بالرغوة. لكن ما إن بدأوا بتلك المهمّة، حتى عادت طائرة لايتننغ وطلبت توجيهات الهبوط النهائية. ولمّا كانت هذه الطائرة في وضع حرج بسبب نفاد وقودها، قرّر بندر بصورة اعتباطيّة أن ذلك الطيار بحاجة إلى الهبوط أولاً وأوعز بوقف فرش الرغوة، وهبطت طائرة لايتننغ بسلام. غير أنّ بندر أوضح: "نفد الوقود لديّ أيضاً لكنني بقيت عازماً على الهبوط. اقتربت من المدرج بسرعة أعلى من المعتاد، ما سمح لي بخفض زاوية الهبوط. لكن عندما لامست الأرض أوقفت عمل المخنق. فحطّت الطائرة بكل ثقلها وسط سحب من الدخان والغبار، زاحفة على طول المدرج".

كان الارتطام شديداً وحاول بندر الخروج من الطائرة لحظة توقّفها، غير أنه تذكّر بشيء من الأسى: "أدركت أنني لا أستطيع تحريك ساقي اليمنى وأنني فقدت الإحساس بها. وكان أول الواصلين إليّ رئيس طاقمي، فسحبني من قمرة القيادة وساعدني على دخول سيارة الإسعاف". وعلى الرغم من أنه أمر السائق أن يأخذه إلى المستشفى، فإنّه أصرّ على عدم إطلاع الأركان على الهبوط العسير. واعترف بالقول: "كنت أخشى من أن أخسر تصنيفي في الطيران فأصررت على أن يجروا فحوصات على أسفل الظهر، وكنت لا أزال فاقد الإحساس بساقي اليمنى. خرجت من المستشفى في وقت لاحق، على الرغم من أن ساقي لا تزال خدرة. وكان شغلي الشاغل وقتذاك الخوف من أن توقفني الإصابة عن الطيران".

كانـــت مخاوف بندر في محلها: فقد أدى ذلك الهبوط العسير في سنة 1977 إلى وضـــع حدّ لمهنته كطيار في آخر الأمر، وإن ليس على نحو فوريّ أو مباشر. لكن ما حـــدث بعد ذلك ستكون له نتائج بعيدة الأثر، أبعد من أي شيء كان يمكن أن يفعله كطيار حربـــيّ.

في سنة 1978، عاد بندر إلى قاعدة الظهران الجوية ورقّي إلى رتبة رائد، وأصبح قائـــداً للـــسرب رقم 7 الذي يضم طائرات F-5، و لم يكد يستقرّ في هذه المهمّة حتى انغمـــس على نحو غير متوقّع في مساعدة فريق سعودي في واشنطن، دي سي، وعمل علـــى توفير العون والمعلومات إلى إدارة كارتر لتأمين موافقة الكونغرس على بيع 60 طائرة F-15، أكثر المقاتلات تطوّراً في العالم في ذلك الوقت.

عـــندما دخـــل بندر كرانولِ أول مرة، كان كل ما يريده، وفق اعترافه هو، أن يـــصبح طياراً حربيّاً. بيد أن هناك بعض الأشخاص الذي يرون سبيلهم في الحياة من مـــنظار ضيّق: هؤلاء هم العمال. لديهم دور، سواء أكان في الصناعة، أم التجارة، أم المجـــتمع، أو القوّات المسلّحة. ويترقّون من مرتبة إلى أخرى؛ همّهم الوصول إلى أفضل منـــصب ممكن. لكن هناك أشخاصاً آخرين يستطيعون الرؤية خارج هذا الإطار وفي وســـعهم تخـــيّل الصورة بأكملها. إنّهم يدركون أن التقدّم لا يتحقق إلا بتجميع قِطَع الـــصورة المتبايـــنة لأصحاب الرؤية الضيّقة: هؤلاء هم القادة. وهم يستغلون قدراتهم للقـــيادة ســـواء أكانـــوا مديـــري شركات، أم رجال دولة. لكن ثمة حفنة فقط من الأشخاص الأفذاذ الذين يتجاوزون هؤلاء ويستطيعون التأثير في الأحداث على النطاق العالمي. وقد حرص بندر، منذ انضمامه إلى سلاح الجو الملكي السعودي، على كسب أكـــبر قدر ممكن من الخبرة، فقاد عدداً من أنواع الطائرات والتحق بدورات مختلفة في الـــولايات المـــتحدة. و لم يكن يزيد معارفه فحسب، بل يطوّر أيضاً حلقة واسعة من الأصدقاء في بلد قوي جداً.

حـــين قـــدم بندر لترؤس الفريق السعودي في واشنطن، والسعي للحصول على طائـــرات F-15، كانت تلك خطوته التجريبية الأولى في السياسة. وعندما ابتعد عن قيادة الطائرات، لم يعد في وسعه العودة.

كان تاريخ مبيعات الأسلحة الأميركية للمملكة العربية السعودية مضطرباً. وكما أوضـــح بندر: "في عهد كنيدي، أردنا شراء طائرات F-104 ستارفايتر لأن المصريين

والـــروس كانوا في اليمن آنذاك ونشروا طائرات ميغ 21 هناك. كانت لدينا طائرات F86 فقط ونريد طائرة تفوق سرعتها سرعة الصوت لمواجهتهم. غير أن كنيدي لم يستطع إقـــرار الـــصفقة في الكونغرس. وأشير علينا أننا إذا عقدنا صفقة مع البريطانيين، فإن أميركـــا لن تعترض عليها، ومن ثم جرى التفاوض بشأن صفقة لايتننغ وهنتر". وتابع الحـــديث: "قـــال الأميركيون للمملكة المتحدة، سنبيعكم *طائرات F-111 وC-130 مقابـــل بـــيعكم طائرة لايتننغ لسلاح الجو الملكي السعودي*. وهكذا حصلت المملكة المـــتحدة علـــى الطائـــرات F-111 وC-130 وحصلت المملكة العربية السعودية على طائرات لايتننغ – تدعى بساط الريح – في صفقة كاملة".

في ذلـــك الوقت، كانت أميركا تحاول بيع الطائرات الضاربة F-111 وطائرات الـــشحن C-130 للمملكة المتحدة، إلا أن ميزان مدفوعات المملكة المتحدة غير المؤاتي أعـــاق المـــضي في إتمام الصفقة. غير أن قيام المملكة العربية السعودية بشراء طائرات لايتنـــنغ وهنتر وفَّر للمملكة المتحدة السيولة النقدية اللازمة لعملية البيع. وقد استُنبط الحـــل لمعرفة الأميركيّين أنه إذا لم يستطع السعوديون الحصول على ما يريدون، فإنهم سيـــشترون طائرات ميراج 3 الفرنسية. وقال بندر: "لم يرد البريطانيون والأميركيون حدوث ذلك. لذا انتهى الأمر بحصول كل طرف على ما يحتاج إليه. حصلنا نحن على طائـــرات لايتننغ التي تبلغ سرعتها 2 ماك (ضعفا سرعة الصوت)، وحققنا أيضاً هدفنا الاستراتيجي في مواجهة الروس. وحصل البريطانيون على طائرات F-111 وC-130، وحصل الأميركيون على صفقتهم". وأضاف بندر مبتسماً ابتسامة عريضة: "ولم يحصل الفرنسيون على أي شيء".

وأعاد بندر رواية تسلسل الأحداث الذي أوقع كارتـــر في مأزق محاولة التوفيق بين مصالح إسرائيل ومصالح الأمن القومي فقال: "زار الرئيس نيكسون المملكة العربية السعودية ومصر سنة 1974، ووافق علـــى بيع المملكة طائرات F-15. لكنه استقال بعد ذلك وبسبب استقالته، تعطلت الصفقة. وتلاه فورد في الحكـــم، ففاتحـــناه في الأمر. ووافق فورد، لكنه طلب التأجيل إلى ما بعد الانتخابات. لقد قطع على



الرئيس جيرالد فورد

نفسه عهداً لا يتحقق إلا إذا أُعيد انتخابه. وعندما خسر فورد في الانتخابات، توجّهنا إلى كارتر، وقلنا، *لقد وعَدَنا فورد، هل يمكنك التنفيذ؟* فقال، *أمهلوني بعض الوقت*". ومــــن دون علم السعوديين، ازداد موقف الرئيس تعقيداً عندما تقدّمت إسرائيل بطلب سري في يوليو 1977 للحصول على 150 طائرة F-16 و25 طائرة F-15.

إن مفـــتاح فهم العوائق، والاعتراضات، والرفض المتكرّر الذي واجه محاولة بيع أســـلحة مـــتطوّرة للمملكة العربية السعودية هو العلاقة الخاصة القائمة بين الولايات المـــتحدة وإســـرائيل. فالفهم الدقيق لطريقة عمل النظام السياسي الأميركي، ووجود مجمـــوعة ضـــغط فائقـــة الفاعلية والتنظيم تتخذ شكل لجنة الشؤون العامة الأميركية الإســـرائيلية (أيـــباك AIPAC)(*)، يمـــدان إسرائيل بنفوذ واسع في السياسة الخارجية الأميركـــية في الـــشرق الأوســـط. وهـــيّأت هذه العلاقة لإسرائيل فرصة لا نظير لها للحصول على أحدث أنظمة الأسلحة والتكنولوجيا الأميركيّة. وتمدّ الولايات المتحدة تاريخـــياً إسرائيل بأنظمة أسلحتها المتطوّرة بما يضمن لها تفوقاً عسكرياً بالغاً في الشرق الأوســـط. وعلـــى الرغم من أنّ موقف إسرائيل غير منيع على نحو فريد، فإنّ مزيج القـــدرة العسكرية الفائقة والاعتراف الأميركي بشرعيتها السياسية وفّر الحماية للحق اليهودي في إعادة الاستقرار في الوطن التوراتي.

مـــن الأمثلة الواضحة على حق إسرائيل في الحصول على أفضل معدّات عسكرية التطويـــر والتوزيع المبتكرين للطائرة F-15 إيغل. فهذه الطائرة، المصمّمة لتكون أكثر النفّاثات الهجوميّة تطوّراً في العالم، وأولى الطائرات المخصّصة للقتال الجوي منذ طائرة الحـــرب الكورية F-86 سابر، لم تسجل أرقاماً قياسية في السرعة والارتفاع فحسب، وإنّمـــا أيضاً عبرت المحيط الأطلسي من دون توقف ومن دون إعادة التزود بالوقود[13]. وهي من صنع شركة "ماكدونل دوغلاس" ويتحكّم بها نظام معلومات طوّرته شركة IBM، وأول طائـــرة حـــربيّة على الإطلاق ذات نظام تحكّم رقميّ بالكامل، وقد بلغ

(*) تأسست اللجنة الأميركية الصهيونية للشؤون العامة (AZCPA) في 22 مارس 1954. وقد أعيدت تـــسمية هذه المنظمة لاحقاً بلجنة الشؤون العامة الأميركية الإسرائيلية "أيباك" (AIPAC)، وذلك فـــي سنة 1959، وأنيطت بها مهمة "تنسيق وإدارة الأعمال العامة بالنيابة عن الحركة الصهيونية الأميـــركية، والتأثير في العلاقات مع السلطات الحكومية، بغية المحافظة على الصداقة المتعزّزة وحـــسن النوايا بين الولايات المتحدة وإسرائيل". و"أيباك" هي الهيئة الوحيدة الموجودة في أميركا والمسجلة لدى الكونغرس لممارسة الضغط والدعاية في ميدان العلاقات الأميركية – الإسرائيلية.

سعر الطائرة الواحدة منها 30 مليون دولار بالتمام والكمال. وعندما خرجت طائرات F-15 الأولى من خط الانتاج سنة 1976، ذهبت إلى سلاح الجوّ الأميركيّ بالطبع، وذهبت الدفعة الثانية من 25 طائرة إلى إسرائيل مباشرة.

غير أن إسرائيل لم تكن البلد الوحيد في الشرق الأوسط الذي يتمتع بعلاقات وديّة خاصّة مع الولايات المتحدة. فثمّة علاقة مستترة قائمة بين أميركا والدول العربية الحديثة المنتجة للنفط. وكان كل من الرئيسين نيكسون وفورد يدركان تماماً هذا الانسجام، الذي ترجع أسسه إلى "النفط مقابل الأمن"، وهي معادلة تشكّل المبدأ المركزيّ للعلاقة الأميركية السعودية التي وفّرت مكاسب ملموسة لجميع الأطراف المعنيّين. وعلى الرغم من الاختلافات الدينية، فإنّ المصالح الاستهلاكيّة صاغت رابطة تعود بالمنفعة المتبادلة على الولايات المتحدة والمملكة العربية السعودية.

لكن عندما قرر الرئيس فورد التوصية ببيع صواريخ جو - أرض متطوّرة من طراز "مافريك" للمملكة العربية السعودية في سنة 1976، بغية تأمين تأييد المملكة لخفض أسعار النفط داخل منظمة الأوبك (منظمة البلدان المصدرة للبترول)، واجه معارضة شديدة من أيباك. ومرّ اقتراحه بصعوبة بالغة. وعلى الرغم من موافقة فورد على مساندة الطلب السعودي لطائرات F-15 إذا أعيد انتخابه، فإنّه اختار إرجاء عرض الصفقة على الكونغرس إلى ما بعد نتائج تلك الانتخابات.

إنّ ما جعل اقتراح بيع طائرات F-15 المثير للخلاف إلى المملكة العربية السعودية يحدث ضجّة كبيرة هو أنّها المرة الأولى في التاريخ الأميركيّ التي لا يضطر فيها الرئيس فيها إلى الإقرار صراحة بهذه الصداقة واحترامها فحسب، وإنما العمل أيضاً تبعاً لمصالحها المباشرة، على الرغم من مصالح إسرائيل. هنا بالضبط، يكمن المغزى الحقيقي لمبيع F-15 وللضغط الشديد الذي مورس في واشنطن قبل التصويت على تلك الصفقة في الكونغرس. وقد عبّر سيث تي. ثيلمان عن ذلك بصراحة: "تجاوزت المسألة شكليّات التوازن العسكريّ، وبلغت حد الإحاطة بالجوانب السياسية والنفسية للعلاقات الخاصة بين إسرائيل والولايات المتحدة، وبين المملكة العربية السعودية والولايات المتحدة"[14]. وقد عجّل الطلب السعودي شراء طائرات F-15 بحدوث نقاش يخضع العزم الأميركيّ في الشرق الأوسط لامتحان غير عاديّ. ومع ذلك لم يكن الطلب خطوة غير محسوبة تقدم عليها المملكة، فقد قدّمت الإدارات المتعاقبة كل

الإشـــارات على أن الصفقة ستحظى بالموافقة. فخلال زيارة رسمية إلى المملكة العربية الـــسعودية ســـنة 1976، تعهد وليام بـــي. كليمنتس جونيور، نائب وزير الدفاع في عهد الرئيس فورد، أن تساعد الولايات المتحدة المملكة العربية السعودية في أن تستبدل بطائراتها القديمة أي طائرات مقاتلة أميركية يطلبها السعوديون. لذا لم يكن من المفاجئ أن تطلـــب المملكـــة الأفـــضل، وهـــي البلد الثريّ والغنيّ بالنفط والمنغمس في بوتقة صراعات الشرق الأوسط. ومن المثير للاهتمام، ما قيل عن أن أميركا لم تحبذ فقط بل أوصـــت بشدة أن تكون F-15 المتطوّرة الخيار الأول لسلاح الجو الملكي السعودي. وقـــد ضـــغط ســـلاح الجو الأميركي بقوة لبيع الطائرات F-15 بغية خفض تكاليف الإنـــتاج وتـــسريع الحصول عليها[15]. لذا، ليس من المفاجئ أن يكون أول ما توقّعته المملكـــة من إدارة كارتر حديثة العهد، إلى جانب العزم الأميركيّ على تشجيع السلام في الشرق الأوسط، السماح بشراء الطائرات F-15.

على الرغم من أنّ الرغبة في السلام قد تبدو متعارضة مع الرغبة في التسلّح، فإن الرغبة في السلامة – الأمن القومي – تتغلّب على الأمرين معاً. غير أن مؤيدي إسرائيل رأوا أن الحاجـــة الـــسعودية إلى التـــسلّح تفتقر إلى الشرعية، وأنّ أي أسلحة يملكها السعوديون تشكل تهديداً خطيراً لإسرائيل.

كانـــت هـــناك أدلّة كثيرة تؤيد الحجّة الإسرائيلية. فقبل الجدل بشأن F-15 بعـــامين، نقلت صحيفة نيويورك تايمز قول ولي عهد المملكة الأمير فهد: "إن كل القـــوات المسلّحة لبلداننا هي قوة للدفاع عن الشعوب العربية والقضية العربية"[16]. وعلى نحو ذلك، تعهّد الأمير سلطان، وزير الدفاع السعودي، للشعب السعودي أن تكـــون "جميع أسلحتنا تحت تصرّف البلدان العربية، وأن تستخدم في القتال ضدّ العدو المشترك"[17].

ومـــا زاد في قلق إسرائيل همسات في الكونغرس عن طلب لاحق سعودي لنظام "أواكـــس" (نظـــام الإنذار والسيطرة المحمول جوّاً). وهو نظام متطوّر جدّاً ومكلف بحـــيث لم تتمكّن حتى إسرائيل من إضافة هذا النظام المتطوّر إلى ترسانتها. ومع ذلك كان الموضوع المطروح هو بيع الطائرات F-15، ومن منظور السياسة الأميركية، وعلى الرغم من الحجج الإسرائيلية الحادة، فإنّ حقّ المملكة العربية في التسلّح والأسباب التي تدفعها إلى ذلك لا يمكن إغفالهما.

فعلى حدودها الشرقية توجد دولة إيران المتقلّبة بشكل متزايد، والتي يبلغ عدد سكّانها خمسين مليون نسمة في مقابل سبعة ملايين نسمة في المملكة العربية السعودية. كما أنّ التهديدات من إسرائيل، مقرونة بتهديدات من أنظمة ماركسية مدعومة من السوفيات في اليمن الجنوبي وإثيوبيا، كانت أسباباً صالحة جدّاً لكي يطلب السعوديون التسلح بأحدث التكنولوجيا. ومن الطبيعيّ أن تشعر المملكة، التي يوجد في أرضها أضخم احتياطي نفطيّ في العالم، بالقلق على أمنها القومي. وقد عبّرت عن ذلك مجلّة "الإيكونومست" اللندنية: "لدى السعوديين مبرّر جيّد للشعور بالتوتّر، فهم يعيشون في جوار صعب ويملكون أضخم احتياطيٍّ نفطٍ في العالم"[18].

دفع حجم التهديد الموجّه إلى المملكة العربية السعودية إلى نشر تقرير في الولايات المتحدة برعاية سعودية، يخلص إلى أنّه "في الأعوام العديدة الماضية، اضطرت المملكة العربية السعودية إلى مواجهة ضغط شيوعي متزايد في شمالها وجنوبها وجنوب غربها. وبسبب سياسات المملكة المؤيّدة للغرب وثروتها العظيمة، فإنّها الآن وستبقى، الهدف الرئيسي للتوسّع السوفياتيّ، والتطرّف السياسي في الشرق الأوسط"[19]. وقدّمت خريطة للمنطقة إيضاحاً بيانيّاً يظهر طوق الأنظمة المدعومة من الشيوعيين التي تهدد المملكة العربية السعودية. وذكر هنري كيسنجر المعاصر لتلك الفترة: "إن غرض السوفيات في أثيوبيا هو الالتفاف حول الشرق الأوسط، وإظهار أنّ الولايات المتحدة لا تستطيع حماية أصدقائها، وإشاعة شكوك في المملكة العربية السعودية ومصر والسودان وإيران"[20].

حظيت الحجج السعودية بتأييد حاسم من الرئيس كارتر، الذي رأى أنّ في تطوّر العلاقة بين المملكة العربية السعودية والولايات المتحدة فائدة واضحة لإسرائيل. ففي خطاب ألقاه في مايو 1978، كرّر الرئيس التعبير عن حرصه على أن تواصل الولايات المتحدة "المحافظة على شعور المملكة العربية السعودية أننا أصدقاؤها" وأنّ "بإمكانها الوثوق بنا عندما نقدّم التزاماً". وأضاف: "أعتقد أن من الأفضل لإسرائيل أن تكون لدينا هذه العلاقة الجيّدة والثابتة والمتينة والمبنية على الثقة المتبادلة والودية مع الزعماء العرب المعتدلين"[21].

كانت الأسباب الأمنية المبرِّرة لتسليح المملكة العربية السعودية مقرونة بأدلّة بنّاءة على أنّ النوايا السعودية دفاعيّة بطبيعتها، لا هجوميّة. وفي رسالة كتبها وزير الدفاع هارولد براون إلى رئيس لجنة العلاقات الدولية في مجلس النواب، قُدّمت ضمانات

أكـيدة أن المملكة ستستخدم طائرات F-15 "للدفاع المشروع عن النفس" وأنّها لن تـزوّد بها إلا إذا وافقت على "عدم نقل الطائرات إلى دولة ثالثة، أو السماح لمواطنين مـن بلـد آخـر بالتدرّب عليها، أو قيادتها، أو الوصول إليها من دون الحصول على موافقة الولايات المتحدة"[22].

وقـد تعـزّزت تلـك الضمانات كثيراً بالعلاقة المديدة بين المملكة الصحراوية والـولايات المـتحدة، علاقـة قائمة بصراحة شديدة على النفط والأمن. ففي مقابل المساعدة العسكرية الأميركية دفاعاً عن المملكة، يبقى النفط السعودي متاحاً للولايات المـتحدة. كمـا أن المبادئ المحافظة التي تتمسّك بها المملكة تحاكي بشكل مميّز النهج الأميركيّ تجاه المشكلات في الشرق الأوسط.

كـان الـرئيس كارتـر يدرك ضخامة وتعقيدات القضايا المتنازع عليها في بيع طائرات F-15 للمملكة العربية السعودية، لذا قال إنّه ليس لديه "ما يعتذر عنه البتة في تقديمـه هذا الاقتراح"[23]. غير أنّ كارتر كان في أثناء حملة الانتخابات الرئاسيّة شديد الانـتقاد لـسياسة الرئيس فورد الخارجية المؤيّدة للعرب، وأعرب مراراً عن مساندته القـوية للقضية اليهودية. كما أدلى بتصريحات قويّة ضدّ اقتراح فورد بيع أسلحة لمصر والمملكـة العربية السعودية وذكر في خطاب في 6 يونيو 1975 أن "بقاء إسرائيل ليس مجرد مسألة سياسية، إنه واجب أخلاقي"[24].

كـرّر كارتر في بداية عهده أنّ "التزامنا الأول في الشرق الأوسط هو حماية حق إسـرائيل في الوجـود، الوجـود الدائم وبسلام"[25]. لكن على الرغم من هذه الآراء المعارضـة لمبيعات الأسلحة إلى الشرق الأوسط في أثناء الحملة الرئاسيّة، فإنّ الرئيس المنـتخب حديثاً، بعد توقّف قصير في الرياض بين زيارتين إلى طهران وأسوان في يناير 1978، عـاد وهـو مصمّم على عدم النكوث بالالتزام الأميركي الذي قطعه الرئيس فورد للسعوديين.

في المقابلـة التي أجريتها مع الرئيس كارتر، دافع بقوّة عن قراره في هذه المسألة، موضـحاً أن القرار كان هدفاً شخصياً وأخلاقياً بالنسبة إليه: "من الأشياء التي أردت القـيام بهـا، من منطلق الإنصاف والأهمية الاستراتيجية بالنسبة إلى الولايات المتحدة، المـساعدة في تجهيز المملكة العربية السعودية للدفاع عن نفسها". وأضاف: "كان بيع الطائـرات المقاتلـة المتطوّرة، F-15، ثم طائرات الإنذار المبكر "أواكس"، إلى المملكة

العـــربية الـــسعودية مـــسألة مهمّة جدّاً عندي. وقد واجه ذلك معارضة شديدة من اللوبـــــي الإسرائيلي الذي كان في ذلك الوقت، ولا يزال، الأقوى في واشنطن، ولم ينجح قط إقرار أي اقتراح كهذا في الكونغرس، وهو، كما تعلم، يتأثّر كثيراً بأيباك"[26].

قيل إن دعم كارتر بيع الأسلحة إلى المملكة العربية السعودية، ثم ريغن بعد بضعة أعوام (رغم أنهما يدعوان إلى استراتيجيات متعارضة تماماً)، يرجع إلى أن تلك المبيعات كانت مهمّة جدّاً بالنسبة إلى الأمن القومي. ويعكس موقفهما وضع المملكة كحليف والسياسة الواقعية للعلاقة المعقّدة بين الولايات المتحدة والدول العربية المنتجة للنفط[27]. باختصار، تدلّ مبيعات F-15 وأواكس إلى المملكة العربية السعودية على نهج براغماتي تجـــاه المعادلـــة المعقّدة التي تشمل السياسة الخارجية والاقتصاد الأميركيّين، والانطباع الهش بالثقة والصداقة القائمين بين المملكة العربية السعودية والولايات المتحدة.

في أواخـــر الـــسبعينيات، وأوائل الثمانينيات، ازداد المثلث السعودي الأميركي الإســـرائيلي تعقيداً، حيث كانت السياسة الخارجية السعودية تهدف إلى "الحث على دور أميركي فعال في التشجيع على تسوية سلمية شاملة في الشرق الأوسط"[28]. وعلى الـــرغم مـــن الاطمئنان السعوديّ الأوليّ إلى اهتمام الرئيس كارتر النشيط لإيجاد حلّ سلمي بين العرب وإسرائيل، فقد أدى استمرار التذبذب الأميركيّ في المنطقة إلى تململ ســـعوديّ مـــن السياسة الخارجية الأميركية. فبعد أن وعدت إدارة فورد ببيع المملكة طائـــرات F-15، كانـــت القيادة السعوديّة تأمل بإعادة انتخاب فورد. لكن مع تسلّم كارتـــر الرئاسة، التزمت المملكة العربية السعودية دبلوماسياً بوعدها بتأخير أي طلب رسمـــي لشراء أسلحة من أميركا خلال عام الانتخابات وانتظرت حتى مايو من العام التالي قبل تقديم طلب شراء 60 طائرة F-15.

زادت الـــزيارة التاريخية التي قام بها الرئيس المصري أنور السادات إلى القدس في تـــشرين الثاني/نوفمبر 1977، وهي الزيارة التي أفضت إلى اتفاق كامب ديفيد في نهاية المطـــاف(*)، مـــن المخـــاوف السعودية من احتمال فقدان فرصة تحديث سلاح الجو

(*) لقـــيت رحلة السلام التي قام بها الرئيس المصري إلى إسرائيل تأييداً كبيراً من الولايات المتحدة. وقـــد بلـــغ التأييد حد أن العديد من أعضاء مجلسي النوّاب والشيوخ عارضوا خطياً أي مبيعات مـــستقبلية للأســـلحة إلى الشرق الأوسط، حتى قبل أن يقترحها الرئيس كأداة لدعم رحلة الرئيس أنور السادات الجريئة إلى القدس.

السعودي المتقادم بصورة متزايدة. غير أن توقّف كارتر في الرياض، في يناير 1978، ردّ علـــى كل تلك المخاوف، وفي 14 فبراير 1978، أعلنت إدارة كارتر عن نيّتها بيع 60 طائـــرة F-15 للمملكـــة، و50 طائرة F-5E لمصر(*)، و15 طائرة F-15 مع 75 طائرة مقاتلة قاذفة من طراز F-16 لإسرائيل.

لعـــل أفضل خطوة قام بها كارتر بخصوص صفقة طائرات F-15، وأكثرها إثارة للخـــلاف، تعمده ربط بيع أسلحة لإسرائيل ببيع أسلحة لدول عربية. وهو قرار جاء نتيجة سلسلة مواقف مشؤومة ومتناقضة فُرضت على إدارته. لقد كانت رزمة وفّقت بـــين التـــزامه الأخلاقيّ والعاطفي بحقّ الشعب اليهودي في إعادة الاستقرار "في وطنه الـــتوراتي" والتـــزام أخلاقي بدعم حقوق الفلسطينيين كجزء من واجب شامل تجاه حقـــوق الإنسان. وذلك مبدأ مركزي من مبادئ سياسته الخارجية. كان كارتر يدرك تماماً أنّ تعهّد الرئيس فورد أخذ يتحوّل بسرعة إلى دَيْن شرف للسعوديين، وكان عليه أيـــضاً التـــصارع مع حساسية مجلس الشيوخ الحادة تجاه مبيعات الأسلحة إلى الشرق الأوســـط، ومـــع الطلب السري الذي قدمته إسرائيل في يوليو 1977 بخصوص 150 طائـــرة F-16 و20 طائـــرة F-15. ومـــن حسن حظ الإدارة أنّ موقف البنتاغون أن إسرائيل ليست بحاجة عسكرية ماسّة إلى هذه الأسلحة وفّر لها مبرراً بتأخير اتخاذ قرار بشأن طلب إسرائيل. وبوجود الطلب الإسرائيلي على الطاولة، استطاع كارتر دمجه في منظومة استغلال معقّدة مصمّمة بشكل واضح لإقرار صفقة الأسلحة العربية المقترحة في مجلـــس الشيوخ. وأطلق الرئيس بذكاء الاقتراح بتعمّد ربط طلبات الأسلحة الثلاثة المقدمة من إسرائيل ومصر والمملكة العربية السعودية في مشروع قانون واحد. ثم قدم مـــشروع القانـــون إلى الكونغرس في 28 أبريل 1978، وحذّر صراحة أنه سيعمد إلى سحب الاقتراح بكامله في حال رفض أي جزء من رزمة المبيعات.

كان وقع اقتراح مبيعات الأسلحة على الأوساط السياسية في واشنطن هائلاً. فقد أشار إلى نقطة تحوّل في تكتيكات ممارسة الضغط، لا تكتيكات "أيباك" فحسب، وإنما تكتـــيكات اللوبـــــي المؤيّد للعرب أيضاً، الذي هدد لأول مرة طول باع "أيباك" في الكونغرس الأميركي.

(*) F-5E طائرة لم يعد يستخدمها سلاح الجو الأميركي لكنها بيعت على نطاق واسع لبلدان في العالم الثالث. وفي هذه الحال، كانت المملكة العربية السعودية ستدفع ثمن طائرات F-5E المصرية.

تأسّـــست "أيباك" سنة 1959 لخدمة الحركة الصهيونية الأميركية، وممارسة نفوذ علـــى العلاقات مع السلطات الحكومية بغية تحسين أواصر الصداقة وحسن النوايا بين الولايات المتحدة وإسرائيل؛ وهي مجموعة ضغط حسنة التكوين وقوية ومسجّلة لدى الكونغـــرس ومعنـــية حصراً بتحسين العلاقات الأميركية الإسرائيلية وحمايتها. بيد أن تـــورّط "أيباك" في معركة طائرات F-15 كان بالغاً. "لقد كان نشاط المنظمة وقدرتها علـــى الوصـــول إلى كبار صنّاع القرار كبيرين نسبياً. لكن، اعتُبرت أهداف سياستها معاديـــة ومستفيـــضة وغـــير بناءة؛ وهدفها الرئيسيّ إلغاء الجزء السعودي من صفقة الأسلحة المقترحة"[29].

مـــع ذلك، وُجِّهت "أيباك"، لأول مرة، بلوبـــي عربـــي منظّم. وأُخذت على حـــين غـــرّة بالـــتحوّل الـــشكليّ للوبـــي المؤيّد للعرب بالنظر إلى سجله السابق في واشـــنطن. ويعكـــس هذا الواقع المتغيّر اقتباساً على لسان أحد المساعدين في واشنطن وارداً في كتاب هوغ ليفين "النفوذ العربـــي" *(Arab Reach)*، "ظهر العرب فجأة في واشـــنطن سنة 1978. حدث ذلك بسرعة فائقة. لم يكن لهم أي أثر بالأمس، وها هم اليوم. إنّ التقدّم الذي حقّقوه لا يصدَّق"[30].

توافق هذا التغيير مع وصول بندر إلى واشنطن. ففي سياق مساعدته الأمير تركي بـــن فيصل، ترك بندر بسرعة بصمته في الدائرة السياسية في واشنطن. ويقول الرئيس كارتر متذكراً: "لم نكن نحرز تقدّماً كبيراً في شأنها [صفقة بيع F-15]، ثم تعرّفت فجأة إلى بـــندر من خلال كبير موظفي البيت الأبيض، هاملتون جوردان، متجاوزاً السفير السعودي تماماً. قال إنّ أباه، الأمير سلطان، انتدبه لمساعدتنا في هذا المشروع". وتابع الـــرئيس، "لم أكن أعرف كيف يمكن أن يكون لرائد شاب في سلاح الجو أي تأثير، لكـــن تبـــيّن لي بعدما تحدّثت إليه أنّه دمِث، وملمّ جدّاً بالغرب، وفصيح، وأنّ لديه بطبيعة الحال روابط مباشرة مع أعلى المستويات في العائلة المالكة. لم أكن ألتقي ببندر كل يوم، لكن كان لدي شعور أنه مقيم في البيت الأبيض بشكل أساسي. كان يعمل مع موظفيّ بأُلفة ومثابرة واستمرار تقريباً"[31].

في أثناء الضغط للحصول على طائرات F-15، غالباً ما كان بندر يواجَه بجمهور معـــادٍ. وفي روايـــة لإحدى المواجهات الكلامية، قال بندر: "أتذكر دائماً السيناتور الـــراحل تـــشيرتش. كـــنا نناقش صفقة طائرات F-15 وتناولنا طعام الغداء مع لجنة

العلاقـــات الخارجية. جلس أمام زملائه وتوجّه إليّ بمناشدة عاطفيّة أن ثمة قاعدة جوية سعودية في شمال المملكة العربية السعودية اسمها تبوك تبعد خمس دقائق فقط عن مركز سكاني إسرائيلي. وقال: ألا تستطيع أن تشعر، سيدي الأمير؟ ألا تستطيع أن تشعر بما يـــشعرون؟ إنهم قلقون، ويمكن مهاجمتهم من قاعدتكم في غضون خمس دقائق، إلى ما هنالك".

"شـــعرت بالدهشة من شدّة انفعاله: ظننت أنّ مينوسوتا ستتعرض لهجوم. لكنني فوجـــئت بقلّة المعلومات لديه، وسبب عاطفيّته، وغياب عامل المنطق لديه، أنّ الرواية أحادية الجانب دائماً. يرويها أحدهم ويتلقّفها الآخرون كما هي ويصدقّونها ويمضون. إنّ ما نحاول القيام به هو إعادة التوازن إلى تلك الرواية".

"نظرت إلى السيناتور أمام زملائه وقلت، *أوافقك الرأي أيها السيناتور، لو كنتُ أبعـــد خمس دقائق عن عدوّ محتمل لأحسست بقلق شديد؛ لكن هل لي أن أذكّرك أن إســـرائيل كانت قبل ذلك بخمس سنوات تبعد عشر دقائق*". وبعد توقف قصير، قال بـــندر: "وقبل خمس عشرة سنة كانت تبعد خمس عشرة دقيقة. أنا لم أنقل قاعدتي إلى الـــشمال؛ هـــم الذين اقتربوا مني. وختم بالقول: "إذا أبعدهم خمس عشرة دقيقة إلى حيث كانوا، سنكون كلنا سعداء"[32].

على الرغم من الطبيعة فائقة الحساسية والمتقلّبة لصفقة طائرات F-15 المقترحة في واشـــنطن، فإنّ كارتر رفض تأخير التصويت، الذي تقرّر إجراؤه في 16 مايو 1978. غير أنه كان متشدّداً في عدم المضي قدماً إلا بعد إتمام عمله بشأن معاهدة قناة بنما(*).

وقـــال كارتر، متحدثاً عن معاهدة قناة بنما: "كنّا بحاجة إلى صوت واحد أو صـــوتين، وكـــان هناك سيناتور يدعى جيمس أبو رزق، وهو لبناني الأصل ولديه

(*) وقـــع الـــرئيس جيمي كارتر ورئيس الحكومة البنمية عمر توريخوس معاهدة قناة بنما ومعاهدة الحـــياد فـــي 7 سبتمبر 1977. وقد قضى الاتفاق بتخلي أميركا عن السيطرة على القناة في سنة 2000 وضـــمان حـــيادها. ففي سنة 1903 قدّمت قوة عسكرية أميركية العون إلى ثوار في بنما يطالـــبون بالاســـتقلال عن كولومبيا. وفي 4 مايو 1904، منحت بنما الولايات المتحدة حق بناء وتـــشغيل القناة والسيطرة على أرض تمتدّ خمسة أميال على جانبي القناة لقاء مبالغ مالية سنوية. وكـــان يُقصد بمعاهدتي قناة بنما لسنة 1977-1978 تصحيح قضيّة سبّبت نزاعاً طويل الأمد في العلاقات بين الولايات المتحدة وأميركا اللاتينية. وبحلول الستينيات، أدت دعوات بنمية إلى بسط الـــسيادة علـــى منطقة القناة إلى تدهور العلاقات الأميركية مع بنما. ورأى الرئيس كارتر عودة القناة المدخل إلى تحسين العلاقات الأميركية في نصف الكرة الغربي.

روابط معروفة جيداً مع المملكة العربية السعودية والعالم العربي؛ كان متردداً جداً". كان أبو رزق أول أميركي - عربي يُنتخب عضواً في مجلس الشيوخ الأميركي، ويدين صراحةً نفوذ "أيباك" الواسع في الكونغرس باعتباره خطيراً. "لذا، اتصلت بصديقي الجديد بندر وقلت له إننا بحاجة إلى صوت أبو رزق"، وتابع معترفاً أن السيناتور سيكون منفتحاً إلى بندر "الساحر والجذاب الذكي والفعال جداً"، بحسب كلماته. وقد كان مصيباً. فبعد أيام قليلة من طلب المساعدة من الأمير للحصول على صوت السيناتور، تلقى كارتر من جيمس أبو رزق فيه ما مفاده أنّه سيصوّت للمعاهدة. وأضاف الرئيس، "نجحنا في إقرار الاتفاقية بهامش صوت واحد. ولذلك شعرت دائماً بالتقدير للمساعدة التي قدّمها بندر، لأنها كانت نقطة تحوّل في العلاقات في نصف الكرة الغربي. فقد كانت الولايات المتحدة تتعرض لإدانة شبه جماعية من بلدان أميركا اللاتينية لأن الرؤساء جونسون، ونيكسون، وفورد كلهم ديمقراطيين وجمهوريين وعدوا بتعديل اتفاقية قناة بنما الجائرة جداً والتي أُنجزت، على الرغم من معارضة البنميين. لقد كان أمراً لا بد من إتمامه. وهكذا أفلحنا أخيراً"[33].

بتأمين هذا الصوت المهم للرئيس، لم يكتسب بندر احترام الرئيس كارتر فحسب، بل متَّن أيضاً صداقة شخصية ما زالت قائمة حتى اليوم. ويقول كارتر، "كان التحدي السياسي الأكبر الذي واجهته في حياتي، بل إنه تجاوز تحديات حملتي الرئاسية، إقراري معاهدتي قناة بنما، وتلك خطوة ضرورية ومهمة جداً. لكنها لم تكن تحظى بشعبيّة لدى الرأي العامّ، لأن رونالد ريغن وآخرين من خارج الحكم ما انفكوا يلومونني بشدة على التخلّي عن قناتنا وبيعها لديكتاتور وضيع في بنما". ويقول كارتر موضحاً الربط بين التصويت على F-15 والتصويت على قناة بناما: "كانا اثنين من أكبر أعمال التصويت التي جرت في أثناء تولي سدّة الرئاسة؛ لكن الأهم كثيراً بالنسبة إلي هو معاهدة قناة بنما"[34].



جيمي كارتر يشكر بندر مساعدته في اتفاقية قنال بنما وتصويت أف - 15

كان الإقرار الناجح لتلك المعاهدة شرطاً مسبقاً وضرورياً أيضاً لبيع طائرات F-15 للمملكة العربية السعودية. فالإخفاق في الأُولى سيحول بالتأكيد دون تقديم بيع F-15 إلى الكونغرس. لذا تضاءل دور بندر في تأمين إقرار صفقة F-15 أمام أهمية تمكّنه من تغيير موقف السيناتور أبو رزق، الذي لولا صوته لمنيت إدارة كارتر هزيمة قاسية بشأن معاهدة قناة بنما. وبدلاً من ذلك، عنى التصديق على معاهدة قناة بنما أن اللوبي اليهودي الإسرائيلي يواجه، في معارضته صفقة F-15، احتمال الوقوف أمام إدارة حازمة، تمكّنت مؤخّراً من تحقيق انتصار كبير في السياسة الخارجية، وتعرف تماماً أنّ الكونغرس لم يسبق له قط أن رفض التصديق على صفقة أسلحة مقترحة.

سرعان ما تبدّدت تحفّظات كارتر الأولية على قدرة بندر على التأثير في الكونغرس، ما حدا بالرئيس إلى القول: "إذاً، كان ذلك التزاماً كبيراً من جانبي وصرنا نعتمد على بندر الذي تبين أنه متحدّث فعّال جداً، ويجدر بي أن أستخدم كلمة صاحب تأثير في الكونغرس". وبشعور واضح بالاعتزاز، قال: "كانت تلك أول مرة على الإطلاق تتمّ فيها مواجهة لوبي قوي بنجاح"[35].

لم يقتصر استغلال الرئيس كارتر لموهبة بندر الدبلوماسية المتنامية على ما جرى مع السيناتور أبو رزق. فثمة عامل يزيد صعوبة معركة طائرات F-15 في الكونغرس، وهو التحدي الذي لاح من المرشح الجمهوري رونالد ريغن في الحملة الانتخابية. ففي مسعى لتأمين تصويت إيجابي على بيع طائرات F-15 إلى المملكة العربية السعودية، وتسهيل إقرار الصفقة، وجدت إدارة كارتر أن تأمين تأييد ريغن ضروري لاستمالة الأصوات في مجلس الشيوخ بشأن F-15، إذ كان لريغن تأثير قوي في المحافظين في مجلس الشيوخ. وفي المقابل، كان ريغن يحرص بوضوح على ألا يظهر في صف المؤيدين للرئيس الديمقراطي. غير أن كارتر كان يدرك ذلك تماماً فأرسل بندر لإقناع ريغن بإعلان تأييده للصفقة.

اتصل بندر هاتفياً بطوم "تي.في" جونز، وهو في ذلك الوقت الرئيس التنفيذي لشركة "نورثروب" (الشركة المصنّعة لطائرة F-5 التي سبق للمملكة العربية السعودية أن اشترتها)، وكان أحد مستشاري ريغن أيضاً. فما كان من جونز إلا أن رتّب موعداً للقاء بين بندر وريغن.

عند تقديم بندر إلى الرئيس القادم للمرة الأولى، طُرح على الأمير سؤالان مباشران: "هل أنت شيوعي؟" و"هل تؤيد المملكة العربية السعودية الولايات المتحدة؟" طمأن بندر الحاكم ريغن إلى أن للولايات المتحدة حليفاً مخلصاً وقديم العهد في المملكة السعودية المحافظة. وشدّد أيضاً على عدم وجود صلات بين المملكة العربية السعودية والشيوعية، بل إنّها في الواقع لا تطيق الأنظمة الشيوعية إلى حد أن المسافرين الشيوعيين المعروفين كانوا إذا توقفوا في المملكة العربية السعودية يُمنعون حتى من مغادرة طائراتهم.

بعدما قدّم بندر الجواب المرضي عن هاتين النقطتين، سأل ريغن عما إذا كان سيؤيد اقتراح الرئيس كارتر بيع طائرات F-15 إلى المملكة العربية السعودية. وهنا يتذكر الأمير رد ريغن المقتضب: "حسناً، سأؤيده؛ لكن جئني بصحافي يطرح عليَّ سؤالاً في هذا الصدد". وروى الأمير كيف أبلغ صحيفة "لوس أنجلوس تايمز" أن ريغن سيؤيد كارتر في بيع طائرات F-15 إلى المملكة العربية السعودية. لم يصدقّوا ذلك في الصحيفة، لكنهم أرسلوا مع ذلك صحافياً إلى المطار حيث كان ريغن يستعد للسفر إلى إيران. فسأل الصحافيّ ريغن: "هل تؤيد اقتراح الرئيس كارتر بيع طائرات F-15 إلى المملكة العربية السعودية؟" أجاب ريغن: "لا أرى أي مانع، إنهم أصدقاؤنا لذا سأؤيد هذا الأمر، لكنني أختلف مع كارتر في كل شيء آخر". وتذكر بندر إصرار ريغن على التحذير: "لكنني لا أؤيد أياً من سياسات كارتر الأخرى".

في هذا اللقاء الأول بين بندر والرئيس القادم، نشأت المصالح المتبادلة المشتركة بين الشخصيتين الواعدتين والبلدين اللذين يمثلانهما. وفي بضع سنوات قليلة، تجسّدت المقاربة المعادية للشيوعية في السياسة الخارجية، والمواقف المحافظة الثابتة التي يتشاطرها الرئيس القادم والسفير السعودي التالي في الولايات المتحدة على شكل مبدأ ريغن بالغ الأهمية، وفي صداقة شخصية وطيدة.

تواصلت جهود بندر بشأن طائرات F-15. وفيما كان يجوب في أنحاء الولايات المتحدة محاولاً كسب أصوات أعضاء مجلس الشيوخ، كان عليه، كما يذكر: "أن يلتقي سيناتوراً من الجنوب يدعى لونغ". وبعد سماعه كلام بندر المقنع، نظر السيناتور لونغ إلى عيني بندر وقال: "صوتي سيكلفكم 10 ملايين دولار!".

ظنّ بندر أن ثمة محاولة للإيقاع به فقال، "ماذا تقول؟".

كرر لونغ: "صوتي سيكلفكم 10 ملايين دولار".

أجاب بندر: "أيها السيناتور، لستُ هنا لأساومك على مال... أنا هنا فقط كي أشرح موقفنا، وآمل أن أتمكن من إقناعك بالتصويت في مصلحة هذا الموقف".

أوضح السيناتور قصده بالقول: "لم تفهمني أيها الشاب الأحمق... لا أريد المال لي، أريد أن تؤكد لي أن حكومتك ستودع 10 ملايين دولار في أحد مصارف مديني. أنتم تحتفظون بمالكم في نيويورك، لِمَ لا تنقلون جزءاً يسيراً منه إلى لويزيانا؟ وقبل أن تفعل ذلك، دعني أعرف مسبقاً كي أقول لمدير المصرف إنه سيحصل على مال سعودي لاستثماره في مصرفه. وعندئذٍ سيموّل إعادة انتخابي. وحالما يعاد انتخابي يمكنك استرداد المال في أي وقت".

وجد بندر أن مثل هذه الصفقات مفيدة. وفي تلك الأيام، كان لدى السعوديين الكثير من الأموال في "تشيس مانهاتن". وروى بندر أنه طلب من ديفيد روكفلر المساعدة في إقناع أعضاء معينين في مجلس الشيوخ بالتصويت لمصلحة صفقة F-15. لكن لم يحدث شيء على الرغم من الوعود المتكررة بالمساعدة.

توصّل بندر إلى قناعة أن روكفلر يخدعه بوعود كاذبة، فاتصل بولي العهد الأمير فهد وشرح له المشكلة.

سأله الأمير فهد: "ماذا تقترح؟".

أجاب الأمير بندر: "يمكن أن تأمر وزير المالية بنقل 200 مليون دولار من تشيس مانهاتن إلى جي بي مورغان... وأن تمنحني سلطة إعادة المبلغ ساعة أقرر".

قال ولي العهد: "لك ذلك".

وأضاف بندر متذكراً: "في اليوم التالي، اتصل روكفلر بي عند الثامنة صباحاً، كنت لا أزال نائماً. واتصل مجدداً عند التاسعة، كنت مشغولاً. اتصل عند العاشرة، كنت قد خرجت. وعند الرابعة عصراً، اتصل بي موظف الاستقبال في فندق ماديسون وقال، *السيد روكفلر في ردهة الفندق ويريد الصعود إلى غرفتك ليقابلك*. أجبته، *قل له لديّ اجتماعات وسأكلمه بعد انتهائي منها*".

وأشار بندر: "أبقيته في قاعة الاستقبال حتى الساعة السادسة مساءً". بل إن بندر أبلغ روكفلر عندئذ أنه مشغول جداً ولا يسعه التحدّث إليه، إذ إنّه في طريقه إلى مبنى الكونغرس ليحاول تأمين الأصوات التي وعده بها.

أجاب روكفلر مرتبكاً: "سأبقى في واشنطن إلى أن أؤمّن لك الأصوات التي تريدها".

وذكر الأمير أن روكفلر "أخذ يتصل بي كل ليلة على مدى ثلاثة أيام ليقول لي، *حصلت على صوت السيناتور فلان أو السيناتور فلان*. وبعد نحو ثلاثة أيام، عندما حصل على أصوات كل أعضاء مجلس الشيوخ الذين وعد بهم، وفوقهم صوتان آخران، طلبت من وزير ماليتنا إعادة مبلغ 200 مليون دولار إلى تشيس مانهاتن".

لكن، بينما كان بندر يوظّف مهاراته في الإقناع في مناورة رفيعة المستوى لصالح الرئيس كارتر، كانت رحى المعركة الحقيقية على الأصوات تدور بين اللوبي المؤيّد للعرب واللوبي المؤيّد لإسرائيل. وجد اللوبي المؤيّد للعرب، وهو حديث النشأة وجيّد التنظيم يقوده الأمير بندر ويلهمه، أكبر تأييد له في الشركات. فقد انضمّت الشركات الضخمة التي يقوم عملها على الصناعة النفطية، بما في ذلك "فلور"(*) و"بكتل" و"كمبيوتر ساينسيز"، و"موبيل" بطبيعة الحال - وكلها صناعات عملاقة مقارّها في هيوستن - إلى حملة دعم صفقة طائرات F-15 للمملكة العربية السعودية.

من دون خبرة سياسية وبقليل من الوقت للتحضير، تبنّى بندر فلسفة البساطة (KISS). وطلب من محاميه، فرِد داتون، وهو مساعد خاص سابق للرئيس جون أف. كنيدي والمستشار الأكثر فعّالية في الضغط لصالح صفقة F-15 السعودية، إعداد موجز بسيط من صفحتين عن اتحاد العمل الأميركي ومجلس المنظّمات الصناعية (AFL-CIO). وبعد تحليل تقنيات الضغط التي يستخدمها "أيباك" عادة، رأى الأمير أن اقتراح بيع طائرات F-15 يعادل إنفاق المملكة العربية السعودية 5 مليارات دولار لدى "ماكدونل دوغلاس" والشركات المتعاقدة معها من الباطن، وأنّ عقداً بهذه الضخامة يوفّر فرص عمل في الولايات المتحدة. واعتقد أن ذلك يمنح القضيّة العربية ثقلاً كبيراً. كان بندر يشعر أنه فارس وحيد، بحسب قوله، لذا نقل القضيّة إلى نقابات العمال في "ماكدونل دوغلاس"، التي جاءت بدورها بالمتعاقدين معها من الباطن. وكانت النتيجة تحقيق نجاح غير عاديّ، فبدأت حملات بريدية واسعة تضاهي الحملات المؤيدة لإسرائيل.

(*) تبني شركة فلور Fluor مصانع لاستخراج النفط والغاز والفحم والوقود المركّب ونقلها وتكريرها ومعالجتها. وأكبر مشاريع هذه الشركة، التي تعد واحدة من أكبر الشركات العاملة في هذا المجال، مشروعها في المملكة العربية السعودية، الذي تقدّر قيمته بخمسة مليارات دولار.

يقـــول دوغـــلاس بلومفيلد عن أسلوب عمل بندر، وهو من الأعضاء السابقين الـــذين كانوا يعملون لمصلحة "أيباك" وقد التقى الأمير في أثناء معركة F-15: "طرح كـــثير مـــن الأســـئلة حول كونه فارساً وحيداً، أو عاملاً مستقلاً، يتجاوز تعليمات حكومـــته. فقـــد وقع في ورطة، واستُدعي وقيل له، *لقد تجاوزت حدودك*". وأضاف بلومفـــيلد: "لكنّني أظن أن بندر شخصية جريئة. ومن وجهة نظري المؤيدة لإسرائيل، قدّم مساهمة كبيرة في محاولة تخفيف التوتر"[36].

في مـــا يـــتعلّق بالنـــزاعات العربية الإسرائيلية المريرة، وتحذير الأمير فهد له من الـــتورّط في نقاشـــات تثير الضغائن، كان بندر يتهرّب من مثل هذه الأسئلة بالقول: "تريدون التحدّث عن الفلسطينيين؛ تريدون التحدّث عن الشرق الأوسط؟ لا شأن لي بذلك، أنا طيار حربـــيّ. وأستطيع أن أبلغكم عن السبب العملاني الذي يجعلنا نحتاج إلى F-15 – انتهى"[37].

في أثـــناء حملـــة طائرات F-15، تأثّر بندر كثيراً بنصيحة من تِب أونيل، رئيس مجلـــس الـــنواب الأسطوري من ماساشوستس. فطالما قال أونيل: "السياسة بأكملها سياســـة محلية. لا يهم ما تأخذه منها، فبيت القصيد هو أنّها سياسة محلية". وقد حذّر بـــندر مـــن أنّ ردّ الفعـــل الأميركي سيخيّب أمله في الغالب، إذا فهم أنّ العلاقة بين المملكـــة العـــربية السعودية والولايات المتحدة مسألة سياسة خارجية. ونصحه قائلاً: "لكـــن إذا اعتبرت أنّك مسألة محلية وأصدرت حكماً بناء على ذلك، أي أنّني أحاول تـــسويق شـــيء كما يفعل المزارعون أو صناعة السيّارات أو الطائرات، عندئذ فقط يمكنك الاطمئنان إلى أنّ في وسعك توقّع ما سيكون عليه ردّ الفعل الأميركي".

أخـــذ بـــندر بـــتلك النـــصيحة، شارحاً الاستراتيجية السعودية في الكونغرس، "وهكـــذا، فـــإن ما فعلناه أساساً – وذلك لا يتطلّب عبقرية – أنّنا نظرنا إلى ما كان يفعلـــه الإســـرائيليون وعكسناه، فوضعنا المملكة العربية السعودية بدلاً من إسرائيل. أخـــذنا الخطة نفسها ونفّذناها، لكننا أحللنا أصوات العمال والنقابات محل الأصوات اليهودية، وكل من سيستفيد من الصفقة. وعندما رأينا أنّ أصوات الشيوخ لا تأتي من مـــنظور المـــبرّر الاســـتراتيجي للسياسة الخارجية، وإنما من منظور محلي، *لديك أيها الـــسيناتور خمسون ألف عامل سيستفيدون من الصفقة، والأمر مرهون بك؛ هل تريد إعطـــاء صوتك أم لا؟* المسألة الآن مسألة محلية صرف، بل إنّها ليست قوميّة، مسألة

تخص كل ولاية على حدة". وختم قائلاً: "في العادة يحصون العمالة على أساس أن إنفاق مليار دولار يوفّر خمسين ألف فرصة عمل، أو يحافظ عليها. لذا فإنّ عقداً بقيمة 5 مليارات دولار يوفّر 250 ألف فرصة عمل. وذلك أمر يحقّق نجاحاً بصرف النظر عن الموضوع المطروح".

استخدمت المملكة العربية السعودية أيضاً العديد من المؤسسات القانونية وصناعة العلاقات العامة لوضع حملات دعائية. وتضافرت جهود المملكة العربية السعودية، والعراق، والجزائر، وليبيا، والإمارات العربية لتجنيد خدمات خمسة وعشرين وكيلاً أجنبياً مدفوعي الأجر، ليعملوا بالنيابة عنها في مقابل واحد وعشرين وكيلاً لإسرائيل.

رأى السعوديون صفقة طائرات F-15 بمثابة اختبار حاسم للدعم الأميركي. وفي البداية رفضوا فرض أي شروط أو إجراء أي تعديلات على الصفقة، وأبلغوا المسؤولين الأميركيين أن تأخير الصفقة لا يقلّ سوءاً عن رفضها. وكان لديهم، بفضل وضعهم الاقتصادي، سبب وجيه لاتخاذ هذا الموقف. كانت المملكة في وضع يخولها دفع ثمن الطائرات التي طلبتها، وذلك سيناريو فريد في عالم مبيعات الأسلحة المربح، في حين أنه نقطة التفاوض الحقيقية الوحيدة في أي موقف تجاري آخر. لكن كان هناك العديد من العوامل المتضاربة التي تفعل فعلها، بالنظر إلى مقتضيات الموقف المعقدّ في الشرق الأوسط والقواعد الفريدة المطبقة على السياسة وصفقات الأسلحة.

من تلك العوامل مزاعم "الابتزاز النفطي"، وهي تُهم نفتها المملكة العربية السعودية بشدة. ومع ذلك، لم تكن المسألة بعيدة عن ذهن الرئيس، وبخاصة بعد تصريح وزير النفط السعودي في 1 مايو 1978، أن رفض الصفقة سيفتر كثيراً "الحماسة لمساعدة الغرب والتعاون مع الولايات المتحدة"، وسيدفع السعوديّين للشعور أن أميركا "غير معنية بأمننا ولا "تقدّر صداقتنا"[38]. وشدّد أيضاً على أن "ربط طائرات F-15 بمبيعات النفط ليس مبرَّراً"[39]. وقد سارعت المملكة إلى تأييد هذا التصريح، وأكّدت على نحو يزيل المخاوف أن "إنتاج النفط السعودي وأسعاره بالدولار قائمان على أسس اقتصادية فقط، ولن تكون المحافظة عليهما أو تغييرهما إلا على أساس الاعتبارات الاقتصادية"[40].

أياً تكن الحال، فإن الميزان الاقتصادي الدقيق بين المملكة العربية السعودية والولايات المتحدة، كان قائماً على النفط، ووفّر حجة مقنعة للمحافظة على الصداقة لمصلحة الأمن القومي. وقد أقر بذلك جون بي. ريتشاردسون، مدير الشؤون العامة

للجمعية الوطنية للأميركيين العرب، عندما حثّ الأميركيين على "مواجهة حقيقة أن المصالح الأميركية تتضمن استمرار الحصول على السلعة التي تشغّل كل شيء"[41]. ومما أضاف إلى هذا الضغط، أنّ الإدارة تدرك تماماً أن إخفاق الصفقة سيدفع المملكة العربية السعودية إلى نقل ثروتها بلا تردد إلى مكان آخر، وربما تشتري الطائرات الفرنسية "ميراج F-1"، فضلاً عن احتمال أن تموّل تطوير طائرة تضاهي F-15.

وردت حماية حقول النفط السعودي من تهديد شيوعي محتمل في رسالة من الملك خالد إلى الرئيس كارتر، أبرز فيها الحاجة إلى إضعاف "التوسع الشيوعي في المنطقة". كان لهذه الحجة لاحقاً تأثير في إدارة ريغن وقد تلقّفها هارولد براون، وزير الدفاع في عهد كارتر. إلا أن وزير الخارجية السابق، هنري كيسنجر انتقد نفاق الإدارة بقوله: "لا يمكن أن يقول المرء إنّها لا تؤثّر عسكريّاً في إسرائيل، ولكن يمكن أن يكون لها تأثير عسكري في التهديدات من الجانب السوفياتي"[42].

تورّط هنري كيسنجر بشدّة في صفقة طائرات F-15، داعماً لها، لكنّه كان يفضّل ما يمكن اعتباره محاولة لرشوة إسرائيل كي تهدأ "أيباك". فأوصى لجنة العلاقات الخارجية في مجلس الشيوخ ببيع 20 طائرة F-15 إضافية لإسرائيل بحيث تشكّل مع الطائرات التي تم تسليمها من قبل، توازناً في عدد طائرات F-15 لدى كل من إسرائيل والمملكة العربية السعودية. واقترح أيضاً فرض قيود على نشر الطائرات السعودية، وعلى بيع معدات تابعة. وقد سلّم الرئيس كارتر بذلك في آخر المطاف، وفي 11 مايو 1978، وعد ببيع 20 طائرة F-15 إضافية لإسرائيل، وأكد للإسرائيليين أنه لن يبيع المملكة خزانات وقود إضافيّة، أو منصّات القنابل، أو صواريخ جو-جو، ولن يسمح بمرابطة الطائرات في مواقع تشكل خطراً على إسرائيل. والأهم من ذلك أنّه وعد بعدم بيع المملكة طائرات "أواكس".

خلال هذه الفترة شديدة التعقيد، سرت تخمينات أن إسرائيل فاوضت على صفقات أسلحة بقيمة 900 مليون دولار تقريباً، ووقّعت مذكرة تفاهم لتسريع تسليم طائرات F-16، بالإضافة إلى تأمين التعاون مع الولايات المتحدة في مشاريع البحث والتطوير. وعلى الرغم من تلك التنازلات، استمرت جهود "أيباك" الحثيثة لإعاقة الصفقة، معتبرة، مثل السعوديين، أن المسألة الحقيقية ليست المعدّات العسكرية المتنازع عليها، وإنما هي اختبار للتحالف.

ظهر دليل آخر على الأهمية التي يعلّقها كلا الطرفين على "الاختبار الحاسم" في أثناء مناقشة مجلس الشيوخ مبيعات الأسلحة لمصر، وإسرائيل، والمملكة العربية السعودية في 15 مايو 1978. ففي جلسة مغلقة قدّم السيناتور مكلور تقريراً عن محادثات خاصة أجراها في الرياض في يناير 1978 مع وزير الخارجية السعودي، الذي قال: "لقد أصبحت صفقة الطائرات للأسف ذات دلالة رمزية في أذهاننا. إنها رمز لما إذا كانت الولايات المتحدة ستبقى صديقة للسعوديين يُعتمد عليها أم لا"[43].

على الرغم من أن النقاش بشأن طائرات F-15 كان حامياً بالفعل، فإنه سرعان ما شهد تصعيداً. ففي 11 مارس 1978، عبر مقاتلون فلسطينيون تابعون لمنظمة التحرير الفلسطينية من جنوب لبنان إلى إسرائيل عن طريق البحر، وخطفوا حافلة ركاب على الطريق الساحلي، وقُتل في الحادث 37 شخصاً. وفي 14 مارس ردت إسرائيل بشن عملية الليطاني - غزو جنوب لبنان حتى نهر الليطاني بنحو عشرين ألف جندي، ما أدى إلى سقوط الآلاف من اللبنانيين بين قتيل وجريح - وفي واشنطن، تزايدت المصالح المتضاربة والتصميم الشديد لدى اللوبيين، ما أدى إلى صدام داخلي حاد بين الرئيس ومجلس الشيوخ بشأن السيطرة على السياسة الخارجية.

وُوجهت حجج كارتر لصالح بيع طائرات F-15 باعتبارها مسألة أمن قومي بمعارضة حازمة داخل مجلس الشيوخ. ومع ذلك، اتخذت لجنة العلاقات الخارجية في المجلس قراراً غير عادي في 15 مايو 1978 بإعادة التصويت على صفقة F-15 إلى مجلس الشيوخ من دون توصية، بعد تعادل الأصوات ثمانية في مقابل ثمانية. ومن منطلق الاعتقاد أن الصراع الداخلي يفسد المصداقية في الخارج، كان كارتر يأمل بتجنّب معركة مفتوحة في مجلس الشيوخ، لكن المعركة وقعت.

أرسل مؤتمر الرئيس برقية إلى كل عضو في الكونغرس في 10 مايو 1978، تعارض الصفقة بشدّة باعتبارها "مضرّة بالمصلحة القومية، وتهديداً لأمن إسرائيل، وعائقاً أمام مفاوضات السلام"[44]. ووصف مساعد رفيع المستوى في الكونغرس الموقف في الكابيتول هيل في ذلك الوقت، أنه "ليٌّ أذرع لم يسبق له مثيل في كلا الجانبين"[45]. ولعل موقف البيت الأبيض غير الحاذق أن نتيجة التصويت ستعكس من بالضبط يدير السياسة الخارجية - رئيس وزراء إسرائيل واللوبي الإسرائيلي أم رئيس الولايات

المتحدة - يقدّم مؤشراً أكبر على قوة المشاعر التي ولّدها النقاش وتشعّبات القرار النهائي.

في 16 مايو 1978، بعد يوم واحد على الذكرى السنوية الثلاثين لقيام دولة إسرائيل، صوّت مجلس الشيوخ 54 صوتاً في مقابل 44 صوتاً ضد اقتراح إعاقة عملية بيع الأسلحة ثلاثية الأطراف. وتلك المرة الأولى في التاريخ الأميركي التي تدافع فيها الولايات المتحدة صراحة عن صداقتها مع دولة عربية رغم الاعتراضات الإسرائيلية الحادّة.

الفصل الثالث

رأس جبل الجليد

"سمعة المرء كالظل، تكون هائلة الحجم حين تسبقه، وصغيرة جداً حين تتبعه".

شارل – موريس دي تاليران

يسرني أن أبلغكم أن المملكة العربية السعودية قرّرت تعيين المقدّم الجوي بندر ابن سلطان مسؤولاً عن الاتصال بالحكومة الفدرالية، بعد أن تجاوزت قضيّة صفقة الأسلحة للمملكة العربية السعودية إطارها السياسيّ ودخلت إطارها التقنيّ، وبعد التوصّل إلى اتفاق وإرسال الصفقة إلى الكونغرس. وبالتالي فإن الجانب الأهم في هذه القضيّة الآن، هو التنسيق الكامل بين عمل فريق الحكومة الأميركية، وعمل الفريق السعودي الذي يرأسه المقدم بندر بن سلطان، وذلك لإجراء الاتصالات الضرورية بطريقة تضمن تحقيق التقدّم وأفضل النتائج[1].

قدّمت هذه الرسالة، التي كتبها السفير السعودي إلى الولايات المتحدة، فيصل الحجيلان، بندراً كوسيط بين المملكة العربية السعودية والولايات المتحدة بشأن صفقة أسلحة كبيرة تضمّ خمس طائرات "أواكس".

وكانت حقبة أواخر السبعينيات قد شهدت سلسلة حوادث مزعزعة للاستقرار في الشرق الأوسط، ما سبّب خوفاً كبيراً في واشنطن والرياض على حدٍّ سواء. فقد وقعت الثورة الإيرانية، وأطيح بالشاه، واحتجز الرهائن الأميركيون في طهران بعد ذلك، وأعقب ذلك بوقت قصير الغزو السوفياتي لأفغانستان في 16 ديسمبر 1979، واندلاع الحرب الإيرانية العراقية في 2 سبتمبر 1980.

نظر السعوديّون إلى توسّع الاتحاد السوفياتيّ العدوانيّ باعتباره تهديداً خطيراً. وكانوا مقتنعين تماماً أنّ المخطّط الكبير للكرملين يقضي بالتقدّم نحو آبار النفط السعوديّة[2]، بعد غزو الجيش الأحمر أفغانستان وتمركزه على بعد عدّة مئات من الأميال عن المملكة. وأعلن أحد أعضاء العائلة المالكة: "إنّ الوجود العسكريّ السوفياتيّ في

كوبا لا يشكّل تهديداً خطيراً للأمن الغربيّ بقدر التهديد الذي يشكّله الوجود الروسيّ في الخليج وفي القرن الإفريقي"[3].

كان ردّ المملكة السعي لدعم موقفها عبر حيازة معدات وتكنولوجيا عسكرية متطوّرة، بما في ذلك طلب شراء طائرات "أواكس" من الولايات المتحدة. وبدأ انخراط بندر في صفقة طائرات "أواكس" بعد ستة أيام على نشوب الحرب بين إيران والعراق. وفي 28 سبتمبر 1980، قام الجنرال ديفيد جونز، رئيس هيئة الأركان المشتركة، بزيارة رسمية إلى المملكة العربية السعودية بناء على طلب بندر. ولدى وصوله استقبله الأمير، الذي قال له بلهجة مؤثرة وصريحة جداً: "إنّنا نريد طائرات أواكس على الفور. نريد طائرات أواكس لمراقبة الخليج على مدار الساعة. إنّنا بحاجة إليها. ولا يمكننا حماية المملكة من دونها. هل تستطيع أن تؤمنها لنا؟"[4].

لم يكن هذا الطلب مثيراً للدهشة. ويذكر العقيد في سلاح الجوّ الأميركيّ بوب ليلاك، الذي أصبح في ما بعد طرفاً أساسياً في معركة طائرات "أواكس" والمطلع على عملية تحديث سلاح الجو الملكي السعودي وفق مشروع "صقر السلام"، قائلاً: "أجرينا [في سلاح الجو الأميركي] دراسة كبرى تتعلّق بحاجات المملكة. ومن بينها الحاجة إلى المراقبة المحمولة جواً. فالحدود الساحليّة للمملكة العربية السعودية طويلة جدّاً، وتحتاج إلى إنذار مبكر أفضل مما يمكن الحصول عليه من راداراتها القائمة. وفيما كنا نوشك على إنهاء الدراسة، قرّر سلاح الجو الأميركي، مع وزارتي الدفاع والخارجية ومجلس الأمن القومي، أنّ علينا المساعدة في حماية المقدّرات النفطية، وأوصى أن يشتري السعوديون طائرات أواكس"[5].

وأوصى التقرير أيضاً أن يتولى الأميركيون تصميم وإنشاء القواعد الجوية الخاصة بهذه الطائرات بحيث تستطيع الطائرات الأميركية استخدامها (وقد استخدمتها في حرب الخليج) إذا ما حدثت أزمة في الشرق الأوسط.

على الرغم من المعارضة التي أبداها مستشارو كارتر، الذين حذّروا من ردّ فعل سلبيّ من المقترعين فيما كانت حملة الانتخابات الرئاسيّة سنة 1980 تقترب من ذروتها، فقد نجح جونز في إقناع الرئيس بالاستجابة للحاجة السعودية. وبعد مرور وقت قصير على زيارته المملكة واجتماعه مع بندر، حطّت أربع طائرات "أواكس" بأطقمها الأميركية في المملكة العربية السعودية في "مهمة تدريب مؤقتة". وعملت بعد

ذلك على مدار الساعة وعلى مدار السنة، وبقيت هناك نحو سبعة أعوام. وكي تعرب المملكة عن امتنانها، رفعت إنتاج النفط، فانخفضت أسعاره.

تــؤمّن تكنولوجيا طائرات "أواكس"، مقرونة بقدرات عسكرية أخرى، تغطية راداريــة متواصلة لمنطقة الخليج، وتمنح السعوديين فترة إنذار تتراوح بين عشر دقائق وخمس عشرة دقيقة قبل حصول هجوم جوي على حقول نفطهم. وهي بقدرتها على تعقــب 240 هــدفاً أو طائرة معادية في وقت واحد، وتوجيه طائرات لاعتراض تلك الأهــداف أو الطائــرات، تشكّل نظام رادار القيادة والسيطرة الأكثر تطوراً في العالم والمــتقدم أجيالاً على أفضل ما لدى السوفيات آنذاك من تكنولوجيا. وقد يسّر دمج طائرات "أواكس" في نظام القيادة والسيطرة السعودي لمقاتلات F-15، إمكانية تنفيذ طلعة واحدة على الأقل ضد أي مهاجم قبل أن يتسنى لهذا الأخير ضرب هدفه. وأتاح للسعوديين أيضاً توجيه بطاريات صواريخ "هوك" والاشتباك بشكل فعال مع الطائرات المهاجمة، بل وحتى تأمين بعض التنسيق الداعم لمقاتلاتهم F-5E.

أثارت هذه الطائرات الأربع المستعارة بشكل مؤقت شهية الجيش السعودي، و لم يمضِ وقت طويل حتى طرحت الحكومة السعودية السؤال الذي لا مفرّ منه: هل ستبيع إدارة كارتر المملكة العربية السعودية خمس طائرات "أواكس"، وسبع طائرات صهريج KC-135؛ وبالمناســبة، هــل يمكننا أيضاً الحصول على بعض معدّات مقاتلات F-15 وصواريخ جو – جو لقاء 8.4 مليارات دولار؟

كــان ذلــك الطلــب قنبلة سياسية: فإسرائيل تخشى من سلاح الجوّ السعودي الحديث، وقد وعد الرئيس الكونغرس تحديداً سنة 1978 بألا يسمح للسعوديين بشراء طائــرات "أواكس". ومع ذلك، أبلغ وزير الدفاع هارولد براون السعوديين أن كارتر *يميل* إلى بيع المملكة طائرات "أواكس".

وبعد مناقشات بين البيت الأبيض ووزارة الدفاع ووزارة الخارجية، أُعدت صفقة لــتقديمها إلى الكونغــرس. وتنص الصفقة، إلى جانب بيع السعوديين خمس طائرات "أواكــس"، علــى بــيع خــزانات وقود متطابقة(*)، ومناصب حقن متعددة تسمح

(*) خــزانات الوقــود المتطابقة (CFTs) هي خزانات وقود إضافية تتوافق بشكل وثيق مع القطاع الجانبي للطائرة. وهي تطيل مدى الطائرة أو فترة وظيفتها مع تأثيرات إيروديناميه سلبية أقل مما تحدثه خزانات الوقود الخارجية التي يجري التخلص منها عادة.

للمقاتلات القاذفة F-15 بحمل المزيد من القنابل، وطائرات صهريج KC-135 لإعادة تزويد طائرات F-15 بالوقود في الجو، وصواريخ جوّ - جوّ متطورة "سايدويندر" (AIM9-L).

كان التوقيت مشؤوماً؛ إذ لم يبقَ أمام كارتر سوى أسابيع قبل أن يترك منصبه. وفي عدة لقاءات في ديسمبر 1980 بين الرئيس كارتر الخارج من الحكم والرئيس المنتخب ريغن، عرض كارتر منح المملكة العربية السعودية حق شراء الأسلحة الجديدة، متيحاً بذلك للرئيس ريغن المجال لتفادي التورّط في مسألة خلافيّة جداً في مستهل رئاسته. غير أن ريغن رفض العرض، مشيراً إلى كارتر أن إدارته ستجري تقويمها الخاص لسياسة الشرق الأوسط، بما في ذلك موضوع بيع الأسلحة للمملكة العربية السعودية[6].

يجدر تذكّر المصاعب التي واجهها ريغن لدى توليه الرئاسة سنة 1981. كان الشرق الأوسط في حالة اضطراب شديد؛ والولايات المتحدة تعاني من الأضرار التي لحقت بمكانتها على المسرح العالمي بسبب طريقة تعامل إدارة كارتر مع أزمة الرهائن الأميركيين في إيران؛ والاقتصاد الأميركي يترنح بفعل تأثير أسعار النفط التي قفزت سبعة أضعاف تقريباً؛ والاتحاد السوفياتي "يتقدّم من قوة قارية إلى قوة عالمية"[7].

انتُخب رونالد ريغن لتعهّده بإحداث انقلاب في الاضطرابين الاقتصادي والعسكري اللذين عانت منهما الولايات المتحدة في السبعينيات. ومع ذلك، كانت رؤيته مقيدة بضوابط حادّة للموازنة. فقد تعرّضت أميركا لضربة قوية بارتفاع أسعار النفط في سنتي 1973 و1979. كما أنّ رغبة الرأي العام في القيام بمغامرات عسكرية جديدة كانت منخفضة، بعد مرور عقد على الحرب في فيتنام. مع ذلك، كان ريغن عازماً على متابعة أجندته المناوئة للشيوعيين، وبتشجيع من مدير وكالة الاستخبارات المركزية (CIA) بيل كيسي، سارع إلى اعتبار المملكة العربية السعودية بمثابة مساعدة محتملة من أجل حملته المزمعة ضد الاتحاد السوفياتي. بالإضافة إلى ذلك، تستطيع الولايات المتحدة، إذا قدّمت المساعدة إلى السعوديين، ضمان تدفق النفط على نحو مستقر وبأسعار معقولة. وبدا أن بيع طائرات F-15 للمملكة خطوة ذكية.

أحسّت الإدارة الجديدة بالمعركة المقبلة، فحرصت على جس النبض في الكونغرس. وفي اختبار لردّ الفعل المحتمل، قدّم نائب وزير الخارجية جيمس أل. بكلي إلى لجنة الشؤون الخارجية في مجلس الشيوخ ولجنة العلاقات الخارجية في مجلس النوّاب في 26 فبراير 1981 تقارير موجزة غير رسمية عن صفقة الأسلحة المقترحة للمملكة العربية السعودية. وقد أقرّ بكلي بالمخاوف الإسرائيلية إزاء الصفقة، لكنّه أشار إلى أنّه سيُسمح لإسرائيل بشراء 15 طائرة F-15 إضافيّة. كما أعلنت الإدارة أن إسرائيل ستتلقى 600 مليون دولار على شكل اعتمادات عسكرية لتمكينها من التغلب على أي خلل متصوّر في الميزان العسكري بينها وبين المملكة العربية السعودية. في المقابل، أبلغت حكومة إسرائيل إدارة ريغن سراً أنها لن تنازع الصفقة ولن تحضّ اللوبي الإسرائيلي في واشنطن، وخصوصاً "أيباك"، على إعاقتها.

في 6 مارس 1981، أعلنت إدارة ريغن أنها مستعدة لبيع المملكة العربية السعودية رزمة تعزيز لطائرات F-15، وذلك لمواجهة "التهديد المتنامي" للاتحاد السوفياتي في الشرق الأوسط والخليج. كان الغرض من الصفقة دفاعياً بحتاً ولن يتضمن مناصب للقنابل. وبذلك جرى تخفيف ردّ الفعل في الكونغرس[8]. وبعد ذلك بأربعة أسابيع، إثر اجتماع لمجلس الأمن القومي في 2 أبريل 1981، لمناقشة بيع الأسلحة للمملكة العربية السعودية، تمت الموافقة على تزويد المملكة بخمس طائرات "أواكس" وطائرات صهريج KC-135، فضلاً عن رزمة تعزيز طائرات F-15، بما فيها خزانات الوقود المتطابقة ومناصب القنابل وصواريخ "سايدويندر".

كان ما اقترحه ريغن أكبر صفقة أسلحة أميركية حتى ذلك التاريخ؛ وقد تفاوتت التقديرات بشأن الحجم الحقيقي للصفقة، لكنها كانت في حدود 7-9 مليارات دولار، ليرتفع المبلغ إلى نحو 85 مليار دولار بعد إضافة نفقات مختلف ضروب الدعم اللاحق من بنى تحتية وتدريب ودعم عملاني. ومن خلال تقديم خزانات الوقود المتطابقة، يتوفّر لطائرات F-15 السعودية الاثنتين والستين التحمّل والمدى للمحافظة على عمليّات الخفر الجويّ القتالية، ما يرفع فعّاليتها. وبسبب تزايد المدى، تستطيع تلك المقاتلات أيضاً الاحتشاد في منطقة الخليج لفترات قصيرة، حتى لو فقدت المملكة العربية السعودية القاعدة الجوية في الظهران. وستعزّز طائرات الصهريج KC-135 الفعّالية العملانية للمقاتلات الدفاعية السعودية بإتاحة إعادة تزويد طائرات "أواكس" وF-15

وF-5E بالوقـــود وهـــي في الجـــوّ. كما أنها ستمكّن المملكة من تقبل تعزيزات من حـــاملات طائـــرات أو قـــواعد أميركـــية خارج المملكة. أخيراً، ستمنح صواريخ "ســـايدويندر"، بقـــدرتها على ضرب الهدف من أي جانب، مقاتلات F-15 وF-5E ســـلاحاً للاســـتخدام في عملـــيات اعتراضية "مباشرة" للطائرات المهاجمة على علو مـــنخفض، من دون الاضطرار إلى التضحية بالوقت، وبعيداً عن احتمال الإخفاق في تنفيذ عملية اعتراض وهي تناور في وضع "الاشتباك الجويّ" - وهذه ميزة قيّمة بالنظر إلى محدودية وقت الإنذار - الذي توفّره طائرات "أواكس"[9].

عند مناقشة الشؤون اللوجستية المتعلقة بالصفقة، قال العقيد ليلاك بشكل جازم: "كـــان القـــسم المـــتعلّق بطائرات الصهريج من الصفقة مهماً جداً - تلي أهميته أهمية طائـــرات أواكـــس مباشـــرة. لكن الكونغرس لم يكن راغباً في منح المملكة العربية الـــسعودية طائرات صهريج؛ في النهاية، لِمَ تريد المملكة الذهاب إلى أي مكان؟ كان ذلـــك جانباً خلافياً من الصفقة". ولاحظ أيضاً: "تبين لاحقاً أن طائرات أواكس هي القسم الأسهل من الصفقة تقريباً، لكن، نظراً لأن خزانات الوقود المتطابقة تطيل مدى طائـــرات F-15، وصواريخ AIM9-L توفّر قدرة القتال وجهاً لوجه، وبسبب وجود طائرات إعادة التزود بالوقود، فقد أصبحت صعبة جداً"[10].

بمـــا أن ريغن كان معروفاً بمناصرته القوية لإسرائيل وسخريته من الدول العربية، فقـــد كان تأييده الشديد لصفقة طائرات "أواكس" مثيراً للدهشة. وكان قبل تنصيبه رئيساً يميل إلى التقليل من أهمية الاتصال بأي بلد عربـــي.

ومع ذلك، فإن تأييده للصفقة إقرار بحقيقة اقتصادية بسيطة - أي تهديد للمملكة العـــربية الـــسعودية، وأي انقطـــاع مطول تال لصادرات النفط من الخليج سيكونان بالتأكـــيد ضـــربة مدمِّرة للاقتصاد العالمي - كان عدم الاستقرار السياسيّ في المنطقة، والمخاطر الاقتصادية والاستراتيجية الهائلة التي تنطوي عليها المحافظة على حقول النفط، وإمكانـــية تعـــرض تلـــك الحقول لهجمات جوية، يعني أنّ موافقة ريغن على صفقة طائـــرات "أواكس" قرار حكيم في السياسة الخارجية. كما أنّه وطّد مكانة الولايات المتحدة بوصفها القوة العسكرية السائدة في الخليج.

كانـــت الأجـــندة الحقيقـــية وراء صفقة طائرات "أواكس" للمملكة العربية السعودية عميقة جداً، لكن المعادلة البسيطة هي دفاع الولايات المتحدة عن المملكة

في مقابل حصولها على إمدادات آمنة من النفط الحيوي. ومع ذلك، ثمة عامل آخر في قرار ريغن تأييد الصفقة. فقد بدأ الرئيس بناء سياسة خارجية مستنبطة من اهتمامه الشديد لإحداث انقلاب في تنامي "إمبراطورية الشر"(*) وانهيار الشيوعية في النهاية.

أدرك ساعد الرئيس ريغن الأيمن في الحرب على الشيوعية، أي مدير وكالة الاستخبارات المركزية (CIA) بيل كيسي، أن القلق السعودي من النيات السوفياتية يجعل المملكة العربية السعودية حليفاً طبيعياً. كما أنّه كان يعي أن النفط هو المادة التي لا يستغني عنها الاقتصاد الغربي، وأن الوصول المستقر والآمن إلى احتياطيّات النفط أمر حيويّ إذا كان لا بد من التعافي الاقتصادي.

لقد كان ريغن وكيسي يدفعان باباً مفتوحاً في الواقع؛ فللمملكة العربية السعودية أسبابها لمساعدة أميركا في محاربة السوفيات. أولاً، كانت الولايات المتحدة ناشطة فعلاً في المساعدة على حماية حقول النفط السعودية، والقيادة السعودية مصممة على وجوب بقاء العلاقات حسنة بين المملكة والأميركيين. ثانياً، كانت المملكة تشعر بقلق متزايد من التهديد الناشئ من الهيمنة السوفياتية في المنطقة. وفسرت الرياض مغامرات موسكو في أفغانستان على أنها جزء من اندفاعة بتوجيه سوفياتي لتطويق شبه الجزيرة العربية بأنظمة شيوعية وقلب أنظمة الحكم الملكية الغنية بالنفط؛ وقد عزّزت الأنشطة السوفياتية في اليمن وإثيوبيا ذلك التقدير. ثالثاً، كانت المملكة تمتلك أموالاً نفطية هائلة، وفي وسع الولايات المتحدة الاستفادة من ذلك المال بسهولة[1].

عند قياس احتمال قيام شراكة مع المملكة العربية السعودية، كان كيسي يعلم أن الرئيس ريغن لا يريد احتواء الاتحاد السوفياتي فقط، بل يريد أيضاً "عكس اتجاه توسّع السيطرة السوفياتيّة ووجودها العسكري في العالم". كانت تلك الطموحات، التي أفصح عنها ما أصبح يُعرف في ما بعد "مبدأ ريغن"، تسعى لتضخيم تكاليف الجهود السياسة الخارجيّة السوفياتيّة عن طريق الانتصار للديمقراطية، وإنهاك السوفيات بالإفراط في الإنفاق على الدفاع، ودعم الثورات المناهضة للسوفيات في العالم النامي. لكن اتضح، ضمن الإدارة، أن دحر الشيوعية "يتطلّب القدرة على تمويله ونحن ببساطة

(*) وصف الرئيس ريغن الاتحاد السوفياتي "بإمبراطورية الشر" في خطاب له أمام مجلس العموم في 8 يونيو 1982.

لا نـــستطع القيام بذلك وحدنا". لذا رأى بيل كيسي أن الإمكانية الحقيقية للمساعدة السعودية لتحقيق أهداف ريغن هي إمكانية مالية[12].

كانـــت المملكة العربية السعودية تناهض الشيوعية بقوّة، وكانت شريكة متوافقة أيديولوجياً مع الأميركيين في المعركة ضد "الشيوعية الملحدة". غير أن النفط كان أيضاً مكـــوناً حـــيوياً من مكوّنات الحملة المقبلة الموجّهة ضدّ الاتحاد السوفياتي. وفي وسع المملكـــة العربية السعودية، كأكبر منتج للنفط في العالم، تقرير نتيجة لعبة تعيد تنشيط الاقتـــصاد الأميركي، بينما تزداد ضغوط الاتحاد السوفياتي على دخله بالعملة الصعبة وتتعدى حدّ الانكسار، بما في ذلك من عواقب كارثية على سياساته التوسعية. فكلما انخفـــض ســـعر برميل النفط دولاراً واحداً يعني بالنسبة إلى موسكو نقصاناً في العملة الـــصعبة المحصّلة من مبيعات نفطها قدره مليارا دولار في السنة. وكانت مسألة تسعير الـــنفط والعلاقة الأمنية الأميركية السعودية على سوية واحدة. وكما قال وزير الدفاع كاســـبار واينبرغـــر، "كان ذلك عنصراً حاسماً في استراتيجية ريغن. كنا نريد خفض أسعار النفط، وهذا أحد أسباب قيامنا ببيعهم أسلحة"[13].

هـــذه الخلفية بالذات هي التي عجلت في نشوء شراكة فريدة وغير محتملة وسرية في الغالب، شراكة دامت على مدى العقدين التاليين. لقد شهد عهد ريغن توطّداً غير مـــسبوق في العلاقات الأميركية السعودية. وسرعان ما أصبح الأمير بندر بن سلطان، الطـــيار الـــسابق الذي تحوّل إلى دبلوماسي وهو في الرابعة والثلاثين من عمره، صلة الوصل الأساسيّة بين الدولتين.

علـــى الـــرغم مـــن الحاجة الواضحة إلى التكتّم، فقد تسربت أنباء عن الصفقة الـــضخمة الـــتي لم يعلـــن عنها بعد. وفي 7 أبريل، انفجر مجلس النواب عندما توالى أعـــضاؤه، جمهوريون وديمقراطيون على السواء، على انتقاد قرار الإدارة. وفي حين أن معارضة رزمة تعزيز طائرات F-15 بقيت صامتة نسبياً، فإن إضافة طائرات "أواكس" إلى الصفقة غيّر الأجواء دفعة واحدة. فألقى أكثر من مئة من أعضاء الكونغرس خُطباً عارضـــوا فيها الصفقة، ووجد استطلاع أجرته "أسوشيتد برس" أن عشرين سيناتوراً فقـــط راغـــبون في تأييدها[14]. وعجلت المناقشة في الكونغرس في قيام معارضة واسعة الـــنطاق للـــصفقة، وأدت إلى تأجيل خطة الإدارة طرح موضوع رزمة الأسلحة أمام الكونغرس في 27 أبريل[15].

وبدلاً من ممارسة ضغط لإبرام صفقة طائرات "أواكس" ومواجهة خطر رفضها، واصلت إدارة ريغن الجهود لضمان انتهاء الأمر إلى مصلحتها. فبدأ مساعد وزير الخارجية لشؤون العلاقات مع الكونغرس ريتشارد فيربانكس يتملّق أعضاء الكونغرس بقوله إن "الاقتراح يؤكد التزام هذه الإدارة بمواجهة التدهور في أمن الشرق الأوسط/الخليج، ومؤازرة أصدقائنا، وحماية المصالح الحيوية الغربية، ومنع الاستغلال السوفياتي للتوتّرات ومواطن الضعف الإقليمية... وستساعد المملكة العربية السعودية الأكثر أمناً السعوديين على تعزيز الاستقرار في المنطقة وتوسيع تعاوهم الكبير معنا". وشدّد فيربانكس أيضاً على أن القوى المحرّكة في الخليج تبدّلت بشكل جذريّ في ضوء الاضطراب السياسي المتزايد في المنطقة منذ سنة 1978، وأن تهديد الأمن السعوديّ تصاعد حتى بلغ مستوى خطيراً يثبت حاجة السعوديين إلى طائرات "أواكس" ويفاقم خطر الاختراق والاستغلال السوفياتيين. وكرّر فيربانكس الإشارة إلى الغزو السوفياتي لأفغانستان، وفوضى الثورة الإيرانية، وأخطار الحرب الإيرانيّة العراقيّة، والوجود السوفياتي في اليمن الجنوبي وإثيوبيا. كما شدّد فيربانكس على القول إن المملكة العربية السعودية، "كمنتج مرجّح" ذات تأثير عظيم في أوبك، وأنّها سعت لضمان استقرار سعر النفط في السوق بعد اختلال صادرات النفط الإيرانية[16]. لذا فإنّ صفقة طائرات "أواكس" تقنع المملكة بمواصلة انتهاج تلك السياسة.

وفي حين سعى ريغن للحؤول دون دخول معركة طائرات "أواكس" الحيز العلني أكثر مما سبق، فإنّ رئيس الوزراء الإسرائيلي مناحيم بيغن، الذي سبق أن وافق على عدم عرقلتها، انبرى إلى إدانتها علانية، وشجبها من دون تحفّظ لأنّها تشكّل تهديداً شديداً لإسرائيل. وفي أواخر يونيو، انضم السيناتور بوب باكوُود، وهو جمهوري من أوريغون وسيناتور متحمّس في تأييد إسرائيل، إلى طوم داين، مدير "أيباك" التنفيذي، في الإعلان في 25 يونيو عن أن 54 سيناتوراً – أغلبية في مجلس الشيوخ – بعثوا رسالة إلى الرئيس موقعة من كلا الحزبين أعربوا فيها عن معارضتهم "اعتزام الإدارة بيع معدّات معزّزة لطائرات F-15 وصفقة طائرات أواكس للمملكة العربية السعودية. "إنّنا نعتقد اعتقاداً جازماً أن هذه الصفقة ليست في مصلحة الولايات المتحدة، ولذلك نوصي أن تمتنع عن إرسال هذا الاقتراح إلى الكونغرس". وفي وقت لاحق من اليوم نفسه، صدر عن مجلس النواب قرار موقّع من 224 عضواً يرفضون الصفقة. وفي يوليو،

أعلـــنت "أيـــباك" أن هدفها "الحؤول دون تقديم الرزمة" إلى الكونغرس للتصويت - وكانت أغلبيات بسيطة في كلا المجلسين كافية لعرقلة الصفقة[17].

وبـــروح مـــن التحدي صمّم الرئيس ريغن على مواصلة الضغط. وفي اجتماع خـــاص وغـــير معلـــن مـــع بندر، وعده بتقديم صفقة طائرات "أواكس" الرسمية إلى الكونغـــرس خـــلال الخريف وتعهد ببذل قصارى جهده لتأمين إقرار الصفقة. اعتقد الـــسعوديون من جهتهم أنّ في وسعهم مساعدة الإدارة، كما فعلوا في سنة 1977 وفي ســـنة 1979 إبـــان عهد كارتر، وذلك بطرح أفكار بنّاءة تتوخى التوصل إلى تسوية سلمية للوضع الإسرائيلي الفلسطيني.

وكمـــا كانت الحال في معركة طائرات F-15 سنة 1978، أصبح مجلس الشيوخ الميدان الرئيسي لصفقة طائرات "أواكس"، لكن هذه المرة كان البيت الأبيض متلكئاً؛ إذ ركّـــز على قضايا الضرائب والميزانية في الأشهر الأولى من إدارته الجديدة. وعندما ســـئل فرِد داتون عن الفارق بين المواجهات مع "أيباك" والكونغرس في صفقتي F-15 و"أواكـــس"، أجـــاب: "كانت صفقة طائرات أواكس في عهد ريغن معركة أقسى". وأضاف موضحاً: "برزت صفقة طائرات F-15 على المسرح بسرعة وغادرته بسرعة. لكـــن كانـــت صـــفقة أواكس معركة دموية طويلة. وأيباك اشتمت أخبارها باكراً وحاربتها بعنف. لقد أخذت أيباك تدير دفة الأمور في الواقع"[18].

خـــشي معارضـــو صفقة طائرات "أواكس" من أن تستخدم الحكومة السعودية الطائرات في تهديد أمن إسرائيل، وهو الأمر الذي يتوافق مع تاريخ الرياض الطويل من العـــداء المتـــشدد للدولة اليهودية. ورأوا أيضاً أنّ الحكومة السعودية نظام "يفتقر إلى الكفاءة" ويمكن أن ينهار في أي وقت، ما يضع الطائرات في أيدي نظام ثوري إسلامي آخر على غرار النظام الذي برز في إيران.

أوضـــح العقيد ليلاك أن هناك عائقاً آخر جوبهت به إدارة ريغن وهو الحساسية المتعلقة بالحصول على تكنولوجيا "أواكس". "نحن لا نفرض قيداً رسمياً قط على مكان مـــرابطة الطائـــرات، لكن كان هناك سطوح تحكم وضبط، كما أسميها أعذاراً كاذبة يقـــدمها مجلس النواب لعرقلة الصفقة، وكان ذلك أحد الأعذار التي قُدمت في محاولة لمنع إتمام الصفقة، لأن التكنولوجيا كانت حساسة جداً؛ الإلكترونيات والبرمجيات التي تتحكم بحيازة وتعقب 240 هدفاً، فضلاً عن المدخلات المتعددة والاتصالات. كان ثمة

عــدد كــبير من الأجهزة التي تفوق الخيال داخل الصناديق السوداء. وقال كثير من الأشخاص: "إن الوصول إلى هذه الأجهزة محفوف بمخاطر عظيمة؛ وتصوروا وقوعها في أيد شريرة وانتقالها إلى السوفيات"[19]. وقد أبدى السفير ريتشارد مورفي(*) الملاحظة التالــية: "كانت حجّة ريغن بأكملها أنّ المملكة العربية السعودية بلد عربــي، لكنها ليــست من دول المواجهة ولا تطمح إلى المشاركة في الهجوم على إسرائيل. وعلى أي حال، إنّها بحاجة كبيرة إلى مواجهة الحكومة الإيرانية الجديدة". وأضاف مورفي: "كنا طوال تلك الفترة شديدي القلق من إيران - ومن الحرب نفسها - وأعتقد أنّني سمعت مــسؤولاً أميركياً سابقاً يقول إن من مصلحتنا أن يستنــزف الاثنان، إيران والعراق، أحــدهما الآخــر. لم يكن ذلك يثير اهتمامي البتة، لأنني كنت دائم القلق من احتمال مبادرة الإيرانيين إلى التحرك ضد دول الخليج الصغيرة وإشعال حريق آخر يتعيّن علينا إطفاؤه"[20].

بمــوجب شــروط قانــون الرقابة على صادرات الأسلحة، عندما يتلقى الكونغرس إشــعاراً رسمياً بصفقة أسلحة، يُمهَل ثلاثين يوماً لوقف الصفقة بأغلبية الأصوات في كلا المجلسين. وفي حال انقسام الأصوات، يأخذ اقتراح الرئيس مجراه. وفي 14 سبتمبر 1981، وبمجهود شخصي من الرئيس ريغن لاستمالة الأصوات المترددة، دُعي 27 سيناتوراً إلى البــيت الأبــيض. وكان حظ جهوده من النجاح محدوداً؛ ففي وقت لاحق من ذلك الشهر، وقّع 56 سيناتوراً من كلا الحزبين التماساً معارضاً لصفقة طائرات "أواكس".

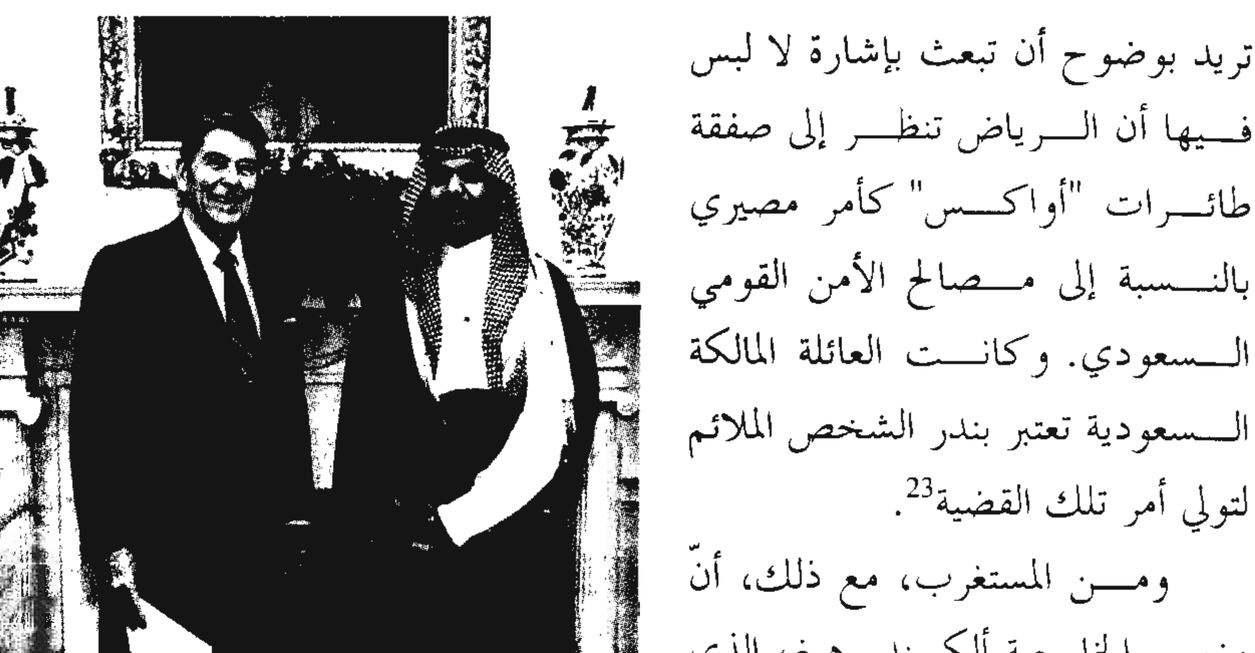
(*) ريتشارد دبليو مورفي مستعرب ذائع الصيت تابع تطورات الشرق الأدنى أكثر من أربعين عاماً، أمــضى مــنها 34 عامــاً مــسؤولاً دائمــاً في الإدارة الخارجية. بعد إنهائه الخدمة في الجيش الأميركــي، انــضم إلى وزارة الخارجية، ومن سنة 1955 إلى سنة 1968 خدم في سالزبوري، روديــسيا الجنوبــية (زيمبابوي حالياً)، وبيروت، لبنان، وحلب، سورية، وجدة، المملكة العربية الــسعودية، وعمــان، الأردن. وأمضى الفترة 1968-1971 في واشنطن دي سي كمدير قُطري لــشؤون شبه الجزيرة العربية، ومدير شؤون الأفراد في مكتب الشرق الأدنى. وفي سنة 1971، رشــحه الرئيس نيكسون للعمل كسفير إلى موريتانيا، وأصبح في سنة 1974 سفيراً إلى سورية. وفــي مــا بعد، عمل كسفير إلى الفلبين والمملكة العربية السعودية. وكان في 1983 إلى 1989 مساعداً لوزير الخارجية لشؤون الشرق الأدنى وجنوب آسيا في عهد الرئيس ريغن، ونشط على وجــه الخــصوص فــي عملية السلام الإسرائيلية العربية. حاز ريتشارد مورفي جائزة الرئيس للخدمــة المميزة ثلاث مرات وجائزة الشرف العليا مرتين من وزارة الخارجية. وفي سنة 1985 سُــمي سفيراً دائماً، وهو لقب حمله خمسة موظفين فقط، وبعد تقاعده من الخدمة في سنة 1989، انضم إلى مجلس العلاقات الخارجية في نيويورك كزميل كبير لشؤون الشرق الأوسط.

في هــذه المرحلة بالذات من مراحل النقاش بُذلت محاولات لوضع قيود وانتزاع تنازلات من السعوديين بخصوص عمل الطائرات؛ كل ما هو ضروري لتأمين تصويت في مجلس الشيوخ. وكان من الطبيعي أن يقاوم السعوديون تلك القيود، بل إنهم أشاروا إلى اســتعدادهم للحصول على أنظمة أسلحة من إنكلترا أو فرنسا إذا لزم الأمر. وإذ وجدت الإدارة نفسها بين المطرقة والسندان، أبلغت إلى الكونغرس أنها ستقدم إشعاراً رسمياً بالبيع في 1 أكتوبر.

وفي 1 أكتوبــر 1981، وبموجب قانون الرقابة على صادرات الأسلحة، أرسلت هيــئة المساعدة الأمنية الدفاعية في البنتاغون الوثيقة الحاسمة، الإحالة رقم 81-96، إلى مجلــس الــشيوخ ومجلس النواب للموافقة عليها. نصّت هذه الوثيقة الموجزة على أنّ ســلاح الجوّ لم يجد سبباً استراتيجياً لرفض طلب المملكة العربية السعودية شراء خمس طائــرات "أواكــس" بمــبلغ 8.5 مليارات دولار[21]. وضمّت الصفقة خمس طائرات "أواكــس" من طراز "E-3A سنتري"، وثماني عشرة منشأة رادارية أرضية ذات صلة بالطائــرات، وست طائرات صهريج KC-135 (مع حق شراء اثنتين أخريين)، و101 مــن خزانات الوقود المتطابقة لطائرات F-15 التي حصلت المملكة عليها سنة 1978، و1177 صــاروخ جو – جو "سايدويندر" مع نظام توجيه وتحكم شامل الاتجاهات. لقد كانت الصفقة رزمة دفاع جوي مع بنية تحتية ضخمة، بتكلفة فعلية تبلغ 85 مليار دولار، أي عشرة أضعاف القيمة الاسمية لمبيع طائرات "أواكس"[22].

في المــرحلة الأولية من النــزاع على طائرات "أواكس" من أبريل إلى أغسطس 1981، لــزمت الحكومة السعودية الصمت، معوّلة على إدارة ريغن لإقرار الصفقة في الكونغــرس. لكن عندما اتضح أنّ المعركة تزداد شراسة وأنّ مجلس الشيوخ لا يثق في الــضمانات التي قدمتها الحكومة السعودية إلى الرئيس ومفادها أنّ طائرات "أواكس" ستُــستخدم في مهمــة دفاعية فقط، شرعت في حملة مفتوحة بغية استمالة شركات صناعة الأسلحة إلى صفها.

أمــل الــسعوديّون في أن تكــون الرسالة الدبلوماسية التي يبعثونها بتعيين بندر، المخــول عملــياً الــتكلم باسم الملك، إشارة واضحة إلى الأهمية التي توليها المملكة للــصفقة. وكان بندر ممثلاً صاعداً للمملكة العربية السعودية في واشنطن، وابن وزير الــدفاع الأمير سلطان، والمؤتمن على أسرار ولي العهد فهد. كانت الحكومة السعودية



بندر يقدم أوراق اعتماده كسفير
إلى الرئيس رونالد ريغن

تريد بوضوح أن تبعث بإشارة لا لبس فيها أن الرياض تنظر إلى صفقة طائرات "أواكس" كأمر مصيري بالنسبة إلى مصالح الأمن القومي السعودي. وكانت العائلة المالكة السعودية تعتبر بندر الشخص الملائم لتولي أمر تلك القضية[23].

ومن المستغرب، مع ذلك، أنّ وزير الخارجية ألكسندر هيغ، الذي زار المملكة في أبريل 1981، ربما عجّل في انتداب بندر للمساعدة في معركة ريغن لبيع الطائرات "أواكس" للمملكة العربية السعودية. فبعد أن نقل إلى ولي العهد الأمير فهد أن الرئيس مستعد للموافقة على صفقة "أواكس"، سأل: "بالمناسبة، أين صديقي الأمير بندر؟ نحن بحاجة إليه ليكرّر ما قام به في موضوع طائرات F-15".

وعلل فرِد داتون، الشخصيّة الأبرز في مجموعة الضغط لمصلحة المملكة العربية السعودية، اختيار بندر مبعوثاً بالقول: "رأى ولي العهد فهد وجوب أن يأتي الأمير بندر ليساعد في ضمان إقرار الصفقة، كان الأمير فهد راعي بندر". ويتمتّع داتون بخبرة في التعامل مع الكونغرس؛ فقد كان مساعداً خاصاً للرئيس جون أف. كنيدي وعُيّن لاحقاً مساعداً لوزير الخارجيّة لشؤون العلاقات مع الكونغرس. كان يعرف الإجراءات المتّبعة وكانت اتصالاته في المجلس كثيرة جداً؛ وكذلك اتصالاته مع وسائل الإعلام. "عندما وصلت إلى واشنطن أول مرة، كان التعرف إلى الإعلاميين أسهل، وتوقّع كنيدي منا كلنا، نحن الذين لنا أدوار في إدارته، أن نشكّل الإعلام. وأظن أن ذلك كان أحد الأسباب التي جعلت كنيدي يعيدني إلى واشنطن، لأنني كنت داعية قوياً *لتشكيل الإعلام؛ تشكيل الصحافة والتلفزيون*"[24].

وجد بندر في داتون، حليفاً قوياً قادراً على الاستفادة من أمير مطّلع تماماً ومركّز الفكر كأنّه سلاح للتصويب والتسديد. وبعد ذلك، كانت المسألة تتعلّق باتصال الأمير بأعضاء الكونغرس ومجلس الشيوخ والإعلاميين والتعامل معهم. وبإيعاز من داتون،

كـان بـندر يـولم لصحافيين مختارين في منـزل في كالوراما بارك، مازجاً المحادثة بمعلـومات إخبارية حسنة التوقيت ومهمّة. وكان داتون يختار صفوة مراسلي واشنطن وصـحافييها الـذين يلهـثون للحصول على معلومات داخليّة بشأن معركة طائرات أواكـس ويطلعهـم مسبقاً على الأخبار. وبهذه الطريقة بدأت حملة طائرات أواكس السعودية من وراء الكواليس دعماً للاعب الرئيسي، الرئيس ريغن.

لقـد كان تمرّس بندر بقراءة أسرار واشنطن السياسية المعقّدة والدقيقة في الغالب يتـيح لـه العمل بشكل حاسم عندما يتطلّب الموقف ذلك. كما مكنّه من استيعاب كيفـيّة ممارسة السلطة. أقام بندر مقرّه في جناح من ست غرف في فندق فيرفاكس في وسـط واشنطن. هنا كان يتواصل بحرية مع الجماعات المؤيّدة للعرب والداعمين لهم، فـضلاً عـن أعضاء مجلس الشيوخ الأساسيّين الذين أعربوا عن دعمهم للصفقة. وقد عمل مع أعضاء مجلس الشيوخ أنفسهم لوضع استراتيجية تقنع بعض زملائهم الأصعب مراسـاً بتبديل ولائهم. وعلى الرغم من كون بندر مقدّماً صغيراً نسبياً، فقد اكتسب الاعتـراف بأهليته وقدرته على تحقيق نتائج، وكذلك علاقته الخاصة بولي العهد الأمير فهد.

عمـل بـندر، بنهوضـه بهذه المسؤولية، كمسهّل وقناة ومبعوث بين الولايات المـتحدة والمملكة العربية السعودية. كان في وسعه أن يترجم لا بين اللغات فحسب، وإنمـا بين الثقافات أيضاً؛ وكان بمثابة الغراء بين الدولتين المتباينتين إلى حد بعيد وقد علت مكانته مع ازدياد العلاقة متانة.

فـيما يـتعلّق بالتكتيكات السعودية خلال مناقشة صفقة طائرات أواكس، أكد داتون أنهم كانوا يحاولون جعل الرئيس ريغن يبدو كأنه يتولى زمام الأمور. لكن، كان تحقـيق ذلـك يـتطلب الكثير من العمل. وعن دور بندر، قال داتون: "تعلّم اللعبة الـسياسية هنا بسرعة معقولة وكان يحاول دائماً العمل في الكواليس بجهد لا يقلّ عن العمـل علانية، وقد أتقن ذلك. وبالنسبة إلى الاستراتيجيات أو التكتيكات، فقد ألقي العـبء علـى ريغن. وفي الأيام الأخيرة التي سبقت التصويت، لجأ ريغن إلى التودّد والإقـناع وحتى إلى الترهيب - كان يقوم بكل ما يراه ضرورياً. لم يكن في وسعه أن يخـسر هذه الجولة، كانت كبيرة جداً - وأول اختبار كبير له في السياسة الخارجية". وختم داتون: "كان تكتيكنا *إبقاء ريغن منهمكاً*"[25].



بندر مع صديقه المقرّب والموثوق، فرد داتون

كانت الاستراتيجية السعودية تتألف من شقين: استغل داتون الإعلام إلى أقصى حد، بما كان لديه من معارف كثيرة. وعلى الجانب الآخر، عمل بندر لاستمالة القاعدة الصناعية الأميركية، دافعاً الشركات للهجوم لمساندة صفقة طائرات "أواكس" عن طريق إعلامها، وإن بدبلوماسية، أن المملكة العربية السعودية ستقدّر عمل هذه الشركات، أو توانيها عن العمل، عند تقرير اتفاقيات الأعمال في المستقبل. وقد ساعد ديفيد سعد، المدير التنفيذي للرابطة الوطنية للأميركيين العرب، الأمير بندر في تنظيم دعم الصناعات الأميركية المهتمة لشراء المملكة طائرات "أواكس". ومارست صناعة النفط ضغوطاً شديدة لمصلحة الصفقة، حيث أنفقت "موبيل" أكثر من نصف مليون دولار على إعلانات في الصحف عددت على صفحات كاملة مزايا التحالف الاقتصادي بين الولايات المتحدة والمملكة العربية السعودية. وكان الضغط الأشد ذلك الذي نسقته "بوينغ"، الشركة الرئيسية المتعاقدة في "أواكس"، و"يونايتد تكنولوجيز"، التي لديها عقد بقيمة 100 مليون دولار معرّض للخطر. وهكذا بعث رئيسا "بوينغ" و"يونايتد تكنولوجيز" أكثر من 6500 برقية إلى شركات فرعية، وبائعين، وموردين في مختلف أنحاء الولايات المتحدة، تحضّهم على تأييد الصفقة[26]. وذكر الصحافي ستيفن إمرسون أن سيناتوراً من الغرب الأوسط تلقى اتصالاً من كل الرؤساء التنفيذيّين في ولايته لمصلحة صفقة طائرات "أواكس".

أسفرت الحملة السعودية لصالح "أواكس" عن واحدة من أنجح عمليات التأثير في الشركات الأميركية والسياسة الخارجية الأميركية تقوم بها جهة أجنبية على

الإطلاق. فقد طلب بندر المساعدة المطلقة وتلقّاها من بعض أكثر الشركات نفوذاً في أميركـا: "موبيل أويل"، و"بكتِل"، و"بوينغ"، و"وستنغهاوس" و"يونايتد تكنولوجيز". وعلـى نحو ذلك، ساندت عشرات المصالح التجارية الأخرى الحملة بغية حماية عقود البترودولار القائمة أو تأمين عقود جديدة. وجرى حثّ آلاف المصالح التجارية الأخرى على الانضمام إلى الحملة بضغط من المورّدين أو المشترين أو حتى الشركاء المحلّيين. وأضافت جهات أخرى كثيرة لا علاقة تجارية لها بصفقة طائرات "أواكس"، أو حتى بالمملكة العربية السعودية، دعمها لجهود الضغط لأنها كانت مقتنعة أن عدم إزعاج السعوديين أمر جوهري.

عكست الاستراتيجية السعودية إدراكاً للنفوذ الذي يمكن اكتسابه عن طريق التماس الدعم من مجموعة الشركات الأميركية وتعبئته. فجرى الاتصال بمئات من الرؤساء التنفيذيين، ورؤساء الشركات، ونواب الرؤساء وحثّهم بقوّة على الكتابة لأعضاء مجلس الشيوخ الذين يمثلونهم أو الاتصال بهؤلاء الأعضاء. وعمّمت الرسالة أن الأعمال السعودية أعمال مجزية ومصدر لفرص العمل بشكل مقنع، وخصوصاً في الولايات المتحدة التي لم يكن يتمتّع فيها أعضاء مجلس الشيوخ بحصانة سياسيّة.

وخلال فترة الستة أسابيع التي سبقت التصويت، ارتفعت وتيرة الضغوط الممارسة من قِبل الشركات. ودُعي عشرات من ممثلي الشركات الأميركية الرئيسية في واشنطن إلى حضور حفلات استقبال في السفارة السعودية. ولما بدا أنّ نتيجة التصويت تزداد تقلّباً، تكثّف الضغط واستُخدمت العقود لإغراء الشركات التوّاقة إليها. وفي 19 سبتمبر 1981، التقى بندر الرئيس السابق جيرالد فورد في بالم سبرينغ، كاليفورنيا، وتمت خلال اللقاء مناقشة العلاقات الأميركية السعودية وصفقة طائرات "أواكس". وبعد ذلك بشهر، أجرى الرئيس فورد اتصالات هاتفية بعدد من أعضاء مجلس الشيوخ وعبّر عن تأييده صفقة طائرات "أواكس".

ومن خلال جهود بندر والفريق السعودي بأكمله، استطاع ريغن أن يدعو إلى "المشاركة النشيطة لمجموعة الشركات الأميركية بأكملها"، وهو مجهود وصِف أنه "أوسع أهداف الضغط الذي تمارسه الشركات الأميركية في مسألة خاصة بالسياسة الخارجية"[27].

وقال بندر لاحقاً إن منطق ربط قضيّتهم بالصناعات الأميركية والحاجة إلى استخدام أفضل المحامين (وأعضاء مجموعات الضغط وخبراء العلاقات العامة) أصبح

واضـحاً جـداً. "لطالما اعتقدت أن لدى الإسرائيليين قضية رديئة، لكنّ لديها محامين جيدين... وأنّنا نحن العرب لدينا دائماً قضيّة محقة، ولكنّ لدينا محامين سيئين". وتحمّس الأمـير، مـضيفاً بابتسامة: "لماذا يجلدوننا في السياسة دائماً؟ [أي] إلى أن بدأنا نتعلم قواعد اللعبة وبدأنا اللعب [وفق] القواعد نفسها"[28].

ومـع ذلك لم يتمّ اجتذاب الشركات فحسب. فمن كبار المسؤولين الآخرين الذين سـاعدوا اللوبـي السعودي كلارك كليفورد، وزير الدفاع في عهد الرئيس جونسون، وريتـشارد كلايندينـست، المدعي العام في عهد الرئيس نيكسون، ووليام روجرز، وزير الخارجية في عهد الرئيس نيكسون. وبذل الأمير قصارى جهده وأضاف مسؤولين سابقين في إدارة كارتـر إلى اللوبـي السياسي المؤيد لصفقة طائرات "أواكس"، بمن فيهم وزير الدفاع السابق هارولد براون، ووزير الخارجية السابق إدوارد موسكي والسفير السابق إلى المملكة العربية السعودية جون وست، وكذلك زعيم الجمهوريّين الحاليّ في مجلس الشيوخ هوارد بيكر، والسيناتور جون تاوَر، رئيس لجنة القوات المسلحة[29].

وقد أقر الأمير بالحاجة إلى خبراء محنّكين ونافذين في الحلبة السياسيّة في واشنطن، ثم اكتسب ثقتهم؛ وباختصار، أحاط نفسه بأفضل من يستطيع المال أن يستقطبهم، ما سمـح للفـريق السعودي أن ينافس بجدارة في لعبة القوة في واشنطن في وجه المعارضة القوية جداً والتي يمدّها لاعبون فاعلون وخصوم آخرون بارزون.

كان مسعى إدارة ريغن بشأن طائرات "أواكس" بقيادة فريق عمل خاص مؤلف من البيت الأبيض، ومجلس الأمن القومي، ووزارة الخارجية، ووزارة الدفاع، وموظفين في الكونغرس، وسلاح الجو الأميركي، الذي مثّله بوب ليلاك. وقد رُسمت خريطة تبيّن تقدم الفريق على جدار في غرفة البرمجة الواقعة في الطبقة السفلى من "الجناح الغربـي" من البيت الأبيض. وكانت ثمة خريطة مماثلة في المكاتب السعودية في فندق فيرفاكس. وكان التواصل بين فريق البيت الأبيض والفريق السعودي وثيقاً للغاية.

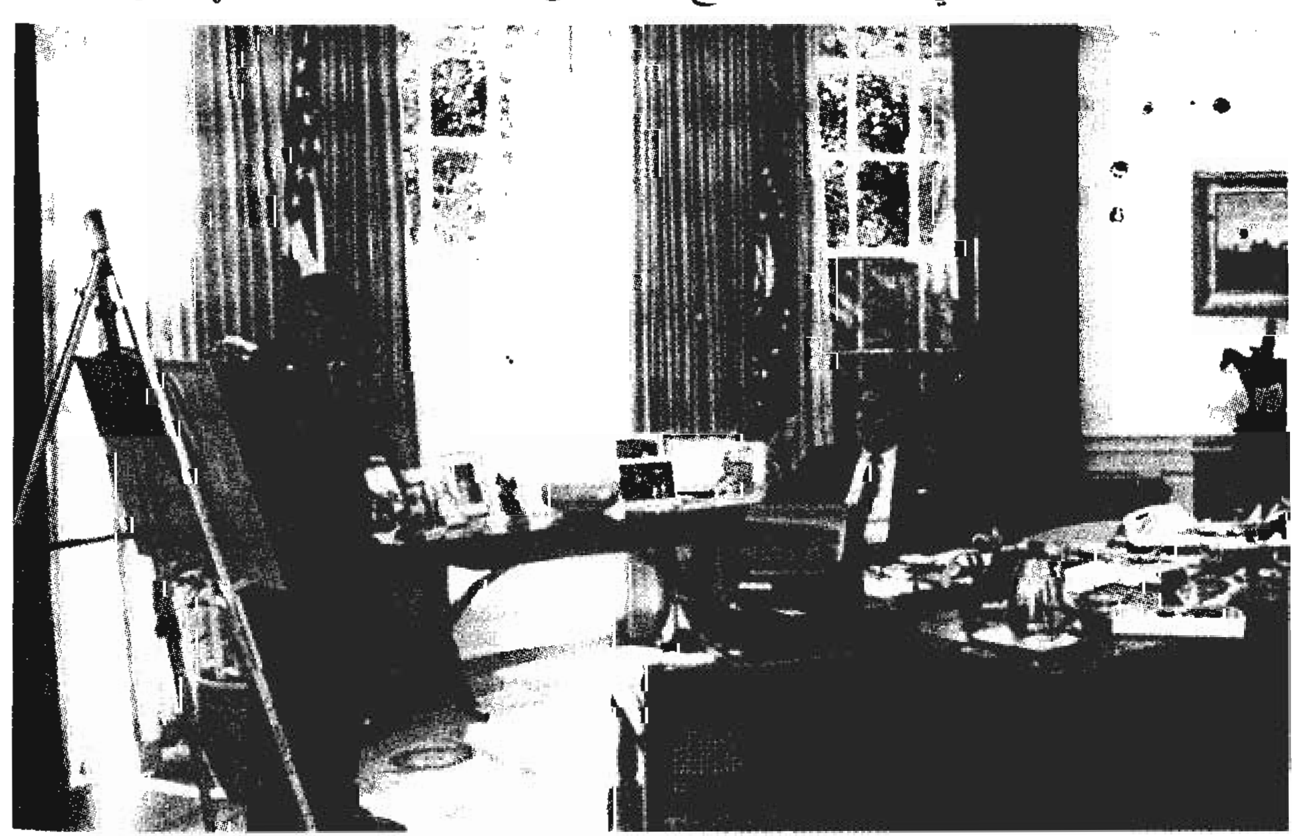
وتعـزز ذلـك الـتفاعل بالانسجام الشخصي بين بندر وليلاك. ومع اشتداد حملة طائـرات "أواكس"، أصبح ليلاك في الغالب صلة الوصل بين فريق البيت الأبيض وبندر. كـان يعـرف أين يجده، يعرف الأماكن المعهودة التي يتردد عليها بانتظام. ويذكر ليلاك كيف احتاجوا في إحدى الأمسيات، بعد اجتماع طويل في غرفة المواقف الحرجة في البيت الأبـيض، إلى الاتصال ببندر بصورة ملحة لتوقيع مسودة اتفاق على طائرات "أواكس".

يقـــول ليلاك: "ارتؤي أنّ ثمة قيداً واحداً يمكن أن يجتذب سيناتوراً معيناً إلى معسكر[نا]، وهـــو مـــنع وصول تقنيين باكستانيين متعاقدين مع السعوديين إلى حزم برمجيات معينة في طائرات أواكس. كان لدى سلاح الجو الملكي السعودي الكثير من التقنيّين الباكستانيّين". وكـــان لا بد من اتخاذ قرار على وجه السرعة، واقتضى البروتوكول الحصول على موافقة بندر. ويتابع ليلاك: "كنا بحاجة إلى الحصول على جواب، للرد على هذا السيناتور في تلك الليلة أو في صباح اليوم التالي، لذا احتجنا إلى موافقة السعوديين بسرعة".

وحـــين لم يجـــد ريـــك بيرت، الذي كان يعمل آنذاك لحساب وزير الخارجية ألكسندر هيغ، بندر في السفارة، قصد مع ليلاك شقة بندر، حيث أبلغ ليلاك الحراس: "أنا بوب ليلاك، يجب أن أرى الأمير بندر". وجاءه الرد أن بندر في اجتماع خاص مع وزير الخارجية، لكن ليلاك ألح بالقول: "يجب أن تسمحوا لنا بالدخول". سُمح لليلاك وبيرت في نهاية المطاف بالانضمام إلى الأمير والوزير ألكسندر هيغ في اجتماعهما.

عـــند دخـــولهما الغرفة، التفت هيغ ورأى بيرت وليلاك، وكان الأخير لا يزال مرتدياً بذلته العسكرية، ثم قال لبندر: "إننا في ورطة، لقد جاءنا سلاح الجو. ما الذي تفعلانه هنا؟".

أجاب ليلاك: "إنّني بحاجة إلى توقيع بندر على قيد يتعلق بطائرات أواكس".



بوب ليلاك يوجز للرئيس ريغن عن طائرات الأواكس

قال بندر: "حسناً، دعنا نراه". وبعد النظر فيه مدة وجيزة، وقّع وهو يقول: "لا أظن أننا نمانع في ذلك، بل لست بحاجة إلى مراجعة أحد في المملكة بخصوص هذا الأمر".

ضحك هيغ وهو يتجه إلى الباب وقال: "انصرفا من هنا وعودا إلى العمل"[30].

عندما زار وزير الخارجية الإسرائيلي إسحاق شامير واشنطن في فبراير 1981، تلقى إشارة مفادها أن الرئيس ريغن يميل إلى الموافقة على صفقة الطائرات السعودية. بيد أنّ تفاصيلها بقيت طي الكتمان؛ ولم تبلغه الإدارة سوى أن معدات مراقبة جوية ستباع للسعوديين من دون أن تفصح له عن طبيعة تلك المعدات[31]. وأخبر أن الصفقة ستتضمن فقط معدّات لتعزيز طائرات F-15 نوقشت في السابق مع إدارة كارتر. ولم يبلّغ شامير أن الصفقة ستضمّ طائرات "أواكس". من ناحية التفوق الجويّ الإسرائيليّ، فإنّ طائرات "بوينغ" المعدلة تلك، بأطباق راداراتها الكبيرة ومعدّاتها المتطوّرة الخاصة بمعالجة البيانات، ستضعف الأفضليّة العسكريّة الإسرائيليّة؛ إذ كانت تتقدّم بأشواط على طائرة "غرومان E-2C هوك آي" التي تمتلكها إسرائيل.

وعندما زار رئيس الوزراء مناحيم بيغن واشنطن في سبتمبر 1981، تأكّدت بالفعل إضافة طائرات "أواكس" إلى الصفقة السعودية. وكان ردّ فعل بيغن وتل أبيب عدائيّ جدّاً. ومع ذلك، اعتقدت الإدارة أنّها أقنعت بيغن بالحد من ملاحظاته بخصوص طائرات "أواكس" وعدم إثارة حملة حولها في وسائل الإعلام. لكنّها كانت على خطأ.

يقول ريغن: "علمت أن بيغن توجه بعد مغادرته البيت الأبيض مباشرة إلى مبنى الكونغرس وراح يؤلّب المجلس عليّ وعلى الإدارة وصفقة طائرات أواكس، بعد أن أبلغني أنه لن يفعل ذلك. لم أكن أحبّ أن يتدخّل ممثّلو بلد أجنبي - أي بلد أجنبي - في ما أعتبره شأناً سياسياً محلياً خاصاً بنا وفي تحديد سياستنا الخارجية. طلبت من وزارة الخارجية إبلاغ بيغن أن ما فعله لا يروقني، وأنّه يعرّض علاقة بلدينا الحميمة للخطر ما لم يكفّ عن ذلك. وشعرت في قرارة نفسي أنه نكث بوعده وقد أغضبني ذلك"[32]. وبناء على ذلك، مع أنّ الرئيس ريغن يميل إلى تأييد إسرائيل، فقد جرت مناقشة طائرات "أواكس" على خلفية من التوتّر المتصاعد بين الولايات المتحدة وإسرائيل.

اعتُبر تدخل بيغن في العلاقات الأميركية مع المملكة العربية السعودية غير لائق. وفي السيرة الذاتية عن حياة ريغن، يشير لو كانون إلى أنّ "تكتيكات بيغن حملت ريغن على التدخّل بشكل غير عادي في مجريات السياسة. وبتشجيع من كبير موظفي البيت الأبيض جيمس بيكر، جعل ريغن صفقة طائرات أواكس اختباراً لمكانته الشخصية، وكانت آنذاك عالية جدّاً بين الجمهوريين"[33]. لقد أفسدت الحكومة الإسرائيلية قضيّتها عن غير قصد. وفي حين كان يُنظر إلى السعوديين على أنهم يعملون مع الإدارة الأميركية بأسلوب إيجابي - حيث كانوا يتداولون في خطة سلام في الشرق الأوسط ويضخّون المزيد من النفط - بادر رئيس الوزراء الغاضب بيغن إلى الهجوم. لذا اعتُبر أنّ بيغن يستغلّ سلطة ومكانة منصبه كزعيم لدولة أجنبية للتأثير في الكونغرس كي يمنع صفقة لطرف ثالث. وفوق ذلك، كانت حصانة بيغن الدبلوماسية مضاعفة لأنّه ليس مجرد زعيم أي دولة، وإنما دولة ذات روابط وثيقة استثنائية مع الفئة الثقافية الأحسن تنظيماً من الناحية السياسية في الولايات المتحدة، أي الجالية اليهودية، ومصدر الصلات العاطفية العميقة الجذور بها. وهو، كرئيس وزراء، لم يكن يمثّل حكومته في حملة ضغوطها ضد طائرات "أواكس" فحسب، بل يعتبر أيضاً أنه يتكلم بلسان الجالية اليهوديّة الأميركيّة.


مناحيم بيغن

لا شكّ في أنّ التعاطف بين إسرائيل والجالية اليهودية الأميركيّة يمكّن بيغن من ممارسة تأثير سياسي في الكونغرس ربما يفوق تأثير أي زعيم أجنبي في العالم. لكنّ الاستغلال غير المسؤول لذلك التأثير، كما رآه ريغن والبيت الأبيض على السواء، يفسر لماذا سبّبت محاولات بيغن إقناع الكونغرس بعرقلة صفقة طائرات "أواكس" انزعاجاً واستياء في البيت الأبيض. لم يكن أيّ من المؤيدين للمملكة العربية السعودية يتمتع بالقدر نفسه من النفوذ السياسي، بمن فيهم بندر[34]. ومع أن بندر كان يقود حملة الضغوط السعودية، فإنه كان مجرد ضابط في سلاح الجو. وكان يُنظر

إلى جهوده على أنها مناصرة طبيعية، في حين بدأ يُنظر إلى جهود بيغن على أنها تدخّل مطلق.

في المؤتمر الصحفي الذي عُقد في 1 أكتوبر 1981، في الجناح الشرقي من البيت الأبيض في أثناء زيارة بيغن، أعلن ريغن بتحدٍّ أنه سيرفع صفقة طائرات "أواكس" رسمياً إلى الكونغرس. وفي اتهام شائك وصريح وجهه إلى بيغن، أكد ريغن: "لا شأن لدول أخرى في رسم السياسة الخارجية الأميركية. ومن واجبي كرئيس تحديد أهداف سياستنا القومية العامة والدفاع عنها. الكونغرس يمارس بالطبع دوراً مهمّاً في العملية، وفي حين أن علينا دائماً أخذ مصالح حلفائنا الحيويّة في الحسبان، فإنه ينبغي أن تبقى المصالح الأمنية الأميركية مسؤوليتنا الداخلية"[35].

كان التدخّل غير الملائم لمناحيم بيغن ذي الطبع الناريّ في مصلحة بندر. بل إنّ بندر أعاد كثيراً من الفضل في نجاح الضغوط السعوديّة إلى رئيس الوزراء الإسرائيليّ، إذ قال: "كان بيغن، بالطبع، أفضل حليف لنا في موضوع طائرات أواكس، لأنّه كلما تكلّم كسبنا المزيد من الأشخاص". وأضاف: "أنا واثق من أنه لم يقصد أن تسير الأمور على هذا النحو، لكنه كان أحسن أوراقي الرابحة؛ كل ما كان عليَّ أن أفعله هو القول *هل سمعتم بيغن؟*"[36].

ما بدأ كمسألة دفاع سعوديّ عقب توصيات سلاح الجو الأميركي مقابل حقول النفط السعوديّة، أصبح مسألة سياسيّة عندما صمّم بيغن و"أيباك" على الحؤول دون إتمام الصفقة. وقد رأى بندر أنّه إذا خسر السعوديون صفقة طائرات "أواكس"، فإنهم سيكسبون الرئيس، وإذا فازوا بالصفقة، فسيكسبونه أيضاً لأنّ الرئيس يريد إتمام الصفقة". وهكذا، أصبح الموقف بالنسبة إلى المملكة العربية السعودية مربحاً في كلتا الحالتين، عندما انغمست إسرائيل في الحرب الكلامية. ويقول الأمير العالي الهمّة: "كنّا حريصين جدّاً على أن يُلزم الإسرائيليّون أنفسهم بمحاربتنا في موضوع طائرات أواكس. فعندما يفعلون ذلك، فإنّهم يحاربون الرئيس، ونصبح في حِلٍ من الأمر. تركناهم وشأنهم لأن الفوز حليفنا في كلتا الحالتين. تلك هي الطريقة الوحيدة التي أنشدها". لقد كانت مكافآت هذا الصراع في الكونغرس أبعد من مجرد الحصول على معدّات عسكرية. كانت إيذاناً بتغيّر كبير في الرأي العام الأميركيّ.

علـــى المـــستوى التكتيكي، مكّن تدخّل رئيس الوزراء بيغن في نقاش طائرات "أواكس" فرِد داتون من تصوير الخيار الذي يواجه مجلس الشيوخ على أنّه خيار "ريغن أو بـــيغن"[37]. وقـــد ذُكـــر في الواقع أن فرِد داتون ربما كان أكثر الناشطين فعاليّة في الـــضغط لمـــصلحة طائرات "أواكس"، وأن "مساهمته الأبرز هي تحويل الجدل بشأن طائـــرات أواكـــس مـــن قضيّة موضوعية إلى قضية شخصية؛ أي أنه استطاع تصوير القـــضية أنها معركة بين رئيس الولايات المتحدة ورئيس وزراء إسرائيل". وكما أبلغ داتـــون صـــحيفة "نيويورك تايمز"، يتعين على أعضاء مجلس الشيوخ الذين يعارضون الـــصفقة أن يوضـــحوا "كيف سيديرون السياسة الخارجية بعد أن فضّلوا بيغن على ريغن؟"[38].

علـــى الرغم من أن مجلس النوّاب رفض الصفقة، كما كان متوقعاً، بعد تصويت 301 مقابـــل 111، فإنّ ريغن شن حملة ضغط شخصية في مجلس الشيوخ الأميركي لا نظـــير لهـــا في الـــتاريخ الحديث. وتحوّل إلى أبرز الضاغطين قاطبة، وأجرى عشرات الاتـــصالات الهاتفـــية دعا فيها أعضاء مجلس الشيوخ المتردّدين إلى مساندة الصفقة. وحيث تدعو الضرورة، وعد بكثير من الخدمات التشريعية والخاصّة بالموازنة. وتحدّث الرئيس إلى 44 سيناتوراً كلا على حدة، مستخدماً الضغط والإقناع وأخيراً الترهيب، في محاولة إقناعهم بالحاجة المطلقة إلى الموافقة على صفقة طائرات "أواكس"[39].

في الأيـــام الأخـــيرة التي سبقت التصويت، تلقت حملة ريغن الشخصية مساندة بالضغط الذي مارسته شركات صناعة الأسلحة والنفط الأميركية، وذلك بتشجيع من بـــندر والفـــريق العامل معه. وأدّى التأثير السعودي المستتر في وسائل الإعلام، بفضل موهبة داتون، إلى جانب جهود فريق البيت الأبيض، إلى الحصول تدريجيّاً على أصوات حاسمة. وبدأت الفجوة في مجلس الشيوخ تضيق.

لمجابهـــة التهديد الذي شكّلته "أيباك"، حشد الرئيس جيشاً صغيراً من المسؤولين، مـــن بينهم وزراء الخارجية والدفاع السابقون، لتقديم حجّة الإدارة أمام الكونغرس في جلسات استماع رسمية وجلسات إطلاع غير رسمية. ومن العاملين في الإدارة لمصلحة الـــصفقة جنـــرال ســـلاح الجـــو ريتشارد سيكورد، الذي ساعد على التفاوض مع الـــسعوديين بشأن شروط الصفقة. وكان الجنرال سيكورد أعلى الضبّاط العسكريّين رتـــبة الذين ساعدوا البيت الأبيض في قيادة فرق إطلاع الكونغرس. وكلّف البنتاغون

ثلاثة ضبّاط بتتبع البرمجة والقضايا، أحدهم ضابط شديد الحيويّة برتبة مقدم في مشاة البحرية اسمه أوليفر نورث. ومن هذا اللقاء بين الجنرال سيكورد ونورث الذي ذاع اسمه لاحقاً، زُرعت البذور التي أزهرت منها قضية إيران - كونترا.

كان قسم من البنية التحتية التي دعمت حملة ريغن بشأن طائرات "أواكس" يضمّ غرفة البرمجة. ويقول ليلاك، شارحاً وظيفة هذه الغرفة: "شملت البرمجة تتبّع من أُطلِع من أعضاء مجلسي النوّاب والشيوخ ومن قدّم الإطلاع، كما أنّها تتتبّع برمجة الإطلاعات التي قدّمناها للمجموعات. كانوا يأتون بهذه [المجموعات] أو بصحافيين إلى غرفة المعاهدة الهندية في المكتب التنفيذي القديم". ويضيف ليلاك بسرعة: "كنّا نطلع الصحافيّين المعتمدين في البيت الأبيض بانتظام، كما أنّني كنت أطلع كبار الموظفين مثل مايك ديفر وإد ميس، وسواهما. إلا أن المبرمجين واصلوا تتبع هذه الأمور كلها؛ كانوا يتتبّعون في المقام الأول احتياجات أعضاء الكونغرس، من وما هي حاجته"[40].

وصف ريغن، في مذكراته، الجدال حول صفقة طائرات "أواكس" أنه "أحد أقسى المعارك التي شهدتها في أعوامي الثمانية في واشنطن... وباستثناء اقتراعين أو ثلاثة على الضرائب وخفض الإنفاق، فإنّني أمضيت في اللقاءات الثنائيّة وفي الاتصالات الهاتفية لتحقيق الفوز في هذا التدبير وقتاً أطول مما أمضيت في أي شيء آخر"[41]. وعلى خلفية هذه الصفقة غير المعلنة بشكل واسع من الأسلحة والبنى التحتية للمملكة العربية السعودية، وما صحبها من تأثير في سياسته الخارجية وفي القدرة العسكرية الأميركية في الشرق الأوسط، يمكن فهم لماذا ينبغي للرئيس إظهار مثل هذا التصميم الشخصي. وقد قال بيكر لاحقاً: "كان الرئيس مستعداً للقيام بأي شيء تقريباً لتفادي الهزيمة في هذا الأمر. وكان الوصول إليه متاحاً على مدار الساعة عند الضرورة. كان يشعر أن عليه تحقيق الفوز بالمطلق"[42]. وفي إيجاز لمدى ضلوعه شخصياً في الضغط على مجلس الشيوخ، عزا الرئيس الطابسع الجاف والعدائي الذي صبغ مناقشة صفقة طائرات "أواكس" إلى الصراع الشديد والحاد الذي نظّمه اللوبي المؤيد لإسرائيل. ويُظهر شعور ريغن بالحاجة إلى تنظيم مثل هذا الضغط القوي على كلا الحزبين بشأن صفقة طائرات "أواكس"، قبل أسابيع من موعد التصويت في مجلس الشيوخ، حدّة المعارضة التي قادتها "أيباك" وإدراكه حجم التهديد الموجّه إلى إدارته السياسة الخارجية الأميركية.

لقد تطوّرت "أيباك" على مر السنين من منتدى الشؤون العامة الجنيني المؤيد لإسرائيل في الخمسينيات، حيث كان يضم بضعة آلاف من الأعضاء، إلى لوبي واسع ذي نفوذ بالغ وعلى درجة من الخطورة، يلجأ إليه عشرات من أعضاء مجلسي الشيوخ والنوّاب طلباً للتوجيه والإرشاد. وقد أقرّ ريغن بالتهديد الذي شكّله هذا اللوبي شديد التأثير، وكان يعرف أن العديد من أعضاء مجلسي الشيوخ ومجلس النواب يرون أن نفوذ "أيباك" السياسي يبعث على الرهبة. وبالإجمال، تمكّنت "أيباك" من "استجماع البأس واكتساب القوة بالتكيف مع سياسة واشنطن الجديدة: اتساع سلطة الكونغرس، وقوة التأثير في القواعد الشعبيّة، والحاجة إلى أن تكون من الحزبين، وأهمية تقديم الدعم المالي لصالح الأصدقاء وضد الأعداء ثم الإعلان عن النتائج". باختصار، كانت "أيباك" على معرفة وثيقة بالقواعد الجديدة للعبة ممارسة الضغوط والتأثير ولعبت وفق تلك القواعد لتفوز[43].

في هذا الاختبار للقوة إزاء اللوبي الإسرائيلي، حصل الرئيس العازم على دعم الرؤساء السابقين نيكسون وفورد وكارتر، الذين أيدوا الصفقة علانية[44]. وكان من المهمّ أيضاً في استراتيجية ريغن التأييد القاطع لصفقة طائرات "أواكس" في أوساط جماعة السياسة الخارجية والأمن القومي - لا سيما وزيرا الخارجية والدفاع - ومستشاري البيت الأبيض لشؤون الأمن القومي، ورؤساء هيئة الأركان المشتركة السابقين. وقد نجح دعم أولئك القادة السابقين في تقديم حجّة ذات صدقية أقنعت مجلس الشيوخ أن صفقة طائرات "أواكس" حاسمة بالنسبة إلى مصالح الأمن القومي الأميركي، وجعلت إعاقة الصفقة في مجلس الشيوخ أمراً مستحيلاً من الناحية السياسية.

بل إنّ هنري كيسنجر، الذي عارض الصفقة في أول الأمر، وقف أخيراً في صف قادة السياسة الخارجية ورجال الدولة الآخرين المساندين للصفقة. وقال في لقاء متلفز: "سيدي الرئيس، إنّني أدرك الجدل المحتدم حول هذه المسألة وأتعاطف مع الكثير من مشاعر القلق التي جرى التعبير عنها. ولكنني مقتنع تماماً أن هذه المشاعر لا يمكن تهدئتها برفض بيع طائرات أواكس. وأعتقد أن الصفقة تصب في المصلحة القومية للولايات المتحدة؛ وهي متوافقة مع أمن إسرائيل؛ وضرورية لعملية السلام في الشرق الأوسط؛ ومهمة لقدرة الرئيس على إدارة سياسة خارجية فعّالة وذات صدقية. وإنّني

أحثّ الذين تساورهم مشاعر قلق مشروعة على تبديدها بالتباحث مع الإدارة والتصويت لصالح صفقة طائرات أواكس من دون ربطها بشروط لا تتوافق مع كرامة المملكة العربية السعودية ومع الإدارة الفعّالة لسياستنا الخارجية"[45].

لجأ ريغن إلى تخويف زملائه الجمهوريين، بمن فيهم السيناتور بوب باكوُود، الرجل الذي قدم قرار باكوُود، وهو الأداة التشريعية المعارضة لصفقة طائرات "أواكس". وقد اجتمعا في 11 سبتمبر 1981، في جوّ عاصف في أحسن الأحوال. فقد رأس باكوُود لجنة حملة التبرعات لمرشحي مجلس الشيوخ من الحزب القديم الكبير (GOP) [الجمهوري] وشدد على أن المحسنين اليهود مستاؤون من مشروع طائرات "أواكس". وإذ أدرك الرئيس أن لا سبيل إلى تغيير موقف باكوُود، التف حوله ببراعة بجعل البيت الأبيض يسرِّب روايته عن الاجتماع، مسبباً حرجاً لباكوُود. وقد ركّز التسريب على المناقشة بشأن التوصيف الذكي الذي أطلقه داتون على موضوع "ريغن في مقابل بيغن"، وبالتالي لم تعد المزايا الجوهرية للأسلحة المقترحة هي القضية، ولا الأرض التكتيكيّة التي اختارها الرئيس للمعركة القادمة[46].

كان الائتلاف المؤيد لإسرائيل في مجلس الشيوخ يمتلك أغلبية ضئيلة 54-56. وأمام الهجوم الكاسح لحملة ريغن/السعودية بدأ الشيوخ يبدّلون موقفهم واحداً تلو الآخر. ومع ذلك، عندما أرسل الرئيس ريغن إشعاراً رسمياً إلى الكونغرس في 1 أكتوبر، حذّر بيكر الرئيس من أن الاحتمالات سيئة.

وفي بيان معدّ تُلي في المؤتمر الصحافي في 1 أكتوبر، أوضح الرئيس أن خصوم صفقة طائرات "أواكس" يخدمون تل أبيب، لا واشنطن. فلم يعد في وسع "أيباك" الاعتماد على دفاعها الذي تردده كثيراً: "إنّنا نعمل كأميركيين وطنيين لمصلحة أمتنا". وها هو الرئيس يصفهم الآن أنهم عملاء لإسرائيل.

في 4 أكتوبر، اجتمع ممثلون للبيت الأبيض مع السيناتور جون وارنر والسيناتور سام نُن لوضع مشروع قرار يرمي إلى طمأنة الكونغرس أن طائرات "أواكس" ستُستخدم لأغراض دفاعية فقط ومع قدر من الإشراف الأميركي. كان وارنر رئيساً للجنة القوات المسلحة في مجلس الشيوخ الأميركي، ونُن كبير أعضاء اللجنة عن حزب الأقلية. وقد كتب البيت الأبيض أيضاً رسالة رئاسية تفصّل الشروط التي يتعين على السعوديين تلبيتها لإقرار الصفقة. وعُرضت هذه الوثيقة على أعضاء مجلس الشيوخ

المترددين وعُدّلت عدة مرات للاستجابة إلى بعض مطالبهم الفردية. وأخذ خصوم الصفقة يعلنون واحداً بعد الآخر انتقالهم إلى جانب ريغن.

في 6 أكتوبر 1981، اغتيل الرئيس المصري أنور السادات. وهكذا في سابقة مخيفة تمهّد لأحداث لاحقة، هدّد عمل إرهابي أهوج نفّذه متطرّفون معادون للحداثة بتقويض التقدّم الذي حقّقه المعتدلون العرب بشق الأنفس مع الغرب. وفي 7 أكتوبر، عقد الرئيس ريغن اجتماعاً مغلقاً مع 43 سيناتوراً جمهورياً، من بينهم كثير ممن وقّعوا بالفعل قراراً ضد الصفقة. وفي تلك الجلسة وفي اجتماعات إفرادية مع الجمهوريين، شدّد الرئيس على الولاء للحزب وعلى مصداقية الرئاسة الأميركية في إدارة الشؤون الخارجية. وقد قال بشكل شخصيّ في مناسبات عدة: "إذا صوّتم ضدي فسوف تحطون من شأني"[47].

كادت إحدى أكثر المناقشات السياسيّة حدّة وطولاً ومرارة منذ حرب فيتنام تنهار على صفحات صحيفة "واشنطن بوست". فقبل أيام فقط من التصويت على صفقة "أواكس"، تمّ في اللحظة الأخيرة تجنّب توضيح استراتيجية البيت الأبيض بفضل تدخّل الجنرال سيكورد في الوقت المناسب.

على الرغم من أنّ صفقة طائرات "أواكس" لم تكن معروفة إلا لدى قلّة من الأشخاص، فإنها لم تكن محصورة في خمس طائرات. فهي تنشئ أيضاً شبكة من قواعد تشغيل أمامية متقدّمة، ومنشآت تخزين عسكرية، ومستودعات، ومرافق بحرية، ومنشآت متقنة للقيادة والسيطرة داخل المملكة، وتقيم بنية تحتية ضخمة في الشرق الأوسط تتعدّى كثيراً الاحتياجات الفوريّة للقوات المسلحة السعودية.

وقبيل تصويت الكونغرس على الصفقة، أبلغ البنتاغون مراسل "واشنطن بوست" سكوت أرمسترونغ أن تكلفة كل طائرة "أواكس" تبلغ 110 ملايين دولار تقريباً. فأثار ذلك حيرة أرمسترونغ لأنه وجد بعد عملية حسابية أن التكلفة الإجمالية هي 550 مليون دولار، لا مبلغ 8.5 مليارات دولار الذي يجري الحديث عنه في الكونغرس بخصوص المشتريات السعودية المقترحة. ولذلك بدأ يشكّ في أن صفقة "أواكس" تتعدّى كثيراً مجرد خمس طائرات، وأن ما أُعلن أنه صفقة أسلحة صغيرة هو في الواقع بداية شيء أكبر بكثير. وفي فيلم وثائقي بثته محطة الإرسال العامة (PBS) في برنامج "فرونت لاين"، قال أرمسترونغ "إن صفقة "أواكس" يمكن أن تكون المحور لنظام

اتـــصالات إلكترونية متقن يعادل جوهر ما لدينا في حلف الناتو... إنّها تنشئ مسرح حرب جديداً"[48].

وبناء على إدراكه حجم العقد السعودي المقترح، أعد أرمسترونغ مقالة مثيرةً في "واشنطن بوست" تزعم أنّ صفقة طائرات "أواكس" ما هي إلا بداية خطة سريّة بقيمة 50 ملـــيار دولار لبناء قواعد عسكرية أميركيّة بالوكالة في المملكة العربية السعودية. لكن البيت الأبيض عرف بأمر المقالة قبل نشرها. وفي يوم الجمعة، 23 أكتوبر، أي قبل التـــصويت بخمـــسة أيام فقط، اتصل مسؤولون في البنتاغون بالصحيفة. وكما يذكر الجنـــرال ســـيكورد، قالوا لرئيس التحرير: "تعلم أن هذا الشخص يعدّ لهذه الحكاية السخيفة. عليك أن تعطينا فرصة. هذا أمر جنونيّ"[49].

تراجعت صحيفة "واشنطن بوست"، على الرغم من أن الرواية كانت صحيحة، لكنّها نشرتها بعذ عملية التصويت بأربعة أيام.

أخذّت ضغوط البيت الأبيض الدائمة على مدار الساعة تُحدث اختراقاً. فقد أعلـــن عدة أعضاء في مجلس الشيوخ أنهم سيدعمون الرئيس بعد تلقيهم تأكيدات "ســـرية للغاية" في ما يتعلق بأمن إسرائيل. وكانت "المساومة" خلف أبواب مغلقة ضـــروريّة لحملـــة البيت الأبيض. وهكذا تلقّى السيناتور سليد غورتون وعداً من البيت الأبيض بدعم مخصص ماليّ لتجديد مستشفى للصحة العامة في سياتل. ولقي السيناتور تشارلز غراسلي تسهيلاً لطلبه تعيين مرشحه لمنصب المدعي العام في أيوا. واستُميل سيناتور ولاية مونتانا جون ميكلر بتقديم دعم لمنشأة تحويل الفحم قرب بات (Butte).

كـــان الـــضغط على أعضاء مجلس الشيوخ شديداً. وفي اللحظة الأخيرة، بسبب ضغط من شركات صناعة المعدات الزراعية، والتعاونيات الزراعية، وشركات الأسلحة على ما يبدو، صوّت السيناتور روجر جبسن (جمهوري - أيوا) لمصلحة الرئيس ريغن، بعد أن كان من القادة المتشدّدين في الائتلاف المناوئ لصفقة "أواكس". وسبّب تغيير ولائـــه خسارة جسيمة، لأنه كان من نواة القوة الأصيلة المناهضة لصفقة "أواكس". وقـــد أرهقته الضغوط المتعارضة إلى حدّ أنه أجهش بالبكاء فعلاً وهو يبلّغ الجمهوريين الآخـــرين أن معلومات "سرية للغاية" من البيت الأبيض ورغبته في عدم الإضرار بهيبة ريغن بدّلتا موقفه من التصويت. وقد حرّر ذلك الآخرين[50].

في 28 أكتوبـــر، قبل ساعات معدودة من التصويت في مجلس الشيوخ، قام ريغن وفـــريقه بآخـــر خطـــوة بارعة: في الدقيقة الأخيرة، أُعلنت على الملأ تفاصيل التدابير الاحتياطـــيّة المتـــشدّدة التي فرضتها الإدارة على أحكام استخدام طائرات "أواكس" الـــسعودية. صـــيغت رسالة متقنة إلى كل سيناتور وعُرضت فيها ضمانات ريغن بألا يستخدم الطائرات سوى أميركيين وسعوديين فقط، وألا يتمّ تشارك معلومات طائرات "أواكـــس" مـــع أي دولـــة أخرى إلا بموافقة واشنطن، وأخيراً توفير حماية لطائرات "أواكس" كيلا تقع في أيدي جهات معادية. ويقول جيمس بيكر: "قدّمت الرسالة إلى المتـــردّدين من أعضاء مجلس الشيوخ... مخرجاً شرعياً؛ ومنحتهم عذراً للموافقة على الصفقة[51].

كانـــت الضمانات التي فُرضت على المملكة العربية السعودية قاسية بحيث لم يعد في وســـع سوى عدد قليل من أعضاء مجلس الشيوخ استخدام حجة سوء الاستخدام بـــأي قدر من المصداقية. وبذلك دحض ريغن الحجّة الوحيدة الأقوى مفعولاً وتأثيراً وإقـــناعاً الـــتي رفعهـــا المتحدّون في وجه صفقة "أواكس": إنها تشكّل تهديداً لأمن إسرائيل. ومن دون ذلك، حُرم خصوم ريغن في مجلس الشيوخ من ادّعائهم المركزي، والعنـــصر المحوري للحجّة التي استخدموها ضد الاتفاقيّة منذ بداية المناقشة. وبالإعلان عـــن تفاصيل تلك الضمانات قبل التصويت بساعات قليلة – وهو ما حرم معارضي الـــصفقة مـــن الوقت لدحضها – أحرز ريغن الأصوات الأخيرة التي كان بحاجة إليها لضمان رفض أغلبية مجلس الشيوخ قرار باكوُود.

وحـــتى 23 أكتوبـــر، أحصت صحيفة "نيويورك تايمز" خمسين سيناتوراً معارضين للصفقة وأربعين فقط مؤيدين لها، أما الباقون فكانوا متردّدين. لكن في الساعات الثماني والأربعـــين التي سبقت التصويت، كان التحرّك كله باتجاه موقف البيت الأبيض. وقبل يـــوم واحـــد من التصويت في مجلس الشيوخ، وعلى إثر التبدّل الدراماتيكيّ في موقف روجـــر جِبْـــسِن، أعلـــن ثمانية من أعضاء مجلس الشيوخ أنهم سيؤيدون الصفقة. وعند الـــساعة 5:03 بعـــد ظهر 28 أكتوبر 1981، بدأ مجلس الشيوخ التصويت على صفقة طائـــرات "أواكـــس" بالمناداة بالاسم؛ وانتهى الأمر بعد بضع دقائق. وبعد أن رشح إلى البـــيت الأبيض خبر التصويت الإيجابـــي في مجلس الشيوخ، أفيد عن أنّ ردّ فعل ريغن الفوري لدى سماعه الأنباء، كان "شكراً لله!" وفي مُزاح لاحق تعبيراً عن الارتياح بشأن

معــركة طائرات "أواكس" الأليمة، قال الرئيس ريغن إن المعركة كانت "مثل التغوط في ثمــرة أناناس"[52]. وفي النتيجة التي لم يكن يمكن تصوّرها قبل أسابيع قليلة، رفض مجلس الشيوخ قرار باكوُود المناهض لصفقة "أواكس" بـــ 52 صوتاً في مقابل 48.

لقد فاز الرئيس(*).

في 1 نوفمــبر، نــشرت صــحيفة "واشنطن بوست" مقالة أرمسترونغ التي تحمّل التفاصــيل غــير الموضّــحة في لغة مشروع القانون، والتي لم يجرِ التطرق إليها قط في مناقشات الكونغرس: وهي أنّه في مقابل صفقة متكاملة من التكنولوجيا العسكريّة بالغة التطوّر، تبني المملكة العربية السعودية شبكة ضخمة من المرافق البحرية ومنشآت الدفاع الجــوي لمساندة القوات الأميركية إذا استدعت الحاجة في أي وقت من الأوقات حماية المنطقة من معتد ما[53]. لقد مارس البيت الأبيض خدعة كبيرة على الكونغرس.

لم يخـضعْ المدى الحقيقي لما سمحت الوثيقة 81-96 للسعوديين بشرائه لتدقيق عامّ معمّــق. وربما أُشير إلى أعضاء مجلسي الشيوخ والنوّاب بالتركيز على الفقرة الثالثة من الملحــق المكــوّن مــن صــفحة واحدة، إذ، بالإضافة إلى الطائرات الخمس، يحصل الــسعوديون أيــضاً على موافقة بشأن "تصميم وبناء وتوريد منشآت ومعدات قيادة وسيطرة واتصالات (C3) أرضية ذات صلة بطائرات أواكس، بما في ذلك عدد ملائم من أنظمة الرادار الأرضية"[54]. وتصل قيمة تلك الصفقة - التي لم يظهر منها سوى ما يقــل كــثيراً عن 10 مليارات دولار - إلى 85 مليار دولار تقريباً. ذلك هو مشروع قانون "أواكس" الحقيقي.

قــال باكوُود في ما بعد، إن التصويت كان بمثابة "البارجة ضدّ المدمّرات، وقد تفوّقــوا عليــنا"[55]. لكنّ التصويت لم يكن متكافئاً قطّ بالقدر الذي بدا عليه. فقد

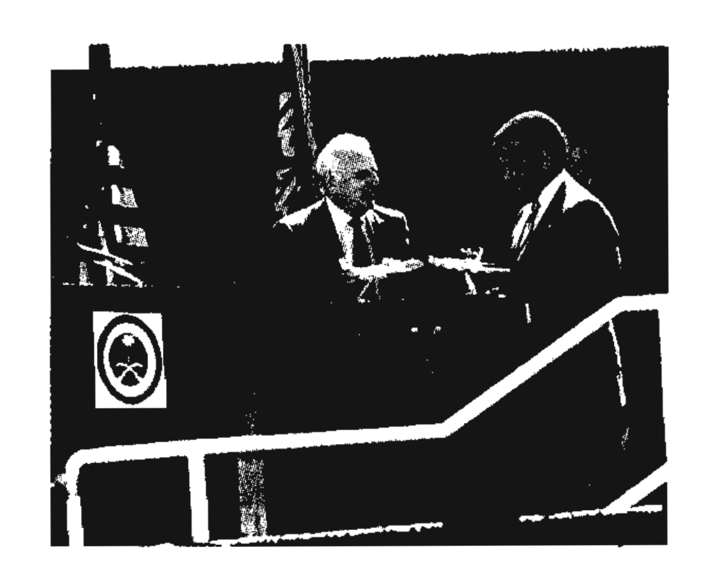
(*) تنفذ الولايات المتحدة التحويلات من حكومة إلى حكومة من خلال برنامج وزارة الدفاع للمبيعات العــسكرية الخارجية (FMS). وفي سنة 1974، منح الكونغرس نفسه سلطة مراجعة أي صفقة أسلحة مقترحة تزيد قيمتها عن 25 مليون دولار، في محاولة لتقوية صلاحياته في وجه "الرئاسة الإمبــراطورية". وبموجب بنود قانون الرقابة على صادرات الأسلحة لسنة 1976، وقد سُنّ في الأصــل كجــزء من مشروع قانون المساعدة الخارجية لسنة 1974، يستطيع الكونغرس عرقلة اقتراح لبيع الأسلحة إذا وافق كلا المجلسين على قرار متزامن بعدم الموافقة ضمن 30 يوماً من إشعاره بالصفقة رسمياً من قبل السلطة التنفيذية. وعلى الرغم من أن مجلس النوّاب رفض صفقة طائــرات "أواكس"، فقد رفض مجلس الشيوخ التصويت على عدم الموافقة، ما مكّن الرئيس من المضي قدماً بالصفقة.

كشف تعليق مفاجئ للسفير ريتشارد مورفي مدى النفوذ الذي مارسته "أيباك" على الكونغرس حتى الإدلاء بالأصوات الأخيرة. قال مورفي: "كان فارق الأصوات متقارباً جدّاً في مجلس الشيوخ؛ لم يكن ثمة داعٍ لأن يكون متقارباً على ذلك النحو". وبدا أن عدداً من أعضاء مجلس الشيوخ وافقوا على التصويت ضد قرار باكوُود[56]، وإلى جانب الرئيس ريغن، إذاً كانت أصواتهم ضرورية جدّاً. والحقيقة، كما أكد نائب وزير الخارجية ريتشارد أرميتاج، هي أن عدداً من أعضاء مجلس الشيوخ وافقوا على تغيير ولائهم لمصلحة الرئيس في التصويت النهائي إذا كانت أصواتهم ضرورية بصورة مطلقة. لكن إذا لم تكن ضرورية، فإنهم سيدعمون قرار باكوُود المؤيد لإسرائيل[57].

ووافق العقيد ليلاك على هذا الرأي بالقول: "هذا هو ما فهمته أيضاً. أعتقد أنه كان هناك سيناتوران على الأقل، لكنّني لا أعرف اسميهما"[58]. وأكّد فرد داتون هذا الموقف أيضاً، قائلاً: "أجل، هذا صحيح تماماً؛ كانْ لدينا نحو أربعة أصوات إضافية سرية، كانوا بمثابة بوليصة تأمين"[59]. وختم أن أولئك الشيوخ كانوا يخشون نفوذ اللوبي اليهودي في ولاياتهم، ولمّا كانوا متأكدين تماماً من أن الرئيس ضَمِن الصفقة، فقد صوّتوا ضد ضميرهم ولمصلحة القرار.

وصف مدير "أيباك"، توم داين، الجدال بشأن صفقة "أواكس" بماراتون امتد عشرة أشهر، من ديسمبر 1980 إلى 28 أكتوبر 1981. لقد نجحت استراتيجية "أيباك"، المستندة إلى أحكام قانون الرقابة على صادرات الأسلحة، الذي من خلاله يوافق الكونغرس على جميع عمليات نقل الأسلحة المقترحة أو يرفضها، في إعاقة صفقة "أواكس" في كل مرحلة من مراحل العمليّة التشريعيّة ما عدا المرحلة الأخيرة: التصويت النهائي في مجلس الشيوخ[60].

سارعت "أيباك" مستفيدة من دروس الهزائم في صفقتي طائرات F-15 و"أواكس" إلى المملكة العربية السعودية، إلى إعادة استجماع قواها والتأكيد على تفوقها. يقول فرِد داتون في مقابلة عن تأثير "أيباك": "تسهّبت هزيمتا أيباك، أولاً في صفقة F-15 ثم في صفقة أواكس، وفي ضوء عدم تعرّضها لهزيمة من قبل، في إعادة تنظيم جوهرية جعلت أيباك أقوى بكثير. وقد بدأت إعادة بناء من الأساس؛ وهي تتمتع الآن بفعالية عمليّة أكبر بكثير"[61].



رئيس شركة بوينغ يقدم لبندر نموذجاً لطائرتي الأواكس وKC-135 الصهريج لتعبئة الوقود للطائرات في أثناء استلام بندر طائرة أواكس السعودية الأولى

مما لا شك فيه أن "أيباك" نهضت كطائر الفينيق في أعقاب صفقة "أواكس". والقول إن "أيباك" خاضت معركة طائرات "أواكس" بمرارة قول فيه كثير من التحفّظ. فقد أوحت خسارتها للكثيرين بانقلاب الميزان السياسي في القضايا العربية الإسرائيلية. لكن، كما أكّد فرد داتون، كان ذلك بعيداً عن نهاية القصّة. ففي الأعوام الأربعة التالية، أجرت "أيباك" تحوّلاً داخليّاً عزّزت بموجبه قوّتها كثيراً. ودفعتها صدمة التصويت على صفقة "أواكس" إلى وضع استراتيجية سياسية جديدة حوّلتها، في آخر الأمر، إلى لوبي فائق القوّة. وفي تسعة أعوام فقط، قفزت موازنتها ثمانية أضعاف وارتفع عدد أعضائها من 9000 عضو سنة 1978 إلى 55,000 عضو سنة 1987[62].

في أوائل سنة 1988، أصبحت "أيباك" مرة أخرى معقلاً للقوّة في واشنطن. وكتبت كاثلين كريستيسون، وهي محلّلة سابقة في وكالة الاستخبارات المركزية (CIA)، أن أعوام ريغن شهدت تغيّراً متميزاً في تأثير اللوبي في صنع السياسة، وقالت ببراعة: "إذاً، كان يُعتقد في الإدارات الماضية أن أيباك ذات تأثير حديّ كبير في صوغ السياسات، فإن مقدار تأثيرها اليوم عظيم جدّاً بحيث لا يمكن اعتبارها مجرد قَيْد على السياسات"[63]، وأضافت: "في عهد ريغن، أصبحت أيباك شريكة في صنع السياسة. ورفعت إدارة ريغن أيباك إلى مستوى لاعب فاعل في هذه اللعبة"[64].

عكست صحيفة "نيويورك تايمز" قوة "أيباك" الجديدة بتقديم تفاصيل عن حجم الهبة الأميركية إلى إسرائيل، حين ذكرت أنّه على الرغم من أن إسرائيل توقّعت تلقي أكثر من 2.6 مليار دولار كمساعدة اقتصادية وعسكرية في السنة المالية التي تبدأ في 1 أكتوبر 1983، فإنّ لجنة المخصّصات في مجلس الشيوخ صوّتت، تحت ضغط من اللوبي الإسرائيلي، لصالح تخصيص أكثر بكثير مما طلبته الإدارة لإسرائيل. فقد طلبت

الإدارة 1.7 مليار دولار كاعتمادات عسكرية، منها 500 مليون دولار لا تُرد، و800 مليون دولار كهبات اقتصادية (أي منح غير قابلة للسداد). غير أنّ اللجنة صوّتت بدلاً من ذلك على زيادة الاعتمادات التي لا ترد إلى 850 مليون دولار وأضافت 125 مليون دولار إلى 800 مليون كمساعدة اقتصادية[65]. وأكدت المقالة أن إسرائيل كانت أكبر متلقية للمساعدات الأميركية بفئتيها العسكرية والاقتصادية، حيث حصلت على ما يزيد على 20 بالمئة من مجموع المساعدة التي قدمتها الولايات المتحدة إلى الدول الخارجية.

تواصل تزايد الدعم الأميركي لإسرائيل. ففي سنة 1992، ذكرت صحيفة "واشنطن بوست" أنّه منذ إبرام معاهدة السلام المصرية الإسرائيلية في سنة 1979، تلقت إسرائيل ما مجموعه 40.1 مليار دولار، أي ما يساوي 21.5 بالمئة من مجمل المساعدة الأميركية[66]. وفي سنة 1995، ارتفع الرقم إلى 60 مليار دولار[67]. إنّ إسرائيل حليف مكلف بالمقاييس كافة، حيث إنّ تلك الأرقام الهائلة لا تشمل العديد من الترتيبات الخاصة التي تُمنح إلى إسرائيل بشكل روتينيّ، ومنها التحويلات الضخمة لفائض المعدات العسكرية، والإعانات المقدّمة لبرنامج المساعدة الخارجية لإسرائيل، ومبالغ المساعدة الإجماليّة المبكّرة، وإعادة تمويل دَينها.

وعلى الرغم من أنّ مجلس الشيوخ وافق على بيع طائرات "أواكس"، فقد بقيت هناك حاجة إلى توقيع العقد. وكانت الإدارة تريد إتمام الأمر بأسرع ما يمكن لتفادي أي عوائق أخرى قد تبرز أمام الصفقة. لكن أُثيرت الكثير من الضغائن في مجلس النواب، وكان عدد كبير من أعضاء مجلس الشيوخ يشعرون بحساسية تجاه الضغط المستمرّ الذي مورس شخصياً من قبل ريغن ومن قبل "أيباك". وفي ظلّ تخمينات صحافية أنه لن يكون هناك اتفاق حتى يوقّع السعوديون، أراد البيت الأبيض إنهاء الأمر بأسرع ما يمكن.

كانت وثيقة البيع الأساسية هي رسالة العرض والقبول، وتولّى العقيد ليلاك مهمة إقرار الوثيقة. وهي تفصّل القيود الحاسمة المتفق عليها في الأشهر السابقة. وكانت تلك القيود حيويّة في ترجيح التصويت النهائي في مجلس الشيوخ. لكن، كل ما بقي هو "أن يوافق السعوديون على الاتفاق بتوقيع الأمير سلطان".

فجــأة أصبح ليلاك صاحب الدور الرئيسيّ. وكما قال بسخرية: "كان ذلك في 14 نوفمــبر تقــريباً. استقللت طائرة وذهبت إلى الرياض". وكان من المحتّم تقريباً أن يواجه مقاومة للقيود. وإزاء الضغط السعودي الشديد، كان عليه ألا يتزحزح. وحين ألحّ عليه الأمير فهد بن عبد الله (مدير العمليات في سلاح الجو الملكي السعودي)، ردّ قــائلاً: "لا يمكـــنك تغييره يا فهد، لا يمكنك أن تغير حرف *i* أو تشطب حرف *t* أو تضع فاصلة أخرى، قُضي الأمر!".

كانت الصفقة بأكملها مبنية على القيود، وتذكّر ليلاك كيف فكّر في سرّه، "كم ســيبدو الأمر رائعاً، لقد أقام ريغن سياسته الخارجية على هذا العقد والسعوديون لن يوقّعوه!".

وُجِّهــت إلى لــيلاك تعليمات مفادها أن يحصل على توقيع وزير الدفاع الأمير ســلطان وأن يكون العقد على مكتب كاسبار واينبرغر عند الساعة التاسعة من صباح يــوم الجمعة، بحيث يستطيع أن يعلن للصحافة أن الصفقة تمّت، فوقع ليلاك في ورطة. لم يكــن الأمير سلطان في الرياض، وإنما في الظهران مع بندر الذي كان في المستشفى بعــد أن عاودتــه المشكلات في ظهره. قال ليلاك: "انتقلنا يوم الخميس إلى الظهران، لكــن لــدى وصولنا إلى المستشفى، كانت الساعة تشير إلى العاشرة مساء. وعليّ أن أكــون في المطار عند منتصف الليل، موعد إقلاع الطائرة التي ستقلني إلى نيويورك، ثم إلى واشنطن. وهكذا أنا مرتبط بتلك الرحلة الوشيكة وأجلس [في المستشفى] أتصبب عرقاً لأنني لم أحصل بعد على توقيع الأمير سلطان".

في المستشفى، كان بندر مستلقياً على ظهره بلا حراك، لكن ابتسامة علت وجهه لــدى دخــول ليلاك والأمير فهد بن عبد الله. وكان الأمير سلطان جالساً في زاوية الغــرفة. فقــال بــندر لــه: "هذا هو الرجل الذي جعل الأمر كله [صفقة طائرات "أواكس"] ممكناً".

ومــع ذلك لم يأتِ في الحديث الذي تلا كلام بندر أي ذكر للعقد. وبدأ اليأس يتســلل إلى ليلاك. "الساعة الآن الثانية عشرة إلا ربعاً، وحدّثتني نفسي، *قضي الأمر، لقــد فــشلت؛ طائرتي ستقلع بعد دقائق قليلة. انتهى أمري*". وشرح مأزقه إلى بندر والأمــير سلطان، الذي غادر الغرفة بعد ذلك. وبعد منتصف الليل بخمس دقائق، عاد سلطان، وأخذ العقد من ليلاك ووقّعه بتؤدة، وقال: "أرجو لك رحلة ميمونة".

وهكذا أنجزت المهمّة. ومع ذلك، خشي ليلاك من أن يكون قد فشل.

"عظيم"، قال للأمير فهد: "لكنني أخفقت في مهمتي. سوف يقضي واينبرغ عليّ".

أجاب فهد، "ماذا تعني أنه سيقضي عليك؟ هيا".

عند وصول ليلاك إلى المطار، وجد أن طائرة "بانام 747" لا تزال تنتظر، وتذكرته المخصّصة لسلاح الجو الأميركي على أحد المقاعد الخلفية ممزّقة.

قال ليلاك ضاحكاً: "ها أنا جالس على مقعد في الدرجة الأولى، فيما ركّاب الطائرة يتمتمون استياء لأنها أقلعت متأخّرة 45 دقيقة عن موعدها. وصلت إلى نيويورك، وانتقلت إلى طائرة أخرى متوجّهة إلى واشنطن وكنت في مكتب واينبرغ عند التاسعة صباحاً لأسلمه رسالة العرض والقبول الموقّعة"[68].

تمت الصفقة.

انغمس بندر في صراع قاسٍ بين اللوبي الإسرائيلي واللوبي العربي، بعيداً عن المملكة العربية السعودية وبعيداً عن أجواء الحيوية والانضباط أيام كان طياراً حربياً. ولشدّ ما كانت دهشته لأدائه المتميّز. وقد اعتز بسجلّ نجاحه أمام "أيباك"، وهو النجاح الذي كان فاتحة مسيرة مهنيّة جديدة لهذا الطيار الشاب الكفء في سلاح الجو.

بين تذكارات الأمير بندر الشخصية في الطبقة السفلى من منزله في مكلين، ظلّ العنوان المأخوذ من الصفحة الأولى من "نيويورك ديلي نيوز" (1981/10/1) معروضاً بشكل بارز سنوات عديدة. يقول العنوان:

رون لإسرائيل: إليك عني

تمزق اللوبي اليهودي المناهض للأواكس

كوفئ نجاح بندر في تلك المناوشة المطولة بتعيينه ملحقاً عسكرياً في واشنطن دي سي سنة 1982. وعن ذلك يقول: "نُقلت فجأة إلى عالم مختلف".

عمل بندر في منصبه الجديد على العديد من البرامج العسكرية الأميركية السعودية التي اختبرها في منبعها كطيار حربيّ. وكملحق عسكري كان يعي تماماً أنه عندما اشترى السعوديون طائرات F-15، حدّت القيود المفروضة في "رسالة العرض والقبول"

الأصلية من القدرات العملانية لتلك الطائرات. وفي النهاية كان عليه الحصول على موافقة الرياض. غير أن بندر والسعوديين تبنّوا موقفاً براغماتياً يقول، "نعرف أنهم يغشّوننا، لكن لنُتِم الصفقة على أي حال لأننا سنخطو الخطوة الأولى لتحقيق غايتنا"[69].

لا بد أن إدراك الأمير انتهاء حياته المهنية كطيار بسبب الإصابة، سهّل عليه قراره ولوج الحلبة السياسية. وقد سُمع وهو يعلّق بأسلوب فلسفي: "كان الانفصال سهلاً عليّ"، وتابع معبّراً عن عشقه للطيران: "تركته وأنا في أشد التوق إليه، وكان ابتعادي عنه في أوانه". استطاع بندر الخروج وهو لا يزال في القمة، ومكّنه ذلك من الحصول على رضى عظيم من الأيام التي قضاها كطيّار حربي. وفي كلامه عن فترة التغيير المثيرة في حياته، قال: "فجأة وجدتني في مستوى آخر من التنافس، ونظرت في المرآة وفكّرت: أنا لم أتغيّر. إنّني لا أزال الشخص نفسه؛ لكنّ بيئتي هي التي تغيّرت. وأصبح السؤال، هل أستطيع البقاء في هذه البيئة الجديدة أم لا؟".

وكما تبين، كان أكثر من قادر على النهوض لتحدي العمل الجديد. إنّ بندر موهوب، ليس فقط لبقائه طافياً في مياه واشنطن المضطربة، وإنّما لتكيّفه أيضاً مع مشهد سياسي جديد ومتغيّر. كان توقيت وصول بندر إلى واشنطن مواتياً. إنّه محظوظ؛ لم يتوافق هذا الوصول مع الانتشار الأوسع للنفوذ في العاصمة فحسب، بل كان أيضاً بعد تنصيب الرئيس ريغن، حيث سرعان ما تغيّر النهج الرئاسيّ. وقد أحاط هيدريك سميث بهذا التغيّر عندما كتب: "إن دافع الرؤساء المعاصرين هو الخوض في الدبلوماسية الشخصية - لقاءات قمة، وزيارات شخصية، ودفق من المراسلات الخاصة مع ملوك ورؤساء ووزراء في كل مكان"[70]. كان هذا الأسلوب الشخصي الجديد من الرئاسة مناسباً جداً لبندر، واسع الاطلاع على النُهُج السعودية للحكم، وهو نهج عائلي تمتزج فيه التسلية والمشاركة في الأنشطة الاجتماعية بالقرارات المتعلّقة بالسياسات[71]. ومع تقدّم مسيرته المهنيّة في واشنطن وعلى المسرح العالمي، عملت الصورة الزائفة له كرجل مجتمع عابث على إخفاء ذاته الحقيقيّة الثانية - أمير ماكيافيلي النزعة.

بدأ ظهور بندر في وسائل الإعلام بعد وقت قصير من بروزه في العاصمة الأميركية في مطلع الثمانينيات. طيّار حربيّ شاب شديد الثقة بالنفس ومغرور،

وعضو في العائلة المالكة السعودية في الثلاثين من العمر. غير أن هذه الصورة كانت محاذية للأمير الحقيقي، المتردد وغير الآمن في الغالب، الأمير الذي سُمع وهو يعترف بهذه الفترة من حياته: "كنت كلما نجحت في مهمة أكلف بها، أسأل نفسي، *إلى متى سيدوم هذا الحظ؟*". وعلى الرغم من انعدام الأمن المبيّت في نفسه، فقد كانت لديه فلسفته الخاصة به، وساعده ذلك في إعداد نفسه للمسؤولية التالية. أسرَّ قائلاً: "كل ما أردته طوال حياتي تحقيق الأفضل في ما أفعله وعدم الشعور بالقلق بشأن المستقبل. المستقبل سيأتي. ولا معنى في الحصول على فرصة فقط كي يجد الناس أنك لم تحسن استغلالها. لقد أردت كملازم، أن أكون الملازم الأفضل في سلاح الجو. وعندما دعت الحاجة إلى عمل لا يقوم به إلا نقيب وأرادوا اختيار أفضل ملازم ليصبح نقيباً، كنت على أتم الاستعداد".

تابع بندر برزانة: "تهيئ نفسك مسبقاً لتتوقّع غير المتوقّع أو تكون رشيقاً بحيث تستطيع المناورة بسرعة، أو أن تنطلق بوحدات تسارع كثيرة، وتوقف المحرّك، وتنطلق بسرعة بعيداً من الخطر، وتنعطف، وتذهب في الاتجاه الآخر. يجب أن تكون الرشاقة فطرية لديك، ثم عليك أن تبحث عن الوغد الأفضل منك. لقد قال لي مدرّبي، وهو مدرّب طيران حربيّ، عليك أن تؤمن أنك الطيّار الحربي الأفضل في العالم. وعندما تؤمن بذلك، تمضي بقية حياتك في البحث عن الوغد الأفضل منك، الذي يوشك على قتلك، كي تبقى على قيد الحياة".

كان تقبّل مجتمع واشنطن لبندر بعد تعيينه ملحقاً عسكرياً أمراً لا لبس فيه. وقد لاحظت صحيفة "فايننشل تايمز" أنّ "الأمير السعوديّ، كعميد للسلك الدبلوماسي في واشنطن، انصهر في المؤسسة السياسية للعاصمة بسهولة عظيمة، وجمع حوله أصدقاء نافذين ومشاهير مستطرفين"[72]. وأوضح الوزير بيكر ببلاغة أسس نجاح الأمير في واشنطن حين كتب: "كابن أخٍ للملك فهد، كان بندر يتمتع بنفوذ غير عادي لدى عمه. فقد تعلّم في الولايات المتحدة، وتمكّن تماماً من اللغة الإنكليزية بتعابيرها الاصطلاحية، وأحسن فهم الروح الأميركية. وأظهر بندر هالة من المكر الساحر، لكنه كان يمتلك مقدرة عقليّة ممتازة وكان الأكثر تطوّراً من بين أقرب المستشارين إلى الملك"[73]. ولا عجب في أن الأميركيين أقاموا علاقة مع هذا الدبلوماسي الفصيح والمرح والذي اعتاد أن يدخّن السيجار. كان بندر يتكلم لغتهم، وبالإضافة إلى ذلك،

وبعكس غيره من الدبلوماسيين الأجانب كان يستطيع نسج "الحكم على الأشياء بعد وقوعها" في الحديث بسهولة فطرية؟ وقد عبّر ديفيد بلوتز عن هذه الناحية بإيجاز بليغ: "كسب محبّة الأميركيين بحيويته الجامحة. فهو يدخّن السيجار! ويهتف تشجيعاً لفريق دالاس كاوبويز! ويتحدّث الإنكليزية كالأميركيين!"[74].

يقلّل بندر من نجاحه بالقول: "ككل شيء في حياتي، أفضل أن أكون محظوظاً على أن أكون ذكيّاً. إنّني لا أسعى وراء الأشياء؛ بل أجد نفسي وسطها وأنطلق من هناك. وبسبب ذلك، أعدّ نفسي دوماً لأي شيء لا يلوح في الأفق، سواء أكان معرفة أم معلومات أم معارف. وما إن يجتمع قدَري مع حظي، حتى أنطلق، بدلاً من البدء من الصفر كل مرة"[75]. وهذا الإقرار أنه يتعمّد الاستعداد لأي شيء يمكن أن ينتظره في المستقبل هو بالذات ما يجعل ملاحظة كولن باول الحكيمة أمراً مسلّماً به: "يميل الحظ إلى الإقبال على الأشخاص المهيئين جيّداً"[76].

الفصل الرابع

سنوات المكيدة

"النجاح ليس نهائياً، والفشل ليس مميتاً: ما يُعتدّ به امتلاك الشجاعة للاستمرار".

ونستون تشرشل (1974-1965)

في مطلع السبعينيات، أدى وصول ياسر عرفات وآلاف من مقاتلي منظمة التحرير الفلسطينية المسلحين إلى لبنان إلى تفاقم العلاقات المتزايدة التوتّر بين المسيحيين والمسلمين في لبنان. فخشي المسيحيون الموارنة الحاكمون من أن تثير هجمات منظّمة التحرير عبر الحدود الإسرائيلية ردوداً عسكرية. ولم تكن تلك المخاوف بلا مسوّغات.

في 13 أبريل 1975، قتل مسلحون أربعة أفراد من حزب الكتائب الماروني، خلال محاولة لاغتيال بيار الجميّل زعيم الحزب. اعتُقد الكتائبيّون أن المهاجمين فلسطينيون، فردّوا بمهاجمة حافلة كانت تقلّ ركّاباً فلسطينيين، فقتلوا 26 منهم. وعلى الفور، اندلع قتال عنيف بين المسيحيين من جانب، وتحالف من الميليشيات الإسلاميّة بقيادة منظّمة التحرير من الجانب الآخر.

وفي يونيو 1976، أرسل الرئيس السوري حافظ الأسد 40 ألف جندي إلى لبنان لاحتواء القتال، بطلب من الحكم المسيحي الماروني، وبموافقة إسرائيلية وأميركية. وبعد أربعة أشهر، في أكتوبر 1976، عقدت جامعة الدول العربية مؤتمر قمة في الرياض لحل الأزمة اللبنانية. وقضى الاتفاق متعدّد الأطراف الذي أسفر عنه المؤتمر بوقف إطلاق النار وتشكيل قوة الردع العربية لفرض وقف إطلاق النار والإشراف عليه. كان من المفترض نظرياً أن تكون قوة الردع – المموّلة من جامعة الدول العربية – قوة حفظ سلام عربية بقيادة الرئيس اللبناني. لكن في الواقع، لم ينضم إلى القوات السورية الموجودة في لبنان سوى 5000 جندي عربي فقط من المملكة العربية السعودية

ودول الخليج وليبيا والسودان. وبذلك أضفى الاتفاق الشرعيّة على الوصاية السورية للبنان ووفّر له الدعم الماليّ.

أوضح بندر، في حديثه عن هذه الفترة والتناقض السياسي الظاهريّ الذي أحدثته، أن قوّة الردع حققت هدف حماية المسيحيين، لكنها بهذا العمل أنتجت حرباً أهلية بين اللبنانيين المسيحيين والمسلمين. وعندما عجزت القوات العربية عن التوصل إلى حل، انسحبت في نهاية الأمر. ومع أن السوريّين قمعوا الفلسطينيين عسكرياً، فقد واصلت منظّمة التحرير الفلسطينيّة هجماتها على إسرائيل انطلاقاً من الأراضي اللبنانية. وسرعان ما أثارت تلك الهجمات رداً عسكرياً إسرائيلياً.

في 6 يونيو 1982، اجتاحت إسرائيل لبنان بغية القضاء على منظّمة التحرير الفلسطينيّة في بيروت. وقاد وزير الدفاع الإسرائيلي أرييل شارون قوة ضخمة قوامها 11 فرقة دبابات و11 لواء مشاة مدعومة بنحو 600 طائرة في عملية أطلق عليها اسم "سلامة الجليل". وسرعان ما تقدّم الإسرائيليون إلى بيروت، حيث طوّقوا ما بين 12,000 و14,000 مقاتل تابعين لمنظّمة التحرير والسكان المدنيين اللبنانيين، وضربوا حصاراً على المدينة. برّرت إسرائيل خرق وقف إطلاق نار هش قائم منذ 24 يوليو 1981، بمحاولة اغتيال السفير الإسرائيلي في لندن، ومواصلة الهجمات التي تشنّها منظّمة التحرير عبر الحدود على مستوطنات الجليل، وتزايد أسلحة منظّمة التحرير وقوّاها في جنوب لبنان.

في 15 يونيو، تحصّنت القوات الإسرائيلية في مواقع ثابتة خارج بيروت. وأدرك ياسر عرفات أن الغزو الإسرائيلي للبنان محاولة للقضاء على منظّمة التحرير الفلسطينيّة، فأخذ، بدعم من المملكة العربية السعودية، يحاول فك الاشتباك ويعدّ لانسحاب مقاتليه.

في ذلك الوقت، كان بندر لا يزال في أول عهده بدوره الجديد كملحق عسكري في واشنطن دي سي، ولم يكن يدري أنه سيغوص في هذا الصراع كوسيط. وقبل ذلك بأيام، ارتقى ولي العهد الأمير فهد إلى العرش في 13 يونيو 1982، عقب وفاة الملك خالد. وفي أحد القرارات الأولى كملك، طلب فهد من بندر الاجتماع بوزير الخارجية ألكسندر هيغ للتوصل إلى حل يسمح لمنظّمة التحرير بالانسحاب من لبنان.

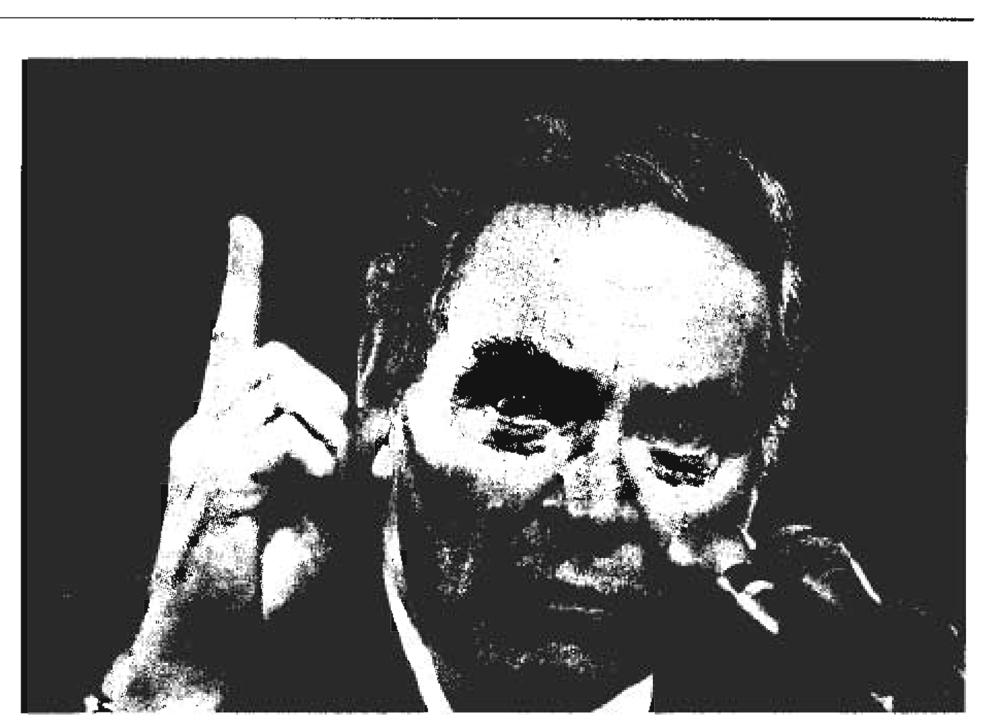
كان بندر يعرف هيغ جيداً، فقد عمل معه بشأن صفقة طائرات "أواكس". وكانت بينه وبين هيغ زيارات اجتماعية متبادلة، بل إن كلاً منهما كان ينادي الآخر باسمه الأول. وهكذا، حين ذهب بندر ليجتمع بهيغ لمناقشة مسألة لبنان، توقّع استقبالاً ودّياً. وعندما وصل، مصحوباً بمساعد وزير الخارجية لشؤون الشرق الأوسط نِك فليوتِس، رافقه أحد موظفي الوزارة إلى مكتب الوزير هيغ. وعلى غير عادة وزراء الخارجية، كان هيغ جالساً خلف مكتب في نهاية غرفة انتظار فخمة أمام مكتب صغير حيث كان وزير الخارجية يعمل عادة. ويقول بندر: "كان قرار الوزير هيغ أن يكون مكتبه في نهاية غرفة الانتظار من موروثات غروره كجنرال بأربع نجوم عندما كان القائد الأعلى لقوات الحلفاء في أوروبا".

بدلاً من الترحيب الحارّ الذي كان بندر يتوقّعه، راح هيغ "يلوّح بإصبعه في وجهي قائلاً، *أمير بندر، عليك أن تُخرج مقاتلي منظّمة التحرير الفلسطينيّة فوراً قبل أن يلتهمهم شارون أحياء. والسبب الوحيد الذي حال دون تدمير المنظّمة كليّاً، هو أننا نمنع شارون من القيام بذلك. لكنني لم أعد أستطيع كبحه*. وكان عندئذ يصيح في وجهي".

عندما وصل بندر إلى مكتب هيغ، رفع يده وقال: "جنرال هيغ، في بلدي نقول مرحباً أولاً". اعتذر هيغ على الفور، وتحرّك من خلف مكتبه لمصافحة بندر. وجلس الثلاثة، بندر، وهيغ، ونِك فليوتِس الذي كان يدون الملاحظات في أثناء الاجتماع. وتابع هيغ تشدّقه بالكلام عن كيف سيدمّر شارون منظّمة التحرير بعدما طوّقها، بحسب قوله، ولم يعد لديها أي ملاذ.

قال بندر ملخّصاً الموقف السعودي: "الملك فهد يريد حلّ هذه المشكلة، لكن لا بدّ من تنفيذ أربعة شروط: أن تغادر منظّمة التحرير الفلسطينيّة حاملة ما تستطيع نقله من الأسلحة، وبخاصة الأسلحة الفردية والأسلحة الخفيفة؛ وأن تترك أسلحتها الثقيلة لحلفائها في لبنان؛ وأن ترافق قطع بحريّة السفن التي ستنقلها حتى وصولها إلى مقصدها مصر واليمن وتونس؛ وأخيراً، من أن تبقى لديهم مكاتب سياسية مفتوحة في بيروت".

كان شارون يصرّ على رحيل منظّمة التحرير من لبنان من دون أي شيء، بما في ذلك جميع أسلحتها إلى بلد ثالث، وإغلاق مكاتبها كافّة في العاصمة اللبنانية. ثار هيغ على الفور قائلاً: "هذا غير مقبول إطلاقاً! لن يقبل شارون وبيغن بذلك البتة. إنّني أقول لك، سيقومان بتدميرها".



ألكسندر هيغ

أوضح بندر أن هذه هي التعليمات التي تلقّاها، وأنّها الطريقة الوحيدة التي ستقدم المملكة العربية مساعدتها بناءً عليها، وطلب من هيغ نقل هذه الرسالة إلى الإسرائيليين ليعرف ما هو ردّ فعلهم.

قاطعه هيغ قائلاً: "أعرف ماذا سيكون عليه ردّ فعلهم. أستطيع أن أؤكد لك أن شارون سيدمّر منظّمة التحرير في الغد إذا كانت تلك خلاصة القول".

أجاب بندر: "أنت لست شارون. مرّر الرسالة إلى الإسرائيليين ودعنا نرى ردّ فعلهم. لو استطاع شارون اكتساح منظّمة التحرير الفلسطينيّة وتدميرها في بيروت لما انتظر إذناً منك أو من سواك. وسبب عدم قيامه بذلك هو أنه لا يستطيع. المدينة شرك قاتل، إنّها تضمّ مليون شخص كثير منهم مسلحون. ستقع مذبحة وسيكون الثمن باهظاً على الإسرائيليين. لذا أرجو منك ألا توقف شارون، قل له أن يتابع الهجوم. إذا لم يقبل شروطنا للتدخّل وحلّ المشكلة، عندئذٍ دعه يدخل المدينة".

أجاب الوزير هيغ: "هل هذا رأيك أم رأي رئيسك؟".

ردّ بندر غاضباً: "من الذي تعتقد أنّني أتحدّث باسمه؟ لستُ هنا أزاول عملاً حراً وأتحدّث باسمي".

طلب هيغ من بندر العودة إلى المملكة العربية السعودية لمناقشة هذا الاجتماع مع الملك فهد. رفض بندر، موضحاً أنه عرض الموقف السعودي بالفعل. وختم غاضباً: "إذا كنت تشك في ما أقول، لديك سفير في الرياض، اطلب منه الاجتماع برئيسي".

في هذه الأثناء احتدم النقاش، فنهض نِك فليوتِس ببطء وهمّ بالخروج.

قال بندر له: "اجلس يا نك. أريد شاهداً".

ران صـــمت طويل فيما انتظر كل منهما الآخر أن يبادر بالخطوة التالية. أخيراً، سأل هيغ: "هل ذلك خلاصة القول؟".

أجاب بندر: "هو كذلك".

أجاب هيغ: "حسناً، أمهلني بضع دقائق".

انـــسحب هـــيغ إلى مكتـــبه، وأجرى مكالمة هاتفية. وحين عاد قال ببساطة، "اتفقنا".

يـــسجل الـــتاريخ أنه منعاً لسقوط ضحايا مدنيين، وافقت إسرائيل على وقف إطلاق النار لتمكين دبلوماسي أميركي، وهو السفير فيليب حبيب، من التوسط بشأن انسحاب منظّمة التحرير الفلسطينيّة من لبنان. ويكاد دور بندر لا يذكر في حاشية. في 24 أغـــسطس 1982 نـــزلت عناصر من مشاة البحرية الأميركية على شواطئ بيروت كجزء من قوة مؤقّتة متعددة الجنسيّات مع وحدات فرنسية وإيطالية. وبعد ذلك مُنح مقاتلـــو مـــنظّمة التحريـــر الفلسطينيّة ممراً آمناً إلى تونس مع أسلحتهم الفرديّة، وهي الـــصيغة الحافظة لماء الوجه التي أوحت بها المملكة العربيّة السعوديّة. وتم إجلاء منظّمة التحرير من دون حادث يذكر، وانسحب مشاة البحرية إلى سفنهم في 10 سبتمبر.

بعد أن استقر عرفات وأتباعه بأمان في شمال إفريقيا، وعلى الرغم من اعتراضات وزير الدفاع كاسبار واينبرغر الشديدة، أُمر مشاة البحرية بالعودة إلى لبنان واستئناف جهـــودهم كقـــوّة حفـــظ سلام. كان ذلك القرار نذيراً بالتفجير المروع لثكنة مشاة البحرية الأميركية في بيروت في 23 أكتوبر 1983، وهو التفجير الذي أودى بحياة 241 عسكرياً أميركياً وعجّل بانسحاب القوّات الأميركيّة من لبنان، فكان ذلك بمثابة قرع ناقـــوس المـــوت لحكـــم الرئيس اللبنانيّ أمين الجميّل وللسيادة اللبنانية نفسها في آخر المطاف[1]. لكن بالنسبة إلى بندر، كان النجاح خاتمة معركته الدبلوماسية الأولى.

علـــى الـــرغم من موقع بندر الاعتباري كملحق عسكري، قُيض له العمل مع وكالة الاستخبارات المركزية (السي آي أيه) لصالح المملكة العربية السعودية لتقويض الـــتهديد المتنامي للشيوعية في إيطاليا في مطلع الثمانينيات. فقد تدخّلت السي آي أيه لأوّل مـــرّة، علـــى مـــا يُزعم، في الانتخابات الإيطالية سنة 1948، فاشترت أصواتاً

للحؤول دون فوز الشيوعيّين. وبعد 35 عاماً، ومن منطلق الخشية من احتمال تجدّد بروز الحزب الشيوعي الإيطالي، دخلت السي آي أيه في شراكة مع الحكومة السعودية لإحباط توقّعات فوز الشيوعيين في الانتخابات مجدداً. كان الحزب الشيوعيّ الإيطالي من أقوى الأحزاب الشيوعية في أوروبا الغربية وأصبح قوة كبيرة في الشؤون السياسية الإيطالية. وفي ذروة شعبيته سنة 1976، حاز على أكثر من ثلث الأصوات في الانتخابات الوطنية.

خلال الإعداد للانتخابات الإيطاليّة سنة 1983، بدا أن الديمقراطيين المسيحيين سيخسرون أمام الحزب الشيوعي، الذي أظهرت استطلاعات الرأي قوّته الكبيرة. حدث ذلك في أثناء المواجهة المباشرة بين ريغن والسوفيات. وربما كانت وقعت الكارثة لو أنّ بلداً أوروبيّاً غربيّاً، تحوّل إلى الشيوعيّة إبان تلك المواجهة. ووفقاً لبندر، كانت رئيسة الوزراء تاتشر والرئيس ريغن والملك فهد عازمين على عدم السماح بحدوث ذلك، واتفقوا على التأثير في نتيجة الانتخابات في دولة ديمقراطية ذات سيادة.

كان بوب وُودوارد أول من كشف دور بندر في تلك المسألة، عندما ذكر أنّ الأمير ساهم بمليوني دولار للمساعدة في عملية سرية لإعاقة الصعود الديمقراطيّ للحزب الشيوعيّ الإيطاليّ"[2]. أصاب وودوارد جزءاً من الحقيقة فقط. فقد أوضح بندر، بعد تأكيده أن السعوديّين قدّموا 10 ملايين دولار، لا مليونين كما زعم وودوارد، "وضع الأميركيون الخطة أساساً وقدّمت المملكة العربية السعودية المال، الذي أودعناه في بنك الفاتيكان في إيطاليا. ولم نعرف بعد ذلك ما حدث له، لكنّ الديمقراطيين المسيحيين فازوا في نهاية المطاف".

عقب اتفاق تاتشر وريغن وفهد على الخطة، انتقل بندر إلى روما مباشرة حاملاً معه حقيبة مليئة بالمال. توجه بالسيارة إلى الفاتيكان، حيث يوجد بنك الفاتيكان، فخرج قسيس لملاقاته وأخذ الحقيبة التي كانت تحتوي على 10 ملايين دولار. وكان في مهمته تلك على اتصال بمدير السي آي أيه بيل كيسي وموفد ريغن الشخصي إلى الكرسي الرسولي وليام أيه. ويلسون، الذي أصبح في 7 مارس 1984 أول سفير أميركي إلى الفاتيكان. أمضى الأمير تلك الليلة في روما وعاد إلى واشنطن في اليوم التالي.

يقول بندر معلّقاً على المال الذي أودع في بنك الفاتيكان: "تم الأمر مع إمكانية التنصّل منه، لأنك لن ترى عليه بصمات أميركية أو بريطانية. لم يأتِ المال من

الأميركيين والبريطانيين. ولم يقرّ في الكونغرس أو البرلمان البريطانيّ. كان في وسع كل منهما أن يقول، *لا شأن لي بذلك*، ومع ذلك تمّت الأمور على هذا النحو". وختم بندر: "كان ذلك مثالاً تقليدياً على التعاون الاستراتيجي بين ريغن وفهد وتاتشر الذي تمّ بطرائق عديدة جدّاً".

أكّد بندر لاحقاً أن اختيار بنك الفاتيكان لإيداع المال كان مقصوداً. فعندما اقتنع جوليو أندريوتي، أحد أقوى السياسيين في إيطاليا ما بعد الحرب، ورئيس وزراء إيطاليا سبع مرات، ووزير الخارجية بين سنتي 1983 و1989، باحتمال فشل الديمقراطيين المسيحيين في الانتخابات، نقل مخاوفه إلى البابا يوحنا بولس الثاني، الذي وافق على ضرورة اتصال أندريوتي بمدير السي آي أيه بيل كيسي. وعندما عرف كيسي بمخاوف الفاتيكان، أخبر رونالد ريغن بذلك على الفور.

كان الحل الذي استنبطه ريغن وكيسي، وأيّده البابا وأندريوتي، بحسب قول بندر: "تكراراً للخمسينيات حين كان ديغول على وشك خسارة الانتخابات أمام الشيوعيين وقرّر الرئيس أيزنهاور التدخّل. فقد توجّهت السي آي أيه إلى هناك وتدخّلت في الانتخابات. وهكذا فاز ديغول". أوحى بندر أن تورّط الكرسي الرسولي في تلك العمليّة لم يكن مدفوعاً فقط بخشيته من القيود الدينية في إيطاليا شيوعية ملحدة، وهي مركز العالم الكاثوليكي، بل أيضاً بإيمانه أن هزيمة الاتحاد السوفياتي ستتيح الفرصة لانبعاث الكاثوليكية في أوروبا الشرقية. كان من المتعذّر بالطبع على الأميركيّين أن يموّلوا الخطة، إذ لا بدّ من الحصول على موافقة الكونغرس. لذا اقترح كيسي الخيار السعودي وفاتح بندر بالأمر. فأطلع بندر الملك فهد على ذلك وسرعان ما حصل على موافقته على تقديم العشرة ملايين دولار اللازمة. وتمّ إيداع المال في بنك الفاتيكان بسبب مشاركته الفاتيكان في هذه العمليّة.

وهكذا تحوّل بندر إلى وسيط ينقل المال لحساب البابا.

سرعان ما اكتسب بندر الخبرة من عمله كملحق عسكري. فقد كان يتمتع بموهبة فطريّة في الدبلوماسية والتفاوض، وفهم معمّق للأنشطة السرية لوكالة الاستخبارات المركزية (السي آي أيه). وبعد أن ترك بصماته على شؤون الشرق الأوسط بتسهيل انسحاب منظّمة التحرير الفلسطينيّة من بيروت، اجتذبه المسرح السياسي اللبناني المتقلّب إليه مجدداً.



كان البابا بولس الثاني مستعداً لإضعاف الديمقراطية في إيطاليا في حربه ضد الشيوعية

خبت الحرب الأهلية في لبنان، لكنّ النار بقيت تحت الرماد بانتظار انفجار موجة عـنف أخرى. فالاتفاق الموقع في 17 مايو 1983 بين إسرائيل ولبنان، لم يكن معاهدة سلام كاملة. وفي نهاية أغسطس 1983، تجدّد القتال الضاري بين ميليشيا أمل الشيعية والميليشيا المسيحية في بيروت. وتدخّل الجيش اللبناني وتمكن بعد أربعة أيام من السيطرة على قلب بيروت الغربية. ومع ذلك اشتد التوتّر في 4 سبتمبر 1984، عندما انسحب الإسرائيليون من مواقعهم في جبل الشوف خارج بيروت. وبزوال الوجود الإسرائيلي كحاجز فاصل، نشب القتال بسرعة بين الميليشيات المسلمة والمسيحية.

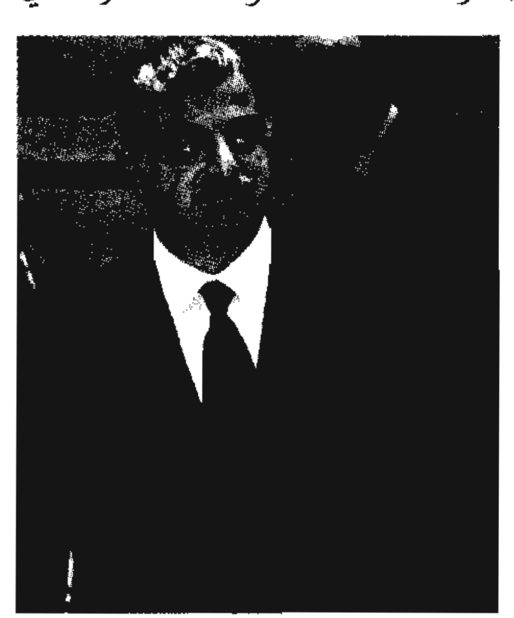
قـرّر الملـك فهـد، في خطوة مفاجئة، ترقية بندر إلى منصب سفير المملكة في واشـنطن. فاسـتُدعي إلى الرياض ليتلقى تعليمات من الملك ويحمل أوراق اعتماده، وطلب منه فهد التوجّه إلى دمشق لنقل رسالة إلى الرئيس الأسد. يقول بندر عن ذلك: "لم أكـن أعرف مضمون الرسالة، لكنها كانت حسّاسة جدّاً إذ طلب الملك تسليمها إلى الأسـد مباشرة، لم يكن يريد أن يطلع عليها أحد". وأضاف: "ظننت أنّ مروري بدمـشق سيكون عابراً بحيث أسلم الرسالة وأنتقل إلى أميركا عبر لندن". كان اهتمام بـندر منصبّاً على العودة إلى واشنطن، فانتقل إلى دمشق وسلّم رسالة فهد إلى الأسد. ويذكر بندر أن الأسد قرأ الرسالة ثم رفع رأسه وسأل: "ما رأيك؟".

أصيب بندر بارتباك. فهو لم يكن مطّلعاً على مضمون الرسالة، لذا أكد للرئيس أنّ مهمته تسليم الرسالة فحسب.

فقال الأسد: "أود أن تمضي الليلة هنا لأنني أريد الردّ على الرسالة وأريدك أن تنقلها إلى الرياض".

حاول بندر التملص، فاقترح أن يتولى أحد المسؤولين السوريين إيصال الرسالة، لكن الأسد ألح في الطلب. وفي اليوم التالي، عاد بندر إلى المملكة حاملاً رد الأسد إلى الملك فهد، الذي بادر إلى تكليفه بالعمل مع رفيق الحريري(*)، لمساعدة اللبنانيين والسوريين على وضع حدّ للحرب. يقول بندر: "مكثت 25 يوماً في دمشق، حيث التقيت بزعماء مختلف الميليشيات وتفاوضت معهم".

لّما كانت المملكة العربية السعودية البلد الوحيد الذي لديه علاقات طيبة مع جميع الفئات، فقد تمكّنت من أن تلعب دوراً حاسماً من وراء الكواليس بالتعاون مع سورية ومصر. وفي أثناء الأزمة، تردّد بندر والحريري كثيراً على قبرص المحايدة للالتقاء مباشرة بقادة الأحزاب اللبنانية. وكان بندر يعمل من دمشق كنقطة انطلاق، لكن بعض الأحزاب المتصارعة لم تكن تثق بالسوريين، فاستُخدمت قبرص في الغالب كمكان بديل للقاء. وكان بندر ينتقل من دمشق إلى قبرص جواً فيما يتوجّه إليها زعماء المسيحيين اللبنانيين والكتائب من طريق الجو أو البحر. كانت المفاوضات تجرى في طائرة بندر الخاصة "غلفستريم 3"، وبعد إتمام المفاوضات يعود بندر بطائرته إلى دمشق. وكثيراً ما كان يتندّر في ذلك الوقت أنه تحوّل إلى أغلى ساعي بريد في العالم.



رفيق الحريري، المحسن اللبناني الذي أصبح لاحقاً رئيساً للوزراء

عمل روبرت "بَدْ" ماكفرلين، الموفد الأميركيّ الخاص إلى الشرق الأوسط في ذلك الوقت، بالتنسيق مع بندر، فتطوّرت بينهما صداقة يقول العديدون إنّها أدّت إلى تعيين ماكفرلين في ما بعد مستشاراً للأمن القومي في عهد ريغن. وأفيد عن أنّ بندر كان كثير النشاط

(*) كان رفيق بهاء الدين الحريري مليارديراً عصامياً ورجل أعمال ناجحاً. وقد تولى رئاسة حكومة لبنان بين 1991 و1998 وبين 2000 و2004. اغتيل الحريري في 14 فبراير 2005 في بيروت، ما عجّل الانسحاب السوري من لبنان.

في أثـــناء عملـــه في لبنان بحيث "كان يُمطر ماكفرلين بوابل من البرقيات ما جعل الفريق يسمّيها بندر غرامز"[3].

في تلـــك الآونة، وصف ماكفرلين الوضع في لبنان أنه "قريب جداً من المستحيل"[4]. بـــل إنّ بندر اعترف للملك فهد أن "الحلّ معدوم". فأجاب الملك ببساطة: "يجب أن يكـــون هناك حل". وشكا بندر لاحقاً من عدم إطلاعه بالتفصيل على الوضع خلال عملـــه الباكـــر في هذا الحقل الدبلوماسي الملغوم، وقال موضحاً: "كان ذلك التوجيه الوحـــيد الذي حصلت عليه!" وعن جهوده في لبنان، قال بندر: "سرعان ما حصلت علـــى اتفاق بين جميع الأطراف على وجوب وقف أعمال القتل وبدء المحادثات في ما بيـــنهم. والمأســـاة أنّ ثلاثة أسابيع أخرى مضت لحملهم على ترجمة ذلك إلى صيغة مقبولة"[5]. ثم انهار كل شيء.

في تحليل لمواقف كل من الأطراف الرئيسية آنذاك، قال بندر: "أراد السوريون أن يظهـــروا كـــأنهم حـــياديون، وأنّ المملكة العربية السعودية وسورية كانتا تفاوضان كطـــرفين محايدين. ولم يكن السوريون محايدين بالطبع، وإنما يرغبون في ممارسة تلك اللعـــبة. كـــان يُفترض بهم أن يتحدّثوا باسم حلفائهم، وكان الأميركيون ضالعين عن طـــريق رحـــلات بَدْ ماكفرلين المكوكية. ويُفترض بهم أن يعبّروا عن رأي المسيحيين والإسرائيليين على الطاولة".

في دمشق، التقى بندر بقادة تربطهم بسورية علاقات ودّية. لكنه كان بين الحين والآخـــر يُـــضطر إلى الالتقاء بمن يرفض الانتقال إلى سورية أو إلى قبرص. ولأن فهد والأســـد لم يـــسمحا لبندر بدخول لبنان، كان الحريري ينتقل إلى بيروت بحماية من السوريين. وبعد مفاوضات دامت 15 يوماً، ظنّ بندر أنهم توصلوا أخيراً إلى حل.

أوضح بندر: "كان اتفاق 17 مايو من النقاط المهمّة هنا، وهو محاولة مدعومة من الـــولايات المتحدة للتوصّل إلى سلام بين لبنان وإسرائيل اتفق عليه في وقت سابق من تلـــك السنة(*). وقد قوبل بمعارضة قوية من المسلمين اللبنانيين والعالم العربـــي، حيث

(*) في أعقاب عملية سلام الجليل، اجتمع مفاوضون إسرائيليون ولبنانيون لمناقشة اتفاق بين البلدين. وعقـــد الوفدان أكثر من 35 جلسة على نحو متناوب بين خلدة وكريات شمونة ونتانيا ابتداء من 28 ديسمبر 1982. تمّ توقيع الاتفاق أخيراً في 17 مايو، عقب مشاركة أميركية رفيعة المستوى، بمـــا في ذلك 10 أيام من الدبلوماسية المكوكية لوزير الخارجية شولتز. وأبرز ما تضمنه الاتفاق إنهاء حالة الحرب بين لبنان وإسرائيل، ووضع آلية للتعاون وإقامة قنصلية إسرائيلية في بيروت.

اعتُبر اتفاقاً غير قانونيّ جرى فرضه فيما يرزح البلد تحت احتلال عسكري، أي أنّه في جوهره استسلام مفروض. وأكّد بندر على أنّ الأميركيين أرادوا فرض اتفاق 17 مايو، لكنّهم لم ينجحوا في ذلك. وعلى الرغم من توقيع الاتفاق، فإنه لم يتم التصديق عليه بسبب المعارضة السورية الشديدة. واقترح بندر والحريري في مقابل عمل المملكة العربية السعودية على إلغاء اتفاق 17 مايو، أن يوعز السوريّون أولاً إلى حلفائهم اللبنانيين بالموافقة والتوقيع على اتفاق يحمي المسيحيين والرئاسة. فنظراً إلى أنّ المملكة تحتضن الأماكن الإسلامية المقدسة، لم يشأ الملك فهد أن يصوّر الأمر وكأن المملكة تدعم المسلمين ضد المسيحيين. وشدّد بندر على أنّ غاية الدور السعودي هي دعم جميع اللبنانيين وحضّهم على السلام والمصالحة. واعترف بوجود تأثير ضمني يقوم على الصداقة المتينة بين القادة السياسيين اللبنانيّين المسيحيين، وقادة المملكة منذ نشأة لبنان كدولة مستقلة سنة 1943. ومع ذلك، أكّد بندر على أنّ السياسة السعودية كانت حيادية حقّاً وفي مصلحة اللبنانيين كافة. وذكر بوضوح لا لبس فيه: "أردنا السلام للجميع؛ وأردنا المحافظة على كرامتهم وحقوقهم".

وكي يحرز بندر تقدّماً في ترتيب اتفاق سلام، أدرك أنّه لا بدّ من إزعاج حلفائه الأميركيين بما يوحي بوجود تناقض ظاهريّ. وأوضح قائلاً: "قدمت إلى رئيسي توصية أن علينا أن نغضب أميركا بإفشال اتفاق توسّطت التوصّل إليه". كان بندر يعتقد أن اتفاق 17 مايو الأميركي معيب في جوهره بسبب المشاركة الإسرائيلية. وكان مقتنعاً أن الحلّ الذي يقترحه سيوفّر سلاماً أفضل يحمي المسيحيّين والرئاسة، ولا يقوّض في الوقت نفسه النظام اللبناني بكامله. ووصف كيف دُهش السوريون عندما علموا بالموقف السعودي المعارض للاتفاق الذي تدعمه أميركا. فزاد ذلك الموقف مصداقية بندر التي تعزّزت بتصريحه: "نحن أصدقاء أميركا، ولسنا دمى أميركا. لدينا مصالحنا ولديهم مصالحهم، لكن في هذه الحالة، نعتقد أن على الأميركيين أن يكونوا سعداء لأنّنا نحمي الفريق الذي يدعمونه".

وذكر بندر أنّه بعد أن أقنع جميع الأطراف بالموافقة على اقتراحه، تلقى رسالة مفادها أنّ الرئيس اللبنانيّ غير راضٍ. فقد شعر الرئيس الجميّل المستاء بالإحراج لأنّ بندر التقى بجميع الأطراف ما عداه. ومع أنّه وافق على الحل الذي اقترحه بندر، فإنّه يعاني من الحرج الشديد. غالباً ما شدّد بندر على حاجة جميع الأطراف في أي موقف

سياسيّ صعب، وبخاصّة في المسائل المتصلة بدبلوماسية الشرق الأوسط، إلى الحفاظ على سمعتهم. ولعل لهذا العامل أهميّة أكبر في الثقافة العربية مما هي عليه الحال في الغرب، لكنه مهمّ بالنسبة إلى أي مفاوضات دبلوماسيّة إذا كان المراد سلاماً منصفاً ودائماً. طلب الحريري أن يلتقي الأمير بالجميّل في بيروت أمام سائر الميليشيات المسيحية بحيث يبدو الجميّل "لاعباً مهماً". لكن سفر بندر إلى بيروت كان محفوفاً بالمخاطر. وأوضح بندر أنه التقى بالحريري وتوصّلا إلى أنهما إذا طلبا من الملك فهد إذناً لتوجّه بندر إلى بيروت، فإنه سيرفض. كما أن الأسد لن يوافق على ذلك، لأنّ القتال في لبنان لا يزال محتدماً.

لذا اتفق بندر مع الأميركيين، الذين وافقوا على تقديم طائرتي هليكوبتر. وتوجّه بندر والحريري معاً إلى قبرص، حيث التقيا بماكفرلين. وفي تلك الليلة، استقل الثلاثة طائرة الهليكوبتر الأميركية وطاروا إلى القصر الرئاسي في بيروت. وأوضح بندر: "عندما دنونا من الساحل اللبنانيّ، بدت سماؤه شبيهة بسماء احتفالات الرابع من يوليو وكان من المفجع أن نرى القذائف تنفجر في كل مكان".

وكتدبير احترازي، ترك بندر رسالة طلب تمريرها إلى السوريين بعد مغادرته، يبلغهم فيها أنّه متوجّه إلى بيروت ويدعوهم إلى أن يطلبوا من حلفائهم الحرص على عدم إسقاط طائرته. لكن ثارت البلبلة والذعر عندما عرف الملك فهد بالأمر؛ فاتصل بالرئيس الأسد هاتفياً وتابع الاتصال كل نصف ساعة سائلاً: "هل عادا؟ هل عادا؟". في هذه الأثناء هبطت طائرتا الهليكوبتر في حديقة وزارة الدفاع في بيروت حيث كانت ناقلتا جنود مدرعتان تنتظرانهما. ولدى ترجلهما قال بندر للحريري: "علينا أن نحافظ على وقارنا حتى ندخل ناقلة الجنود؛ ما علينا إلا أن نسير بهدوء"، غير أنّه اعترف: "ما إن حطّت الهليكوبتر وخرجنا منها، حتى تراكض الناس من حولنا عندما انفجرت القذائف في كل أنحاء المكان. تبادلت والحريري النظرات كأنّنا نقول، *ليذهب الوقار إلى الجحيم*، لذا أمسك كل منا بعباءته وركض".

عند وصول الثلاثة - بندر والحريري وماكفرلين - إلى القصر الرئاسي، كان القصف المدفعي شديداً جدّاً بحيث لم يكن أحدهم يستطيع سماع ما يقوله الآخر. وفي غرفة محصنة تحت الأرض، التقوا بالرئيس الجميّل والزعيم السنيّ، رئيس الوزراء الأسبق

صائب سلام، وهو من حلفاء المملكة العربية السعودية(*). وقد بيَّن وجود صائب سلام لبندر أن المسيحيين ليسوا معزولين، وأنّهم يتمتعون بدعم سنّي. ويقول الأمير معترفاً: "وافقني الرئيس أمين الجميّل(**) على أنّه لإنقاذ لبنان وإنقاذ الرئاسة، يجب الحصول على تعهّد من سوريا أن يقبل حلفاؤها وقفاً لإطلاق النار وتتوقّف المجازر، وأن تُحترم مؤسسة الرئاسة وتراعى، وعندئذ فإنّه سيكون على استعداد للتخلي عن اتفاق 17 مايو. وذلك التزام سبق أن قدّمه إلي، لكّن لأسباب سياسية وأخرى تتعلق بالبروتوكول ومقام الرئاسة، كان عليه أن يُظهر كأنّنا حصلنا عليه منه مباشرة. وهكذا نلنا الموافقة على مقترحاتي".

عاد بندر مبتهجاً إلى دمشق عبر قبرص، معتقداً أنّ الجميّل أظهر شجاعة، إذ كان ثمة معارضون لهذا الاتفاق في صفوف مؤيّديه. وفي أعقاب اتصال هاتفي سمع خلاله توبيخاً شديداً من الملك فهد لأنه ذهب إلى بيروت من دون إذنه، أبلغ الملك بثقة أنّه يتوقّع موافقة دمشق على الاتفاق وعلى تنفيذ وقف إطلاق النار. غير أنّه لاحظ لاحقاً: "حصلنا على الاتفاق في ذلك الوقت، فقد وافق الجميع على الوثيقة، ثم فجأة انهار كل شيء. تراجع الزعماء الدروز في اللحظة الأخيرة، وتبعهم الشيعة". واستنتج أن السوريين لم يلتزموا. ففي الظاهر أيّد الأسد المواقف السعودية مع مختلف الأطراف، لكن عندما غادر بندر، نُقض كل ما تمّ الاتفاق عليه.

تأكّدت الازدواجية السوريّة في اجتماع عُقد بعد ذلك بوقت قصير بين بندر والحريري وزعيم لبناني كبير سأله بندر: "ماذا دهاكم؟ هل تستمتعون بموت هذا العدد الكبير من شعبكم؟ لقد توصلنا إلى اتفاق منصف للجميع". عندئذ صاح ذلك الزعيم في وجهه مطلقاً سيلاً من الانتقادات غير المتوقعة: "هذا اتفاق غير مقبول؛ إنه يبيعنا للإسرائيليين والإمبرياليّين".

(*) صائب سليم سلام، سياسي ورجل دولة (ولد في 17 يناير 1905 وتوفي في 21 يناير 2000)، ينتمي إلى الطائفة السنيّة في لبنان. تولى رئاسة الوزارة اللبنانية ست مرات بين 1952 و1973 (استمرت حكومته في إحداها أربعة أيام فقط) وعمل في سبيل المصالحة الإسلامية – المسيحية خلال الحرب الأهلية (1975-1976) وبعدها.

(**) الرئيس أمين الجميّل، الرئيس الثامن للجمهورية اللبنانية، مسيحيّ مارونيّ من مواليد بكفيا، لبنان، في 22 يناير 1942. وهو نجل الشيخ بيار الجميّل، مؤسس حزب الكتائب سنة 1936، وشقيق بشير، الذي انتُخب رئيساً في 23 أغسطس 1982، واغتيل بعد انتخابه بثلاثة أسابيع، في 14 سبتمبر 1982.

ثمّ وضع الزعيم اللبناني إصبعه على شفتيه.

مـــرّر الحريري إلى بندر ملاحظة مفادها، "إنّه لا يستطيع الكلام مخافة أن يسمعه السوريون".

لـــذا انتقل بندر إلى شرفته وأشار إلى السياسي اللبناني أن ينضم إليه، وسأله: "ما المشكلة؟".

أجاب الزعيم: "ليست لدي أي مشكلة مع الاتفاق؛ لكن السوريّين لن يسمحوا لي [بتوقيع الاتفاق]".

في اليوم التالي، طلب بندر من معاونيه تحضير الطائرة للمغادرة الوشيكة، بعد أن اطلـــع علـــى حقـــيقة الموقـــف السوريّ. لكنّه كضيف على السوريين، زُوّد بسيارة بروتوكول رئاسية، مع مرافقة أمنية تامّة. وبما أنّه لم يكن يريد أن يعرف السوريّون أنه يـــتأهّب للـــسفر، قرر استخدام سيارة السفير السعودي. مع ذلك، سرعان ما أدرك السوريون ما يجري فأرسلوا إليه أن وزير الخارجية، السيد خدام(*)، يريد التحدّث إليه.

اعترض بندر، موضحاً أنه مضطر إلى العودة إلى بلاده. وفي المطار استُوقف مجدداً فقدّم الجواب نفسه موحياً بغضب أنّه سيغادر ما لم يكن في نيّتهم اعتقاله. وبعد ذلك ركب طائرته وعاد إلى جدة.

عندما اتصل بندر بالملك فهد ليعلمه أنه في جدة، فوجئ الملك ووبّخه لأنّه غادر دمـــشق من دون أن يستشيره. فشرح له الأمير أنه توصّل إلى أنّ السوريين لا يريدون إتمام الاتفاق. فقد أبدوا كل تعاون ظاهري؛ إذ أيّدوا الطروحات التي قدمها والحريري إلى مخـــتلف الأطراف، لكن ما إن انتهت الاجتماعات حتى "عدنا إلى المربع الأول - بتراجع أحد الأطراف عن الاتفاق".

وعـــندما عاد بندر إلى منـــزله، شاهد على شاشة التلفزيون السعودي أن مجلس الوزراء منعقد في جلسة طارئة. واعتراه على الفور قلق من أنّ شيئاً خطيراً قد حدث، لكـــنّه لم يعتقد البتة أن للأمر أي صلة بمهمته إلى دمشق. وسرعان ما تلقى اتصالاً من

(*) مـــارس عـــبد الحلـــيم خدام، كنائب للرئيس السوري ووزير الخارجية نفوذاً هائلاً على علاقات سورية الخارجية في المنطقة طوال عقدين من الزمن. وقد اعتبر ذات يوم خليفة محتملاً للرئيس الـــسوري حافظ الأسد، وكان دوره كبيراً جدّاً في تعزيز السيطرة السياسيّة السورية في لبنان بعد سنة 1976 بحيث استحقّ لقب "المفوّض السامي في لبنان". وكانت تربطه علاقة جيدة جداً برئيس الوزراء السابق رفيق الحريري.

الديـوان الملكـي يـستدعيه إلى اجتماع مجلس الوزراء. كانت الحكومة مجتمعة بكل أعضائها، وطلب الملك من بندر أن يكرّر على المجتمعين ما سبق أن قاله له.

في نهايـة الاجـتماع، تـشاور الملك مع ولي العهد ووزراء آخرين، وتقرّر ألا يستأنف بندر مهمته. وأصدر الملك بياناً جاء فيه أن المملكة العربية السعودية حاولت التوسّـط في هـذه المـسألة، لكنها لا تعتقد أن الأطراف كافّة، بما في ذلك سورية، مـستعدّة للاتفاق. وبعد نصف ساعة على صدور البيان، بعث الأسد برسالة إلى فهد طالـباً فـيها أن يعود بندر إلى دمشق في تلك الليلة وإلا توجّه شخصيّاً إلى جدّة. وفي صـباح اليوم التالي، عاد بندر إلى دمشق. ولدى وصوله، نُقل من المطار مباشرة للقاء الأسـد، الـذي أقلقـته مغادرة بندر المفاجئة، هل تعرّض لإهانة، أو هل أساء أحد التصرّف أو أهانه؟

أوضـح بـندر أنـه توصّل إلى استنتاج أن الحكومة السوريّة قرّرت عدم إتمام الاتفاق، وأنّه لن يتمكّن من تأمين الاتفاق حتى لو بقي عشرين يوماً آخر. وقال بندر للأسـد: "لـذلك قرّرت قطع مهمتي وتحمّل اللوم، بدلاً من الانتظار إلى حين اتضاح أنّكم لستم راغبين في إبرام اتفاق. وعندئذ سيحدث خلاف بينك وبين الملك فهد ولا يمكنني السماح بذلك".

قال الأسد: "تلك مناورة".

أجاب بندر: "لا، كنت فقط أحاول حماية العلاقة بينك وبين الملك فهد. كان يمكن أن أعفـى من المهمّة، وفي وسعهم أن يقولوا أنّني فشلت، وأنّني لم أحسن التصرف، ويحل شـخص آخـر محلّي، أو يمكن أن تغيّر رأيك. لكن إذا خلص الملك فهد إلى أنكم لم تكونوا صريحين معه، فقد يؤدي ذلك إلى أزمة بين بلدينا، ولا يمكنني أن أسمح بذلك".

ابتسم الأسد وقال: "حسناً، اذهب وتحدّث إلى وزير الخارجية، لقد حصلت على اتفاق".

أجـاب بندر: "لن أتحدّث إلى أحد". وبدلاً من ذلك، أصرّ على أن يتصل الأسد بوزيـر خارجيـته، عبد الحليم خدام، لا ليقول له إن بندر قادم إليه فقط، وإنّما أنّه جالس مع الرئيس ويستمع لما يقوله له.

نجـح الموقف الفظ الذي اتخذه بندر. فقد ضحك الأسد والتقط الهاتف واتصل بوزير خارجيته. وفي نهاية الحديث، قال الأسد لبندر: "الآن يمكنك الاجتماع به".

ذكـــر بـــندر هـــذه الحادثة وأوضح أنّه دخل منـــزل وزير الخارجية وقال بعد الاعتذار عن عدم تلبية دعوته إلى تناول الطعام: "أريد إعداد الوثيقة للتوقيع".

أجابه خدام: "اعتبر الأمر منتهياً".

وعـــندما ســـأل بـــندر خدام لماذا أبلغه في زيارته السابقة أنهم لم يستطيعوا حمل الأطـــراف اللبنانـــيين على الاتفاق، ابتسم وزير الخارجية ابتسامة ذات مغزى وقال: "أجل، لكن ذلك كان قبل أن يتصل بـــي الرئيس".

أثمـــرت مثابرة بندر ودبلوماسيته غير التقليدية، فلم يستغرق توقيع كل الأطراف علـــى الاتفـــاق سوى ثلاثة أيام. واستطاع الأمير، بالعمل بصورة وثيقة مع الحريري وماكفرلين، أن يعلن عن وقف إطلاق النار في لبنان في مؤتمر صحفي في دمشق في 25 سبتمبر 1983، وكان إلى جانبه وزير الخارجية السوري عبد الحليم خدام. وبعد ذلك بـــدأت لجـــنة عربية مكوّنة من الجزائر والمملكة العربية السعودية والكويت التحضير لاتفاق الطائف، الذي أسس عند توقيعه في المملكة في سبتمبر 1989 الدستور السياسي اللبناني الذي أنهى الحرب في لبنان، وأقام علاقات مميّزة بين لبنان وسورية، ووضع إطار عمل لبداية الانسحاب السوريّ من لبنان(*).

يقول بندر متذكّراً دوره كمبعوث سلام شخصيّ للملك فهد: "أعتقد أنهم كانوا مقتنعين بأنّني لن أغادر [في المرة الثانية] من دون اتفاق. لم يستطيعوا التخلّص مني، لذا توصلوا إلى اتفاق"[6]. وعلى الرغم من تواضع الأمير، نسب المسؤولون الأميركيون إلى الأمـــير فضلاً كبيراً في وقف إطلاق النار. فهو لم يؤمّن فقط للموفد الخاص الأميركي روبرت ماكفرلين منفذاً إلى السوريين، بل ساعد أيضاً على صياغته. كما أن بندر أثار إعجاب زملائه الأميركيين بموقفه الإيجابـــيّ، وأنه خفّف من خلال الدبلوماسيّة العربيّة الـــضغط علـــى الوضع اللبنانيّ أكثر مما استطاعت السياسات الخارجيّة الغربيّة تنفيذه بأشكال متنوّعة. وقد شارك بندر وماكفرلين في دبلوماسية مكّوكية مركّزة، فقاما معاً

(*) رفض الجنرال عون، رئيس الحكومة اللبنانية آنذاك، الاتفاق لأنه لا يلزم سورية بانسحاب سريع أو انـــسحاب تام من لبنان. وبدلاً من ذلك، تبقى القوات السورية في مواقعها لمدة عامين كاملين، لكي تساند "الحكومة اللبنانية في بسط سلطتها". وبعد ذلك تعيد نشر قوّاتها حتى وادي البقاع. ولم يحـــدد الاتفـــاق جـــدولاً زمنياً لأي انسحاب سوري آخر، بل نص فقط على "التفاوض على هذا الانـــسحاب في الوقت المناسب بين الحكومتين اللبنانية والسورية". غير أن القوات السورية بقيت في لبنان حتى سنة 2005.

بست زيارات إلى دمشق. وقال عنه صائب سلام، رئيس الوزراء اللبناني الأسبق الذي شارك عن قرب في مفاوضات وقف إطلاق النار: "كان لبنان بالنسبة إليه أرضاً وعرة، لكنّه تدبّر الوضع فيه بحكمة كبيرة"[7].

سرى مفعول وقف إطلاق النار رسمياً عند الساعة السادسة من صباح يوم 26 سبتمبر 1983. وبعد ذلك بيوم واحد، أي في 27 سبتمبر، عيّن بندر بشكل رسميّ سفيراً إلى الولايات المتحدة.

على الرغم من أنّ الأمير كان وافداً جديداً نسبياً على واشنطن وعالم الدبلوماسية، فإنّه سرعان ما أثبت نفسه كشخصية دبلوماسية عربية بارزة. فقد أفيد بُعيد وصوله كسفير عن أن "قلّة من السفراء الموجودين هنا يعيشون في قلب الأحداث بهذا القدر أو يتمتّعون بهذا القدر من النفوذ"[8]. وفي ظلّ وهج حقبة ريغن الجديدة وإثارتها، وخلف نشاط السفير السعودي الجديد وحيويّته، هيّأت لواشنطن والرياض أهداف متبادلة تتركّز بشكل أساسي على مقاربة ريغن للسياسة الخارجية الأميركية. أعلن ريغن عن موقفه السياسي الجريء بشكل رسميّ في خطاب حالة الاتحاد سنة 1985، وهو ما أصبح يُعرف بمبدأ ريغن. فقد قال الرئيس: "لا يمكننا اصطناع مظهر الأبرياء في الخارج في عالم غير بريء؛ ولا يمكننا أن نظهر الاستكانة حين تتعرّض الحرية للحصار. علينا ألاّ نفقد الإيمان بكل الذين يجازفون بحياتهم - في كل قارة، من أفغانستان إلى نيكارغوا - لتحدي العدوان المدعوم من السوفيات وتأمين الحقوق التي حصلنا عليها منذ الولادة... إن دعم المقاتلين في سبيل الحرية هو دفاع عن النفس"[9].


الرئيس السوري حافظ الأسد

كان ريغن يجد الدعم في تلك التطلّعات من مدير وكالة الاستخبارات المركزية (السي آي أيه) وليام كيسي. لم يكن كيسي مديراً عادياً. فقد كان برتبة وزير، ويشغل مقعداً في كل هيئة رفيعة المستوى ذات صلة بصنع قرارات السياسة الخارجيّة، وكان لديه مكتب في البيت الأبيض إلى جانب مكتبه الرسمي في لانغلي. وقد تندّر بندر على موقع كيسي الفريد في إدارة ريغن ومكتبه في البيت

الأبـيض بالقـول: "كان يمكن أن يستخدمه للتأثير في الزوّار الأجانب، لأنه إذا قال، *تعالوا واجتمعوا بـي في البيت الأبيض*، فإنّهم سيحدّثون أنفسهم بالقول، *لله درّ هذا الـرجل، إنّـه قريب حقّاً من الرئيس ولديه مكتب هناك*. كان ذلك جزءاً من مهارة كيسي في الاستعراض".

أصـبح الـسعوديون، الـذين يجمعـون في آن معاً بين الثروة والسريّة ومعاداة الشيوعية، مكوّناً حاسماً من مكوّنات هجوم ريغن الاستراتيجيّ على الكتلة السوفياتيّة، تعـزّزه رؤية كيسي وعزيمته. وقد قال ألاَن هيرز، مدير عمليات السي آي أيه في شبه الجزيـرة العـربية في ذلـك الوقت: "كانت المملكة العربية السعودية بالنسبة إلينا في الثمانينيّات إحدى أهم الدول الحليفة لأميركا... كانت بمثابة محور الدولاب في نظرنا وعنصراً حاسماً في كثير من الأهداف المهمة"[10].

كـان كيـسي مقتنعاً أن على الولايات المتحدة مواجهة التوسّع السوفياتي أينما حـدث في العـالم، لـذا قال: "إنّ ساحة القتال الأساسيّة... ليست في مجال اختبار الـصواريخ أو طاولـة التفاوض على الحد من الأسلحة، وإنما في ريف العالم الثالث". وكان السوفيات يتّبعون استراتيجية "الإمبرياليّة الزاحفة" يحدوهم هدفان، "البرزخ بين أميركـا الشمالية وأميركا الجنوبية" و"حقول النفط في الشرق الأوسط، وهي شريان الحـياة للـتحالف الغربـي"[11]. وكان كيسي يعتقد، على غرار السعوديّين، أن غزو السوفيات لأفغانستان جزء من استراتيجية تهدّد حقول النفط.

كـان ريغن، طوال عهده، يذكر بانتظام لائحة بالبلاد المثيرة للقلق: أفغانستان، وأنغـولا، وكمبوديا، وإثيوبيا ونيكاراغوا. وما لم يدركه سوى قليل من الناس هو أن المملكـة العربية السعودية كانت مشتركة بصورة مباشرة أو غير مباشرة في أربع من تلك الحملات الخمس، باستثناء كمبوديا. وقد وضعت إدارة ريغن استراتيجية تتعامل مـع شـواغل المملكة العربية السعودية في العالم وتوجّه الفائض النقديّ السعوديّ نحو السياسة الخارجية الأميركية. فلزعزعة استقرار حكومة منغيستو مريام الإثيوبية الموالية للـسوفيات، أرسـلت المملكة العربية السعودية أموالاً إلى جارتها، السودان. ودعماً للـسياسة الأميركـية، سـاعدت المملكـة أيضاً زعيم المتمردين في أنغولا، جوناس سـافيمبـي، وذلـك عن طريق تزويد المغرب بالمال لإنشاء معسكر تدريب لحركة "يونيتا" (الاتحاد الوطني لاستقلال أنغولا الكامل). وفي حادثة كان يمكن أن تهدّد الرئيس



رئيس وكالة الاستخبارات المركزية الأميركية وليام كيسي مع رونالد ريغن - مهندسا بيان ريغن

في آخر الأمر بتهمة الإخلال بالوظيفة، حوّلت المملكة 32 مليون دولار إلى حساب الكونترا في نيكاراغوا. وصبّت واشنطن والرياض معاً 3 مليارات دولار لتقويض الاحتلال السوفياتي لأفغانستان، وكانت المملكة تساهم بمقدار المساهمة الأميركيّة.

وقد أسرّ بندر، عند تحدّثه عن الشراكة بين الولايات المتحدة والمملكة العربية السعودية بالقول: "لو علمتم ما كنا نفعله حقاً لأجل أميركا، لما أعطيتمونا أواكس فقط، بل لأعطيتمونا أسلحة نووية"[12].

لم تقتصر الجهود السعودية لمحاربة الشيوعيين على المساهمات بالنفط والبترودولار لمصلحة عمليات السي آي أيه السرية. ويؤكّد بندر: "لم نستخدم مقولات الشرق - الغرب أو العداء الأميركيّ للشيوعية، بل استخدمنا الدين. قلنا، *الشيوعيون ملحدون؛ إنهم غير مؤمنين ونحن نحاربهم لأسباب دينية*. وجيّشنا العالم الإسلامي وراءنا، وهو ما تلاءم تماماً مع استراتيجية ريغن لقتال الاتحاد السوفياتي في منطقة لا يستطيعون التأثير فيها كما نؤثّر نحن". كرّر الأمير ذكر المنطق السعودي عند التحدّث مع البلاد الإسلامية: "لتذهب أميركا إلى الجحيم، إننا نقاتل الشيوعيين لأنهم كفّار". وردّد السفير الأميركي إلى الرياض هذا التوكيد عندما قال: "كانت الولايات المتحدة شريكاً

منشوداً للمملكة العربية السعودية... وثمة مصلحة مشتركة في مواجهة الشيوعية الكافرة. وكان السعوديون يرون فيها الخطر الرئيسي على المملكة والإسلام والمنطقة"[13].

عزّز بندر الخطاب السعودي المقنع للعالم الإسلامي، فأوضح أنه في بعض المقابلات في ذلك الوقت كان يُسأل عما إذا كانت المملكة العربية السعودية تقوم بذلك بطلب من أميركا، وكان يجيب: "لا. توجد في أميركا سفارة سوفياتية وفي الاتحاد السوفياتي سفارة أميركية. وليست للمملكة العربية السعودية علاقة مع الاتحاد السوفياتي، لا بسبب أميركا، وإنما لأن السوفيات ملحدون". وأشار الأمير إلى أن المملكة هي البلد الوحيد في العالم آنذاك الذي لا يسمح للمواطنين الشيوعيين حتى بالخروج من الطائرة عند هبوطها في المملكة؛ بل عليهم البقاء في الطائرة إلى أن تقلع.

ومع أنّه لا مجال للشك في قوة الرابطة بين بوش والسعوديّين في الأعوام التالية، فإنّ الشراكة المستترة والمنسقة بين إدارة ريغن ووكالة الاستخبارات المركزيّة والمملكة العربية السعودية هي التي هيّأت المسرح للعلاقات اللاحقة. ولم يؤدّ هذا الارتباط إلى زوال الاتحاد السوفياتي فحسب، وإنما أيضاً إلى تثبيت الولايات المتحدة بمثابة القوّة العسكرية المتفوّقة في العالم.

من الإفراط في التبسيط الإيحاء أن الصراع العالمي المعقّد على السلطة بين روسيا والولايات المتحدة في الثمانينيات وحصيلة الحرب الباردة أملتهما الثروة في نهاية المطاف. ومع ذلك، كان التحالف السعودي الأميركي حيويّاً في الانتصار الأميركي في الحرب الباردة. فالحرب الباردة لم تكن في أحيان متكرّرة اختباراً للقوة العسكريّة بقدر ما كانت منافسة بين الدولار والروبل، وتمويل العديد من قوى التمرّد في بلاد مثل أفغانستان ونيكاراغوا وأنغولا يصب في صميم استراتيجية الحرب الباردة. وما المهارة في إدارة أسعار النفط العالمية إلا إحدى الطرائق التي دعمت فيها المملكة العربية السعودية ريغن والولايات المتحدة خلال الثمانينيّات. فبخفض سعر النفط، لم يعزّز السعوديون الصناعة الأميركية بشكل ملحوظ فحسب، بل إنهم شلّوا الاقتصاد الروسي في الواقع، إذ كان ذلك الاقتصاد معتمداً على إيراداته النفطيّة بالعملات. لقد كان مبدأ ريغن يقوم على جعل المحافظة على التدخل السوفياتي في بلاد العالم الثالث مكلفاً جدّاً. وفي غضون ذلك العقد، حققت تلك الاستراتيجية النجاح.

يتوقّف أحد أركان الفكر الماكيافيلي على الاضطلاع بما يجب القيام به، حتى عندما تتطلب مثل هذه المساعي درجة معيّنة من السريّة والابتعاد عن قواعد السلوك السويّة أو القواعد الأخلاقية. ومن الصعب أن نجد حالة أكثر التصاقاً بهذه النظرية من التعاملات الأميركية السعودية خلال قضية إيران - كونترا. ففي سنة 1985، وبمبادرة من الحزب الديمقراطي تُعرف باسم "تعديل بولاند"، أوقف الكونغرس بشكل مفاجئ الدعم الماليّ لمتمردي الكونترا الذين كانوا يقاتلون النظام الساندينستي في نيكاراغوا. وعجّل ذلك القرار بحدوث ما أصبح يُعرف بقضية إيران - كونترا، وهي فضيحة شوّهت الأعوام الأخيرة من رئاسة رونالد ريغن.

شملت قضية إيران - كونترا فعلاً عدة عمليات منفصلة. أولاً، باعت الولايات المتحدة سراً أسلحة لإيران، إحدى الدول الإرهابيّة؛ وهي صفقة يحظرها القانون الأميركي. بل إنّ تلك الصفقة انتهكت "عملية الاتفاق المحكم" (Operation Staunch) التي أطلقها ريغن وسط ترويج إعلاميّ كبير، وهي حملة دولية لمنع جميع الدول من بيع أسلحة لإيران. ثانياً، انتهكت الحكومة الأميركية "تعديل بولاند" عن طريق تقديم مساعدة سريّة إلى متمردي الكونترا في حربهم على الحكومة الساندينستية اليسارية في نيكاراغوا. وقد تشابكت هاتان المغامرتان السريتان بسبب إدارتهما من قبل أعضاء في هيئة موظّفي مجلس الأمن القومي، وخصوصاً أوليفر نورث، وهو ضابط برتبة مقدم في مشاة البحرية الأميركية. وفي الوقت المناسب، قام نورث بتحويل أرباح صفقة الأسلحة الإيرانية لتمويل الكونترا النيكاراغوانية[14].

على الرغم من أن "تعديل بولاند" لم يصبح نافذاً حتى فبراير 1985، فإنّ البيت الأبيض بدأ في أوائل سنة 1984 يفكر في خيارات أخرى بعد أن خشي من عدم التمكّن من تأمين مزيد من الدعم من الكونغرس لتمويل الكونترا. وقال مستشار الأمن القومي بَدْ ماكفرلين في شهادته أمام لجان مشتركة تابعة للكونغرس ومعنية بالتدقيق في قضية إيران - كونترا أنه كان يفكر في احتمال تلزيم عملية دعم الكونترا بكاملها لبلد آخر[15]. ومن دون علم وزير الخارجية جورج شولتز، اجتمع ماكفرلين ببيل كيسي لمناقشة أفكاره بشأن تأمين المساعدة للكونترا. وقد أعجب كيسي بأفكاره وأرسل إلى ماكفرلين مذكرة قال فيها: "إنني موافق تماماً على وجوب أن تقوم باستكشاف بدائل للتمويل في إسرائيل وربما سواها"[16]. كانت إسرائيل الخيار الطبيعي الأول، إذ

أيضاً تمتلك الخبرة العسكرية اللازمة لتحويل مجندي الكونترا الأغرار إلى قوة قتالية فعالة.

ومما يبعث على الخيبة أنّ الإسرائيليّين صدّوا محاولة ماكفرلين الحصول على أموال منهم، وعندما علم شولتز بالأمر عن طريق السفير الأميركي في تل أبيب، وبّخ ماكفرلين وحذّره من القيام بمثل تلك الاستجداءات. لكن في مايو 1984، نفدت أموال الكونترا، ورفض الكونغرس طلب الإدارة تخصيص 21 مليون دولار إضافيّ لمساعدة الكونترا. في هذه الأثناء، تلقّى ماكفرلين من الرئيس توجيهاً أن "يبقي الكونترا على قيد الحياة"، وهو طلب لم يكن في استطاعته أن ينفذه بالكامل من غير تنازل قانونيّ خطير[17]. نقل ماكفرلين تعليمات ريغن إلى أوليفر نورث، أحد الموظّفين في مجلس الأمن القومي والمسؤول الرئيسي عن اتصال الإدارة بقوات الكونترا[18].

ولّما كان الوزير شولتز قد أوضح آراءه بشأن طلب ماكفرلين المساعدة من إسرائيل، فقد استُبعد عن الجهود الجديدة الهادئة التي تُبذل لتأمين دعم مالي خارجي للكونترا. وكما أفاد نورث: "لم يكن شولتز يعلم بما جرى في ذلك الوقت، وكذلك أنا، لكن الرئيس فوّض ماكفرلين بالفعل للاجتماع بالأمير بندر بن سلطان، السفير السعودي إلى واشنطن، وطلب مساهمة من حكومته"[19].

أثارت قانونيّة تمويل طرف ثالث للكونترا قضيّة كبيرة في البيت الأبيض. فقد أشار كبير موظفي البيت الأبيض جيمس بيكر إلى شولتز أن مثل هذه الاستجداءات تشكل "جرماً يعرِّض للمساءلة". وأصر نائب الرئيس بوش على أنّ المشكلة الوحيدة في السعي طلباً لدعم من بلد ثالث هي "إذا كان على الولايات المتحدة أن تعد بتقديم شيء في المقابل لهذه الأطراف الثالثة. وعندئذ يمكن أن يُفسّر الاتفاق على أنه "تبادل". لكن، يبدو أن رأي جيمس بيكر أنه ليس في وسع الحكومة أن تفعل بصورة غير مباشرة ما لا تستطيع أن تفعله مباشرة لم يؤخذ في الحسبان[20].

حفزت الحساسيّة الشديدة تجاه التمويل من طرف ثالث ماكفرلين على الحرص على عدم خروج المناقشات إلى العلن، إذ قال: "أقترح ألا يفوّض أحد السعي للحصول على دعم من طرف ثالث لمناوئي الساندينستيين (الكونترا) حتى نحصل على المعلومات التي نحتاج إليها، وآمل بالتأكيد عدم خروج شيء من هذه المناقشة إلى العلن بأي شكل من الأشكال". غير أن مجموعة التخطيط في مجلس الأمن القومي وافقت

علـــى الـــتماس رأي قانوني من وزارة العدل[21]. وبعد مرور يوم على اجتماع مجموعة التخطـــيط، اجتمع بيل كيسي بالمدعي العام وليام فرينتش سميث، الذي قرّر أن تمويل الكونتـــرا من بلد ثالث مسموح به قانوناً طالما لم تستخدم أموال أميركية لهذا الغرض ولم يكـــن البلد الثالث يتوقّع أن تقوم الولايات المتحدة بتسديد قيمة المساعدة[22]. شدّد ريغـــن على إحاطة الأمر بسرية بالغة، وحذّر من التسريبات، قائلاً: "إذا فشا أمر هذه الحكاية، فسنتعرّض لحرج شديد"[23].

لكـــن ماكفرلين قابل بندر، حتى قبل اجتماع مجموعة التخطيط. وأخبر الأمير أنّ من المحتّم تقريباً أن تفشل الإدارة في نيل موافقة الكونغرس على تقديم مساعدة إضافية إلى الكونتـــرا. وذكـــر ماكفـــرلين أيضاً أن الخطر الوحيد على فوز ريغن في الخريف ســـيكون وقـــوع اضـــطرابات في أميركا الوسطى[24]. وكان ذلك بمثابة القول الفصل بالنسبة إلى بندر، فالمملكة العربية السعودية تريد استمرار ريغن في الإدارة لولاية ثانية.

تـــبعاً لماكفـــرلين في شهادته اللاحقة: "في مايو أو يونيو 1984، عرض مسؤول أجنبـــيّ، حُدِّد لاحقاً أنه بندر، التبرّع بمليون دولار شهرياً كمبالغ خاصّة للكونترا في الظاهر. وفي أوائل سنة 1985، زيدت المساهمة إلى مليوني دولار شهرياً"[25]. وذُكر أن الأمير قدّم هذه المساهمة كبادرة إنسانية، قائلاً إن التبرّع يُظهر امتنان الملك فهد للدعم الـــسابق الـــذي قدمته إدارة ريغن إلى الحكومة السعودية[26]. أما في الواقع، فإنّ تأكيد الأمـــير أن المملكـــة العربية السعودية ستقدّم الأموال التي تحتاج إليها الكونترا أثارت تـــساؤلات لم تـــدم طويلاً بشأن كيفيّة التعامل معها. فالصفقة غير مسبوقة بحيث لم يعـــرف ماكفرلين ولا بندر كيف يمضيان بها قُدُماً. وقد أفيد عن أنّ ماكفرلين عاد إلى مكتـــبه، وأطلـــع نائـــبه، جون بويندكستر، على الموقف، ثم طلب من أوليفر نورث الاســـتعلام من قادة الكونترا عن الحساب المصرفي الذي ستوضع فيه الأموال[27]. أشار نـــورث إلى قائـــد القوة الديمقراطية النيكاراغوانية أدولفو كاليرو أن يفتح حساباً في مـــصرف خارجيّ يودع فيه السعوديّون الأموال. وبدأ مبلغ المليون دولار السري الشهري يصل إلى حساب خارجيّ في جزر كايمان في يونيو 1984، بما يضمن بقاء الكونترا قوة عسكرية في نيكاراغوا بصرف النظر عن أي إجراء متخذ من جانب الكونغرس[28].

بعـــد يـــوم أو يومين من موافقة بندر على تقديم الأموال، أبلغ ماكفرلين الرئيس ريغـــن ونائـــب الـــرئيس بوش. وبعد ذلك بعدّة أيام، أبلغ شولتز وواينبرغر لكنه لم



كشف بد ماكفرلين دور بندر خلال جلسات إيران - كونترا

يطلعهما على مصدر الأموال، ولم يلحّا في السؤال عن التفاصيل. وفي فترة لاحقة، خلال تحقيقات إيران - كونترا، قال ماكفرلين في شهادته إنه أعلم الرئيس بالمساهمة السعودية الأولى في يونيو 1984، وذلك بتدوين المعلومات على بطاقة دسّها في سجل التقارير اليومية الموجزة للرئيس لكي لا يطلع أي مسؤول آخر على الترتيبات. وردّ ريغن عليه بالكتابة، "أخبار طيبة!"[29] وقال ماكفرلين أيضاً إنّه أخبر الرئيس، إمّا خطياً أو شفوياً، أن "لا أحد يعرف شيئاً عن هذا الأمر"، وردّ ريغن عليه بالقول: "جيد، لنحرص على إبقاء الأمر على هذا النحو"[30].

وأصر ماكفرلين، طوال الوقت، على القول إنه لم يستجدِ المال؛ وإنه فعل كل شيء ما عدا طلب المال. إلا أن تأويل الطريقة التي صاغ ماكفرلين بها مقاربته هو الذي أثار الجدال في ذروة تحقيقات إيران - كونترا. فقد صاغ ماكفرلين أجوبته خلال تلك التحقيقات بعبارات معدَّة لحماية الإدارة، مؤكّداً أن بندر تبرع بالمال طوعاً وأنّه لم يقم بأي التماس. بيد أن بندر يؤكّد بثبات على أن ماكفرلين وجّه إليه طلباً مباشراً بشأن الدعم المالي.

ومع أن ماكفرلين حاول خلال تحقيقات إيران - كونترا صوغ إجاباته بطريقة تدل على عدم وجود أي محاولة استجداء، فإنّه أدان الإدارة عندما ألمح إلى وعد بشيء ما في المقابل. وقال ماكفرلين في شهادته: "اتضح تماماً للسفير [السعودي] أن بلده سيحصل على استحسان كبير، واعتقد السعوديّون صراحة، أن ما يقومون به هو الصواب؛ فهم يقدّمون الدعم عندما يُحجم الكونغرس"[31]. بدا واضحاً من اعتراف ماكفرلين أن السعوديين توقّعوا الحصول على فوائد جمّة. لكن هل يلبّي ذلك تعريف "التبادل" كما أشار إليه جورج بوش؟ لا شكّ في أنّ الفاصل بين هذا وذاك خطّ رفيع جدّاً.

كان موقف بندر العلني في هذه الفترة مراوغاً. فقد سئل في مقابلة على تلفزيون سي بي أس: "هناك روايات تتعلّق بحكومتك وبك وبعلاقتك بإدارة ريغن والمال

الذي يأتي من حساب شخصي للملك. لقد فهمت المملكة العربية السعودية في وقت باكر جداً أنّها إذا قامت بأشياء لمصلحة الأميركيين كما يفعل الإسرائيليون، فإنها ستكسب من وراء ذلك دعم الحكومة الأميركية حين تحتاج إلى هذا الدعم. هل ذلك تقويم منصف لمبدأ عام؟". وكان جوابه مدروساً: "أعتقد أن مبدأ انعكاس تعامل الناس في ما بينهم على علاقة بعضهم بعضاً مبدأ عام في العالم"[32].

تُبيِّن رواية نورث لتباحثه مع ماكفرلين السرية التي أحيطت بها اتفاقات إيران - كونترا عمداً، وتشير إلى إدراك البيت الأبيض الطبيعة غير القانونيّة لما كانوا ينسّقونه. ويتذكر نورث قول ماكفرلين: "إذا كان عليك أن تدوّن كل شيء، فلا شأن لك في هذا العمل. يجب أن يذهب المال مباشرة من حساب أجنبي إلى حساب كاليرو الخارجيّ. يجب ألاّ يدخل هذا البلد البتة. افعل المطلوب عن طريق حوالة برقيّة".

وسأل نورث: "لِمَ يجب أن يكون الحساب خارجيّاً؟".

أجاب ماكفرلين: "لسببين. الأول، تجميد كل الحسابات المصرفية النيكاراغوية في الولايات المتحدة. والثاني، وزارة الخزانة تراقب التحويلات المالية الكبيرة الداخلة إلى المصارف الأميركية والخارجة منها. ويمكن أن يلاحظ أحد هذه التحويلات ويبدأ طرح الأسئلة"[33].

بظهور روايتين متباينتين جداً حول طريقة التمويل السعودي للكونترا، فترت الصداقة بين بندر وماكفرلين.

يقول بندر: "كان ماكفرلين صديقاً حميماً. لقد عملنا معاً بشكل جيّد في لبنان. وفي يوم من الأيام فاتحني بشأن تمويل الكونترا في نيكاراغوا". وفي أثناء تقديم عرض مجمل عن مشاركة المملكة العربية السعودية في تمويل الكونترا النيكاراغوية، كرّر الأمير التحدّث عن الحاجة إليهم لتقديم الدعم لأن تعديل بولاند حال دون تقديم الحكومة الأميركية تمويلاً إضافياً إلى الكونترا. وأضاف أن السوفيات والكوبيين ردّوا على وقف التمويل وما تلاه من منع وصول أسلحة حيويّة إلى الكونترا بإرسال كميّات كبيرة من الأسلحة إلى نيكاراغوا، ما منح الساندينستيّين تفوقاً واضحاً في معركة كبيرة تالية.

كان الغرض من الأموال السعودية تمكين الكونترا من الحصول على أسلحة ضرورية للغاية إلى أن يحين الوقت الذي تستطيع فيه وكالة الاستخبارات المركزية تأمين أموال جديدة. وكان السعوديون يعتبرون أنّ دعم الكونترا يصب في المصلحة

القوميّة لأميركا والمملكة على حدٍّ سواء. يقول بندر: "لم تكن لدينا مشكلة في ذلك. كانت عملية ذات سيادة خارج الولايات المتحدة ولذا لم نكن نخرق أيّاً من القوانين. كنّا نموّل عدداً من العمليات المناهضة للشيوعية في أنحاء مختلفة من العالم، ولم يكن ذلك عملاً مختلفاً". وأبلغ بندر ماكفرلين أن الحكومة السعودية مستعدّة فعلاً لإعلان دعمها للكونترا بحيث لا يشعر أحد بحرج في حال حدوث أي تسريب. لكنّ ماكفرلين أشار إلى أن الموقف الأميركي ما زال حريصاً على إبقاء الأموال والدعم السعودي طي الكتمان، مؤكّداً على عدم حدوث أي تسريبات.

في فبراير 1985، مع نفاذ تعديل بولاند، اجتمع ماكفرلين بالأمير للبحث في زيارة الملك فهد الوشيكة. وناقشا مجدداً موضوع الكونترا. أبلغ ماكفرلين بندر أنّ الولايات المتحدة لا تزال تواجه مشكلة تمويل، على الرغم من المساهمات السعودية. وعندما وصل الملك فهد، اجتمع مع الرئيس ريغن في المكتب البيضوي، كما هو معتاد. بيد أن لقاء آخر أقل اعتياداً تم في 11 فبراير في الجناح الرئاسي في البيت الأبيض.

وقد أسفر ذلك اللقاء بين فهد وريغن عن موافقة سعودية سرية على رفع مستوى التمويل للكونترا. وكتب نورث إلى كاليرو، "يا صديقي، سيتم في الأسبوع المقبل إيداع مبلغ يزيد عن 20 مليون دولار في الحساب المعتاد... وينبغي أن يسدّ الفجوة بين الآن وموعد إجراء التصويت واستئناف الإمداد بالمال مجدداً". وقال نورث إنه يجب استخدام المال في إعادة نشر قوّات الكونترا أمام هجوم ساندينستي متوقّع، وتجهيز "القوّات والمتطوعين" وتدريبها، ووضع خطة للإمداد الجويّ المنتظم. وأضاف: "سيوفر هذا المال الجديد مرونة عالية لم نتمتع بها من قبل"[34].

وأكّد نورث لاحقاً أن ما جرى صفقة لم يكن يفترض قط كشفها ولا كشف أنّ المملكة العربية السعودية هي المموّلة الرئيسية. وعلى الرغم من أنّ المسؤولين الأميركيين أكدوا لبندر أن الوسيلة قانونية، فإنّ بندر عرف أنها كانت "تنطوي على مخاطر سياسيّة". وشهد نورث لاحقاً أن بندر "حرص على إبقاء دوره في إرسال الملايين من خلال حساب في مصرف سويسري طيّ الكتمان"(*). وأضاف: "وعدناه بالحفاظ على سريّة الأمر، وقد حاولنا ذلك"[35].

(*) كان في الحقيقة حساباً في جزر كايمان.

بيد أن سرّ تمويل الكونترا لم يصمد، ورفض بندر، الذي كان يتمتع بحصانة دبلوماسية، التعاون مع المحقّقين. ومع أن ماكفرلين وصف تمويل الكونترا أنه تحويل "أموال شخصيّة" لمسؤول أجنبي، فقد أنكر بندر الرواية ورفض طلبات من المدّعي الخاصّ لشرح دوره. كان الأمر بالنسبة إلى السعوديين وبندر واحداً من المشروعات المشتركة المناهضة للشيوعية التي وُضعت سرّاً مع مساعدين كبار لريغن، وهو جزء من المصالح المترابطة التي ميّزت فترة عمله كسفير[36]. وفي وقت لاحق، أكّد بندر أن فرِد داتون نصحه أن يرفض طلب المدّعي الخاص.

خلال صيف 1986، بدأت التقارير تظهر في الصحف زاعمة أن السعوديين ساهموا بتقديم أموال للكونترا كجزء من اتفاق غير رسمي متصل ببيع طائرات "أواكس" للمملكة العربية السعودية. ففي 27 يوليو 1986، نشرت صحيفة "سان فرانسيسكو إكزامينر" مقالة نقلت عن مصادر مخابراتيّة أنّ المساهمة السعودية "ما هي إلا المثال الأخير على ممارسة قديمة لتمويل عمليات أميركية سرّية بأموال مقتطعة من مبيعات عسكرية خارجية"[37]. وظهر كاسبار واينبرغر على الملأ نافياً وجود أي مساهمات سعودية. وأصدرت السفارة السعودية بياناً صحافياً في 21 أكتوبر، ذكر فيه بندر أنّ "المملكة العربية السعودية لم تتورّط في الماضي أو الحاضر بصورة مباشرة أو غير مباشرة في أي دعم عسكريّ أو سواه من أنواع الدعم لأي مجموعة أو مجموعات معنية بنيكاراغوا"[38].

في ذلك الوقت، كان اهتمام واينبرغر الرئيسيّ منصبّاً على المحافظة على علاقات طيّبة مع المملكة العربية السعودية، التي يعتبرها حليفة محوريّة في الشرق الأوسط. وكانت علاقة واينبرغر بالأمير متينة، ولم يوفّر إنكاره المتكرّر أي تورّط سعوديّ مع الكونترا الحماية للرئيس فحسب، وإنما لبندر أيضاً[39].

كان بندر واثقاً من أنه يتمتّع بتأييد تامّ في البيت الأبيض، لكنّه صُدم وغضب عندما شاهد ماكفرلين على شاشة التلفاز وهو يشهد خلال جلسات الاستماع أن بندر قدّم الأموال طواعية. كان ماكفرلين يحاول حماية الرئيس، فوجّه الاتهام إلى بندر، بعدما أنكر الأخير في الصحف بشكل قاطع أي تمويل سعوديّ للكونترا.

شدّد بندر في حديثه عن هذه الواقعة على خيبة أمله من ماكفرلين، وقال غاضباً: "لقد باح بما لديه وخذلني. وكانت المرة الوحيدة التي كذبت فيها على وسائل الإعلام

عندما قلت، *لا شأن لنا بالأمر وأميركا لم تفاتحني به قطّ*، لأن هذا ما توافقنا على قوله. قلت له، *اسمع، لا أبالي بالحقيقة؛ إذا كنت ستروي قصة ما، فدعنا نرويها معاً. وإذا كانت كذبة، فلنكذب معاً. وإذا كانت الحقيقة، فلنروِ القصة نفسها. لكنّك ستلحق الضرر بنفسك وبي إذا قدّمنا روايتين مختلفتين*".

قال بندر صراحة معترفاً بضلوعه في الأمر: "الصحافة صدّقتني لأنّني أقول الحقيقة دائماً. ولطالما كنت صريحاً معها. كنت أقول لهم سأروي الحقيقة أو سأكتفي بقول *لا يمكنني التعليق*".

تابع بندر القصة من دون أن يتمكّن من إخفاء غضبه واستيائه: "لكنّه [ماكفرلين] جلس أمام العالم كله في الكونغرس وقال، *أعترف أن الأمير السعودي بندر اتصل بي ذات يوم وقال، تعالَ - نريد مساعدتكم ومساعدة الكونترا - هل يمكننا أن نقدّم لكم 25 مليون دولار؟*". وأضاف بندر بغضب: "لم يكتفِ بالكذب، لأنّني لا أعير أي اهتمام للكونترا - بل إنّني لم أكن أعرف أين تقع نيكاراغوا - وإنما زارني في منتصف الليل وقال، *إنّنا بحاجة إلى مساعدة.. إلخ، إلخ*، فقلت، *حسناً، لكن هل أجاز الرئيس ذلك؟* فأجاب ماكفرلين، *نعم ويمكنك التأكّد من ذلك بنفسك، لكن لا يمكنك التحدّث إلى أي شخص آخر. سأصحبك إليه لتراه وسيقول شكراً لكم*. قلت، *حسناً، هذا كل ما أريده*". وصدّق بندر ما قاله ماكفرلين.

وتابع بندر: "لذا لم يكذب في جلسة الاستماع فحسب، بل جعلني أكذب أيضاً وأقول لا علاقة لنا بالأمر ثم قال *إنّنا ضالعون فيه*. ثم قال إننا كنا البادئين بالاتصال، وهذا غير صحيح وقد آلمني ذلك جدّاً لأنه قال لي، *أمير بندر، أنا من مشاة البحرية وأفضل الموت على أن أخذل أصدقائي ورئيسي*. لذا قلت، *وأنا كذلك أيضاً. لست من مشاة البحرية، لكنني مستعد للموت لحماية الملك وأصدقائي*".

وأوضح بندر لمستشار الأمن القومي أن المملكة العربية السعودية ستقدّم الدعم أياً تكن وجهة النظر التي يرغب الأميركيون في تبنّيها ما دامت لكلا البلدين الأجندة نفسها وما داما ملتزمين بها. وكرّر ماكفرلين طمأنة الأمير أن السرّية هي الخيار الوحيد بل أكد له أنّ خبر التمويل لن يخرج إلى العلن إلا إذا فشل بندر في التمسّك بما يخصّه من الاتفاق.

سخر بندر من محاولة ماكفرلين الانتحار في الليلة التي سبقت موعد الإدلاء بشهادته. فقد ابتلع ماكفرلين جرعة مفرطة من عقار ما، ثم أجري له غسيل معدة. وقال بندر متعجباً: "كان الرجل من مشاة البحرية... ولو أراد فعلاً قتل نفسه، لاستخدم طريقة أكثر فعالية وحسماً!". وفي النهاية، أرجئت شهادة ماكفرلين. وأكّد بندر أنّه لم يكلّم ماكفرلين منذ ذلك الحين، قائلاً: "لم يعد صديقاً".

وكحاشية على هذا الموضوع، اكتشفت أنّه على الرغم من أنّ وسائل الإعلام في تغطيتها قضية إيران - كونترا تصوّر أنّ أوليفر نورث الشخصية الرئيسية، فإنّ مما يثير الاستغراب أنّ بندر والعقيد أوليفر نورث لم يلتقيا قط. وكانت المرة الوحيدة التي يفترض أن يستحدّث فيها بندر إلى نورث قبل انكشاف الحكاية بقليل. فقد اتصل ماكفرلين بالأمير، موضحاً أنه سيغادر إلى روسيا وإذا احتاج الأمير إلى أي شيء أو إلى التكلّم مع أحد، ففي وسعه الاتصال بالعقيد نورث، الذي يمكنه أن ينقل رسالة إليه حيثما يكون. وفوجئ ماكفرلين حين علم أن الأمير لم يلتقِ بالعقيد قط واقترح أن يزوره نورث ويجتمع به. غير أن بندر استُدعي إلى المملكة العربية السعودية وتم إلغاء اللقاء المقرر.

نظراً إلى التغير الكبير الذي طرأ على مواقف ماكفرلين ونورث في أثناء التحقيق، أصبحت علاقة بندر بوسائل الإعلام متوتّرة بطبيعة الحال. فبين نهج السرّية، والإنكار الرسمي الذي خطّه ماكفرلين في الأصل، والاكتشافات، والمزاعم التي لا نهاية لها في الصحافة الأميركية، اعتمد الأمير ما يمكن اعتباره سياسة انحراف، قائلاً: "أعتقد أنه لا يليق بدبلوماسي أن يدلي بتعليقات على الشؤون الداخلية للبلد المضيف". بعبارة أخرى، ترك للأميركيين أن يرتّبوا أمورهم بأنفسهم.

لزم بندر موقفه طوال هذه الفترة من التوقّعات الإعلاميّة الحادة: "إنّ الذين يقولون إننا نرقص على إيقاع أميركا مخطئون، لأننا كلانا نعمل بناء على مصالحنا القومية المتبادلة؛ وهي تلتقي أحياناً، وتفترق أحياناً أخرى. ولا أرى جديداً في ذلك"[40].

لم يكن للمتعة شبه المازوشية التي أبدتها الصحافة الأميركية خلال جلسات الاستماع بشأن إيران - كونترا تأثير كبير في مكانة المملكة العربية السعودية على المسرح السياسي. ولأنّ واشنطن ترى الأمور على حقيقتها، فقد أقرّت أنه عندما


أوليفر نورث يشهد خلال جلسات إيران – كونترا

طلب الرئيس الأميركيّ المساعدة، كانت المملكة العربية السعودية هي التي لبّت النداء وساعدت على القتال ضد الشيوعية. وفي وقت لاحق، خلال الهجمات الإعلاميّة الواسعة على المملكة عقب أحداث 9/11، بادر أحد الكتّاب إلى القول: "في حين أنّ كل تلك العمليات، وكثيراً غيرها، بقيت طي الكتمان بحكم الضرورة في ذلك الوقت، فإنّه عندما كُشف أمرها في قضية إيران – كونترا، حظي السعوديون بالمديح ممن يريدون الآن طردهم، ابتداء من صحيفة "وُول ستريت جورنال"[41].

سرعان ما أصبح بندر هدفاً لتمحيص وسائل الإعلام، عندما بدأ يُنظر إليه كشخصية خارجة على النمط المعهود للدبلوماسية السعودية. ومن أغرب المزاعم التي سيقت ضدّه تورّطه المفترض في محاولة اغتيال الشيخ محمد حسين فضل الله في سنة 1985. كان فضل الله الزعيم الروحي لحزب الله، وهو حزب لبناني يحظى بتمويل إيراني، اتُّهم بالقيام بعمليّات إرهابيّة استهدفت مصالح أميركيّة في بيروت. وبعد الهجوم سنة 1983 بشاحنة مفخّخة على ثكنة مشاة البحرية الأميركية قرب مطار بيروت، وهو الهجوم الذي أودى بحياة 241 عسكرياً، اتهم المسؤولون الأميركيون فضل الله أنه أمر بتنفيذ ذلك الهجوم[42].

جرت محاولة اغتيال الشيخ بسيارة مفخّخة انفجرت أمام منزل فضل الله، فقُتل 80 شخصاً وجُرح 200 شخص آخرين، ولم يصب الشيخ بأذى. وسرعان ما وجّهت إصبع الاتهام إلى وكالة الاستخبارات المركزية (السي آي أيه) والسعوديين. سرت شائعات في الولايات المتحدة أن المملكة العربية السعودية قدّمت 3 ملايين دولار لتمويل عملية الاغتيال، وتوّجت تلك الشائعات بما ورد في كتاب بوب وُودوارد "الحجاب" (Veil)، حيث أورد تفاصيل صريحة عن لقاء مزعوم بين بندر وكيسي، بما

في ذلـــك روايـــات وصفيّة عن محادثات سرّية، وتقاسم معلومات وإتلافها، وحتى عن عـــسكريّ إنكليزي سابق غامض زُعم أن السعوديين استخدموه لتنسيق العملية[43]. وقد نفـــى بـــندر نفياً قاطعاً حدوث اللقاء المشار إليه. وتكرّرت مزاعم وودوارد على ألسنة هـــاورد بلـــوم[44]، وهولي سكلار[45]، ووليام بلوم[46]، وهلا جابر[47]. بيد أن توماس باورز لاحظ، في مراجعته كتاب وودوارد أنّ "وودوارد يوحي بقوّة، أن هذا المال [السعودي] استُخدم في محاولة اغتيال الشيخ محمد حسين فضل الله، لكنه لا يقول ذلك بالفعل"[48].

كان وودوارد أقل حذراً حين قال في مقابلة في برنامج فرونت لاين (*Fronline*) التلفـــزيوني مـــع بيل مويرز: "وضع كيسي مع السعوديين في سنة 1985 خطة مفصّلة لاســـتخدام سيارة مفخّخة لقتل الشيخ فضل الله، الذين قرّروا أنّه ليس ممن كانوا وراء تفجير ثكنة مشاة البحرية فقط، وإنما متورّط في احتجاز الرهائن الأميركيين في بيروت أيـــضاً. وقد تناول كيسي طعام غداء مع الأمير بندر... وهو من أقوى الشخصيّات، حـــتى الـــيوم، في واشـــنطن". وتابع وودوارد: "مشى الاثنان في الحديقة، وقالا، *نحن مـــضطران إلى الخروج عن الأصول*. واتفقا على أن يقدّم السعوديون المال لاستخدام بعـــض المحتـــرفين لقـــتل الـــشيخ فضل الله بسيارة مفخّخة. وكان ذلك خروجاً عن الأصـــول. لـــيس هـــناك دليل على أنّ ريغن أو واينبرغر أو شولتز عرفوا بذلك. لقد تصرّف كيسي بمفرده، قائلاً، *سأحل المشكلة الكبيرة وأكون أشدّ قسوة من الإرهابيّين أو بمثل قسوتهم، وأستخدم سلاحهم*، السيارة المفخّخة"[49].

علـــى مرّ السنين، لم يحاول بندر قط تكذيب ما كشف عنه وودوارد، أو تقارير وسائل الإعلام، والكتب التي تناولت هذه القصة. لكنّه أصرّ بثبات على أنّ المزاعم عن التورّط السعوديّ في محاولة اغتيال فضل الله لا أساس لها من الصحة، مؤكداً بصراحة علـــى عدم وجود أي علاقة له بمحاولة الاغتيال. وبعد محاولة الاغتيال مباشرة، فاتح بـــندر الـــشيخ فضل الله باسم الملك فهد، الذي كان حريصاً على ألا يصدّق الزعيم الـــدينيّ المزاعم عن تورّط السعوديين في عملية التفجير. وطمأن الشيخ فضل الله الأمير بـــندر أنـــه يحمّـــل الولايات المتحدة، لا المملكة العربية السعودية، المسؤولية وتصافح الرجلان مصافحة الأصدقاء. وفي وقت لاحق، عرض بندر على فضل الله تقديم مليوني دولار كمـــوادّ غذائـــية ومنح جامعية ومساعدات أخرى في مقابل الموافقة على عدم مهاجمة أهداف أميركية في لبنان.

ربما أساء وودوارد تفسير هذه الإيماءة كاعتراف بالذنب، إذ كتب في وقت لاحق عن حوار زعم فيه أن بندر قال لكيسي: "من الأسهل أن ترشيه من أن تقتله". ويعتبر بندر هذا التقرير من نسج الخيال، وينفيه جملة وتفصيلاً. وخلافاً للعادة الغربية المتبعة، أكّد بندر دائماً أنّ كل ما تكتبه الصحافة لا يعنيه كثيراً، ما دام يعرف الحقيقة المتعلّقة بوضع ما، ويستطيع تبرير موقفه والموقف السعودي.

وفي وقت لاحق، زُعم أن السي آي أيه لم تنفّذ تلك العملية البتة، وإنّما كانت من تنفيذ منظّمة سرّية للغاية أنشأها إدارة ريغن في سنة 1982، باسم "مجموعة الأوضاع الخاصة". وزعمت صحيفة "نيو ستيتسمان" أنّ إحدى خطط المجموعة كانت تقضي بتشكيل قوة استباقية لمكافحة الإرهاب، وبعد بداية فاشلة، تحوّلت إلى مجموعة نظّمها عسكريّ سابق في القوة الجوية الخاصة (SAS) البريطانية، وأخفقت في محاولتها اغتيال فضل الله بسيارة مفخّخة في أوائل سنة 1985[50].

لعل هناك بعض الحقيقة في هذا الزعم. فقد علم بندر في ما بعد من مصادر استخبارية سعودية أن محاولة اغتيال فضل الله نفّذها عميل سابق للسي آي أيه/القوّة الجويّة الخاصّة. غير أنّ المملكة العربية السعودية لم تموّل تلك العمليّة قطّ.

ربما ليس هناك توضيح للتعاون السري بين الولايات المتحدة والمملكة العربية السعودية في السياسة الخارجية أفضل من هزيمة القوّات المسلّحة الليبية في أعقاب الاجتياح الليبي للإقليم الشمالي التشادي.

في سنة 1980، بعد التقدّم بمطالبات حدوديّة متكرّرة، حرّك العقيد القذافي 20 ألف جنديّ إلى التشاد، البلد الناشئ حديثاً بعد أن كان مستعمرة فرنسية. عجزت التشاد، بقيادتها المتخلّفة، عن صدّ الجيش الليبي الغازي. وظهر القذافي على شاشات التلفاز وفي الصحف مبتهجاً ومتباهياً بنجاحه. غير أن الليبيين انسحبوا في نوفمبر 1981 تحت ضغط البلدان الإفريقيّة الأخرى والأحزاب السياسية في التشاد.

وقع غزو ليبي ثانٍ بين يونيو وأغسطس 1983، عندما تدخّل القذافي بالقوّة، وطرد الجيش التشادي من قطاع أوزو البالغ عرضه 100 كلم. أدّى تدخّل 3000 جندي فرنسي لاحقاً إلى إنهاء النجاحات الليبية وحدوث تقسيم فعلي للبلد، حيث احتفظت ليبيا بالسيطرة على كل المنطقة الواقعة شمال خط العرض 16. ومع أنّ ليبيا

وفرنسا اتفقتا لاحقاً على الانسحاب المتبادل من التشاد، فإنّ الليبيين انتشروا سراً، واحتفظوا بسيطرتهم على المنطقة الشمالية.

مع أن القذافي لم يكن متحالفاً مع السوفيات بشكل مباشر، فقد سرّهم موقفه المناوئ للغرب، إذ استفادوا من أرباح مبيعات الأسلحة الضخمة لليبيا التي قدّرتها الاستخبارات الأميركية في حدود مليار دولار سنوياً. ولم يكن البيت الأبيض راضياً عن العلاقات بين ليبيا والاتحاد السوفياتي، فضلاً عن "روح المغامرة" الجديدة لدى القذافي. ومما زاد في المخاوف الأميركية والغربية التهديد الإرهابي الهائل بتنظيم ليبيّ لعواصم مثل لندن وباريس وروما وأثينا وبيروت وتونس ومدريد.

توجّست المملكة العربية السعودية خيفة أيضاً من نظام القذافي، إذ تمّ الربط بينه وبين اكتشاف معدّات عسكرية ومتفجّرات عُثر عليها في حقائب ركّاب ليبيين متوجّهين لأداء مناسك الحج. كما أنّ ليبيا وقّعت على معاهدة تعاون مع إثيوبيا واليمن الجنوبي، وهما من أشدّ البلدان تقلباً وعداء للمملكة العربية السعودية.

إنّ اتخاذ أي إجراء صريح ضدّ ليبيا يمكن أن يُطلق ارتدادات غير محمودة في الشرق الأوسط، ترفع العقيد الليبي إلى مصاف الشهداء. ولذلك، عندما فاتحت وكالة الاستخبارات المركزية (السي آي أيه) بندر بشأن تمويل عملية سرّية ضد القذافي، وافق السعوديون بلا تردّد على مساعدة الاستراتيجية التي وضعها كيسي وهيغ. وكان هدفهم الاستنزاف المتأنّي والتخريبي لأضعف نقاط القذافي، حملاته العسكرية وغزوه للتشاد. ووفقاً لبوب وُودوارد، اعتقد كيسي "أن المغامرة في التشاد هي بمثابة نقطة ضعف القذافي"[51].

وبتمويل من المملكة العربية السعودية والسي آي أيه، عزّزت القوات التشادية قليلة الخبرة جيشها بمرتزقة محترفين مجهّزين جيداً تم تجنيدهم ونقلهم جواً إلى التشاد لمساندة الهجوم على القوّات النظامية الليبية. وقد أخبرني فرِد داتون أنّ بندر روى له وقع المفاجأة على الجيش الليبي عندما واجه على غير المتوقّع مقاومة ضارية من جيش تشادي يُفترض أن يكون متواضعاً.

"قدّمت المملكة العربية السعودية، بالتعاون مع السي آي أيه 10 ملايين دولار لدعم إعادة تسليح الجيش التشادي وتجنيد جيش من المرتزقة لمساندة القوات التشادية على الأرض. لم يشارك السعوديون بشكل مباشر، بل اكتفوا بالتمويل فقط. وتولى

الأميركيون الجزء العملاني، وكانت النتيجة هزيمة القذافي وانسحاب القوات الليبية من التشاد. وخلال عملية ليبيا - تشاد، تلقّت القوّات البريّة مساندة جوية أميركية أُعدت لإضعاف الجيش الليبي، وتدمير المعدات الثقيلة والدبابات، وغيرها، وقطع خطوط تراجع القوات الليبية". ووصف داتون كيف كانت القوات الليبية تُضرب من البرّ والجوّ، وفي غمرة الفوضى التي تلي، لم يكن الليبيون متيقنين من أن الطائرات ستتزوّد بالوقود والسلاح وتعود لتنفيذ مزيد من العمليات. ووسط الذعر السائد، كانت القوات التشادية تتقدّم، يدعمها المرتزقة. وبين ديسمبر 1986 والأشهر الأولى من سنة 1987، اندحرت قوات القذافي وأجبرت على الانسحاب إلى ليبيا.

وفي تعبير عن الرضى التامّ عن حصيلة تلك العمليّة السرّية، قال بندر: "لم يقم القذافي قطّ بإرسال قواته إلى خارج ليبيا بعد تلك الضربة التي تلقّاها"[52]. ومن المثير للاهتمام أن سياق عبارة الأمير يردّد مباشرة الغرض الذي أعلن عنه هيغ في تشاد، وهو "توجيه ضربة إلى القذافي" و"إنزال أفدح الخسائر به"[53]. غير أنّ التحالف الأميركي - السعودي والنجاح في التشاد كان أكبر بكثير مما ذُكر في وسائل الإعلام.

وفقاً لداتون، كان الأسطول السادس الأميركي الذي يعمل في خليج سرت مصدر الدعم الجوّي الواسع للجيش التشادي. وكانت الطائرات تحلّق في الليل وتمرّ فوق المجال الجوّي الليبي في طريقها إلى أهدافها في التشاد. ومما يدعو للدهشة أنّ حاملة الطائرات الأميركية كانت مزوّدة بقنابل وأعتدة سوفياتية وفّرها المجاهدون الأفغان، لحجب طبيعة العملية وإخفاء أي تورّط أميركي محتمل.

عند التشكيك في صحة هذا الكشف، قال داتون متعجباً: "لن تجد أحداً مستعداً للاقتراب من هذه الحكاية، لكنها صحيحة. سيناقشها كثير من الأشخاص ويصدّقها بعضهم وينكرها بعضهم الآخر!" وضحك، بعد التفكير في التأثير الذي ستحدثه هذه الرواية في واشنطن ولانغلي عند انكشافها[54]. وأيّد السفير أحمد قطان، نائب رئيس موظفي السفارة السعودية في واشنطن في ذلك الوقت، والسفير السعودي الحاليّ إلى جامعة الدول العربية في القاهرة، رواية داتون في حديث خاص معه لاحقاً.

وفي حادثة مماثلة، قبل ذلك بعام واحد تقريباً، أي في 15 أبريل 1986، في ما يمكن اعتباره تكراراً لعملية تشاد وردّاً على تفجير ليبي لناد ليلي في هامبورغ، شنّت طائرات A-6 تابعة للبحرية الأميركية، وطائرات F-111 تابعة لسلاح الجو الأميركي،

هجوماً ليليّاً دقيقاً وضخماً على أهداف ليبية. وقد انطلقت طائرات A-6 من حاملتي الطائرات "أميركا" و"كورال سي" في الأسطول السادس، بينما انطلقت طائرات F-111 من قواعد سلاح الجو الملكي البريطاني في ميلدنهول وأبر هايفورد في المملكة المتحدة. وفي الحديث عما تردد كثيراً بشأن استهداف الأميركيين منزل القذافي، لاحظ بندر بمرارة أنّ "فرنسا رفضت السماح بعبور الطائرات الأميركية المنطلقة من المملكة المتحدة في الأجواء الفرنسية. وفي المقابل، لم توافق مارغريت تاتشر على السماح بعبور الطائرات في الأجواء البريطانية فحسب، بل سمحت أيضاً بانطلاق العمليات من قواعد في المملكة المتحدة".

ظهر التورّط السعودي في الصراع الليبي التشادي في وقت لاحق خلال مفاوضات الأمير الحسّاسة لتأمين الاتفاق بشأن محاكمة المشبوهين بتفجير طائرة لوكربي سنة 1999. وخلال فترة هدوء في تلك المحادثات، أثار القذافي موضوع الحملة الليبية على التشاد، وذكر "المآثر البطولية" التي قام بها "جيشه الشجاع". أدرك الأمير، فيما كان جالساً بجانب القذافي وهو يصغي إلى هذا التبجّح، أن العقيد كان غافلاً تماماً عن الدعم السعودي لتشاد. فلم يستطع أن يمنع نفسه عن الكلام، فقال بندر للقذافي: "بما أننا الآن نتحدّث بصراحة معاً، فإنّنا كنّا نرعى تشاد. كنّا فيها وألحقنا بك هزيمة منكرة في ذلك الوقت"[55].

من المزايا الأساسية التي ساهمت في نفوذ بندر المتزايد في عهد ريغن قدرته على نسج الصداقات مع أصحاب النفوذ بسرعة. ويمكن القول إنّ أعظم الصداقات في تلك السنوات الأولى صداقته مع نانسي ريغن. فمن المسلّم به منذ مدّة طويلة أنّ "ثاني أقوى الأشخاص في البيت الأبيض [طوال عهد ريغن] هي السيّدة التي أحبها الرئيس كثيراً. فقد مارست نانسي ريغن، كسيدة أولى، تأثيراً في أعمال السلطة التنفيذية وسياساتها أكبر بكثير مما مارسته أي زوجة رئيس في التاريخ الحديث"[56]. وكما اعترفت في مذكراتها: "هل قدّمت النصح إلى روني يوماً ما؟ بالتأكيد فعلت. أنا التي أعرفه حقّ المعرفة، وكنت الشخص الوحيد في البيت الأبيض الذي لم تكن له أجندة خاصة به، سوى مساعدته". وقالت: "قدمت لروني أفضل النصح، وكنت على مدى ثمانية أعوام زوجة الرئيس ورفيقة فراشه، وإذا كان ذلك لا يتيح لي فرصة الوصول إليه، فلا أعرف ما الذي يتيحها!"[57].



نمت صداقة وثيقة ومميزة بين بندر ونانسي ريغن

لم يقلّل بندر من قدر نانسي ريغن طوال وجود ريغن في الحكم، بل كان يولي السيدة الأولى تقديراً كبيراً، ونسج معها صداقة مميّزة عادت عليه بالفوائد السياسيّة. وكما أقرت السيدة ريغن: "لا أعرف الكثير عن علم الاقتصاد والشؤون العسكرية، لكن عندي فراسة قوية في الناس، وأحسن الحكم على شخصيّاتهم"[58]. ومع بندر، صدقت حاسة نانسي ريغن السادسة؛ إخلاصه لها، لزوجها، وتمسّكه بمبدأ ريغن. ولم يكن لتلك العلاقة تأثير عميق في أحداث العالم فحسب، وإنما أيضاً - وبشكل مثير للجدل - داخل البيت الأبيض نفسه.

يُنسب إلى نانسي ريغن فضل الابتعاد داخل حكومة ريغن عن المحافظين المتشدّدين، والاقتراب من ذوي التوجهات الأكثر اعتدالاً في السياسة الخارجية. ومع أن السيدة الأولى تركت السياسة لرجال ريغن، فإنّها كانت ضالعة إلى حدٍّ كبير في اختيار أولئك الرجال. ومن التغييرات المهمّة المنسوبة إلى نانسي إحلال جورج شولتز محل وزير الخارجية ألكسندر هيغ في منتصف ولاية ريغن الأولى؛ وإحلال روبرت ماكفرلين محل مستشار الأمن القومي وليام كلارك[59]. ويمكن إيجاد بصمات بندر في هذين التعيينين.

الدائرة السياسيّة والاجتماعيّة في واشنطن دوّامة يسودها التقلّب وانعدام الأمان وكثرة التغيّر. إنها مكان عدائي لا يقين فيه إلا غدر السلطة وتمسّك وسائل الإعلام بآرائها. ولعل أوضح مثال على ذلك "استقالة" وزير الخارجية ألكسندر هيغ، الرجل الذي طلب دعم بندر معركة إدارة ريغن في التصويت الحاسم على صفقة طائرات "أواكس". ففي عصر يوم 25 يونيو 1982، استُدعي الصحافيون إلى غرفة الصحافة في البيت الأبيض لإطلاعهم على أخبار غير متوقعة. وعند الساعة الثالثة والدقيقة الرابعة اعتلى الرئيس ريغن المنبر وقال: "لقد اضطررت بأسف كبير إلى قبول استقالة وزير

الخارجية آل هيغ". وتابع قائلاً: "وقد رشّحت جورج شولتز لخلافته، وقد قبل هذا الترشيح"[60]. بُثّت ملاحظات ريغن مباشرة من محطات الإذاعة والتلفاز في كل أنحاء الولايات المتحدة.

كان الانطباع الذي أعطي هو أن هيغ استقال طوعاً. بيد أنّه سرعان ما طفت على السطح شائعات عن انقلاب في البيت الأبيض. وفي وقت لاحق من ذلك اليوم، كان على هيغ الإدلاء بتصريح في وزارة الخارجية أمام جمهور من نحو ألف صحافيّ وموظف في الوزارة. حدّد الموعد عند الساعة الرابعة عصراً، غير أن وزير الخارجية المغادر تأخّر نصف ساعة تقريباً. فهو لم يعلم بأمر استقالته إلا قبل ساعات قليلة في الواقع، أي قرابة الظهيرة. ووفقاً لهيغ، كان عليه مرغماً كتابة رسالة استقالة والتظاهر، لأغراض الاستهلاك العلني، أنه قدّم استقالته بالفعل إلى ريغن. وسبب تأخّره في الوصول إلى المؤتمر الصحفي في وزارة الخارجية في الواقع أنّه كان لا يزال يضع لمساته الأخيرة على تصريحه العلني. فقد أمر هيغ بألا يتجاوز تصريحه بأكمله خمس دقائق ونُبّه إلى عدم قبول الأسئلة. وخلال كلمته، تحدّث هيغ ببطء، وكان موقفه يدلّ على تقديم الاستقالة، لكنّ مظهره كان يدلّ على هزيمة. وكادت الكلمات تستعصي الخروج من فمه[61].

بعيد تصريح هيغ، قال سام دونالدسون من قسم أخبار أيه بي سي، "قد يبدو الأمر مستغرباً بالنسبة إلى من يعرفون خلفية الجنرال هيغ؛ لكن الفوز هنا كان حليف المتشددين، من وجهة نظر العلاقات السوفياتية الأميركية، والمتشدّدين عندما يتعلّق الأمر بمحاولة كبح ما يراه كثير من الناس عنفاً مفرطاً من جانب إسرائيل في لبنان"[62].

وتشاء المصادفة أن يستضيف بندر حفل عشاء في منزله في ذلك المساء. وقد أوضح أنّه كان من المنتظر أن يحضر حفل العشاء عشرون مدعوّاً، لكن خلال الأسبوع الذي سبق الحفلة، تعرّض هيغ لضغوط كي يستقيل. ولأن خبر استقالة هيغ ذاع يوم موعد الحفلة، اتصل بندر بوزير الخارجية وسأل إن كان عليه إلغاء الحفلة. فقد قال لهيغ: "لا أريد أن تظهر حفلة العشاء كأنها جاءت نتيجة للاستقالة". ورأى هيغ أن إقامة حفلة العشاء بحضور هذا العدد الكبير من شخصيات واشنطن قد يساء فهمها داخل الدائرة السياسيّة والاجتماعيّة في واشنطن، واقترح بدلاً من ذلك مأدبة عشاء على نطاق أضيق تضمهما مع زوجتيهما.

وصل الوزير هيغ وزوجته إلى منزل بندر في مكلين، فرجينيا. وارتأى بندر أن تأخذ الأميرة هيفاء السيدة هيغ إلى الغرفة المغربية ليتاح له التحدّث مع هيغ على انفراد في مكتبه بخصوص الاستقالة. غير أن السيدة هيغ لحقت بزوجها إلى المكتب. ولدى جلوس الجميع، ران صمت طويل. ويقول بندر: "لم يكن أحد يعرف ماذا يقول".

وفي آخر الأمر، كسر حاجز الصمت، قائلاً: "لقد كان هذا اليوم مفاجئاً". وتابع بندر: "لم يكن ما حدث بعد ذلك عاديّاً". فقد تملّكته الدهشة حين رأى الوزير هيغ، القائد الأعلى السابق لقوات الحلفاء في أوروبا والجنرال بأربع نجوم، وهو ينفجر بالبكاء. كان جالساً في مكتب بندر، واضعاً رأسه بين يديه، وأخذ يبكي بمرارة. وأوضح بندر أنه لم يدرِ ماذا يفعل. وخيّم على الجميع صمت تخلله بكاء هيغ. وفي آخر الأمر، كفّ هيغ عن البكاء، ومسح عينيه بمنديله، ثم سأل: "هل لي بكوب ماء؟".

وبعد قليل، توجّه الجميع إلى غرفة الطعام. وتبيّن على طاولة العشاء أنّ هيغ أُزيح من منصبه، وأنّه لم يكن يعتزم الاستقالة. وكان نادماً لأنّه أتاح الفرصة للأوغاد كي يُخرجوه عنوة. وحين أعلن الرئيس ريغن استقالة هيغ إلى وسائل الإعلام، قائلاً إنّه تلقى كتاب استقالته وقَبلها على مضض، لم يكن هيغ قد خطّ كتاب الاستقالة بعد. وكان موّظفو البيت الأبيض القلقون يقومون بالاتصال بمكتب هيغ للحصول على كتاب الاستقالة. وقال هيغ لبندر بغضب: "أخّرت ردّي أكثر من ثلاث ساعات". وأوضح بكلمات حاقدة: "كانت تلك فرصتي الأخيرة للنيل منهم!".

على الرغم من أنّ بندر لم يكن له دور في رحيل وزير الخارجية هيغ، فإنه كان ذا تأثير في تعيينات أخرى أجرتها إدارة ريغن. وقد نسبت الصحافة الأميركية إلى نانسي ريغن اختيار روبرت ماكفرلين مستشاراً للأمن القومي سنة 1983 بدلاً من جين كيركباتريك[63]. لكنّ بندر يقول إنّه هو الذي عرقل تعيين كيركباتريك، وإنه فعل ذلك لاعتقاده أنّ كيركباتريك ليست المرشحة المناسبة للمملكة العربية السعودية. وفي المقابل، كان متحمّساً لتزكية ماكفرلين، الذي عمل معه سابقاً في وضع اتفاق وقف إطلاق النار لإنهاء القتال في لبنان. وشعر بندر أن ماكفرلين، لا كيركباتريك، سيكون الأكثر توافقاً مع المصالح السعودية. واعترف: "ظللت أقول لها [للسيدة الأولى] إن *هذا الرجل مخلص حقاً لزوجك، وهو خير سند*"! وختم بندر: "وبالنتيجة، أصبح ماكفرلين مستشاراً للأمن القومي".

عندما طُلب من بندر التعليق على تخمينات وسائل الإعلام بشأن علاقته بالسيدة الأولى والشائعات التي تفيد أن له تأثيراً في اختيار موظفين كبار في الإدارة عن طريق السيدة ريغن، أومأ برأسه مؤكّداً ما قيل، ثم أوضح أن السيدة ريغن طلبت منه أن يزوّدها بمعلومات ارتجاعية عن المعيّنين في الإدارة خارج مطبخ ريغن الحكومي، وبالتالي لم يكونوا معروفين. وقال: "أوضحتِ السيدة ريغن أنها لا تريد داخل الإدارة إلا مؤيّدين مخلصين للرئيس". وقد أتاحت مشورة بندر لنانسي وضع "لائحة تصفية" خاصة بها كي تؤثر بها في زوجها؛ لائحة وضعها بندر بعناية بحيث تتوافق مع أفضل مصالح المملكة. وطلبت نانسي ريغن من بندر معلومات عن ولاء، أو عدم ولاء، حكومة زوجها. ويذكر بندر كيف أبلغته نانسي ريغن عند طلب هذه المعلومات أنّ لديها إحساساً فطرياً تجاه أعضاء الإدارة غير الأوفياء. وقد حرّكت سبّابتيها قرب جبينها، وقالت: "عندي قرنا استشعار"، ثم نظرت حولها بمكر وخلسة كأنها تشتمّ بحثاً عن المسيئين.

وعندما قيل لبندر إن نانسي ريغن كانت بتقبلها مشورته تتوسّل في الواقع الدعم من دبلوماسي أجنبي. ردّ على الفور: "لكنّها في قرارة نفسها، لم تكن تعتبرني مسؤولاً أجنبياً؛ كانت تعتبرني صديقاً لزوجها. كانت تعرف أنّي معجب به. ومن الواضح أنها كانت تعرف عن وجود تعاون وثيق بين رونالد ريغن وماغي تاتشر والملك فهد. وكانت تحدّث نفسها، *زوجي يحبّ هذا الرجل ويثق به. ورئيسه وزوجي متقاربان وعلى علاقة طيّبة مع ماغي تاتشر، لذا يمكنني أن أثق به في محاولة معرفة ما يقوله الآخرون عن زوجي وعن قادة آخرين ومسؤولين آخرين، ومن هم المسؤولون الأميركيون الذين يقدمونه إلى الأجانب من زاوية طيّبة. أو هل يضحكون عليه أو هل يطلقون النكات عنه؟* بالنسبة إليها، العالم يبدأ وينتهي مع زوجها. لم تكن معنيّة بالسياسة إلا من منطلق حماية زوجها، ويجب ألا يتمكّن أحد من إلحاق الأذى به ما دمت أستطيع أن أساعده".

عندما طُلب من بندر التعليق على تخمينات وسائل الإعلام المتكرّرة بشأن مقدار تأثير نانسي ريغن في زوجها، جاء ردّه صريحاً وواضحاً. أكّد أنها، كسيدة ذات قدرة قوية على الإقناع، استطاعت بلا شك التأثير في روني بين الحين والآخر، وكرّر أنها كانت تطلب مشورته.



من اليسار إلى اليمين: كاسبار واينبرغر، جورج شولتز، إد ميس، دون ريغن، ورونالد ريغن في البيت الأبيض

ولتوضيح هذه النقطة، قال بندر: "هناك مقابلة تلفزيونية شهيرة معهما في مزرعتهما. وطُرح على ريغن سؤال فقال، *حسناً*، وخلال التوقّف المؤقّت، نظرت نانسي إليه وقالت بسرعة، *علينا أن نفكر في الأمر*. وما لبث الرئيس ريغن أن ردّد كلماتها *علينا أن نفكر في الأمر*". وأضاف بندر ضاحكاً: "كان مصوَّراً، لذا عرف الناس أنّ لها تأثيراً فيه!".

انغمس بندر في السياسة الأميركية مجدداً، قبل أن يكشف إدوين ميس عن تفاصيل فضيحة إيران – كونترا في أواخر نوفمبر 1986، في ما بدا محاولة لتسريع رحيل وزير الخارجية جورج شولتز عن منصبه. وقيل إن بندر تصرف بالنيابة عن نانسي ريغن.

أسرَّ بندر أنّ زوجة الرئيس كشفت له أنّه عندما انفجرت الفضيحة [إيران – كونترا]، "ستتخلص منه [أي من شولتز]". اجتمع بندر، متسلحاً بهذه المعلومة، إلى كاسبار واينبرغر في مكتبه، وأبلغه أن نانسي ريغن ترى وجوب رحيل شولتز؛ فالسيدة الأولى مستاءة جداً من شولتز[64]. ووفقاً لبندر، قالت السيدة ريغن إن وزير الخارجية "ضعيف" و"غير وفي" لزوجها.

في الـــيوم التالي، اتصل واينبرغر هاتفياً بصديقه وليام كلارك في كاليفورنيا ونقل إلـــيه تعلـــيقات بندر. وقد صُدم الرجلان من مناورة السفير السعودي لاختيار وزير الخارجية[65].

حظـــي بندر بمدخل استثنائيّ إلى البيت الأبيض، وذلك بفضل صداقته الشخصية مـــع رونالـــد ونانسي ريغن، وبخاصّة السيدة الأولى، إلى جانب الدعم السعودي لمبدأ ريغـــن المـــناوئ للشيوعية؛ والاستغلال الدقيق لسلاح النفط، والبترودولار؛ واتصاله المباشـــر بالملـــك فهـــد. والمعـــروف أنّ واشنطن تعمل على مستويات كثيرة معقّدة ومتعارضـــة في الغالـــب، وقد كانت دوائر نفوذ بندر متنوّعة بقدر تنوّع الميدان الذي كـــان يلعب فيه. واستطاع على امتداد ولايتي ريغن أن يبني شبكة من الصداقات مع الشخصيات الرئيسيّة في الإدارة، ما مكّنه من ممارسة تأثير سياسي منقطع النظير داخل البيت الأبيض.

كان نفوذ بندر في واشنطن مصدر مقدار كبير من تخمينات وسائل الإعلام. وقد حاولت مجلة "تايم" تحديد مقدار نفوذه عندما أفادت: "أحرز الأمير بندر بنسبه الملكي وتشرّبه الطرائق الأميركية مدخلاً إلى واشنطن لا يضاهيه فيه أي موفد آخر، بمن فيهم الـــسفير السوفياتي المخضرم أناتولي دوبرينين الذي أمضى في واشنطن إحدى وعشرين سنة"[66]. لكن مجلة "تايم" لم تتخيّل أنّه كان في وسع بندر، الدبلوماسي الأجنبـــي، من خلال صداقته المتينة مع نانسي ريغن، أن يحدّد من وراء الستار شكل إدارتي ريغن.

بندر تاجر السلاح

"إذا كنا أقوياء، فستعبّر قوتنا عن نفسها. وإذا كنا ضعفاء، فلن تسعفنا الكلمات".

جون فيتزجيرالد كنيدي

(1961-1963)

"أصدقائي، دعوني أقول لكم، نحن لسنا مازوشيين؛ نحن لا نحب أن ننفق مليارات الدولارات ونتعرض للإهانة في سياق ذلك"[1]. بهذه العبارة الموجّهة إلى مجموعة من مديري "ماكدونل دوغلاس" التنفيذيين، كان بندر يشير إلى رفض طلب المملكة العربية السعودية في سنة 1985 الحصول على طائرات F-15 إضافية وصواريخ "لانس". لكنه ربما كان يشير إلى أي من المفاوضات العديدة العسيرة والمحبِطة بشأن الأسلحة بين الولايات المتحدة والمملكة العربية السعودية.

بعد إنجاز الاتفاق على شراء 100 طائرة F-15 من الولايات المتحدة ونجاح الصفقة في الكونغرس سنة 1978، طلبت المملكة العربية السعودية أن تتسلم على الفور الطائرات الستين الأولى. وكان المتفق عليه أن يتم تسلم الطائرات الأربعين الباقية في موعد متأخر؛ متأخر جداً، كما تبين. وبعد عملية التسليم الأولية، أمضت الحكومة السعودية السنوات الخمس التالية في محاولة الحصول على الطائرات الأربعين الباقية. وبالنظر إلى الوقت المستثمر بالفعل في المشروع والصداقة الوطيدة القائمة بين الولايات المتحدة والمملكة العربية السعودية – ولا ننسى القدرة السعودية على دفع ثمن الأسلحة المطلوبة، وهذا أمر جديد بعض الشيء على صناعة الأسلحة الأميركية – فقد اعتُبر رفض الكونغرس الطلب السعودي الجديد بخصوص 42 طائرة F-15 إضافية ومروحيات وصواريخ مضادة للسفن صفعة مهينة للعلاقات الأميركية – السعودية.

لم تكن هذه المرة الأولى التي تُحبَط فيها مصالح الأسلحة السعودية في الولايات المتحدة في الساعة الأخيرة. ففي سنة 1976، أجاز الكونغرس للمملكة العربية

السعودية شراء 4000 صاروخ جو-جو "مافريك بي". ومع ذلك، أغلق خط إنتاج الطراز "بي" قبل التسليم بسبب طول المدة التي استغرقتها إجازة الصفقة. وأوصت الشركة الصانعة بتحويل طلبية الشراء إلى الطراز "دي" من صواريخ "مافريك"، وكان قيد الإنتاج في ذلك الوقت وإيجاد قِطَع له أسهل من إيجاد قِطَع للطراز الأقدم. وعندما أعيدت الصفقة إلى الكونغرس لتعديلها لتشمل الطراز "دي"، رُفضت برمتها.

كان إحباط المملكة العربية السعودية من إجراءات الكونغرس التي تبدو غير منطقية في مفهومها. فجاء ردّ الفعل السعودي واضحاً في السوق الاستهلاكية التنافسية، حيث وجّهوا اهتمامهم إلى مكان آخر. ومع ذلك، على الرغم من انحياز الكونغرس الظاهر ضد طلبات المملكة العربية السعودية من الأسلحة، فقد أكد بندر دوماً، وبخاصة للأميركيين الذين كان يلتقيهم لدى تكلمه في مكاتب الشركات الصناعية والمصانع العسكرية الأميركية، أن الأسلحة الأميركية هي دائماً خيار المملكة العربية السعودية الأول عند التفاوض على عقود أسلحة. وكرّر الأمير أن صفقات الأسلحة المربحة بين المملكة العربية السعودية والولايات المتحدة فشلت بسبب الكونغرس، لا بسبب الجانب السعودي أو الصناعة الدفاعية الأميركية. ولاحظ، "إنّ منتجات الأسلحة الدفاعية الأميركية كانت تأتي دائماً على رأس أولوياتنا لسببين: الأول، أنّ التكنولوجيا الأميركية هي الأفضل، والثاني، أن لخمسين سنة من الصداقة قواها المحرّكة الذاتية التي تجعلكم الأولوية الأولى لدينا ومحطّ اختيارنا"[2].

لطالما كان الدفاع أمراً حاسماً بالنسبة إلى المملكة العربية السعودية. فالمخاطر التي تتهددها هائلة نظراً إلى أنها تشترك في حدود مع سبعة بلدان متقلّبة ذات نزعة عسكرية، ولأنّها نقطة ارتكاز زعامة العالم الإسلامي، وتقبع فوق نحو ثلثي احتياطيّ العالم من النفط. وكان عهد ريغن في فترة يسودها عدم اليقين والاضطراب في الشرق الأوسط. فقد دعا قائد الثورة الإيرانية آية الله الخميني إلى إطاحة الحكم الملكي السعودي، وندد بالغرب الرأسمالي بقسوة، ودخل في حرب مكلفة مع العراق دامت نحو ثماني سنوات. في المقابل، شنّ العراق التوّاق إلى القتال هجوماً ضخماً على إيران، وأطلق صواريخ "سكود" و"فروغ" على المراكز الآهلة في الغرب الإيراني، واستهدف خطوط الجبهة بسلسلة من الهجمات الشديدة بالأسلحة الكيميائية[3].

ونظـــراً إلى وجود تلك الأسلحة ذات التكنولوجيا المتقدّمة لدى اثنين من جيران المملكـــة العـــربية السعودية، فقد تطلّع السعوديون إلى تعزيز ترسانتهم الدفاعية. وفي أواخر سنة 1984، طلبوا موافقة أميركا على شراء 42 طائرة F-15 إضافية، وصواريخ مـــضادة للطائرات، وصواريخ "هاربون" المضادة للسفن، ومروحيات من طراز "بلاك هوك" لنقل الجنود.

أثبت الكونغرس عناده مرة أخرى ورفض الطلب على الفور. وفي فبراير 1985، أخذ الرئيس ريغن البراغماتي على عاتقه عبء المهمة التي لا يُحسد عليها بإبلاغ الملك فهد والأمير بندر أنه لن يستطيع تأمين موافقة من الكونغرس على صفقة الأسلحة.

قال ريغن للملك فهد: "إنّني أؤيدها، وأوافق عليها، لكن الكونغرس لن يجاريني. لذا الأمر يعود إليك؛ إذا كنت تريد أن أمضي بها، فسأمضي، لكننا سنخسر".

"لا، لا، لا". أجاب الملك فهد فوراً. "لا أريد أي إذلال أو إحراج لك لأنك إذا أحـــرجتَ، فـــسأحرج أيضاً. إنّني أقدِّر موقفك، وأنت تعلم أنني أدعمك. أنت تؤمن بالسلام من خلال القوة، وأنا مثلك. فكلّما ازددت قوة قلّ احتمال الحرب".

وسأل فهد ريغن: "ماذا تفعل لو كنت مكاني؟".

أجاب الرئيس بسرعة: "لو كنت مكانك لقصدت مكاناً آخر واشتريت السلاح".

وبذلك، ضمن فهد تأييد ريغن قيام الـــسعوديين بالـــسعي لشراء أسلحة من خارج الولايات المتحدة.

وحالمـــا اتضح أن الولايات المتحدة لـــن تبيع طائرات F-15، أخذت المملكة العـــربية السعودية تبحث في مكان آخر: فرنـــسا وطائـــرتها "ميراج 4000"، التي كانـــت لا تـــزال في طـــور التصميم، وبـــريطانيا وطائـــرتها الهجومية/الضاربة "تورنيدو"، التي دخلت الخدمة في سلاح الجـــو الملكي البريطاني في ذلك الوقت. ومـــن الناحية المعاكسة، سعت كل من


مارغريت تاتشر وبندر

فرنسا وبريطانيا لملء الفجوة عندما علمتا أن المملكة العربية السعودية تعتزم شراء أسلحة من السوق، فتزاحمتا للفوز بصفقات أسلحة مجزية مع المملكة العربية السعودية. وكانت الحكومة البريطانية عازمة على الفوز بالصفقة، فأطلقت حملة مبيعات قوية ترأستها مارغريت تاتشر شخصياً.

وقيل إن تاتشر قالت بحماسة: "أريد ذلك العقد! أريده أن يكون بريطانيّاً. أريد أن تدور عجلات مصانعي وشركاتي الصناعية!".

سألت السيدة تاتشر بندر إذا كان واثقاً من أن الأميركيين لن يبيعوا طائرات F-15 للسعوديين.

قال بندر: "أنا واثق".

وأجابت تاتشر: "هذه حماقة".

فسأل رئيسة الوزراء: "هل تساعدوننا؟".

قالت تاتشر: "طبعاً سنساعدكم. لكن أرجو أن تخبر جلالته بوجوب ألاّ يعرف أحد بتحادثنا. سأتصل بروني. سيقول لي إنه لا يستطيع إبرام الصفقة لأن الكونغرس لن يسمح بذلك. ثم سأتوجه إلى الكونغرس وأضغط على رئيس اللجنة لبيع طائرات F-15 وسيقولون لي إنهم لا يستطيعون. وسأقول لهم، *حسناً، لكن قد يتوجه السعوديون إلى الروس. يجب أن نتصرف لمنعهم من ذلك. سأبيعهم طائرات تورنيدو كيلا يذهبوا إلى الشيوعيين. سأنقذكم من هذا الحرج، وسأبيعهم طائرات تورنيدو، كيلا يتوجّهوا إلى روسيا أو الصين*".

يقول بندر: "البراعة السياسية في ما فعلته هي أنها جنت المنفعة الاقتصادية وباعتها للأميركيين كما لو أنها تسدي إليهم معروفاً. وكان الأميركيون شاكرين لها! وعندما ذهبت إليهم، قال لها أعضاء الكونغرس إنهم يوافقونها الرأي، لكن ليس في وسعهم القيام بذلك لأسباب سياسية، اللوبي اليهودي.. وغيرها".

ضحك بندر: "لم يكن الكونغرس يعلم أنّها أعدت معي هذه الحيلة البارعة بأكملها!".

كان بندر يعرف منذ أمد بعيد حنكة تاتشر السياسية ويقدّرها. وقد قال لي: "في أثناء حرب فوكلاند، أمرت تاتشر الأميرال المسؤول عن القوة الخاصة بجزر فوكلاند (الأميرال ساندي وودوارد) ألا يبلغ خبر الانتصار لأحد سواها، وأنّ عليه القيام بذلك

مباشـــرة مـــن دون الرجوع إلى تسلسل القيادة. وعندما أبلغها الأميرال بذلك لاحقاً، قالت، *انتظر نصف ساعة، وبعد ذلك يمكنك أن تعلن عن الانتصار*". وتابع بندر: "ثم غـــادرت تـــن داونـــنغ ستريت على عجل، وقصدت البرلمان مباشرة، حيث وقفت وأعلنت النبأ"(*).

عـــادت بعد ذلك إلى داوننغ ستريت والتقت بزوجها دنيس. وأوضح بندر أنك عـــندما تـــدخل داونـــنغ ستريت تجد ممرّاً فيه صورة كبيرة لونستون تشرشل علقتها مارغريت تاتشر عند توليها رئاسة الوزراء.

وعندما وصلت إلى الصورة وقفت ونظرت إلى تشرشل، وقالت: "شكراً لك".

ثم تقدّمت نحو باب ينفتح على سلم يفضي إلى مسكنها الخاص.

قـــال لهـــا زوجها: "ماغي، ما الذي كنت تقولينه، من الذي شكرته؟". قالت "تشرشل، كنت أشكر تشرشل".

"قلت شكراً لتشرشل؟".

أجابت تاتشر بسرعة: "ألم تسمعه؟ لقد قال *أحسنت صنيعاً!* لذا قلت، شكراً لك".

كـــان اللـــورد (الـــسير في ذلك الوقت) تشارلز باول سكرتير مارغريت تاتشر الخاص في سنة 1985(**). وقد علّق على تعرّفه إلى بندر بالملاحظة التالية: "حل بيننا في تِن [داوننغ ستريت] كموفد مؤتَمن للملك همّه توفير حاجات المملكة العربية السعودية في مجال الدفاع الجوي بعدما أشار الرئيس ريغن إلى أنه لن يتمكّن، على الأرجح، من أن يضمن موافقة الكونغرس على صفقة طائرات F-15 المقترحة". وعند مجيء بندر إلى بـــريطانيا، قـــال لباوِل إنه يعتزم التحدث إلى عدد من الشركات البريطانية، ووزارة الـــدفاع، وهيـــئة مبـــيعات الصادرات الدفاعية التابعة لها، للتباحث في صفقة محتملة للأسلحة. ولاحظ باوِل: "أعتقد أنه جاء إلى تِن [داوننغ ستريت] ومعه رسالة سياسية أبلغ بكثير. كان يريد أن يعرف هل ستحظى المملكة العربية السعودية بدعم مارغريت تاتـــشر على أعلى مستويات للتزود بطائرات من المملكة المتحدة. وجاء الجواب نعم

(*) أبلَغت السيدة تاتشر مجلس العموم في 14 يونيو 1982 أن قائد القوات البرية الجنرال جيريمي مور قرر التقدم إلى العاصمة في الليلة الماضية بعد سلسلة من الهجمات الناجحة على قوات العدو.

(**) اتفـــق أن والـــد اللورد باوِل كان قائد محطّة في قاعدة سلاح الجو الملكي البريطاني في أبوود، عندما كان الأمير يتابع دورة دراسية للغة الإنكليزية قبل أن يصبح مرشح ضابط في كرانوِل.

بقــوّة". وتابــع باوِل: "أعيد تأكيد ذلك عندما عرّجت [تاتشر على المملكة العربية الــسعودية] في مارس 1985 وهي في طريق العودة من زيارة إلى آسيا. أمضت يوماً أو نحو ذلك في الرياض، وأجرت محادثات مطوّلة مع الملك، بحضور الأمير بندر". وأوضح بــاوِل أن "البيع نفسه لم يُبحث إلا لماماً في تِن [داوننغ ستريت]، بل الدعم السياسي للــصفقة، وإطارها السياسي. هل نحن أصدقاء أوفياء للمملكة العربية السعودية ويمكن الركون إليهم في ضمان عدم بروز عوائق سياسية في وجه الصفقة إذا ما عُقدت؟ وهل سنكون حاضرين على المدى الطويل لنقدّم المساندة لا لبيع طائرات فحسب، وإنما ببيع كل شيء ذي صلة بها من ناحية خدمات الدعم وسواها؟".

شــدّد باوِل: "كان ذلك متوقعاً بسهولة كبيرة". وعندما سئل عما إذا كان ثمة إدراك في تلــك المــرحلة لأن الصفقة المحتملة أكبر بكثير من مجرد التزويد بالطائرات، أجــاب باوِل: "كان من الواضح تماماً لي أن هذه الصفقة طويلة الأجل تبدأ بقليل من الطائرات. وتتعدّاها إلى أشياء كثيرة جداً غير الطائرات مثل التدريب والدعم والصيانة والإنــشاءات". وقد وفّر القلق الضاغط بشأن المنافسة الفرنسية والحاجة إلى مرونة غير عاديــة بيــئة جذّابة لا تقاوَم. ويقول باوِل: "كنا في قرارة أنفسنا نعلم أن الفرنسيين ناشــطون جــداً في السوق أيضاً، ويدّعون دائماً أن الصفقة مضمونة لهم". وأضاف: "كانــت السيدة تاتشر، المناصرة الكبيرة للشركات البريطانية والصادرات البريطانية، حريــصة جــداً علــى أن تكون الصفقة من نصيب شركة بريطانية، شركة "بريتيش إيروسبيس"(*)"[4].

كانت الطريقة التي عمل بندر بها في المملكة المتحدة تشبه إلى حدٍّ بعيد الأسلوب المتحرّر من القيود الذي استخدمه بفعاليّة كبيرة داخل الدائرة السياسية والاجتماعية في واشــنطن، حيث عمل من أعلى المراتب إلى أدناها، متجاوزاً وزارة الخارجية في إعطاء الأولــوية إلى البــيت الأبيض. وفي لندن، كان بندر يدخل تِن داوننغ ستريت دخول الواثــق المتبختر. وقد تمتّع بقدرة غير عادية على الوصول سواء إلى مارغريت تاتشر أو جــون مــيجور أو طــوني بلير. ويقول طوني إدواردز، الرئيس السابق لهيئة مبيعات

(*) أنــشئت "بــريتيش إيروسبيس سيستمز" (BAe Systems) سنة 1999 عن طريق دمج "بريتيش إيروسبيس" مع "ماركوني إلكترونيك سيستمز". وخلال هذا الكتاب، ستُستخدم "بريتيش إيروسبيس" للإشارة إلى "بريتيش إيروسبيس" وBAe Systems.

الصادرات الدفاعية: "إن قدرته على القيام بذلك تسترعي الانتباه. وتشكل النظرة إليه من مختلف الأطراف في هذا البلد جزءاً من اللغز المحيط به، وهي نظرة لا تخلو من التناقض". وكان إدواردز يلمّح إلى تباين الآراء بشأن بندر في داونغ ستريت ووزارة الخارجية. فهو يعتقد أن اعتياد بندر إقامة الصلات من أعلى إلى أسفل أحدثت استياء في وزارة الخارجية، التي تفضل مراعاة الإجراءات البروتوكولية التقليدية. "على سبيل المثال، كان علينا ذات مرة أن نطلب من روبن كوك كتابة برقية إلى السفير البريطاني في المملكة العربية السعودية يذكّره فيها أن السياسة الخارجية البريطانية توضع في لندن لا الرياض؛ فثمة سجل كامل هناك يشمل بندر في حواشيه".

عندما أشير إلى أن بندر يثير انزعاج وزارة الخارجية الأميركية في واشنطن أيضاً بعمله مع البيت الأبيض مباشرة، رد إدواردز: "لكن على الرغم من أن في استطاعة بندر فعل ذلك، فإنه مستعد في الوقت نفسه لاستطلاع الأجواء إذا كان ذلك مهماً، وحضور اجتماعات أدنى مستوى. وكان يتجشّم العناء للتوصّل إلى شيء ما إذا شعر أنّه مهم، ولمصلحة بلده ومصلحة البلدين اللذين يقول إنّ على المملكة العربية السعودية أن تبقى قريبة منهما وهما الولايات المتحدة والمملكة المتحدة". وشدد إدواردز على أنّ "بندر لن يدخّر أي شيء لضمان عدم افتراق هذه البلدان الثلاثة. لقد رأيته يقوم بأشياء، مثل القدوم إلى هنا - في حالة واحدة بناء على طلبي، لأنّني ظننت أن الأمر كان مهماً آنذاك - إذا تبيّن له أن ذلك بالغ الأهمية"[5].

لعب السير ريتشارد إيفانز، الرئيس السابق لشركة "بريتيش إيروسبيس"، دوراً مهمّاً في تأمين صفقة السلاح التي عُرفت في ما بعد باسم عقد "اليمامة". وهو يعتقد أنّه على الرغم من أنّ المشكلات والتأخيرات الناجمة عن معارضة الكونغرس الأميركي وفّرت حافزاً لقرار المملكة العربية السعودية الالتفات إلى المملكة المتحدة للحصول على الدعم العسكري، فإن قرار استخدام معدّات بريطانية نابع من قيام بريطانيا سابقاً بتقديم معدّات عسكرية مثل طائرات "لايتننغ". ويفترض إيفانز، "أنّ مشروع اليمامة يرجع إلى الأيام الباكرة جداً لصفقة طائرات لايتننغ الأصلية، التي عُقدت في سنة 1965، أي قبل قبول بندر في كليّة كرانوِل التابعة لسلاح الجوّ الملكي. فقد كانت مواقف الحكومتين السعودية والبريطانية تشكّل جسراً سياسياً بين البلدين إلى حدٍّ بعيد. ومن المفترض أنّ الملك فهد كان يدرك قيمة المحافظة عليه".

كان الجسر السياسي الذي أشار إليه إيفانـــز هو صفقة بقيمة 280 مليون دولار عقدها السعوديون مع المملكة المتحدة سنة 1965 للحصول على 40 طائرة "لايتننغ"، و25 طائرة تدريب "جِت بروفوست" (سترايكماستر)، و8 طائـــرات تدريب "سيسنا 172 (CT-41)"، مع تزويد الولايات المتحدة السعوديين بصواريخ "رايثيون هوك". وقد اســـتخدم ســـلاح الجو الملكي السعودي طائرات "لايتننغ" فترة طويلة. وأعدت تلك الـــصفقة فيما كانت المملكة المتحدة تشهد أزمة شديدة في ميزان المدفوعات، وكانت الأزمـــة تمـــثل عائقاً خطراً أمام قدرتها على شراء الطائرات الضاربة F-111 وطائرات الـــنقل C-130 من الولايات المتحدة[7]. وفي مسعى جدّي لإنجاز صفقة F-111، اتفق وزير الدفاع الأميركي روبرت ماكنمارا ووزير الطيران البريطاني روي جنكنـــز على أن تـــسهّل أميركا حصول المملكة العربية السعودية على حزمة دفاع جوي عسكرية أميركـــية - بـــريطانية مـــشتركة بقيمة 400 مليون دولار - تضم طائرات "لايتننغ" اعتراضـــية وطائرات "سترايكماستر" وطائرات "سيسنا" تدريبية - متخلية عن عرض أميركـــي سابق يقضي بتزويد المملكة بمقاتلات F-5 أو F-104. وبهذه الطريقة تتوفّر لبريطانيا الأموال لتسديد ثمن الطائرات التي تريدها من الولايات المتحدة. وقد اعترف



السير ريتشارد إيفانز (في المقدمة) من بريتيش إيروسبيس

جون ستونهاوس، مساعد وزير الطيران لشؤون البرلمان، عند إعلانه الصفقة أمام البرلمان في ديسمبر 1965، أن الصفقة ما كانت لتتم من دون "التعاون الأميركي"[8]. ومع ذلك، كان ما جرى ترتيباً حصلت بموجبه بريطانيا على ما تريده وحصلت المملكة العربية السعودية على ما يلي الأفضل (المفضول).

بعد مرور عشرين سنة، كان لصفقات "اليمامة" وقع سياسي مماثل ولم تكن لتعقد من دون الموافقة الأميركية. وقد أكد السير ريتشارد إيفانز أن بندر كان عاملاً أساسياً في ضمان عدم عرقلة الولايات المتحدة صفقة "اليمامة" بقوله: "لم يكن يمكن إنجازها إلا على مستوى ريغن وبندر. وقد اقتضت تفاهماً واضحاً بين الإدراتين البريطانية والأميركية في ما يتعلق بالاحتياجات. ومن الواضح أنّ قرارات التسليح العربيّة تتأثّر بالمقاربة العربية للأعمال، وهي مقاربة تتوافق كثيراً مع الصداقات القديمة والثقة والولاء والسياسات الخارجية للبلدان التي يتعاملون معها.

في 9 سبتمبر 1985، أعلنت الحكومة البريطانية بابتهاج أن مذكرتي تفاهم وقّعتا بين وزير الدفاع البريطاني مايكل هزلتاين ووزير الدفاع السعودي الأمير سلطان ابن عبد العزيز. وقبل الإعلان، أي في يوليو 1985، جرت المفاوضات الختامية في مكان إقامة القنصل البريطاني في سالزبورغ، حيث كانت السيدة تاتشر تمضي إجازتها[10]. وقد منحت مذكرتا التفاهم المملكة العربية السعودية الفرصة لتحويل كل مذكرة إلى عقد مستقل كما يقتضي الأمر وعند الاقتضاء؛ وهاتان المذكرتان بالذات هما اللتان سُميتا اتفاقيات "اليمامة"[11].

وجاء الإعلان مفاجئاً لشركات الصناعة العسكرية الفرنسية، التي كانت تعمل بدأب لتأمين بيع طائرتها "داسو ميراج" للمملكة العربية السعودية، وتوقّعت الفوز بالعقد؛ فطائرة "ميراج" يمكن أن تكون بديلاً من F-15 وهي تتميّز بأن تكلفتها تقل 25 - 30 بالمئة عن تكلفة طائرة "تورنيدو"[12].

يعتقد طوني إدواردز أن الحكومة الفرنسية شعرت أن عرضها أوفر حظاً. فقد قال له نظيره الفرنسي: "الأمر كله مرتّب ومنظّم، وأنّ الصفقة تمّت؛ وستكون من نصيب الفرنسيين"[13]. وفي ما بعد قال ناطق فرنسي عن صفقة المملكة المتحدة إنها "لم تكن متوقّعة وغير مفهومة وكارثية، وإن هذا التحوّل القاسي ذو طبيعة سياسية"[14].

روى بـــندر إلى أصدقاء له أن "ما أثّر في الصفقة بأكملها هو أن الفرنسيين كانوا ســيبيعون الـــسعوديين طائرات ميراج 2000 وميراج 4000. فبنية سلاح الجو الملكي الـــسعودي تتطلّب دائماً مزيجاً من الطيران المرتفع والمنخفض، حيث لديك طائرة مثل هـــوك أو F-5 التي تقوم بمهمة الطيران المنخفض وطائرات F-15C وF-15D التي توفّر الغطـــاء المـــرتفع". وكـــان في نية السعوديين، قبل أن ترفض الولايات المتحدة تقديم طائرات F-15E، الحصول على الطائرات الفرنسية لمهمّة الطيران المنخفض، وطائرات F-15E لمهمّة الطيران المرتفع.

وأوضـــح بندر أنّه عندما رفض الكونغرس بيع طائرات F-15E في فبراير 1985، "كـــان الـــسبيل الوحيد إلى الحصول على ما يشبه F-15E هو الحصول على طائرات ضاربة". ولم تكن "ميراج" خياراً واقعياً. وعلى هذا الأساس، كان منطقياً بالنسبة إلى السعوديين شراء طائرات "تورنيدو" بطرازيها الضاربة والمقاتلة.

وكـــان عدم فرض قواعد صارمة على استخدام طائرات "تورنيدو" ونشرها بنداً بـــارزاً في صفقة البيع أيضاً. وأضاف بندر، موضحاً استراتيجية الاقتناء السعودية: "لذا كـــنا نعرف أنّه إذا التزمنا بطائرة تورنيدو [القاذفة الضاربة] – في المجالات المحظورة من جانـــب الأميركيين كجزء من صفقة طائرات F-5 السابقة – فإننا سنفقد على الفور الحماية التي توفرها طائراتنا F-15C كطائرات اعتراضية، وسنضطر إلى إرسال قاذفاتنا مـــن دون حماية". وكان ذلك وضعاً غير مقبول وبالتالي كان من المنطقي بالنسبة إلى السعوديين أن يشتروا 24 طائرة "تورنيدو" إضافية من الطراز الخاص بالدفاع الجوي.

لكـــن لم يكن ذلك السبب الوحيد لفشل عطاء طائرات "ميراج" الفرنسية. ففي أثـــناء المداولات السعودية بشأن حزمة الأسلحة، قرّرت الحكومة الفرنسية خفض 50 بالمـــئة من وارداها النفطية من المملكة العربية السعودية. وقد أزعج هذا القرار، الذي أبلـــغ إلى "أرامكو" في برقية موجزة، الملك فهد. ومما زاد من غضبه توقيت القرار إبان الأزمـــة التي كانت الدول المصدّرة للنفط تعاني منها. فأسعار النفط في هبوط، وفرنسا قررت شراء نفط إيراني بدلاً من النفط السعودي. اتخذ الملك موقفاً براغماتياً في العلن، قائلاً: "هذا حق خاص بالدولة ذات السيادة؛ ولا يمكننا أن نملي عليها ما يجب أن تفعله".

لكـــن الملك فهد لم ينسَ الإهانة في السرّ. وعندما استشعر الفرنسيون أن إعلان العقـــد مـــع البريطانيين أصبح قريباً، أوفد الرئيس ميتران أخاه في مهمة عاجلة لمقابلة

الملــك. وافــق فهد على استقباله يوم خميس، متوقعاً أن الموفد سيتحدّث عن صفقة طائــرات "ميراج". وقبل موعد اللقاء المحدد باثنتي عشرة ساعة، أعلن الملك فهد عن الصفقة بين المملكة العربية السعودية والمملكة المتحدة.

عــند دخول شقيق ميتران قصر الملك، كانت الصفقة قد تمت. ومع ذلك سايره الملك فهد قائلاً: "مرحباً بك. فرنسا صديقة طيّبة، ورئيس فرنسا صديق طيّب".

أجــاب الجنرال ميتران: "أعتقد أنّني تأخّرت بالفعل على الموضوع الذي أردت مقابلتك من أجله".

"نعم؟".

"لــو تسنّت لي الفرصة لكنت طلبت منك تأخير قرارك لتتاح الفرصة للنظر في الصفقة مجدداً".

أجــاب الملــك فهــد: "أعلم أنك تقول ذلك بنيّة حسنة. لكن كما ترى، يا صديقي، اتخذنا قراراً سياديّاً، ونحن لا نأخذ نصيحة أحد في قراراتنا السيادية. على أي حــال، أنــا واثق أيها الجنرال من أن الرئيس ميتران سيتفهّم موقفي. قبل أشهر قليلة، قرّرتم خفض وارداتكم النفطية من المملكة العربية السعودية بنسبة 50 بالمئة. ولا أذكر أن الــرئيس أرســلك لتطلعني على هذا الأمر، أو لتعطينا إشعاراً مقدّماً أو تخبرنا عن ســبب قــيامكم بذلك. ولم نعلم بالأمر إلا عندما وردت برقية إلى شركتنا النفطية، والحقّ يقال، لقد استأت من ذلك لأنه ألحق الضرر بلقمة عيشنا".

وخــتم الملــك فهد بالقول: "لكن نفسي حدثتني أن الرئيس ميتران فعل ما فيه مصلحة قومية لفرنسا. ولا يحق لي أن أشكّك في قراره الخاص بأمور سيادية، ولذا آمل ألا تشكّك في قراري الآن".

أجــاب الجنرال ميتران بتردّد، وقد اعتراه ارتباك: "لا، لا، لا يا صاحب الجلالة. لا علم لي بهذه الحكاية. لو كنت أعلم لما أتيت إليكم".

يقف خلف الأساس الذي قامت عليه عقود "اليمامة"، التي تبلغ قيمتها مليارات الــدولارات، رفــض الكونغرس الأميركي طلب السعوديين شراء 42 مقاتلة F-15. وهناك إقرار على نطاق واسع أن قيام الكونغرس بعرقلة الصفقة سنة 1985 جاء نتيجة الضغط المستمر الذي مارسته "أيباك" عليه. وعقب صفقة "اليمامة"، نُقل عن مسؤول في الطيران البريطاني قوله: "لقد أسدى اللوبــي اليهودي الأميركي إلينا معروفاً"[15]. من

المفارقـــات أنّ أربعاً وعشرين طائرة فقط من طائرات "تورنيدو" الاثنتين والسبعين التي اشـــترتها المملكـــة في صفقة "اليمامة"، هي من المقاتلات الاعتراضية؛ وأنّ الطائرات الـــثماني والأربعين الباقية هي من المقاتلات الضاربة المتقدّمة. وعندما فاتح السعوديون الأميركـــيين بـــشأن طائرات F-15، قاموا بذلك وهم يعلمون، بناء على مفاوضات ســـابقة، بالمحظـــورات والقيود المفروضة على إمكانية تزويد تلك الطائرات بخزانات وقـــود، ونقاط تعليق إضافية للأسلحة، إلى جانب القيود المفروضة على نشر الطائرات في مواقـــع قـــريبة مـــن إسرائيل. لذا كانت طائرات F-15 المعتزم شراؤها ذات طابع دفاعي. وعندما حيل دون حصول السعوديين على طائرات F-15 إضافية، تمكّنوا بدلاً من ذلك من شراء طائرات "تورنيدو" ضاربة/هجومية، من دون قيود على نشرها ومع مواصـــفات عملانـــية كاملة. وعلى نحو مماثل، كان يمكن استخدام طائرات "هوك" الثلاثين التي طُلبت كجزء من حزمة الأسلحة في مهمات هجومية[16].

غالباً ما شكك بندر علانية في المنطق المعقد لقرار الكونغرس، المنطق الذي يعتقد بـــندر بوضوح أنه كان محاولة مضللة لدعم إسرائيل و"أيباك". يقول بندر: "طلبت من أصـــدقائنا في واشـــنطن مـــرة أخرى أن يشرحوا لي، لعلي بليد الذهن، كيف تكون إسرائيل في مأمن حين نتوجه إلى بريطانيا ونشتري 120 طائرة مقاتلة وقاذفة من الطراز الأول بدلاً من شراء 40 طائرة منكم؟ فلم أحصل على جواب"[17].

على الرغم من أن البريطانيين فرضوا قيوداً بالفعل في ما يتعلق بإعادة السعوديين بـــيع طائرات "تورنيدو"، فإنه لم تكن هناك قيود تتعلّق باستخدام الطائرات أو نشرها كالقـــيود المفروضـــة من الولايات المتحدة على صفقة طائرات F-15 سنة 1978[18]. وذلك ليس أمراً عديم الأهمية، كما لاحظت الصحافة البريطانية، "كان الشاغل الأمني الرئيسي بشأن اليمامة سمعة المملكة العربية السعودية كمستخدم للأسلحة البريطانية لا يمكن الركون إليه"[19].

من المفارقات أنّ الزيادة المثيرة في ترسانة المملكة العربية السعودية من خلال شراء الأسلحة البريطانية ربما كانت ذات مفعول يخلّ بالميزان العسكري في الشرق الأوسط، أكثـــر مما يخلّ به الاقتراح الذي قدّمه ريغن إلى الكونغرس لصالح المملكة. وعند النظر إلى رفـــض أميركا الطلب السعودي من منظور سياسي، نجد أنه كان أكثر من قضية أســـلحة بسيطة. كان إشارة إلى الشرق الأوسط مفادها أنّه على الرغم من العلاقات

الشخصية القوية بين ريغن وبندر، فإن الالتزام الأميركي تجاه المملكة العربية السعودية كحليـف كان مزعزعاً. ولم يخلّف هذا الرفض من حليف بهذا القدر من النفوذ لدى المملكـة العربية السعودية الشعور بالمهانة فحسب، بل الشعور أنها، وهذا هو الأهم، غير حصينة.

أشارت شركات الصناعة العسكرية الأميركية مراراً، وبغضب، إلى العوائد الهائلة الـتي تردّد أن الحكومة البريطانية جنتها من صفقات "اليمامة". ففي أي سوق تجارية تنافسيّة، سيكون هناك دوماً من هو مستعد لتلبية الطلب. والحجة نفسها ساقها وزير الدفاع السابق مايكل هزلتاين، في مارس 1989، في إشارته إلى صفقة "اليمامة"، حيث نُقـل عنه قوله: "من المهم جداً أن تكون للسعوديين علاقة مستمرة مع هذا البلد. فهم يريدون السلاح وسيحصلون عليه من مكان ما، لذا لِمَ لا نبيعه نحن؟"[20].

يقـول بندر عن صفقة "اليمامة": "عندما اتفقنا في أول الأمر، لم يكن بيننا عقد. كان مجرد مصافحة بيني وبين السيدة تاتشر في تِن داوننغ ستريت". وحاول بندر في ما بعـد الاتـصال برئيسة الوزراء عندما أعدّت العقود. اقتُرح عليه التحدّث مع السيد وايـتلو، نائـب رئيسة الوزراء لأن تاتشر كانت خارج البلد. اعتذر الأمير قائلاً: "لا أريـد أن أقابله؛ ليس عندي شيء أبحثه معه. لكنني سأعود حين تعود رئيسة الوزراء". تلقـى بندر لاحقاً اتصالاً سئل فيه: "هل يمكنك الذهاب إلى النمسا؟". وهكذا ذهب إلى النمـسا والتقـى بالـسيدة تاتشر وزوجها. وذُكر أنه نقل إليهما أرقاماً محدّدة، وتصافحا، وتمّت الصفقة.

لكن، كان ثمة إجراء واحد نهائي منتظر.

بعـد مرور عدة أسابيع على إتمام الصفقة، أقامت السيدة تاتشر مأدبة عشاء على شـرف الأمير سلطان في تِن داوننغ ستريت. وفي اليوم التالي، كان من المقرّر أن يزور سلطان، مع نورمان تيبت وزير الدولة للتجارة والصناعة، مصنع "بريتيش إيروسبيس" في وارتـون. وفيما كان بندر يغادر داوننغ ستريت بعد مأدبة العشاء، قال للسيدة تاتشر: "ألن يكون الأمر مسلياً إذا فاجأتُ أبـي بقيادة عرض طائرة تورنيدو في حضوره؟".

أجابت تاتشر: "سيكون ذلك رائعاً، لِمَ لا؟".

فأوضح لها بندر أن الأمير سلطان لن يوافق، كما لن توافق "بريتيش إيروسبيس" أو سلاح الجو الملكي ما لم يؤذن بذلك.

فقالت مارغريت تاتشر على الفور: "سنأذن بذلك".

"إذا كنت مستعدة لفعل ذلك من أجلي، هلا تتكرمين بخدمة أخرى".

أجابت: "بالطبع، ما هي؟".

قال بندر: "يجب ألاّ يخبر أحد أبـــي بأي شيء".

أجابت تاتشر بصورة جازمة: "لك ذلك".

يقول بندر: "تركت مع مرافقي والدي رسالة مفادها أنّي أشعر بوعكة وأنّي لن أشـــارك في زيـــارة المصنع". وفي صباح اليوم التالي، ذهب إلى وارتون، حيث استعدّ للطيران، وأقلع بالطائرة مع طيار الاختبار قبيل وصول أبيه.

وأوضـــح بندر: "بعد أن أنهى أبـــي جولته في وارتون، أُخذ إلى المنصة لإطلاعه علـــى مـــا تستطيع طائرة تورنيدو أن تفعله. أتمت الطائرة عرضها كما يجب - وكان مثيراً للإعجاب - وهبطنا بعد ذلك وسارت الطائرة حتى وصلت أمام المنصة بالضبط ثم توقفت".

قـــال السير ريتشارد إيفانـــز للأمير سلطان: "سمو الأمير، يود طاقم الطائرة تأدية واجب الاحترام لكم".

تـــرجّل الطيّاران من الطائرة وهما لا يزالان يعتمران خوذتيهما واتجها إلى المنصّة. ولدى اقترابهما منه، خلع بندر خوذته.

التفت الأمير سلطان إلى الجنرال بحيري، الضابط في سلاح الجو الملكي السعودي، وقال: "غير معقول. من أذن بذلك؟".

أجاب الجنرال فوراً: "لا أعلم شيئاً عن هذا الأمر".

هنا، تدخّل السيد تيبت وقال: "رئيسة الوزراء أذنت بذلك".

ضـــحك الأمير سلطان. وبعد أن قبّل بندر يد والده، ربّت الأمير على خد ابنه وقال: "إياك أن تفعل ذلك مجدداً".

أحـــيطت عقود "اليمامة" دائماً بدرجة فائقة من السرية. ولم تترك السيدة تاتشر خـــلال نهجهـــا العازم للحصول على الصفقة أي شيء للصدفة، وقد نُقل تصميمها بوضوح إلى مَن كُلفوا في حكومتها بمهمة إقرار الصفقة.

وفي سنة 1988 أوردت مجلّة "إيكونوميست" أن المملكة العربية السعودية، بعد أن تعرّضـــت للانـــتقاد في جلسات الاستماع في الكونغرس الأميركي، ومن الصحافيين

الفضوليين، وقانون حرية الإعلام في الولايات المتحدة، رحّبت بأجواء السرية البريطانية عامة، وبقانون الأسرار الرسمية خاصة[21].

شكّلت فعالية الحكومة البريطانية في فرض مثل هذه السرية، على الرغم من إلحاح وسائل الإعلام المتكرّر، شهادة على إصرار تاتشر على حساسية الصفقة وقيمتها البالغتين. وقد تعزّزت السرية المحيطة بصفقة "اليمامة" بتعمّد إبقاء تقرير المكتب الوطني لتدقيق الحسابات المالية عن الصفقة طي الكتمان على أساس أن الأمر مصلحة قومية[22]. ولا يزال تقرير ذلك المكتب التقرير الوحيد الذي لم ينشر على الملأ ولم يوزّع على أعضاء البرلمان. وبسبب توقّعات الصحافة المستمرّة دفع عمولات ضخمة، تولى السير جون بورن التدقيق في الحسابات المالية. بيد أن لجنة الحسابات العامة في مجلس العموم أوقفت التدقيق في مارس 1992. واتخذ قرار كتمان التقرير رئيس اللجنة العمّالي آنذاك، روبرت شيلدون، الذي قال "إنه لا يوجد دليل على فساد أو إساءة لاستخدام المال العام"[23]. وقد أيّد معظم أعضاء اللجنة قرار شيلدون حتى من دون أن يُسمح لهم بقراءة التقرير؛ وهذا موقف مثير للدهشة. لقد اكتفى أعضاء اللجنة بتأكيدات رئيسهم[24].

وعلى الرغم من هذه "الشهادة الصحية" الظاهرة التي تثبت "سلامة" صفقة "اليمامة"، واصلت الصحافة البريطانية توجيه تُهم الرشوة والفساد إلى العقود السعودية. بيد أن الملمّين بالعادات السعودية أخذوا يعلّلون مثل تلك الاتهامات. فقد أوضح محلّل تجارة الأسلحة أنطوني سامبسون في مقالته لصحيفة "التايمز" أن "العمولات أمر ضروريّ في تقليد التفاوض المناسب في المملكة العربية السعودية. لذا يرفع الثمن الإجمالي لأي منتج إفساحاً في المجال للعمولات"[25]. وعلى نحو مماثل، أيّدت كريسي هيرست منهج حجة سامبسون في تقرير "للحملة ضد تجارة الأسلحة" إذ قالت: "من المعروف أنّه لا يمكن الفوز بالعقود الكبيرة من المملكة العربية السعودية من غير مدفوعات يمكن أن توصف بالعمولات". وأوضحت أن ثمة قوانين موجودة في العديد من البلدان العربية تحكم الإجراء التجاري المتبع لدفع عمولات إلى وكلاء أو وسطاء، وخلصت إلى أن "من المستبعد جداً ألا تكون اليمامة قد أعدت وفقاً لهذه العادة المتبعة والمقبولة"[26].

على الرغم من كون العمولات عادة سعودية مقبولة، فإنها غير قانونية. فالقانون السعودي "لا يسمح بعمولات أو رسوم سمسرة على عقود الأسلحة المستوردة أو

سواها من عقود القطاع العام"[27]. والتعامل بالعمولات في العقود بين الحكومات ليس غـير قانـوني في المملكة العربية السعودية فحسب، بل "أصبح دفع الأموال لمسؤولين أجانب غير قانوني بموجب قوانين المملكة المتحدة ابتداء من 14 فبراير 2002"[28].

وقـد اتهمت صحيفة "الغارديان" شركة "بريتيش إيروسبيس"، المستفيدة الكبرى من "اليمامة"، باستغلال شركة بريطانية في الجزر العذراء وحسابات مصرف سويسري خارجي للنأي بنفسها عن الصفقات التجارية ذات الصلة بالعمولات، مزيلة بذلك بـصماتها عـن الصفقة. وزُعم أيضاً أن "بريتيش إيروسبيس" استخدمت مصرفاً سويـسرياً لإبقـاء النـسخة الوحيدة للاتفاق خارج الولاية القانونية البريطانية. وفي دفاعهـا عـن نفسها صرحت "بريتيش إيروسبيس" أنها "تنفي نفياً قاطعاً أي مزاعم بالإساءة"[29].

لكـن صـفقة المقايضة الفريدة التي وضعت من أجل عقد "اليمامة" - الحكومة السعودية تدفع ثمن الأسلحة نفطاً لا مبالغ نقدية - ترتيب أضاف مزيداً من التخمينات أنـه أعدّ لحجب العمولات والرشاوى، وقد وُجهت إليه انتقادات قاسية. غير أن بنية التمويل لم تؤمن للمملكة العربية السعودية الأسلحة التي طلبتها وسوقاً مضمونة لنفطها فحـسب، بـل وفّـرت أيضاً آلية مفيدة تجاوزت بعض توجيهات "أوبك" التي تقيّد حـصص الـصادرات النفطية[30]. ومع ذلك، فإنّها عرّضت العقد أيضاً لتقلّبات سوق الـنفط، وأحـدث تـراجع أسـعار الـنفط مزيداً من الضغط على موازنة "بريتيش إيروسـبيس" العامـة لـبعض الوقت. وأسرَّ طوني إدواردز أن "بريتيش إيروسبيس" تعرّضـت في إحدى المراحل لعجز قدره 3 مليارات دولار في أحد العقود. ومع ذلك، فـإن الضمانة المفترضة القائمة على ربع احتياطي العالم من النفط مواتية جداً، ناهيك عن أنّه يمكن الاعتماد عليها.

مبدئـياً، تعهدت المملكة العربية السعودية بتقديم 600,000 برميل من النفط كل يوم. وانخفض هذا المستوى في سنوات لاحقة إلى 400,000 برميل في اليوم. واعترف إدواردز أن استخدام النفط بالنسبة إلى السعوديين يعني أن العقد كان في الواقع صفقة خـارج المـوازنة: أي لم يمـرّ عبر الخزانة السعودية. وأكد إدواردز أيضاً أن المرونة البريطانية كانت إحدى النقاط الجاذبة للسعوديين في هذا الترتيب الفريد. فقال: "كان الـبريطانيون أكثر مرونة من الأميركيين. فالأميركيون يتبعون نظام المبيعات العسكرية

الخارجية، الذي يقف خلفه قانون من الكونغرس. فإذا أساء الزبائن التصرّف وتخلّفوا عن دفع المال، لا تكتمل الصفقة. في هذا البلد، تجري الأمور بمرونة كبيرة. في بعض الأحيان كان تدفّق النفط والأموال المحصّلة من بيعه يتقدمان عن المطلوب، وفي أحيان أخرى يتخلفان عنه".

كانت المبالغ المالية الكبيرة المتأتية عن بيع النفط تمرّ عبر هيئة مبيعات الصادرات الدفاعية، قبل أن تدفع إلى "بريتيش إيروسبيس". أقر إدواردز أن الحكومة فرضت بالفعل عمولة ضئيلة لقاء إدارتها العقد، وهو المال الذي لفت انتباه الخزانة عندما راكم فائضاً ليس بالقليل. وقد كان لذلك الفائض أهمية بالغة عندما وقّعت بريطانيا معاهدة أوتاوا الخاصة بالأسلحة الانشطارية(*)، وهي المعاهدة التي أثّرت في JP233، وهو سلاح يمنع استخدام المطارات جرى حظره بموجب الاتفاقية(**). وكان سلاح JP233 قد بيع بصورة شرعية لسلاح الجو الملكي السعودي لكن المملكة العربية السعودية لم توقّع الاتفاقية. وقد أحدث ذلك مشكلة، إذ لو دعم المهندسون البريطانيون سلاح JP233 السعودي، كما ينص عقد "اليمامة"، فمن المحتمل أن يعاقبوا بالسجن لدعمهم بلداً ينتهك الاتفاقية التي وقعتها بريطانيا. وخمّن إدواردز أن بندر ساعد على ترتيب الصفقة بحيث اشترت بريطانيا JP233 من المملكة العربية السعودية واستردّته، وتم تدمير هذه الأسلحة واستُبدلت بها قنابل

(*) بدأ في 1 مارس 1999 سريان مفعول اتفاقية أوتاوا لحظر استخدام وتخزين وإنتاج ونقل الألغام المضادة للأفراد وتدميرها، وهو الاسم الذي أصبح يعرف فيه هذا البروتوكول. وقد وقع الاتفاقية نحو ثلاثة أرباع دول العالم وأصبحت نافذة بصورة أسرع من سرعة نفاذ أي اتفاقية عالمية أُخرى متعددة الأطراف. تضمّ الدول الموقعة كل دول نصف الكرة الأرضية الغربي ما عدا الولايات المتحدة وكوبا، وجميع دول الناتو باستثناء الولايات المتحدة وتركيا.

(**) طوّر سلاح منع استخدام المطارات "هانتنغ JP233" الذي ينشر قنابل صغيرة كوسيلة لتدمير مطارات حلف وارسو ومنع إصلاحها. وكان حاضن هذا السلاح مكوّناً من قسمين، كل منهما يحمل ذخائر مختلفة: يحمل القسم الخلفي سلاح SG357 المضاد للمدارج، وهو يخترق سطح المدرج قبل أن ينفجر ويحدث حفراً. ويحمل القسم الأمامي الألغام HB876 التي تنتشر حول المساحات المتضررة لتشكل خطراً على فرق إصلاح المدارج. وقد حُظرت الذخائر المصغرة JP233 لاحقاً بموجب بروتوكول أوتاوا، الذي يمنع استخدام الألغام الأرضية. وجرى استخدام هذا السلاح في حرب الخليج في الدور المعد له وفي مهاجمة المطارات، واستخدمته الطائرات الضاربة "تورنيدو" بكثرة لتعطيل عمل الحقول الجوية العراقية يمكن تثبيت سلاحين من هذا النوع بطول 6.5 أمتار في أسفل الطائرة "تورنيدو". بيد أن الضربات الجوية كانت على مستوى منخفض، الأمر الذي عرض أطقم الطائرات "تورنيدو" للخطر الشديد.

"بيفواي" (Paveway)(*). وقد وفّرت هيئة مبيعات الصادرات الدفاعية تكاليف تلك العملية باستخدامها فائض العمولات المحصّلة على مر السنين.

جعلت صفقة "اليمامة" التي فاوضت السيدة تاتشر بشأنها "بريتيش إيروسبيس" المتعهّدة الرئيسية لتأمين أي معدات عسكرية أخرى تشتريها المملكة العربية السعودية. ويقول إدواردز: "كانت صفقة اليمامة جزءاً لا يتجزأ من دعم سلاح الجو السعودي بأكمله لأنّه لا يدعم الطائرات البريطانية فحسب وإنما الطائرات الأميركية أيضاً". ويشدّد على أن ذلك جعل هيئة مبيعات الصادرات الدفاعية و"بريتيش إيروسبيس" تقدمان الدعم إلى جميع الطائرات السعودية، برنامج "درع السلام" (Peace Shield)، وكل ذلك يموّل من خلال "اليمامة"(**). وختم إدواردز بالقول: "بعبارة أخرى، على مر السنين انحرفت قيمة هذا السيل من الدخل وما تُستخدم من أجله قليلاً إلى أمور مختلفة عما كان مقدّراً لها في الأصل"[31].

كان يمكن أن يصبح عقد "اليمامة" طريقة غير مباشرة لشراء أسلحة أميركية للمملكة على نحو مستتر؛ أي عمليات شراء معدات عسكرية غير ظاهرة للكونغرس. وقد أعدّ تحديداً لتتوفر درجة فريدة من المرونة بحيث يستطيع السعوديون شراء معدات عسكرية بموجب ترخيص هيئة مبيعات الصادرات الدفاعية و"بريتيش إيروسبيس".

إن تنوع "اليمامة" البارع، إلى جانب تكتّم الحكومة البريطانية ومقاربتها الليبرالية لصفقة مالية فريدة، قاما إلى حدٍّ كبير على ضمان الاحتياطات النفطية السعودية الهائلة، يمكن أن يفسّر الثقوب السوداء المالية التي افترضت وسائل الإعلام المشكّكة أنها دليل على وجود عمولات. وتستند كثير من مزاعم الصحافة إلى تناقضات كبيرة في ثمن المعدات العسكرية. على سبيل المثال، قد يكون ثمن 10 مروحيات كذا، لكن عند التدقيق في الميزانيات العمومية يتضح أن مبلغاً أكبر بكثير قد أنفق في تلك السنة المالية. وذلك يثير السؤال التالي: "إلى أين يذهب المال؟". لذا افترضت الصحافة التي تركت

(*) القنبلة "بيفواي الموجَّهة بالليزر هي أساساً قنبلة عامة الأغراض زنتها 1000 رطل، ولها رأس باحث مثبت في المقدمة وزعانف توجيه متحركة في الذيل. تسمى أحياناً سلاحاً "ذكياً" بسبب حزمة التوجيه الدقيق.

(**) برنامج "درع السلام" نظام دفاع جوي بإدارة أميركية للقيادة والسيطرة والاتصالات في كل أنحاء المملكة لصالح سلاح الجو الملكي السعودي. وهو برنامج بالغ الأهمية في مجال الدفاع عن المملكة العربية السعودية.

تنسج استنتاجاها، وجود صندوق عربي ضخم للمصاريف السرية. وهناك تفسير آخر مفاده أنّه على الرغم من أن البريطانيين باعوا السعوديين 10 مروحيات بمبلغ محدد، فإنهم اشتروا أيضاً، بالنيابة عن المملكة العربية السعودية، معدات تكنولوجية وعسكرية من بلدان أخرى.

ومع أن صفقة "اليمامة" تشكل طريقة غير تقليدية للغاية لأداء الأعمال، فإن نتائجها الفرعية المربحة هي المنتجات الثانوية لهدف سياسي تماماً: الهدف السياسي السعودي والهدف السياسي البريطاني. فعقد "اليمامة" أولاً وقبل كل شيء، عقد سياسي. وقد جرى التفاوض بشأنه في أوج الحرب الباردة، ومكّنت بنيته الفريدة السعوديين من شراء أسلحة من مختلف أنحاء العالم، لتمويل القتال ضد الشيوعية. ويمكن إيجاد أموال اليمامة في مشتريات سرية لأسلحة روسية استُخدمت في طرد قوات القذافي من التشاد. ويمكن أيضاً تتبّعها إلى أسلحة اشتريت من مصر وبلدان أخرى وأرسلت إلى المجاهدين في أفغانستان لمقاتلة قوات الاحتلال السوفياتية.

كانت المنافع الاستراتيجية لصفقات "اليمامة" من خارج الميزانية العمومية حاسمة بالنسبة إلى الدفاع عن المملكة العربية السعودية وحمايتها. ويمكن القول إنّ مرونتها التامة ضرورية بسبب المعارضة المحتّمة في الكونغرس لمشتريات المملكة من الأسلحة. وقد أوضحت مصادر قريبة من بندر أنّه "إذا أراد السعوديون كدولة، مثلاً، شراء 10 مروحيات سوبر بوما، وموازنة وزارة الدفاع كذا، سيصدر عن وزارة المالية أن هذه هي مخصصاتك لهذه السنة. وهذا يعني أن على وزارة الدفاع تأجيل الشراء إلى السنة التالية". وفي العادة، يسبب التأجيل بعض المصاعب، لكن عندما يدخل الكونغرس المعادلة كعنصر مؤثّر، يصبح الوقت فجأة ذا أهمية قصوى. وتُظهر تجارب ماضية أن أي تأخير يمنح أيباك الوقت لتنظيم حملة ضد الصفقة.

تحايل اتفاق المقايضة بالنفط على مثل تلك الإجراءات البيروقراطية. "فما يفعله عقد اليمامة، لأنّه نفط مقابل خدمات، هو القول: حاضر. اليمامة تدفع المطلوب؛ المملكة العربية السعودية توقّع مع الفرنسيين أو مع أي طرف آخر، وبريطانيا تدفع إليهم بالنيابة عنها. وهكذا أصبح فجأة لدى السعوديين نظام أسلحة عملاني يقدّم دعماً لا يظهر في اليمامة كمشروع. لذلك، إذا أراد السعوديون بعض الخدمات من الأميركيين، أو بعض أنظمة الأسلحة التي يتعين عليهم شراؤها الآن، وإلا اعترض

علـيها الكونغـرس لاحقاً، ولا يمكنهم الحصول عليها من موازنتهم الدفاعية الحالية، عندئذ يطلبون من اليمامة تحويل ذلك المال".

جـرى الكشف عن أن الطائرات الأولى التي أعطيت إلى السعوديين أتت مباشرة من مخزون سلاح الجوّ الملكي البريطاني، ما يدلّ بعمق على رغبة الحكومة البريطانية في تـأمين صـفقة "اليمامة"، حتى على حساب قدرتها العملانية. ومن الواضح أن رئاسة الـوزراء كانت ترى أن الصفقة السعودية مهمة جداً بحيث يمكن القبول بإضعاف قوة سلاح الجو الملكي البريطاني الأساسية. "لقد درّبوا الطيارين السعوديين وكادراً صغيراً مـن الفنيين، وبعد أشهر قليلة بدأت طائرات تورنيدو الأولى طلعاتها العملانية في سماء المملكة. وتم توقيع العقد بعد ذلك ببضعة أشهر، بعد انتهاء التفاوض حول التفاصيل". وقـد لعـب الموقف البريطاني من الصفقة دوراً مهماً في القرار السعودي. "كان ذلك سـبباً آخـر لتوجّه الحكومة السعودية إلى البريطانيين، لأنهم كانوا مستعدين للتنفيذ، والتحرّك بسرعة، ولأن يكونوا حاضرين".

كانـت "الـيمامة" اتفاقاً طوباوياً، كسب كل من شارك فيه، لكن المملكة العربية الـسعودية كانت الرابح الأكبر. فقد أصبح الآن في الإمكان تلبية الحاجات العسكرية من دون موافقة الخزانة السعودية، وأصبح في الإمكان شراء أسلحة أميركية بمعرفة الكونغرس.

مـن المؤسـف أن تضطر المملكة العربية السعودية إلى اللجوء إلى هذه الذريعة للـتحايل علـى الكونغرس. وقد شدّد بندر على قيمة العلاقات التجارية بين الأمم، فقـال: "إذا تفحّصت التاريخ، تجد أنّ العلاقات التي قامت بين الأمم وخلت من أي عنـصر تجاري لم تدم أكثر من عشر إلى خمس عشرة سنة في المتوسط ثم انهارت. وأنّ العلاقـات بـين الأمـم الـتي توجد فيها جوانب تجارية قوية دامت قروناً. فالمصالح التجارية، وبخاصة إذا كانت في الاتجاهين، تدفع كل طرف إلى حماية تلك العلاقة بغية تحسينها، وتنميتها وغير ذلك. وإذا لم يكن لديك شيء تحميه، فسينهار كل شيء مع أول ريـح تهـبّ. لـذا، فإننا نتطلّع إلى اللحظة التي تجتمع فيها الحاجات العسكرية والـسياسية والتجارية في نقطة واحدة". من الواضح أن هذه الرسالة القوية من بندر تـدعّم العلاقة بين المملكة العربية السعودية والمملكة المتحدة، التي شهدت نشوء أول روابـط تجارية سليمة في الستينيات. بالمقابل، في حين فضّلت المملكة العربية السعودية الـولايات المتحدة دائماً كمتعهّدة رئيسية للمشتريات العسكرية، ولم تدخّر جهداً في

تطوير العلاقة الثنائية معها، فقد أحدثت معارضة العقود في الكونغرس هزات زعزعت أسس العلاقة من حين إلى آخر.

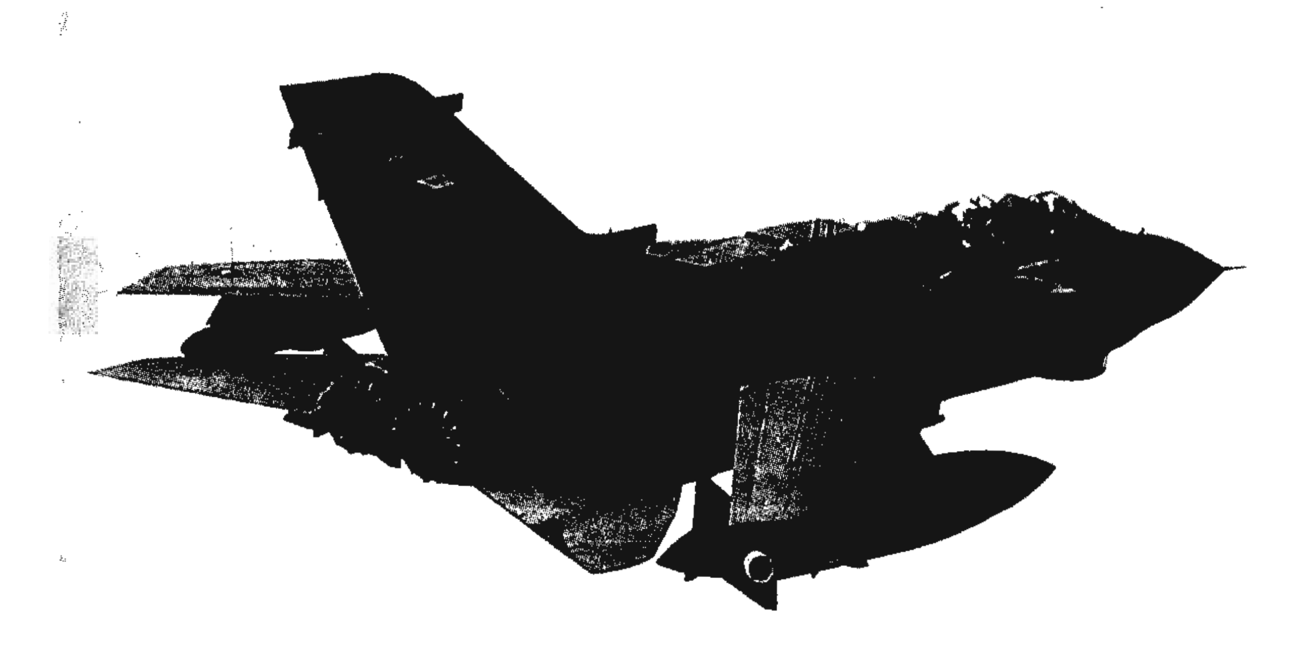
ثمـــة نقطة ختامية تتعلّق بعقد "اليمامة" ويوضحها بندر بجلاء شديد. فهو يعتقد اعـــتقاداً راســـخاً أنّ المملكـــة العربية السعودية عندما شاركت في حرب 1991 ضد العراق، إلى جانب الولايات المتحدة وحلفاء آخرين، كانت القدرات الضاربة لسلاح الجـــو الملكي السعودي ذات أهمية كبيرة بالنسبة إلى المساهمة السعودية ونتيجة الحرب. فقـــد كانت طائرات "تورنيدو" في قلب الهجوم. والأمير مقتنع أن طرد صدام حسين مـــن حقول نفط الكويت، وإزالة الوجود العراقي الخطر عن حدود المملكة يدحضان كل مزاعم الفساد التي نتجت عن "اليمامة".

في الـــنهاية، عقدت المملكة العربية السعودية صفقة الأسلحة مع المملكة المتحدة لـــتأمين الـــدفاع عـــن نفسها. وعندما جدّ الجد، وتعرّضت المملكة للتهديد، قامت طائرات "تورنيدو" بما هو مطلوب منها في سلاح الجو الملكي السعودي.

شـــهدت ســـنة 1985 تطـــورات بالغة الأهمية في الشرق الأوسط. ففي الحرب الإيـــرانية العـــراقية، أخذ الجانبان يتبادلان القصف بالصواريخ بصورة عشوائية في ما عُرف بحرب المدن. وفي وصف لتلك الفترة، أوضح بندر أن الإيرانيين كانوا يهاجمون بغـــداد، والعـــراقيين يهاجمون طهران. وفي الوقت نفسه تقريباً، أعطى الروس اليمن الجنوبـــــي صـــواريخ "سكود"، ودخل الروس والكوبيون الصومال وإثيوبيا وعدن؛ فأصبحت المملكة العربية السعودية محشورة من كل جانب.

يمكـــن أن تنـــبع الـــرغبة في اقتناء صواريخ بالستية من حاجة سياسية أو حاجة عـــسكرية، وهي تمنح البلدان التي تمتلكها مكانة استراتيجية حتى لو لم تطلق البتة. وفي منتـــصف ســـنة 1985، كان هناك على الأقل تسعة بلدان أخرى في الشرق الأوسط تمتلك قوى صاروخية؛ بل إنّ دولاً صغيرة مثل اليمن الجنوبـــي والكويت كانت لديها صواريخ[32]. أمّا المملكة العربية السعودية، فلم يكن لديها أي منها.

بعد رسالة ريغن إلى الملك فهد أنه لم يستطع تأمين طلب المملكة طائرات F-15 وصواريخ "لانس" سنة 1985، وجّه فهد تعليمات مختصرة إلى بندر "اجلبها من مكان آخر". لكن من أين؟ البلد الوحيد الذي كان بندر يعرف أنه يبيع مثل هذه الأسلحة، فضلاً عن روسيا، هو الصين.



تورنيدو المقاتلة الضاربة القاذفة التي اشترتها السعودية باسم اليمامة

منذ اندلاع النزاع الإيراني العراقي، كانت الصين تزود العراق بالأسلحة. وبحلول سنة 1983، اقتربت قيمة صفقات الأسلحة الصينية العراقية من 3.6 مليارات دولار. ودعماً للعراق الذي كان حليفاً لها في ذلك الوقت، منحت المملكة العربية السعودية الصين حق دخول أراضيها كطريق غير مباشر لتسليم أسلحة صينية إلى العراق[33]. غير أنّ الصين كانت تبيع أسلحة لإيران أيضاً بحلول سنة 1985.

ربما يفهم السعوديون أكثر من غيرهم أنّ المصالح القومية هي التي تملي أفعال أي بلد، لذا سرعان ما أدركوا أنّ ما من قوة أو حجة تستطيع ردع الصين عن بيع أسلحة لإيران. فالأمر كله يتعلّق بالاقتصاد والسياسة. وهكذا وجد بندر فرصته. وقد أوضح ذلك بقوله: "قصدت وزير الخارجية جورج شولتز وسألته، *هل من مانع إذا توجّهنا إلى الصين وقدّمنا إليها عرضاً لا يمكنها أن ترفضه؟* وهو أننا سنشتري جميع الأسلحة التي تنوي بيعها لإيران ونعطيها إلى العراق". استحسن شولتز الفكرة ووفّر، من دون أن يدري، الغطاء الذي كان بندر بحاجة إليه ليذهب إلى الصين ويتعامل معها. لقد نجح الأمير في الواقع في توظيف "عملية المشعل" – وهي عملية أميركية سعودية معدّة لوقف تدفّق الأسلحة على إيران – كذريعة لحجب تقرّبه من الصينيين كي يحصل على ترسانة من الصواريخ البالستية الصينية "DF-3A دونغفينغ" (أو "الريح الشرقية")، المعروفة في الغرب باسم CSS-2. ولم يخل الموقف من شيء من المفارقة، كما حرص

بندر على القول: "جئت وطلبت من أصدقائنا، الأميركيين، صواريخ، صاروخ أرض - أرض مداه 80 ميلاً واسمه لانس. لكن طلبنا رُفض لأنه يشكل خطراً على جهة ما [إسرائيل]. لذا ذهبنا وحصلنا على صاروخ مداه 1600 ميل. فهل يشكل ذلك خطراً أم لا؟"[34].

قرر بندر مفاتحة السفير الصيني في واشنطن، على الرغم من عدم وجود علاقات دبلوماسية بين المملكة العربية السعودية والصين واعتراف المملكة بتايوان بشكل صريح. اعترف بندر أنّ "السفير أصيب بالدهشة قليلاً". وبعد شهر بدأ الحوار بين الصينيين والسعوديين. اقتُرحت أسماء العديد من الأماكن لعقد اللقاء، منها بيجنغ والرياض. وفي النهاية اقترح السعوديون باكستان، وقُبل الاقتراح. واتفق بندر والسفير الصيني على أن يكون غطاء لقائهما صفقة بيع مواد بتروكيميائية، واصطحب الأمير وفداً كبيراً ضم اختصاصيين في البتروكيميائيات من الشركة السعودية الأكبر "سابك". وخلف هذا الستار، التقى السعوديون بالصينيين مرتين.

عندما قال بندر لنظيره الصيني إن هدفه شراء صواريخ أرض - أرض للمملكة والأسلحة التي كان الصينيون يبيعونها لإيران، أوضح الممثّل الصيني، وزير الشؤون الخارجية، أن عليه التشاور مع قيادته. وأصبحت المشكلة بعد ذلك كيفية نقل الجواب إلى بندر. كان الوقت في غاية الأهمية والاتصالات الآمنة صعبة. أبلغهم بندر: "لا يمكنني الانتقال إلى باكستان كلما أردتم إجراء محادثات". أخيراً، تمّ الاتفاق على أنّه إذا أبلغ السفير الصيني في واشنطن بندر: "أنتم مدعوّون إلى بيجنغ". فذلك يعني أنهم مهتمون. لكن إذا أبلغ بندر "أنّ الوقت غير مناسب للمجيء إلى بكين". فذلك يعني أن الصفقة لن تتم.

وما لبث بندر أن تلقى دعوة إلى زيارة بيجنغ.

عند وصول الأمير إلى بيجنغ، ماراً بهونغ كونغ أولاً، نُقل مباشرة إلى بيوت الضيوف الرسميين. وطُلب من أعضاء وفده ألا يفتحوا الستائر كيلا يشعر أحد بوجودهم. لكن في صباح اليوم التالي، فتح بندر الستائر لينظر إلى الحديقة. وكم كانت دهشته كبيرة حين رأى سيارتين تتوقّفان أمام الفيلا المجاورة. كان وفداً إيرانياً يعتمر أعضاؤه العمائم. كان بندر يعلم بطبيعة الحال أن الإيرانيين يحصلون على أسلحة من الصينيين، لكن رؤيته العمائم في الجوار هي الأمر المثير للمخاوف.

تـضمّنت مفاوضات بندر الأولية استجواباً مركّزاً. فقد سئل مراراً: "كيف تجرؤ على أن تطلب منا بيعكم أسلحة وأنتم لا تزالون تقيمون علاقة مع تايوان ولا تقيمون علاقة معنا؟".

كانـت الـسياسة في أواخر القرن العشرين تعني أنّ التعامل مع الصينيين يستتبع استبعاد أي علاقة مع تايوان، إذ لا يمكن إقامة علاقات مع كلا البلدين. مع ذلك على الـرغم من عناد الجمهورية الشعبية، فإنّ بندر ردّ بصراحة بالإجابة الوحيدة الصائبة. توجد لدى المملكة العربية السعودية حاجة لم تستطع تلبيتها في مكان آخر. والخياران الوحـيدان هما الاتحاد السوفياتي أو الصين. والمملكة العربية السعودية تثق بالصين أكثر من ثقتها بالاتحاد السوفياتي.

قال بندر للصينيين: "الحاجة تعني فرصة وهي تتوقّف على اتساع الرؤية لديكم. إذا كنتم تنظرون إلى الأمر من زاوية أنه عين بعين، فإنّني أعتقد عندئذ أنكم لا تريدون الاتفـاق، وسأضطر إلى الرحيل. ينبغي أن تنظروا إلى الأمر على أنّه فرصة؛ والصديق وقـت الـضيق". وألمح بندر إلى أن الاستجابة لهذه الحاجة ومساعدة المملكة العربية الـسعودية، قـد تمهدان لحدوث تطوّرات أخرى. لكنه أصرّ على القول إنه لا يملك صلاحية بحث أي أمر ما عدا موضوع الأسلحة.

وبعـد ذلـك لجـأ بـندر إلى التكتيك إزاء المشكلة العويصة ظاهرياً، أي مـشكلة العلاقـات الـسعودية مـع تايوان، وهو تكتيك لطالما استخدمه على المـستويين الرسمـي والشخـصي طوال عمله الدبلوماسي. فقد سأل الأمير بندر مـضيفه الـصيني: "إذا بعـنا أصـدقاءنا بثمن بخس، فلماذا تريدون أن تكونوا أصدقاءنا؟".

أشـار بندر الآن إلى الصفقة المنفصلة بقيمة عدّة مليارات دولار التي تريد المملكة عقـدها مـع الصين لتغيير وجهة السلاح من إيران إلى العراق، وقال: "بالمناسبة، أود شـراء مـا قيمـته مليارا دولار من الأسلحة التي تنوون إرسالها إلى إيران". وأوضح لمـضيفيه أنـه إذا وافق الصينيون على هذا العرض، فإنهم سيساعدون بذلك المملكة العربية السعودية والعالم العربـي بأسره. وشدّد أيضاً على أن الأميركيين والبريطانيين سـيكونون سعداء بالاتفاق. وختم: "يضاف إلى ذلك أنكم ستجنون منه عملة صعبة ونتائج سياسية طيبة، لذا يربح الجميع".

بعـد صـمت مديـد دام عشر ساعات، طُلب من الأمير مقابلة رئيس الوزراء الصيني، جاو زيانغ. في ذلك الوقت كان الرئيس تشاو بنغ شديد الحرص على سياسة عـدم التحالف الصينية ومبادئ التعايش السلمي الخمسة(*)، ما جعل الأمير يبذل مجهـوداً كبيراً لتأكيد موافقة المملكة العربية السعودية على تلك المبادئ. وأثبت بندر حجـته بتوضـيح موقـف المملكة غير العدواني، وشرح الدور الردعي الذي ستلعبه الصواريخ.

ومـع ذلـك بقيت قضية تايوان ماثلة، وكان لا بد من مواجهتها. فاتخذ بندر موقـف الهجوم، مشدداً على أن الصفقة، إذا تمت، فستعزّز إمكانية تحسين العلاقات الـصينية الـسعودية. غـير أن رئيس الوزراء بقي على عدم اقتناعه، وكرّر أن الصين رفضت تطبيع علاقتها مع أميركا ما لم تقطع الولايات المتحدة علاقتها مع تايوان.

وافـق بندر على أنّ الصين أصابت بما فعلته لأن الولايات المتحدة والصين قوتان عظميان، وأوضح أنّ المملكة العربية السعودية بلد صغير، وليست قوة عظمى ولا دولة معاديـة. وعلّل موقفه بوجوب عدم قياس المملكة بالمعايير نفسها، وختم بالقول: "في النهاية أعتقد أنكم فعلتم عين الصواب مع أميركا، لكن التعامل معنا مختلف".

مـن الواضح أن هذا القول أثار إعجاب الصينيين. فقد أُبلغ بندر أن الرئيس تشاو بنغ وافق على الصفقة شخصياً. وقيل له إن الصين تحترم المملكة العربية السعودية وتـريد التعامل معها تجارياً ما دامت تأخذ المملكة في الحسبان أن الصينيين يأملون في تطبـيع العلاقـات وأن ذلـك سـيؤثّر في علاقة المملكة مع تايوان في الوقت المناسب.

انتابت بندر حالة من الذهول والوجوم. وقفل عائداً إلى المملكة العربية السعودية علـى عجـل لإطلاع الملك فهد على ما جرى. وكان الملك فهد قد طلب من بندر، عندما أمره في أول الأمر بالحصول على الصواريخ للمملكة، ألاّ يخبر الأميركيين، وألا يكذب عليهم أيضاً. وبموافقة الملك فهد، أطلع بندر وزير الخارجية شولتز على الاتفاق الذي ستشتري المملكة بموجبه أسلحة صينية كانت متجهة إلى إيران. ويصرّ بندر على

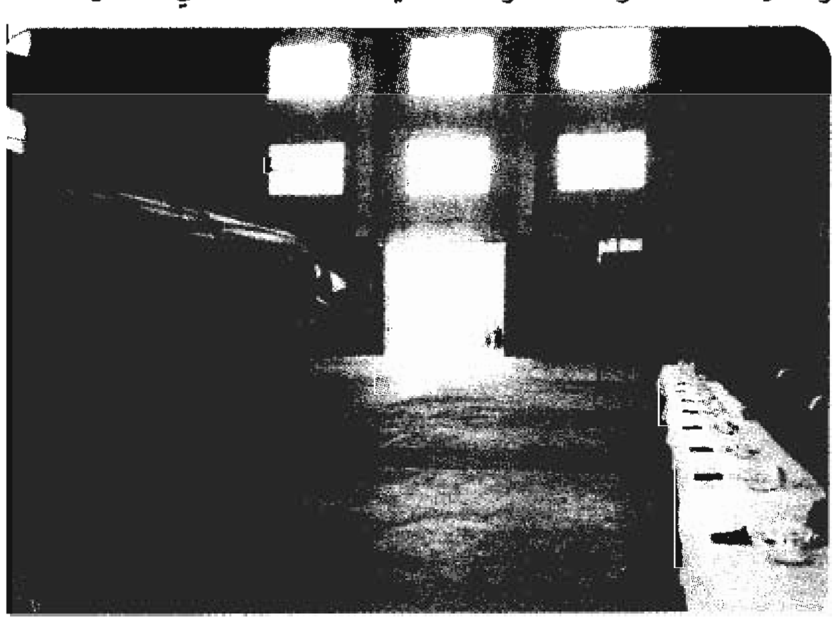
(*) مبادئ التعايش السلمي الخمسة التي تتفق مع سياسة عدم الانحياز هي: الاحترام المتبادل لسلامة الأراضـي وسـيادتها، وعـدم الاعـتداء المتبادل، وعدم التدخل في الشؤون الداخلية لبلد آخر، والمساواة والمنفعة المتبادلة، والتعايش السلمي.

القول إنه لم يكذب على أصدقائه الأميركيين؛ لقد قال لهم ما كان ينوي أن يفعله [شراء أسلحة وجهتها إلى إيران] وهذا ما فعله. لكنه أغفل أي ذكر لشراء صواريخ أخرى لحساب المملكة العربية السعودية.

وفي حين أن بندر لم يكن بحاجة إلى مساعدة من خبراء عسكريين لضمان شراء الأسلحة المعدّة لإيران من دون صعوبة تذكر، فقد كان بحاجة إلى مساعدتهم على أعمال التقويم والتفاوض بشأن الصواريخ الخاصة بالمملكة العربية السعودية. ومخافة أن يثير حضور خبراء عسكريين سعوديين انتباه الولايات المتحدة إلى الخطط السعودية، استبق بندر الأمر وأبلغ الأميركيين أنه بحاجة إلى خبير بالدفاع الجوي وخبير آخر بالمدفعية ليساعداه على شراء صواريخ معدّة للذهاب إلى إيران. فوافق الأميركيون على طلبه بسرعة.

وفقاً لبندر، كانت زيارته الثانية إلى الصين شبه علنية، بمعنى أنه ذهب مع وفد البتروكيميائيات وأمضى ثلاثة أيام في زيارة مصانع ومنشآت بتروكيميائية، وتلقي شروح موجزة. وفي نهاية المطاف، أُخذ مع الضابطين الاختصاصيين لمشاهدة "تماثيل المحاربين الفخّارية". وهناك فقط استطاعوا بحث موضوع الصواريخ.

مضت ساعات من المفاوضات مع عسكريين صينيين تبين خلالها لبندر أن الصينيين لا يملكون صواريخ قصيرة المدى أو صواريخ معادلة لصاروخ "سكوَد". كانت لديهم صواريخ متوسطة المدى. وقد أذهلته أحجامها الكبيرة. لكن الحجم كان أقل ما فيها. لقد وجد الأمر غامضاً ومخيفاً، ويكاد يكون سريالياً، "كنت وسط ضباط وجنرالات شيوعيين، وأنا الذي أمضيت حياتي أحارب الشيوعية".



صواريخ CSS-2 البالستية

اتّضح لبندر وفريقه خلال تلك الاجتماعات أن الصينيين صمّموا هذا النوع من الصواريخ لحمل رؤوس حربية نووية. ويؤكّد بندر أنّهم دفعوا إلى الصّينيين أموالاً كي يعدّلـوا الصاروخ ليحمل رأساً حربياً تقليدياً. وهكذا، حوّل الصينيون صاروخاً نووياً إلى صاروخ تقليدي.

عـندما انتهت المفاوضات، كان على بندر معالجة مشكلة إيصال الصواريخ إلى المملكة العربية السعودية. فقد كان يجب نقلها وتخزينها من دون علم الأميركيين، ومع ذلـك علـى الأمـير في الوقت نفسه تلبية طلب الملك فهد الصريح بألا يكذب على الأميركـيين. فالـسعوديون يدركون أن ردّ الفعل الأميركي على خبر قيام السعوديين بعقد صفقة مع الصينيين سيكون عنيفاً.

اتُّخـذ القـرار بعـدم الإعـلان عن الصفقة إلا بعد إتمام تركيب الصواريخ في الـصحراء علـى نحو آمن. وعندئذ هُيِّئت مناسبة إعلامية يعلن فيها الأمير سلطان أن الملـك قام بزيارة القوة الصاروخية الاستراتيجية التي تم الحصول عليها. كان التوقيت هو الأهم. وتقتضي الحكمة ألا يذاع خبر شراء الصواريخ إلا بعد نشرها في مواقعها. وسيتم الإيضاح أن الصواريخ مصمّمة لتشكيل قوة ردع رئيسية، تساهم في السلام في المنطقة؛ فلن يجرؤ أحد على مهاجمة المملكة إذا علم أن صواريخها تستطيع الوصول إلى أي مكـان رداً علـى ذلك. وكان بندر واضحاً في هذا الصدد، "هذه قيمة السلاح الحقيقـية، فـإذا لم يكـن أحد يعرف شيئاً عن وجوده فإنّه لن يشكّل رادعاً، ونحن بالتأكيد لا نريد استخدامه لتوجيه ضربة أولى".

بعـد شراء الصواريخ، بقيت مسألة جوهرية: كيف يمكن بناء الصوامع الضخمة اللازمة لتخزين الصواريخ في وسط الصحراء من دون إثارة شكوك الأميركيين؟ توصل بندر إلى حيلة بارعة: ذكّر الأميركيين أن أضخم مستودعات الأسلحة السعودية قريبة مـن الـرياض. ثم أوضح أن الملك فهد يخشى خطر وقوع مستودع الأسلحة في أيد شريرة في حال حدوث انقلاب عسكري ما. لذا، تقرّر نقل المستودع إلى أبعد مكان ممكن عن الرياض. ورأى الأميركيون أن القرار حكيم جداً ويسعدهم أن يؤيدوه.

ولـمّـا كان من المتوقّع أن يتطلّب تركيب الصواريخ مجيء عدد كبير من الصينيين إلى المملكـة، فقـد كان على بندر أيضاً اختلاق ذريعة لوجودهم. ففاتح الأميركيين مجدداً أنه للتثبّت من عدم تراجع الصينيين عن وعدهم بألا يبيعوا أسلحة لإيران، رأت

المملكة أن تعرض عليهم عقد بناء مستودع الأسلحة الجديد. وعلّل ذلك أنّ العملة الصعبة الإضافية والاستثمار الذي سيحصلون عليه ببناء هذه المنشأة سيساعدان على توطيد دعمهم. ومرة أخرى، لم يكن لدى الأميركيين أي اعتراض، وأكّد بندر أنّه عند بناء المجمّع، فإنه سيحتوي بالتأكيد على مستودعات للذخائر؛ وهكذا لبّى المعايير الصارمة للملك فهد بقول الحقيقة، لكن ليس كل الحقيقة.

كانت الأقمار الاصطناعية الأميركية تشكّل أكبر تهديد بانكشاف الأمر. عندما تمّ تكليف بندر بتحديد المقياس الزمني لمدار أي قمر اصطناعي، أقرّ أنّ المهمة تنطوي على خطر انكشاف ما كان السعوديون يفعلونه، ولم يكن في وسعه تعريض حكومته لتهمة التواطؤ في عملية تجسس. فتوجّه إلى مصادر معلوماته في وكالة الأمن القومي الأميركية، وجعلها تصدق أن العراق مرّر إلى المملكة العربية السعودية معلومات حول تعزيزات إيرانية في جنوب العراق، بين الكويت والبصرة. وبحجّة الحاجة الملحة إلى تأكيد صحة هذه المعلومات بما يمكّن من اتخاذ قرار بتقوية القوات السعودية في تلك المنطقة، قال للعملاء أن الرياض في غاية القلق وتطلب المساعدة الأميركية على نحو عاجل.

أبلغت وكالة الأمن القومي بندر أنه سيحصل على المعلومات في اليوم التالي. لكن بندر أصرّ على ضرورة تلقّي المعلومات على الفور. وعندما أجيب طلبه بالرفض، تظاهر بالخشية من أن تظن الرياض أن عدم حصوله على معلومات استخبارية من الأقمار الاصطناعية يعني أن الوكالة تخفي شيئاً عنها. فإيران في النهاية عدو مشترك.

نجحت الخدعة. وسرعان ما أوضح أحد عملاء الاستخبارات أن "سبب وجوب الانتظار إلى يوم غد لا علاقة له البتة بقوة تصميمنا على مساعدتك، لكن وصول أقمارنا إلى فضاء ذلك المكان يستغرق 12 ساعة، وها هي قد وصلت، لذا نحتاج إلى 12 ساعة أخرى، يُضاف إليها وقت تنزيل البيانات". وبعد أن شكره بندر على صدقه، سارع إلى إرسال المعلومات إلى الرياض.

وبفضل هذه المعلومات المتعلقة بالأقمار الاصطناعية الأميركية، استطاعت المملكة إبقاء موضوعي حيازة الصواريخ الصينية وتسلّمها طي الكتمان مدة سنتين تقريباً، وهو إنجاز لا يستهان به لأي بلد، وبخاصّة البلد الذي للولايات المتحدة فيه مثل هذه الامتيازات. غير أن السر ذاع في 4 مارس 1988، حين نشرت صحيفة "واشنطن

بوســت" أن المملكــة العربية السعودية اشترت صواريخ بالستية صينية CSS-2 يزيد مــداها على 1500 ميل، وأن الصواريخ قادرة على حمل رؤوس حربية نووية. وهكذا أصبح بندر، مهندس تلك الصفقة، في وضع صعب.

انكشف أمر الصواريخ بعد أن تعطلت إحدى شاحنات النقل السعودية، إذ أدى العطــل إلى حالة من الارتباك أُرسلت خلالها قوة أمنية لحماية الشاحنة. ولفتت حركة تلــك القوة انتباه محلّلين يدرسون صور الأقمار الاصطناعية. وعند مطابقة تلك الصور مــع قاعــدة بيانات أميركية، اتضح سريعاً أن ما رأوه كان صاروخاً صينياً من طراز DF-3.

كانــت نصف الصواريخ التي طُلبت من الصينيين قد وصلت فعلاً إلى البلد قبل هــذا الاكتشاف. وبما أنّ الولايات المتحدة لم تكن تعلم أن صواريخ DF-3 لا تحمل رؤوســاً نووية، فقد أثار ذلك حالة ترقّب كبرى لديها. فالصفقة بين المملكة العربية الــسعودية والــصينيين عُقدت فيما كانت روسيا والولايات المتحدة تتفاوضان حول اتفاقــات نهائــية للتخلص من الأسلحة النووية متوسطة المدى. وسرت في الكونغرس الأميركــي حالــة من الحرج والاستياء والغضب من الخديعة السعودية. فكتب وليام سافاير بأسلوب نقدي: "لقد صعقت صفقة الصواريخ الصينية السعودية واشنطن، التي ظــنت خطأً أن لا بيجنغ ولا الرياض ستقدمان على إحداث تغيير في ميزان القوى في الشرق الأوسط من دون مراجعة الولايات المتحدة"[35].

وممــا أثــار إحراجاً أكبر للأميركيين تورّط بندر المتعاون كلياً حتى ذلك الوقت والقــريب جداً من مدير وكالة الاستخبارات المركزية بيل كيسي. فدور الأمير، وهو الــسفير الــسعودي إلى واشنطن، في رعاية العلاقات الصينية السعودية والشروع في الصفقة من دون إعلام الولايات المتحدة كان غير عادي بقدر ما كان غير مريح داخل دائرة السياسة والاجتماع في واشنطن.

وبمــوجب القانــون الأميركي، ينبغي إبلاغ الكونغرس باكتشاف حيازة بلد ما القــدرة النووية في غضون 48 ساعة. وقد أحدث مبيع الصواريخ الصينية ذات القدرة النووية رعباً في أوساط الإدارة. وكان الوزير شولتز آنذاك خارج البلد في زيارة مهمة إلى موسكو وأوروبا والشرق الأوسط، وكان موعد عودته نهاية الأسبوع. فقرّر البيت الأبــيض بدء العد العكسي للساعات الثماني والأربعين من يوم الجمعة، حاذفاً يومي

الـــسبت والأحـــد باعتـــبارهما عطلـــة نهاية الأسبوع. وهكذا أصبح يوم الاثنين فترة الساعات الأربع والعشرين الأخيرة السابقة لموعد إبلاغ الكونغرس.

ولعـــل من قبيل المصادفة أن وزير الخارجية الصيني كان على موعد للقاء شولتز يـــوم الاثنين. وبعد أن أنهى بندر المفاوضات ونقل مسؤولية الصواريخ إلى أخيه، الأمير خالـــد، لم يعد له شأن بالصفقة. لكن، توخّياً للحيطة إزاء ذيوع نبأ صفقة الصواريخ قبل إتمام تركيبها، اتفق الأمير مع السفير الصيني على التمسّك بالعبارة نفسها: "أتفهّم قلقكم، لكن هذا شأن عسكري ولست سوى دبلوماسي. سأراجع حكومتي وآتيكم بالجواب".

يـــوم الأحد، في 6 مارس 1988، تلقى بندر اتصالاً من ريتشارد مورفي، مساعد وزيـــر الخارجية لشؤون الشرق الأوسط. قال، مورفي بإيجاز: "لدي أمر أريد مناقشته معك. هل يمكنني أن أزورك لدقائق قليلة؟".

عندما وصل مورفي ومعه زوجته وأولاده، قال بندر إنه لاحظ أن: "السفير مورفي بدا متوعّكاً ومنـــزعجاً".

سأل مورفي: "هل يمكننا التحدث على انفراد قليلاً؟".

انتقلا إلى غرفة ثانية فإذا بمورفي ينفجر غاضباً: "أسلحة نووية...!؟".

وبغـــضب، ناول الأمير مظروفاً أصفر اللون. يقول بندر: "أحسست بألم مفاجئ في معدتي!".

كان ضغط اللحظة شديداً. ويذكر بندر أنّه حدّث نفسه، فكّر، فكّر، فكّر! وفي محاولة لكسب الوقت وتذكّر ما اتفق عليه هو والسفير الصيني، تمتم بندر: "أي أسلحة نووية؟".

قـــال مـــورفي: "نحـــن صديقان منذ فترة طويلة يا بندر... فلا داعي للمداورة والخداع".

أجاب بندر بهدوء: "طبعاً لن أخدعك، عمّ تتحدّث؟".

"اسمع، نعرف أن لديكم في المملكة العربية السعودية صواريخ DF-3 ذات رؤوس نووية".

"مهلاً". قال بندر: "أتفهّم ما تقوله وسأنقله إلى حكومتي، وأطلب توضيحاً لأنّني لـــست عسكرياً، أنا دبلوماسي. لكن أستطيع أن أؤكد لك شيئاً واحداً: أياً يكن ما

تتحدّث عنه، فإن المملكة لم يكن لديها في الماضي أسلحة نووية وليس لديها في الوقت الحاضر ولا تخطّط للحصول عليها. هذا أمر يمكنني أن أؤكده لك بصورة قطعية".

عند هذه النقطة أطلع السفير الأمير على صور للصواريخ التقطتها الأقمار الاصطناعية. ومع ذلك ظل بندر متمسكاً بالعبارة التي اتفق مع السفير الصيني عليها، قائلاً: "يجب أن أتشاور مع حكومتي أولاً، وسأعود إليك".

رد موري: "حسناً، دعني أقول لك شيئاً. فيما نتحدّث نحن الآن، يتناول وزير الخارجية الصيني طعام العشاء مع الوزير شولتز الذي سيطرح عليه السؤال نفسه، لذا أمامك حتى صباح يوم الاثنين. نحن بحاجة إلى جواب قبل صباح الاثنين؛ وبخلاف ذلك فإنّ الوقت سيمضي وسنضطر إلى إبلاغ الكونغرس. آمل أن تدرك مدى خطورة هذه المسألة"[36].

لاحظ بندر لاحقاً أمام أصدقائه أنّ "السبب الذي دفعهم لتغيير موعد وزير الخارجية الصيني هو الحؤول دون أن نتحدّث معاً. لقد تعمّدوا الاجتماع بالوزير الصيني في منزل شولتز لحظة مجيء ريتشارد مورفي إلي، لكن وزير الخارجية الصيني قال العبارة نفسها بالضبط: "أنا وزير خارجية؛ عليّ أن أراجع بيجنغ، وسأعود إليكم بالأجوبة".

فور مغادرة مورفي، أجرى بندر اتصالاً هاتفياً معدّاً مسبقاً بالملك فهد، وكان الاتصال غنياً بالمعلومات، ومصمّماً في الوقت نفسه كي يصل إلى مسامع وكالة الاستخبارات المركزية. بعد المقدّمات المعتادة، قال بندر للملك بطريقة تدلّ على عدم اكتراث: "لدى أصدقائنا في أميركا تقارير أننا نمتلك أنظمة نووية في المملكة. وقد أكّدت لهم أننا لا نملك مثل هذه الأنظمة وهم ينتظرون جواباً من جلالتكم ومن الحكومة".

ساد صمت مؤقّت فيما الملك يستجمع أفكاره لمعرفة حاجة ابن أخيه قبل الرد، "أسلحة نووية! يا ليت! لكن، أبلغهم إذا كانوا راغبين في بيع أي أسلحة نووية من أجل دفاعاتنا، فسيكون ذلك موضع تقدير كبير من جانبنا وسيسعدنا التفاوض في هذا الشأن فوراً". ثم انتقل فهد إلى موضوع آخر مختلف تماماً، مضيفاً: "بالمناسبة، هناك أمر يتعلق بمصر والفلسطينيين لا بد أن أبحثه معك. لِمَ لا تأتي وتبحثه معي؟".

ما إن أعدّ الأمير طائرته للسفر فوراً حتى أبلغه مسؤولون أميركيون، بعد تحليلهم مضمون الاتصال الهاتفي، أن الرئيس يود رؤيته في صباح اليوم التالي، عند الساعة

التاسعة إلا ربعاً، أي قبل ربع ساعة من حلول موعد لقاء ريغن مع وزير الخارجية الصيني. ولم يكن في وسع بندر أن يرفض طلب الرئيس، فاتصل بفريقه وأخّر موعد سفره.

لكن تسنّى لبندر في تلك الليلة الاجتماع بالسفير الصيني.

قال بندر وهو يشير إلى صورة فوتوغرافية التُقطت صبيحة زيارته إلى البيت الأبيض للقاء الرئيس ريغن: "قال لي الرئيس ريغن، *علمنا أنكم حصلتم على صواريخ نووية. هذا أمر غير مقبول لدينا، وعلي أن أبلغ الكونغرس بمقتضى القانون. أود الحصول على جواب رسمي في هذا الخصوص، وآمل في أن تتمكّنوا من التوصّل إلى طريقة لنزع فتيل هذه الأزمة*". وأشار بندر إلى الصورة مجدداً وقال: "إذا نظرت إلى الصورة سترى أنّه كان يحمل في يده بطاقات. وكنت أنظر إلى بطاقاته، ولما كانت الأحرف كبيرة، فقد استطعت قراءتها. لذا استوقفته قبل وصوله إلى النقطة الأخيرة التي وضعها موظفوه له. وكانت كناية عن كلمة واحدة هي *وإلا!* وقد حلّ ذلك الأزمة بأكملها".

أوضح بندر: "لقد أوجزوا النقاط التي كان على الرئيس الإدلاء بها، وكانت النقطة الأخيرة: لديكم أسلحة نووية ونريدكم أن تفكّكوها أو تعيدوها أو تدمّروها. كان طلباً واضحاً، لذا رأيت بسرعة أنّني إذا استطعت أن أوقفه قبل وصوله إلى تلك النقطة الأخيرة، فسأحول عندئذ دون الاضطرار إلى نقل إنذار قويّ إلى الملك فهد وأحصل على فرصة أيضاً لتلقّي تعليمات من حكومتي. لذا، حين رأيته يقترب من هذه النقطة الأخيرة، قلت، *سيدي الرئيس، هل لي أن أقاطعك لحظة؟* فكان لطيفاً للغاية بحيث توقّف وقال *أجل*".

أوضح بندر أنّ الملك فهد حصل على الصواريخ الصينية بغية الردع فقط وقال: "يمكنني أن أطمئنك بصورة جازمة إلى أن المملكة لا تمتلك صواريخ نووية". ثم سأل الأمير الرئيس إذا كان في وسعه العودة إلى المملكة العربية السعودية بحيث يأتي برسالة من الملك فهد تؤكّد أن المملكة لا تمتلك أسلحة نووية.

لم يكمل الرئيس القراءة، بل أبدى ملاحظته التالية: "حسناً، لا أظن أننا نريد أكثر من ذلك من أصدقائنا".

وفيما كان بندر والرئيس يتصافحان، تدخّل الوزير بيكر قائلاً: "سيدي الرئيس، عليّ التشديد على شيء واحد. نحن أصدقاء منذ أمد بعيد أيها الأمير بندر، وهذا أمر خطير جداً جداً".

"أفهــم ذلــك". أجاب بندر: "ولهذا السبب سأغادر على الفور إلى المملكة العربية السعودية".

عــند خــروج الأمير من الاجتماع، حاول مــسؤولون في وزارة الخارجــية تعزيز الرسالة التي أوردتهــا الوزارة في ملاحظات الرئيس، لكن بندر صدّهم قائلاً: "التقيت بالرئيس وقد حمّلني رسالة إلى جلالته. وأنا لن أناقش الأمر مع أحد غيره؛ سأعود إلى بلادي، وأسلّم الرسالة إلى الملك، وأعود بإجابة إلى الرئيس، نقطة على السطر".



ريغن يرحّب ببندر بحرارة، حليفه السعودي في حربه حول العالم ضد الشيوعية

في الطريق إلى المطار، تلقى بندر اتصالات من مــسؤولين في البنتاغون ووزارة الخارجية طالبين اللقاء به على عجل، فاعتذر فوراً عن تلبية طلبهم. وغادر إلى المملكة ثم عاد إلى واشنطن ومعه رسالة فيها نفي قاطع لما تردّد عــن شراء أسلحة نووية. وقد أكّدت الرسالة شراء صواريخ أرض – أرض من الصين بــسبب قــرار الكونغــرس عدم بيع المملكة صواريخ "لانس" أميركية، لكنها قدّمت ضــمانات مفادهـــا أن الصواريخ لن تُستخدم أبداً لأغراض هجومية. وأوضحت في الوقت نفسه أن المملكة ستدافع عن نفسها إذا ما تعرّضت لهجوم.

كان ردّ الفعل الأميركي قاسياً وسريعاً. فقد طلبت الولايات المتحدة من المملكة العــربية الــسعودية تفكــيك الصواريخ وإعادتها إلى مصدرها أو السماح للأميركيين بالوصول إليها لتفقّدها، وهو أمر غير مقبول عند السعوديين. وهاج ريتشارد أرميتاج، مــساعد وزير الدفاع لشؤون الأمن الدولي، في وجه بندر وقال له وهو يتميّز غيظاً: "أريــد أن أهنئك. هذا هو قانون العواقب غير المقصودة. لقد وُضعتَ المملكة العربية الــسعودية في لائحة الاستهدافات الإسرائيلية. أنتم الآن الأغنية الشعبية رقم واحد في بــرنامج أفضل الأغنيات الإسرائيلي. وإذا ما انفجرت الحرب في أي مكان في الشرق الأوسط، فستوجَّه الضربة الأولى إليكم"[37].

وأصدرت الإدارة بياناً جاء فيه: "إن حيازة نظام كهذا ليست في مصلحة السلام والاســتقرار في المــنطقة". وكان ردّ فعل الكونغرس أكثر حدة؛ إذ وقّع 50 عضواً في مجلــس الــشيوخ و187 عضواً في مجلس النوّاب رسالة احتجاج ورد في نصها: "على

حكومتنا أن تبدي معارضة مطلقة لا لبس فيها لوجود الصواريخ الصينية التي تمثل تهديداً جديداً ومقلقاً لسلام المنطقة"[38]. ومع ذلك، قُدّم البيان والرسالة مع اعتراف بالأمر الواقع من حيث الجوهر.

ربما كان أفضل تصوير للشعور بالصدمة في واشنطن في ذلك الوقت، ما جاء في قصة رواها وزير الخارجية كولن باول قبل عشرة أيام من إعلانه عن استقالته في نوفمبر 2004. فعندما طُلب منه سرد أي مشاهد أو حكايات قصيرة عن بندر، قال مستذكراً: "لديّ طُرفة عن اليوم الذي ضبطناه فيه متلبّساً بشراء صواريخ من الصين".

وتذكّر باول كيف أنه عند شيوع الأنباء - وكان في ذلك الوقت مساعداً للرئيس لشؤون الأمن القومي (وتشيع تسميته مستشار الأمن القومي) - ذهب مباشرة إلى منزل بندر وصاح: "ماذا الذي تفعله؟ لِمَ تفعل ذلك؟". وأخبر بندر أن لديهم خرائط وصوراً له تظهره واقفاً أمام مصنع عسكري صيني وقال: "لقد ارتكبتم حماقة حقاً ويحسن بكم أن تتمنّوا ألا يقصفها الإسرائيليون". لكنه أضاف: "لا أظن أنهم سيقدمون على ذلك لأن ما اشتريتموه ليس نظاماً جيداً جداً، ومع ذلك اشتريتموه. هذا عمل أحمق حقاً، ولكنكم تستحقون! نتمنّى أن تسعدوا بصواريخكم!"[39].

عندما ذاع خبر الصواريخ الصينية، كان رئيس الوزراء الإسرائيلي شامير في الولايات المتحدة، فصرّح أنّ إسرائيل لن تنتظر حتى تهاجَم؛ وإذا هُدّدت، فإنها ستتخذ إجراءات استباقية. وقد استرعى ذلك القول انتباه السعوديين بسرعة.

طلبت المملكة العربية السعودية من الولايات المتحدة أن ترسل إلى إسرائيل رسالة عاقلة مفادها أنّ صواريخ CSS-2 لن توجّه ضد إسرائيل[40]. وفي حديث منفصل مع باول، أوضح بندر الموقف السعودي بجلاء قائلاً: "إنّني أبلغك، إذا كان في وسعك تمرير الرسالة إلى الإسرائيليين، أننا لا ننوي استخدامها لتوجيه ضربة أولى".

لم تجد هذه الرسالة حول النيّات السعودية، أو عدمها، اهتماماً يذكر. وبعد أسابيع فقط، تلقى بندر اتصالاً من الأمير سلطان يوضح فيه أن رادارات قاعدة تبوك الجوية رصدت طائرات إسرائيلية تحلّق قرب العقبة. واعتُقد أن الطائرات ربما تتجمّع لشن هجوم على المملكة، وكان على بندر أن يطلب من الأميركيين المسارعة إلى التدخّل كيلا تفلت الأمور.

سأل بندر الأمير سلطان عن الموقف السعودي إذا هاجموا، فكان جواب سلطان صارماً. فقد أصدر الملك أمراً بتعبئة سلاح الجوّ السعودي بأكمله وتوجيه طائراته شمالاً وهي بكامل أسلحتها وذخائرها. وشدّد على أن المملكة لا تريد أن تفتعل مواجهة، لكن إذا هوجمت، فلن يكون أمامها سوى الاشتباك، وسيشمل ذلك استخدام الصواريخ الصينية.

شدّد بندر على عدم إخفاء إجراءات تحضير الطائرات في القواعد الجوية السعودية عن الطيارين والمستشارين الأميركيين، لأنّ ذلك سينقل رسالة مقنعة أكثر من أي شيء آخر قد يبلغه إلى البيت الأبيض. فأكد سلطان أن هذا الأمر قيد التنفيذ بالفعل.

اتصل بندر بالجنرال باول على الفور ثم ذهب إلى منزله مباشرة. ولدى وصول بندر، كان باول قد أُبلغ من الاستخبارات الأميركية عن التحرّكات الإسرائيلية والتعبئة السعودية.

حيا الجنرال باول الأمير بندر، قائلاً: "ألم أقل لكم. لقد ظننتم أنكم أكثر أمناً، انظروا الآن إلى ما فعلتم بأنفسكم".

أجاب بندر: "إنّنا أصدقاء منذ زمن طويل أيها جنرال. إليك رسالة بسيطة جداً من المملكة العربية السعودية. نحن لا ننوي مهاجمة أحد بهذه الصواريخ. ونحن نعرف قدرات إسرائيل وسيكون الأمر بمثابة انتحار إذا هاجمناها وألحقنا بها بعض الأضرار، لأنها عندئذ ستدمر كل شيء لدينا. لماذا تدفعوننا من موقف عدم رغبتنا في أي اشتباك إلى موقف لا خيار لنا فيه سوى الاشتباك؟".

وختم بالقول: "يمكنني أن أؤكّد لك أنه إذا هاجمنا الإسرائيليون، فلن يكون أمام المملكة العربية السعودية خيار سوى الرد، وليحدث ما يحدث. حكومتي لا تحتمل أي هجوم من إسرائيل من دون أن ترد. لذا أبلغ الإسرائيليين بذلك".

أومأ باول لبندر أن ينتظر، ثم توارى في مكتبه. وقال حين عاد: "الإسرائيليون يقولون، *لِمَ كل هذا التوتّر لدى السعوديين؟ إننا نقوم بتمارين ليلية ليس إلا*".

قاطعه بندر ليقول: "حسناً، نحن أيضاً نقوم بتمارين ليلية لا أكثر".

"حسناً، لنكف عن هذه المداورة. الرئيس يريد أن تنهي إسرائيل والمملكة العربية السعودية حالة التوتر؛ ولا يريد أن يهاجم أحد الآخر".

أجاب بندر: "ليست لديك شكوك في ما يتعلّق بي، لكنّني أريد ما يؤكد أن الجانب الآخر لن يهاجم. يمكنني أن أطمئنك أننا لن نقدم على شيء إلا إذا هوجمنا".

كان بندر مقتنعاً أنّ هذه المواجهة بين إسرائيل والمملكة العربية السعودية وضعت المملكة على حافة الحرب، لذا سعى ليؤكد لحلفائه الأميركيين أن الصواريخ الصينية بعيدة المدى ليست نووية. وكرّر القول إن حيازتها تمت لأغراض دفاعية فقط، وفي رد على التهديد من إيران، وعلى أثر رفض طلبها الحصول على صواريخ "لانس" قصيرة المدى. قبلت إسرائيل على مضض تطمينات المملكة، ولا شك أن قبولها معزز بتقديرات استخبارية لمحدودية فعالية الصواريخ من الناحية العسكرية ولافتقارها إلى الدقة. عجّلت صفقة الصواريخ السرية في حدوث توتّر في العلاقة الأميركية السعودية، وكان الوقع السياسي لدخول الصواريخ إلى المنطقة شديداً. "لقد شكّل القرار السعودي شراء صواريخ صينية ابتعاداً كبيراً عن استراتيجيات مشتريات الأسلحة السابقة، وغيّر بضربة واحدة المعادلة الاستراتيجية في المنطقة"[41]. وربما كان التغيير الأكبر في المعادلة الاستراتيجية مدى صاروخ CSS-2، الذي قُدِّر بنحو 2000 ميل. بل إن الصاروخ المعدَّل لحمل ذخيرة تقليدية ثقيلة هو أكبر الصواريخ وأطولها مدى خارج ترسانات الدول النووية الرئيسية[42]، ما يجعل بلداناً مثل إسرائيل وإيران، والاتحاد السوفياتي في متناول القدرات السعودية، بالإضافة إلى الصومال، وإثيوبيا، والسودان، وتركيا، وأفغانستان، وباكستان، وغربي الهند.

قلّلت صفقة الصواريخ الصينية في الحال اعتماد المملكة على مظلّة الأسلحة الغربية، ودفعت نحو إحداث تكافؤ في الفرص بين الأسلحة العربية والأسلحة الإسرائيلية، وزادت في فرص نفاذ الصين إلى الخليج. والأهم أنّها دلّت على تغيّر فريد للطريقة التي درج السعوديون على العمل بها في الغرب. على أي حال، أصبح لدى السعوديين صاروخ قوي ومتطوّر نسبياً، وربما يكمن تقديره في قيمته النفسية وهيبته. ويعترف بندر، مهندس صفقة CSS-2، بالقول: "كان الجانب النفسي لاقتنائه أهم من قدرته"[43].

ربما كانت الخطوة السرية لشراء صواريخ يزيد مداها ثلاث مرات عن مدى أحدث الصواريخ العاملة في المنطقة في ذلك الوقت، ومن دون الالتفات نحو أميركا لكسب موافقتها، أجرأ خطوة تقوم بها المملكة العربية السعودية منذ نشأة الصداقة

الأميركـــية السعودية وأكثرها إقداماً. وقد لاحظت الصحافة أن "السعوديين يفخرون بتنظيم انقلاب، بدلاً من أن يعتذروا بهدوء عن خداع واشنطن ثم يتواضعوا"[44]. وعلى نحو أدق، قال باول: "عبّر بندر من جانبه في مجالس خاصة عن انشراحه إزاء انــزعاج واشـــنطن، مـــشيراً إلى أنّ تلك التطوّرات جاءت نتيجة تدخّل الكونغرس في مبيعات الأسلحة"[45].

وفي مقابلة مع تشارلي روز في برنامج "نايت ووتش" على محطة "سي بـــي أس نيوز"، دافع بندر ببساطة وإصرار عن حيازة المملكة العربية السعودية صواريخ، قائلاً: "لم أذهـــب إلى الـــصين لإثارة مشاعر الأميركيين أو إزعاجهم. فلو أننا حصلنا منكم علـــى صواريخ أميركية، لما قصدنا أي مكان آخر للحصول عليها". وغيّر بندر رسالته الـــسياسية بعد ذلك ووجّه ضربة مباشرة إلى الكونغرس وولاءاته: "أعتقد أن الدرس المتـــبادل لكـــل منا هو وجوب أن نكون أقل انفعالاً عند بحث هذه القضايا؛ كونوا منطقيين وانظروا في ما يخدم مصالحنا القومية"[46].

أدى الـــرفض السعودي إعادة الصواريخ، إلى جانب رفض السماح بأي تفتيش أميركـــي للأسلحة، إلى قيام الوزير شولتز بقطع علاقته ببندر. وصدرت تعليمات بألاّ يتـــصل أي مـــسؤول أميركي ببندر أو يتحدّث إليه أو يتعامل معه. وهكذا جُمّدت العلاقات الدبلوماسية الأميركية، واستُثني من ذلك مسؤول مكتب الشؤون السعودية. وكان ردّ بندر بسيطاً: "يؤسفني ذلك، لكنكم منحتموني إجازة". وتوجّه إلى أسبن.

بعد أسبوعين، تصاعد الاضطراب في لبنان، وطُلب من بندر العودة إلى واشنطن لإجـــراء محادثـــات. واصـــل شولتز مجافاة بندر، الذي أقر أنه يتفهّم سبب انـــزعاج شولتز. لكن بندر شعر من ناحيته أنه لم يكذب عليه. وقال: "أبلغته كل ما كان عليّ أن أطلعـــه عليه، و لم أبلغه ما لم يكن عليّ أن أطلعه عليه". كان الأمير يدرك أنّه كان يـــسير علـــى خـــيط رفيع، فاعترف أنّه دفع الأمور إلى حدودها القصوى في بعض الأحيان.

مـــا زال الغموض يلفّ صفقة الصواريخ الصينية إلى يومنا هذا، ويبدو ذلك على وجـــه الخصوص في التفاوت المبالغ فيه بين حسابات الصفقة، والأهم، في التفاوت في أعـــداد الـــصواريخ. فـــوفقاً لروايات مختلفة، يتراوح عدد الصواريخ المشتراة بين 25 صـــاروخاً و100 صاروخ. وعلى نحو ذلك، قُدّر عدد قاذفات الصواريخ بين 9 و15

قاذفة. وقدّر ثمن كل صاروخ بنحو 100 مليون دولار[47]. ولا يُعرف سوى القليل عن الكمية والتكلفة والدقة، أو - وربما هذا هو الأهم - عن مواقع الصواريخ. فالاستخبارات الإسرائيلية تعتقد أن الصواريخ منشورة في السُّليل (500 كلم جنوبي الرياض) والجفر (100 كلم جنوبي الرياض)[48]. لكن لا تزال مواقعها الحقيقية غير مؤكدة، وكذلك فعاليتها. فصواريخ "الريح الشرقية"، التي تعمل بدفع الوقود السائل، وهو ما يطيل فترة إعدادها، تتطلّب صوامع ثابتة معزّزة ويعتقد أن نظام توجيهها غير فعّال نسبياً؛ إذ يبلغ قطر دائرة الخطأ المحتمل أو الدقّة نحو 2 كيلومتر[49].

عندما سئل بندر عن عدد الصواريخ المشتراة، أشار إلى أنّ هذه المعلومات لا تزال حسّاسة، لكنه أكّد أنّه ليس كبيراً. وربما يدعم ذلك ما كشف بندر عنه من أن تكلفة الصفقة، بما فيها بناء الصوامع ومخزن الأسلحة، كانت في حدود 3 مليارات دولار، ما يدل على أن المملكة العربية السعودية اشترت 25-30 صاروخاً فقط، إلا إذا كانت المملكة قد حصلت على الصواريخ بسعر يقل عن 100 مليون دولار للصاروخ الواحد. وأكد بندر أيضاً تحسين دقّة الصواريخ بإجراء تعديلات محلية عليها.

على الرغم من الصدمة التي تردّدت موجتها في أنحاء واشنطن في ذلك الوقت، فإنه لم يكن في الإمكان دحض مبرّر القيادة السعودية. فبحسب تعبير الملك فهد نفسه: "ليس من المستغرب على المملكة أن تشتري أسلحة دفاعية لتدافع عن معتقداتها وأرضها"[50]. وذلك أمر في محلّه تماماً في ضوء الأحداث المضطربة التي عصفت بالمنطقة. فقد شهدت سنة 1986 هبوط طائرة إيرانية محمّلة بالمتفجرات على أرض سعودية، وهي حادثة "أسفت" القيادة الإيرانية على وقوعها، وشهدت سنة 1987 اقتحام السفارة السعودية في طهران، وتلته بعد أسبوع وفاة 402 من الحجاج، من بينهم 85 مواطناً سعودياً سقطوا ضحية عنف أحدثه إيرانيون حاولوا التظاهر في المسجد الحرام في مكة خلال موسم الحج. وفي مقابلة أجرتها محطة تلفزة أميركية مع بندر في ذلك الوقت، ذكر الأمير بوضوح شديد: "هناك أمران لا نسمح بتعرّضهما للخطر: ديننا وأمننا"[51]. ولاحظ الملك فهد بعبارة لاذعة: "نحن نشتري أسلحة لا مبادئ"[52].

على الرغم من الموقف القوي المستقل الذي اتخذه السعوديون خلال صفقة الصواريخ الصينية، فإنه لا يوجد سبب للاشتباه في أن الصواريخ كانت لأغراض غير دفاعية. صحيح أن صاروخ CSS-2 ذو مدى بعيد، لكنّه معروف بمحدودية دقته

بسبب حجمه. ومع أنّ الصينيين صمّموا CSS-2 لغرض محدد هو حمل رؤوس نووية، فقد أكّد بندر مراراً أن الصواريخ التي اشترتها المملكة العربية السعودية عدّلت لحمل رؤوس حربية تقليدية. وفي تكرار لهذا التأكيد، كتب الملك فهد إلى الرئيس ريغن، مقدماً ضمانته الشخصية أن الصواريخ لن تزوّد برؤوس حربية غير تقليدية، ولن تستخدم لتوجيه ضربة أولى. وجزم أيضاً أن المملكة العربية السعودية لن تحصل على رؤوس حربية نووية أو كيميائية تستخدمها[53]. ومن الأدلة الأخرى على الدور الدفاعي الخالص المنوط بالصواريخ أنّها لم تُستخدم خلال حرب الخليج على الرغم من أنّها كانت بحلول سنة 1990 تُعتبر قيد الخدمة الفعلية، وربما يعود السبب إلى عدم دقّتها. وفي إشارة إلى وضعها، قال بندر: "استبعد الملك فهد ذلك الخيار [أي إطلاق صواريخ على العراق] لعدم القدرة على التحكّم به بدقة. وحربنا لم تكن مع الشعب العراقي، بل مع صدام حسين وأعوانه"[54].

على الرغم من اهتمام المملكة لإنشاء جيش حديث، فإنها لم تلجأ قط إلى اعتداء خارجي. وربما خفّفت الصداقة العريقة بين المملكة العربية السعودية والولايات المتحدة المخاوف من النيات السعودية في ما يتعلق بإسرائيل. ومن المعروف أنّ المملكة اتخذت منذ مدة طويلة موقفاً يعبّر عن رغبتها في خلوّ الشرق الأوسط من الأسلحة النووية.

ودفاعاً عن إعلاناتها المتكرّرة عن عدم وجود تطلّعات نووية لديها، انضمّت المملكة العربية السعودية إلى جملة البلدان التي تؤيد جعل الشرق الأوسط خالياً من الأسلحة نووية، ووقّعت في سنة 1988 معاهدة عدم انتشار الأسلحة النووية. وفي مايو، أكد المندوب السعودي الدائم في الأمم المتحدة اهتمام المملكة لإزالة أسلحة الدمار الشامل من الشرق الأوسط[55]. لكن يبقى هذا الهدف غير قابل للتحقّق بصورة ناجزة، ما دامت إسرائيل تحتفظ بمخزونها النووي المشتبه به.

نظام عالمي جديد

"أعتقد أنه عندما يُكشف النقاب عن المساهمة الحقيقية التي قدّمها بندر إلى السياسة الشرق أوسطية والغربية عموماً، سيتفاجأ كثير من الناس جداً بمقدار النفوذ الذي كان يتمتّع به وعلى مدى فترة طويلة".

السير ريتشارد إيفانز

رئيس "بريتيش إيروسبيس"

عمل وليام كيسي وبندر معاً عن قرب لتطبيق مبدأ ريغن المعادي للشيوعية. وكان أحد أنجح أشكال التعاون بينهما في أفغانستان. فقد كان الدعم المالي السعودي للمجاهدين، بحسب قول الأمير: "يتم بعلم كلا الطرفين؛ وكان الكونغرس على علم به، لذا لم تكن تشوبه شائبة، باستثناء أنه سري". يقول بندر، متذكراً تلك الفترة من التعاون الوثيق بين الولايات المتحدة والمملكة العربية السعودية: "أذكر يوم دخلت الكونغرس كيف راحوا يربّتون على كتفي وهم يقولون، *شكراً لك على مساعدتك لنا في أفغانستان. إننا نتفهم الأمر وسنلتزم الصمت*". لقد كانت للكونغرس أسباب كثيرة تدعوه إلى شكر حلفائه السعوديين، وبخاصة أنهم كانوا في ذلك الوقت يشاركون الولايات المتحدة بالتساوي في تمويل تسليح المجاهدين الأفغان.

وكان لذلك المال دور كبير في كسب الحرب في أفغانستان.

في فبراير 1988، كُلف بندر بإقناع الروس بالانسحاب من أفغانستان، فطار إلى روسيا للاجتماع بغورباتشيف. وهناك، قدّم إلى الزعيم الروسي رسالة أميركية سعودية بالغة الوضوح: اخرجوا من أفغانستان.

أوضح بندر، متذكّراً دوره في تأمين الانسحاب السوفياتي من أفغانستان، أن الملك فهد والرئيس ريغن قطعا على نفسيهما عهداً أن يتابعا هذه الحرب وصولاً

إلى خاتمة ناجحة، وبعدم التسوية عليها. وبعد مرور تسع سنوات على الاحتلال السوفياتي، تلقت الاستخبارات معلومات عن احتمال عدم وجود إجماع في الكرملين. كان ثمة انشقاق إزاء السياسة السوفياتية في أفغانستان داخل المكتب السياسي، لكن الخارجين على الإجماع كانوا أقلية. وكان السؤال: هل غورباتشيف واحد منهم أم لا؟ وكان هناك انقسام في أوساط الاستخبارات الغربية بشأن موقف غورباتشيف. فتقرّر أن الطريقة الفضلى لاختبار هذه الفرضية هي تقديم اقتراح بانسحاب سوفياتي مشرّف، على أمل التمكّن من قراءة شيء من الردّ السوفياتي على الاقتراح.

كانت العلاقة المتوتّرة بين البيت الأبيض والكرملين آنذاك تحول فعلاً دون أي مقاربة أميركية. وكما أوضح بندر: "كان الأميركيون والسوفيات في ذلك الوقت يخوضون مباراة في عض الأصابع. من الذي سيقول آخ أولاً في ما يتعلّق بنشر الصواريخ بيرشينغ في أوروبا؟ كان الروس يقولون، *إذا نشرتموها، فسنصعّد الموقف عندئذ وننسحب من جميع المفاوضات المتعلّقة بالأسلحة*. وكان الأميركيون يقولون، *سنستمر، وسننشرها*. وفي هذه الأثناء، كان معظم الأوروبيين يقولون، *انتظروا من فضلكم، نحن لا نريد تصعيد الموقف*. أخيراً، كانت السيدة تاتشر تقول، *سننشرها وليكن ما يكون!* إزاء هذه الخلفية، لم يكن الوقت مناسباً للأميركيين كي يعرضوا على السوفيات طريقاً للخروج من أفغانستان. عندئذ استقرّ الرأي على أن تقوم المملكة العربية السعودية بالخطوة".

أسرّ الأمير لاحقاً أنّ الملك فهد كان دائماً ينظر في كل الخيارات لمعرفة كيف تعود بالمنفعة على المملكة. وتذكّر أن استراتيجية الملك فهد كانت تقوم على التوجّه إلى جميع العرب المتحالفين مع الاتحاد السوفياتي، وإيضاح أنّ المملكة العربية السعودية تحاول مساعدة السوفيات بالعمل على إقناع الأميركيين بإتاحة طريق لخروج السوفيات من الصراع. وكلّف الملك فهد الأمير بندر بالاجتماع إلى الرئيس السوفياتي؛ وتلك خطوة غير عادية لأنّ المملكة العربية السعودية لم تكن تقيم علاقات دبلوماسية مع الاتحاد السوفياتي في ذلك الوقت.

قبل أن يجتمع بندر بغورباتشيف، اتصل بأناتولي دوبرينين(*)، الذي كشف له أن بعض القادة السوفيات شكّكوا بالفعل في قدرة الاتحاد السوفياتي على كسب الحرب في أفغانستان. إلا أن دوبرينين لم يفصح عما إذا كان غورباتشيف واحداً منهم أم لا. ومع ذلك، شعر بندر في نهاية لقائهما باحتمال إقناع غورباتشيف بعقد صفقة ما.

وعلى الأثر سافر بندر إلى موسكو. لكن، لم يتسنّ له لقاء غورباتشيف بمفرده، إذ كان مع الرئيس السوفياتي عدد من أعضاء المكتب السياسي المتشدّدين. وكان استقبالهم له فاتراً جداً. فقد وبّخه غورباتشيف على الفور، متهماً المملكة بالتدخّل في شؤون أفغانستان الداخلية. حدّث بندر نفسه قائلاً: "يا لوقاحته! إنه يحتل بلداً بجيشه ويظن أننا نحن من يتدخّل!". وتابع غورباتشيف كلامه العنيف، موضحاً أن الأميركيين سيخذلون السعوديين، وأخذ يتحدّث عن الوضع في اليمن الجنوبي وإثيوبيا، قائلاً إن الرياض تتبع سياسة غير حكيمة تجاه هذين البلدين.

لم يفسح الرئيس السوفياتي للأمير مجالاً ليقول كلمة واحدة. ومما زاد الأمر تعقيداً أن المترجم كان يتكلم العربية الجزائرية فقط، وبالكاد كان الأمير يفهم ما يقول. وعندما عرف بندر أن ليس لدى السوفيات مترجمون يتحدّثون باللهجة السعودية، قاطع غورباتشيف وطلب مترجماً إلى الإنكليزية. وبعد تغيير المترجمين تابع غورباتشيف هجومه الكلامي.

وفي محاولة لأخذ بعض الاستراحة من الحملة المفاجئة، طلب بندر بتهذيب أن يشرب. لكن الغضب أخذ يستبد به فيما واصل غورباتشيف هجومه. قال بندر: "إنه ذو شخصية عظيمة، مفعم بالحياة، ديناميكي، انفعالي، يشير بيديه كثيراً، وبعد برهة حان دوري". طلب بندر قهوة لأن إعدادها يتطلب وقتاً أطول. وأتاحت له هذه الوسيلة

(*) كان أناتولي دوبرينين سفير موسكو إلى الولايات المتحدة مدة 24 سنة، وهي مدة لا نظير لها، وبات قناة لمفاوضات سرية وراء الكواليس. وفي تشابه مذهل مع الأمير بندر، كان يتمتع بشخصية جذابة مكّنته من امتلاك قدرة يُحسد عليها على الوصول إلى البيت الأبيض ووزارة الخارجية وشخصيات مرموقة في ستة عهود رئاسية أميركية. وكان دوبرينين مطلعاً على التفكير الأميركي على مستوى عال، لكن المدهش أن الكرملين أحجم مراراً عن إطلاعه على تطوّرات كبرى. على سبيل المثال، لم تُعلِمه موسكو بخططها المتعلقة بنصب صواريخ نووية في كوبا. كما أنه لم يُستشر مقدماً بشأن خطط الاتحاد السوفياتي لغزو تشيكوسلوفاكيا. وعلى الرغم من وجوده في موسكو عندما اتخذ قرار غزو أفغانستان، فإنه لم يُستشر. مع ذلك، كان موضع تقدير شديد في واشنطن، ويستأنس الرؤساء برأيه كلما لاحت أزمة.

فسحة كي يوضح لغورباتشيف أنهم لا يرون أن في مصلحتهم رؤية الاتحاد السوفياتي يحتل بلداً مسلماً. وشبّه الأمر بما جرى للأميركيين في فيتنام، مشدّداً على أنّ الاتحاد السوفياتي لا يستطيع أن يربح هذه الحرب لأنّها حرب استنزاف وخسائرها فادحة.

بعد أن أبدى بندر وجهة نظره، أثنى دبلوماسياً على الاتحاد السوفياتي وقال إن على الاتحاد السوفياتي، كدولة عظمى، أن يحضّ على السلام في العالم، لا أن يشنّ حروباً. وأضاف أنه لو كان الرئيس مهتماً، لشعر أن ثمة إمكانية للتوصل إلى ترتيب يستطيع الاتحاد السوفياتي بمقتضاه أن ينسحب من أفغانستان من خلال حلّ مشرّف.

بيد أن غورباتشيف شدَّد هجومه، قائلاً: "لا مصلحة لكم في أفغانستان وأنا أعرف كل ما تفعلونه هناك. إنكم تنفقون سنوياً 200 مليون دولار في أفغانستان".

تدخّل بندر، فقال: "مهلاً! من الخطير أن تكون لدى زعيم قوة عظمى معلومات خاطئة!". فأجاب غورباتشيف فوراً: "لا. يمكنني أن أثبت ذلك: لدينا الدليل".

فردّ بندر: "اسمعني أرجوك، سيدي الرئيس، نحن لا ننفق 200 مليون دولار سنوياً؛ إننا ننفق 500 مليون دولار!". ثم أضاف: "ونحن مستعدون لإنفاق المزيد!".

كانت تلك ورقة السعوديين الرابحة. فالقوات السوفياتية وقوات الحكومة الأفغانية لم تكن تتكبّد في أفغانستان خسائر جسيمة فحسب، بل إن الجيش السوفياتي فقد فعلاً السيطرة على الريف أمام المجاهدين. كان الاتحاد السوفياتي يخسر الحرب، وكان احتمال أن تواجه قواته مقاومة أكثر قوة وأحسن تسليحاً بل وأوفر تمويلاً احتمالاً بغيضاً.

قال بندر: "أنتم تفقدون أرواحاً، ونحن نخسر أموالاً! لكن في إمكاننا دائماً طبع المزيد، وفي إمكاننا دائماً بيع المزيد من النفط". وأكّد أن السعوديين والأميركيين لا يخسرون سوى الأموال، بينما يخسر الاتحاد السوفياتي العتاد والأرواح والهيبة.

عندئذ قال غورباتشيف بهدوء: "أريد أن أكلّمك على انفراد".

دخل بندر وغورباتشيف إلى مكتب الرئيس السوفياتي، حيث قال غورباتشيف بإذعان: "إذا لم



غورباتشيف وريغن.
"ثقة ولكن لنتأكد"

نتعرض لضغط أو إذلال أو استغلال، فسنغادر. يمكنك أن تبلغ الملك فهد أننا سنغادر أفغانستان بحلول مارس المقبل".

ذُهـــل بندر. وعند التفكير في الأشياء بعد حدوثها، رأى أن النقد العنيف السابق كـــان للاســـتهلاك المحلـــي، ولإرضـــاء أعضاء المكتب السياسي، ومسؤولي الحزب الحاضـــرين. ففي اجتماعهما المنفرد في مكتب غورباتشيف كان هناك ثلاثة أشخاص فقـــط، بندر وغورباتشيف ودوبرينين. وكان المتشدّدون في الكرملين يعتقدون أنه إذا صمد السوفيات فترة أطول، فسيتراجع السعوديون بفعل التهديد الذي تشكّله البلدان المحـــيطة بهـــم والدائـــرة في الفلك السوفياتي. وكانوا يعتقدون أيضاً أن الأميركيين لا يستطيعون دعم الحرب في بلد مسلم من دون السعوديين والباكستانيين، وأن باكستان لـــن تواصل دورها في القتال إذا انسحب السعوديون. لكن غورباتشيف تراجع عندما أدرك رسالة بندر الصريحة أنّ السوفيات لا يمكنهم الانتصار. وانتهى الاجتماع بتوجيه غورباتـــشيف الشكر إلى الأمير على صراحته قائلاً: "لقد حصلت على اتفاق، فلنضع تفاصيله". ولم يبق إلا ترتيب الاتفاق الرسمي.

وعلى هامش حكاية اجتماعه بغورباتشيف، ذكر بندر: "من أطرف قصص تلك الحـــرب أنّ وكالـــة الاســـتخبارات المركزية (سي آي أيه) والاستخبارات السعودية أصـــبحتا أكبر مشتريتين للحمير في العالم". وأوضح وهو يضحك: "قمنا بشحن عدد كـــبير مـــن الحمـــير. لماذا؟ لأنّك لا تستطيع إرسال شاحنات ودبّابات وطائرات إلى أفغانستان. لذا حصلنا على كل تلك الحمير التي حمّلت بالذخائر وأرسلناها عبر الجبال إلى أفغانستان. وكان في ذلك البلد الشاسع مئات الحمير التي تجوب كل مكان. وكنا نتندّر بالقول إن الحمير تهزم دبابات T-72 والمروحيات السوفياتية. لقد كانت تلك طـــريقة فعّالة لإرسال الذخائر والأسلحة وأجهزة الاتصال إلى أماكن لا يستطيع أحد الوصول إليها".

روى بـــندر بعد التأمّل في ما تلا لقاءه بغورباتشيف، كيف أنّ الرئيس السوفياتي اســـتدعى بعد أسبوعين الرئيس الأفغاني، محمد نجيب الله، إلى الاتحاد السوفياتي؛ وقد اجـــتمع الاثـــنان في سمـــرقند. وأكدت معلومات الاستخبارات الأميركية لاحقاً أن غورباتـــشيف قال للرئيس الأفغاني: "سأعطيك ما تحتاج إليه للقتال، أمّا أنا فسأرحل بحلـــول مارس. فإذا كنتَ لا تستطيع الاعتناء بنفسك بعد ذلك، فهذه مشكلتك. بين

الآن ومارس، سأعطيك الأسلحة وكل ما تريد، لكنّني سأرحل بعد ذلك". وقال بندر مستبشراً: "والباقي تاريخ".

* * *

بعـد توسّط بندر لدى غورباتشيف في أوائل سنة 1988، استدعي مجدداً ليؤدي مهمـة أخـرى في موقع قريب من الوطن هذه المرة. ففي خريف 1980 غزا العراق إيران، مشعلاً حرباً امتدّت ثماني سنوات دامية وأزهقت أرواح أكثر من مليون إنسان. سـاندت أميركـا العراق انطلاقاً من أنّ النـزاع يدور بين دولة علمانية حديثة، وإن قاسـية (العـراق)، ودولـة إسلامية أصولية ومتشدّدة ومتقلبة، يديرها رجال الدين (إيـران). وقـدّم البنـتاغون ووكالـة الاستخبارات المركزية لصدام حسين تقارير استخبارية وأرسلتا إلى العراق أسلحة بمليارات الدولارات. لكن إذا ربح العراق الحرب فـسيبرز صـدام حـسين كأقوى زعيم في الخليج، وذلك وضع غير مستساغ لدى الـولايات المـتحدة، كما اعترف لاحقاً أحد مسؤولي إدارة ريغن حين قال: "أردنا تحاشي انتصار كلا الجانبين"[1].

في سنة 1983، تراجع احتياطي العراق من العملات الأجنبية من 30 مليار دولار إلى 3 ملـيارات دولار، وسـجلت تكالـيف المعيشة ارتفاعاً حاداً، وانخفضت قيمة الدينار؛ وسرعان ما أصبح العراق يعتمد بشكل كامل تقريباً على القروض المقدّمة من المملكة العربية السعودية ودول الخليج.

أفيد أنّ القادة السعوديين حضّوا صدام حسين، في الفترة السابقة للحرب، على شنها ضد نظام إيران الأصولي، ملمّحين إلى أنّ الرئيس كارتر أعطى "ضوءاً أخضر" للغزو، بعد أن أصابه إحباط نتيجة عجزه عن تأمين إطلاق سراح الأميركيين الاثنين والخمسين الذين احتجـزهم إيـران. وأطلـع كبارَ القادة العرب - بمن فيهم الملك فهد - وزيرُ الخارجية ألكـسندر هـيغ، خلال رحلة له إلى الشرق الأوسط في أبريل 1981، على قرار الضوء الأخضر من كارتر؛ وزُعم أن هيغ دوّن ملاحظة بهذا الشأن في تقرير نقاط المحادثات الذي أعـدّه ليرفعـه إلى الـرئيس ريغن بعد اختتام رحلته[2]. غير أنّ الملك فهد لم يشجّع صدام حسين على توجيه ضربة إلى النظام الأصولي الجديد، بل حذّره من شنّ أي هجوم.

وقـد أوضـح بندر أنّه قبل اندلاع الحرب، "تشاور الملك فهد مع صدام حسين مباشـرة فأبلغـه صدام أنّه يعتزم تلقين الإيرانيين درساً. فقال له فهد، *إذا كنتَ تريد*

نصيحتي، ابتعد عن القتال، فإيران في حالة فوضى بعد الثورة، دعها وشأنها. الإيرانيون منهمكون في مقاتلة بعضهم بعضاً. دعهم. ولنرَ كيف سيستقرّ الأمر في النهاية، وعندئذ نتعامل مع من يخرج منتصراً. سينشغلون بمشكلاتهم إلى حدٍّ ما، وسيكثرون من الخطابات، لكنهم لن يزعجونا. غير أن صدام حسين أصرّ على القول إنه سيمضي حتى يصل إلى طهران، ويجذب الخميني من لحيته".

صاح بندر غاضباً: "تحدّث عن الغطرسة وأوهام العظمة. لذا قال الملك فهد لصدام، إذا لم أستطع إقناعك، فبالله عليك أن تترك الأمور عند المناوشات الحدودية؛ ولا تدخل الأراضي الإيرانية تحت أي ظرف من الظروف. إنّهم الآن في حالة فوضى؛ جيشهم في فوضى، وسياستهم في فوضى. لكن إذا دخلت أرضهم، فإنك ستوحّد الإيرانيين، وستقاتل بلداً لديه ستون مليون نسمة، ومقدّرات وفيرة وقدرة على تحمل حرب استنزاف طويلة؛ وذلك ليس في مصلحتك ولا في مصلحتنا".

تابع بندر إيجاز ما دار إجمالاً بين فهد وصدام حسين، "لا حاجة إلى القول إن صدام أبلغ الملك فهد بعد مرور ثلاث سنوات، ليتني سمعتُ نصيحتك، لأنني أريد فضّ الاشتباك. وكان الملك قد أبلغه في اللقاء الأول، يا صدام، الذهاب إلى الحرب قرار يعود إليك، لكنّ فضّ الاشتباك ليس قرارك: لا بد أن يوافق الطرف الآخر. لذا، أجل، يمكنك المضي وفقاً لقرارك، لكن حين ترى أنك اكتفيت وتريد التوقّف، لا يمكنك أن تضمن موافقة الطرف الآخر. ربما يقرّر ذلك الطرف مواصلة القتال، وبذلك ستصبح رهينة قراره بالتوقّف أو عدم التوقف".


صدام حسين

ولاحظ بندر، "وهكذا انتهى الأمر بهم إلى حرب استمرت ثماني سنوات تقريباً. وخلال السنتين الأخيرتين، كانت الكفّة تميل إلى صالح الإيرانيين. ومع أن العراقيين كانوا يحتلون مساحات واسعة من إيران، فقد أخرجوا منها وأخذت الخسائر تتصاعد. دُمّرت البنية التحتية،

وأُهــدرت المقدّرات الوطنية، وارتفعت الخسائر البشرية على نحو غير عادي، بين قتلى وجرحــى. لقد انهارت أمام أنظارنا كل البنى التحتية التي أقامتها إيران والعراق خلال السنوات العشرين أو الثلاثين الماضية". وشدّد بندر: "إذا لم نفهم هذا الأمر فلن نفهم لمــاذا طلب الملك فهد في سنة 1990 العون من العالم لتفادي حرب تدمّر كل ما بنيناه في بلدنا؛ البنية التحتية، والمدارس، والمستشفيات، والموانئ، والمطارات. من أجل ماذا؟ لتمضية ثماني سنوات من الحرب وينتهي الأمر إلى تعادل".

قــال بــندر إنّ فهم موقف المملكة العربية السعودية خلال الحرب الإيرانية العــراقية وأســبابه الجذريــة شرط أساسي لأي تقدير لسياسة المملكة الخارجية وطمــوحاتها الاســتراتيجية. ورأى أن الحرب وقعت عندما كان الشرق الأوسط يشهد تغيّرات هائلة بدءاً بسقوط شاه إيران، والثورة التي تولّى فيها آية الله الخميني الســلطة. واعتــبر بندر أن الأمر ينطوي على مفارقة، لأن الشاه لم يكن صديقاً للسعوديين، بل كان عدائياً.

وشــرح بندر ذلك: "في تلك الآونة، كان الأميركيون يسلّحون [الشاه] إلى أبعد حــدٍّ، واعتقدوا ظنّاً منهم أنّه سيكون عامل استقرار في منطقة غير مستقرّة. لكنه أخذ يــبدي طموحات إقليمية. ففي أوائل السبعينيات زعم أن البحرين إيرانية، وذلك من المحرّمات بالنسبة إلينا!".

نتــيجة لــذلك، قال بندر: "كانت علاقتنا معه دائماً حسب الأصول، لكن كانــت بيننا شكوكٌ متبادلة". وفي ملاحظة شبيهة بموقف العائلة المالكة السعودية الــيوم، أشار إلى أن "الشاه قاد ثورة علمانية إلى حدٍّ بعيد وكان ذلك واحداً من أكبر أخطائه لأنه نسي أنه ملك على إيران المسلمة، لا ملك على فرنسا أو السويد. ومع أنّ التحديث وإضفاء الليبرالية ظاهرتان صحيتان وطيّبتان، فإنّه مضى بهما إلى أبعد الحدود؛ مثلما مضى الخميني بالثورة إلى طريق إسلامية متطرّفة". وقد أثارت اندفاعــة الشاه نحو العلمانية قلقاً شديداً لدى المملكة العربية السعودية، كما قال بــندر، ملاحظــاً أنّ هناك فارقاً بين منح المرأة حقّ اختيار تغطية وجهها أو عدم تغطيته، ومنعها بقوة القانون من تغطية وجهها. وهكذا أثار الشاه، من دون داعٍ، عــداء الفلاحين، والعمال، والفئات الأدنى ثقافة من الشعب، ومنح رجال الدين سلاحاً لمحاربته ونيل تأييد عامة الناس".

لاحظ بندر أنّ من المنطقي الافتراض من الناحية النظرية أنّ حدوث ثورة إسلامية في الجـوار يجب أن يقرّب المملكة العربية السعودية من إيران لأنّ المملكة بلد إسلامي محافظ. وقال: "هنا صحّ القول المأثور *عدو حكيم خير من صديق أحمق*. فبدلاً من أن يمـد المنتصرون في الثورة الإيرانية يد الصداقة إلى جيرانهم ويكسبوا اعترافهم وتأييدهم فـيما يـتعاملون مع التغيّرات العميقة في بلدهم، أعلن الخميني أن العراق وكل بلدان الخلـيج - ومنها المملكة العربية السعودية - أعداء، لأنّها تنتهك المقدّسات وكافرة. وظن أن رياح الثورة ستكتسح العراق وتهب جنوباً وصولاً إلى الخليج". وأوضح بندر أنّ نـزعة الخميني القتالية أرغمت بلدان الخليج على اتخاذ موقف ضد إيران، واعتبار أنّهـا تـشكّل تهديداً حقيقياً. وقال: "أعتقد لو أن الخميني لم يهدّد بتصدير الثورة إلى بلـدان الخلـيج، و لم يتخذ موقفاً معادياً للمملكة العربية السعودية وبلدان الخليج في عظاتـه وخطـبه، لمـا دعمت المملكة ودول الخليج العراق في أثناء الحرب الإيرانية العراقية".

وأضـاف بـندر: "ما لم يفهم الناس هذه الحقيقة، فإنهم لن يفهموا سبب إنفاق المملكـة العـربية الـسعودية 25 مليار دولار لدعم صدام حسين والعراق. كان من مـصلحتنا وقـف إيران عند الحدود العراقية بدلاً من محاربتها على حدودنا. و لم يكن ذلك خياراً لنا، بل أرغمونا عليه". وفي ملاحظة عن أخطار حكم الفرد، أضاف بندر: "مرة أخرى، كان ذلك خطأً في الحساب، حيث يتخذ الأفراد قرارات انفعالية بدلاً من التفكير عبر مؤسسات واتباع الحكمة".

ولاحظ بندر، متذكراً وجهات النظر المختلفة التي راقب منها الأحداث المتكشّفة في الخلـيج، أنّـه كان في سلاح الجو لدى قيام الثورة، وأنه شارك لأكثر من عام في الدفاع عن المنطقة الشرقية من المملكة. وكطيّار حربـي، انتُدب للعمل هناك كتدبير طـارئ؛ تحسّباً لتحوّل الأمور إلى الأسوأ. وقال: "أذكر عند اندلاع الحرب بين إيران والعراق، أعلنّا حالة التأهب القصوى في قاعدتي في المملكة. اعتقدنا لمدة أسبوع أو نحو ذلـك أنّ الأمـر لا يعدو كونه صدامات حدودية، لكن مرّ خمسة وخمسون يوماً من دون أن أغـادر القاعدة، وبقي السرب في حالة تأهّب. وكان ذلك عندما أدركنا أن الحـرب سـتكون طويلة". وتابع: "أذكر أننا عملنا مع العراقيين لإعطائهم معلومات أواكـس، إذ كانـوا ينوون ضرب أهداف في الجزء الجنوبـي من إيران. وأذكر أنّ

طائراهم حطّت في المملكة لإعادة التزوّد بالوقود والعودة إلى الديار. لم تكن لديهم القدرة على إعادة التزوّد بالوقود، ولم تكن الطائرات بعيدة المدى".

وأضاف بندر متأملاً: "بطبيعة الحال، بعد مرور سنتين على تلك الحرب، ومن موقعي المطل عسكرياً في سلاح الجو، ذهبت إلى واشنطن، لأجل صفقة طائرات أواكس أولاً، ومن ثم لأصبح ملحقاً عسكرياً هناك. ثم أصبحت سفيراً وتعيّن عليّ التعامل مع الحرب الإيرانية العراقية التي تعرّضت لها في البداية كرجل عسكري. وهكذا كان دوري من سنة 1982 حتى مطلع سنة 1988 متابعة "كيف يمكننا دعم العراق وضمان الدعم الأميركي والغربي له ومواصلته بحيث نستطيع التغلب على إيران". ولاحظ بندر: "في سنة 1987، كان ثمة ما سُمي حرب ناقلات النفط، حين بدأ الإيرانيون يهدّدون سلامة مرور النفط عبر مضيق هرمز. وتوصلنا إلى فكرة تبديل أعلام الناقلات بحيث تُرفع الأعلام الأميركية عليها، الأمر الذي أعطى أميركا السند القانوني لحمايتها في أثناء دخولها الخليج وخروجها منه. لقد كانت فكرة أميركية سعودية مشتركة".

تابع بندر بطريقة تهكّمية: "أعتقد أن ذلك يسلّط الضوء بوضوح على أكذوبة ابن لادن أو القاعدة أو المتطرّفين الذين يزعمون أنهم كانوا هناك لأن المملكة العربية السعودية أحضرت الأميركيين والنفوذ الغربي. والحق يقال إنه لم يكن ثمة وجود عسكري أميركي قبل ذلك. غير أنّ الإيرانيين بمهاجمتهم المياه الدولية وشريان النفط الدولي أجبروا الآخرين على الدفاع عن مصالحهم. الإيرانيون هم سبب الوجود الدولي والأساطيل البحرية الدولية في الخليج. واتفق أننا استفدنا من هذا الوجود لا أكثر. فالعالم بحاجة إلى ذلك النفط، وكان عازماً على الحصول عليه، وبخاصة إذا كان المصدر أي المملكة العربية السعودية، يريد بيعه".

وأكّد بندر، مكرّراً السبب الأساسي لتعاظم الوجود العسكري البحري الغربي في الخليج: "لا يمكنك مناقشة الأمر الآن ونسيان كيف بدأ بأكمله. المملكة العربية السعودية لم تأتِ بهم على الرغم من أننا حلفاؤهم. لقد جاء الأميركيون بسبب التهديد الإيراني". وأضاف بسرعة: "حدث الأمر نفسه بالنسبة إلى القوات البرية حين غزا صدام حسين الكويت. فلو لم يفعل صدام حسين ذلك لما جاء نصف مليون أميركي إلى المملكة العربية السعودية لمحاربته".

هزّ بندر رأسه وقال: "هذه الدعاية، هذه المغالطة، أنّ الاضطرابات التي نشهدها الآن، وأنّ السعوديين هم الذين أتوا بأولئك الناس، وكانت النتيجة الإرهاب وزعزعة الاستقرار، ذلك كله غير صحيح. بل إنّ سياسات الآخرين الفاشلة هي التي فرضت هذا الوضع".

قليلة هي النزاعات الحديثة الطويلة والدموية وعديمة الجدوى. فقد خلّفت الحرب الإيرانية العراقية إرثاً حافلاً بالمعاناة. كان القتال مكلفاً جداً - نحو 1.2 تريليون دولار - وكارثياً على إيران والعراق على حدٍّ سواء، إذ أوقف النمو الاقتصادي وأوقع الصادرات النفطية في فوضى. ويقدّر أن مليون شخص قُتلوا وجُرح نحو 1.7 مليون شخص آخرين. خرج العراق مثقلاً بديون هائلة لمن سانده من العرب سابقاً، بما فيها 14 مليار دولار أقرضتها الكويت، وهذا الدين كان سبباً تذرع به صدام ليقرر غزو الكويت سنة 1990. وتضرّر جزء كبير من صناعة النفط في كلا البلدين نتيجة الغارات الجوية، ومع ذلك تركت الحرب الحدود من دون تغيير.

ضربت أهوال الحرب سكان كلا البلدين. فلحقت خسائر فادحة بالمدنيين على جانبي الحدود نتيجة استخدام العراق أسلحة كيميائية، وقرار الخميني إرسال آلاف الشبان الإيرانيين إلى الموت في هجمات "الموجات البشرية"، التي زُعم أنّها ضمّت أطفالاً استخدموا لتطهير حقول الألغام، والاستخدام العشوائي للصواريخ في حرب المدن.

يمكن إرجاع سبب هذا الصراع إلى نزاع حدودي في منتصف السبعينيات. ففي سنة 1974، قدمت إيران أسلحة إلى قوميين أكراد في شمال العراق، ما مكّنهم من التمرّد على الحكومة العراقية. ولوقف التمرّد، توصّل العراق في سنة 1975 إلى تسوية مع إيران بشأن الحدود عند مصب شط العرب، وهو الممر المائي الذي يشكل الحدود بين البلدين، فانتقلت ملكيته إلى إيران. وفي المقابل، أوقفت إيران تزويد الأكراد بالسلاح. لكن العراق فقد بذلك منفذه إلى الخليج. وفي سنة 1980، غزا صدام حسين إيران، آملاً في عكس تسوية الحدود، وآملاً أيضاً في كبح الدعاية الدينية التي توجّهها الحكومة الإسلامية في إيران ضد النظام العراقي العلماني.

اعتقد صدام حسين أن الثورة أضعفت قوة إيران العسكرية كثيراً، فتوقّع الانتصار بسهولة. بيد أن انتصارات العراق العسكرية الأولية لم تدم طويلاً، وبحلول 1982،

كانـت القوات العراقية قد دُحرت من معظم الأراضي الإيرانية. فقد أخطأ صدّام في تقديـر عزيمة الإيرانيين وقدراهم العسكرية. وبين سنتي 1982 و1987 تصاعد القتال، وبطـريقة غـير مباشرة جرّت الهجمات على حركة الملاحة البحرية في الخليج دولاً أُخرى، ومنها الولايات المتحدة، إلى النـزاع.

جرى إسكات محاولات الأمم المتحدة لتقصير أمد الحرب الإيرانية العراقية بصورة مـثيرة للدهـشة. فعندما هاجم العراق إيران في 22 سبتمبر 1980، انتظر مجلس الأمن الدولي أربعة أيام قبل أن يعقد اجتماعاً. وبعد يومين، أصدر القرار 479، الذي دعا إلى وضع حد للقتال، لكن إيران رفضته بسبب تحيّزه.

وفي سـنة 1984، قَبِل العراق وإيران تجميداً مؤقّتاً لقصف الأهداف المدنية رعته الأمم المتحدة. لكن القتال استمر.

وفي سـنة 1985، أصـدر مجلس الأمن "بياناً" هادئاً أدان فيه استخدام الأسلحة الكيميائـية، غير أن المجلس لم يشجب العراق صراحة بهذا الشأن إلا في مارس 1986، أي بعـد مرور سنتين كاملتين على تأكيد فريق تابع للأمم المتحدة أنّ العراق استخدم أسلحة كيميائية[3].

وفقـاً لبـندر، في سـنة 1987 كان العراقيون يبحثون عن مخرج، لكنّهم لم يتمكّـنوا من فضّ الاشتباك. وعندما تجاوز الإيرانيون خسائرهم الأولى، استطاعوا ردّ العـراقيين علـى أعقاهم، وبدأوا بالتوغّل في الأراضي العراقية. وأوضح بندر أن الـسعوديين كانـوا يعـتقدون في ذلك الوقت أنّ لا مَصلحة للإيرانيين بإنهاء الصراع.

ذات يوم في أواخر سنة 1987، تلقى بندر اتصالاً من الملك فهد، أبلغه فيه أنّ صدام حسين اتصل به شخصياً. وأنّه سأله إذا كان يمكن الطلب من بندر تكريس وقـته لدعم وفد عراقي برئاسة وزير الخارجية العراقي طارق عزيز، الذي كان في ذلك الوقت في نيويورك يحاول عقد صفقة لوقف إطلاق النار. وافق بندر واتصل بعزيـز، الذي أوضح أنه يواجه مشقة في الحصول على دعم حقيقي من الأعضاء الـدائمين في مجلـس الأمـن الدولي. وتبيّن أنّه بحاجة إلى دعم الولايات المتحدة وبـريطانيا، لأن الـصين وروسـيا تقفان في مكان ما في الوسط، وفرنسا تدعم العراق بالفعل.

في ذلك الوقت، أخذ الأميركيون والبريطانيون يضيقون ذرعاً بأفعال صدام؛ فقد ضُبط متلبساً في محاولة صنع مدفع عملاق(*)، وقام باعتقال غربيين في العراق، بمن فيهم ممرضة بريطانية، وأعدم مواطناً بريطانياً من أصل إيراني. واكتشفوا لاحقاً أن العراق كان يحاول شراء آليات قدح نووية. واتضحت أيضاً معلومات عن استخدامه الأسلحة الكيميائية في حلبجة.

اعترف بندر بشعوره الشخصي بالذنب بسبب قيام صدام بقتل المدنيين الأكراد بالغازات السامة في حلبجة. وقال: "لقد أخطأنا على المستوى الخُلُقي". وشدّد على أنه كان يشير إلى الأميركيين والبريطانيين والعالم الغربي والعالم العربي، بما في ذلك المملكة العربية السعودية. وأوضح أن الإيرانيين كانوا في ذلك في ذروة هجومهم. فقد اقتربوا من البصرة، والاستيلاء على البصرة يعني الاقتراب من الكويت ومن الحدود السعودية. "أثار ذلك الواقع مخاوفنا بحيث اخترنا ألاّ نرى ما يحدث، لا لأننا لم نكن نعرف. ولا يزال ذلك الاختيار يؤلمني".

تابع بندر القول: "لقد برّرنا الأمر أن صدام رجل سيئ، لكن الخميني أسوأ. لذا كان علينا الاختيار بين سيئ وأسوأ. نعم، ارتكب صدام أفعالاً منكرة. لكننا ننظر إلى أشخاص يتوقّع أن يأتوا أفعالاً أنكر. لذا كان علينا التعامل مع الإيرانيين أولاً وبعد ذلك نتعامل مع صدام". لكنه أقرّ بالقول: "في تلك الفترة، أعتقد أنّنا جميعنا أثرنا الشبهات حيال مواقفنا ومعتقداتنا الأخلاقية".

"أذكر يوم قمتُ ومسؤولون كبار في الحكومة الأميركية باستخدام المبرّر نفسه للضغط على أعضاء في الكونغرس الأميركي كيلا يفرضوا عقوبات على العراق بسبب

(*) في بدايات الحرب مع إيران، اجتذبت الحكومة العراقية خبير المدفعية جيرالد بول، الذي كان ذا شهرة عالمية ومهووساً ببناء مدفع هاوتزر ضخم - مدفع عملاق - قادر على إطلاق أقمار اصطناعية إلى الفضاء أو إطلاق قذائف مدفعية مسافة آلاف الأميال في عمق أراضي العدو. ومن منتصف سنة 1981 حتى اغتياله في 22 مارس 1990، قاد مشروع بابل، الذي يهدف إلى تطوير مدفع هائل ذي سبطانات مصنوعة من عدة أقسام. بلغ طول المدفع 512 قدماً وكان في إمكانه إطلاق مقذوف زنته 600 كلغ برأس حربي تقليدي أو كيميائي أو بيولوجي أو نووي، مسافة 1000 كلم، أو مقذوف معزّز بصاروخ زنته 2000 كلغ إلى مدار حول الأرض. وقد اشترى العراق لمدفع بول العملاق مكوّنات من شركة آلات في المملكة المتحدة تدعى ماتريكس تشرشل. غير أن الجمارك البريطانية صادرت الأقسام الثمانية الأخيرة من المدفع العملاق في نوفمبر 1990.

ذلك [الهجمات الكيميائية]. ويجب أن أقول إن قلة في الكونغرس كانت منزعجة من ذلك ومصرة على فرض العقوبات. لكن عليّ أن أقول أيضاً إن مقولة الأمن القومي سادت مجدداً - في السرّاء والضرّاء - ووافقت الأكثرية. *أجل. ما يحدث سيئ حقاً، لكن ما قد يحدث أسوأ*. وهكذا أرى أن الجميع مذنبون. وأنا لست فخوراً بكوني جزءاً من ذلك الجهد لكننا كلنا نزداد حكمة بعد وقوع الحدث".

تمكّن بندر في ما بعد من التكفير عن هذه الشائبة التي شابت ضميره من خلال عمله كوسيط. يلاحظ بندر متذكّراً مساعيه: "وجد صدام حسين والعراق فجأة أنهما فقدا نفوذهما لدى أعضاء الأمم المتحدة الدائمين. وفي هذه الأثناء، كان الأمين العام للأمم المتحدة خافير بيريز دي كويار يحاول التوصل إلى اتفاق لوقف إطلاق النار. وفي ذلك الوقت، بدأ التعب ينال من الإيرانيين. لكنهم لم يكونوا متعبين بالقدر الكافي للتوقّف من تلقاء أنفسهم. لكن إذا كان هناك مخرج ينقذ ماء وجههم، فسيقبلون به". غير أن سلوك صدام لم يكن مسعفاً. فقد تابع في الدعاية العراقية التصرّف كأنّه المنتصر، ما عقّد كثيراً مهمة الذين يحاولون التوصل إلى تسوية. ولاحظ الأمير بسخرية مريرة: "أحبط ذلك أيضاً القوى الغربية التي كانت تقول، *مهلاً - نحن نعرف الحقائق! نحن نعرف أنك تخسر، إذاً لماذا تخاطبنا كأنك قوة عظمى*. عند ذلك توقّفت الاتصالات وجُمّدت المفاوضات. وعندئذ تلقيت من الملك فهد تعليمات - بطلب من صدام - كي أشارك".

سأل الأمير بندر طارق عزيز مباشرة: "ما الأهم بالنسبة إليك؟".

أجاب عزيز: "أن أجتمع بالأعضاء الخمسة الدائمين في مجلس الأمن".

"لا مشكلة في ذلك". ردّ بندر: "أهذا كل ما تريده؟ إذاً مهمتي يسيرة".

"أجل". قال وزير الخارجية العراقي. "لكنني دعوتهم للاجتماع بي في السفارة العراقية فرفضوا".

"لَم يثير ذلك دهشتك يا طارق؟ تأتي إلى نيويورك وأنت من يحتاج إلى المساعدة وتقول لهم *وافوني في سفارتي!* من تحسب نفسك؟".

عندئذ، ضحك الاثنان كما قال بندر. ووجد بندر الفرصة سانحة فألح على عزيز بالقول: "دعنا نذهب ونلتقيهم في مكتب الأمين العام للأمم المتحدة".

رفض عزيز مجدداً بصورة تدعو إلى الاستغراب، قائلاً: "لا، لا بد أن يكون اللقاء هنا [في السفارة العراقية]، هذا ما أريده منك".

أجــاب بندر على الفور: "إذا كان هذا هو الشيء الوحيد الذي تريده مني وهذا هــو موقفك النهائي، فإنّني أفضل العودة إلى واشنطن لأن ما تريده لن يتحقق. اسمع، ســأدعوهم إلى فندقــي ويمكنك أن تأتي، وعندئذ نعقد الاجتماع. فإذا كان مرادك الاجتماع، فما همَّ كيف يكون وأين يكون؟".

عندئذ فقط وافق طارق عزيز على مضض.

بعــد افتراقه عن الوزير العراقي، اتصل بندر بالبيت الأبيض وتِن داوننغ ستريت وطلــب منهما المساعدة بشكل غير مباشر. "لم أطلب منهما الاجتماع بطارق عزيز، بــل بــي فقط". كان للسفير السعودي إلى الأمم المتحدة جناح خاص به، في فندق والــدورف أستوريا، على غرار الممثل الأميركي الدائم في الأمم المتحدة. وقد خطّط بــندر لعقــد الاجتماع في جناح السفير السعودي. وطلب من ممثل المملكة في الأمم المــتحدة دعــوة الممــثّل الصيني والفرنسي والروسي إلى اجتماع. وافق الجميع على الحــضور. ووصــل الــسفراء الخمسة كافّة في وقت واحد، وكانوا يتناولون الشاي الإنكليزي والبسكويت عندما حضر وزير الخارجية العراقي. ابتسم الأمير وهو يعلن: "ها نحن لدينا الآن لقاء بين الأعضاء الخمسة الدائمين وطارق عزيز".

ذكــر بندر ذلك الاجتماع بغضب قائلاً: "تبين أنّ كل ما يريده طارق عزيز هو أن يقــول لــصدام حــسين، *جعلت الأعضاء الخمسة الدائمين يلتقون بــي*، لأنه لم يتزحزح في الاجتماع قيد أنملة. بل أملى موقفاً متشدّداً". قوّض طارق عزيز أي فرصة للاتفاق، وبعد الاجتماع، بدأ بندر العمل بشكل مباشر مع الأمين العام للأمم المتحدة.

أوضح بندر شارحاً دوره: "لم يكن لي اتصال مباشر مع الإيرانيين بطبيعة الحال. كــنت أســتعين بــدي كويار للتحدّث إلى الإيرانيين، وكنت أتحدث مع العراقيين". وأضــاف: "عندما تُصاب الأمم المتحدة بالإحباط مع العراقيين، كنت أتولّى وأتحدّث بــاسمهم للحــصول على صفقة أو تسوية. ومضى أسبوعان أو ثلاثة أسابيع بين أخذ ورد، ثم انهارت المفاوضات لأن كلا الجانبين لم يتوقّفا عن المساومة؛ أو ظنّ كل منهما أنّ في وسعه الانتظار حتى يتراجع الطرف الآخر".

في عرض تفصيلي كاشف عن طريقة عمل الأمم المتحدة، شرح بندر: "على المرء أن يفهــم أن ثقافــة الأمــم المتحدة تقلّص الخطوط الوطنية الفاصلة بين الوفود. فهم يعيــشون ويعملون ويأكلون في مبنى واحد. وبعد فترة من الوقت يصبح هناك تآلف

حتى بين ممثلي الدول المتعادية. لذا ليست هناك أسرار يمكنك الاحتفاظ بها في ما يتعلّق بالتكتــيكات. وقــد بــدأ الإيــرانيون يشتبهون أن مواقف الأميركيين والبريطانيين والفرنسيين تزداد تشدّداً حيال صدام حسين ويتساءلون، *لَمِ نسلّم الآن؟* ولذلك اتخذوا موقفاً أصلب. وعندما انهارت المحادثات، تمّ ذلك بصورة رمزية: قال طارق عزيز، *إنّني مــشغول جداً ولا يسعني البقاء في نيويورك، لذا سأعود إلى بلادي. إذا كنتم تريدون الاجــتماع، فليكن في الشرق الأوسط وسنلتقي هناك*. وقال الإيرانيون، *حسناً، ليكن في طهران*. لذا، انفضّ الاجتماع".

بعــد محاولات متكرّرة للتفاوض، وفي مناورة أخذ ورد مطولة، رأى دي كويار وبندر أن الطريقة الفضلى لتحقيق تقدّم هي عقد محادثات في جنيف. وتم ذلك بهدوء، ومــن دون أي إعلان، لكي تتسنّى لهم أيام قليلة بعيداً عن تطفّل الإعلام. مكث بندر في منــزل أبيه في جنيف، وجرت الاجتماعات بين دي كويار، وطارق عزيز، وبندر في السفارة العراقية في جنيف. وبدأوا ببطء ينظمون معاً اتفاقاً لوقف إطلاق النار.

قــال بندر: "أنجزنا نحو 98 بالمئة لكن دي كويار أخذ يعبر عن إحباطه؛ فقد تألّم من تعجرف العراقيين، واصفاً تباهيهم وفظاظتهم وإلى ما هنالك". خشي بندر احتمال انــسحاب دي كويار من المشاركة في المباحثات، فحرص على تهدئته. ويقول الأمير: "إنصافاً للرجل - وكان مقتدراً وحكيماً جداً - قال *لن أنسحب. سأتابع الأمر*. ومع ذلك ردّدت على مسامع العراقيين، *قد ينسحب فعلاً*". واعترف بندر بقوله: "ردّدت تلك العبارة لحمل العراقيين على المتابعة".

علــى الــرغم من سوء سلوك العراقيين وتهديداتهم الجوفاء، فقد تمكّنا أخيراً من صياغة مسودة لاتفاق وقف إطلاق نار يستطيع كلا الوفدين نقلها إلى بلديهما. وبعد أسبوع أو عشرة أيام التقوا جميعاً في نيويورك. وصل عزيز حاملاً موافقة صدام حسين علــى الانطلاق بالمسودة، كما هي. إلا أنّ الإيرانيين وافقوا على المضي قدماً بالمسودة بعد إجراء تغييرات؛ تعديلات طفيفة لا تغير معنى الاتفاق أو تفرّعاته القانونية. أوضح بندر أن التغييرات الطفيفة جعلت الاتفاق "أكثر استساغة عند الإيرانيين. وأجمع أعضاء الأمم المتحدة الخمسة الدائمين على أن لا مشكلة في ذلك".

وافق خافيير بيريز دي كويار وأعضاء مجلس الأمن الخمسة الدائمون، لكن رفض طــارق عزيز. وبالنسبة إلى بندر، كان من غير المعقول أن يضرب العراقيون كل شيء


وزير الخارجية العراقية طارق عزيز

عـرض الحـائط ويواصلوا الحرب، بعد كل هذا المجهـود المحمـوم والمثبط. ومع ذلك، كان وقف إطـلاق النار في مأزق خطير؛ وعزيز يرفض إدخال أي تغيير على نص الاتفاق. لذا ذهب بندر لمقابلته.

"لا يعني لا!". أجاب الوزير العراقي بحزم. "لن أقـبل التغيير". استشاط بندر غضباً وتجاهله، قائلاً: "حسناً، لا يمكنني أن أفعل شيئاً. سأرحل. واصلوا الحرب وسوّوا أموركم بأنفسكم".

ثم استدار ورحل.

تـبعه عزيز حتى أدركه وهمس في أذنه: "هل يمكنني أن أراك وحدك في الفندق؟".

ردّ بندر عليه بالإيجاب، لكنه أقرّ أنّ الأمر لم يعد يعنيه.

شـعر السفير السعودي إلى الأمم المتحدة، الذي كان مع بندر في ذلك الوقت، بالإحباط أيضاً وقال له: "إنها غلطتك!".

سأل بندر: "لماذا؟".

قـال السفير: "لأنك أقنعت العراقيين أنّ السفراء الممثلين للدول الكبرى جاؤوا للقـاء عزيـز بفضله أو بفضل بلده. إنه لا يعرف أنهم أتوا لأننا نحن الذين جعلناهم يأتـون، وهـا هـو الآن يظن أن في وسعه أن يملي عليهم ما يشاء. ولذا، أنت الذي أوحيت له بذلك".

سـلّم بـندر بالأمر قائلاً: "لعلك على صواب، لكنّني أعتقد أن ثمة شيئاً آخر، لننتظر ونَرَ".

عـاد بـندر إلى الفندق، وتبعه عزيز بعد وقت قصير. طلب عزيز من بندر رفع صـوت الـتلفاز ثم همس له: "لم أستطع أن أقول لك شيئاً في سفارتنا لأن هناك من يـراقب كـل شيء ويسجله. إنّني أوافقك الرأي. هذا اتفاق جيد. ولكن سبب عدم قدرتي على تغييره هو أن صدام وافق عليه، ولا يمكنني أن أغيّره حتى يوافق صدام".

أجـاب بندر: "ما المشكلة يا طارق؟ اتصل به وأبلغه أنّ هذا ما توصي به؛ فأنت في النهاية نائب رئيس الوزراء ووزير الخارجية".

انـــتفض عزيز فزعاً وقال: "أأنت مجنون؟ لا يهمّني حتى لو استمرت الحرب عشر سنوات. لا أريد أن أفقد حياتي. إغضاب صدام يعني الموت!".

"حـــسناً". قال بندر: "سأتصل بالملك فهد، وأطلب من جلالته الاتصال بصدام بشأن التغييرات".

"بشرط واحد". أجاب عزيز: "لا تخبره أننا تحادثنا".

وافق بندر وقال: "حسناً، أعطني رقم هاتف صدام".

لكن عزيز رفض مجدداً، إذ خشي أن يسأل صدام كيف حصل بندر على الرقم. وهكـــذا اتصل بندر بالملك فهد وأطلعه على الموقف؛ فطلب الملك من الأمير الاتصال بصدام بنفسه.

قـــال بندر لعزيز: "طلب مني الملك الاتصال برئيسك، وسأتصل به الآن. لكنّني لستُ سوى سفير وأنت وزير خارجية. لِمَ لا تتصل أنت به؟".

ردَّ عزيز عليه بحدة: "لا عليك، اتصل به أرجوك".

وهكذا اتصل بندر بصدام.

يذكر بندر أنه حين تكلم إلى صدام: "أجاب بطريقته المتغطرسة الفصيحة، *مرحباً يا أبا خالد*. بدلاً من مناداتي باسمي، ناداني باسم ابني". وتبادلا بعض عبارات المجاملة ثم قـــال بندر: "لقد أنهينا عملنا تقريباً، لكن لدي شكوى. لقد توقّفنا عند كلمتين لا بد من تغييرهما ووزير خارجيتك غير موافق".

وشـــرح الأمير: "كان طارق عزيز يصغي إليّ. فأشرق وجهه. كان سعيداً للغاية لأنّني أخبرت صدام أنه لم يوافق".

وذكـــر الأمير كيف قهقه بعجرفة وقال: "أجل، طارق عزيز رجل طيّب؛ صعب المراس أحياناً، لكنّه رجل طيب".

قـــال بندر: "إنني بحاجة حقاً إلى دعمكم، يا فخامة الرئيس. هل لكم أن توعزوا إليه بالموافقة بحيث نستطيع إبرام الاتفاق؟".

أجـــاب صدام: "يا بندر، أنت لا تمثّل المملكة العربية السعودية فقط؛ أنت تمثّل العراق والمملكة العربية السعودية. وأي شيء توافق عليه، أقبل به".

رد بندر: "هذا شيء رائع، لكن رجلك يبدو عنيداً جداً".

أجاب صدام: "سنبعث برسالة إليه".

أســـرَّ بندر بالقول: "طبعاً، لم أقل له إن طارق كان يصغي إلى المحادثة. وضعت سماعـــة الهاتـــف وقلت في نفسي، *لو لم تكن هذه مسألة حياة أو موت لكانت عرضاً هزلياً*".

وختم بندر: "في اليوم التالي توصّلنا إلى اتفاق وقّعه المعنيون، وما تبقى تاريخ".

الخليج ينفجر

"تذكر، يا جورج، هذا ليس وقتاً للتردّد"(*).

مارغريت تاتشر
3 أغسطس 1990

في 2 أغسطس 1990، فيما كان الرئيس صدام حسين يشاهد قواته تجتاح الكويت، تساءل العالم المذهول عما إذا كانت المملكة العربية السعودية وحقول نفطها المهمة سيكونان الهدفين التاليين[1]. وفي 3 أغسطس، استدعى البيت الأبيض الأمير بندر، بعد عودته من لندن، ليطلعه مستشار الأمن القومي الأميركي، الجنرال برنت سكوكروفت، على التهديد العراقي. وخلال ذلك اللقاء، عرض الرئيس بوش على السعوديين دعماً عسكرياً فورياً وقدّم ضمانته الشخصية أن تتابع الولايات المتحدة الأمر حتى النهاية إذا أُرسلت قوات أميركية إلى المملكة[2].

خلال حشد القوّات استعداداً لحرب الخليج الأولى، تميّز عمل بندر بأهمية استراتيجية حيوية بالنسبة إلى الولايات المتحدة وعزّز دوره الفريد، الذي كان، باعتراف برنت سكوكروفت نفسه، أكثر من دور أي دبلوماسي بكثير. "كان بندر وسيطاً بارعاً للملك فهد، برتبة تعادل مرتبة وزير في الحكومة السعودية. وكان الملك يستشيره باستمرار. ولهذه الأسباب كنّا نعرف أنه قناة مميّزة بين الولايات المتحدة

(*) أثنى الرئيس بوش على شجاعة مارغريت تاتشر وعلى المساعدة التي قدّمتها في تشكيل ائتلاف كبير ضد العدوان الوحشي على الخليج. وتذكّر محادثة هاتفية مميّزة مع رئيسة الوزراء في الأيام الأولى من أزمة الخليج. وقد اتصل الرئيس بها ليقول: "على الرغم من أننا عازمون على اعتراض حركة السفن العراقية، فإننا سنسمح لسفينة واحدة متجهة إلى عُمان بالرسوّ في اليمن، دعيها تدخل من دون عائق". استمعت تاتشر، لشرحي ووافقت على القرار، لكنها أضافت كلمات التحذير التالية، كلمات اهتديت بها طوال أزمة الخليج، ولن أنساها ما حييت. *تذكّر يا جورج*، قالت، *هذا ليس وقتاً للتردد*". نقلاً عن خطاب للرئيس بوش خلال تقديم ميدالية الحرية الرئاسية، إلى الليدي مارغريت تاتشر في 7 مارس 1991.

والملك فهد"[3]. قناة مميّزة جداً، في الواقع، بحيث قيل إن "إرسال القوات الأميركية ارتبط لاحقاً بالصداقة الشخصية بين جورج بوش والأمير السعودي بندر"[4].

لم يكن توسّط بندر مقتصراً على البيت الأبيض. إذ يذكر اللورد تشارلز باول، السكرتير الخاص لرئيسة الوزراء مارغريت تاتشر: "في الأشهر التالية، كان يتردد على تن داوننغ ستريت ناقلاً آراء سعودية بشأن التحضيرات للحرب وكل ما يتعلّق بها. كانت تلك الفترة من العلاقة بينهما حافلة بالنشاط على نحو خاص"[5].

متذكراً تلك الأوقات العصيبة، قال باول إن رئيسة الوزراء البريطانية كانت تعرف أنّه عندما يقول بندر: "هذا ما يريده الملك أو ما يمكن أن يوافق عليه، يكون الأمر كذلك. وهذا ما يُقدّر عالياً في أي موفد أو وسيط: أن يستطيع التحدّث بثقة باسم الشخص الآخر. ويمكنني أن أضيف أنّ الحال كانت كذلك، على وجه الخصوص، في أثناء الاستعدادات للحرب وفترات الأعمال العدائية"[6].

أقرّ برنت سكوكروفت في المقابلة التي أجريتها معه أنّ دور الأمير في تلك الأيام الأولى كان أساسياً وأنّ اجتذابه إلى قلب الإدارة بالذات كان ضرورياً. وأكد سكوكروفت



مستشار الأمن القومي برنت سكوكروفت يحيط به الجنرال نورمان شوارزكوف (إلى اليمين) ورئيس الأركان جون سنونو (إلى اليسار)

أيضاً على أن الأمير كان ضالعاً في التخطيط العسكري في مرحلة مبكرة جداً[7]. وقد لوحظ في أثناء حرب الخليج الأولى أنّ بندر أصبح "بمثابة عضو فعلي في مجلس الأمن القومي"[8]. وكان، منذ البداية، يواكب بشكل منتظم خطط الإدارة وتفكيرها[9]. ولا شكّ في أنّ ذلك المنفذ يرجع إلى صلته الوثيقة بالملك السعودي. وعن علاقة بندر بفهد، يقول سكوكروفت: "لم يكن هناك سواه تقريباً، لم يكن في وسعنا استخدام سفيرنا". وأضاف، في ما يشبه فكرة لاحقة: "في الواقع، لم يكن لدى سفيرنا المنفذ الذي نحتاج إليه. كنا بحاجة إلى من يستطيع الوصول إلى الملك على الفور وكان بندر الاختيار الواضح"[10].

فاقم الفراغ بين الدبلوماسية الشرق أوسطية والدبلوماسية الغربية من أزمة الخليج. ففي اجتماع بين صدام وحسين والسفيرة الأميركية إلى العراق أبريل غلاسبي، في 25 يوليو 1990، قالت غلاسبي: "كما تعلم، نحن [الولايات المتحدة] لا نتخذ موقفاً من النزاعات على الأراضي". وقد أساء الرئيس العراقي تماماً تفسير هذا الإعلان من غلاسبي واعتبر ضمناً أن الولايات المتحدة ستتغاضى عن الاستيلاء على الكويت بالقوة.

وفي عبارة غامضة أحدثت تبعات هائلة، قالت غلاسبي لحسين: "الرئيس بوش رجل ذكي. فهو لن يعلن حرباً اقتصادية على العراق... لا رأي لنا بشأن النزاعات العربية العربية كخلافكم الحدودي مع الكويت"[11]. وافترض صدام أن الكلب الأميركي سينبح لكنّه لن يعض[12]. وبعد ثمانية أيام، وجّه صدام جيشه إلى الكويت، وأطلق اجتياحاً تطلّب ردّه على أعقابه 500,000 جندي أميركي وحصد أرواح آلاف الضحايا[13].

مهّد بيان مماثل من مارغريت توتويلر، الناطقة باسم وزارة الخارجية الأميركية، لكلام السفيرة غلاسبي قبل يوم واحد فقط من اجتماعها بصدام حيث قالت في يوليو 1990، أي قبل غزو العراق للكويت بتسعة أيام: "لا توجد بيننا وبين الكويت أي معاهدة دفاع، وليست لدينا التزامات دفاعية أو أمنية تجاه الكويت"[14].

لكن على الرغم من تلك التصريحات الرسمية، عملت الاستخبارات الأميركية طوال شهر يوليو 1990 على مراقبة القوات العراقية التي كانت تحتشد على الحدود الكويتية منذرة بهجوم وشيك على الكويت. كان هناك تاريخ من العداء بين العراق

والكـــويت، إرث يعـــود إلى قـــيام القوى الغربية الكبرى بتقسيم العالم العربـــي بعد الحرب العالمية الأولى. وقد قيّد هذا التقسيم كثيراً منفذ العراقيين على الساحل، وأشعل نـــزاعات حدودية بشأن تقسيم حقل نفط الرميلة الغني، وملكية مناطق مختلفة، منها جزيـــرة بوبيان، التي تسدّ بشكل استراتيجي ميناء وقاعدة أم قصر البحرين العراقيين. وازدادت التوتّرات حدة بعد انتهاء حرب الثماني سنوات بين العراق وإيران.

كانـــت الكـــويت مصدر دعم كبير للعراق خلال الحرب الإيرانية العراقية، وقد أخـــذت بعـــد الحرب تطالب بالأربعة عشر مليار دولار التي كان العراق قد اقترضها منها، فيما كان صدام حسين يشكو بمرارة من قيود أوبك، وهبوط أسعار النفط. وعزا ذلـــك الهبوط إلى الكويت والإمارات العربية المتحدة، متهماً إياهما بالإفراط في إنتاج النفط.

كـــان الجنرال نورمان شوارزكوف يراقب انتشار القوات العراقية بتوتر، وعندما طلـــب مـــنه وزير الدفاع ديك تشيني تقييم تحركات القوات العراقية، أجاب: "أعتقد أنهـــم، العـــراقيون، سيهاجمون. لكنهم سيستولون على الرميلة وبوبيان ثم يتوقفون". وعندما سئل لاحقاً عما يجب أن تفعله الولايات المتحدة في حال حدوث ذلك، قال: "لا شيء على الإطلاق، العالم لن يهتم. وسيكون ذلك أمراً واقعاً"[15].

دفـــع تواتـــر الأنباء عن الاضطراب العراقي وموقف صدام حسين المتزايد تهديداً للكويت، المملكة العربية السعودية، والكويت، والإمارات العربية المتحدة لوضع قواتها في حالة تأهب. وأحجمت المملكة العربية السعودية والكويت عن طلب مساعدة من الغـــرب. غير أن الإمارات طلبت طائرات صهريج أميركية لتشارك في عمل عسكري مـــشترك، ولُبّـــي طلبها. وعندما ألحّ على الإمارات بالسؤال، أصرّت على القول إن طائـــرات الـــصهريج جزء من إجراء تدريبـــي روتيني، وشدّدت تحديداً على تصميم العـــرب علـــى التقليل من أهمية أي تدخّل خارجي في ما يعتبرونه نـــزاعاً خاصاً بين "أهل البيت". انـــزعج بندر من "عملية العدالة العاجية" - وهو الاسم الذي عُرف به قـــيام الولايات المتحدة بنشر طائرات الصهريج - وشعر أنّه لم يكن على الإمارات أن تطلـــب مـــثل ذلك التدخّل الذي ربما يشكّل تهديداً للدبلوماسية الأميركية في المنطقة ويـــزعج الدول العربية المحافظة، على الرغم من ارتياحه لاستجابة الأميركيين إلى طلب المساعدة من حليفتها العربية.

على الرغم من قلق الغرب المتزايد، كرّر الرئيس مبارك والملك فهد تأكيداهما أنّ العــراق لــن يهاجم الكويت. وفي واشنطن، "كان بندر يقول للجميع لا شيء يدعو للقلــق. و لم يطلــب الكويتــيون المساعدة"[16]. وكان الاعتقاد الراسخ أن في الإمكان معالجة مظالم صدام حسين ضمن نطاق الأسرة العربية أياً يكن شكلها. وقد شكّل هذا الخطــأ المطلــق في الحسابات خلفية للغزو الذي نــزل على العالم العربــي نــزول الصاعقة.

خُــدع بندر، مثلما خُدعت غلاسبــي. فقد كان الوثوق بكلام صدام حسين خطــأ جسيماً في الحكم، خطأ أساء تفسير خطط الزعيم العراقي تماماً. و لم ينفِ بندر وجــود ما يدعو إلى القلق أمام واشنطن فقط، بل إنه طمأن مارغريت تاتشر أيضاً أنّ صدام يتظاهر ليس إلا ولن يحدث أي غزو[17].

تحدّث كولن باول عن سوء قراءة بندر للموقف على الأرض، فقال: "لقد أقسم أنّ الاجتــياح لن يقع، وكانوا كلهم يقولون لنا إنهم [العراقيون] لن يقدموا على ذلك. وظللــت أقول له، *يا بندر، عليك مراجعة الاستخبارات؛ ثمة شيء غريب هنا*. وظلوا مصرّين على أنّ في وسعهم السيطرة على الموقف"[18]. لكنهم لم يستطيعوا.

يقــول بندر في إعادة لسرد الوقائع المؤدّية إلى الحرب: "قبل الغزو بأسبوعين، بدأ العــراق نــــزاعاً شــفهياً مع الكويت بخصوص أسعار النفط. ثم أخذ يحشد قواته. تحــرّكت المملكــة العربية السعودية على الفور، وبدأت محادثات مع كل من العراق والكويت". وفي محاولة لنــزع فتيل المشكلة المتفاقمة، أُرسل وزير الخارجية السعودي إلى العراق لمقابلة صدام.

قــال ســعود: "إنكــم تحشدون قواتكم ولديكم مئة ألف جندي على الحدود الكويتية. هذا ينذر بالخطر".

أجاب صدام المغرور مستبعداً ذلك: "أيها الأمير سعود، لست بحاجة إلى مئة ألف لو كنتُ أنوي غزو الكويت، يكفي عشرون ألفاً. هذه مجرد تدريبات سنوية، لا تقلق بشأنها".

بعــد ذلك أعدّ الملك فهد لقاء قمة بين الكويتيين والعراقيين في جدة، لكنهم لم يتوصلوا إلى حل. وافق الكويتيون على التوجّه إلى بغداد والتحدّث إلى العراقيين على انفراد. فإذا توصلوا إلى اتفاق، فسيكون ذلك عظيماً، وإذا لم يتوصلوا، تدعو المملكة

العربية السعودية عندئذ إلى اجتماع قمة في المملكة يحضره صدام حسين، وأمير الكويت، والرئيس مبارك، والملك حسين، ورئيس منظمة التحرير الفلسطينية ياسر عرفات، ويحاول السعوديون حل النزاع.

سُرّ بندر عندما وافق العراقيون والكويتيون على الاجتماع في جدة لإجراء محادثات، لذا لم تخفْه تهديدات صدام باستعمال القوة. وبدلاً من ذلك توجّه في 31 يوليو 1990 إلى إنكلترا ليبدأ إجازة يستحقّها ومعدّة مسبقاً في الصين، مطمئناً أنّ الأوضاع في الخليج قابلة للمعالجة وتحت السيطرة. ولم يكن يدور في خلده أنّ العراق سيشن هجوماً واسع النطاق على الكويت بعد ساعات من وصوله إلى لندن. كان مصير المملكة، وبقاؤها، في خطر. وفقدان حقول النفط السعودية والكويتية يعني ضياع الاقتصاد العالمي أيضاً.

اعترف بندر قائلاً: "لطالما شعرت في حياتي العامة، على الرغم من كل الخلافات التي شهدتها وكان عليّ التعامل معها في العالم العربي، أنّ من الممكن إنقاذ الحد الأدنى المطلوب. وأنّ الشعب [العربي] يتناسى خلافاته عندما تدعو الحاجة القومية إلى الوقوف معاً. لكنْ، ما حدث للكويت فريد في نوعه، لقد كان شديد الوقاحة والغطرسة والعنف بحيث يدعو إلى التشكيك في الموقف العربي كله على نحو لم أعهده من قبل"[19].

لقد خدع صدام أشقاءه العرب وكذب عليهم عمداً، ولم يعد يمكن الوثوق به. صُدم بندر بهذه الخديعة. بل إنّ غزو الكويت وضمّها لاحقاً هزّ العالم العربي بأسره. وكان الهجوم بحدّ ذاته أقلّ وقعاً على زعماء الشرق الأوسط، من نفاق صدام الصارخ واستخفافه بالأخوة العربية.

شدّد بندر دائماً في المقابلات الكثيرة التي أجريت معه في أثناء الحشد لحرب الخليج، على الغطرسة التي تتسم بها أعمال صدام، وكيف زادت إساءته المتعمدة لثقة الزعماء العرب الخطر الذي يشكله بالفعل. "لقد غزا الرئيس صدام حسين دولة عربية شقيقة مستقلة، وعضواً في جامعة الدول العربية. أخبرنا قبل ذلك أنّه لن يقدم على الغزو؛ وأبلغ الملك فهد، شخصياً، أنّه لن يقدم على الغزو؛ وأبلغ الرئيس مبارك والملك حسين أنه لن يغزو الكويت؛ وأبلغ الرئيس بوش والرئيس غورباتشيف أنّه لن يقدم على الغزو. ثم غزا. وأبلغنا بعد ذلك أنّه سينسحب ولم يفعل. ثم قال إنه لن يحرّك قواته جنوباً، لكنه حرّكها. ثم قال إنّ لا مطامع إقليمية لديه ضدّ الكويت ثم ضمّها"[20].

لخّص بندر فحوى تصرف صدام، فقال بندر لجون ماكلولن: "إن ما فعله الرجل يناقض كل منطق أو كل سلوك عربي وإسلامي؛ ولذلك، لا أستبعد شيئاً من هذا الرجل"[21]. وأسهب في هذا التعليق في مقابلة في برنامج لاري كنغ لايف على محطة سي أن أن، قائلاً: "لو أنك سألتني قبل ساعة واحدة من غزو صدام حسين للكويت، وقدّمت إليّ السيناريو الذي انكشف، لضحكتُ منك وقلت إنه سيناريو غير معقول. ومع ذلك، حدث".

وأوضح بندر: "كنت معه قبل أربعة أشهر فقط، وأمضيت معه أربع ساعات"[22]. كان بندر يشير إلى اجتماع في 5 أبريل 1990 حين قام بمهمة دبلوماسية إلى بغداد للقاء الرئيس صدام حسين بطلب شخصي من الملك فهد، وذلك على أثر تصريحات نارية طنّانة أطلقها الزعيم العراقي ضد إسرائيل. ففي محاولة للتعتيم على الأمر وكسب الوقت – لكن قد يكون السبب جزئياً اعتقاده أنّه أفرط في التهديد[23] – طلب صدام حسين من الملك فهد إرسال موفد خاص إلى بغداد[24].

خلال محاولة بندر التوسّط، طمأنه صدام إلى أن ما قاله: "والله سنحرق نصف إسرائيل إذا حاولت القيام بأي شيء ضدّ العراق". لم يكن يشير إلى أي هجوم عراقي نووي محتمل على إسرائيل. وفي علامة على بداية إساءة تفسير الخطاب لدى الجانبين، أقرّ صدام لبندر أنّه يتمنّى لو أن خطابه صيغ بشكل مغاير، لكنه أصرّ على أن الولايات المتحدة تبالغ في ردّ فعلها ونفى بشدة وجود أي نية عدوانية وراء كلماته[25].

تحدّث صدّام عن احتمال تعرّضه للهجوم وقال للأمير: "إذا هوجمت الآن [من قبل إسرائيل] فلن أصمد ست ساعات". وحمّل السفير رسالة شخصية، "أريد أن أؤكد للرئيس بوش وجلالة الملك فهد أنّني لن أهاجم إسرائيل"[26]. وكان حسين حريصاً أيضاً على أن يؤمّن الأمير موافقة مماثلة من الجانب الإسرائيلي بعدم مهاجمة العراق[27].

وبطلب من الملك فهد، شرع بندر في إقناع الرئيس بوش بصدق صدام. وبعد مقابلة ثانية مع الرئيس، أمّن بندر ضمانات إسرائيلية، عبر الولايات المتحدة والمملكة العربية السعودية أنّ إسرائيل لن توجّه إلى العراق ضربة استباقية. وعلى الرغم من جهود بندر، بقي بوش حذراً من خطاب الزعيم العراقي، قائلاً: "إذا كان هذا الرجل لا يعني ما يقول، فلِمَ لا ينفك يردّد هذه الأشياء؟"[28].

من دون إدراك للعذر المتحل الكامن وراء ضمانات صدام المفعمة بالحماسة، كانت أعمال بندر، نظرياً، مثالاً مألوفاً على المفاوضات الدبلوماسية الشرق أوسطية/الغربية. غير أنّ إنجازه أضاف الملح إلى الجروح عندما نكث صدام وعده لاحقاً واجتاح الكويت من دون أن يستفزّه أحد.

عندما نقل بندر من دون أن يقصد أكذوبة صدام المقصودة، لم يستغفل فيضلّل الرئيس بوش ورئيسة الوزراء تاتشر فحسب، وإنّما ضلّل راعيه وعمّه الملك فهد أيضاً. وفي نظرة إلى الأمور بعد وقوعها، استخلص بندر بمرارة أنّ صدام استغلّه، واستغلّ موقعه الفريد، ليؤمّن سلامة العراق من جهة إسرائيل، ما يُفسح له المجال لتنفيذ عمليات في الشرق، على الحدود الكويتية. وقد اكتُشف لاحقاً أنّه لم يكن للعراق لحظة الغزو أي جندي عامل على مجنَّبته الغربية[29].

عند التفكير في مهماته الدبلوماسية في أثناء التمهيد لحرب الخليج، يقول بندر متذكراً الاجتماع الذي طلب فيه صدام منه إقناع تاتشر وبوش أن لا نية لديه لقتال إسرائيل: "وهكذا أبلغنا الأميركيين والبريطانيين أنّ ما نُقل عن هذا الرجل خارج عن سياقه". وأضاف بندر أنّه في نهاية لقائه به، أدلى صدام بملاحظة مرتجلة: "على فكرة، أبلغ الملك فهد أن يتفضّل بطمأنة بلدان الخليج إلى أنّني لا أنوي غزوها".

سألت على الفور: "ماذا؟".

أجاب صدام: "لا تصدقوا الدعاية الإمبريالية الصهيونية".

قال بندر: "مهلاً، هل اتهمناك بذلك؟".

"لا".

"هل لديك أي نية؟".

"لا".

قال بندر: "لم أفهم لِمَ تقول لي هذا".

"لأن وسائل الإعلام الاستعمارية الصهيونية تحاول تسميم عقول بلدان الخليج الصغيرة".

أجاب بندر: "لا تشغل بالك بذلك. أرجو فقط ألا تكون لديك أي نوايا".

عند هذه النقطة في الحوار، هزّ بندر رأسه وقال: "سبّب لي ذلك ضيقاً، وقد دوّنت ملاحظة بشأنه، جملة واحدة فقط في مذكّرة من 18 صفحة كتبتها للملك فهد،

في مذكـــرتي أحطـــت تلك الجملة بنجوم وخربشات لأنني أمضيت رحلة العودة إلى المملكة العربية السعودية وأنا أقرأ الجملة مرة تلو أخرى".

عـــندما قابل بندر الملك ليطلعه على خلاصة مهمته، طلب فهد من الأمير قراءة المذكرة كلها، قائلاً: "لا تعطني انطباعاتك، اقرأ فقط ما كتبته".

يذكـــر بـــندر لقاءه مع الملك قبل توجّهه إلى بغداد، فيوضح أن الملك قال له: "لدي شكّ في سبب طلبه رؤيتك. لذا حين تذهب إليه، احرص على تدوين الملاحظات بدقة".

ويـــتابع بـــندر: "وهكذا دوّنت الملاحظات، ودوّن سفيرنا في بغداد الملاحظات أيـــضاً. وكان كبير الموظّفين لدي يدوّن الملاحظات أيضاً. جمعت الملاحظات كافة في مذكرة من 18 صفحة. وقرأت الصفحات كلها على جلالته ولم يُدل بأي تعليق حتى بلغت هذه الجملة".

قاطعه الملك: "توقّف. أعد قراءتها".

كرر بندر الجملة ثلاث مرات، فمد فهد يده طالباً المذكرة وقال: "هاتها".

وبعد أن درسها بإمعان، سأل: "لِمَ خربشت حولها؟".

أجاب الأمير: "لأنها أزعجتني، يا سيدي".

فأبـــدى الملك ملاحظاته التوقعية، "آمل في ألاّ يوسوس الشيطان في عقله. هذه الجملة تقلقني".

رغـــم أن الـــسعوديين ظـــنّوا أنّهم يسيطرون على الأمور، فقد كانوا يشعرون بالارتـــياب. فأرسل الملك فهد الأمير سعود الفيصل مجدداً لمقابلة صدام. غير أن صدام اســـتقبله بـــشكل عدائـــي، قائلاً: "أيها الأمير سعود، لو لم تكن من المملكة العربية السعودية لما استقبلتك. كيف تشكّك في كلامي؟ لقد قطعت للملك فهد وعد شرف بألاّ أقوم بتحرّك عسكري لإخافة الكويتيين. لذا لا تفكروا في ذلك البتة".

كـــان ذلـــك التأكيد مقنعاً. وبعد ذلك اللقاء، سافر بندر لمقابلة السيدة تاتشر والرئيس بوش وإعادة طمأنتهما إلى نوايا صدام حسين. ويذكر بندر ردّي فعلهما.

قالت السيدة تاتشر: "لا أثق به. يجب أن نكبح جماحه ونهاجمه".

بيد أن بوش قال: "لا أريد أن يهاجم أحد أحداً".

وبعـــد شهرين، سأل بندر الملك فهد، وهو يظنّ أن الوضع بات تحت السيطرة: "يـــا جلالة الملك، بما أنّ فتيل الأزمة قد نـــزع، هل يمكنني أن آخذ إجازتي؟". كان

الأمير يعتزم الذهاب إلى الصين في إجازة، والأميرة هيفاء وأولاده ينتظرونه في باريس. وكانت الخطة تقضي بتمضية أسبوعين مع الأصدقاء والعائلة في الصين، وأسبوعين آخرين في هونغ كونغ وسنغافورة وتايلند. وذكّر بندر الملك أنّه وافق سابقاً على أن يأخذ إجازة طوال شهر أغسطس.

قال الملك: "حسناً. لك ذلك، لكن توجّه إلى لندن وأطلع السيدة تاتشر على الاتفاق الذي توصّلنا إليه مع الكويت والعراق، ثم اذهب إلى حيث تشاء".

بعد ذلك بقليل، اتصل الجنرال كولن باوِل ببندر وقال: "أخبرني البيت الأبيض أنكم توصّلتم إلى اتفاق. هل أنت متأكّد؟".

أجاب: "أنا متأكّد بمقدار ما اطلعت عليه".

أجاب باوِل: "لقد خطّطت لأخذ إجازة لمدّة أسبوعين. هل تعتقد أنّ في وسعي القيام بذلك؟".

ضحك بندر وقال: "إنّني أعتزم أخذ إجازة لمدّة أربعة أسابيع في الصين".

فأجاب باوِل: "حسناً، اذهب أنت إلى الصين، وأنا سأذهب إلى كارولينا الجنوبية".

وصل بندر إلى لندن في 1 أغسطس 1990، وتوجّه على الفور إلى مقابلة السيدة تاتشر القلقة والمشكّكة كثيراً في نوايا صدام. ووفقاً لمقرّبين من الأمير، أصغت تاتشر إليه، وعندما فرغ، سألت: "ألديك شيء آخر؟".

قال بندر: "لا".

سألت تاتشر: "ما رأي جورج؟".

أجاب بندر: "يأمل جورج في أن نكون مصيبين".

أجابت: "هذا لا يكفي. أعتقد أن علينا مهاجمته اليوم قبل أن يهجم. أعتقد أنّه ينوي الهجوم. إنّه رجل شرير".

أجاب الأمير: "إنّنا لا نريد الحرب".

تراجعت السيدة تاتشر وقالت: "كنت فقط أتحدّث عما أفكر فيه. لكن إذا كان جورج والملك فهد يريان أن علينا أن ننتظر ونرى، فأنا مستعدة لمجاراتهما في هذا الرأي. أريد فقط أن يعلم جلالته أنّ هذا ما أشعر به، وسأتصل بجورج وأقول له رأيي".

ولمّا لم يعد هناك شيء آخر يفعله في لندن، قرّر بندر أن ينام باكراً في المساء. وطلب من مرافقيه عدم إزعاجه إلا إذا كان هناك اتصال من البيت الأبيض أو من الملك فهد. وعلى عادته، استعرض ما تبثه السي أن أن ثم أوى إلى فراشه. كانت الساعة في لندن تشير إلى الحادية عشرة والنصف مساء. وفي الساعة الثانية عشرة إلا ربعاً رنّ جرس الهاتف. وأخبره موظّف الأمن أنّ الجنرال سكوكروفت يريد التحدّث إليه من البيت الأبيض.

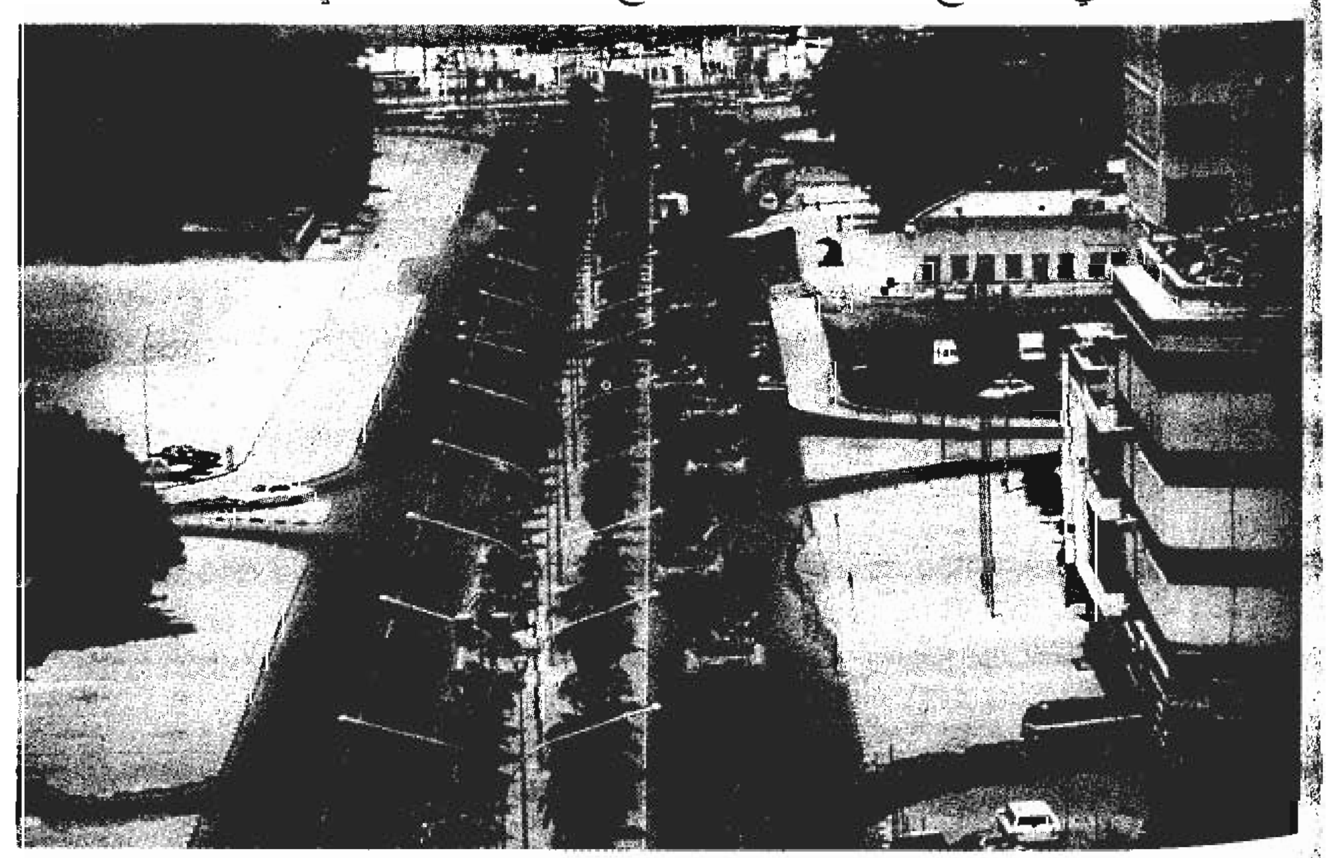
تناول بندر بقلق سماعة الهاتف وقال: "مرحباً، كيف حالك يا برنت؟".

أجاب سكوكروفت بجفاء: "أنا بخير. لكن الرئيس طلب مني أن أعلمك أننا نعتقد أنّ العراقيين عبروا الحدود منذ قليل إلى الكويت".

قال بندر مذهولاً: "مهلاً، مهلاً، أعد ما قلته".

كرّر سكوكروفت رسالته، فقال بندر، بعد لحظة: "يا برنت، لا أظن أن ما يجري اجتياح. أنا أعرف صدام حسين جيداً؛ لقد عبر الحدود ليستولي على بعض المراكز الحدودية، وقد يتقدم كيلومترين ثم يتوقف، على أمل أن يقوم الملك فهد صباح غد بالسفر إلى بغداد ثم إلى الكويت لتسوية الأمر بينهما".

أجاب سكوكروفت: "هذا تحليلك أنت. إنّني أبلغك فقط ما أراد الرئيس أن أنقله إليك. عليّ الإسراع الآن لحضور اجتماع لمجلس الأمن القومي".



الجيش العراقي يتقدم في الكويت

طلب بندر من سكوكروفت إطلاعه على ما يستجد ثم أغلق الهاتف. لقد أصبح يقظـاً تماماً، ومتأهّباً ويشعر بالاضطراب. تفحّص قناة سي أن أن مجدداً، ثم انتقل إلى قنوات إخبارية أخرى: لم ترد تقارير عن أي غزو. تساءل هل ينبغي له الاتصال بالملك فهـد وإطلاعـه على المعلومات التي تلقاها من البيت الأبيض. وفي شرح لقراره عدم استعجال الأمـور، قال: "أظن أنّني كنت في قرارة نفسي أميل إلى النفي؛ لم أرد أن أصدّق حصول ذلك. ثانياً، كانت نفسي تحدثني قائلة أريد الذهاب مع عائلتي إلى الصين. ثالثاً، كانت الخطوة انتحارية، بحيث لا يمكن أن تحدث، كانت غبيّة جداً". وبعد تأمّل قصير، أوضح ذلك التعليق الأخير، قائلاً: "تعريف المفاجأة الاستراتيجية هو أنّـك إذا فعلـت شيئاً بمنتهى الغباء، وكان من الواضح أنّه معاكس لمصالحك، ففي وسعك أن تحقّق مفاجأة استراتيجية. لم يكن أي شيء فعله صدام قبل الغزو غير معلوم لديـنا - رأينا كل شيء - الاختلاف كان في الاستنتاج فحسب. نعم، لقد فعل هذه الأشياء كلها، لكن الاستنتاج كان أنه لن يقدم على الغزو، لأن ذلك مخالف للمنطق".

حـين هـمّ بندر بالاتصال بالملك فهد لإطلاعه على مكالمة البيت الأبيض، رنّ جـرس الهاتف مجدداً: كان الاتصال من ساندرا تشارلز، وهي موظّفة في مجلس الأمن القومي مولجة بشؤون الشرق الأوسط وتعمل لدى سكوكروفت.

قالـت: "طلب منّي سكوكروفت أن أبلغك أن العراقيين في منتصف الطريق إلى مدينة الكويت".

أجاب بندر بذهول: "ماذا؟".

كرّرت تشارلز الرسالة.

أنهى بندر المحادثة، ثم رفع سماعة الهاتف وطلب من أحد موظّفيه الأمنيين الاتصال بالملـك. فجاءه الردّ بما ينذر بالسوء: "جلالة الملك على الخط الآخر في الواقع. وهو يبحث عنك"[30].

أخذ بندر المكالمة على الفور وحيّا الملك.

سـأل الملك بصوت مرتفع: "ماذا يجري. تلقيت اتصالاً من صديق يقول لي إن بعـض أصـدقائه أخـبروه أنّ العراقيين غزوا الكويت. هل هذا صحيح؟ هل يمكنك الاتصال بالبيت الأبيض؟".

روى بندر له محادثاته مع البيت الأبيض، فردّ الملك فهد: "لا أستطيع التصديق".

قال بندر: "يبدو يا سيدي أنّ الأمر صحيح".

قال فهد لبندر: "اذهب لمقابلة الرئيس بوش في الحال وقف على ما ينوي أن يفعله وأخبرني".

أجاب بندر: "حسناً، يا سيدي، سأقابله غداً".

فردّ الملك فهد، ناسياً أن بندر ليس في واشنطن: "قلت لك حالاً".

أوضح بندر: "لكنّني في لندن الآن".

سأل فهد: "ما الذي تفعله في لندن في مثل هذا الوقت؟".

قال بندر: "سيدي، لقد أذنت لي بتمضية إجازة".

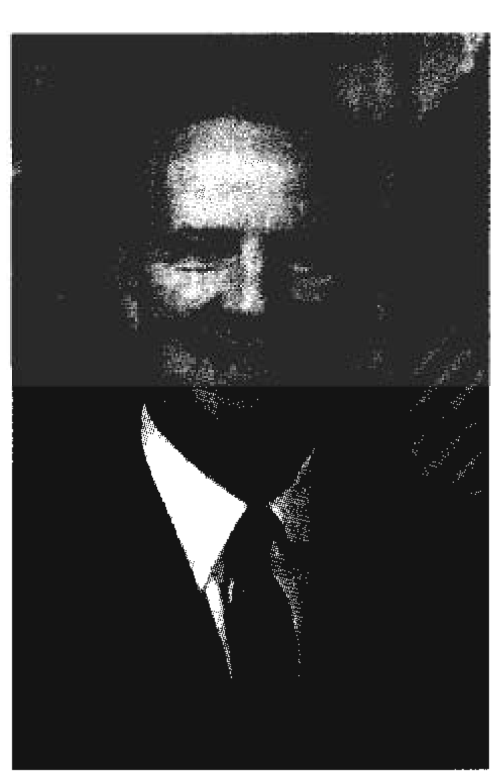
"إجازة يا بندر؟ في هذا الوقت؟".

ذكّر بندر الملك بطريقة دبلوماسية أنّه طلب منه مقابلة السيدة تاتشر.

قال فهد: "حسناً، قابلها مرة أخرى، وأطلعها على آخر التطوّرات".

لكن ذلك لم يتمّ، ليس في تلك الليلة على الأقل. قال بندر موضحاً: "حين تركت السيدة تاتشر هذا المساء كانت تتأهّب للذهاب إلى أسبن، وكان بوش متوجهاً إلى أسبن أيضاً".

في آخر الأمر قال الملك فهد، وهو غير متأكّد من المكان الذي يريد إرسال بندر إليه: "حسناً، غادر لندن وعُد إلى واشنطن!".



جيمس بيكر.
"لا تدعهم يخدعونك أبداً"

أمر بندر طاقمه بسرعة بتجهيز طائرته. ثم اتصل بزوجته في باريس وطلب منها العودة إلى واشنطن؛ الإجازة أُلغيت.

لم يكن بندر أول ولا آخر من يخدعهم صدام حسين. ولكن نتيجة التعرّض للخداع، رفض بندر أن يُخدَع مجدداً. ومع تصاعد الخطاب المرتفع وانهيار المفاوضات بين العراق والدول العربية المعتدلة والغرب، كان بندر الرجل الوحيد، ذا المهارات اللازمة لردم الفجوة وفك رموز الإشارات التي أسيئت قراءها، وكان ميالاً إلى اللامبالاة القاسية. كان للواقع المتغيّر صلة كبيرة بقبول المملكة العربية

الـــسعودية بنشر قوات أميركية على الأراضي السعودية. بل من العبارات المفضّلة لدى بـــندر خـــلال المقابلات المتعلّقة بحرب الخليج: "أن تخدعني مرة عارٌ عليك، لكن أن تخدعني مرتين فعارٌ عليّ، وأنا هنا لأبلغكم أنّ صدام حسين لن يخدعنا مجدداً"[31].

وقد برز هذا القول مجدداً في التمهيد لعملية عاصفة الصحراء. ففي أسفل صورة شخـــصية لجـــيمس بيكـــر يملكهـــا بندر كُتبت الكلمات التالية: "إلى بندر، زميلي وصديقي. تذكّر، لا تدعهم يخدعونك، لأن ذلك ممكن".

اتـــضح مع ازدياد الموقف سوءاً أنّ جيمس بيكر التقى وزير الخارجية المصري. وكـــان في صـــحبة الوزير صديق حميم لبندر، الدكتور أسامة الباز. وبعد اجتماعهم، اتصل أسامة ببندر ليقول له إن الوفد المصري في طريقه إلى مقرّ الأمير.

عند وصولهم، قال له الباز: "كان لقاؤنا مع جيمي بيكر ممتازاً؛ المشكلة هي أنّنا عندما بلغنا جوهر الموضوع في الاجتماع قال بيكر شيئاً لم نفهمه وكنّا محرجين جـــدّاً فلـــم نسأله؛ لذا قرّرنا أن نأتي إليك لأنّك الشخص الوحيد الذي يمكنه أن يوضحه لنا".

سأل بندر: "ماذا قال؟".

أجاب الدكتور الباز: "قال لنا إن جوهر الموضوع بالنسبة إليّ وإلى الولايات المتحدة هو you diddle me once, shame on you; you diddle me twice, shame on me، وقلنا له، *حسناً فهمنا المراد. شكراً* وغادرنا. ماذا يعني ذلك؟".

ضحك بندر: "حسناً، هذه هي طريقة جيمي في الكلام. بلغة أهل تكساس يعني ذلك *أن تخدعني مرة، عارٌ عليك، لكن أن تخدعني مرتين، فعارٌ عليّ*". ثم ذكر بندر لهم ما القول المقابل باللغة العربية: "المؤمن لا يُلدغ من جحر واحد مرتين".

قالوا: "آه! الآن أصبحت الأمور في نصابها".

عـــندما سمـــع بيكر هذه الحكاية في ما بعد، ضحك ثم لام بندر لأنه شرح لهم العبارة، وقال: "كان عليك أن تدعهم يذهبون إلى ديارهم ويحاولون فهمها هناك".

كـــثيراً مـــا قال بندر عن جيمس بيكر إنه "الحيوان السياسي الأمثل: إنّه صديق عظـــيم وحكيم جداً". ومن المثير للاهتمام أنّ بندر قال في كثير من الأحيان إن بيكر وكولن باول على شاكلة واحدة - إذا عُرف أحدهما عُرف الآخر - وكان كل منهم يعرف الآخر جيداً.

قال بندر عن بيكر: "حين التقيته أول مرة، كان كبيراً لموظفي البيت الأبيض في إدارة الرئيس ريغن. وفي ذلك الإطار، كان بطبيعة الحال ملمّاً بكثير من الأمور التي أقوم بها مع البيت الأبيض أو حاضراً في أثناء ذلك".

في إحدى تلك المرات، دُعي بندر إلى البيت الأبيض لمقابلة الرئيس ريغن. وحين وصل، كان هناك أيضاً الأميرال بويندكستر وَبدْ ماكفرلين، وكذلك جيمس بيكر. طلب الرئيس من بندر أن يأخذ ماكفرلين سراً إلى سورية للقاء الرئيس الأسد في ذروة حرب لبنان. أوضح بندر: "كان عليّ أن أعيده من دون أن يتسرب شيء عن اللقاء إلى العلن. لذا أخذت ماكفرلين بطائرتي وتوجّهنا إلى المملكة العربية السعودية سراً وبدّلنا الطائرة هناك. كنا حذرين جداً بحيث أنزلناه في فيلا للضيوف في قصر الملك. بعد ذلك قابل الملك فهد وأطلعه على معلومات، واستمع إلى بعض نصائحه بشأن كيفية تقديم الرسالة إلى الرئيس الأسد، وذهب إلى سورية، والتقى الأسد، وعاد إلى المملكة، وأطلع الملك فهد على نتائج اللقاء، ثم عدت به إلى البيت الأبيض. وجرى ذلك كله بين يومي الجمعة والأحد، بحيث لم يفتقده أحد خلال الأسبوع".

في أثناء الاجتماع في البيت الأبيض، سأل بندر: "هل يعلم الوزير شولتز؟".

قيل له: "نحن سنخبر الوزير شولتز؛ لا تخبر أحداً بخصوص هذه الرحلة".

تابع بندر قائلاً: "عندما أصبح جيمس بيكر وزيراً للخارجية، طلب مني الاجتماع به في يومه الأول في الوزارة. قلت في نفسي، *جيمي صديق صدوق حقاً؛ يريد أن يميّزني كأول سفير أجنبي يلتقيه كوزير للخارجية*".

بعد التحادث في العموميات، قال بيكر لبندر: "أود أن ألتقيك على انفراد". وعندما غادر جميع الحاضرين الغرفة، نظر بيكر إلى بندر بشكل مباشر وقال: "يا بندر، أريدك أن تعرف أنّني كنت في ما مضى رئيساً للموظفين في البيت الأبيض".

أدرك بندر فوراً ما كان يرمي إليه. فكان ردّه: "سيدي الوزير، ينبغي ألاّ تنسى أنك كنت ذات يوم رئيساً للموظفين في البيت الأبيض". وأوضح بندر، "كان فهمي لتلك الملاحظة ما يلي، *لا تحاول الالتفاف حولي يا بندر بصفتي وزيراً للخارجية لأنني كنت هناك وأعرف كل شيء*. وكان جوابي له، *تذكّر يا جيمي، لم ألتف حول وزير الخارجية؛ أنتَ قلت لي ألا أخبره*".

بعيد الغزو العراقي، استقبلت المملكة العربية السعودية 400 ألف لاجئ كويتي، بمن فيهم الأمير وعائلته. وكانت الشهادة على الدعم العالمي لسيادة الكويت فشل محاولة عراقية لتركيب نظام تابع لهم: عجز العراقيون عن إيجاد ثمانية كويتيين مستعدين للتعاون. وعلى الرغم من ذلك، أطلق صدام مبادرة سلام في استراتيجية ترمي إلى إحداث شرخ في التعاون الإسلامي والمسيحي المتعاظم ضده، مشبّهاً احتلاله للكويت بالاحتلال الإسرائيلي لأراضٍ عربية. كانت حيلة وقحة محوكة لصرف الانتباه عن أعماله واستغلال مواقف المسلمين العدائية تجاه إسرائيل والغرب، وسرعان ما كشف العالم العربي زيف تلك *المبادرة* بسرعة.

في حديث خاص، قدّم بندر شرحاً في غاية الوضوح لرأي الملك فهد في المسألة "خلال الاحتلال، قال صدام حسين إنه مستعد للانسحاب من الكويت إذا كان الإسرائيليون مستعدين للانسحاب من الضفة الغربية وغزة ومرتفعات الجولان. وقد اتخذ الملك فهد موقفاً قوياً جداً من ذلك. قال، *هذا غير مقبول عندنا لأن ما فعله صدام حسين عدوان. ونحن لن نكافئ هذا العدوان بجائزة. نحن السعوديين، سنحارب في سبيل القضية الفلسطينية والسلام في الشرق الأوسط. وهذا أمر لا شأن لكم [العراق] به، يجب أن ترحلوا عن الكويت من دون شروط*".

وأوضح بندر لاحقاً أن غزو صدام حسين للكويت، غزو بلد عربي لبلد عربي آخر، أضعف القضية الفلسطينية وعقّد عملية السلام الهشّة بالفعل. "من المآسي التي سبّبها صدام حسين لنا أنّ العالم توحّد بأكمله، وأقول مجدداً إنّ مبدأ احتلال أراضٍ بالقوة مبدأ غير صحيح؛ وذلك ينطبق على ما يفعله الإسرائيليون في الضفة الغربية وغزة ومرتفعات الجولان. لكن ما فعله [صدام] أنّه قال لا بأس في أن يحتل عربي أرض عربي آخر. ذلك يُضعف موقفنا ووضعنا"[32]. أمّا وقوف ياسر عرفات ومنظمة التحرير الفلسطينية إلى جانب صدام، فكان قمة المفارقات وسبّب سخطاً سعودياً كبيراً. وقد لوحظ بطريقة تهكمية ساخرة أن الإعلاميين السعوديين احتفوا بعرفات على مرّ عقود؛ لكن شعورهم الحقيقي برز بعد الغزو العراقي للكويت[33]. ووصف بندر عرفات "بالمهرج"[34].

لم يكن ردّ فعل الغرب على العدوان العراقي غير متوقع، مع أن صدام نفسه أساء تقديره تماماً. وكما صرّح الرئيس كارتر: "هاج العالم فوراً واتخذ إجراء مؤثّراً وغير

مـــسبوق ضـــد هذا الغزو للكويت؛ ربما لم نكن لنفعل شيئاً، أو الشيء نفسه، لو أن النيـــبال أو مالاوي أو سريلانكا هي التي تعرّضت للغزو"[35]. وأتبع السيناتور جيمس ماكلـــور ذلك بتركيز مماثل على تأثير النفط، قائلاً: "بالتأكيد، ما كان العالم كله ليردّ بهـــذا القدر من التضامن مثلما فعل هنا... الطاقة ضرورية بشكل مطلق للمجتمعات الصناعية الحديثة ولاقتصادنا ونحن كلنا نعلم ذلك"[36].

وقال بوش: "كان صدام حسين دكتاتوراً فظاً غليظاً، بل مصاباً بذُهان ارتيابـــي (جـــنون العظمة)، وكان انفتاحه على الغرب قليلاً وشكّه فيه عميقاً"[37]. وربما يسلّط تقيـــيمه إدراك صدام للعالم الخارجي ضوءاً على كيفية إساءة الدكتاتور العراقي تقدير إصـــرار الغـــرب علـــى حماية مصالحه في الشرق الأوسط الغني بالنفط. فقد عبّرت مارغـــريت تاتـــشر بـــصراحة عـــن المصالح البريطانية في الخليج حين أبلغت الرئيس الأميركي: "إن خسارة النفط السعودي ضربة لا يمكننا أن نتحملها"[38]. وكان التهديد المـــوجّه إلى المملكـــة العـــربية السعودية سبباً أكثر إقناعاً من غزو الكويت كي تقوم الـــولايات المتحدة بدور أساسي في النـــزاع[39]. ومع استمرار أزمة الخليج، ناشد بوش الملـــك فهد من خلال بندر أن يعوّض عن توقّف الإنتاج العراقي والكويتي؛ فكان الردّ السعودي رفع الإنتاج من 5.2 ملايين برميل في اليوم إلى أكثر من 8 ملايين برميل[4].

وعلـــى الـــرغم من أن الرئيس بوش كان يدرك تماماً مصلحة الولايات المتحدة الجوهـــرية في نفط المنطقة، وهو المادة التي تعتمد عليها اقتصادات العالم إلى حدٍّ كبير (ولا تزال)، فقد حرصت المكنة الإعلامية على توجيه انتقاد شديد إلى مثل هذا الدافع للقيام بعمل عسكري من الناحية الأخلاقية. فكتب صحافي في الواشنطن بوست، "لا أحـــد يـــريد أن يقول إن البترول هو السبب الذي سيجعل مئات الأميركيين يمضون المـــيلاد بعيداً عن عائلاتهم"[41]. وأبدى لورنس كورب، المساعد السابق لوزير الدفاع الأميركي، ملاحظة أكثر تهكماً، فقال: "لو كان الكويتيون يزرعون الجزر، لما اهتممنا البتة"[42].

أحـــدثت بلايـــا صـــدام في الشرق الأوسط تأثيراً فورياً في العالم. فخلال أربع وعشرين ساعة، ارتفعت أسعار البنـــزين بمقدار 14 سنتاً للغالون الواحد، وارتفع سعر وقـــود الطيران وبالتالي تكلفة السفر جواً. واضطرت بلغاريا إلى تقنين استهلاك الطاقة الكهربائية. وفي تايوان هبطت الأسهم بنسبة 65 بالمئة. وأطلق البرازيليون مبادرة لدعم

الآلـيات العاملة بالإيثانول، وأصيبت الأسواق المالية اليابانية والبرتغالية بالفوضى. وفي الـشرق الأوسط، فكّرت الحكومة الإسرائيلية جدياً في توزيع أقنعة واقية من الغازات علـى السكان، بينما ألغت الولايات المتحدة ديون مصر العسكرية البالغة 7 مليارات دولار، وتدفّـق من الكويت آلاف العمال الأجانب الذين عادوا إلى ديارهم في مصر وباكستان وبنغلادش[43].

وعـندما سـأل لاري كينغ الأمير بندر عما يدعو إلى إراقة دماء الأميركيين في سـبيل الـنفط، اعتمد بندر في إجابته مقاربة صريحة وبراغماتية، قائلاً: "لا أعتقد أن علـيكم أن تكونوا اعتذاريين عن حماية مصالحكم القومية، فالنفط يؤثر في اقتصادات العـالم"[44]. وكانت أميركا قلقة حقاً من تعرّض سلامة حقول النفط السعودية للخطر من دون وجود أعداد كبيرة من القوّات الأجنبية على الأرض.

علـى الـرغم من حشد صدام قوات عراقية على امتداد الحدود الكويتية المتاخمة للمملكة العربية السعودية، فإن نواياه الإقليمية تجاه المملكة لم تتضح بصورة قاطعة. لم يكـن القلق من أن النفط سيتوقّف عن التدفّق في حال نجاح العراق في السيطرة على حقـول النفط السعودية الواسعة، إذ سيكون من مصلحة صدام أن يسارع إلى إعادة الاستقرار إلى أسواق النفط. لكن هذا السيناريو يمنح صدام قدرة فعلية على الاحتكار، وبالـتالي امتلاك تأثير استراتيجي كبير في أهم مصدر من مصادر العالم الصناعي. فهو يـشكّل خطراً على المصالح الغربية والعربية على حدٍّ سواء. وقد عبّر عن ذلك الجنرال السعودي الأمير خالد بن سلطان بقوله: "إنّه يهدّد المصالح الحيوية لكل لاعب كبير في المـنطقة... ولا يـستطيع أحد أن يتحمّل محاولته تحقيق الهيمنة الإقليمية، لأن عدوانه يعادل ذلك"[45].

أخـذ إحـساس صدام حسين بالعزلة يزداد حدة. ففي 2 أغسطس 1990، يوم الغزو العراقي، صوّت مجلس الأمن الدولي 14-0(*) لصالح القرار 660 الذي أدان العمل العراقـي، وطالـب بانسحاب القوات العراقية من الكويت، وشدّد على التوصّل إلى نتـيجة تقوم على التفاوض. وكانت موافقة الاتحاد السوفياتي على هذا القرار شديدة الأهمـية. فالعالم منذ بداية الحرب الباردة لم يتوحّد قط خلف قضية واحدة عن اقتناع بالـشكل الـذي بيّـنه تصويت الأمم المتحدة، حيث صوّت 28 بلداً، ومنها الاتحاد

(*) امتنع اليمن عن التصويت.

الـــسوفياتي والصين، بالإجماع ضد غزو الكويت ولتأييد فرض عقوبات على العراق: لقـــد كـــان عالماً متغيّراً حقاً، وربما حتى في بدايات "نظام عالمي جديد"، وهي عبارة وضـــعها برنت سكوكروفت، الذي قال: "عنينا بها، وقد شُوّه المعنى لاحقاً بعدد من الطرائق، أنّ الحرب بين الدول هي من أكبر مصائب البشرية على مدى القرون. جرّبنا عـــصبة الأمـــم فلم تنجح، أنشأنا الأمم المتحدة وسرعان ما أصيبت بالجمود بسبب المشكلة الأميركية السوفياتية. وعندما حلّت حرب الخليج، وحدث التعاون الأميركي الـــسوفياتي أتاح احتمال أن نتمكّن من التعامل مع هذه المصيبة بطريقة تفضي حقاً إلى نظام عالمي جديد، هذا ما عنيناه لا أكثر. ولكن في وسع مجلس الأمن الدولي أن يقوم فعلاً بالدور الذي رسمه مؤسسوه، أي معالجة النـــزاعات بين الدول"[46].

عبّرت دعوة بندر إلى البيت الأبيض في اليوم التالي على الغزو، 3 أغسطس 1990- كان قد وصل لتوّه من لندن - عن عزم الولايات المتحدة على نشر قوات أميركية في الخلـــيج وعن الأهمية الاستراتيجية للتعاون السعودي في هذا الهدف. وفي اجتماع في مكـــتب سكوكروفت بعيد الساعة الحادية عشرة صباحاً، في 3 أغسطس 1990، قُدِّم إلى بـــندر عرض مجمل عن الموقف كما رآه الأميركيون وقيل له مباشرة إن الولايات المـــتحدة مستعدة للدفاع عن المملكة، وراغبة في إرسال قوات لهذه الغاية. فوجئ بندر وكان ردّه صريحاً: "ولِمَ نريد أن تدافعوا عنا؟".

أجاب سكوكروفت مندهشاً: "ماذا تعني؟"[47].

قدّم بندر لاحقاً تفسيراً لأسباب صمت الملك فهد وتردّده الظاهر في قبول عرض بوش المساعدة. ومن تلك الأسباب لفتة الرئيس كارتر الجوفاء سنة 1979، بعد سقوط شـــاه إيـــران، عندما أرسلت الولايات المتحدة سرباً من طائرات F-15 لإظهار الدعم للمملكة العربية السعودية لتعلن بعد ذلك، فيما الطائرات لا تزال تواصل تحليقها، أنّها غـــير مـــسلحة. وكذلك الأمر كان التدخّل الأميركي في لبنان سنة 1983، عندما أمر ريغـــن بهدوء بإعادة القوات الأميركية مع سفنها إلى الوطن، بعد تعرّض ثكنتها لهجوم إرهابـــي شرس أدى إلى مقتل 241 أميركياً[48].

أظهـــرت هاتـــان الحادثتان، بالنسبة إلى السعوديين، افتقار الولايات المتحدة إلى العـــزم. ولم تكـــن المـــسألة الحقيقية التي بحثها الملك فهد ومستشاروه استقدام دعم عسكري أميركي أم عدم استقدامه، بل هل يمكن الركون إلى الأميركيين. هل سيأتون

بقوة وعزيمة كافيتين لإتمام المهمة؟ فقد اعتبرت الأمثلة الماضية على التردّد الأميركي أو على الافتقار إلى العزم اختباراً للالتزام الأميركي.

وفي شرح بسيط، قال بندر: "لم يكن في وسع المملكة العربية السعودية أن تحتمل مـــضاعفة خطـــر تعرّضها للهجوم عما هو عليه بالفعل، إذا قرّرت أميركا وضع حدّ لـــتدخّلها والهرب". لم يكن يريد أن تمدّ أميركا يد العون مؤقتاً ضد صدام ثم تسحبها، تاركة صدام على الحدود السعودية "وقد ازداد جنوناً على جنون"[49].

كان ردّ سكوكروفت على مراوغة بندر بسيطاً بالقدر نفسه: "أؤكد لك أننا لن نفعل ذلك؛ إذا أتينا، فسنبقى"[50].

كـــان الاجتماع بين بندر والرئيس في 3 أغسطس 1990 بالغ الأهمية. فقد أقنع بندر أن هذا الرئيس يتمتّع بالعزيمة والشجاعة لمواجهة التحدي الذي لوّح صدام به في وجه العالم.

قال بندر، متذكّراً: "عندما دخل جورج بوش الغرفة، قال، *مرحباً بندر!* وأضاف ضامّاً ذراعيه إلى جسمه، *تعلم يا بندر مقدار الألم الذي تشعر به حين لا يثق أصدقاؤك بك*".

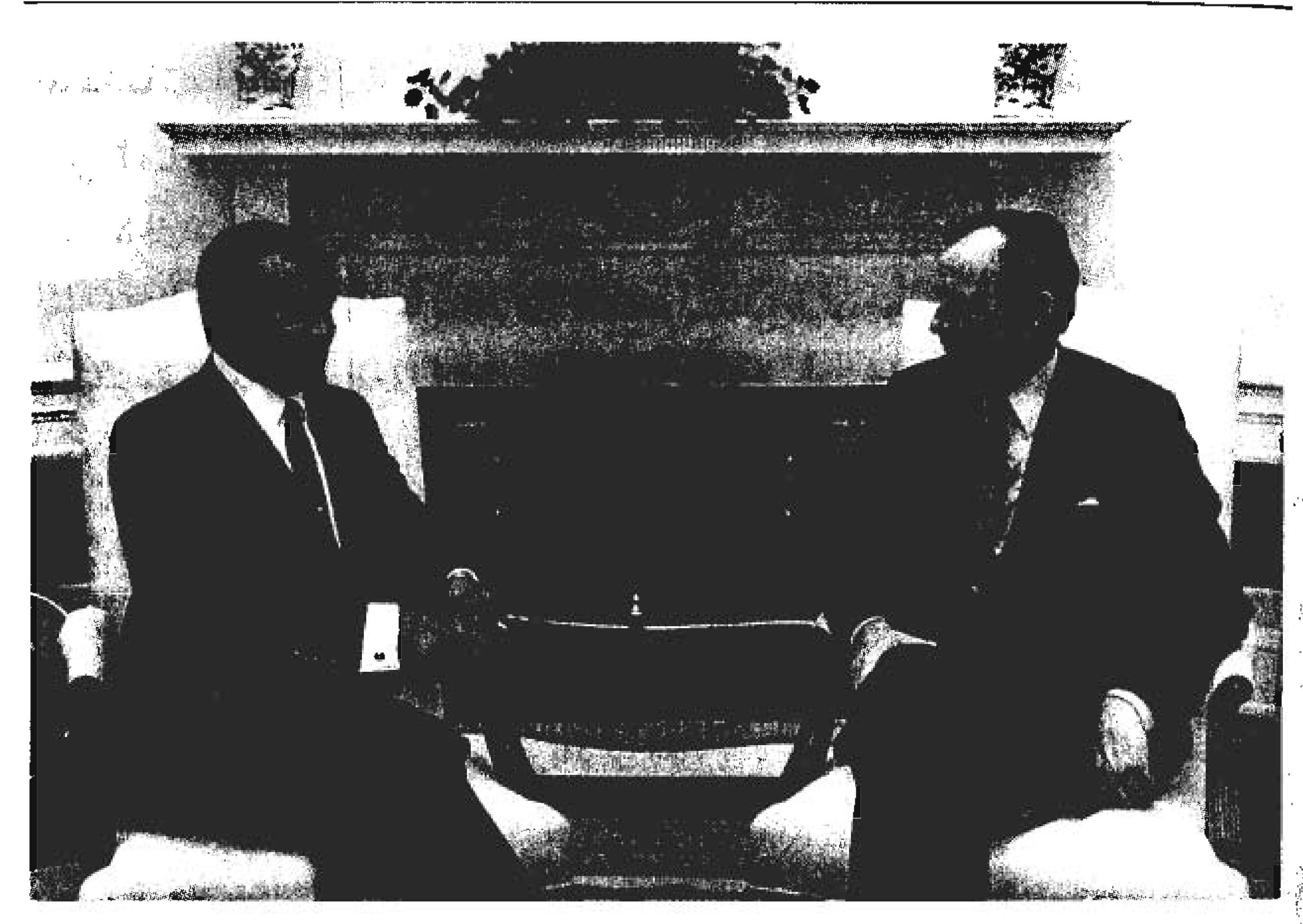
قال بندر له: "سيادة الرئيس، نحن نثق بكم. الأمر ليس شخصياً. ربما يتوقّف بقاء بلدي على ذلك. المسألة بسيطة جداً. إذا قلتم لي ما يمكنكم أن تفعلوه، أستطيع عندئذ أن أطلعكم على موقفنا. نحن بحاجة إلى معرفة المدى الذي يمكنكم الذهاب إليه".

عـــندئذ بـــسط بوش ذراعيه وقال: "إذا طلبتم عوناً من الولايات المتحدة، فإننا سنمضي معكم إلى النهاية".

ويقول بندر: "في تلك اللحظة، أحسست بقشعريرة، لقد شعرت حقاً بأهمية اللحظة. ففي النهاية، رئيس الولايات المتحدة الأميركية هو الذي يقطع هذا العهد على نفسه".

كان التعهّد بتقديم الحماية إلى المملكة العربية السعودية بقدر ما تقتضيه الضرورة ذا تـــأثير حاســـم على تقييم الأمير، حيث اقتنع باهتمام أميركا الصادق لبلده وعزمها علـــى حمايته. وفي تلك المصافحة، حدث التزام بين صديقين سيكون له أبلغ الأثر في الشرق الأوسط.

في اليوم التالي، في 4 أغسطس، تحدّث بوش إلى الملك فهد شخصياً على الهاتف، وتعهّد له أن تدعم أميركا المملكة العربية السعودية مهما استغرق ذلك من وقت.



بندر مع الرئيس جورج بوش

لـولا التـزام سفير الملك فهد بالانتشار المقترح للقوات البرية الأميركية داخل حـدود المملكة العربية السعودية، واعتقاده الراسخ بضرورة تنفيذ ذلك بسرعة، لكان من المشكوك فيه أن يوافق الملك على وجود تلك القوات في الإطار الزمني الذي وافق عليه. فعـندما اقتنع بندر بالتصميم والالتزام الأميركيين، كان عليه أن يعرف ما هو المعـروض بالـضبط. رتّب سكوكروفت موعداً لبندر في البنتاغون حيث أطلعه وزير الدفاع ديك تشيني، وبول ولفوويتز، وريتشارد هاس، ورئيس هيئة الأركان المشتركة كـولن بـاوِل على مجريات الأمور. وكتب باول في ما بعد: "لعب بندر دوره المعتاد كطـيّار حربـي واثق بنفسه، وهو يحتسي القهوة من كوب بلاستيكي ويحرّكها بقلم مـذهّب". وعلى امتداد العرض الذي قدّمه هؤلاء، لزم بندر الصمت، وهو يعضّ على سيجاره بين أسنانه. وقد عُرضت عليه صور استطلاعية فضائية أظهرت قوات عراقية وهـي تعبر الكويت وتقترب من الحدود السعودية. وكشف ديك تشيني للأمير بندر، بـإذن من البيت الأبيض، الخطة الدفاعية التي أعدّها للقيادة الأميركية الوسطى، وهي معلـومات خاصـة بالحكـومة الأميركـية فقط، والمفارقة أنّها كانت ممهورة بعبارة "NORFORN"، أي "ليـست للعـرض أمام أجانب". وقد أُعجب بندر بحجم خطة

العمليات 90-1002[52]. وبعد سماعه أن القوات التي يتوقّع نشرها تتراوح بين مئة ألف ومئتي ألف جندي، قال لباول: "أعرف الآن أنكم لا تخدعونني، وتعرفون الآن لماذا لا نريد سرباً من المقاتلات التكتيكية"[53].

وفي الحديث عن أفضل الطرائق للحصول على قرار إيجابي من الملك فهد، قال سكوكروفت: "في الواقع، كانت الفكرة الأولى أن يأتي فريق سعودي إلى هنا". لكن سكوكروفت اعترض على هذه الفكرة بقوة، قائلاً: "لا، لا، نحن سنرسل شخصاً إلى هناك".

في هذه اللحظة الحرجة، سأل بندر: "من سترسلون؟".

أجاب سكوكروفت: "لا أدري".

فقال بندر: "ما رأيك أن نقوم بالأمر معاً؟"[54].

في النهاية وافق سكوكروفت على سفر فريق أميركي مشترك لمقابلة الملك فهد.

وفي ملاحظاته اللاحقة، أوصى بندر أن يرى الملك فهد الصور الاستطلاعية بنفسه. وكبديل عن إرسال فريق فني منخفض المستوى إلى واشنطن، قال إن الملك يقبل بفريق أميركي رفيع المستوى ينتقل إلى المملكة لشرح العناصر الأساسية للخطط الأميركية مباشرة.

لم يعد ثمة مجال للشكّ في أنّ الخطر حقيقي. فقد أوحت المعلومات الأميركية الاستخبارية عن تحرّكات الفرق العراقية من البصرة إلى الكويت ومن هناك باتجاه الحدود السعودية، فضلاً عن تجهيز تلك الفرق بصواريخ أرض - أرض من طراز فروغ إلى جانب معدات هجومية أخرى، أنّ غزو المملكة أصبح وشيكاً[55]. وكما اعترف الوزير تشيني في ديسمبر 1990 [56]، "اعتباراً من 2 أغسطس، كان الشيء الوحيد الذي يحول بين صدام حسين وتلك الحقول النفطية [في شرق المملكة العربية السعودية] كتيبة من الحرس الوطني السعودي. لم يكن ثمة عائق عسكري يذكر أمام تقدمه جنوباً"[57]. بل قيل إنّه ربما يكون في وسع العراقيين الوصول إلى الرياض خلال ثلاثة أيام[58]. لذا فإنّ السعوديين، الذين تضمّ قواهم المسلحة 70 ألف رجل فقط، بحاجة إلى مساعدة، حتى إذا أدى ذلك إلى نشر قوات على أراضيهم. لكن مثل هذا الخيار يثير خلافاً كبيراً. غير أن الملك فهد وافق على تلقّي المعلومات الأميركية، وكان حريصاً على أن يتم ذلك بسرعة.

في يـوم الأحـد، 4 أغسطس 1990، أسرع بندر في العودة إلى المملكة العربية السعودية لكي يطلع القيادة السعودية على المعلومات الأساسية قبل وصول ديك تشيني[59]. وفي يومـي 4 و5 أغـسطس، قـام الجنود العراقيون بثلاثة انتهاكات صغيرة للمنطقة المحايـدة بين المملكة والكويت. ودفعت تلك الانتهاكات لتشغيل الخط الساخن الذي أقيم قبل ست سنوات بين الجيشين السعودي والعراقي خلال الحرب الإيرانية العراقية[60]. في الـبداية، اعتذر العراقيون عن *خطئهم*، واعدين بالبقاء داخل حدود الكويت. وبعد الانـتهاك الثاني، لم يعد اللواء العراقي الذي تحدّث إلى السعوديين أول الأمر موجوداً، ونفـى ضـابط صغير أي علم له بالتعدي. وبعد الانتهاك الثالث، الذي وقع بعد 24 سـاعة من الأول، لم يرد أي جواب من الجانب العراقي. و لم يتجشموا عناء الرد على الخط الساخن.

طـوال حـرب الخليج، برزت ببساطة تعقيدات - ذات طبيعة كارثية في بعض الأحـيان - لـيس بفعـل الحاجز اللغوي، بل بسبب الحواجز الثقافية التي لم يستطع اختـراقها سـوى نفر قليل. وكما لاحظ مايكل غوردون في النيويورك تايمز، اعتاد الـسعوديون (والعـالم العربـي بصورة عامة) العمل على أساس الوعود والإيماءات، واعـتاد الأميركيون العمل على أساس العقود القانونية والاتفاقات"[61]. وثمة عامل ذو تأثير شديد في النهج الأميركي تجاه أزمة الشرق الأوسط، هو الرئيس بوش نفسه. فقد شـعر بالعطف تجاه الشعب الكويتي وقيادته وتأثّر بشكل خاص بالتقارير الواردة من الكـويت عن انتهاكات حقوق الإنسان وأعمال التعذيب والتنكيل في الشوارع. وقد ارتكب صدام حسين خطئين مكلفين في العلاقات العامّة عندما لجأ إلى استغلال مئات الـرهائن ومحاصرة السفارة الأميركية، في محاولة لردع استخدام عقوبات أولاً، وحماية المواقع العراقية الرئيسية من الهجمات الجوية ثانياً. ووصف بندر في مقابلة على إحدى محطـات التلفزة الأميركية، قيام صدام بالاختباء وراء مدنيين لا حول لهم ولا قوة أنه عمل "مناف للإسلام والعروبة"[62].

وكـتب الرئيس بوش في يومياته الملاحظة التالية: "قرأت لتوي تقريراً استخبارياً مخـيفاً، فيه روايات عن تقطيع أوصال الكويت وتفكيكها بوحشية، وعن إطلاق النار علـى مواطنين وهم في سياراتهم عند نقاط تفتيش... إنّ هذا الأمر يشحذ من عزيمتي"[63]. كـان الرئيس ينظر إلى الموقف ببساطة مشابهة لرؤية ريغن للأمور، بصرف النظر عن

مـــصالح الأمن القومي الأميركي. فقد قال: "لم يكن ذلك مسألة تتعلّق بدرجات من اللـــون الـــرمادي أو محاولة رؤية وجهة نظر الجانب الآخر. بل الخير في مقابل الشرّ، والحق في مقابل الباطل"[64].

في 5 أغـــسطس، أبدى بوش التزاماً قوياً بالهدفين التوأمين، ردع العدوان العراقي علـــى المملكـــة العربية السعودية وطرد العراقيين من الكويت، بحيث أعطى بندر وعد شـــرف أنّ الولايات المتحدة لن تتخلّى عن المملكة العربية السعودية. وتعهّد أيضاً إلى أمـــير الكويت الشيخ جابر الأحمد الصباح أن تحرّر الولايات المتحدة بلده وتعيده إلى منـــصبه حاكماً للكويت. وبعبارات لا لبس فيها، قال للعالم إن العدوان العراقي "لن يـــدوم"[65]. وعـــند عودته من كامب ديفيد، حيث بدأ التخطيط السري لطرد صدام حـــسين، أذهل هيئة رؤساء الأركان الأميركية المشتركة عندما أفصح صراحة عن نيته أن تدحر أميركا الهجوم العراقي على الكويت[66].

كانـــت قـــناعة بـــوش الخُلُقية، وموقفه الصلب من غزو الكويت لا يتزعزعان. وشـــكّل تفضيله النهج الشخصي على الدبلوماسية، كما شهدت على ذلك صداقاته الشخـــصية، لا مـــع بـــندر فحسب، بل أيضاً مع مارغريت تاتشر وفرانسوا ميتران وشخـــصيات أخـــرى حاسمة في تلك الفترة، مجرّد مثال يظهر كيف ساعد ذلك على صـــوغ سياسة واضحة للتصدّي، للتحدي الماثل أمامه. كان قراره الشخصي الحاسم صـــادقاً وبسيطاً، وبحصوله على دعم القادة العرب، كسب تفويضاً واسعاً عندما بدأ يديـــر النـــزاع. استجاب العالم العربـــي لردّ فعل جورج إيتش دبليو بوش العاطفية علـــى معاملة الكويت ومواطنيها، إذ رآها لفتة إنسانية مطمئنة في زعيم يقتضي موقعه انتهاج موضوعية قاسية، كما تملي السياسة الغربية.

لاحظ الجنرال شوارزكوف، قائد قوات الائتلاف في حرب الخليج أيضاً أن مثل هـــذا الفـــارق الدقـــيق أساسي لإقامة شراكة ناجحة مع العالم العربـــي: "في العالم العربـــي، يدخلك منصبك من الباب، لكن علاقاتك الشخصية تعود عليك بالتزامات مـــن العرب. وقد نشأت تلك الطريقة لإدارة الشؤون من خيمة البدوي في الصحراء، حيث كان يلي مناقشات العمل ساعات طويلة من رواية الحكايات في الليل"[67].

بيد أن تورّط الرئيس بوش الشخصي والعاطفي في الأحداث المكدّرة المتكشّفة في الـــشرق الأوســـط أقام حاجزاً في كثير من الأحيان، لا سيما عندما ووجه بهجمات

ضـارية من وسائل الإعلام الغربية؛ فهو لم يكن خطيباً بارعاً على طريقة ريغن، وقد دفـع صـدقه، ومغزى ذلك خلال الحرب، برنت سكوكروفت للقول: "كان مخلصاً للغاية، لكن بعض كلماته أعطت مردوداً عكسياً إلى حدٍّ ما، أو أثارت الصحافة على الأقل"[68]. وفي حين لقيت خطابات بوش استحساناً لدى الأطراف في الشرق الأوسط باعتـبارها شهادة على العزيمة الأميركية، فإنها غالباً ما كانت تُفسّر في الغرب أنّها ثأر شخصي من صدام.

وفي الـروايات الغـربية، يُسجَّل في كثير من الأحيان أن قرار الملك فهد الخطير المـوافقة علـى استقبال قوات أميركية اتُّخذ خلال تشاوره في 6 أغسطس مع تشيني والجنـرال شـوارزكوف(*). ففـي ذلك الاجتماع عمل بندر كمترجم عندما أطلع شـوارزكوف الملـك على الصور الاستخبارية الجوية التي ظهرت فيها دبابات عراقية علـى الحدود السعودية، وداخل الحدود، في بعض الحالات. وأوضح شوارزكوف أن نوايا صدام غير واضحة، لكن الوضع ينذر بالسوء. ثم قدّم المقترحات الأميركية للدفاع عن المملكة.

وتـلا ذلك الإطلاع العسكري قيام تشيني بتسليم الملك فهد رسالة شخصية من الرئيس بوش. "إنّنا مستعدون لنشر هذه القوات للدفاع عن المملكة العربية السعودية. إذا دعوتمـونا، فسلنبـي الدعوة. لن نطلب قواعد دائمة، وحين تطلبون منا الرحيل، سنرحل"[69].

قـال الملك، بعد بحث وجيز مع مجلسه(**): "لم يستعجل الكويتيون اتخاذ القرار، وهـم الآن ضـيوف في فنادقـنا!"[70]. وهنا التفت الملك فهد إلى الوزير تشيني وقال: "موافق".

كـتب شوارزكوف لاحقاً عن تلك المناسبة التاريخية: "لو أن أحداً التقط صورة في تلـك اللحظة، لبدوت فاغر الفم. لقد اتخذ الملك فهد واحداً من أشجع القرارات التي شهدتها في حياتي"[71].

(*) كـان الحاضرون من الوفد الأميركي: الوزير تشيني، الجنرال شوارزكوف، بوب غيتس، بول ولفوويتز، بيت وليامز، أرت هيوز، الجنرال هورنر، الرائد براندتر.

(**) الحاضـرون مـن المـسؤولين السعوديين: الملك فهد، ولي العهد الأمير عبد الله، الأمير عبد الـرحمن بـن عبد العزيز، الأمير سعود الفيصل، عثمان الحميد، الجنرال محمد الحمد، الأمير بندر بن سلطان.

خلافاً لتردّد المملكة العربية السعودية المعتاد، كان القرار هذه المرة سريعاً ولا لبس فيه. الأميركيون موضع ترحاب على الأرض الإسلامية المقدسة؛ في قلب المملكة العربية السعودية.

أخطأ صدام حسين بصورة خطيرة في تقدير ردّ فعل العالم على غزوه الكويت. ولم يتوقّع أن تتخذ المملكة قراراً بالسماح لقوات أميركية بالمرابطة على الأرض السعودية. وبدا سخطه واضحاً في 10 أغسطس 1990، عندما أعلن حرباً مقدسة على إسرائيل والولايات المتحدة، مدعياً أن السعوديين سلموا هذين البلدين مكة والمدينة المنورة المقدستين رهينتين. وكان رد الأمير على تلك التهم صريحاً وفي الصميم: "هذا كلام فارغ وهو يعرف ذلك. فمكة والمدينة المنورة تبعدان ألف ميل عن مواقع وجود كل هذه القوات"[72].

عمل بندر جاهداً في الولايات المتحدة لمواجهة الخوف المنتشر في وسائل الإعلام، ورداً على تُهم صدام التي وصف بها أميركا بالإمبريالية، فعرّى بندر نفاق الزعيم العراقي، مشيراً إلى تحالف صدام مع الولايات المتحدة خلال حرب الثماني سنوات الإيرانية العراقية. وأمعن في الإهانة بتشبيه صدام بخصمه منذ أمد بعيد آية الله الخميني، قائلاً: "حقيقة الأمر هي أن الرئيس صدام حسين لم يجد المساعدة الأميركية له خلال الحرب [الإيرانية العراقية] مهينة ولا إمبريالية. وقد اعتاد الاعتقاد أنّ أعظم ما يمكننا أن نفعله لنساعده هو دفع الأميركيين لمساعدته والتنسيق معه إبان الحرب... ويبدو تقريباً [الآن] أنه يقلد الخميني؛ وهذا آخر ما ظننت أن صدام حسين سيفعله".

في الردّ على أسئلة عن الجهاد الذي دعا إليه صدام، قال بندر بإحساس مفعم بالواقعية: "لكي تدعو إلى الجهاد عليك أن تكون متديّناً، بمعنى أن تقوم بالعمل الصائب. كيف يمكنك أن تدعو إلى الجهاد إذا غزوت بلداً عربياً شقيقاً مسلماً وعثت فيه خراباً على النحو الذي فعلته؟"[73].

كان القرار السعودي بالتعاون مع القوات الأميركية تاريخياً؛ وأشار إلى نهاية الصورة السلبية عن المملكة العربية السعودية التي تشبه سلحفاة الصحراء، متأهّبة دائماً لإدخال رأسها في قوقعتها. وبسبب التشعّبات الدينية، جلب قرار الملك فهد معه مخاطر كبيرة. فالملك فهد، كزعيم إسلامي معترف به عالمياً، يُعرف بلقب خادم الحرمين الشريفين، يدرك تماماً الاحتجاج الشعبي الشديد على وجود الأميركيين على أرض

إسلامية؛ فردّ فعل المواطنين السعوديين، والمسلمين في العالم، سيكون قاسياً. وكانت المملكة تخشى من ألا ترغب القوّات في المغادرة إذا سُمح لها بالدخول. والسياسة والدين متشابكان جداً في المملكة - الدستور السعودي مستمدّ من القرآن الكريم - بحيث يجب على الملك فهد أن يأخذ في الحسبان ما هو أبعد بكثير من مجرد الموقف الإقليمي. فقد كانت مسؤولياته الدينية أمام شعبه في مقدّمة أفكاره.

كان لدى الملك فهد اعتبار آخر بالإضافة إلى الضغط الدنيوي، وتقدّم الوقت بسرعة: الوفد الأميركي. فقد كان مقرراً في أول الأمر أن يتولى الجنرال سكوكروفت رئاسته، لكن إرسال وزير الدفاع ديك تشيني بدّل الموقف كثيراً. وكما قال برنت سكوكروفت نفسه: "إذا تقرّر أن أذهب، فيمكنني أن أذهب وحدي، وبهدوء، وإذا رفض الملك العرض، فلا حرج، ولا ضرورة لأن يعلم أحد بالأمر. وإذا تقرّر أن يذهب تشيني، فعليه أن يعود بشيء ما، وإلا، سيكون الموقف صعباً علينا كلينا".

وقع على بندر أمر نقل هذا الخبر إلى الملك، وهو خبر يعادل الرسالة: "إذا قبلت أن يكون هذا الوفد برئاسة ديك تشيني، فيجب أن تكون مستعداً للموافقة على أمر ما". لقد كانت معلومات صريحة جداً بحيث ليس من السهل على أي شخص أن ينقلها إلى الملك، وكما قال سكوكروفت، مستعيداً ذكرى ذلك الموقف: "غص بندر، لكنّه أنجز المهمة... وأنا أعزو إليه فضلاً كبيراً؛ لقد جابه الموقف الصعب بشجاعة وقال [للملك فهد]، *هذا ما يجب عمله*". وابتسم سكوكروفت ابتسامة عريضة عندما أوضح أنهم كانوا يعرفون في ذلك الوقت أن الأمور ستكون على ما يرام. فمن حيث الجوهر، كان سكوكروفت على علم منذ 3 أغسطس، أي قبل أن يغادر الوفد أميركا، أنّ الأمير حصل على قرار إيجابي من الملك فهد بالموافقة على انتشار قوات أميركية في المملكة. كان الأمر بمثابة "اتفاق منجز".

كان أمن المملكة وسيادتها على المحك. ويقول سكوكروفت: "بعد لقاء تشيني بالملك، اتصل وقال، *قُضي الأمر*، وبدأنا نحرّك قواتنا، فوصل جنودنا إلى هناك [المملكة العربية السعودية] بعد 48 ساعة. أرسلنا كتيبة على وجه السرعة، وهذا كل ما استطعنا أن نرسله بسرعة. ولكن ما أردنا أن نفعله حقاً كخطوة أولى هو وضع قوات في طريقه [أي صدام] على الفور بحيث يضطر إلى الاصطدام بها؛ وهذا ما فعلناه ثم تابعنا حشد القوات"[74].

بما أنّ قيام الملك فهد باتخاذ قرار مفاجئ في قضية بهذه الأهمية أمر غير معقول، فإن العديد من الأشخاص - وبخاصة برنت سكوكروفت - يعتقدون أنّ بندر حصل بالفعل على تفويض واضح من فهد. ويعتقد آخرون أن محادثة هاتفية أخيرة بين الرئيس بوش ورئيسة الوزراء مارغريت تاتشر، يوم كانا في أسبن، كانت السبب الحقيقي لموافقة الملك. ووفقاً للورد باول، كان بندر أول من اتصل برئيسة الوزراء البريطانية في أسبن، ورتّب اتصالها بالملك فهد مباشرة[75].

عن مصادفة زيارة السيدة تاتشر إلى الولايات المتحدة قبيل اندلاع حرب الخليج، شدّد السير ريتشارد إيفانز، رئيس شركة بريتيش إيروسبيس سيستمز، على أن رئيسة الوزراء تاتشر تمكّنت بذلك من مقابلة الرئيس بوش على عجل، ورأى أن سير الأمور في الحرب كان يمكن أن يختلف كثيراً في البداية لو أن الحوار بين بوش وتاتشر تم عبر الخط الهاتفي الساخن، بدلاً من لقائهما وجهاً لوجه[76]. وقد صرّحت تاتشر لاحقاً أنّ الرئيس بوش أثار إعجابها: "كان حازماً، ورابط الجأش، يشي بالخصال الحاسمة التي يجب أن يتمتّع بها القائد الأعلى لأعظم دولة في العالم".

لقد اتخذ جورج بوش قراره؛ ولم يكن في نيّته التردّد.

وكتبت تاتشر، "لقد أُعجبت دائماً بجورج بوش. والآن ازداد احترامي له كثيراً"[77].

عندما طُلب من الجنرال شوارزكوف وصف دور الأمير في تسهيل الردّ الأميركي على غزو الكويت، ردّ مؤكّداً: "يمكنني القول إنه كان أساسياً. ليست لدي فكرة عما إذا كان صدام قد خطط للهجوم باتجاه الجنوب أم لا، لكن كان يمكن أن يتأخّر نشر القوات كثيراً". وفي تخمينٍ بشأن نوايا صدام، قال: "كانت المؤشّرات كلها تدلّ على أن القوات العراقية ستواصل تقدّمها إلى داخل المملكة العربية السعودية فور إعادة تجمّعها. فبعد سقوط الكويت - وقد استغرق الأمر كله نحو يومين - لم نكن متيقّنين مما يمكن أن يحدث. كنّا نراقب، لكن لم يكن في وسعنا الجزم أنّ القوات العراقية لن تواصل، بعد توقّف قصير لإعادة تجميعها، التقدّم إلى الساحل الشرقي للمملكة ومحاولة الاستيلاء على حقول النفط".

ثم أكّد سكوكروفت: "لو أنها فعلت ذلك، لوقعت الكارثة، لأنّها كانت ستستولي على موانئ المنطقة وكنّا سنواجه مشقة كبيرة في استعادتها. أعتقد أنّ صدام كان يفكّر في الأمر، لكنّني لا أعرف إذا كان سيقدم على ذلك أم لا. كان علينا

إدخـــال بعـــض القوات بسرعة بحيث يدرك صدام أنه سيضطر إلى الاصطدام بقوات أميركية وذلك بحدّ ذاته سيجبره على التفكير مليّاً. لذا كان علينا إبلاغ السعوديين أنّنا نريد المساعدة وأنّنا مستعدون لإرسال القوات"[78].

وقد ردّد السير ريتشارد إيفانـــز تلك الآراء عندما قال: "بدا من المحتمل تماماً أن صـــدام يـــريد التحرّك بسرعة للاستيلاء على الظهران وحقول النفط السعودية". ولو ســـقطت المملكة العربية السعودية، لكان تأثير ذلك في اقتصاد العالم بأكمله كارثياً. وقال إيفانـــز: "كانت هناك قضية الاقتصاد الكليّ الهائلة. والأمير بندر من الأشخاص الـــذين أدركوا ذلك في الواقع. وهكذا، كان دور الأمير بندر جوهرياً في تسهيل اتخاذ القرار السعودي بسرعة، وهو أمر تمقته العقلية السعودية تقليدياً"[79].

لا ريـــب في أن بندر كان مصمماً على إصلاح الضرر الناجم عن خداع صدام وكذبه. ويرجع التصميم الشديد الذي أظهره الأمير في بداية الغزو العراقي إلى حدّ ما، إلى خيبة أمله الشخصية من قيام صدام بتضليله.

يذكر جيمس بيكر في كتابه *The Politics of Diplomacy* (سياسة الدبلوماسية) أنـــه اجـــتمع، قبل مقابلة الملك فهد في جدة، لمدّة ساعتين مع الأميرين سعود وبندر، فألحّا عليه بالتبكير في بدء الحرب على صدام.

ووفقـــاً لبيكر، كان بندر مصرّاً جداً على التحرّك بسرعة. وقال: "إما أن يذهب أو نذهب نحن في يناير".

في اجـــتماع بـــين جيمس بيكر والملك فهد، تمّ بحث ثلاث مسائل مهمّة تتعلّق بتنسيق الحرب. أولاً، كانت الولايات المتحدة بحاجة إلى إذن سعودي لنشر 200 ألف جندي إضافي على الأرض فأعطى الملك موافقته. ثانياً، يجب أن تعود السيطرة الكاملة علـــى مـــيدان الحرب إلى القادة العسكريين الأميركيين، لا الضباط السعوديين، وهنا أجـــاب فهد: "هذا أمر طبيعي". ثالثاً، طلبت أميركا مزيداً من المساعدة المالية، فكان جواب فهد: "لا يوجد شيء يتعذّر البحث فيه بين الشركاء".

عـــن طلـــب مـــساهمة مالية قدرها 15 مليار دولار من الملك فهد لتغطية تكلفة الانتـــشار العسكري الأميركي، ذكر بيكر أنّه في أثناء لقاء على مائدة إفطار مع وزير الخارجـــية الأمير سعود الفيصل وبندر، عبّرا له بصراحة عن مفهومهما لتقاسم الأعباء بالقـــول: "لا تطلـــب منا 15 مليار دولار إلا بعد أن تحصل على 15 مليار دولار من

الكويتيين". وأضاف بندر: "إنهم قادرون على تقديم هذا المبلغ أيضاً. لديهم الكثير من المقدّرات. فما نفعها إذا لم يستعيدوا بلدهم؟ لذا اطلب منهم بقدر ما تطلب منا. وستحصل على طلبك".

وقد طلب بيكر ذلك بالضبط وحصل عليه[80].

أكد ريتشارد إيفانز أن بندر تولّى دوراً رئيسياً في حرب الخليج، "بسبب إدراكه خطورة التهديد الذي يمثّله صدام. كان يدرك جيّداً أنّ على المملكة العربية السعودية الحصول على دعم من الولايات المتحدة ونشر قوات على الأرض بسرعة لمواجهة التهديد العراقي وبالتالي دحر غزو الكويت"[81]. وأثنى سكوكروفت أيضاً على قيمة المساعدة التي قدّمها الأمير، ومكّنت القوات الأميركية من الانتشار بسرعة كافية لوقف التقدّم العراقي. وقال بشيء من المرح: "امتقع وجه بندر حين قلت له ما يجب أن يفعله - وأعتقد أن بندر يؤكّد ذلك - لأنّه أمر كبير أن يقول للملك عليك أن تتخذ قراراً... الآن!".

ضحك سكوكروفت عالياً، متذكراً انزعاج الأمير من جسامة المهمة المطلوبة منه، وكرّر القول: "سيتذكّر ذلك الحديث، لكنّه أدى المهمة، وقال للملك، *هذا ما يجب أن نفعله*". ولاحظ سكوكروفت أن بندر بقيامه بذلك كان يخاطر بنفسه، لأنّه بحسب تعبيره: "كانت فكرة الملك التأنّي - دعنا نتمهل - نرسل فريقاً ثم يرسل الأميركيون فريقاً إلينا. على طريقة العرب في العمل". ثم مال سكوكروفت إلى الأمام وقال بكثير من الجدية: "أعتقد أنّه لولا بندر لما تم الأمر، ولكان التاريخ مختلفاً جداً"[82].

لا يمكن التعبير بسهولة عن جسامة القرار السعودي بالوقوف ضد بلد مسلم شقيق بمساعدة من الولايات المتحدة. فهو يرمز عند الكثيرين إلى تحالف خطير يعرّض الدين الإسلامي للخطر. فالمملكة العربية السعودية هي حامية الحرمين الشريفين في مكة والمدينة المنورة. ولا شكّ في أنّ قرار الملك فهد أحدث صدمة شديدة لدى صدام، الذي كان يعوّل بالتأكيد على ميل السعوديين إلى الحذر والدراسة المتأنّية. وكما قال بندر: "الصحراء تفرض ذلك النوع من البراغماتية على أهلها. ينبغي للمرء أن يميز السراب من الواقع الحقيقي في الصحراء. فحياته تتوقّف على ذلك"[83].

لكن، خلافاً للتصوّر أنّ الملك فهد سيجد نفسه على المحكّ إزاء الغزو العراقي المباغت للكويت، وعزم البيت الأبيض المفاجئ على حماية المملكة العربية السعودية

وحقـــول نفطهـــا، فقد كان الملك في موقف مهيّأ لاتخاذ الإجراء الحاسم. فحين تمتدّ مملكتك على مساحة تقارب المليوني كيلومتر مربع وتختزن أضخم احتياطيات البترول في العـــالم، ومـــع ذلـــك لا يزيد تعداد سكانها عن 18 مليون نسمة(*) وعديد قواتها المـــسلحة على 70 ألف رجل، يصبح الدفاع على رأس الأولويات، إنّه الشغل الشاغل أبداً. وهو ما كانت المملكة العربية السعودية تستعدّ له منذ سنوات.

لمـــا كانت للمملكة حدود مشتركة مع سبعة بلدان منفصلة في منطقة غير مستقرة، فـــلا عجب في أنّها تفضّل دائماً الموقف الحذر على الموقف الفاعل. غير أن السعوديين لم يـــستهينوا قـــط بتقلّبات المنطقة. فقد عمل وزير الدفاع الأمير سلطان طوال عقود على تقوية القدرات الدفاعية السعودية، وبخاصة دفاعاتها الجوية. وتعكس جهود بندر الدائمـــة على المستوى العالمي، بالنيابة عن أبيه، هذا المسعى بكل بوضوح. وما معركة الحـــصول على طائرات F-15 وأواكس، وصفقة اليمامة مع المملكة المتحدة، وصفقة الصواريخ الصينية إلا أمثلة بالغة الأهمية على تصميم المملكة المتواصل على الدفاع عن نفسها. ومع ذلك، بالنظر إلى حجم الجيش العراقي وقوته، قدّرها وُلتر لانغ، المختص بالـــشرق الأوسط في وكالة الاستخبارات الدفاعيّة، بنحو مليون جندي ووصفها أنّها "مخيفة"، لم تكن المملكة العربية السعودية في وضع يمكّنها من سلوك سبيل المجازفة.

وقد ذكر شقيق بندر وقائد القوة المشتركة، الأمير خالد بن سلطان، بوضوح تام أنّ ثمـــة افتراضـــاً دائماً لدى النخبة السعودية "أنّنا لن نتردّد في طلب المساعدة من أي دولـــة صديقة لدينا مصالح مشتركة معها، بما في ذلك الولايات المتحدة، إذا تَهَدَّد أمن أرضنا وسلامتها، وتعرّضت قواتنا لخطر الهزيمة"[84].

لم تكـــن المـــسألة تتعلّق إذاً بالتعاون مع الولايات المتحدة أم عدمه. فالبراغماتية الواقعـــية الـــسعودية تقـــضي بذلك عندما يكون ضرورياً. بل كان الأمر المطروح للمناقـــشة حقـــيقة التهديد الذي يشكّله صدام ومداه وإلى أي حدّ يمكن الوثوق أنّ الأميركـــيين لـــن يتخلوا عن المملكة إذا جدّ الجدّ. ويبدو أنّ آل سعود انقسموا حول هذه القضايا. وقد أشيع أن الأجيال الشابة والأمراء الذين درسوا في الغرب – المجموعة المحيطة ببندر – كانوا يفضّلون طلب المساعدة الأميركية، غير أن أعضاء العائلة المالكة الكـــبار، بمـــن فـــيهم ولي العهـــد الأمير عبد الله ووزير الدفاع الأمير سلطان، أبدوا

(*) بلغ تعداد السكان في يوليو 1990: 17,115,728 نسمة.

تحفّظات، فاقمها بصورة مطردة موقف أميركا الامتلاكي طوال السبعينيات والثمانينيات من حقول النفط السعودية[85].

في نظرة ثاقبة إلى الاستراتيجية السعودية خلال العقود العديدة السابقة، أوضح بندر أن "الملك فهد رأى أن أسوأ ما في الحرب الإيرانية العراقية كان تساوي القوات لدى إيران والعراق. ولأن لديهما قوات متساوية، ما الذي يمكن أن يقدّمه ما تبقى من العالم إذا ساند أحد الجانبين؟ الأسلحة! لم يكن أي من الجانبين بحاجة إلى جنود، لأنهم متوفّرون. كانا بحاجة إلى أدوات القتال!".

عند مقارنة ذلك بوضع المملكة العربية السعودية، والإجابة عن سؤال طرحه العالم الغربي: "كيف تنفق المملكة العربية السعودية ملايين الدولارات على التسلح، وحين تبدأ حرب الخليج سنة 1990، تضطر إلى استقدام قوات خارجية؟". أوضح بندر الاستراتيجية الكامنة وراء تلك الفلسفة، وأشار إلى درس مستخلص من حلف الناتو في أثناء الحرب الباردة. فعلى الرغم من أن أوروبا كانت تملك التكنولوجيا والمال والطاقة البشرية والاقتصادات القوية، فإنه لم يكن هناك ما يدعو إلى عدم تمكّنها من الوقوف في وجه التهديد العسكري السوفياتي من دون مساعدة. إذا أخذنا أوروبا كلها في مواجهة حلف وارسو. ولاحظ بندر، "لكن كانت لدى أوروبا حليفة - الولايات المتحدة - تملك تلك القدرة العسكرية وكانت مستعدة لتولّي دور مواجهة السوفيات".

عند التوسّع في شرح ذلك المنطق، استشهد بندر بإرث الحرب العالمية الثانية. فقد خرجت أوروبا لتوّها من حرب مدمرة، ومع أن كل دولة على حدة كانت قادرة في نهاية المطاف على الوقوف على قدميها بإمكاناها الذاتية، فقد قرّرت بلدان أوروبا الغربية استغلال تلك القدرة لإعادة بناء دولها. وهكذا، أنشأ الأوروبيون قوات مسلّحة كبيرة بما يكفي لأن تكون فعالة، لكنها ليست كبيرة ما يكفي لمواجهة الاتحاد السوفياتي وحدها، لأن تلك الحاجة يوازنها الأميركيون بتقديم مظلتهم النووية ووضع قواهم على خطّ الجبهة.

لا يمكن تجاهل ذلك. وقد سأل بندر: "لِمَ يكون القيام بذلك حكيماً بالنسبة إلى الأوروبيين وغبياً بالنسبة إلى المملكة العربية السعودية؟". وفي مقارنة بين أوروبا والمملكة العربية السعودية، رأى بندر أنّه إذا كان هناك من يمكنه المساهمة في ع



الأمير بندر ساحر الطيران النفاث في أوج عطائه.

الملك فهد

البارون الأحمر.

صورة خاص
مكنته من

فاجأ بندر والده عندما شارك في عرض طائرات تورنيدو في وارتون - طيران سمحت به مارغريت
تاتشر.

لك فهد والأمير بندر، في لقطة نادرة لجلالته باللباس الغربي.

صورة خاصة لرونالد ونانسي ريغن مع بندر. مع الوقت طوّر الأمير روابط صداقة متينة مع نانسي
مكّنته من التأثير في طرد أو انتقاء أعضاء الوزارة.

الرئيس ريغن متجهما يحاول إقناع الأمير بمساندته في اتفاقية الصواريخ الصينية.



اتفاق الصواريخ الصينية: بندر يصافح رئيس الوزراء الصيني زاو زيانغ، الذي أصبح سكرتيرا
للحزب. ثم أقصي من السلطة عندما اتخذ جانب الطلاب المحتجين في ساحة تياناتمن.

... طائرة اواكس السعودية الاولى بطاقم سعودي كامل مع ضابط أميركي واحد، مع انها حملت ... سلاح الجو الاميركي الى حين هبوطها في المملكة.

... اجتماع AWACS باتجاد عقارب الساعة من اليسار: نائب وزير الدفاع مايكل ديفر، كبير موظفي ... الابيض جيم بايكر، رئيس النواب الجمهوريين هاورد بيكر، الرئيس ريغن، الامير بندر نائب ... بوش (محتجب جزئيا) ومستشار الأمن القومي ريتشارد ألن

الرئيس الإيراني محمد خاتمي يقابل الأمير بندر خلال قمة إسلامية.

لقاء الوفدين خلال زيارة الملك فهد في العام 1985.

مثّل الأمير سلطان جلالة الملك في ذكرى تأسيس الأمم المتحدة الأربعين. وتم اللقاء مع ياسر عرفات في احدى الغرف المخصصة للاجتماعات المغلقة. إلى اليمين الأميران سعود وبندر.

دعا الرئيس ريغن إلى إفطار خاص غير مبرمج خلال زيارة الملك فهد، وقد حضره *(من اليسار باتجاه عقارب الساعة)* وزير الخارجية الأمريكية جورج شولتز، الملك فهد، مستشار الأمن القومي باد ماكفارلن، وزير الخارجية السعودي الأمير سعود، الرئيس ريغن، والأمير بندر *(ظهره إلى الكاميرا)*. كان الأمير سعود وجورج شولتز الشخصين الوحيدين إلى الطاولة اللذين لم يعرفا بقضية إيران كونترا.

...ulations Ambassador - Friend
Geo Bush

صيد الأسماك مع نائب الرئيس بوش – بداية علاقة صداقة طويلة الأمد.



ذكرى الشكر 1990. بعد اللقاء الرسمي في جدة مع الملك وأمير الكويت، توجّه الرئيس الى المنطقة
الشرقية للقاء طواقم سلاح الطيران السعودي، قبل المشاركة في فعاليات ذكرى الشكر على
طائرات. رافق الأمير بندر جورج وباربرة بوش خلال مقابلتهما الطيارين في الظهران.



ير الخارجية جيم بايكر يحيّي الجنود الأميركيين في حرب الخليج. لقد أضاف تكريما شخصيا
مير بندر بقوله: "الذي كان يعرف دائما أنه يمكن إنجازها – وسوف تنجز".

ر حرب الخليج، الرئيس بوش يشكر الأمير بندر بينما الجنرال نورمان شوارزكوف يراقب موافقا



قبل بدء مؤتمر مدريد للسلام في العام 1992، تأخَّر حضور الأمير بندر، مما جعل الرئيس ريغز يؤ
افتتاح فعاليات المؤتمر ليشكر الأمير بندر لمساعدته في تحقيقه.

النشاط الأخير للرئيس بوش في البيت الأبيض - مأدبة عشاء لعشرين من أصدقائه المقربين تعد
هذه الصورة ذكرى حميمة ومفضلة لدى الأمير.





التقط الرسام *الكاريكاتوري البريطاني* الشهير جيرالد سكارف صور نلسون مانديلا، والأمير بندر، والرئيس جورج بوش الأب على طريقته.

عمل رسام الكاريكاتور العربي محمود كحيل على تصوير الواقع السياسي في العام 1990. إلى اليسار بيل كلينتون، جاك شيراك، هلموت كول وهم آمنون سياسياً. بينما رئيس الوزراء البريطاني جون ميجور معلق بيد واحدة بعد خسارته إعادة ترشيحه. بينما يوازن الشرق الغرب في الجهة المقابلة. إلى اليمين حافظ الأسد، هاشمي رفسنجاني، وياسر عرفات آمنون سياسياً. بينما يتدلى صدام حسين رأساً على عقب ومعمر القذافي معلق بأطراف أصابعه. والأمير بندر يسير على الحبل المشدود بين الجميع.

"الاجتماع الذي لم يكن مبرمجا له". الرئيس كلينتون والأمير بندر في قاعة الانتظار في البيت الأبيض في 26 يناير/كانون الثاني 1993. دوّن الأمير التاريخ على الصورة لمحفوظاته الخاصة

اللقاء الشهير في مزرعة الرئيس جورج بوش في كروفورد، تكساس، في أغسطس/آب 2002



بندر وصديقه واستاذه العظيم نلسون مانديلا، حيث توصّل الاثنان مع الرئيس القذافي الى
يقضي بسوق مفجّري طائرة Pan Am 103 الى العدالة ورفع العقوبات الاقتصادية عن ليبيا

طائرة بندر الخاصة المتجهة من واشنطن إلى هيوستن لحضور الاحتفال بميلاد الرئيس بوش
زيّن طاقم طائرة الأمير الطائرة لاحتفال مفاجئ. من اليسار باتجاه عقارب الساعة: جيم
جورج بوش، ميخائيل غورباتشيف، برنت سكاوكروفت (غير ظاهر)، والأمير بندر.

"اعمل بجد وامرح بجد". الأمير يتمتع بنزهة بحرية في البحر الأحمر قرب جدة، ويري براعته ع
منحدرات أسبن.

مير بندر وحـ
سويا في

قائد المقاتلات المخضرم يحاول التأثير في أحد أبنائه، يستخدم إحدى يديه كبديل عن المقا
أف-15، يريه كيف يتمَ الهجوم على طائرة معادية.

مير بندر يَدخل

...ير بندر وحفيده الأمير تركي. كان الصغير يطمح دائماً للحصول على شارب، فرسمه له جدّه عندما ...نا سويا في أسبن.

...ير بندر يدخل ولديه خالد وفيصل إلى المطبخ متسلّحين بأدوات الطبخ.



الأمير بندر مع حفيدته سارة.

المملكــة العسكري، ما يحرّر مقدّراتها ويوجّهها إلى مشاريع كالتعليم والصحة والتنمية وسواها، فإنّ ذلك يبدو معقولاً. واعتبر أنّ ذلك يوفر الاستقرار والأمن. وقال: "الحياة موضوع مقايضة، ولا يستطيع المرء الحصول على الأمرين معاً".

وقــدّر بندر أنّه لو قررت أوروبا مجاراة الاتحاد السوفياتي، فلربما كانت لا تزال مجمــوعة من بلدان العالم الثالث في ما يتعلّق باقتصاداتها وتطوّرها الاجتماعي. "لماذا؟" سـأل بندر. "لأن مليارات الدولارات التي صُرفت لجعل أوروبا ما أصبحت عليه بعد الحــرب العالمــية الثانية كانت ستُستخدم لبناء قوة نووية وقوات مسلّحة عاملة لمجاراة الاتحاد السوفياتي وحلف وارسو".

ويــنقل بــندر المقارنــة إلى المملكــة العربية السعودية، فيخلص إلى أن المنطق الاســتراتيجية الــسعوديين يقــومان على تلك القاعدة المعقولة. فالمملكة، وفق هذا المنطق، هيّأت قوات مسلحة كافية لردع خصم محتمل ذي حجم مماثل. ولكن في حالة العراق الذي يمتلك مليون جندي وسبعة آلاف دبابة وثمانمئة طائرة، فإنّ المملكة العربية السعودية لا تــستطيع أن تجاريه سلاحاً في مقابل سلاح. وبدلاً من ذلك، اختارت المملكــة معادلتها بتحالفات، واستراتيجية سياسة خارجية تمكّنها، حين يجدّ الجد، من كسب حرب في شهر واحد، بدلاً من الشروع في حرب تدوم ثماني سنوات وتنتهي بلا تعادل". وهكذا في وسع المملكة العربية السعودية شراء سبعة آلاف دبابة، وثمانمئة طائــرة، وإعــداد مليون رجل تحت السلاح، لكنّها لو فعلت ذلك لكانت من بلدان العــالم الــثالث، لأنّها ستهدر اقتصادها في إنشاء قوات عسكرية تماثل قوات صدام حسين أو القوات الإيرانية.

وكما أوضح بندر: "نظرنا عبر الحدود فرأينا مليون جندي عراقي، وخمسة آلاف دبابة، وألف طائرة، وعشرة آلاف ناقلة جنود مدرّعة. وهكذا فإنّ المسألة لا تتعلّق بما إذا كانــت لدينا النوعية أو الإرادة لمواجهتها؛ وإنما أنّنا لم نكن نمتلك الكمية للوقوف في وجه هذا التهديد"[86]. وقد اتخذ القرار قبل ذلك بثلاثة أيام في الواقع.

وأكّــد بندر أن عدم التكافؤ في القوة بين المملكة العربية السعودية والعراقيين لم يكن خطأ، بل سياسة مقصودة مفادها، "سأركّز معظم ثروتي وإمكاناتي على الأنشطة المدنــية والتنمية. سأحفظ أمن المملكة العربية السعودية باتباع سياسة خارجية جيدة تنشئ تحالفات تعوّض عن مواطن قصوري حين تبرز ضرورة القوة. وبما أنّني لا أخطط

لخوض حروب مرة كل أسبوعين، فإنها مجرد بوليصة تأمين". وخلاصة هذا العرض التفصيلي للاستراتيجية السعودية هي أنه حين حلّت اللحظة الحرجة، وتعيّن على المملكة العربية السعودية صرف بوليصة التأمين تلك في الحرب الوحيدة المهمّة، خرجت المملكة من الحرب وبنيتها التحتية سليمة، وبناها الاقتصادية كلها سليمة، وبنيتها البشرية والاجتماعية سليمة. وكما لاحظ بندر: "لا أظن أنها سياسة بلهاء".

بعدما اتُخذ قرار السماح بدخول قوات أميركية إلى المملكة العربية السعودية، كانت المشكلة الأساسية هي التدابير اللوجيستية. فقد قيل في البداية إن عدد الجنود الأميركيين المقرّر نشرهم يبلغ خمسين ألفاً: وهو رقم بعيد جداً عن المئتي ألف إلى المئتين وخمسين ألفاً الذين توقّع الجنرال شوارزكوف نشرهم في اجتماعه مع الرئيس في كامب ديفيد في 4 أغسطس. مع ذلك فإنّ نشر ما يقلّ عن ذلك العدد يشكّل تحدياً لوجيستياً كبيراً. كانت القوة الجوية كافية، لكن جلب أعداد فعلية من القوات البرية يستغرق بعض الوقت. ولو قرّر الجيش العراقي شنّ هجوم خلال تلك الفترة، لما كانت القوات البرية الأميركية المرسلة آنذاك كافية لتأمين دفاع كاف. لذا أصبح من المهم جداً ألا يعرف صدام حسين نقطة الضعف تلك. كما كان من الضروري إبقاء القوة الفعلية التي تعتزم الولايات المتحدة إرسالها طي الكتمان الشديد. تم على الفور نشر المقاتلات الأميركية والفرقة 82 الأميركية المحمولة جواً. ولكن، وفقاً لتقديرات الجنرال شوارزكوف، يستغرق الإنجاز الكامل ما يصل إلى 17 أسبوعاً. كما يلزم عشرون يوماً تقريباً قبل أن تتوافر الطائرات الكافية، والمجموعات القتالية لحاملات الطائرات لردع الجيش العراقي، المحتشد فعلاً في الكويت.

في اليوم التالي للمحادثات مع الملك فهد، اجتمع الأمير سلطان وبندر مع الوزير تشيني في جدة. واتفقوا جميعاً على عدم إعلان أي شيء عن العملية المطروحة على بساط البحث إلا بعد يومين، حين تصبح طلائع القوات الأميركية على الأرض بالفعل. لكن تبيّن أن التوقيت وحساسية القضايا المتنازع عليها أكثر صعوبة في واشنطن، حيث تتعارض قضايا الأمن مع حرية الصحافة الأميركية.

قيل إنّه "ما من رئيس أميركي دفع بالولايات المتحدة لحرب كبيرة بهذه السرعة والضخامة"[87]. وقد جارت وسائل الإعلام سرعة تتابع الأحداث على الفور تقريباً؛ فكانت العناوين الرئيسية تصدر عن الصحافة ساعة بساعة، ودقيقة بدقيقة. ووسط

اهامـــات بالتقليل عمداً من حجم القوات الأميركية التي ستُرسل إلى الشرق الأوسط، تعرّضـــت إدارة بـــوش لهجـــوم عنيف من وسائل الإعلام فيما كانت الأزمة لا تزال تتكشف.

كُـــتب في الـــصحف: "الحقـــيقة هي أولى الضحايا لا في الحرب فقط، وإنما في الإعـــداد للحـــرب أيضاً، إذ إنّهما يعتمدان بشدة على السرية والمراوغة والخداع"[88]. ومثل هذا الشعور تعتبره الصحافة الغربية مضرّاً بالحقوق العامة، لكن التمادي في حرية الـــصحافة، وبخاصة في فترة الحرب، يعرّض أرواح العسكريين للخطر. وقد أبدى بندر تعجّـــبه في كثير من مقابلاته من عدم الإقرار الأميركي بهذه الحقيقة العسكرية قائلاً: "لـــديكم في أميركـــا تـــرف التعامل مع العمليات العسكرية مثل التعامل مع مخيّمات الكـــشافة. الأمـــر ليس كذلك؛ لا يمكن أن تطالبوا، ويجب ألا تطالبوا، بتفاصيل عن العملـــيات العسكرية. حياة الناس في خطر في الخليج، ولا يمكنكم التحدّث عن الأمر كما لو أنه مباراة في كرة قدم"[89].

علـــى الـــرغم من ذلك، بقيت وسائل الإعلام شوكة دائمة في خاصرة الرئيس. قاتلـــت بضراوة لكي يطلق لها العنان أكثر من ذي قبل، وقد وصف الصحافي أنطوني لويس محطات التلفاز أنها: "أفظع بوق رسمي خلال الحرب"[90]، وزعم موري ماردر أن إدارة بـــوش وصـــلت إلى مستوى من السيطرة على الصحافة المقروءة، والمسموعة، والمـــرئية الأميركـــية وعلى الرأي العام الأميركي بحيث كان يمكن أن يقدّم الرئيسان جونـــسون ونيكسون أي شيء في مقابل مثل هذه السيطرة خلال سنواهم المضطربة إبان حرب فيتنام"[91].

لعل مثل هذه السلبية تغفل الحاجة إلى التضامن الوطني في وجه العدوان الخارجي ومـــسائل الـــسياسة الخارجـــية الحـــسّاسة. وقد عبّر الرئيس عن خيبته من الصحافة الأميركية، فكتب، "بالنسبة إلى من يظنون أنّني شديد الارتياب بالصحافة، عليهم النظر إلى استطلاع الرأي الذي أجرته إذاعة أيه بـــي سي وصحيفة واشنطن بوست... يبدو لي أنّهم لا يريدون طباعة الأخبار التي لا يريدون قراءها. وذلك أمر معهود!"[92]. وكان الـــرئيس غاضـــباً من استطلاع للرأي، رعته جزئياً صحيفة واشنطن بوست وجرت مـــواراته في صـــفحة خلفية من العدد لأنّه أظهر أن قسماً كبيراً من الرأي العامّ يؤيد مبادرات الرئيس.

إلى جانب نشر القوات الأميركية، كان من المهمّ بالنسبة إلى المملكة وإدارة بوش أن تقوم الدول العربية المؤيّدة والقوى الدولية الأخرى بدور فعال في الدفاع عن المملكة العربية السعودية. وفي مؤتمر طارئ لجامعة الدول العربية عُقد في القاهرة في 9 أغسطس، بدعوة من الرئيس مبارك، صوّتت اثنتا عشرة دولة من أصل إحدى وعشرين تأييداً لقوة عربية تدافع عن المملكة العربية السعودية. وكانت تلك البلدان عازمة على إصدار قرار يسمح بإرسال قوّات عربية. ولم يكن مثل ذلك الإجراء دفاعياً فحسب، وإنما يوفّر أيضاً غطاء دعم دوليٍّ تستطيع القوات الأميركية العمل في ظله. وأبرز مؤتمر القمة أيضاً الانشقاق الذي وقع بين دول عربية اعتُبرت مؤيّدة لصدام حسين ودول عربية معارضة له. فعارضت ليبيا ومنظمة التحرير الفلسطينية إنشاء قوة دفاع عربية؛ وأيّدت إنشاء تلك القوة كل من مصر والكويت ولبنان والمغرب وعُمان وقطر والمملكة العربية السعودية والصومال وسورية والإمارات العربية المتحدة؛ وامتنعت الجزائر واليمن عن التصويت، وتحفّظت موريتانيا والأردن والسودان، وغابت تونس عن المؤتمر. وفي 11 أغسطس، بدأت القوات المصرية والمغربية بالوصول إلى المملكة العربية السعودية.

كان وجود القوات الدولية نقطة محورية آثارها بندر في تعامله مع الدائرة الإعلامية الأميركية. ففي برنامج لاري كنغ لايف قال بندر: "لستم وحدكم من أرسل قوات إلى بلدنا. البريطانيون هناك، وكذلك بلدان عربية وإسلامية، مصر والمغرب وسورية وباكستان وبنغلادش. لذا هذه قضية يلتف العالم كله حولها"[93]. وفي مقابلة أخرى، شدّد على القول: "ما أود أن يعرفه أصدقاؤنا الأميركيون والجمهور الأميركي هو أنكم لستم وحدكم، العالم كله مجتمع معاً. هل يمكن أن يكون العالم كله على خطأ وصدام حسين على صواب؟"[94].

خلف الوحدة الثابتة في الظاهر، كان بندر يبذل قصارى جهده مع الملك فهد لإبقاء الدول المعادية لصدام موحّدة، فضلاً عن اجتذاب الدول التي تقف موقف المتفرّج. وبطلب من الملك، انتقل الأمير إلى سورية كي يحاول إقناع الرئيس الأسد، الذي يعبّر عن قلقه بشأن التزام أميركا. وبعد طمأنة الرئيس السوري أنّه يثق شخصياً بالرئيس الأميركي وبقوة وحجم القوات الأميركية التي يجري نشرها، نجح في كسب تأييد الأسد، غير أنّ الأسد امتنع عن إعلان قراره دعم المملكة العربية السعودية أربعين يوماً آخر[95].



ملك الأردن الحسين – مرشد وصديق بندر، ولكن بندر لم يفهم يوماً أسباب دعمه لصدام حسين بعد غزوه الكويت

شكّل دعم الملك الأردني حسين لصدام حسين عائقاً كبيراً أمام الموقف العربي الموحّد، وسبّب الألم على نحو خاص للملك فهد وبندر والعائلة المالكة السعودية كلها. فالأردن موجود جغرافياً في موضع محفوف بالمخاطر. لكن على الرغم من أنّ آل سعود كانوا يعون مأزق الأردن، فإنّهم لم يستطيعوا إيجاد مسوّغ لملاحظات أبداها الملك حسين، وتدعو بشكل أساسي إلى إخراج القوات الأجنبية من المملكة العربية السعودية بحجة أن الحدود الكويتية العراقية أنشأها المستعمرون البريطانيون.

في 19 سبتمبر 1990، قطعت المملكة العربية السعودية جميع العلاقات مع الأردن، مذكّرة بفواتير غير مسددة؛ كما أنّها أوقفت جميع الواردات الأردنية وطردت دبلوماسيي الأردن وفلسطين واليمن والعراق. ولعل ما هو أبلغ تأثيراً من ذلك أنّ بندر كتب رسالة شخصية – إلى الملك الأردني، وهو الرجل الذي تجمعه به صداقة شخصية حميمة[96].

جلالة الملك

* * *

أليس من الأشرف والأصدق أن تخاطب الشعب العراقي من دون الرجوع إلى صديقك الآخر، صدام، وتخبره عن أفعاله المخزية بغزو بلد عربي شقيق ومسلم وضمّه، وعن أعمال الاغتصاب والتدمير الفظيعة التي لم يسبق لها مثيل في التاريخ العربي.

هذه حقيقة، والحقائق أشياء لا مفر منها.

تقول، جلالتك، إن قوات صديقة دنّست الأماكن المقدسة في المملكة العربية السعودية وإنه يجب على هذه القوات أن تغادر على الفور. لكن هذه القوات بعيدة

فـي الواقـع مئات الأميال، وهناك عشرات الألوف من الجنود المسلمين العرب (ليس من بينهم جنودك) بين تلك القوات الصديقة والأماكن المقدسة. وهذه القوات كلهـا مكرّسة للمساعدة على الدفاع عن المملكة العربية السعودية وهي تحترم ما تقـوم المملكة به في خدمة الأماكن المقدسة. ولن تغادر هذه القوات إلى أن يغادر صديقك صدام الكويت بشكل سلمي وفوري كما نأمل.

أخبرنا، يا صاحب الجلالة، ماذا فعلت لصون المسجد الأقصى وكنيسة القيامة اللـذين ضيعتهما أمام الإسرائيليين سنة 1967، أي منذ ربع قرن تقريباً؟ هل هذه هي الحماية التي تريد أن نوليها للأماكن المقدسة في المملكة العربية السعودية؟

***

وقـد زعمـت، يا صاحب الجلالة، أنك تدافع عن حق الشعب الفلسطيني في تقرير المصير وفي دولة خاصة به. وأنا أدعمك في ذلك. لكنّك كنت مسؤولاً عن الوطن الفلسطيني في الضفة الغربية من 1948 إلى 1967. فلماذا لم تعطهم طوال تلـك الفتـرة حقـوقهم ودولـتهم؟ وكيف يمكن أن يقدّم احتلال الكويت لإخوتنا الفلسطينيين وطنهم؟

تتحدّث عمن "يملكون" وعمن "لا يملكون". إنّ سجلّ المملكة العربية السعودية كواحدة ممن "يملكون" واضح في مساعدة من "لا يملكون"، ونحن فخورون بذلك. التفت فقط إلى سجلات وزير ماليتك، وانظر إلى مقدار ما أعطتك المملكة العربية السعودية وأعطت بلدك، عن طيب خاطر وسرور، كإخوة.

***

إنـك يـا جلالة الملك رجل ذكي جداً، وتتمتّع بذاكرة حادة. تقول إن الحدود الكويتـية العراقية، متنازع عليها، وقائمة على سجل تاريخي وضعه المستعمرون البريطانيون.

يـا صاحب الجلالة، إنك آخر من يستطيع أن يقول ذلك. فليست حدودك فقط، بـل بلـدك كلـه أوجده المستعمرون البريطانيون أنفسهم. وهل تذكر يوم دعوت جـنوداً بريطانيين إلى دخول بلدك سنة 1958؟ لم نعترض على دوافعك وحكمتك في ذلك الشأن أو نشكك فيهما.

أخـوك الملك فهد فخور بصداقته مع الرئيسين مبارك والأسد، والملك الحسن ورؤسـاء باكستان وبنغلادش والسنغال، وقادة المجاهدين، والرؤساء غورباتشيف وبـوش وميتـران ورئيـسة الـوزراء تاتشر، وكثير من رؤساء الدول الأخرى وشـعوبهم، الـذين انضموا إلى الإجماع العالمي في الأمم المتحدة وانتظموا ضد العدوان السافر وضد ضم شقيقتنا دولة الكويت.

أرجو أن تكون فخوراً بأصدقائك الجدد، صدام حسين وأبو العباس وأبو نضال وحبش وحواتمة، وسائر ذلك الحشد غير المقدّس.

تقول لنا، يا صاحب الجلالة، إن الموقف اليوم كالموقف في سنة 1914، حين كـان العالم ذاهباً إلى حرب لم يكن يريدها لكنه لم يستطع وقفها، الأمر الذي أدى إلى الحرب العالمية الأولى. هذا ليس صحيحاً، يا صاحب الجلالة، الموقف اليوم هــو كالموقف في الثلاثينيات، حين قرّر رجل مجنون ضمّ جارته ولم يفعل العالم شيئاً، ما أدى إلى الحرب العالمية الثانية.

يـــا صـــاحب الجلالة، أرجو أن تتذكّر ما الذي سبّب هذه الأزمة بأكملها في منطقتـــنا، إنـــه قيام صدام حسين بغزو دولة الكويت العربية والمسلمة. وبعد ذلك فقـــط وبسبب ذلك دُعيت القوات العربية والصديقة. وهي كلها سترحل حين يُدحر هذا العدوان أو حين نطلب منها أن ترحل. هذه هي الحقائق.

يـــا صاحب الجلالة، لطالما كنت أكن لك احتراماً ومودة عظيمين، ولا أزال أكن لشعبك احتراماً ومودة عميقين. لكنّني لم أعد أشعر أنّك الرجل الذي عرفتُه. أرجـــو أن أكـــون مخطـــئاً. وإذا كنت مخطئاً، أرجو يا صاحب الجلالة أن تقبل اعتذاري الشديد. لكن الحقائق لا مفر منها[97].

هذه الرسالة المفتوحة والمثيرة للجدل من بندر إلى الملك حسين قدمها فرِد داتون كمقالة في باب الرأي إلى صحف واشنطن بوست ونيويورك تايمز وسان فرانسيسكو كـــرونيكل في وقت واحد. وقد نشرت الصحف الثلاث الرسالة، التي سببت عاصفة مـــن الاحـــتجاج في الصحافة الأميركية. وقد أبلغ بندر أصدقاء له لاحقاً، "بقدر ما حظـــيت به تلك الرسالة من دعاية، وبقدر ما نلت من مديح من كل مناوئي صدام – في المملكـــة، وأميركـــا، وأوروبا، والعالم العربـــي – فإنها كانت أشدّ ما كتبته لأحد إيلاماً، لأنّني كتبتها وأنا في صراع مع نفسي. فمن جهة، أردت فعلاً أن أكون لئيماً، ومـــن جهة أخرى، لم أرد حقاً أن أكون لئيماً تجاه الشخص نفسه الذي كنت أكن له الكثير من المودة، لكنه لم يترك لي مجالاً للمناورة".

في نقاش لاحق في برنامج جون ماكلوغلن **وجهاً لوجه** على تلفزيون بـــي بـــي إس، كـــرّر بندر الإعراب عن خيبة أمله من موقف الملك حسين، لكنه ردّد عبارات الاحتـــرام للملك، قائلاً: "إنني أكن للملك حسين احتراماً عظيماً. فهو في النهاية، إلى جانـــب كـــونه واحـــداً من قادتنا العرب، طيّار حربـــي زميل. إنّ ما فعله مؤلم لأن

المملكـــة العـــربية الـــسعودية وضعت تحت قيادته في الأردن جنوداً لمدة عشر سنين، وعندما أرسلناهم إلى هناك، نـــزولاً عند طلبه، لم تكن ثمة تساؤلات وأرجو ألا ينسى ذلك"[98].

وقـــد كـــشف لي العقيد بوب ليلاك في ما بعد الأسس الحقيقية لتلك الرسالة، موضـــحاً: "كان الأمير بندر والأميرة هيفاء وبعض الأصدقاء يشاهدون الملك حسين وهو يدلي بحديثه إلى تلفزيون سي أن أن. وفي أثناء ذلك، كان الأمير يعلّق عليه، جملة جملة، كردّ فعل عليه". وعندما أنهى الملك حسين كلمته، نظرت الأميرة هيفاء إلى بندر وقالت: "لِمَ لا تكتبها؟".

قال بندر، وهو لا يعي ما كان يفعله: "ماذا أكتب؟".

أجابت الأميرة هيفاء: "لا بد من إسماع إجاباتك الملك".

فقـــال بندر: "حتى لو أردتُ أن أكتبها، فإنّني لا أذكر ما كنت أقوله. كنت أردّ فقط".

فقالـــت هـــيفاء: "لندع كل الحاضرين في هذه الغرفة ينعشون ذاكرتك ما داموا سمعوا ما قلتماه كلاكما".

ولّمـــا كان الحاضرون قد سجلوا المقابلة مع الملك حسين على شريط فيديو، فقد أعـــادوا عرض الشريط. وبعدما عصر كل منهم ذاكرته، ابتكر بندر اللازمة: "الحقائق لا مفر منها، يا صاحب الجلالة". وكانت شيئاً اعتاد ريغن قوله، وتخلّل فقرات رسالة بندر.

وذكـــر ليلاك أنّه على الرغم من مرور سنوات على الرسالة، فإن ألم كتابتها لا يـــزال يلازم بندر الذي قال: "إنه أمر مدهش، فما يبدو للناس أنه أجمل ساعات المرء، قد يكون بالنسبة إليه أسوأ ساعاته، لأنّني لم أجد أي متعة في كتابتها بالفعل".

وقـــال الدكتور سعيد كرمي، متحدّثاً عن العلاقة بين بندر والملك حسين: "كان بـــندر يحب الحسين ويحترمه أيما احترام؛ كان ملكاً، معلماً بطريقة ما، صديقاً، طياراً زميلاً، رجلاً عملياً وواقعياً، نشيطاً، ذكياً، وكان الصامد الأمثل. وقد حيّر بندر بموقفه خـــلال حـــرب الخليج وغزو الكويت. لقد ساند الملك حسين موقف صدام حسين [لأســـباب] أكثـــر تعقـــيداً مما فهمه الناس. وسبّب موقفه ألماً للقيادة السعودية وبندر شخـــصياً، لا لمـــا فعله وقاله، بل لأنّه كان قريباً منهم بحيث لم تساورهم الشكوك في

اتجاه هواه وقد مرّوا بأوقات عصيبة من قبل. الفارق الكبير، الذي لا يفهمه الناس ولا يقدّرونـــه في ردّ الفعل السعوديّ الحادّ باتجاه هذا الرجل الذي أحبّوه جميعاً، من الملك فما دون، وبصرف النظر عن المشاعر الشخصية التي ساورتهم، هو أنه كان يستشيرهم مسبقاً في الماضي عندما يجد نفسه في مثل هذا الموقف. وكان يخبرهم عن سبب عزمه علـــى الإقدام على فعل شيء لا يحبّذونه، كما كانت حاله مع عبد الناصر وما إلى غير ذلك، وكان السعوديون يوافقون على أنّ ذلك السبيل الأفضل له، بعد أن يعرفوا أنّهم يتفاهمون وأنه لم يتغيّر".

علـــى مـــرّ السنين، صلحت العلاقة بين المملكة العربية السعودية وقويت. وقبيل وفـــاة الملـــك حـــسين، اتصل مساعدوه ببندر هاتفياً في منـــزله في إنكلترا. وقالوا: "صاحب الجلالة لا يستطيع أن يكلّمك، لكن لديه رسالة لك. *ابني (الذي أصبح الملك عبد الله لاحقاً) هو ابنك؛ أرجو أن ترعوا ابننا وأن تعتنوا به*".

وأجاب بندر بسرعة: "قولوا للملك حسين إن ابنه ابننا وسنعتني به".

ومـــات الملك بعد ذلك بوقت قصير، وكان بندر بين الكثيرين من أفراد العائلة المالكة السعودية الذين حضروا الجنازة[99].

لم يقتصر تقديم الدعم الأميركي إلى الشرق الأوسط على نشر قوات. فمن نتائج التعاون بـــين الولايات المتحدة والمملكة العربية السعودية التعزيز الأميركي للقدرات الدفاعـــية الـــسعودية. وقـــد بذلت إدارة بوش جهوداً لإرسال ما كان اعتُبر معدات عسكرية ضرورية للغاية إلى المملكة العربية السعودية. وأوضح برنت سكوكروفت: "كـــان العراق يملك جيشاً أكبر بكثير من الجيش السعودي ويتمتّع بتفوّق نوعي إذ لم يكن لدى السعوديين ذخائر تستطيع التغلب على دبابات العراق سوفياتية الصنع"[100].

كمـــا هـــي الحال مع كثير جداً من عمليات نقل أسلحة إلى الشرق الأوسط، فقد كانـــت هناك صعوبات. أولاً، كان يحظر على الإدارة بيع ذخائر من نوع معين لبلدان خـــارج حلف الناتو. ثانياً، كان لا بد من فترة انتظار مدتها 30 يوماً فاصلة بين إشعار الكونغرس وشحن الأسلحة، ما أطال فترة تعرّض السعوديين للخطر.

ومع ذلك، في 26 أغسطس، حصل الرئيس بوش على تنازلات رسمية موقّعة تجيز إجـــراء نقل فوري لـــِ 150 دبابة و24 طائرة وكمية محدودة من الذخائر إلى المملكة العـــربية الـــسعودية. بيد أن الكونغرس رفض حزمة ثانية مقترحة في سبتمبر وتشمل

دبابات ومعدات حديثة تتراوح قيمتها بين 17 و20 مليار دولار. ولتلبية شروط الكونغرس، قُسمت الحزمة إلى قسمين. يُشحن القسم الأول عند تحديد الحاجة الفورية والتوافر، على أن يليها القسم الثاني في موعد لاحق.

خلال شهري أكتوبر ونوفمبر 1990، وعلى الرغم من جدول المواعيد المزدحم جداً والمقسم بين توقيتين متفاوتين، توقيت واشنطن دي سي وتوقيت المملكة العربية السعودية، استطاع بندر أيضاً أن يلتفت إلى تشكيل لجنة السلام والأمن في الخليج[101]. وهي في جوهرها لوبي يعمل لدعم مبادرات الرئيس بوش خلال الأزمة وتضمّ شخصيات مرموقة من الحزب الديمقراطي مثل السيناتور ستيفن سولارز (نيويورك)؛ والمديرة السياسية للجنة الوطنية الديمقراطية آن لويس، فضلاً عن مسؤولين سابقين في إدارة ريغن، منهم ريتشارد بيرل، المساعد السابق لوزير الدفاع، وفرانك كارلوتشي، وزير الدفاع الأميركي السابق، وجين كيركباتريك، سفيرة الولايات المتحدة إلى الأمم المتحدة، وأعضاء آخرين في الكونغرس*. وقد دعت اللجنة لاستخدام القوة في الشرق الأوسط لحماية المصالح الأميركية في المنطقة شريطة مشاورة الكونغرس قبل القيام بأي عمل. وقد وصف الرئيس اللجنة أنّها "تساعد كثيراً على تبيان الجانب الآخر من المسألة"[102].

على الرغم من وجود اللجنة، فقد كانت قوى نافذة داخل الكونغرس مصمّمة على معارضة أي تحوّل عن موقف الولايات المتحدة الدفاعي. ومع أن القوات الأميركية كانت تحتشد بالفعل، فقد ظل موقف الولايات المتحدة دفاعياً. وقد أُرسلت رسالتان معارضتان من الكونغرس إلى الرئيس بوش، تعترضان على اتخاذ أي إجراء لإخراج القوات العراقية من الكويت بالقوة. وقد ضمّت الرسالة الأولى، التي سُلمت في 9 أكتوبر، تواقيع 33 من الديمقراطيين. وفي مؤشّر واضح على تنامي الزخم ضمن الفريق المعارض للحرب، سُلمت رسالة ثانية إلى الرئيس في 30 أكتوبر، أي بعد مرور أقل من ثلاثة أسابيع على الرسالة الأولى، وكانت تضمّ تواقيع 81 من الديمقراطيين. وجاء تعاظم المعارضة بسبب المخاوف من الحشد المتواصل للقوات، وعدم وجود سياسة التناوب في العملية، والشعور الجلي أنّ القرارات تتّخذ من دون مشاركتهم. أصبح القلق في الكونغرس واضحاً. ونصت الرسالة الثانية صراحة على أن "الكونغرس وحده يستطيع إعلان الحرب بموجب الدستور الأميركي"، و"نحن نشدّد على معارضتنا أي عمل عسكري هجومي"[103].

(*) كان منهم جون ماكين وديك لوغَر وجاك مورثا وبوب توريسيلّي.

علـــى الرغم من قوة الشعور الذي ينبض في الكونغرس، والدعوات الشديدة التي أطلقها الكونغرس مطالباً بمشاركة أوسع في عملية صنع القرار، فقد أصاب بوب دول لبّ المشكلة حين قال: "كيف نجري مناقشة علنية من دون أن نرسل إشارة خاطئة إلى صـــدام؟ إذا كنا في الكونغرس نريد المشاركة، فإنّنا إذاً مدينون لأبنائنا وللرئيس بتأييد سياسة البيت الأبيض"[104].

بعـــيداً عن الخطابة، تبيّن أن وجود أجانب وغير مسلمين على الأرض السعودية أمر شائك. وفجأة أصبحت مسائل غير مطروحة في الجيش الأميركي تتطلّب دراسة، وانتباهاً، وعملاً متأنياً.

يقـــول بـــاول في حديثه عن بندر: "مازحته مرة في أثناء حشد القوّات استعداداً لحرب الخليج. كنّا نمضي وقتاً طويلاً معاً ونحن منكبون على كثير من القضايا. قال لي، *يـــا كولن، لا يمكن أن يأتي الجنود إلى المملكة وهم يضعون صلباناً ونجوم داوود على صدورهم*، فأجبته، *يا بندر، لا بد أنك جننت. هل تعتقد أنني أستطيع أن أبلغ الشعب الأميركـــي أننا قادمون لإنقاذهم ولا نستطيع ارتداء الصلبان والنجوم؟*". لكن، ذلك كـــان يشغل السعوديين حقاً، وتم التوصّل إلى تسوية قضت بالسماح للجنود بارتداء رموزهم الدينية شريطة أن تكون تحت قمصانهم.

وأثـــيرت أيضاً مسألة المكان الذي يستطيع الجنود اليهود أن يمارسوا فيه طقوس يـــوم السبت. فسأل باول الأمير بندر: "كيف ستتدبرون هذا الأمر؟ وكان الجواب: ضـــعوهم علـــى حاملـــة طائرات قبالة الساحل. وهكذا جمعنا الشبان اليهود كلهم وأرسلناهم إلى إحدى القطع البحرية الحربية". مع أنّه أسرّ بالقول: "تجاهلنا الأمر أخيراً لما داموا يلتزمون الهدوء ولا يظهرون أي شيء"[105].

لم تكن معالجة مثل تلك المسائل تقتضي، بالنسبة إلى الولايات المتحدة، نظيراً عـــربياً لديه فهم معمّق لكلا الثقافتين فحسب، بل وجود علاقة شخصية أيضاً بين اللاعـــبين الرئيسيين. ويقول باول: "كان يجب أن يكون مرجعاً يفهم احتياجاتي، ويعـــرف أنني أفهم احتياجاته. وذلك لا تحصل عليه عبر المنصب، وإنما عبر العلاقة الطـــويلة مع ذلك الشخص، وقد تمكنّا من معالجة كل المشاكل التي تطرأ تقريباً، وهناك عشرات منها"[106]. وقد كان بندر المرجع الأفضل بالنسبة إلى بوش، وباول، والملك فهد.

كان الكونغرس يحثّ الرئيس بشكل متكرّر على منح عقوبات الأمم المتحدة الفرصة في إطار الائتلاف الدولي، لكن بوش ازداد قناعة أنّ العمل الهجومي هو المسار الوحيد الذي ينبغي اتّباعه. وكان ينتظر بقلق قرار مجلس الأمن بشأن استخدام القوة لطرد صدام حسين من الكويت. لكن، من دون أن يعلم، وفي عملية غير مسبوقة تضعف الرئيس القائم، بعث الرئيس السابق جيمي كارتر برسالة إلى أعضاء مجلس الأمن، يحضّ فيها المجتمع الدولي على عدم التصويت لصالح القرار 678، الذي يجيز استخدام القوة في الكويت. ورأى الرئيس السابق أنّ ثمن زعزعة استقرار المنطقة والخسائر في الأرواح سيكونان جسيمين جداً.

قيل إن الرئيس بوش استشاط غضباً، لكنه أمر موظفيه بعدم التطرّق إلى هذا الأمر. وكان ذلك قراراً حكيماً. ففي 29 نوفمبر 1990، أجرى مجلس الأمن الدولي تصويتاً حاسماً ومدوياً لصالح القرار 678(*). وبحسب تعبير الرئيس بوش: "صوّت مجلس الأمن على الذهاب إلى الحرب"[107].

كان هناك أمل على نطاق واسع في أن يُقنع القرار 678 صدام حسين أنّ الأطراف الدولية عازمة على طرد قواته من الكويت بالقوة إذا لزم الأمر. ولما كانت بلدان مثل فرنسا وروسيا وألمانيا واليابان تعترض في بادئ الأمر على استخدام القوة العسكرية، فقد كان يرجى أن يؤدي تصويتها لصالح القرار 678 إلى تصحيح افتراض صدام حسين أنّ العالم سيتركه محتفظاً بالكويت. اعتُبرت مهلة الستة أسابيع المنتهية في 15 يناير 1991 حاسمة لإقناع صدام أنّ العالم جادّ وأنّ عليه الانسحاب من الأراضي الكويتية فوراً.

لذا كان من المؤسف جداً بعد النجاح الذي تحقّق ضمن التحالف، أن يُقدم الرئيس بوش في 30 نوفمبر 1990 على خطوة تنطوي على تبعات كارثية، وهي التقدّم "خطوة إضافية من أجل السلام". فقد اقترح الرئيس بوش، استجابة لمعارضة الرأي العامّ والكونغرس من جهة، ولراحة باله من جهة أخرى، إرسال جيمس بيكر إلى بغداد وتقديم دعوة إلى وزير الخارجية العراقي طارق عزيز لزيارة واشنطن.

كان التوقيت سيّئاً جداً. فقد أحدث تصرّف الرئيس صدمة في صميم الائتلاف. بدت أميركا كأنّها تتراجع بعدما أجاز العالم استخدام القوة. بعد أيام قليلة من إعلان

(*) صوّتت كل البلدان الاثني عشر المشاركة لمصلحة القرار، وامتنعت عن التصويت كل من كوبا واليمن والصين.

اقتراح الرئيس في 30 نوفمبر، اتصل بندر بجيمس بيكر، الذي ذكر أن الأمير "رأى أنّ بغداد هي آخر مكان ينبغي أن أفكر في زيارته". وقال بندر: "من الجنون أن تذهب إلى هناك. فهذا الرجل سيأخذك رهينة". اعتقد بيكر أنّ بندر مقتنع أنّ "صدام لن يتقيّد بأي قواعد إذا ما اقتنع فعلاً أنّنا قادمون لطرده". وفي تعليق معبّر عن النوايا السعودية تجاه صدام حسين، قال بيكر أيضاً: "لم يكن بندر يريد أن أذهب أصلاً. فالسعوديون لا يرغبون في تسوية تبقي جيش صدام سليماً"[108]. غير أنّ بندر أصبح من الصقور. ففي محاولة تنمّ عن خيبة الأمل في شرح الفارق بين الأميركيين والعرب قال لسكوكروفت: "كان عرض سلام، بعد 24 ساعة على انتصار الأمم المتحدة، بمثابة رسالة غير صحيحة إلى صدام: إنّه رسالة تشي بالضعف. إرسال بيكر بالنسبة إليكم دليل على حسن النية، لكنّه يوحي لصدام أنكم جبناء"[109].

في آخر مسعى لتجنّب الحرب، أضعف بوش من حيث لا يدري عمل الائتلاف، وأقنع صدام المهووس فعلاً أنّ العالم الخارجي خائر العزيمة. وقد جاءت النتيجة فورية. فمن بغداد، قال فريق من البي بي سي. "الشعور السائد هنا من دون شكّ هو أنّ الرئيس صدام حسين جعل الأميركيين يولون الأدبار". وهكذا أعطى الرئيس بوش صدام السبب الذي يحتاج إليه للبقاء في الكويت حتى نهاية المهلة التي حددها الائتلاف.

أقرّ سكوكروفت نفسه أنّ التواريخ المقترحة كانت غير صحيحة. فقد دُعي طارق عزيز إلى واشنطن خلال الأسبوع الذي بدأ في 10 ديسمبر، لكن دعوة بيكر إلى بغداد حدّدت في موعد بين 15 ديسمبر 1990 و15 يناير 1991. وأتاح ذلك الفرصة أمام صدام ليقايض بالوقت حتى انتهاء مهلة الأمم المتحدة. غير أنّ سكوكروفت اعترف لبندر أنّ الاجتماع ما هو إلا مناورة، وأكّد أن الخطط لخوض الحرب جارية على قدم وساق. فبوش يريد أن يُظهر للعالم - ولأميركا بشكل خاص - أنه رجل سلام وأن خيار الحرب هو خيار صدام[110].

ومع ذلك، كان صدام منتشياً، واعترى حلفاء أميركا في العالم العربي القلق من أنّ الولايات المتحدة أخذت تتراخى[111].

لقد انبرى صدام حسين فوراً إلى التلاعب بحسن نية أميركا عن طريق الإصرار على أن تتم زيارة بيكر في 12 يناير - أي قبل ثلاثة أيام فقط من انتهاء المهلة التي حدّدها مجلس الأمن. وأصرّ بوش على موعد قبل 3 يناير، وأخيراً، التقى بيكر وعزيز

في جنـــيف في 9 ينايـــر. وخلال ذلك اللقاء، دعا وزير الخارجية العراقي نفسَه لزيارة الـــولايات المتحدة وبيكر لزيارة بغداد. فردّ بيكر وقد أغضبه "التغطرس المطلق"، كما أوضـــح للـــرئيس لاحقاً: "لا! أعطيناكم خمسة عشر يوماً، فقلتم لا. والآن تحاولون الـــتلاعب بالموعد النهائي"[112]. رأى بندر لاحقاً أن "بوش وبيكر منحا صدام الارتياح في أشدّ اللحظات ضيقاً وحرجاً عند الزعيم العراقي"[113]. غير أنّ بيكر وجّه في جنيف إلى طـــارق عزيـــز إنـــذاراً أخيراً. إذا وافق على الشروط المطروحة، فلن تكون هناك حـــرب. وإذا رفـــضها، فالحرب واقعة لا محالة. وفي 11 يناير، انتقل بيكر إلى المملكة العـــربية الـــسعودية وشرح للديوان الملكي أنّ "العراقيين رفضوا، لذا نحن ذاهبون إلى الحـــرب، لكن لا يمكننا الذهاب إلى حرب حتى يوافق الملك فهد عليها". وقد أعطيت تلك الموافقة بسرعة.

بـــدأ الحلفاء استعداداتهم الأخيرة لحرب ترمي إلى طرد صدام من الأرض الكويتية بالقوة.

وقبل مغادرة بيكر إلى واشنطن لتقديم تقرير كامل إلى الرئيس بوش، سأل الملك فهـــد: "كيف نتصل بكم بخصوص ساعة الصفر يوم الهجوم؟ الأمر حسّاس وتتوقّف عليه أرواح الكثيرين. أحتاج إلى كلمة سرّ بيننا، يا صاحب الجلالة".

قـــال لـــه الملك فهد: "حسناً، سأتدبر الأمر مع بندر، وستكون كلمة السرّ مع بندر. أخبروه فقط وهو سيتولى الاتصال بـــي".

أعـــدّ بندر لمغادرة المملكة العربية السعودية بعد مغادرة بيكر مباشرة لكي يكون في موقـــف يـــسمح له في واشنطن أن يطّلع على الهجوم المعدّ له. غير أنّ الملك فهد كانت لديه خطط أخرى للأمير.

قال الملك لبندر: "ائتني الليلة بكلمة سرّ بيني وبينك لا يستطيع أحد أن يفكّها". وحين حاول بندر التملّص، كرر الملك فهد القول: "الليلة".

لا تـــزال كلمـــة السر الحقيقية التي استخدمها بندر وفهد لتأكيد البداية المقترحة لعملـــية عاصـــفة الصحراء، موضع شيء من الجدل. فبحسب قول بوب وودوارد، اســـتخدم بـــندر العبارة في حديث عام مع الملك، "صديقنا القديم سليمان قادم عند الـــساعة الثالثة صباحاً. إنه مريض وسأنقله إلى الخارج، وسيصل إلى هناك عند الساعة الثالـــثة صباحاً"[114]. وأيّد بيكر أيضاً تلك الرواية[115]. غير أن روايات أخرى تقول إن

كلمة السرّ هي: "كيف حال عمي المفضّل؟"[116]. وهاتان العبارتان غير صحيحتين وفقاً لبندر. فكلمة السرّ التي تدلّ أن هجوم الحلفاء على القوات العراقية سيبدأ وتحدّد في أي وقت هي، كما يقول بندر، اسم سليمان الحِلّي.

ففيما كان بندر يقود سيارته في شوارع الرياض، محاولاً التفكير في كلمة سرّ يتذكّرها الملك بسهولة، خطر بباله قول شائع لدى سلاح الجو يدعو لانتهاج البساطة. وباسترجاعه حياته الباكرة مع جدّته، تذكّر الأمير رجلاً يدعى سليمان الحِلّي ويتحدّر من أسرة جدته لجهة أمها. كان رجلاً مرحاً اعتاد رواية الطُّرف وإضحاك جدته وكثيرين من عائلة بندر، بمن فيهم الملك فهد. وكان سليمان الحِلّي، الذي توفي قبل 25 سنة تقريباً، شخصية لا يعرفها أي جهاز استخبارات في العالم، إذ لم يكن له مكان في التاريخ.

عاد بندر لمقابلة الملك: "وجدت كلمة السرّ!".

سأله الملك فهد: "ما هي؟".

"سليمان الحلّي".

أجاب الملك: "ماذا؟ إنه متوفى".

قال بندر: "أعرف ذلك، وأراهن أنّ المخابرات الأميركية والروسية والبريطانية مجتمعة لا تستطيع أن تعرف من هو سليمان الحلّي".

أجاب فهد: "حسناً. هذا معقول، تابع".

تابع الأمير: "عندما أعرف موعد الهجوم أتصل بكم وأقول عائلة سليمان الحِلّي".

قاطعه الملك فهد: "لِمَ العائلة؟".

أوضح بندر: "في حال عرف أحد من هو فسيقول *لقد مات منذ خمس وعشرين سنة، لماذا يأتون على ذكره؟*".

وكانت القصة التي لفّقها بندر أن الملك فهد أرسل أحد أفراد عائلة سليمان الحلّي إلى الولايات المتحدة لتلقي العلاج الطبي، لكن الأطباء اتصلوا ببندر وقالوا له لا أمل في شفاء المريض. فقال للملك فهد: "أوصي أن نعيده إلى الديار ليكون فيها حين يوافيه الأجل. وعندها تسألني، *متى سيصل إلى الوطن كي أرسل من يستقبله؟* فأحدد لكم وقتاً يكون في الواقع موعد الهجوم". ووافق الملك على فكرة الأمير(*).

(*) ظن الأميركيون أن سليمان هو النبي سليمان، وأن السعوديين يستخدمون مرجعاً من الكتاب المقدس.

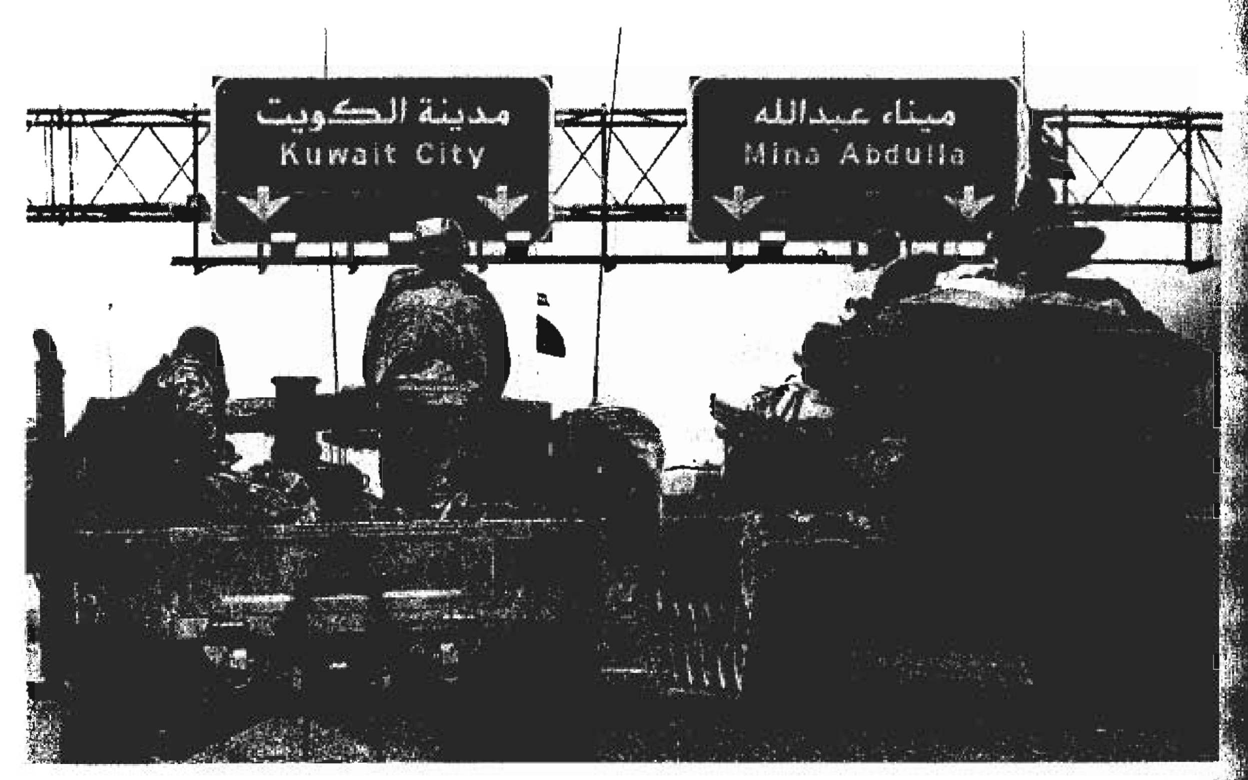
بعـــد مرور سبعة أيام، وفي لقاء صباحي مع وزير الخارجية جيمس بيكر في 16 ينايـــر 1991، أُبلـــغ بندر بالقرار الأميركي بضرب بغداد في مساء ذلك اليوم. وأبلغ الأمير الملك فهد هاتفياً بموعد الهجوم مستخدماً كلمة السر، سليمان الحلّي.

في 16 يناير، في تمام الساعة الثامنة مساءً بتوقيت واشنطن دي سي (الثالثة فجراً بتوقـــيت بغداد)، أطلقت الولايات المتحدة عملية عاصفة الصحراء. بدأ الهجوم الجوي مـــن دون أي عائـــق. ونظراً إلى الغموض وسوء التفاهم اللذين شابا الحوار الأميركي العراقـــي منذ البداية، وفيض الرسائل المشوّشة المتدفّقة من كلا البلدين عبر الأطلسي، فليس من المستغرب أن يعجز صدام عن توقّع الإجراء الأميركي أو استباقه.

مـــع اشتداد حملة الحلفاء على العراق، لعب صدام حسين ورقة أخرى، وراحت صواريخ السكود تتساقط على أهداف في إسرائيل. وذكر سكوكروفت كيف أنّه بعد ســـقوط ثلاثة صواريخ سكود على إسرائيل (اثنان في تل أبيب، وواحد في القدس)، ســـلّمه مدير عملياته رسالة تخبره أنّ "الإسرائيليين يريدون توجيه ضربة معاكسة كبيرة داخـــل الغرب العراقي: مئة طائرة في صباح اليوم التالي، ومئة طائرة أخرى عصر ذلك الـــيوم، وهجمات بمروحيات أباتشي في الليل، وغارات كوماندوس، على أن تدخل كلها العراق عبر المجال الجوي السعودي".

أبلغ باوِل شوارزكوف باقتضاب: "لن يقبل السعوديون بذلك البتة، ولا يمكنك فعـــل ذلك من وراء ظهورهم. لديهم رجال في طائرات أواكس وسيعرفون". لكن، فيما عبّرت الإدارة عن غضبها إزاء الهجمات بصواريخ سكود، جرى بذل كل جهد لإقـــناع الإسرائيليين بالامتناع عن القيام بأي ردّ، وإذا استحال ذلك، بحصر أي عمل في القـــواعد الجوية التي أطلقت منها صواريخ سكود في غرب العراق. وقالت الإدارة: "لقـــد دمّـــرنا بالفعل جميع منصات صواريخ سكود المعروفة، ونحن نواصل هجومنا بطائرات وقوة نارية تفوق ما يستطيع الإسرائيليون حشده، كما أنّ التدخّل الإسرائيلي سيحدث توتّراً في الائتلاف الذي بذلنا ما في وسعنا لتشكيله وربما يصدّعه"[118].

على الرغم من توقّع الرفض السعودي، فاتح باوِل وبيكر بندر بالأمر، وطلبا منه الحـــصول على إذن الملك بتحليق طائرات إسرائيلية في الأجواء السعودية، إذ إنّ ذلك خـــيار أقل خطورة من الهجوم الإسرائيلي عبر المجال الجوي الأردني حيث قد ينظر إليه بمثابة بُعد جديد يضاف إلى الصراع. قال باوِل: "أبلغت بندر أن الإسرائيليين يريدون أن



عملية عاصفة الصحراء - آلية همفي أميركية ودبابة سعودية في طريقهما إلى الكويت العاصمة

يسمح لهم بعبور أجواء بلده لمهاجمة العراق". وأجاب بندر على الفور: "الملك فهد رجل سخي، لكن سيكون رفع مثل هذا الطلب إليه مضيعة للوقت"[119]. ولم يبدِ الأمير أي مرونة بشأن الرد الإسرائيلي وأصرّ على عدم السماح لإسرائيل بدخول الحرب[120]. وسرعان ما وافقت إسرائيل، كما أكد باوِل، مجدداً على الإحجام وتم نزع فتيل الأزمة.

وفي 24 فبراير 1991، بدأ الهجوم البري ودام مئة ساعة بالضبط، أي حتى انتهاء عملية عاصفة الصحراء في منتصف ليل 27-28 فبراير، وحقّقت قوات التحالف انتصاراً مبيناً. دُحرت القوات العراقية بسهولة إلى ما بعد الحدود العراقية. وعلى الرغم من مخاوف الكونغرس القصوى، فقد بلغت الخسائر الأميركية عند توقف إطلاق النار 97 قتيلاً و212 جريحاً و45 مفقوداً. ومع أن الخسائر مأساوية، فقد أثارت محدوديّتها الإعجاب نظراً إلى كثافة الطلعات الجوية التي نفّذت بالترافق مع الهجوم البري، حيث بلغ مجموعها في الحملة 110,000 طلعة. وكان عدد القتلى الأميركيين في عملية عاصفة الصحراء أقل من العدد الذي سقط في تفجير مقر القوات الأميركية في بيروت سنة 1983.

شعر بندر بإحباط شديد نتيجة القرار الأميركي بتعليق الهجوم، ما ترك صدام حسين في السلطة مع بقاء قسم كبير من حرسه الجمهوري سليماً. فقد اتخذ بندر

مـــوقفاً متشدّداً بعدما خدعه صدام شخصياً - متعمّداً الكذب على شقيق عربـــي - وهـــذا مـــا أكّده لي الوزير بيكر في مقابلة في منـــزله في هيوستن. وزودني بملاحظاته الخاصة المدوّنة خلال اجتماع عُقد بعد الغزو، وفي أثناء الإعداد لهجوم محتمل لاستعادة الكويت. أظهرت ملاحظات بيكر أن بندر كان يؤيّد ردّاً عسكرياً كاسحاً على الغزو العراقي، قائلاً: "إذا وقع اشتباك عسكري، فيجب أن يكون شاملاً وكاملاً. فنحن لا نستطيع تأمين الدعم لردّ محسوب. إنّنا نشعر بقلق من الوصول إلى تعادل"[121].

بيد أن بوش وافق على وقف إطلاق النار بعد أن تم تدمير أو إبادة جزء مهم من القوات العراقية. لم يكن السعوديون سعداء بهذا القرار لأنهم يريدون أن يدمّر المزيد من قـــوات جيش صدام، وبخاصة قوات الحرس الجمهوري النخبوية[122]. ومما زاد الاستياء السعودي من إنهاء الهجوم، الموقف الخُلُقي والتصالحي الذي اعتمدته الولايات المتحدة تجاه العراق بعد وقف إطلاق النار، وهو موقف وصفه بندر أنّه "التطهرية الأميركية في أسوأ أشكالها".

وفي حـــديث مباشر عن توقيت وقف إطلاق النار، يقول بندر: "أعتقد أننا من الـــوجهة العـــسكرية تعجّلنا في التوقف، وأعتقد أننا فعلنا الشيء الصحيح من الوجهة الـــسياسية. مـــع أنّني الآن، بعد مرور سنتين، أظن أنّه كان يمكن الحصول على نتائج أفضل سياسياً لو واصلنا تلك الحرب"[123].

وضرب أخوه غير الشقيق، الأمير خالد، على الوتر نفسه في ذكرياته عن عاصفة الـــصحراء وأبـــرز الـــرأي العربـــي بصورة خاصة حين قال: "كان لا بد من معاقبة العدوان، لا مكافأته، وإلا سقط النظام العربـــي بأكمله في وهدة شريعة الغاب"[124].

أصـــيب بندر بخيبة أمل شديدة لأنّ الحلفاء علّقوا العمليات العسكرية من طرف واحـــد، وطـــبّقوا وقف إطلاق نار من دون جعله مشروطاً باستسلام صدام حسين. ورأى أنّ الـــرئيس العراقـــي لا يزال في السلطة مع أنّ الحلفاء ربحوا الحرب بلا شك. نعـــم، تحـــرّرت الكويت. لكنّ مقتلة الجيش العراقي في وجه قوات متحالفة ومتفوّقة تقودها أميركا أدّت إلى وقف إطلاق النار لدواع إنسانية بتحريض من وسائل الإعلام، فأسفرت العملية عما هو دون انتصار مرضٍ.

بعد ذلك بسنوات، واصل الرئيس بوش تبرير قراره بوقف الأعمال العدائية عند تلـــك النقطة، قائلاً: "نفهم أن يُطرَح سؤال: هل تعجّلنا في وقف الحرب؟ وجوابـــي

كان، وسيظل دائماً، لا. لقد حدّدنا المهمة: لم تكن قتل صدام حسين، ولم تكن حتماً احتلال بلد عربي؛ كانت إنهاء العدوان على الكويت"[125]. لكن، على الرغم من النتيجة الإيجابية لحرب الخليج، فقد بقي صدام في السلطة. أخطأ الحلفاء جداً في تقدير قدرة صدام على البقاء وانقلب الحظّ كما تبيّن. وقد أوضح بندر، في اجتماع مع رئيس الوزراء البريطاني في ذلك الوقت، جون ميجور، أن العالم العربي توقّع أن يقوم الجيش العراقي بخلع صدام من السلطة؛ فتلك هي النتيجة المحتّمة لهزيمة عسكرية دولية محرجة أخرى. لكن بدلاً من ذلك، أحكم صدام قبضته على السلطة بلا هوادة، ولم يحدث الانقلاب المنتظر قط[126].

وفي تطوّر إضافي آخر، دعا السعوديون إلى تزويد الشيعة العراقيين بالسلاح سرّاً على أمل في أن يؤدي ذلك إلى سقوط صدام في النهاية[127]. لكن على الرغم من التطمينات السعودية أنّ شيعة العراق أبعد ما يكونون عن شيعة إيران، الذين قاتلتهم الولايات المتحدة والعراقيون في الحرب الإيرانية العراقية، فقد رفض الأميركيون الخطة من دون تردّد.

كان لذلك الرفض عواقب كارثية على الشعب العراقي. فقد حضّ بوش الجيش والشعب العراقيين على "تولّي أمورهم بأيديهم" ودعا صدام حسين إلى "التنحي"، ثم ذهب في الاتجاه الآخر.

كان موقف بندر من صدام حسين ومن الشروط التي فُرضت عليه بعد وقف إطلاق النار واضحاً لا لُبس فيه. ففي كلمة له أمام ندوة لرابطة سلاح الجو بعد نحو 18 شهراً عن استخدام العراقيين المروحيات، قال: "وافق الجنرال شوارزكوف على السماح للعراقيين بالتحليق بالمروحيات بعد التفاهم على أنّهم لن يسيئوا استخدامها. وعندما أساؤوا استخدامها في الجنوب، حدّثتني نفسي أنّ علينا القول لهم أوقفوا الطيران في الغد. وكان الرد الأميركي، *قلنا لهم إن في وسعهم استخدامها وسيكون ذلك بمثابة تراجع عن كلامنا، أو تعْلم أن هذا غير منصف، نقول لهم نعم*... لذا قلت، *ذلك غير منصف بالتأكيد، يجب ألا ينسوا أننا كسبنا الحرب! يمكننا أن نقول لهم لقد غيّرنا رأينا، لا تحلقوا بالمروحيات غداً!*"[128].

كما هي الحال مع كثير من مساعي بندر الدولية، لعبت الصحافة الغربية، وبخاصة الصحافة الأميركية، دوراً أساسياً في الأحداث. فمن خلال مقابلات متلفزة

ومؤتمرات صحفية كثيرة في أثناء حرب الخليج، عمل الأمير بلا كلل كي يفسّر للجماهير الغربية الحقيقة وراء الصور المزعجة غالباً التي تذيعها وسائل الإعلام في الشرق الأوسط. وفي أحد الأمثلة، أوضح أن "الإعلام في الولايات المتحدة الأميركية يعطي الانطباع أنّ خمسين ألف متظاهر في الأردن يمثلون العالم العربي. كل ما أودّ أن أقوله لكم هو أن هناك خمسين مليون نسمة في مصر يؤيدون الولايات المتحدة"[129].

بالإضافة إلى المناورة نيابة عن الملك فهد خلال التمهيد لقرار الملك بقبول انتشار قوات أميركية، لم يدّخر بندر جهداً أيضاً لإقناع الجمهور الأميركي والكونغرس أنّ التدخّل الأميركي في الخليج خطوة إيجابية لن تجلب العواقب الوخيمة التي يخشاها كثير من الخبراء. "كان من المسلّي بالنسبة إليّ مشاهدة *خبراء بشؤون الشرق الأوسط* أو من يسمَّون مستعربين وهم يطلعونني على ما سيحدث إذا أرسلت أميركا قوات إلى الشرق الأوسط. كيف سيهبّ الشرق الأوسط إلى الثورة من الخليج إلى المحيط. وعندما لم يحدث ذلك، قالوا، *لكن هناك تظاهرات في نيجيريا وتونس والأردن*. وكنت أستمتع بمناقشة هؤلاء الأشخاص والقول، *هل لكم أن تقولوا لي ماذا حدث في يوليو 1990 في نيجيريا وتونس والأردن؟ تظاهرات! في يناير 1991؟ تظاهرات! وماذا حدث في أغسطس؟ لم يتغيّر شيء، كانت لديهم مشاكلهم، وأسبابهم، وأضيفت لافتة أخرى*"[130].

لا مجال للتشكيك في أهمية حرب الخليج الأولى في تحديد "نظام عالمي جديد". فقد تشكّلت تحالفات، ونُظّمت ائتلافات واتخذت قرارات لم يُنظر فيها حتى ذلك الوقت. وبصرف النظر عن دافع المصالح الوطنية، اتحدت بلدان شرقية وغربية، إسلامية ومسيحية، ضد طاغية واحد ونجحت، وإن يكن بشكل محدود. وكما أوضح الرئيس السابق بوش: "لم تتحقّق هذه الرؤية بصورة كاملة عندما كنت رئيساً – على الرغم من أنّنا قطعنا شوطاً بعيداً باتجاهها – لكن النظام العالمي اليوم جديد تماماً في الواقع. إنّ *النظام العالمي الجديد* الذي سعينا في سبيله لا يعني وضع كل شيء تحت تصرف الأمم المتحدة أو التخلّي عن ذرَّة من السيادة؛ إنه يعني العمل بالتعاون مع بلدان أخرى لإحلال مزيد من الديمقراطية، واستحداث مزيد من اقتصادات السوق، وتحقيق مزيد من الحرية"[131]. وبحسب تعبير بندر: "أعتقد أن الشرق الأوسط تغيّر كثيراً منذ غزو الكويت وحرب الخليج؛ فالشرق الأوسط الذي عرفته قبل 2 أغسطس لم يعد الشرق الأوسط القائم حالياً".

يفخـــر الأمير، كطيّار قبل أن يصبح دبلوماسيًّا، بالعرض المثير لقدرات سلاحي الجـــوّ السعودي والأميركي. "أظن أن سلاح الجو استطاع لأول مرة في تاريخ الحرب تحقيق نصر حاسم في هذه الحرب... ولا أقول ذلك انتقاصاً من شأن الجيش أو مشاة البحرية، بل لأقول فقط، *دعونا نستغل هذه القدرات الجديدة التي نملكها*"[132].

تعـــزّزت آراء بندر بما قاله السير ريتشارد إيفانـــز الذي أكّد أنّ وسائل الإعلام تجاهلـــت ســـلاح الجـــوّ الملكي السعودي إلى حدٍّ بعيد، وبالتالي فإنّ مساهمته طواها النسيان. وتابع: "أظن أنها كانت حملة محورية بالنسبة إلى سلاح الجوّ الملكي السعودي. ففي سياق الغارات الأولى سنة 1991، كان السعوديون أول من نشروا عملانياً عدداً مـــن أســـلحة طائرات تورنيدو، بما في ذلك JP233، وهي الذخيرة المتطوّرة الخاصة بتخريب مدارج المطارات الحربية. ولم ينسب لسلاحهم الجوي الفضل الذي يستحقه في ســـياق المساهمة التي قدّمها في المرحلة العملانية من الحرب". وأضاف إيفانـــز: "في ذلـــك الـــوقت بلـــغ سلاح الجوّ [السعودي] سنّ الرشد. ويفخر سلاح الجوّ الملكي السعودي كثيراً بسلوكه العملاني وإنجازاته خلال الحرب".

راجع إيفانـــز أداء سلاح الجوّ الملكي السعودي خلال حرب الخليج، ولاحظ أنّ "بـــندر لم يكن بالتأكيد متفرّجاً حيادياً، ولم يكن كذلك بالفعل كثير من كبار أفراد العائلـــة المالكـــة الـــذين كانت لديهم أيضاً خبرات واسعة في الطيران في الستينيات والـــسبعينيات. فقد عبّروا جميعاً عن اعتزازهم الكبير بإنجازات هؤلاء الطيارين الشبان الـــذين نفذوا طلعات عملانية داخل العراق. ولعل الأمير درَّب كثيراً منهم حين كان قائـــداً لـــوحدة جوية عملانية". وختم بالقول: "كانت كثير من تلك الغارات الأولى ناجحة جداً، وقد شكّلت نقطة تحوّل دامية"[133].

بُعـــيد إتمامـــي الفقرة الأخيرة من هذا الفصل، كشفت عن تفصيل مذهل يلقي ضـــوءاً جديـــداً علـــى دور بندر كأحد الصقور في حرب الخليج. فيما كانت قوات الائـــتلاف تحتـــشد علـــى الأراضي السعودية استباقاً لعملية عاصفة الصحراء، قابل الـــسعوديون قـــرار الـــرئيس بوش إرسال جيمس بيكر للاجتماع بطارق عزيز بعدم تصديق، وبخاصة بندر. فقد أكّدت مصادرهم الاستخبارية أن ردّ فعل صدام على هذا القـــرار كـــان: "لقد تراجع بوش". واستدعى ذلك السؤال التالي: "هل تملك أميركا العـــزيمة للمـــضي في الاشـــتباك العـــسكري مع العراق حتى النهاية؟". وبالنسبة إلى

الـــسعوديين، كـــان لا بد من مقابلة خديعة صدام بردّ عسكري يقضي على الرئيس العراقي نهائياً.

في هـــذا الـــوقت الحـــرج، تصوّر الملك فهد وبندر سيناريو مرعباً. ماذا لو قرّر صـــدام، في اللحظـــة الأخـــيرة، قبول قرار الأمم المتحدة والانسحاب من الكويت؟ ستـــصبح قوات الائتلاف عاجزة؛ فليس لديها تفويض بمهاجمة القوات العراقية إلا في الكويت. وكم من الوقت يمكن إبقاء 750,000 رجل جاهزين للعمل؟

رأى بـــندر أنّ في وسع صدام عندئذ أن يلعب لعبة الانتظار الطويلة على الحدود الكويتـــية ريثما ترحل قوات الائتلاف. وهو يعرف الآن مقدار الوقت الذي يستغرقه قيام الولايات المتحدة بدعم المملكة العربية السعودية، وفي الوقت المناسب يوجّه ضربة أخـــرى عـــبر الكويت. غير أن السعوديين اعتقدوا أن صدام لن يرتكب الخطأ نفسه مجـــدداً. ففي استطاعة القوات العراقية إزاحة القوات السعودية، حتى مع وجود بقايا دعـــم عسكري أميركي، والاستيلاء على حقول النفط، ما يمكّنه من احتجاز الاقتصاد العالمـــي رهيـــنة لديـــه. لذا من الضروري، بالنسبة إلى الملك فهد وبندر، أن يشتبك الائتلاف مع صدام عسكرياً والقضاء عليه.

وبالنـــسبة إلى الأميركـــيين، تحـــوّل القلق من احتمال قيام صدام بالردّ بأسلحة بيولوجـــية وكيميائية إلى مسألة حقيقية. وكان لا بد من تقليل خطر وقوع إصابات أميركية ضخمة بسبب هجوم كيميائي أو بيولوجي.

لـــذا، قـــرّر بوش أن يكتب إلى صدام حسين رسالة شديدة اللهجة يتوعّده فيها بأقـــوى ردّ ممكـــن – فـــسّره كثيرون أنه تهديد برد نووي – إذا استخدمت القوات العراقية أسلحة دمار شامل. وأكّدت تلك الرسالة، المؤرخة في 5 يناير 1991، بوضوح لا لـــبس فـــيه العزيمة الأميركية؛ ستشنّ قوات التحالف الهجوم ما لم تنسحب القوات العراقية من الكويت انسحاباً ناجزاً. وفي ما يلي نص الرسالة:

السيد الرئيس:

نقف اليوم على شفا حرب بين العراق والعالم. وهي حرب بدأت بقيامك بغزو الكـــويت؛ حـــرب يمكـــن إنهاؤها فقط بامتثال العراق بشكل كامل وغير مشروط لقرار مجلس الأمن 678.

أكتب لك الآن، مباشرة، لأن المخاطر تتطلب عدم تفويت أي فرصة لتجنيب الشعب العراقي كارثة محققة. وأكتب، أيضاً، لأن بعضهم يقولون إنك لا تدرك

إلـــى أي مـــدى أصبح العراق معزولاً وما يواجهه نتيجة لذلك. لست في موقع للحكم على صحّة هذا الانطباع؛ مع ذلك ما يمكنني أن أفعله هو أن أحاول في هـــذه الرسالة دعم ما قاله وزير الخارجية جيمس بيكر لوزير خارجيتك وإزالة أي لبس أو غموض قد يساورك تجاه الموقف الذي نقفه وما نحن مستعدون لأن نفعله.

إن المجـــتمع الدولي موحد في دعوته العراق إلى الانسحاب من الكويت تماماً من دون شرط أو إبطاء. وتلك ليست سياسة الولايات المتحدة، بل موقف المجتمع الدولي كما عبّر عنه ما لا يقل عن اثني عشر قراراً لمجلس الأمن.

إنّنا نفضل التوصّل إلى نتيجة سلمية. غير أن كل ما هو دون الامتثال الكامل لقـــرار مجلـــس الأمـــن 678 وما سبقه من قرارات غير مقبول. لا يمكن مكافأة العـــدوان، ولا يمكن إجراء أي مفاوضات. إذ لا يمكن المساومة على المبدأ. لكن العـــراق يـــستطيع عـــن طـــريق الامتثال التامّ كسب فرصة إعادة الانضمام إلى المجـــتمع الدولـــي. وتتفادى المؤسسة العسكرية التدمير على الفور. لكن، ما لم تنـــسحب من الكويت بصورة كاملة ومن دون أي شرط، فإنك ستخسر أكثر مما ستخسره الكويت. فموضوع الخلاف هنا ليس مستقبل الكويت – ستتحرّر وستعود حكومتها – وإنما مستقبل العراق. والخيار عائد إليك.

لن تنفصل الولايات المتحدة عن شركائها في الائتلاف. هناك اثنا عشر قراراً لمجلـــس الأمـــن، و28 بلداً تقدم وحدات عسكرية لتطبيقها، وأكثر من مئة حكومة ملتزمة بالعقوبات. وكل ذلك يبرز أنّ النزاع ليس بين العراق والولايات المتحدة، بل بين العراق والعالم. وما اصطفاف معظم البلدان العربية والإسلامية ضدك إلا تعزيـــز لمـــا أقـــول. لا يستطيع العراق ولن يكون بمقدوره الاحتفاظ بالكويت أو الحصول على ثمن مقابل مغادرتها.

قـــد يغـــريك أن تجد عزاء في تنوّع الرأي، تلك هي الديمقراطية الأميركية. علـــيك أن تقـــاوم مثل هذا الإغراء. ويجب عدم الخلط بين التنوّع والانقسام. ولا تستخفّ بإرادة أميركا، كما فعل آخرون قبلك.

العـــراق يـــشعر بالفعل بوطأة العقوبات التي فرضتها الأمم المتحدة. إذا حلّت الحـــرب، فـــستكون المأساة أعظم بكثير عليك وعلى بلدك. دعني أؤكّد أيضاً أنّ الـــولايات المتحدة لن تتساهل إزاء استخدام أسلحة كيميائية أو بيولوجية أو تدمير حقـــول نفط الكويت ومنشآتها. وستتحمّل مسؤولية مباشرة الأعمال الإرهابية ضدّ أي عـــضو مـــن أعـــضاء الائتلاف. سيطلب الشعب الأميركي أقوى ردّ ممكن. وستدفع أنت وبلدك ثمناً باهظاً إذا أمرت بأعمال لا أخلاقية من هذا النوع.

لا أكتب هذه الرسالة لأهدد، بل لأبلّغ. وإنني لا أقوم بذلك عن طيب خاطر، إذ ليس ثمة خلاف بين شعب الولايات المتحدة وشعب العراق. السيد الرئيس، إنّ قرار مجلس الأمن الدولي 678 يحدّد الفترة التي تسبق 15 يناير من هذه السنة بمثابة "وقفة نية حسنة" بحيث يمكن إنهاء هذه الأزمة من دون مزيد من العنف. ويرجع إليك وحدك استخدام هذه الوقفة كما أريد لها، أو تحويلها إلى مقدمة لمزيد من العنف. أرجو أن تدرس خيارك بعناية وتختار بحكمة، لأن الكثير متوقف على ذلك.

جورج بوش[134]

أبلغ الرئيس بوش الأمير بندر بشأن الرسالة التي كانت ستُسلّم إلى طارق عزيز خلال لقائه جيمس بيكر في جنيف. ولحشر صدام وعدم إتاحة أي خيار يحفظ ماء وجهه، أشار بندر إلى بوش ألا تصاغ الرسالة بعبارات متصلّبة فحسب، بل إنه وافق أيضاً على ترجمتها إلى اللغة العربية. وأوضح بندر أن اللغة العربية لغة منمّقة يمكن التعبير فيها عن الكلمات بعدّة طرائق مختلفة. لكنه أقرّ أنّ ترجمته صيغت لتكون فظة وعدائية إلى أبعد حدّ ممكن. وكان بندر يعتقد أنّ غضب صدام وكبرياءه سيدفعانه لتجاهل قرار الأمم المتحدة وإبقاء قواته في مواقعها في الكويت، ما يجعل الحرب محتومة. وستدمّر تلك الحرب، في نظر بندر، الآلة العسكرية العراقية وتطيح صدام.

أعطيت التعليمات لبيكر ألا يفاوض، في لقائه في 9 يناير مع وزير الخارجية العراقي طارق عزيز في جنيف، بأي شكل من الأشكال على المطلب المحدّد في قرار مجلس الأمن. وأكّد بيكر لاحقاً: "كنت ذاهباً إلى اللقاء من دون أن تكون لدي النيّة أو الرغبة على الإطلاق في التفاوض على قرارات الأمم المتحدة". غير أنّه كان يعي تأثير الاجتماع في الائتلاف إذ قال: "العيب الوحيد فيه هو أنه جعل بعض حلفائنا يشكّكون في تصميمنا"[135]. وفي مستهل اللقاء، ناول بيكر طارق عزيز الرسالة الموجّهة من الرئيس بوش إلى صدام حسين. وطلب عزيز نسخة من الرسالة ليقرأها. وعن ذلك اللقاء، قال عزيز: "قرأتها بعناية وعندما انتهيت من قراءتها، قلت له، *السيد الوزير، ما هكذا تكون المراسلة بين رئيسي دولتين. هذه رسالة تهديد ولا يمكنني أن أتسلّم منك رسالة فيها تهديد لرئيسي*. وأعدتها إليه". ولم تفلح محاولات إقناع عزيز بتسلّم الرسالة.

عـــندما علم بندر من بيكر أن طارق عزيز رفض تسلّم الرسالة، سافر إلى لندن علـــى الفور. وهناك اتصل بأندرو نيل، رئيس تحرير صحيفة صنداي تايمز، الذي كان علـــى اتـــصال منتظم به خلال الفترة المؤدّية إلى حرب الخليج. أكّد نيل حدوث لقاء بينهما، ولاحظ، "لم يكن الأمير بندر يثق بكفاءة النظام العراقي. كان صدام لا يحسن الـــردّ على الأنباء السيئة وكان ميالاً إلى إلقاء اللوم على الرسول. لذا طلب مني نشر نسخة من رسالة الرئيس بوش إلى صدام".

مـــا إن اقتـــنع أنـــدرو نيل أنّ الرسالة صحيحة، حتى تحوّلت إلى مقالة صحفية تصدرت الصفحة الأولى. لكن نيل لم يكشف عن أنّ بندر سرّب إليه الرسالة إلا بعد 15 سنة. وأسرّ لي قائلاً: "رأيت أنها حسّاسة جداً بحيث إنني لم أذكره [أي دور بندر] حـــتى في مذكـــراتي"[136]. وعندما نشرت الصحافة البريطانية الرسالة، تلقّفتها وسائل الإعـــلام كافة، ما أجبر الناطق الرسمي باسم البيت الأبيض مارلن فيتزووتر على نشر نـــص الرسالة بأكمله، وذلك مناف لبروتوكول البيت الأبيض الذي يعتبر أن من غير اللائق نشر المراسلات الدبلوماسية. وبذلك، كان لا بد أن تسترعي الرسالة الآن انتباه صدام.

كان الدافع وراء قيام بندر بتسريب الرسالة تصميمه على ألا يقدّم إلى صدام صـــيغة تحفظ كرامته، وذلك مناقض لنهج بندر المعتاد تجاه قضايا الشرق الأوسط. لقد كذب عليه صدام، الذي أكّد له أنّه لن يجتاح الكويت. وبعد أن خدعه، خلع عـــباءة صانع السلام وتحوّل إلى الصقر الرئيسي، كما كشف بيكر عندما أطلعني على نسخة من محاضر دوّنها في أثناء لقاء قبل عملية عاصفة الصحراء. وقد أكّدت تلـــك المحاضر أنّ بندر شدّد على المضي حتى النهاية والقضاء على صدام. فبعد أن أقنع بندر الملك بقبول الدعم العسكري من أميركا في الأيام التي تلت غزو الكويت علـــى الفور، لم يعد يريد أقل من انتصار كاسح للائتلاف، وتدمير الآلة العسكرية العراقية الضخمة، وإزاحة صدام حسين. وكان بندر يدرك أنّ الخطر الذي يشكّله صـــدام على المملكة العربية السعودية يتطلّب سد أي سبيل للفرار. وبمساهمته في صـــوغ رســـالة الـــرئيس بوش المتصلّبة، كان يعرف جيداً أنها لن تُغضب الرئيس العراقـــي فحـــسب، وإنّما ستسبّب لصدام أيضاً إهانة كبيرة في حال انسحابه من الكـــويت. لـــذلك كان من المهمّ أن يرى الرسالة. وقد حقّق قيام بندر بتسريب

الرســـالة تلك الغاية. فلم تضمن مضي الائتلاف في الهجوم فحسب، وإنّما أغلقت الباب أيضاً في وجه أي انسحاب عراقي.

وهكذا بضربة واحدة، بعيدة عن الأضواء، استطاع بندر بالتأكيد أن يدفع أميركا للحرب.

الفصل الثامن

السلام في الشرق الأوسط

"تستحقّ إنجازات الأمير بندر اعترافاً دوليّاً.

وأنا أصفّق له... كواحد من صانعي السلام العظام في زماننا".

نلسون مانديلا

في سنة 1972، قبل عشرين عاماً على عملية عاصفة الصحراء، اجتمع وزير النفط السعودي، أحمد زكي اليماني، بالرئيس نيكسون وقدّم إليه عرضاً بتلبية الاحتياجات الأميركية كافة من النفط مقابل الدعم الأميركي للتوصّل إلى حلّ عادل ومنصف للمشكلة الفلسطينية. فرفض نيكسون[1].

أدّى رفض نيكسون هذا العرض السعودي المدهش إلى إطالة إحدى أقدم مشكلات العالم إلى أجل غير محدّد. وفي أعقاب هذا الرفض، سعى ستة رؤساء أميركيين متعاقبين لتحقيق اختراق في عملية السلام الإسرائيلية الفلسطينية العسيرة، ولم يتم التوصّل إلى حل حتى اليوم.

يتذكّر بندر الجهود التي بذلها طوال أكثر من عقدين للتوصّل إلى تسوية للقضيّة الفلسطينية ويقول بألم: "أمضيت أكثر من 70 بالمئة من وقتي في العشرين سنة الماضية في عملية السلام في الشرق الأوسط والنزاع الإسرائيلي الفلسطيني. وقد تحطّم قلبي مرّات عديدة عندما اقتربنا كثيراً من تحقيق الاختراق ثم انهار كل شيء". وفي تصريح يشخّص إحباطات العملية، ويحمّل مسؤولية مشتركة عن الفشل في التوصّل إلى حلّ، يضيف بندر: "أعتقد أنّ هناك فشلاً في القيادة في الشرق الأوسط بين الفلسطينيين والإسرائيليين، وأعتقد أنّ الحلّ واضح أمامي وضوح الشمس. لن تقوم دولة فلسطينية تستطيع العيش بكرامة ما لم تحصل إسرائيل على الأمن. لكن إسرائيل لن تحصل على الأمن قطّ ما لم تضمن للفلسطينيين دولتهم وتحفظ كرامتهم. وأعتقد أنك إذا قبلت ذلك، يصبح ملء التفاصيل عندئذٍ أكثر سهولة".

أدّت متابعة حرب الخليج سنة 1990 إلى وضع السلام في الشرق الأوسط جانباً، إذ ركّزت بلدان الائتلاف على إلحاق الهزيمة بصدام حسين، وقد وفّرت النهاية الناجحة للنزاع - وتأثيرها في الهيمنة السياسية في المنطقة - مناخاً جديداً وواعداً لاستئناف المفاوضات التي يمكن أن تدفع المسألة الفلسطينية إلى الأمام.

السلام في الشرق الأوسط طموح مشترك. وفي حين أنّ المملكة تشعر بتعاطف كبير مع الشعب الفلسطيني ومحنة جيرانها المسلمين، فإنّها تخشى في الوقت نفسه تزايد قوّة المتطرّفين الذين يشكّلون تهديداً مباشراً. وقد عملت المملكة طوال عقود على كبح العنف بين الفلسطينيين والإسرائيليين والأطراف المتصارعة الأخرى في المنطقة. وفي نهاية عملية عاصفة الصحراء، ضغطت المملكة على الولايات المتحدة مجدداً للقيام بمبادرة جديدة. وفي 18 أكتوبر 1991، وافق البيت الأبيض، وأرسل إلى الملك فهد رسالة كتبها جيمس بيكر تفيد، "إنّ الولايات المتحدة ستعمل كوسيط نزيه في محاولة حل النزاع العربي الإسرائيلي"[2].

وأصبح بندر مسهّل هذا الحافز الجديد للسلام.

عُقد مؤتمر مدريد في أكتوبر 1991 في أعقاب حرب الخليج، وأصبح علامة مميّزة في التاريخ العربي الإسرائيلي والفلسطيني الإسرائيلي. فقد كانت تلك المرة الأولى التي يعقد فيها مؤتمر واسع للسلام تحضره كل الأطراف المعنية بالنزاع العربي الإسرائيلي، والمرة الأولى التي يشارك فيها الفلسطينيون على أي مستوى. فلم تقبل سوى مصر عرض إسرائيل التفاوض وجهاً لوجه حتى انعقاد مؤتمر مدريد سنة 1991. والآن ستعقد مفاوضات متعدّدة الأطراف بين إسرائيل وسورية ولبنان والأردن والفلسطينيين حول القضايا الرئيسية. وتلك خطوة غير مسبوقة إلى الأمام.

استضافت الحكومة الإسبانية مؤتمر مدريد ورعاه كل من الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي. وعلى الرغم من أنّ الولايات المتحدة لعبت دوراً مهيمناً في المؤتمر، فإنّ انضمام موسكو إليها في الرعاية المشتركة للمؤتمر شكّلت علامة على تنامي التعاون بين القوّتين العظميين[3]. ومع أنّ الفضل في المؤتمر يرجع إلى جهود الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة، وبخاصّة مساعي وزير الخارجية جيمس بيكر الحماسية في دبلوماسيّته المكّوكية، فإنّ دور بندر كان محورياً.

كـــان غرض مؤتمر مدريد تشكيل منتدى افتتاحي للمشاركين، ولم يكن يتمتّع بسلطة فرض الحلول أو الاعتراض على المناقشات. باختصار، لم تكن للمؤتمر أهداف ملـــزمة رسمية، ومع ذلك فقد ركّز على قراري مجلس الأمن الدولي 242 و338 اللذين أقـــرّا سنة 1967 و1973 على التوالي، ودعا كل الأطراف لإنهاء النـــزاع العسكري والتفاوض على التسوية. والقراران يتوقّعان، من دون أن يحدّدا، انسحاب إسرائيل من الأراضـــي التي احتُلّت في حربـــي 1967 و1973 في مقابل ضمانات أمنية. وأصبحت هذه المفاوضات تعرف بمفاوضات "الأرض مقابل السلام".

أقرّ مؤتمر مدريد إجراء المفاوضات على مسارين، ثنائي ومتعدّد الأطراف، يضمّ أعـــضاء مـــن المجـــتمع الدولي. كانت هذه المحادثات العلنية التي تجرى لأول مرة بين إسرائيل وجيرانها (باستثناء مصر التي وقّعت مع إسرائيل اتفاقات كامب ديفيد في سنة 1978)، ترمـــي إلى تحقيق معاهدات سلام بين ثلاث دول عربية هي سورية والأردن ولبـــنان، وبـــين إسرائيل. غير أنّه ما من شك في أنّ الأهمية الحاسمة لمؤتمر مدريد هي إطـــلاق حـــوار ثنائـــي بـــين الإسرائيليين والفلسطينيين. وقد استندت المحادثات مع الفلـــسطينيين إلى صيغة من مرحلتين: الأولى تتكوّن من التفاوض على ترتيبات حكم ذاتي مؤقت، تعقبها مفاوضات الوضع النهائي. وبدأت محادثات المسارات الثنائية على الفـــور، وتلتها أكثر من اثنتي عشرة جولة رسمية في واشنطن دي سي، بين 9 ديسمبر 1991 و24 يناير 1994.

بعد أربعة حروب عربية إسرائيلية في 1948 و1956 و1967 و1973 خلّفت آلاف القتلـــى، نشأ تعصّب عميق الجذور في كلا الجانبين وزاد من حدّته تأييد الفلسطينيين صـــدام حسين. وبالنظر إلى هذا الإرث، لم يكن الإسرائيليون والفلسطينيون مستعدين للـــتفاوض لأنّ القوى الغربية ترى أن ذلك فكرة جيّدة. لكن الإقناع والاستعداد كانا جارِيَين داخل العالم العربـــي قبل مدريد.

ضغطت المملكة العربية السعودية من أجل إطلاق مبادرة سلام ولعب بندر دوراً في جعـــل مدريد حقيقة واقعة، وعن ذلك يقول برنت سكوكروفت: "في الفترة التي ســـبقت الحرب، واصل صدام إدخال الإسرائيليين في القضية، وما إلى هنالك. وكان موقفـــنا: إنّ محـــور اهتمامـــنا هو العراق، وليس المنطقة". غير أنّ سكوكروفت أسرّ بالقـــول: "لكنّنا قلنا من دون ضجّة للملك فهد والرئيس مبارك وغيرهما، *التزموا معنا*

هنا، ولنركّز على هذه القضية، وبعد انتهائها ننتقل إلى القضية الفلسطينية الإسرائيلية. إنّـنا نرفض ربط القضية الأخيرة بالحرب، لكنّنا نتعهّد لكم أن نتحرّك بعد انتهائها". وأضاف سكوكروفت: "مع أنّ ذلك قدّم ضمانة أنّ الولايات المتحدة ستدعم مبادرة للسلام بعد انتهاء الحرب الراهنة، فقد تعيّن على الأمير بندر إقناع الملك بالوثوق بنا"[4]. وقد سهّلت علاقة الأمير بندر الخاصّة بالملك فهد والرئيس بوش هذه المهمّة بشكل كبير.

بعد وضع هذه التسوية على الطاولة، وقع على عاتق بندر إقناع السعوديّين أنّه يمكن الركون إلى تعهّد الأميركيين. وكان نجاح مؤتمر مدريد يتوقّف على دعم المملكة العربية السعودية، فتأييد هذه القوة الإقليمية البارزة يشكّل إشارة مرجعية ومؤثّرة إلى بقية العالم العربي.

عن الاتفاق غير المكتوب أن تعقد محادثات السلام بعد حرب الخليج، قال بندر: "جاء مؤتمر مدريد بسبب الحرب. فعندما غُزِيت الكويت وأصبحت الحرب وشيكة، بدأ الرئيس بوش والملك فهد يبحثان عمّا سيعقبها: *ما الذي سنفعله بعد الحرب؟*". كان الملك فهد يتوق إلى وضع خطط لعقد مؤتمر سلام يتعامل مع القضية الإسرائيلية الفلسطينية بمبادرة جديدة تفتح آفاقاً جديدة، ويعتقد أنّ ذلك يشكّل حافزاً للسلام في الشرق الأوسط، لكن إدارة بوش أصرّت على التركيز على خوض الحرب، مع أنّها تؤيّد هذه التطلّعات.

لم يكن من المفاجئ أن يؤدي نجاح عملية عاصفة الصحراء إلى إضعاف موقف ياسر عرفات كثيراً في العالم العربي. فقد حيّا غزو صدام الكويت، فردّ القادة العرب بقطع المساعدات عن منظمة التحرير الفلسطينية[5].



د. سعيد الكرمي

كانت أول إشارة ملموسة عن مقدار ضعف عرفات في ذلك الوقت، والبراغماتية التي أحدثها ذلك، قراره قبول شروط إدارة بوش لمؤتمر السلام في مدريد التي تضمّنت استبعاد عرفات عن المؤتمر[6]. وقد قال عن ذلك الدكتور سعيد الكرمي، جرّاح الجهاز البولي، الفلسطيني الراحل، وأحد الأصدقاء

المقرّبين من بندر: "بعد أن ربحنا الحرب في سنة 1991، اتصل بي بندر قائلاً، *ثمة تحرّك يجريه جيمس بيكر والحكومة الأميركية لأجل محادثات السلام*. ونحن كما تعلم لا نتحدّث إلى عرفات الآن، سأحتاج إلى التحدّث إليه لكن ليس الآن. لكنني أريد التحدّث إلى ثلاث شخصيات فلسطينية مرموقة".

سمّى الدكتور الكرمي ثلاثة رجال هم "البروفسور إدوارد سعيد، أستاذ التاريخ في جامعة كولومبيا في نيويورك، وهو شخص شهير جدّاً توفّي حديثاً، وكان مؤيّداً لعرفات في ذلك الوقت؛ والبروفسور وليد الخالدي، أستاذ السياسة في جامعة هارفرد؛ والبروفسور هشام شرابي، الأستاذ في برنامج الدراسات العربية المعاصرة في جامعة جورج تاون". وأوضح الدكتور الكرمي أنّ، "الأساتذة الثلاثة يتعاطون مع القضية الفلسطينية على المستوى الفكري، ويمكنهم تقديم المشورة إلى ياسر عرفات. فتحدّث الأمير بندر إلى الأساتذة الثلاثة وأطلعهم على خلفية المحادثات المقترحة. قال لهم، *الأمور ستتحرّك في الشرق الأوسط، أحببتم ذلك أم كرهتموه. وسيعقد مؤتمر يشارك فيه الجميع باستثناء عرفات بسبب موقفه المؤيّد لصدام حسين، لذا أرجوكم أن تنقلوا رسالة إلى جماعتكم أنّ مؤتمر مدريد سيعقد، ولن يكون في وسعكم إيقافه. يمكن أن نتحدّث إلى عرفات في وقت لاحق، لكن لا يمكنه الحضور في الوقت الحالي*. وأوضح بندر أيضاً أن على الفلسطينيين أن يرسلوا فريقاً إلى مدريد". وختم الكرمي بقوله: "وكان الأمير بندر فعّالاً أيضاً في دفع السوريين إلى طاولة المفاوضات"[7].

عرض وزير الخارجية الأميركي على عرفات فرصة دبلوماسية للخروج من الموقف المخزي الذي وضع نفسه فيه بعد حرب الخليج. ولما كان بيكر يعلم أنّ الإسرائيليين يقبلون بوجود فلسطيني في المحادثات إذا كانوا جزءاً من الفريق الأردني، لا كوفد مستقل لمنظمة التحرير الفلسطينية، فقد كان عليه إقناع عرفات بقبول هذه الشروط وإبقاء منظمة التحرير الرسمية خارج محادثات مدريد. فوافق عرفات، ولا شكّ في أنّ ذلك تمّ بمساعدة الأساتذة الفلسطينيين الذين تشاور معهم بندر في واشنطن. لذا جُمع فريق فلسطيني تمثيلي يتكوّن من أشخاص غير أعضاء في منظمة التحرير، وأُرسلوا إلى مدريد تحت علم الأردن.

كان بيكر يعلم من تعاملاته السابقة مع ياسر عرفات والفلسطينيين أنّ من المستحيل الحصول على وفد فلسطيني مستقل تماماً عن منظمة التحرير. ويدرك أيضاً أن

كل ما يقال في مدريد سيُنْقَل إلى عرفات في تونس على الفور. وأكّد الدكتور الكرمي أنّ الممثّلين الفلسطينيين كانوا قادرين على إبقاء الحوار مفتوحاً مع عرفات الموجود في تونس في ذلك الوقت، لذا كانت منظمة التحرير الفلسطينية ممثّلة بصورة غير مباشرة عبر الوفد الفلسطيني. لكن بمساعدة بندر، تمكّن الوزير بيكر من الالتفاف حول رفض إسرائيل التعامل مع منظمة التحرير الفسلطينية، وتحقيق شيء لم يتمّ فعله من قبل، وهو جلوس الفلسطينيين والإسرائيليين معاً حول طاولة التفاوض نفسها.

سارعت إدارة بوش أيضاً إلى الإقرار بسقوط الأوراق بعد الحرب والاستفادة من ذلك. ويذكر جورج إيتش دبليو بوش: "أحرزت مصداقيّتنا الجديدة (مقرونة بحاجة ياسر عرفات إلى استعادة صورته بعدما أيّد الجانب الخاسر في الحرب) نتائج طيّبة سريعة وكبيرة على شكل مؤتمر السلام في الشرق الأوسط في السنة التالية في مدريد"[8]. غير أنّ القدرة على ممارسة الضغط على الفلسطينيين لم تكن الفرصة الوحيدة التي تلقّفها بوش وبيكر. "فقد أدركته ما أدركته قلّة من السياسيين الآخرين، أنّ المناخ السياسي لا يدعم مسعى الضغط على الفلسطينيين فحسب، وإنّما على الإسرائيليين أيضاً للحصول على التنازلات اللازمة لبدء المفاوضات"[9]. فتمكّنت الولايات المتحدة، بمزيج من الضغوط المالية والسياسية على الإسرائيليين من التغلّب على عدم رغبة الإسرائيليين في التحدّث إلى مَن تعتبرهم إرهابيين في منظمة التحرير، بعدما وافقت الأخيرة على حضور المؤتمر كجزء من الوفد الأردني.

لقد وفّر القدر اللحظة المؤاتية في التوقيت والظروف، وبدا التقدّم في النزاع الفلسطيني الإسرائيلي ممكن التحقيق. ولن تسمح الولايات المتحدة، مدفوعة بالمملكة العربية السعودية من الخلف، بتفويت الفرصة. وقد قدّم بندر آراءه بشأن أهمية محادثات السلام في مدريد بقوله: "عملت جاهداً مع وزير الخارجية جيم بيكر على إقامة مؤتمر السلام في مدريد، أنا وآخرون. وتكمن أهمية ذلك المؤتمر في أنّها المرة الأولى التي تجلس فيها إسرائيل منذ مؤتمر رودس في سنة 1963. في مدريد لم تجلس إسرائيل مع البلدان المجاورة فقط للتفاوض على السلام (أي مع سورية ومصر والأردن والفلسطينيين)، بل المرة الأولى التي تجلس فيها مع 98 بالمئة من البلدان العربية". وأوضح: "كانت دول مجلس التعاون الخليجي ممثّلة بالأمين العام للمجلس وأنا، وكانت البلدان العربية المغاربية ممثلة بأمينها العام؛ وكان هناك ممثل عن الجامعة العربية،

بالإضافة إلى وزراء خارجية بلدان الطوق. كان من المهم أن نبدأ بمؤتمر سلام ينظر إلى توصّل المنطقة بأكملها إلى سلام في ما بينها وليس إلى توصل الفرقاء المتحاربين فقط".

لــوحظ في انــتقاد محادثـــات مدريد أنّ المؤتمر فقد فعاليّته في تأمين أي تشريع ملموس للسلام، بغياب أي أهداف محدّدة أو غايات واضحة. غير أنّ ما تمّ على مدى الــثلاثة أيام هو أنّ المؤتمر وضع أسس التقدّم وزرع بذور اتفاقات أوسلو سنة 1993. وعلــى الــرغم مــن أنّه لم يتمّ التساهل مع حضور الفلسطينيين إلا نتيجة لتحريف القواعد، فإنّ حضورهم، إلى جانب التغطية الدولية للمحادثات، غيّر الصورة المدركة عــن الفلسطينيين وبذر اعترافاً متنامياً بحقوق الفلسطينيين، وشرعية قضيّتهم، وتفهّماً أوضح للمخاوف والطموحات الفلسطينية.

علــى الــرغم من أنّ ياسر عرفات لم يكن حاضراً شخصياً، فقد كان له تأثير خفي ومتــسامح معــه في أروقـــة مدريد، حيث قال أحد المعلّقين: "هذا المؤتمر هو حتماً أكثر المؤتمرات التي حضرها إثارة للاهتمام، لا بسبب ما حدث على طاولة الاجتماعات، بل ما حــدث في الأروقـــة"[10]. فالجميع، بما في ذلك إسرائيل، كانوا على علم بسيل الفاكسات والمكالمــات المتــبادلة بين مدريد وتونس في كل فرصة متاحة، ومع ذلك سُمح باستمرار التصنّع ما جعل مدريد بداية أول حوار بنّاء، ولو عن بعد بين إسرائيل ومنظّمة التحرير.

مــع ذلـــك، كاد مؤتمر مدريد ينهار قبل أن يرشح أي شيء عن ذلك، قبل أن يجلــس الإسرائيليون مع السوريين، وقبل أن يجلسوا مع الوفد اللبناني، وقبل أن يجلسوا مــع الأردنيــين، وقبل أن يبرز الفلسطينيون بالطبع في الوعي العالمي كشعب جريح يستحقّ اهتماماً عالمياً.

نجــح جيمس بيكر، بعدما أعيته التكتيكات، والمطالب الإسرائيلية الدائمة بشأن خطــط محادثات مدريد، في إقناع الرئيس الأميركي جورج بوش باللجوء إلى الضغط المــالي لخلحلة موقف شامير المتشدّد. ففي خطوة لا سابق لها، في سبتمبر 1991، امتنع الرئيس بوش عن تقديم ضمانات للقروض إلى إسرائيل، وهي أموال تعود معظمها إلى برنامج توسيع الاستيطان. وقد نجحت الخطوة: أذعن شامير ووافق على حضور مدريد بالشروط التي أملاها بيكر[11].

في الحديث عن نتائج المؤتمر، قال الرئيس جورج إيتش دبليو بوش: "كان مناسبة تاريخــية. فالإسرائيليون لم يجلسوا مع زعماء عرب قبل ذلك التاريخ، لقد كان جسراً

حقيقـــياً". وتابـــع بعد ذلك: "كانت فكرة الحصول على تأييد الخليج هي التالية: لن يكـــون نهاية الأمر، سنحاول التعامل مع المشكلة التي تزعج كل بلدان مجلس التعاون الخليجـــي، وهـــي الخلافات بين إسرائيل والدول العربية. أذكر عندما مشيت [على المـــسرح] مع غورباتشيف وأعجوبة جلوس العرب قبالة الإسرائيليين؛ أعني أنّه حدث كبير، حدث هائل، وأتمنّى لو أنّهم استفادوا منه أكثر". لم يتردّد بوش في التأكيد على مـــساعدة بـــندر على حثّ الدول العربية المتردّدة على الجلوس إلى طاولة المفاوضات، قائلاً: "كان دور بندر مهماً جداً في التشجيع على الحضور"[12].

أيّد الدبلوماسي الذي يحظى بتقدير كبير والمستعرب السفير إدوارد جيرجيان* ما عزاه بوش إلى الأمير وقال: "لقد كان لي شرف العمل معه عندما كنت في إدارة بوش الأول. ويمكنني أن أقول لك إنّنا كنّا نعتمد حقّاً على بندر كأحد أهمّ اللاعبين في بناء سلام بين العرب وإسرائيل. ولا أعتقد أنّه كان يمكن إنجاز مؤتمر مدريد للسلام، وهو لا يـــزال الإطـــار للـــسلام العربـــي الإسرائيلي حتى اليوم، من دون استغلال مواهبه الدبلوماسية الهائلة في إدخال الشركاء العرب إلى المعادلة"[13].

في الفتـــرة المؤدّية إلى مؤتمر مدريد للسلام، كان على الملك فهد والرئيس مبارك وضـــع استراتيجية لإقناع الرئيس السوري بحضور المؤتمر. وقرّر الرئيس مبارك، ووافق الملـــك، على أن يعقد بندر اجتماعاً ثلاثياً: مصرياً سعودياً أميركياً يضم عمرو موسى، وبـــندر، وجـــيمس بيكر. وقد عُقد الاجتماع في مصر بغية تنسيق مواقف حكوماتهم بشأن خطة إقناع الأسد بإرسال وفد إلى مدريد.

غير أنّ عمرو موسى، وزير الخارجية المصري، كان معروفاً بحبّ الظهور. ويقول بـــندر: "بدأ يصعّب الأمور علينا. ففيما كنّا نحاول الوصول إلى جوهر الموضوع، أصرّ

(*) السفير إدوارد ب. جيرجيان، المدير المؤسّس لمعهد جيمس بيكر الثالث للسياسة العامة في جامعة ريـــس، هـــو أحـــد ألمـــع الدبلوماسيين الأميركيين حيث امتد عمله طوال إدارات ثمانية رؤساء أميركيين. وهو من الخبراء البارزين في القضايا السياسية والأمنية والاقتصادية والدينية والإثنية المعقّـــدة فـــي الـــشرق الأوسط، وقد لعب أدواراً رئيسية في عملية السلام العربية الإسرائيلية، والائتلاف الذي قادته الولايات المتحدة ضد غزو صدام حسين للكويت، والمساعي الناجحة لإنهاء الحـــرب الأهلـــية فـــي لبـــنان، وإطلاق الرهائن الأميركيين في لبنان، وإنشاء الترتيبات الأمنية الجماعـــية والثنائية في الخليج. وبناء على ذلك كان دائم الاتصال بالأمير بندر ويكنّ له احتراماً كبيراً.

على تقديم انتقادات قومية، فقد كان يريد أن يدوّن في سجلّه أنّه قال أشياء معيّنة".

قبل ذلك الاجتماع، علم الأميركيون أنّ من المرجّح أن يعتمد عمرو موسى موقفاً قومياً. وبما أنّ بيكر وبندر ينزلان في الفندق نفسه، فقد اجتمعا قبل مجيء عمرو موسى.

سأل بيكر الأمير: "هل تعتقد أنّ عمرو موسى سيحاول إلقاء محاضرة علينا بعد أن التقيت برئيسه؟".

ضحك بندر وقال: "عمرو موسى قادر على القيام بأي شيء، حتى إذا كان غير صحيح".

فسأل بيكر: "وهل يغيّر ذلك السياسة؟".

أجاب بندر: "لا. ما قاله لك الرئيس مبارك هو ما سيحدث. لكن يجب أن تتحلّى بالصبر وتعطي الفرصة لعمرو موسى ليقول ما يريد، وسيتفق معك في النهاية".

أبلغ الأمير بيكر أنّ عليه أن يكون مستعداً لتكتيكات عمرو موسى المعهودة، وأن يعدّ شيئاً للردّ عليه".

ضحك بندر وقال: "جلسنا في جناح بيكر، ولم يكن علينا أن ننتظر طويلاً بالطبع قبل أن يلقي علينا موسى نغمته المعهودة. وقدّم محاضرة طويلة لا علاقة لها بالموضوع، فهو يستمتع بهذه الأشياء".

كان يوجد ملف جلدي أمام بيكر، وفي منتصف الاجتماع أغلقه بقوة بطريقة متعمّدة وقال: "السيد وزير الخارجية، لم آتِ إلى هنا لأتفاوض معك. فقد اجتمعت برئيسك وأقرّ خطة الرئيس بوش والملك فهد. لن أجلس هنا وأستمع إلى الكثير من هذه الترّهات. لا أستطيع أن أنشد السلام أكثر من العرب والإسرائيليين. لدي أشياء أخرى أقوم بها. شكراً جزيلاً لك على الاجتماع، أنا ذاهب".

كان بندر يعلم أنّ بيكر يقوم بالتمثيل، لكنّه واثق جداً من أنّ موسى لا يعرف ذلك. فجأة، اعترى موسى الخوف، إذ اعتقد أنّ بيكر اتفق مع رئيسه وربما غيّر رأيه الآن. لذا طلب موسى إمهاله بضع دقائق لكي يتحدّث إلى الرئيس. بعد أن غادر موسى الغرفة، جلس بيكر مقهقهاً، وقال لبندر: "ما رأيك؟".

فقال بندر: "أعتقد أنّها ستنجح".

بعــد بضع دقائق عاد عمرو موسى وأعلن: "بحثت الأمر مع الرئيس وأقنعته أنّنا اتّفقنا".

علّــق بــندر لاحقاً: "لا أعتقد أنّه تحدّث إلى الرئيس مبارك، لكن كان عليه أن يحفــظ ماء وجهه. وأصبح ما حدث طرفة بيني وبين وبيكر: *هل ستغلق الملف بقوّة أم لا؟* إنّ ذلــك يظهر برأيي أنّ جيمس بيكر رجل دولة عظيم. فلكي تكون رجل دولة يجب أن تُحسن التمثيل، وكان يتقنه".

أشــارت وسائل الإعلام إلى دور بندر في إبقاء السوريين حول الطاولة وأفادت: "كــان دور الأمــير بــندر في الكوالــيس محــورياً في جعل المفاوضين يجلسون مع الإسرائيليين". ووصفت التقارير نفسها كيف قدّم الأمير إلى بيكر "أوراقاً قيّمة يلعبها" عندما تكشّفت العملية[14]. وامتُدح أنه صديق مؤتمن لوزير الخارجية بيكر، وذو موهبة كــبيرة في جــسر الهــوّة التي تفصل بين العرب والإسرائيليين. كما مارس بندر أيضاً ضــغوطاً مالــية كبيرة بالتهديد بذكاء بسحب المساعدة الاقتصادية لسورية البالغة 5 مليارات دولار ما لم تشارك سورية في المحادثات. وتمّ أيضاً كبح جماح الأردن ومنظمة التحريــر الفلــسطينية باحتمال استئناف الإعانات السعودية السخية التي قُطعت بعد وقــوفهما إلى جانــب صــدام حسين في حرب الخليج. بل عرضت المملكة العربية السعودية على الاتّحاد السوفياتي حوافز مالية تقدّر بنحو 2.5 مليار دولار[15].

بعــد تذليل كل الصعوبات، بدا أنّه يمكن بدء المؤتمر. غير أنّ احتفال الافتتاح في 30 أكتوبــر 1991، بحضور الرئيسين بوش وغورباتشيف، كاد أن يتعثّر. فعندما همّ بوش بافتتاح الاحتفالية مع غورباتشيف، وفيما كانت وسائل الإعلام العالمية تقف مستعدّة، انسحب بوش من المسرح وسأل أحد مساعديه: "أين الأمير بندر؟ هل حضر؟".

لم يكــن بندر حاضراً: فقد منعه الأمن من حضور المؤتمر، ومسؤولية ذلك تقع على الرئيس بوش.

عــند الــساعة الثانــية مــن بعد منتصف يوم المؤتمر، تلقى بندر مكالمة من برنت ســكوكروفت. كان بندر يعلم أنّ بوش وسكوكروفت ينامان باكراً – يأويان إلى الفراش في العاشرة عادة – لذا أثار توقيت المكالمة خوف بندر. لا بدّ أنّ أزمة قد وقعت.

قال سكوكروفت: "مرحباً بندر، هل يمكنك أن تأتي في الغد لمقابلة الرئيس؟".

أجاب بندر: "طبعاً، ذلك يسرّني. سآتي بعد المؤتمر".

وردّ سكوكروفت: "لا، يريد أن يراك قبل أن يذهب إلى المؤتمر عند السابعة صباحاً".

كـــان بندر يكره اجتماعات الفطور لكنّه لا يستطيع أن يرفض دعوة الرئيس. لم ينم في تلك الليلة بعد أن ساوره القلق بحدوث أزمة ما". وفي الصباح الباكر وصل إلى السفارة الأميركـــية، وهو متلهّف لمعرفة سبب رغبة بوش في لقائه قبل المؤتمر. عندما دخل، سأله بوش: "هل أيقظناك؟".

"لا، لم أكن قد أويت إلى الفراش بعد".

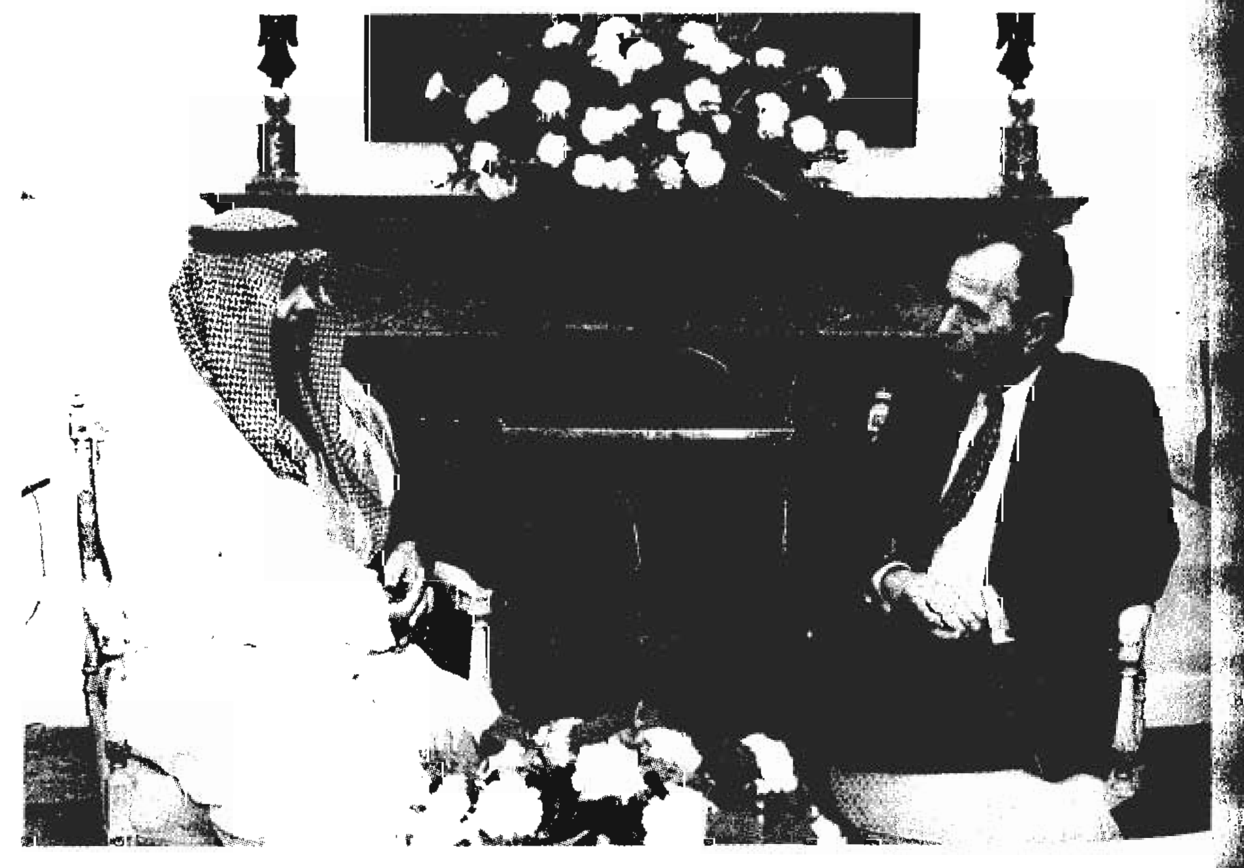
وبعد تبادل المجاملات، سأل بوش: "هل تعرف لماذا طلبت منك المجيء؟".

"لا". أجاب بندر.

فأوضـــح بوش: "أردت أن أشكرك على الجهود التي بذلتها في إعداد هذا المؤتمر، أردت أن أقوم بذلك شخصيّاً قبل أن نبدأ".

فوجئ بندر وأجاب: "ذلك لطف منك".

كـــان الـــرئيس بوش قد رتّب لالتقاط صورة رسمية له مع بندر، ثم دعا بندر إلى الانضمام إليه في لقاء مع الصحافة. وفيما كانا يخرجان إلى الحديقة معاً على مرأى من كل الصحافيين، سأله بوش: "هل ستأتي إلى المؤتمر؟".



جورج بوش يشكر بندر لجهوده قبل مؤتمر مدريد للسلام

أجاب بندر هازّاً كتفيه: "لم أعد أريد ذلك".

"لماذا؟". سأل بوش.

"لأسباب أمنية. لقد تحوّلت مدريد إلى معسكر مسلّح ويجب أن تكون كل الوفود هناك قبل ساعة من حضور الراعيين الرئيسيين. أما وأنّني الآن معك، فقد أبلغت أنّني لا أستطيع الوصول إلى هناك في الوقت المناسب".

فقال الرئيس: "حاول أن تأتي".

غادر بوش بعد ذلك في موكبه الرئاسي. لكن كما توقّع بندر، أوضح له فريقه الأمني أن ليس في وسعه الذهاب إلى المؤتمر لأنّ كل شيء قد أغلق. لذا ركب بندر سيارته للعودة إلى الفندق. لكن في الطريق، غيّر موكبه مساره وتوجّه إلى المؤتمر. فقد قال ضابط أمن إسباني لبندر: "أُمِرْتُ أن أصحبك إلى قاعة المؤتمر على الفور".

كان تعليق تلفزيون سي أن أن المباشر على المؤتمر يفيد: "بعد دقيقتين سيسير الرئيسان بوش وغورباتشيف من اتجاهين مختلفين إلى الباب، حيث يلتقيان هناك ثم يدخلان القاعة معاً ويجلسان على مقعديهما على المسرح". لكن لم يحدث شيء في الوقت المنتظر.

فقد خرج بوش خلف المسرح من جانبه من الممر وكان غورباتشيف يخرج من جانبه عندما التفت وسأل جيمس بيكر: "هل تعتقد أنّ بندر وصل؟".

أجاب بيكر: "لا أعلم". ثم تحقّق من الموظّفين الإسبان في البروتوكول فأكّدوا له أنّه إذا لم يكن بندر هنا بالفعل، فلن يستطيع الدخول.

استدار بوش على الفور وتوجّه إلى غرفته. وعندما رأى غورباتشيف المرتبك ذلك عاد إلى غرفته أيضاً. وبالإشارة إلى هذا الموقف قال بوش: "هذا الرجل بذل أقصى ما يستطيع لانعقاد هذا المؤتمر، وسبب عدم وجوده هنا أنّني طلبت منه مقابلتي. لن أدخل إلى هناك وأفوّت هذا الحدث عليه. أريده هنا وإلا لن أدخل".

لذا اصطُحب بندر إلى المؤتمر. وعندما دخل القاعة، قال بيرني شو من السي أن أن: "مهلاً، أحدهم قادم. من هو؟ يبدو أنّه الأمير بندر. نعم إنّه الأمير بندر، ما الذي يفعله؟ إنّه آخر القادمين. هذا يبيّن لكم الدور الذي تلعبه المملكة العربية السعودية".

لاحظ الأمير لاحقاً أنّ القاعة بأكملها وقفت عندما وصل. وفوجئ بندر لأنّه لم يكن في عداد المشاركين الرئيسيين على المسرح، فمقعده في القاعة الرئيسية لأنّه مجرّد

عضو في وفد. كان أمين عام مجلس التعاون الخليجي عبد الله بشارة بين الحضور باعتباره الممثّل الرسمي للمجلس، لكن كما أسرّ بندر لاحقاً: "كنت أدير الأمر كلّه".

قال بندر: "عزّزت لفتة بوش الدور الذي لعبته في الإعداد للمؤتمر. لو كنت قدمت إلى هناك لأسباب بروتوكولية، فلماذا ينتظرونني؟ لم أكن رئيس دولة ولا وزير خارجية. لكن ذلك أثبت أهمية العمل الذي قمت به حتى ذلك الوقت". وفي إشارة مباشرة إلى علاقته ببوش، أضاف بندر: "يكشف لك ذلك أيضاً عن جوهر هذا الرجل وإخلاصه".

تابع بندر لعب دور المسهّل والوسيط طوال المؤتمر. فبعد خطابات الافتتاح وقبل أن تبدأ جلسة العمل، أعلن الإسرائيليون أنّهم لن يسمحوا لأحد أعضاء الوفد الفلسطيني بالحضور لأنّه يضع الكوفية الفلسطينية على كتفيه. فسأل بندر الفلسطيني الذي استُبعد: "ما المشكلة؟".

فأجابه: "الإسرائيليون يحاولون إذلالنا. إنّهم لا يسمحون لنا حتى بارتداء زيّنا الوطني".

استشاط بندر غضباً. بعد كل ذلك العمل الشاقّ يتعرّض المؤتمر للخطر لأنّ أحدهم ارتدى شيئاً ما. فأبلغ دنيس روس*: "دنيس، هذا ما حدث وهذا موقفي. إذا لم يسمح للفلسطينيين بالدخول وهم يرتدون ما يشاؤون، فلن أدخل وسأوصي بانسحاب الوفود العربية كافّة".

توجّه روس على الفور لمقابلة بيكر الذي قال: "اللعنة يا بندر، هذا نقاش سخيف. ما همّ اللباس ومن يرتديه؟".

أجاب بندر: "أوافقك الرأي يا جيم. لكنّنا لسنا من يشتكي بل الإسرائيليون".

التفت بيكر إلى روس وسأل: "ما رأيك يا دنيس؟".

أجاب روس: "أصرّ شامير على عدم دخول الإسرائيليين إذا ارتدى ذلك الشخص الكوفية".

(*) لعب السفير دنيس روس كمنسّق خاص للشرق الأوسط (1988 - 2000) دوراً رئيسياً في التدخّل الأميركي في عملية السلام في الشرق الأوسط. وساعد روس الإسرائيليين والفلسطينيين على التوصّل إلى الاتفاقية المؤقّتة في سنة 1995، وسهّل معاهدة السلام الإسرائيلية الأردنية، وسعى لتحقيق تقارب بين إسرائيل وسورية.

قـال بـندر مبتسماً: "حسناً، إذا طلبت من الإسرائيليين أن يخلعوا قلنسواتهم، فـسأطلب مـن ذلـك الشخص خلع الكوفية وسأخلع غترتي أيضاً. وسنكون كلّنا حاسري الرؤوس".

صاح بيكر: "اللعنة، لا يهمّني من يرتدي ماذا. دعونا نتابع الاجتماع". وسرعان مـا تدخّل بيكر لدى الإسرائيليين وانتهت الأزمة. وقال أحد أعضاء الوفد الفلسطيني بعد ذلك: "لقد أنقذ بندر شرفنا وكرامتنا".

أدى مؤتمر مدريد إلى استقرار في العلاقة بين إسرائيل والدول العربية. وتابع بيكر إزالة المخاوف لمعرفته أنّ "مبادرة مؤتمر مدريد شكّلت الأساس للمفاوضات ووضعت الإطار الذي لا يزال يحظى بتقدير حتى اليوم"[16].

وافق بندر على ذلك بالطبع، ولاحظ لاحقاً، "بعد مؤتمر مدريد للسلام، تحطّمت الكـثير من المحرّمات. واتخذ العالم العربـي خيار السلام الاستراتيجي"[17]. وبتشجيع المشاركة الأميركية في عملية السلام في الشرق الأوسط بنشاط، ودعم المبادرة صراحة، وإقناع الدول العربية الأخرى أن تحذو حذونا، كان في وسع بندر أن يدّعي: "لم يكن مؤتمـر مدريد لينجح لو لم نكن هناك"[18]. في تصريح عن مدريد بعد خمس سنوات، قـال بـندر مـبرزاً قناعاته البراغماتية والعالمية: "لا يمكن أن يتحقّق استقرار وسلام حقيقـيان ودائمـان في المنطقة من دون احترام كرامة ومستقبل كل شعوبه؛ مسلمين ومـسيحيين ويهـود". وخـتم بالمبدأ الذي يشكّل برأيه الأساس لأي حل للمشكلة الفلسطينية: "أولاً، لن يكون هناك حل يرضي الفلسطينيين إذا لم تقدّم ضمانات لأمن الشعب الإسرائيلي". وتوقّف هنيهة وتابع فاتحاً يديه: "ثانياً، لن يتحقّق الأمن للشعب الإسـرائيلي إذا لم تُلَـبّ الـتطلّعات الوطنيّة للشعب الفلسطيني. هذان هما الركنان الدائمان كيفما أخذت الشرق الأوسط وقلّبته"[19].

استضافت واشنطن مزيداً من المحادثات الإسرائيلية الفلسطينية في ديسمبر 1991، بعـد مـضي أشهر على مؤتمر مدريد، لكن بعد عشر جولات من المباحثات المضنية، اختُـتمت تلك المحادثات من دون اتفاق. غير أنّه في أروقة مدريد، فيما كانت أعمال المؤتمـر تمـضي قـدماً، وضع الإسرائيليون والفلسطينيون خطّة سرية، من دون علم الأميركـيين، للتفاوض على مسار مواز[20]. فقد اتفق الإسرائيليون والفلسطينيون على إجـراء مباحثات خاصة لاحقاً لاعتقادهم أنّ إطار مؤتمر مدريد الفضفاض لا يساعد

على تحقيق تقدّم حقيقي. ووافقت النرويج على التوسّط. ونتج عن ذلك إعلان مبادئ أوسلو.

في إعلان أوسلو، اعترف الجانبان بحقّ كل منهما بالوجود كشعب ضمن حدود إسرائيل والأراضي الفلسطينية. والتزم الفريقان بالتفاوض على تسوية دائمة، وتحسين العلاقات بين الشعبين. ومهّد ذلك الطريق في نهاية المطاف إلى التوصّل إلى معاهدة سلام بين إسرائيل والأردن في سنة 1995. مثّل اتفاق أوسلو اختراقاً كبيراً في النزاع بين إسرائيل ومنظمة التحرير الفلسطينية، ولم يكن من الممكن التوصّل إليه من دون براغماتية الزعماء في كلا الجانبين[21].

وضعت محادثات أوسلو شكليات مدريد جانباً لتسهيل التفاوض المباشر بين إسرائيل ومنظمة التحرير الفلسطينية. وقد أذهلت العالم، وبخاصة الولايات المتحدة، التي فوجئت بها تماماً. ففي أغسطس 1993، دُهشت إدارة كلينتون الجديدة بالكشف عن هذا الاتفاق بين إسرائيل ومنظمة التحرير، في أعقاب محادثات سرّية في النرويج[22]. في وقت لاحق أسرّ لي الدكتور سعيد الكرمي: "مع أنّ الإدارة الأميركية كانت غافلة في البداية عن اجتماع أوسلو، فقد أبلغ الأمير بندر به منذ البداية وأبدى دعمه الكامل له".

بموجب إعلان أوسلو: توافق القوات الإسرائيلية على الانسحاب من مناطق محدّدة في قطاع غزة ومنطقة صغيرة حول أريحا، تمهيداً للانتخابات الفلسطينية. وفي المقابل تعهّد ياسر عرفات بتعديل ميثاق منظمة التحرير الفلسطينية الذي يدعو إلى تدمير إسرائيل. وأخيراً، أعلن رئيس الوزراء إسحاق رابين عن نيّة إسرائيل بالسماح بتطبيع الحياة في الأراضي المحتلة. ولم يمض وقت طويل على إعادة الولايات المتحدة انخراطها في عملية السلام، حتى دعي العالم للتفرّج على المشهد بعيد الاحتمال للمصافحة بين ياسر عرفات وإسحاق رابين، والمحادثات بين الإسرائيليين والفلسطينيين لأول مرة.

أدى انخراط أميركا في اتفاقات أوسلو، إلى جانب دعمها الشديد لعملية السلام، إلى تغيير موقف ياسر عرفات على المسرح العالمي من إرهابي إلى سياسي بين ليلة وضحاها. فعندما سافر عرفات إلى الولايات المتحدة، كان السفير إدوارد جيرجيان في استقباله. وعندما نزل عرفات من الطائرة، صافح السفير عرفات. وابتسم جيرجيان عندما تذكّر ذلك، "كانت تلك المصافحة الشهيرة، أول مصافحة رسمية بين مسؤول

أميركـــي وعرفات على الأرض الأميركية". لكن، كان ثمة قلق خلف المصافحة من أن يحيّي عرفات السفير بالمعانقة العربية التقليدية، التقبيل على الخدين. فقد كان جيرجيان يخـــشى مـــن أن يعتقد كثير من الأميركيين أنّ مثل هذه التحيّة غير ملائمة. ولاعتقاد جيرجـــيان أنّ أي التباس أو إحراج أمام الصحافة يمكن أن يلقي بظله على أهمية قدوم عـــرفات، لـــذا لجأ إلى مساعدة بندر لضمان الالتزام بالبروتوكول واقتصار الترحيب الأولي علـــى المـــصافحة. وقـــد ضمن تدخّل بندر الدبلوماسي الحكيم مضي وصول عرفات من دون حوادث[23].

في أثناء زيارة عرفات الرسمية، وعلى مائدة عشاء رسمية في البيت الأبيض حضرها بندر أيضاً، هدأ الحديث قليلاً، وهو "أمر لا يطيقه الأمير بندر" كما لاحظ جيرجيان.

فقال بندر لعرفات على حساب جيرجيان: "كيف تصنع عجّة أرمنية".

بدا عرفات مشوّشاً.

قال بندر: "أولاً تسرق بيضتين".

يذكـــر جيرجيان أنّ الجميع بدأوا بالضحك، "باستثناء عرفات الذي اعتقد أنّني أهنت".

وضحك السفير من المأزق الذي وضع عرفات نفسه فيه وأوضح: "ها هو يحاول أن يظهر أفضل سلوك، كان الأمر مضحكاً جداً. ضحك الجميع. وبدأ عرفات حديثاً منفـــرداً استغرق خمس دقائق عن أهمية الأرمن بالنسبة إلى الفلسطينيين وأنّ هناك كثيراً من الأرمن الفلسطينيين البارزين. وطال حديثه من دون أن يفهم النكتة".

"في هذه الأثناء استرخى بندر في مقعده ونظر إليّ وغمزني"[24].

تُـــوّجت اتفاقات أوسلو بالمصافحة التاريخية بين ياسر عرفات وإسحاق رابين في حديقـــة البيت الأبيض في 13 سبتمبر 1993. كانت المصافحة إقراراً رمزياً بالاعتراف السياسي الرسمي لكل من الأمتين بالأخرى، واعتراف عرفات بحقّ إسرائيل في الوجود. وقـــد امـــتدحها الرئيس كلينتون أنّها "مناسبة تاريخية عظيمة". ودعاها ياسر عرفات "حـــدثاً تاريخياً يدشّن حقبة جديدة". ورأى فيها وزير خارجية إسرائيل شمعون بيريز "مدخلاً للسلام في الشرق الأوسط"[25]. أخيراً ارتفعت الآمال في تحقيق تقدّم حقيقي. وكمـــا في مدريد، كان بندر حاضراً في البيت الأبيض ليشهد هذه الخطوة المهمة نحو السلام وصافح إسحاق رابين بعد الاجتماع[26].



مصافحة عرفات ورابين في حديقة البيت الأبيض

مع أنّ مبادرة أوسلو تمّت خارج إطار مؤتمر مدريد، فقد استند مسعيا السلام إلى قراري مجلس الأمن الدولي 242 و338، و لم يتم حل الكثير نظراً إلى الطبيعة الغامضة لموقف الأمم المتحدة. فتفسيرات القرار 242 المؤيّدة للعرب لا تتوقّع أقل من انسحاب إسرائيل التام من الضفة الغربية وغزة والأراضي المحتلة الأخرى. وأوحى التزام أوسلو بمعادلة "الأرض مقابل السلام" التي اعتمدها مؤتمر مدريد لمنظمة التحرير باحتمال قيام دولة فلسطينية. وعندما لم يتحقّق ذلك، كانت آراء الفلسطينيين من الاتفاقات تشوبها الخيبة والاستياء. غير أنّ الصياغة الدقيقة للقرار 242 تنصّ عمداً على انسحاب إسرائيل من "أراضٍ" مقارنة "بالأراضي" مقابل السلام والأمن. لكن بصرف النظر عن قسمة الأراضي، يبقى القراران 242 و338 جازمين بشأن الحاجة إلى حل سلمي متفاوض عليه، وهو ما سعت مدريد وأوسلو لمحاكاته. وتفيد النظرة المتفائلة أنّ المحادثات في كليهما جمعت الجانبين معاً على الرغم من أنّهما لم يسفرا عن حل دائم للمشكلة الإسرائيلية الفلسطينية. ويمكن الحديث عن كسب نصف المعركة.

مع ذلك، سرعان ما خبا الأمل الذي بثّته هذه الجهود البراغماتية من أجل السلام في مدريد وأوسلو على حدٍّ سواء. استمرّت خيبة أمل منظمة التحرير الفلسطينية من نتيجة المفاوضات، وواصلت إسرائيل احتلالها الأراضي الفلسطينية، ورفضت التعامل

مـــع عـــرفات أو البحث في الانسحاب ما لم يتخذ خطوات حاسمة لإنهاء الهجمات الفلسطينية العنيفة[27]. ومرّة أخرى تبيّن أنّ الأمل فجر كاذب.

عندما فاز الديمقراطيون بانتخابات العام 1992، تسلّم بيل كلينتون مهمة إحلال السلام في الشرق الأوسط من الرئيس جورج إيتش دبليو بوش. شعرت المملكة العربية الـــسعودية بشدة بهزيمة بوش. فهو يحظى بتقدير كبير لدى آل سعود، ونشأت صداقة ناجحـــة وازداد الـــتفاهم بينهما. وصعب على بندر، الذي تربطه صداقة وثيقة بأسرة بـــوش، تقـــبّل الهزيمة التي مني بها الجمهوريون. وخلال هذه الفترة المظلمة من الحياة المهنية، اقترب بندر المكتئب جداً من تقديم استقالته كسفير إلى الولايات المتحدة، ولم يبقه في منصبه إلا الإحساس العميق بالواجب تجاه بلده والملك.

شهدت ولايتا الرئيس كلينتون فترة من عدم استقرار في عملية السلام في الشرق الأوســـط تميّـــزت بفترات طويلة من الجمود الذي تقطعه بين الحين والآخر اندفاعات تاريخـــية نحـــو الـــسلام. وكان عقد التسعينيات بالنسبة إلى بندر هادئاً نسبياً. وتوقّع بعـــضهم أن يتقلّص مستوى قربه السابق من البيت الأبيض في عهد الجمهوريين، بفعل محـــاولات الديمقراطيين التعامل معه بتحفّظ وبرود. لكن على الرغم من تخمين وسائل الإعـــلام، بقي قرب الأمير من البيت الأبيض أعلى بكثير من مستوى الاتصال والنفوذ المقبولين اللذين يتمتّع بهما السفراء الآخرون. ومع ذلك كان بندر حسّاساً لتغيّر المناخ السياسي واعترف بذلك بقوله: "أخذت أشعر بملل شديد"[28].

شهد نوفمبر 1996 انعقاد مؤتمر القاهرة الاقتصادي الذي استضافه الرئيس حسني مـــبارك وشاركت في رعايته الولايات المتحدة والاتحاد الروسي*. وأعاد إعلان القاهرة الـــذي نـــتج عن المؤتمر التأكيد على الالتزام بسلام دائم في الشرق الأوسط مع إشارة خاصـــة إلى النـــزاع الفلسطيني الإسرائيلي. ووافقت كل الأطراف على متابعة السعي للسلام عن طريق التفاوض والاستفادة من منجزات مدريد وأوسلو. ومن المؤسف أنّ هـــذا الجهـــد المـــوحّد تبعته فترة سنتين ونصف من الجمود. مع ذلك واصلت إدارة كلينـــتون العمـــل على إحياء مسار السلام الفلسطيني الإسرائيلي. وفي أواسط أكتوبر 1998، عقد كلينتون قمة شرق أوسطية في واي ريفر بلانتيشن في ولاية ميرلند. ترأس الوفد الإسرائيلي رئيس الوزراء بنيامين نتنياهو وترأس ياسر عرفات الجانب الفلسطيني.

(*) قدّمت اليابان والاتحاد الأوروبي وكندا دعمها أيضاً لمؤتمر القاهرة الاقتصادي.

ونتيجة للمفاوضات، تم توقيع مذكرة واي ريفر من قبل نتنياهو وعرفات في 23 أكتوبر 1998، وشهد عليها الرئيس كلينتون والملك حسين عاهل الأردن[29].

كانت مذكّرة واي ريفر ترمي إلى إيضاح المسؤوليات المشتركة عن تنفيذ الاتفاق المؤقّت بشأن الضفة الغربية وقطاع غزة (أوسلو 2) الموقّع في 28 سبتمبر 1995، بغية تمكين الفلسطينيين من التفاوض كطرف مستقل، من دون أن يحدّد ذلك الوضع النهائي لأي أراضٍ قد تتخلّى عنها إسرائيل إلى الفلسطينيين مقابل السلام والأمن. ودعا الاتفاق أيضاً إلى إعادة انتشار الجيش الإسرائيلي في أنحاء من الضفة الغربية وغزة، وبالتالي تمكين الفلسطينيين من إجراء انتخابات حرّة. غير أنّ اتفاق واي تخلّلته كثير من مواطن الغموض بحيث قارنه بعض منتقديه بالجبن السويسري، وتعرّض بعد التوقيع لانتهاكات فورية من الجانبين، وبدأت إسرائيل تتملّص منه وتماطل في تنفيذه.

بيد أنّ بندر كان عازماً على الحفاظ على الضغط على إدارة كلينتون لمواصلة القيادة الأميركية عملية السلام واحترام أحكام مذكّرة واي ريفر. وفي حديث إلى الصحافيين في أعقاب أحد الاجتماعات مع كلينتون في البيت الأبيض، أبلغ بندر وسائل الإعلام: "عبّرنا عن قلقنا تجاه حساسية الموقف في الشرق الأوسط وخطورته في اللحظة الراهنة. الشرق الأوسط والعالم العربي يتطلعان إلى استمرار قيادة الرئيس الأميركي والولايات المتحدة لأنّ ذلك عنصر ضروري لإحلال السلام في منطقتنا"[30].

وعندما سئل بندر إذا كانت الإدارة تبدي اهتماماً كافياً لتدهور عملية السلام، قال إنّ الرئيس وإدارته استثمرا كثيراً من الجهد والمكانة بحيث إنّ الملامة على الوضع الحالي "تقع مباشرة على سلوك رئيس الوزراء نتنياهو الطائش. المسألة لا تتعلّق أنه متشدّد أم غير متشدّد، لأنّ بيغن ورابين وشامير لم يكونوا متهاونين أيضاً". ولزيادة قوّة رسالته، ذكر بشكل لا لبس فيه، "أنّ رئيس الوزراء هذا فريد. إنّ سلوكه غير بنّاء بل طائش. وأعتقد أنّ الشعبين الإسرائيلي والعربي سيدفعان ثمناً باهظاً إذا لم يتوقّف هذا السلوك الطائش"[31]. كان قلق بندر توقعياً. ففي 20 ديسمبر 1998، علّقت الحكومة الإسرائيلية تنفيذ المذكّرة.

أدى تعليق واي ريفر، إلى جانب تجميد المفاوضات بشأن التسوية النهائية، إلى نشوء وضع خطير في الشرق الأوسط. فقد واصلت إسرائيل نشاطها الاستيطاني في الأراضي الفلسطينية المحتلة، فضلاً عن مصادرة الأراضي، وبناء ما يسمى الطرائق الالتفافية،



بندر وكلينتون، عمدت إدارة الرئيس إلى التعتيم عليه كثيراً

والإجـــراءات المتخذة ضد الفلسطينيين المقدسيين، والحصار الاقتصادي[32]. وفي هذه الأثـــناء، بدأت وسائل الإعلام تشكّك في جهود إدارة كلينتون. فذكر تقرير واشنطن عـــن شـــؤون الشرق الأوسط: "إنّ مراسم التوقيع المتزايدة، ثلاثة في البيت الأبيض، وأخرى في طابا وشرم الشيخ في مصر، لا تعدو أن تكون تكراراً للتعهّدات غير المنجزة مـــنذ التواقيع السابقة. وهذا كل ما تتطلّع إليه إدارة كلينتون الآن في فرص المناسبات المصوّرة القادمة"[33].

على الرغم من تشكيك وسائل الإعلام، استضاف كلينتون قمة في كامب ديفيد في 11 يولـــيو 2000 - وهـــي مبادرة وصفها الدكتور هنري كيسنجر أنّها "محكومة بالفـــشل". وفي تبرير رأيه قال: "كيف يمكن أن تضع مبادرة سلام في أواخر أيامك في الحكم؟ لقد كانت محاولة فاشلة من الرئيس كلينتون لإيجاد مكان له في التاريخ"[34]. أياً تكـــن دوافع الرئيس، فقد تطابق تصميمه على إيجاد حل مع مسعى إيهود باراك للبقاء في السلطة، وحاجته إلى أن يعرض على الإسرائيليين فرصة تحقيق الأمن المنيع. وهكذا حدّد توقيت القدر العرضي الحياة في السعي للسلام في الشرق الأوسط.

خلافـــاً لمبادرات السلام التي اتخذت في أوائل التسعينيات في مدريد وأوسلو، لم تكـــن أهمية قمة كامب ديفيد في الحاضرين حول الطاولة، وإنّما في العرض الذي قدّم

علـيها. فقد انتهز كلينتون وباراك فرصة السلام ووضعا ما يمكن أن يقال واحداً من أنصف صفقات السلام والأمن التي تعرض على الفلسطينيين وأكثرها قابلية للنجاح.

ففـي عرض كلينتون - باراك، ستشكّل دولة فلسطينية على 95 بالمئة من الضفة الغـربية و100 بالمـئة من قطاع غزة؛ وتفكّك المستوطنات الإسرائيلية باستثناء ثلاث مجـاورة لإسرائيل؛ وتخضع القدس لسيادتين؛ ويُسمح بعودة عدد محدود من اللاجئين؛ وتُدفع حزمة تعويضات تبلغ 30 مليار دولار[35]. ساد الترقّب واشنطن. فها هو السلام واحتمال الحل المواتي يلوحان في الأفق. و لم يسبق من قبل أن قدّمت حكومة إسرائيلية، مدعومة بقوة من واشنطن، مثل هذه التنازلات لصالح الفلسطينيين.

ألقـى الرئيس كلينتون كل ما لديه في هذه المفاوضات. واجتمع منسّقه الخاص للـشرق الأوسـط مع المفاوض الفلسطيني أحمد قريع (أبو علاء) حرصاً منه على أن يدرك عرفات عواقب الرفض.

يذكر الدكتور سعيد الكرمي الإثارة والاهتمام اللذين سبّبهما هذا العرض، وأكّد أنّه في الأيـام الأخيرة لإدارة كلينتون، كان بندر يتحاور بانتظام مع عرفات ومساعديه بشأن المـوافقة على الاتفاق. أخيراً أصبح لدينا احتمال حل قابل للحياة يوفّر المستقبل والكرامة للشعبين. لذا شجّع بندر عرفات بحماسة ومن دون تحفّظ على قبول العرض[36].

في 2 ينايـر 2001، قبل ثلاثة أسابيع فقط من نهاية عهد كلينتون، استقبل بندر عـرفات في قاعـدة أندروز الجوية وراجع معه عرض باراك. وبعد ذلك قال له: "هل يمكن أن تحصل على اتفاق أفضل؟ هل تفضّل التفاوض مع شارون؟".

عندما أخذ عرفات يتذبذب، حذّره بندر قائلاً: "أرجو أن تتذكّر ما قلته لك. إذا خـسرت هذه الفرصة، ستكون تلك جريمة. لديك خياران: إما أن تقبل العرض، وإما أن نذهب إلى الحرب"[37].

رفـض عـرفات العرض المقدّم في كامب ديفيد من دون تفسير أو تقديم عرض مقابل، فاختار الحرب.

في مـسعى أخـير، أرسل كلينتون أحد المسؤولين الذين لديهم علاقة جيدة مع عـرفات للـتحدّث معه مباشرة. قدّم المبعوث مناشدة تشوبها العاطفة، "أنجز الاتفاق، واحـصل على دولة، وساعد شعبك، ولا تخسر أفضل فرصة تعرض على الفلسطينيين منذ سنة 1948".

أجاب عرفات ببساطة: "لا أستطيع"[38].

صُدم بندر بهذا الرفض وقال متألّماً: "لقد أحزنني ذلك القرار؛ إنّه جريمة بحقّ الفلسطينيين، بل بحقّ المنطقة بأسرها"[39].

لم يكن بندر الوحيد الذي نظر بيأس إلى رفض الصفقة من قبل عرفات؛ فقد حاول المصريون ثني عرفات عن موقفه لكنّهم لم يفلحوا. واعترف أحد كبار مساعدي مبارك في حديث خاص: "كان على عرفات قبول الاتفاق كأساس للمفاوضات. علينا نحن العرب أن نتعلّم كيفية التسوية"[40]. تأمّل كلينتون في سيرته الشخصية وفي عواقب رفض عرفات، قائلاً: "أنا سأذهب، وسيذهب روس. وسيخسر باراك الانتخابات القادمة أمام شارون. ولن يكون بوش راغباً في التدخّل بعد كل ما بذلته وفشلت. وما زلت لا أستطيع أن أصدّق كيف يمكن أن يرتكب عرفات مثل هذا الخطأ الجسيم"[41].

عاد عرفات إلى فلسطين، وأطلق بعد أيام الانتفاضة الثانية. قُتل ثلاثة آلاف فلسطيني وألف إسرائيلي نتيجة لذلك. وكانت آثارها مأساوية على الفلسطينيين: انهار الاقتصاد، وأغلقت المدارس، ودُمّرت البنية التحتية للبلد. وأصيب الإسرائيليون بالذهول. أما عرفات فدافع عن موقفه بقوله: "إذا فعلت ما تريدون فستصل حماس إلى السلطة في اليوم التالي"[42].

بعد خمس سنوات على رفض العرض التاريخي بقيام دولة فلسطينية، توفي عرفات. ولم يعد إيهود باراك وبيل كلينتون في الحكم. جاء أرييل شارون، خليفة باراك، بعد تحوّل استثنائي ليقود حملة من أجل السلام بين الإسرائيليين والفلسطينيين قبل أن يسقط صريع سكتة دماغية قوية. وبقيت حماس.

في 26 يناير 2006، صوّت الفلسطينيون بشكل كاسح لمصلحة حماس، رافضين فساد حركة فتح. وبالنظر إلى سجل حماس في المقاومة والتفجيرات، وبرنامجها السياسي الذي ينكر حقّ دولة إسرائيل في الوجود، فإنّ احتمالات السلام في المنطقة وقيام دولة فلسطينية تبدو قاتمة في الوقت الراهن.

توقّع جيمس بيكر ألا يتواصل جني ثمار مؤتمر مدريد للسلام إلا "عندما يوجد رئيس وزراء إسرائيلي يتطلّع إلى السلام وزعيم فلسطيني يخلف عرفات ويكون مستعدّاً للتفاوض بشكل صحيح للتوصل إلى سلام"[43]. وفي متابعة لهذه المشاعر وتأمّل متبصّر

في فشل قمة كامب ديفيد، قال السير ريتشارد باول: "كانت إحدى أعظم الفرص العالمية الضائعة، لكن يمكنك أن تكون على يقين أنّ عرفات يفوّت الفرصة دائماً؛ فلا يمكن أن يكون عرفات إلا نفسه، أي زعيماً للمعارضة. إنّه عاجز تماماً، إذا ما تمّ التوصّل إلى تسوية للمشكلة الإسرائيلية الفلسطينية، فسيفقد عرفات دوره على الفور". وتابع باول: "لقد خاب أمل بندر كثيراً في عرفات. إذا قدّمت لعرفات معظم ما يطلبه على طبق من فضة، فسيرفضه، إنّه عاجز عن قبول أي شيء"[44].

تكرّر ذكر هذا الرأي كثيراً. ومؤخّراً، كتب هندريك هيرزبرغ، "لا توجد لدى عرفات أو شارون الإرادة السياسية للتوصّل إلى تسوية ضروريّة"[45]. غير أنّ هناك احتمال أن تكون المشكلة كامنة في التسوية. فكما اتضح في أثناء تعامل أميركا مع صدام حسين، وبخاصة في الفترة الممهّدة لحرب الخليج، غالباً ما كانت مساعي الغرب للتوسّط عبر التنازلات والإرادة الطيّبة تفسّر من قبل صدام على أنّها ضعف في خصمه وسبب مثالي للتشبّث برأيه. ولعل هذا الاختلاف بين الفكرين العربي والغربي يفسّر رفض عرفات "العرض الذي لا يصدّق" الذي طُرح على الطاولة في كامب ديفيد. ربما رأى عرفات في التسوية التي طرحها إيهود باراك دليلاً على ضعف الإسرائيليين، فقدّر أنّ الوقت ملائم للهجوم بدلاً من التفاوض. ولعله كان واثقاً جداً من هذا الافتراض بحيث أدار ظهره لطاولة المفاوضات وأطلق الانتفاضة الثانية.

لاحظ بندر: "كانت جهود الرئيس كلينتون في وضع اتفاق إطاري بشأن فلسطين مدهشة". وامتدح كلينتون أيضاً بندر قائلاً: "لم يحاول بندر فقط حمل عرفات على قبول العرض، لقد قاد عرفات بندر إلى الاعتقاد أنه سيقبل العرض، لكن لا يعرف أحد منا ماذا حصل عندما غادر عرفات واشنطن آخر مرة". ويذكر الرئيس السابق، "قبل نحو ستة أسابيع على نهاية ولايتي، قلت لعرفات، *سأحسّن العرض المطروح عليك*. وتوصّلنا إليه أخيراً في طابا؛ كان عرضاً جيداً منح عرفات 98 بالمئة مما أراد. وظننا أنّه سيقبله لأنّه قاد بندر إلى الاعتقاد أنّه سيقبله، وقاد المغاربة إلى الاعتقاد أنّه سيقبله، وأهميّة ذلك أنّ المغرب يرأس لجنة القدس"[46].

على الرغم من عمل كلينتون الشاق، استقل عرفات طائرته متوجّهاً إلى مصر، وعندما وصل إلى هناك، تراجع. هزّ كلينتون رأسه وتأمّل في ذلك، "أدلى الكثيرون بدلوهم في لماذا، أو من، أو ماذا وأنا لست واثقاً تماماً من أنّ أياً منهم يعرف. ربما

هناك العديد من الأسباب، وربما قرّروا أنّهم سيخسرون في الحالتين؛ يتخلّون عن حقّ العودة، ثم يهزم باراك وسيكون ذلك في الواقع بمثابة استفتاء على الاتفاق، فسيصابون بالخيبة لأنّهم قبلوا بالتسوية من دون الحصول على الفوائد".

لاحـــظ الرئيس أنّه كان في وسع باراك إقرار الحلّ في إسرائيل بدعم منه في ذلك الـــوقت. وخمّن أنّ في وسع باراك العودة والفوز بالانتخابات. وتابع: "حاولت إبلاغ عـــرفات بـــذلك. لقد تدنّى تأييد باراك إلى 38 بالمئة في استطلاعات الآراء، فقد كان يواصـــل الـــتقديم من دون أن يحصل على شيء بالمقابل، لذا رأى الإسرائيليون أنّ من الأفـــضل لهـــم أن يـــأتي شارون إذا كانوا لن يحصلوا على السلام، وذلك أمر رهيب بالنسبة إلى كل المعنيين".

قـــال الرئيس: "حاول بندر جاهداً حمل عرفات على قبول الاتفاق. بل إنّه تجاوز المطلوب بكثير". ورأى الرئيس أنّ المشكلة التي واجهته مع بعض الزعماء العرب أنّهم كانـــوا يبلغونه أنّهم يحثّون عرفات على قبول الاتفاق، لكنّ عرفات لم يكن واثقاً من أنّهـــم ســـيقفون وراءه علناً، وكان يخشى أن ينتظروا ليعرفوا الاتجاه الذي ستهبّ منه الـــرياح. وشـــدّد كلينتون على أنّ "بندر كان رجل موقف. قال لعرفات، *هذا أفضل عـــرض يمكنك أن تحصل عليه، وأنا أقبل به الآن لأنّه سيستغرق سنوات طويلة إذا لم تقبل*".

يذكـــر كلينـــتون أنّه قال لعرفات، في مراجعة أخيرة للجهود التي بذلها لتحقيق نتيجة ناجحة لعملية السلام الجهيضة قبل مغادرته البيت الأبيض: "إذا لم تكن تريد أن تفعـــل ذلك، أخبرني، لأنّني إذا كان الأمر كذلك سأتوجّه إلى كوريا الشمالية وأنهي المشكلة التي لدينا هناك".

وأسرّ الرئيس، في نظرة إلى الأحداث بعد وقوعها، أنّه يتمنّى لو ذهب إلى كوريا الـــشمالية بـــدلاً من مواصلة المحاولة مع عرفات إذ "كان الاتفاق يوشك أن يتم معهم [الكـــوريين]". غـــير أنّ كلينـــتون قرّر التشبّث بعملية السلام بعد أن قال له عرفات والدموع في عينيه، "بالله عليك لا تذهب، لا يمكنك أن تفعل ذلك".

في محاولـــة لتأمين وعد من عرفات أن يبرم الاتفاق، قال له الرئيس: "هل ستفعل ذلك؟".

"نعم"، أجاب عرفات.

وعلّــق كلينتون على عدم قبول عرفات بأي اتفاق لاحقاً، وقيامه بدلاً من ذلك بــإطلاق الانتفاضــة قــائلاً بمــرارة: "وتعلم البقية، سقط أربعة آلاف فلسطيني في الانتفاضة. لقد كانت مأساة".

وفي فكــرة لاحقة متفائلة، أوحى كلينتون أنّ الفرصة ربما أتيحت لعملية السلام بعــد وفــاة عــرفات، "الأمر الجيد أنّنا نعرف ما هو الشكل الذي سيتخذه الاتفاق النهائي. نعلم أنّ علينا الذهاب إلى جنيف ونأخذ اتفاق طابا ونملأ الفراغات"[47].

لكــن الــسانحة فقــدت، وأغلق القدر تلك الكوّة الصغيرة. لخّص بندر أفكار العديــدين في الكونغــرس عــندما قــال عن عرفات: "كلما حاولنا شيئاً، فعل شيئاً معاكساً، إنّني لا أثق بهذا الرجل، لقد كذب عليّ مرات عديدة"[48]. وقال بندر لاحقاً إنّ انــتقاد عــرفات علناً في ذلك الوقت كان يضرّ بالقضية الفلسطينية. غير أنّ بندر ادّعــى، في تعلــيق انــتقادي على عدم موافقة عرفات على العرض الذي قدّمه باراك وكلينــتون، أنّه قال لعرفات على انفراد: "منذ سنة 1948، كلما كان لدينا شيء على الطاولــة قلــنا لا، لنَعُد ونَقُل نعم. وعندما نقول نعم، لا يعود مطروحاً على الطاولة. ويتعيّن علينا التعامل مع شيء أقل. ألم يحن الوقت لنقول نعم؟"[49].

لقــد كانــت خيبة أمل بندر من ياسر عرفات أعمق بكثير من انعدام الثقة، فقد حمّــل الــزعيم الفلسطيني المسؤولية المباشرة عن المقتلة التي تلت وإزهاق أرواح آلاف الفلسطينيين والإسرائيليين سدى. ففي حديث إلى إلسا وولش(*) في سنة 2003، قال: "لم أتعافَ في داخلي صراحة من حجم الفرصة التي فوّتت في يناير، قُتل ألف وستمئة فلــسطيني حتى الآن وقُتل سبعمئة إسرائيلي. وفي اعتقادي ليس هناك ما يبرّر مقتل أي من هؤلاء الفلسطينيين والإسرائيليين"[50]. لكن على الرغم من هذا الانتكاس الهائل، لم يتــراجع تصميم بندر على إيجاد حل لعملية السلام. فقد قال: "لدي أنا وزوجتي ثمانية أولاد وحفيدان. ولا يمكنني أن أتصوّر أن يتخرّج حفيداي من المدرسة، أو يذهبان إلى الجامعة ويسألانني، *لماذا فشلت في حل هذه القضية يا جدي؟*"[51].

مــنذ رفــض عــرفات عرض كلينتون - باراك، تأمّل العديد من الأشخاص في العــواقب. فأثــارت مقالة في صحيفة واشنطن تايمز السؤال، "إذا لم يقنع ذلك الجهد

(*) إلــسا وولــش مؤلّفة وكاتبة في صحيفة ذا نيويوركر ومتزوّجة ببوب وُدوارد، المحلّل السياسي والصحافي والكاتب المعروف.

الســـيد عرفات باختيار السلام، من الصعب أن يقنعه أقلّ من تدمير إسرائيل؟"[52]. وفي الحـــديث عن رفض عرفات الاتفاق، رأى هنري كيسنجر، "أشكّ في أنّ الفلسطينيين يـــريدون التسوية، لن يرضيهم سوى تدمير إسرائيل". ومضى إلى القول إنّه يفهم لماذا وصـــل إلى الفلسطينيين هذا الموقف المتشدّد. وهذا الاعتراف بتفهّم الموقف الفلسطيني كـــان بمـــثابة موقف مفاجئ من وزير خارجية يهودي سابق. غير أنّ كيسنجر علّق بشكل براغماتي، أنّه كانت لدى منظمة التحرير الفلسطينية طموحات غير واقعية من ناحية الاتفاق مع إسرائيل، ملاحظاً أنّه كانت لديهم توقّعات مثالية ولا شيء يعرضونه على الإسرائيليين في المقابل[53].

في مقابلـــة لاحقـــة، ألقى السفير مورفي مزيداً من الضوء على توقّعات كيسنجر القاتمـــة بـــشأن القضية الإسرائيلية الفلسطينية. فأشار إلى أنّه في حين قد يكون لدى كيـــسنجر تحفّظات بشأن رغبة الفلسطينيين في السلام، فإنّ ثمة حسنات لاعتقاده أنّ أفـــضل مـــا يمكن أن يؤمل به هو هدنة طويلة. وأوضح مورفي: "إنّه [كيسنجر] يقدّم فرضية براغماتية وواقعية - على الرغم من أنّ الشعبين ربما لن يوقّعا على معاهدة سلام كاملة، فإنّ الهدنة طويلة الأجل كافية". وقال مورفي إنّ هدنة تمتدّ مئة عام ستكون لها قـــيمة حقيقة في لأم الجراح العاطفية والبؤس اللذين يشعر بهما كل جانب، والعوامل الـــتي تكـــبت جهود السلام. ورأى مورفي أنّ "السلام يتطلّب الكثير بسبب الإذلال والـــتاريخ القـــائم منذ سنة 1948". وفي ما يتعلّق بالهدنة الطويلة، قال مورفي: "لطالما اعـــتقد الإســـرائيليون أنّ هذا التفكير خطر وأنّهم لا يقبلون شيئاً يقل عن سلام تامّ وملـــزم". واستبعد مورفي أن يكون الطرفان يريدان تحقيق الأمن في ما يتعلّق بالسلام، ملاحظـــاً بـــسخرية، "إنّهما لا يفكّران بالطريقة نفسها، فأمن طرف واحد هو الذي يهـــم، إســـرائيل". وعبّر مورفي عن بعض التعاطف مع آراء كيسنجر، وخلص إلى أنّ مفهـــوم كيـــسنجر عما يمكن تحقيقه في الواقع - هدنة طويلة الأجل بدلاً من معاهدة سلام ملائمة - ليس *سيئاً تماماً*.

في محاولـــة أخيرة لتفسير رفض عرفات العرض الذي تقدّم به باراك، قال مورفي: "إنّـــه العقبول والموقف نفساهما اللذان اتخذهما الفلسطينيون في سنة 1948 من التقسيم: *لا يمكـــن! لماذا نقسّم؟ إنّهم عدد قليل على أرضنا، أيّاً تكن طريقة قدومهم، وتطلبون مـــنا أن نقدّم لهم النسبة المئوية س؟* وبعد ذلك جاءت الحرب وحصلوا [الإسرائيليون]

علـــى النسبة المئوية س، ص، ز. لذا أعتقد أنّ هناك بعض الفلسطينيين الذين يناقشون حتى النهاية أنّ إسرائيل غير شرعية. لذا قد يكون من الأسهل القبول بسلام على المدى الطويل"[54].

في ملاحظة شبيهة بمقارنة جهود بندر كصانع سلام بالبحث عن الكأس المقدّسة، قـــال سكوكروفت بشكل لا لبس فيه: "أعتقد أنّ بندر لا يستطيع البتة إحراز تسوية سـلمية، فهي ليست في متناوله". وأوضح: "لقد أمضى الأمير بندر سنوات عمله في المـناورة بـين المجموعات المتنازعة، ولا أعتقد أنّ عرفات يمكن أن يجلس ويوقّع على شيء لا رجوع عنه". وهزّ رأسه مستسلماً وأضاف في فكرة لاحقة: "إذا أقنع الزعماء العـرب عـرفات بحيث يمكنه القول، *أرغموني على ذلك*، عندئذ أعتقد أنّنا سنحصل على سلام"[55]. غير أنّ وفاة عرفات استبعدت هذا الخيار.

لقد كان لدى بندر، باعتباره الشخص الذي لديه مصداقية كبيرة كعربـي، وصانع سـلام، ورجـل دولة، وأفضل من يقنع عرفات بالموافقة على عرض كلينتون – باراك، سـبب وجيه كي يقسو في الحديث عن طبيعة عرفات. عندما رفض عرفات الاقتراحات، قال له بندر: "اسمعني، لن تكون هذه مأساة، بل ستكون جريمة إذا لم تفعل ذلك".

مـتأمّلاً في الفرصة الضائعة التي لا مثيل لها تقريباً، قال بندر: "ما زلت أعتقد أنّه مـنذ 5/4 ينايـر، عـندما عقـدنا الاجتماع الأخير مع عرفات في واشنطن، ورفض الاقتراح، قبل أسبوعين من قيام كلينتون بتسليم السلطة إلى بوش، لم يكن يتعيّن مقتل أي فلـسطيني، رجـلاً كان أم امرأة أم طفلاً، في الضفة الغربية وقطاع غزة منذ يناير 2001 حتى اليوم. وقد قُتل الكثير إذا كنت تقدّر قيمة الحياة الإنسانية".

ولاحـظ بندر، في تشبيه بين دوره في وقف إطلاق النار في لبنان والخيار الذي واجـه عـرفات في كامب ديفيد: "قبل توصّلنا أخيراً إلى اتفاق وقف إطلاق النار في لبـنان، شهد ذلك البلد ما بين عشرة وخمسة عشر اتفاقاً لوقف إطلاق النار استمرت بعضها ساعتين أو أربعاً وعشرين ساعة أو أسبوعاً. وأذكر أنّ مراسلاً غربياً سألني، *ما جـدوى وقف إطلاق النار في لبنان؟ لقد شهد لبنان العديد من اتفاقات وقف إطلاق النار ثم استؤنف القتال مجدداً وتواصل قتل الناس*".

بـدا علـى بندر الغضب حين تابع: "أغضبني ذلك المراسل كثيراً، فقلت له، *لا أعرف جدواه بالنسبة إليك بل بالنسبة إليّ. إذا أمكنني الحصول على وقف إطلاق نار*

لمدّة خمس دقائق ينقذ حياة واحد أو اثنين، فذلك كثير! وآمل أن يستمر هذا الوقف مدّة كافية لإنقاذ أعداد أكبر بكثير من الأشخاص". وتابع الأمير: "لكن لا تتفوّه بهذا الهراء عن جدوى وقف إطلاق النار إذا كان سينهار لاحقاً. كلما أتيحت لك فرصة إنقاذ حياة الناس، يكون ذلك مجدياً. ولا يهمني إذا كان ذلك ينقذ شخصاً واحداً أو مئة أو ألفاً، لأنّ الناس لا يسقطون قتلى في أثناء وقف إطلاق النار".

وعندما تناول بندر رفض عرفات العرض الذي تقدّم به كلينتون - باراك، اعترف بهدوء: "في ذلك السياق شعرت بألم شديد على الصعيدين العاطفي والفكري بطريقة لا يمكنني تصديقها. لو كنت زعيم القبيلة أو الأمة الفلانية، وأهتمّ لشعبي فعلاً، وعُرض عليّ ما عرضه كلينتون وباراك على عرفات، لكان يجب أن يكون لدي سبب وجيه جداً لأرفضه. وما زلت بعد مرور خمس سنوات لا أستطيع العثور على ذلك السبب".

عندما سئل بندر لماذا رفض عرفات، أجاب: "إذا أردت جواباً صادقاً استناداً إلى ما أعتقده، لا أعرف. لكن لا يسعني الحكم على عرفات استناداً إلى طريقة تفكيري، بل عليّ الحكم على عرفات استناداً إلى الطريقة التي أعتقد أنّه يفكّر فيها". وأضاف بطريقة فلسفيّة: "أعتقد أنّ مشكلة عرفات الكبيرة هي أنّه لم يستطع إتمام الانتقال من القائد الثوري إلى رجل الدولة. وكلما وصل إلى تلك النقطة تراجع. الثوري هو شخص يقاتل من أجل الثورة. ورجل الدولة هو الشخص الذي يقول، *الثورة انتهت الآن. أنا المسؤول وعليّ أن أنجز الانتقال من ثوري إلى زعيم عالمي*".

وفي تكرار للتقييم نفسه، ولكن باستخدام أسلوبي القيادة المختلفين للرئيسين المصريين عبد الناصر والسادات لإيضاح شخصية عرفات، أكّد بندر: "لم يستطع عرفات الانتقال من زعيم ميليشيا أو ثوري إلى رجل دولة. وأعتقد أنّ ذلك هو الفارق بين السادات وعبد الناصر. كان عبد الناصر القائد الثوري، وقد عجّل في حرب سيناء على حسابات خاطئة، فأعطى العدوّ فرصة محاربته في سنة 1967، وفقد جزءاً كبيراً من أرضه - سيناء - ولم يتمكّن من التوصّل إلى كيفية استرجاعها بأن يكون رجل دولة. غير أنّ السادات عندما وصل إلى السلطة نظر في الوضع بأكمله وقال، *عليّ أن أكون رجل دولة. فالطريقة الوحيدة لاستعادة هذه الأرض هي أن أكون رجل دولة. لا أستطيع استخدام مفردات عبد الناصر، وخطابه واتباع سلوكه، فقد فقد الأرض وأنا أريد استعادتها*".

"لـــذا أصـــبح الـــسادات رجل دولة، وبذلك استحدث بيئة لشنّ حرب **هدفها** تحـــريك المـــشهد السياسي ودفعه إلى الأمام، لا كسب حرب أو خسارتها. لذا أعدّ للحرب، وشنّها، ثم وافق على وقف إطلاق نار على الفور للمحافظة على مكاسبه التي كانـــت محـــدودة في واقـــع الحال. لكنّها كانت كبيرة من جهة أخرى لأنّها غيّرت المعادلة. ثم مضى إلى طاولة المفاوضات ومن خلالها استرجع أرضه".

"لم يستطع عرفات تخطّي الحدّ الفاصل بين القائد الثوري ورجل الدولة، وبالتالي كـــان يتراجع كلما سنحت فرصة إحداث اختراق، لأنّها لا تدخل في عقليّته. وإنّني أتوقّع من أبـــي مازن الذي أصبح الرئيس الفلسطيني الآن أن يكرّر ما حدث في مصر، إذا كان تقييمي دقيقاً. فعرفات هو عبد الناصر وأبو مازن هو السادات. وقد يفقد أبو مـــازن حـــياته في هذه العملية، مثلما حدث للسادات. لكن مع أنّه يفتقر إلى حضور عـــرفات وشعبيّته، فإنّه سينجز الدولة الفلسطينية في نهاية المطاف. وبصرف النظر عما تقـــوله عـــن صـــفات عرفات فإنّه لم يستطع تحقيقها، في حين أنّ أبا مازن سيحقّقها بصرف النظر عما تقوله عن أنّه يفتقر إلى الحضور". ومن المثير للاهتمام أنّ بندر عندما ســـئل إذا كان سيلعب دوراً في تلك العملية تجنّب القضيّة ببراعة بقوله: "دعونا ننتظر ونرى".

الفص

لم يك
والولا
في الـ
شديد

الرئيس
فريقه
القـــر
التالــ
جـــو
حقبة

الـــر
هـــذ
وقدّ

الفصل التاسع

السفير الذي لا يقهر

"كانت شخصيّته وشجاعته الأخلاقية ونزاهته في هذه القضية [انفجار الخُبر] أقوى من كل الفاعلين الآخرين في هذا الموضوع بأكمله. قال لي، سأساعدك فيها وسنقوم بما هو صحيح هنا ولم يتراجع عن ذلك قط، مع أنّه يعرض نفسه لخطر كبير كما أعتقد".

مدير مكتب التحقيقات الفيدرالي السابق لويس فريه

عندما خسر جورج إيتش دبليو بوش الانتخابات أمام بيل كلينتون في سنة 1992، لم يكن التغيّر في المناخ السياسيّ خافياً لا في الدائرة السياسيّة والاجتماعية في واشنطن والولايات المتحدة فحسب، وإنّما في العالم أجمع. ويمكن القول إنّ الرئيس بوش رمى، في السنوات المتقلّبة التي تلت حرب الخليج الأولى على الفور، بكرة سياسة خارجية شديدة التعقيد وغير مستقرّة إلى إدارة كلينتون فألقت بها على الفور.

كشف بندر عن شخصية الإدارة الجديدة في طرفة تعرض الكثير عن سنوات الرئيس بيل كلينتون الأولى في الحكم. فقد ذكر أنّ "من الأمور الأولى التي أعلن عنها فريقه أنّ الرئيس الجديد لن يلتقي أي زعيم أو مسؤول أجنبي لمدة شهرين". وكان القرار الذي اتخذه البيت الأبيض بإغلاق أبوابه أمام السياسة الخارجية في الشهرين التاليين لتسلّمه منصبه التزاماً بشعارات الحملة الديمقراطية واعتقاداً من كلينتون أنّ جورج إيتش دبليو بوش خسر الانتخابات بسبب إهماله السياسة الداخلية. وبدأت حقبة كلينتون بالتركيز المتميّز على الذات.

نُسب الإعلان عن سياسة الإدارة الجديدة إلى فريق الرئيس بشكل متعمّد، لا الرئيس نفسه. وقد أظهر ذلك الاشتباه وجود فجوة بين الإدارة والرئيس كلينتون في هذه المرحلة المبكّرة، وبخاصّة من ناحية السياسة الدولية الحاسمة، نقطة ضعف محتملة وقدّم رسالة سلبية إلى العالم الخارجي.

على الرغم من سياسة كلينتون الجديدة، قال بندر: "اتصل الرئيس كلينتون؛ كان قــد سمع أنّني قد أترك لأنّ بوش خسر الانتخابات، وأبلغته أنّ الأمر يتوقّف على الملك فهد. وكان من الأمور التي قالها لي عندما كان رئيساً منتخباً، *يجب أن أجتمع بك فور وصــولي إلى واشــنطن لنــتحدّث*. قلت، *عظيم* لكنّني كنت أعتقد أنّها مجرّد سياسة وكياســة. غير أنّ كلينتون أقسم اليمين في 20 يناير، وفي 25 يناير، أي بعد خمسة أيام علــى تسلّمه الرئاسة، تلقّيت اتصالاً من أنطوني ليك، مستشار الأمن القومي الجديد، الــذي قــال لي، *هل يمكنك المجيء غداً عند الساعة الحادية عشرة؟*". على الرغم من إعلانــات فــريق كلينــتون، بدا أنّ الرئيس الجديد عازم على تطوير صلاته خارج الولايات المتحدة.

عــندما وصل بندر إلى البيت الأبيض وأُبلغ أنّ الرئيس يريد الاجتماع به، دُهش وروى كــيف انتظر بصبر: "انتظرت عشر دقائق، خمس عشرة دقيقة، عشرين دقيقة؛ شــاهدت أشخاصــاً يتحرّكون جيئة وذهاباً؛ ثم أبلغت أنّ مستشاري الرئيس في الشؤون الداخلية يتناقشون مع الرئيس قائلين له، *مهلاً، لا يمكنك الاجتماع به لأنّنا أخبرنا العــالم أنّــك لــن تجتمع بأي ممثّل أجنبــي؛ الرئيس التركي هنا ولم تجتمع به*. وقال كلينتون، لكنّني وعدت الأمير بندر أن أجتمع به واتصلنا به ليأتي للاجتماع بــي. لا يمكــنني إلا أن أجتمع به". وأوضح بندر البراغماتي موقفه بالقول: "لذا عندما علمت ذلــك، قلــت، *لم أطلب المجيء إلى هنا؛ أنتم طلبتم مني الحضور. إذا كان الرئيس لا يــستطيع مقــابلتي، لكن لديه شيئاً يريد إطلاعي عليه، يمكنه إبلاغ مستشاره للأمن القومــي ليطلعني عليه ثم أنصرف. ليس عندي مانع في ذلك*. فقالوا، *لا - نرجو منك الانتظار*".

تابــع بندر، "في النهاية جاؤوا بتسوية. طلبوا مني الوقوف على مقربة من حيث كــنت أجلــس. ثم دخل الرئيس وتصافحنا وقال مرحباً؛ وكان معه نائب الرئيس. انتحــى بــي كلينتون جانباً وتحادثنا بضع دقائق قبل أن يقول، *لنحدّد موعداً آخر للاجــتماع للتــباحث في بعض الأمور*". وذكر بندر: "فوجئت بوجود مصوّر معهم. الــتقطوا صورة لاجتماعنا وأرسلوا لي نسخة، لكن من دون تاريخ". وضحك قائلاً: "كــان ذلــك أمراً ذكيّاً من إدارة كلينتون، بحيث أضع التاريخ عليها بنفسي. ويظهر ذلــك مقدار سياسة إدارة كلينتون وسلاستها". وأضاف: "تكشف أيضاً لك أنّ لدى

كلينـــتون حـــنكة سياسية فطرية كبيرة. أعتقد أنّ المحيطين به خذلوه عدة مرات، ولم يكونوا على قدر ذكائه".

عندما أبلغت بهذه القصة، سررت لشبهها بإحدى طرف بندر الأخرى، باستثناء أنّ الأدوار كانـــت منقلبة؛ ففي تلك المناسبة كان بيل كلينتون المنتظر. قبل سنوات، تلقّى بندر مكالمة تبلغه أنّ حاكم ولاية أركنساس يريد المجيء للقائه. وأوضح أنّ ذلك كـان في أوائــل ســنة 1990، وفي ذلــك الوقت كان قد زار كل الولايات الثماني والأربعـــين باستثناء أركنساس، ولم يدرِ في خلده لماذا يريد حاكم أركنساس مقابلته. أبلــغ أنّ الحـــاكم كلينتون يريد التحدّث عن العلاقات بين المملكة العربية السعودية والـــولايات المتحدة. غير أنّ بندر اضطر إلى إلغاء الاجتماع ثلاث مرات، الأولى قبل غزو الكويت. وفي المحاولة الثالثة للاجتماع، وصل كلينتون إلى السفارة في الواقع. غير أنّ بـــندر اضـــطر إلى المغادرة فجأة؛ فطلب كلينتون ببساطة المجيء لمقابلة بندر مجدداً. وذكـــر بـــندر: "لـــو كنت ذكياً في ذلك الوقت لفكّرت، *هذا الرجل لا يستسلم؛ ولأخبرني ذلك أنّه سينجح سياسياً*".

كانـــت علاقة بندر بالبيت الأبيض في عهد كلينتون تتسمّ ببعض الشذوذ. فقد اعتـــرف الأمـــير علـــناً "إنني وكلينتون صديقان؛ ويمكنني الذهاب معه إلى السينما". وأوضح أيضاً أنّ هناك اختلافاً بين زيارات العمل والزيارات الشخصية؛ سواء أجتمع بالـــرئيس في المكتب البيضاوي كسفير أم في مقرّه الشخصي كصديق. وما التصوّر أنّ بندر كان يزداد سأماً في أثناء قيادة كلينتون إلا انعكاسٌ للإدارة وموقفها من السياسة الخارجـــية، وليس للرئيس نفسه. وعلى نحو ذلك، على الرغم من زعم وسائل الإعلام أنّ اتصال الأمير بالبيت الأبيض تقلّص كثيراً في رئاسة كلينتون، أو ضعف كثيراً، فإنّ الواقع يبيّن أنّه احتفظ بقدرة مدهشة على الوصول إليه.

مـــع ذلك، في حين أنّ بندر كانت تربطه بالفعل علاقة بالبيت الأبيض في عهد كلينتون، فإنّه لا يمكن إنكار أنّها لم تقترب البتة من الانسجام الذي كان يتمتّع به مع الـــرئيس جورج بوش وفريقه. ويوضح ذلك السير ريتشارد إيفانـــز، الرئيس السابق لـــشركة بـــريتيش إيروسبيس بالقول: "لا أعتقد أنّ بندر كانت تربطه بإدارة كلينتون تلـــك الصداقة الحميمة التي ربطته ببوش". ولاحظ أنّ ذلك لا يرجع إلى وجود عداء بـــين كلينـــتون والأمـــير، وإنّما إلى أنّه كان أقلّ تعاطفاً مع بعض الأفراد في الإدارة

الجديـــدة. ومن المثير للاهتمام أنّ السير ريتشارد يعتقد أيضاً أنّ وزارة الخارجية كانت تعمل في ظل إدارة كلينتون بشكل مختلف عن عملها في أثناء إدارة بوش الأول[1].

في أثـــناء نقاش مع بتينا جيلبرت، سكرتيرة بندر الخاصة لسنوات عديدة، أكّدت جيلبرت أيضاً أنّ قدرته على الوصول إلى البيت الأبيض كانت في ذروتها في أثناء إدارة جـــورج إيـــتش دبليو بوش، وكانت أكثر هدوءاً في عهد كلينتون[2]. وسلّطت بديلة جيلـــبرت كـــسكرتيرة للأمير، شيري كوبر، الضوء على العلاقة بين بندر وكلينتون، عندما روت قصة ذكرها لها العديد من الدبلوماسيين السعوديين. قالت: "قدم الرئيس كلينـــتون، كـــان حاكم ولاية في ذلك الوقت، إلى السفارة بغية مقابلة بندر في أثناء الانـــتخابات التمهيدية؛ كان يريد تمويل مكتبة وجاء من دون موعد. سمعت أنّ الأمير ســـأل أحـــد مستشاريه، *ما حظوظ هذا الرجل في الفوز بالرئاسة؟* وأبلغ، *ليست له حظوظ البتة*". ابتسمت شيري ابتسامة عريضة وتابعت: "لذا لم يحصل السيد كلينتون على موعده ثم أصبح رئيساً". وخلصت: "أعتقد أنّه لم ينسَ ذلك قط"[3].

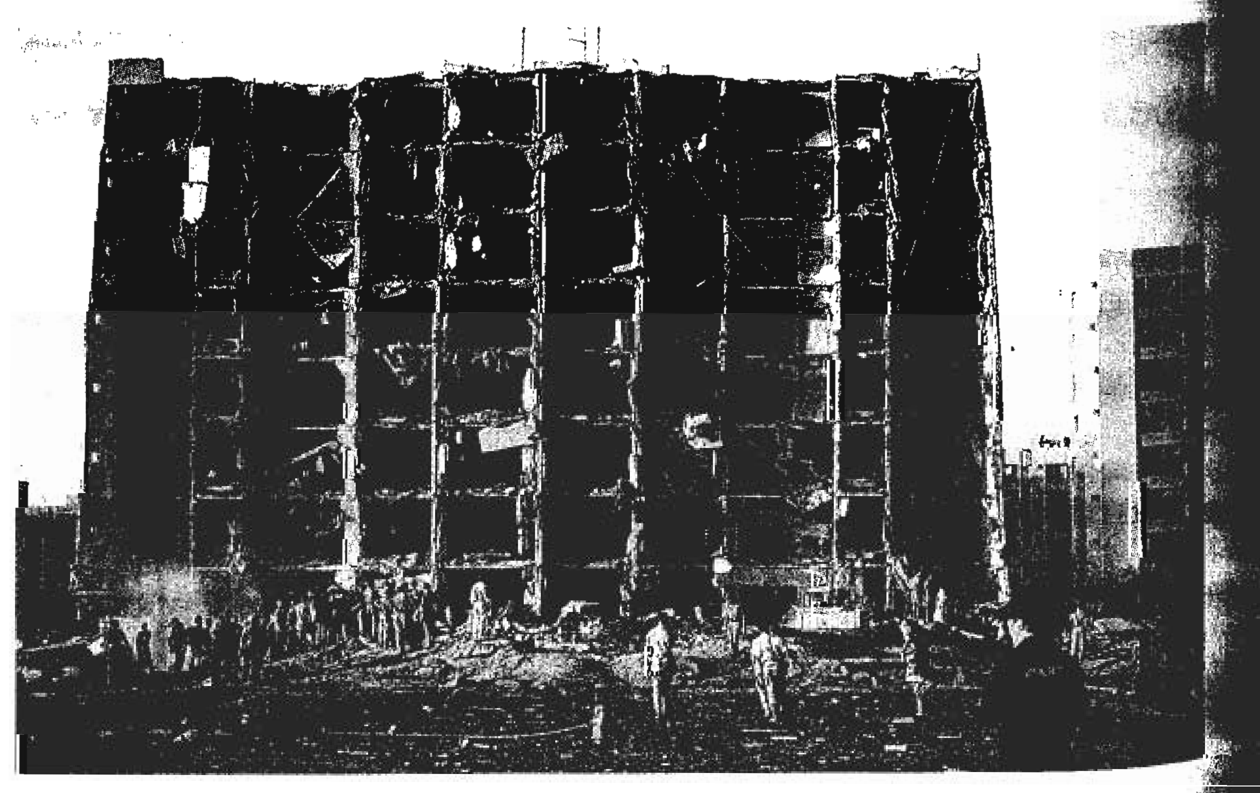
يتضح من تأمّلات بندر في حقبة كلينتون أنّ هناك انقساماً واضحاً بين كلينتون وحكومته، وهذا العامل هو الذي أثار مشكلة لدى بندر. فقد قيل إنّ بندر "أحبّ فنّ ربـــح المباريات في واشنطن ورأى أنّ بيل كلينتون نظيره الوحيد في ذلك"[4]. يتندّر جو رامـــسي، وهـــو صديق قديم لبندر وديمقراطي طوال حياته، على التشابه بين الرئيس الأميركـــي والأمير السعودي قائلاً: "كان يجب أن يكون وبين كلينتون وثيقي الصلة مـــثل لصّين؛ فهما متماثلان في أوجه عديدة. فبندر، على غرار كلينتون، يعتقد أنّه إذا تحـــدّث مع أحدهم مدّة كافية، يستطيع أن يجذبه إلى وجهة نظره. وهو يفاخر بذلك، وكـــذلك كلينتون". ولاحظ رامسي وهو يكبت ضحكته: "لعله لا يوجد حيّز كبير يكفـــي الأنا عند الاثنين، لكن بخلاف ذلك كنّا نعتقد أنّ ذلك يمكن أن يكون الزواج المثالي"[5].

في حين أنّ السياسة الخارجية كانت أكثر هدوءاً في أثناء إدارة كلينتون، لكن لم تكن صامتة تماماً. فقبل الساعة العاشرة من مساء 25 يونيو 1996، لاحظ ثلاثة حرّاس متمركـــزون علـــى سطح مبنى أبراج الخُبر في المملكة العربية السعودية عربة صهريج تـــتوقّف إلى جانب سور المجمّع المرتفع. كان هذا المجمّع يضمّ ألفي عسكري أميركي وعـــسكريين من المملكة المتحدة وفرنسا يعملون على فرض منطقة *حظر الطيران* التي

رعاها الأمم المتحدة في العراق ويعملون في قاعدة الملك عبد العزيز الجوية في المملكة. ثارت شكوكهم على الفور عندما شاهدوا رجلين يقفزان من الشاحنة ويستقلان سيارة ويبتعدان بسرعة. وكانت المنطقة محدّدة بالفعل كهدف محتمل لهجوم إرهابي؛ أدركوا بسرعة أنّ الصهريج قد يكون مفخخاً.

أرسل أحد الحرّاس تحذيراً باللاسلكي إلى القيادة الأمنية المركزية لسلاح الجوّ الأميركي[6]. وبدأوا بعد ذلك يطرقون على أبواب رجال سلاح الجوّ النائمين محاولين بشكل محموم إخلاء المبنى. وبعد أربع دقائق فقط، انفجرت الشاحنة المحمّلة بألفين وخمسمئة كيلوغرام من المتفجرّات، ومعزّزة بقنبلة حارقة، بقوّة شديدة جداً بحيث خلّفت حفرة قطرها خمس وثمانون قدماً وعمقها خمس وثلاثون قدماً. وسُمع صوت الانفجار على بعد عشرين ميلاً في البحرين. وأدّى هذا الهجوم الإرهابي إلى مقتل تسعة عشر رجلاً من سلاح الجوّ الأميركي وجرح خمسمئة أميركي وسعودي[7].

يتعدّى تفجير الخُبر مسألة تشويه العدالة. فهو فكرة جادّة أنّ الاعتداءات الإرهابية، المنتشرة في المجتمع اليوم، لم تظهر من لا شيء عندما تسلّم الرئيس بوش منصبه. فقد كان الاضطراب الشديد على شكل تعصّب ديني وسياسي، وإطار الهجمات الإرهابية المنظّمة والمموّلة، يجيشان تحت السطح في الشرق الأوسط في وجه



تم تدمير أبراج الخبر بقنبلة وزنها 2500 كيلوغرام

السياسة الخارجية الأميركية في التسعينيات. وقد تحدّث ريتش لوري عن هذا الواقع في كتابه **كلينتون والخُبر**. "لو كان كلينتون يقظاً ضدّ الإرهاب بقدر ما يقول - وسلّم سياسة ممتازة لمكافحة الإرهاب إلى إدارة بوش الخرقاء والمهملة — لاتضح ذلك في حالات مثل الخُبر. بدلاً من ذلك، نظرت إدارة كلينتون عن عمد بالاتجاه الآخر في أعقاب تفجير الخُبر وقدّمت ما يشبه الاعتذار إلى مرتكب الهجوم"[8].

غداة تفجير الخُبر، ظهر الرئيس كلينتون على الملأ متعهّداً "العمل على تقديم المسؤولين عن ذلك إلى العدالة"[9]. وأعلن أنّ مكتب التحقيقات الفيدرالي (أف بي آي) سيكلّف بالتحقيق في التفجير بالاشتراك مع السلطات السعودية وأنّه سيكون برئاسة مدير "الأف بي آي" لويس فريه. وكما يذكر فريه، كانت تعليمات كلينتون في الأيام الأولى للصدمة واضحة لا لُبس فيها. "استخدم الرئيس العبارة التي أشرنا إليها أنا والأمير في الغالب لاحقاً، *ألّا نترك حجراً دون أن نقلبه*. تلك كانت التعليمات"[10].

أُرسل مئة وعشرون عميلاً "للأف بي آي" إلى المملكة على الفور. وتبعهم مباشرة فريه الذي تركت في نفسه المتفجّرة أثراً عميقاً ودائماً. وصف كيف زار المشهد المروّع بعد الهجوم: "راقبت عشرات عملاء الأف بي آي عاكفين على تمشيط الحطام فيما الحرارة تبلغ تسعاً وأربعين درجة مئوية، ويتعاملون مع البقايا البشرية لشباننا الشجعان باحترام بالغ. جُرح أكثر من أربعمئة من رجال ونساء سلاح الجوّ في هذا الهجوم المدبّر بعناية، وقد شعرت بالتواضع أمام شجاعتهم وروحهم المعنوية. التقيت لاحقاً بأسر أبطالنا الذين سقطوا في الخُبر ووعدهم أن نفعل كل ما هو ضروري لتقديم الإرهابيين أمام العدالة الأميركية. وكانت الشجاعة والكرامة اللتان جسدهما هذه الأسر من أقوى التجارب التي شهدها طوال خدمتي الممتدة ستة وعشرين عاماً"[11].

كان ما نتج عن هذه البداية العازمة معركة قاسية ثلاثية الأوجه بين المملكة العربية السعودية والأف بي آي وإدارة كلينتون، حيث اجتمعت السياسة والعلاقات العامّة والسياسة الخارجية لتقيد ما كان يجب أن يبقى مسألة قصاص وعدالة.

في يناير 1997، انتقدت المدعية العامّة الأميركية جانيت رينو المسؤولين السعوديين علناً لأنّهم لا يتعاونون. وأبلغت وزيرة الخارجية مادلين أولبرايت بندر

بعبارات واضحة، "الولايات المتحدة تنتظر المساعدة التامّة من المملكة العربية السعودية في هذه المسألة". وردّاً على ذلك قال بندر إنّ المدعية العامّة تتدخّل في مسائل السياسة الخارجية، وردّت أولبرايت على ذلك بجفاء: "لا تخطئن يا سعادة السفير، الحكومة الأميركية موحّدة تماماً في هذه المسألة. جانيت رينو ولويس فريه مسؤولان عن التحقيق، ونحن ننتظر تعاونكم التامّ في إنجاز التحقيق. انتهى"[12].

لم تكن وزيرة الخارجية تدرك أنّها تضيع وقتها سدى. فقد قال فريه الذي عمل مع القيادة السعودية عن كثب عن بندر ودوره في فتح الأبواب أمام التحقيق، "كانت شخصيّته وشجاعته الأخلاقية ونزاهته في هذه القضية [انفجار الخُبر] أقوى من كل الفاعلين الآخرين في هذا الموضوع بأكمله. قال لي، *سأساعدك فيها وسنقوم بما هو صحيح هنا* ولم يتراجع عن ذلك قط، مع أنّه يعرض نفسه لخطر كبير كما أعتقد"[13].

في الحديث عن تفجير الخُبر وقرار مساندة التحقيق الذي يتولّاه "الأف بي آي"، أوضح بندر المنطق السعودي بعبارات ثقافية قائلاً: "لو كان الهجوم على منشأة سعودية، لغضبنا وتعاملنا معه بطريقة مختلفة. أما الهجوم على ضيوفنا، الموجودين هناك بناء على طلبنا، ويرتدون اللباس الرسمي - واللباس الرسمي يعني الكثير في المملكة العربية السعودية، فهو يمثّل دولة ذات سيادة - فذلك يشبه ما كانت عليه الأمور قبل ألف سنة إذا قدم إليك أعرابي وطلب حمايتك ومنحتها له، ثم جاءت قبيلة أخرى وقتلته - ذلك سبب فوري للحرب - إنّها مسألة شرف. لذا غضبنا، وبالتالي أسقطنا مباشرة كل العوائق السياسية والقانونية التي يتمّ التفاوض بموجبها أسابيع على حدود التحقيق. لم نأبه بشأن من يشارك وما العمل وأين، كنّا نريد فقط الوصول إلى من انتهك ضيافتنا وانتهك كرامتنا بالتعرّض لضيوفنا. هذا هو بيت القصيد".

كان إرسال "الأف بي آي" إلى المملكة السعودية مسألة خلافية. فبموجب الإجراء الأميركي القياسي، يمنع قيام "الأف بي آي" من العمل خارج الولايات المتحدة من دون الحصول على موافقة وزارة الخارجية. غير أنّ بيان الرئيس العلني الفوري في أعقاب التفجير سمّى مدير "الأف بي آي" فريه مشرفاً على التحقيق مع المسؤولية الشخصية والسلطة على متابعة الأمر حتى النهاية.

على الرغم من التنسيق الوثيق بين السفارة الأميركية ووزارة الخارجية، فقد كان مستوى السلطة غير العادية الممنوحة "للأف بي آي" في هذه الحالة مصدر انزعاج

لوزارة الخارجية، إذا لم يكن شيئاً آخر. وباعتراف فريه نفسه: "كنّا متقدّمين جدّاً على عمـل وكالات فرض القانون في الداخل، وحتى وكالاتنا الأمنية، في ظروف مماثلة". ولاحـظ: "كانـت وزارة الخارجية قلقة من هذا الأمر، ومن المهم أن نعمل معاً عن قرب، وهو ما فعلناه عبر السفارة هناك بالدرجة الأولى. لذا أعتقد أنّ الاحتكاك كان قليلاً مع وزارة الخارجية: لماذا يقوم "الأف بـي آي" بهذا الدور؟ الجواب أنّ الرئيس أراد القـيام بـذلك ووافقـت المملكـة على السماح للمكتب بإجراء هذا التحقيق بالاشتراك مع المباحث السعودية.

من التحدّيات التي واجهت "الأف بـي آي" في المملكة العربية السعودية تطوير علاقة عمل مع نظرائهم في المباحث السعودية. وأوضح فريه أنّه لم تكن هناك في ذلك الـوقت علاقات ملموسة بينهما، "كانت روما مقرّ ممثّل الأف بـي آي الذي يتعامل معهـم. وكان في كل عام يزور الرياض بضعة أيام ويلتقي بعض المسؤولين ويعود إلى رومـا، لذا لم تكن بيننا علاقة؛ لم يكن لدينا مكتب ارتباط هناك... وذلك خطأنا لا خطـأهم"[14]. على الرغم من هذه البداية الضعيفة، فقد تعاون "الأف بـي آي" مع المباحث بشكل وثيق وأقاموا علاقة عمل وطيدة. وساعد في هذه العملية وضع عملاء يتحدّثون العربية في المملكة وإرسال أفراد من المباحث إلى أميركا ليشهدوا رأساً أنشطة "الأف بـي آي" في الطبّ الشرعي والمختبر.

كان فريه يقدّر الثقافة العربية عالياً. ومن المعروف أنّ بندر كان يتهكّم على نظـرة إدارة كلينتون الجاهلة للعالم العربـي باعتباره "مجموعة من العربان الذين يعذّبـون الناس للحصول على اعتراف"[15]. لكنّ الأمير اكتشف لدى فريه آراء في الـسياسة الخارجية والحلفاء الشرق أوسطيين تنسجم مع آراء بوش وريغن، وذلك غـير مفاجـئ لأنّ فريه جمهوري يجاهر بانتمائه. أما فريه من ناحيته، فقد أظهر تقديراً كبيراً للنهج السعودي المنفتح تجاه المطالب التي قدّمها الأميركيون، "اعتقدت أنّ مـن الـوقاحة الافتراض أن نتولى الولاية القانونية على الفور ونرسل عملاءنا لـيجوبوا في الشوارع لأنّ أميركياً قد قتل. فنحن لا نسمح البتة لأي بلد بالقيام بـذلك هنا واعتقدت أنّ قيامهم بذلك أمر مهمّ حقّاً. أقصد أنّهم كانوا يتعاونون معنا بصورة استثنائية، وأعتقد أنّ الأميركيين ينظرون أحياناً إلى العالم بشكل مختلف قليلاً عما ينظر إليه الآخرون"[16].

بالمقابل، كانت وسائل الإعلام الأميركية مختلفة بشدّة عن فريه. فقد انتُقدت المملكة العربية السعودية علناً في الصحف بسبب عدم تعاونها. فأعلنت صحيفة ناشيونال ريفيو أنّ "ردّ الفعل السعودي على كل هجوم إرهابي على الولايات المتحدة للمملكة علاقة به في السنوات الأخيرة كان مزيجاً من التحاشي، والغشّ، والعداء السلبي. لقد أحبطوا التحقيق الأميركي في تفجير أبراج الخُبر في سنة 1996، لتغطية الدليل بالتأكيد على التورّط الإيراني، أراد السعوديون الحؤول دون انتقام الولايات المتحدة من إيران، فيما المملكة تحاول التقرّب من رجال الدين الإيرانيين"[17].

في ردّ على انتقاد وسائل الإعلام، استخدم فريه التشبيه التالي: "الانتقاد أنّهم لم يكونوا متعاونين لا يقوم على أساس جيد، كما أبلغت العديد من الأشخاص، إذ في وضع مماثل، لنقل إنّه حدث في إنكلترا ولنقل إنّ أميركيين قتلوا، سيكون لدينا بالتأكيد عميلان يجلسان في مكان ما من سكوتلند يارد. لكنّنا لن نخرج ونجري مقابلات، وفحوصات طبّ شرعي. لذا أعتقد أنّ المعيار الذي وضعوه [الصحافة] غير معقول وغير منصف"[18].

قبل عام على تفجير الخُبر، في نوفمبر 1995، قُتل سبعة أشخاص، بمن فيهم خمسة أميركيين، في تفجير مركز تدريب الحرس الوطني السعودي في الرياض[19]. اعتقلت السلطات السعودية أربعة رجال مسؤولين عن الهجوم اعترفوا أنّهم نفّذوه بإيحاء من أسامة بن لادن، وحاكمتهم وأعدمتهم. أثار ذلك ضجّة في الصحافة الأميركية التي اتهمت السعوديين بتعمّد قطع رؤوس هؤلاء الرجال قبل أن تتمكّن الولايات المتحدة من استجوابهم لتخريب التحقيق الأميركي[20]. وقد ظهر هذا الزعم مجدداً في أعقاب هجمات 9/11 عندما أشارت وسائل الإعلام بإصبع الاتهام إلى المملكة العربية السعودية. واتُهِمت المملكة باللامبالاة في مكافحة الإرهاب، وهي نقطة توضحها جملة غير صحيحة نقلتها صحيفة نيويورك تايمز أنّها رفضت "السماح للأميركيين باستجواب المشبوهين بتفجير أبراج الخُبر قبل قطع رؤوسهم"[21]. وكان المدانون بتنفيذ تفجير مركز الحرس الوطني هم الذين أعدموا، لا المشبوهين بتفجير الخُبر. لكن كما يقول بندر في الغالب، يمكن أن تصبح الأكاذيب حقائق بسرعة عندما تنشرها وسائل الإعلام.


لويس فريه، الرئيس السابق للأف بي آي

دعا فريه الذي درس الاستجواب الذي أجراه السعوديون لهؤلاء الرجال، ووصف إعدامهم "بالعدالة السريعة" موضحاً أنّ تفجير مركز تدريب الحرس الوطني هجوم محليّ. وشدّد على عدم وجود راعٍ أجنبي، لذا فهو شأن داخلي سعودي لا علاقة للقضاء الأميركي به. وخلص إلى أنّه جريمة سعودية، نفّذها سعوديون داخل المملكة العربية السعودية، وقُتل فيها للأسف أفراد وزارة الدفاع الأميركية الذين يعملون مع الحرس الوطني السعودي. وأضاف: "على الرغم من أنّه كانت لدينا مصلحة في التحدّث إليهم، فإنّها لم تكن مصلحة تمنعهم من تنفيذ عدالتهم". وأوضح فريه أنّ الفارق الرئيسي بين تفجيري الخُبر ومركز تدريب الحرس الوطني السعودي أنّ الأخير كان شأناً داخلياً تماماً لا صلات أجنبية له أو راعياً خارجياً. أما تفجير الخُبر فقد كان عملية إيرانية وهنا تكمن الصعوبة[22].

شهد فريه لاحقاً أنّ "الأف بي آي" أقام "علاقة عمل فعّالة" مع السعوديين بعد تفجير أبراج الخُبر في سنة 1996 [23]. كما أنّه شهد إيجاباً أربع مرّات على الأقل بشأن التعاون السعودي في أثناء تحقيق الخُبر وألقى العديد من الكلمات التي أعاد فيها التأكيد على اعتقاده أنّ الدعم السعودي "كان استثنائياً حقاً ولا أعتقد أنّهم حصلوا على الاعتراف الملائم بفضلهم".

عند تفصيل هذه التعليقات، لاحظ فريه، "ثمّة أمران استثنائيان بشأن تعاون المملكة العربية السعودية مع الولايات المتحدة. أولاً، اكتشاف تورّط إيراني على مستوى عالٍ جعل المملكة العربية السعودية معرّضة لمخاطر الانتقام من أي إجراء متخذ ضدّ إيران أكثر من الولايات المتحدة. ثانياً، مقدار المساعدة التي وافق السعوديون على تقديمها، على الرغم من التهديد الإيراني - لقد وافقوا على القاعدة 15، وهي إجراء قانوني أميركي يتمّ بموجبه تسجيل الإفادات والأدلة التي يدلي بها الشهود في المملكة العربية السعودية، بحضور مدّعين أميركيين، ومحامي المتهم، وقاضٍ أميركي، وإعادتها إلى الولايات المتحدة واستخدامها في أي محاكمة أميركية".

تعبّـــر ملاحظات فريه عن حجم هذه الموافقة. "كنت مدعياً لمدة اثني عشر عاماً، والمـــرّة الوحـــيدة الـــتي أجريت ذلك بنجاح كانت قضية مخدّرات وافقت الحكومة السويـــسرية فيها على ذلك الإجراء. السعوديون تخطّوا التعاون كثيراً، كانوا عازمين علـــى مساندة ادّعائنا". وتابع قائلاً إذا لم يكن ذلك مفاجئاً بحدّ ذاته، "فإنّه استثنائي أكثـــر لأنّهـــم بذلك يعرّضون أنفسهم وبلدهم لخطر شديد في ما يتعلّق بالإيرانيين". وأضـــاف فـــريه: "إنّي واثق من أنّك سمعت أنّ ذلك لم يكن هجوماً شنّه حزب الله الـــسعودي، لقد كان هجوماً موّلته ونفّذته القيادة العليا للحكومة الإيرانية من الخارج"[24]. وعـــزّز ذلـــك الرأي لاحقاً عندما قال: "بإتاحة هؤلاء الشهود أمام الأف بـــي آي مباشرة، كان السعوديون يدركون أنّهم يساعدون على تقديم الدليل على أنّ مسؤولين إيـــرانيين كباراً في الحكومة الإيرانية مسؤولون عن هجوم الخُبر. وعلى الرغم من هذه المـــسائل الحسّاسة جداً والمعقّدة، فقد وضع السعوديون مصالحهم جانباً لمساعدة الأف بـــي آي في الولايات المتحدة"[25].

علـــى الرغم من المخاطر، لم يضعف التزام بندر بالعدالة في هذه القضية، وسارع فريه إلى الإقرار بدوره قائلاً: "رأينا أنّ تلك خطوة جريئة جداً أقدم عليها السعوديون وبندر على وجه الخصوص. كان بندر يكشف نفسه من الجانبين، كان يكشف نفسه أمـــام الإدراة [كلينتون] وأمام رؤسائه والعائلة، والسبب في ذلك، كما لا أزال أعتقد، أنّـــه رأى أنّ ذلـــك هو العمل الصحيح. وقال عدة مرات، لأنّه تحدّث، بصورة غير مباشرة، لكنّه تحدّث عبر أشخاص آخرين إلى العائلات ووعدهم أن يبدوا تعاوناً تاماً. وقد وفى بوعده. كان يعتبر الوعد الذي قطعه جاداً جداً وقد التزم به"[26].

تأكّدت جهود بندر لتحقيق العدالة عندما قال فريه: "كان بين الفينة والفينة يقام حاجـــز على الطريق أو تظهر عقبة قانونية، وهو أمر نتوقّعه بسبب الاختلافات الجلية بـــين نظامينا القانونيين والإجرائيين. وعلى الرغم من التحديات، كانت هذه المشاكل تحلّ دوماً بتدخّل الأمير بندر الشخصي ودعمه المتواصل للأف بـــي آي"[27]. وأوضح ذلـــك بقوله: "بفضل تدخّل الأمير بندر، سُمح لعملاء "الأف بـــي آي" بالتوجّه إلى أحـــد الـــسجون في المملكة وإجراء مقابلات وجاهية، من دون شهود سعوديين، مع مواطـــنين ســـعوديين ارتكبوا جريمة ضدّ الأميركيين في المملكة، وذلك أمر استثنائي بالنـــسبة إلي. كـــنّا بحاجـــة إلى الوصول مباشرة إلى هؤلاء الأشخاص لأنّ اعترافاتهم

وشهاداتهم حاسمة في دعم الادعاء"[28]. مع ذلك لم يُمنَح أي عميل "للأف بـي آي" مثل هذا الوصول غير المسبوق إلى مواطن سعودي محتجز، ومثل هذا الوصول يمكن أن يشوّه الادعاء بموجب الشريعة الإسلامية[29].

لم يكن ذلك الاختلاف الوحيد بين الردين الأميركي والسعودي على تفجير الخُبر. فالتعهّد الذي قطعه بندر قدّمه كلينتون أيضاً إلى الشعب الأميركي وعائلات القتلى. لكن، كانت هناك عقبة واحدة على الإدارة الأميركية تخطيها في سعيها وراء العدالة في هذه القضية: التقدّم إلى القيادة السعودية بطلب رسمي للحصول على الأدلة. وذلك أمر حيوي كي يتمكّن السعوديون من الوقوف في وجه إيران: إذا طلب الأميركيون المعلومات منهم بصورة رسمية، سيبدو ذلك أفضل بالنسبة إلى الإيرانيين من أن تتقدّم المملكة من تلقاء نفسها بالإشارة إلى أنّ إيران هي المنفّذة. وأكّد فريه: "أبلغني بندر والأمير نايف أنّ الإيرانيين يقفون خلف التفجير؛ أنّ *الإيرانيين فعلوا ذلك*". ووفقاً لفريه، كانوا يقولون إنّ لديهم شهوداً موقوفين يؤكّدون ذلك. "أبلغونا أن في وسعنا الوصول إلى هؤلاء الشهود، لكن علينا أن نطلب ذلك وأن نكون جادّين بشأن عواقب الحصول على المعلومات، والمفارقة أنّ آثارها المعاكسة على السعوديين أكبر من آثارها علينا".

ولاحظ فريه: "يقول الأميركيون إنّ أميركيين قد قُتلوا، ولكن قُتل العديد من السعوديين أيضاً، وفقدتهم عائلاتهم. ما أثاره بندر في تلك الفترة، وأعتقد أنّه طرحه بشكل أفضل من كثيرين غيره، هو، *تعرف يا لويس أنّ الإيرانيين فعلوا ذلك، ونحن نعرف أنّ الإيرانيين فعلوه، وحكومتك تعرف ذلك. لذا فإنّنا ننظر لنقرّر ما الذي سنفعله جميعاً في هذا الصدد، وإذا قلنا إنّنا نعرف ما جرى هنا لكنّنا لن نتابعه، فإنّنا نرسل رسالة خطرة جداً للدعاة في ذلك البلد. الأمر لا يتعلّق بهذا الهجوم فحسب*".

قال فريه: "كان بندر حكيماً وبارعاً جداً في تحليله عندما قال، *الحكومة الإيرانية تمثّل تهديداً للملك فهد - تهديداً عسكرياً على مقربة منا. وبإعطائكم الدليل الذي يتيح لكم ملاحقة الإيرانيين، فإنّنا نعرّض أنفسنا لخطر كبير، سياسي وغير سياسي، بسبب ما فعلناه. غير أنّكم إذا لم تردّوا وتجاهلتم هذا التهديد، فإنّكم تعرّضون الجميع للخطر، لا السعوديين فحسب، وإنّما الجميع*. كان ذلك ذكيّاً حقاً، نظرة واسعة جداً، نظرة عالمية إلى الإرهاب"[30].

منذ البداية، أوضح السعوديون الأمر بجلاء: "سنبلغكم ونبلغ عملاء السيد فريه ونضع الدليل في متناولكم، لكن إذا أردتم هذا الدليل عليكم أن تطلبوه: وإذا طلبتموه سنقدّمه لكم". أظهرت لغة جسد فريه إحباطه الشديد وهو يقول جازماً: "المشكلة الكبيرة التي واجهناها في تقديم هذه القضية لم تكن في الجانب السعودي؛ كانت في الجانب الأميركي، إذ لم نستطع حمل قيادتنا، الرئيس أو نائب الرئيس، على طلب الدليل".

وتابع فريه: "لم يطلبوا الدليل البتة، ولم نستطع حملهم على مساندة قضيّتنا مع السعوديين، ولم تكن بحاجة إلى ضغط؛ كل ما كانت تحتاج إليه طلب أن يتاح الشهود أمام الأف بي آي. دوّنا نقاطاً يبحثها الرئيس وأعطيناها إلى مستشار الأمن القومي ساندي بيرغر. لكن ما سمعناه من بندر وآخرين أنّ هناك اجتماعاً مع ولي العهد، لكنّهم لم يطلبوا رسمياً الوصول إلى هؤلاء الشهود، وذلك محبط جداً"[31].

تجاهلت وسائل الإعلام الأميركية حكم فريه المهني إلى حدٍّ ما، وتابعت الإفادة من أنّ "فريق الأف بي آي في المملكة العربية السعودية اشتكى من عدم إتاحة فرصة الوصول أمامه إلى الدليل السعودي الرئيسي"[32]، وأغفلت أنّ الإدارة الأميركية هي التي حجبت الدليل عن "الأف بي آي" بصورة غير مباشرة.

نشأ الادّعاء أنّ السعوديين يعيقون تحقيق الخُبر عن سلسلة من البيانات الصحفية الصادرة عن البيت الأبيض والتي أعطت الانطباع أنّ الإدارة تقوم بكل ما تستطيع القيام به، ولكن عبّرت عن ذلك بلغة خاصة جداً. في الاقتباس التالي من مقالة إلسا والش، "قضية فريه الأخيرة"، عندما أجرت مقابلة مع ساندي بيرغر بشأن تفجير الخُبر، التشديد من عندنا ويرمي إلى إبراز كيف أنّهم لم يطلبوا الدليل البتة داخل هذه الصورة الوردية جداً للجهود الأميركية: "أبلغني ساندي بيرغر الذي أصبح مستشار الأمن القومي في إدارة كلينتون أنّ كلينتون كتب إلى الملك فهد والتقى بأخي الملك، ولي العهد الأمير عبد الله، في نيويورك، **وحثّهم شخصياً** على التعاون. وأضاف بيرغر أنّ *وزيري الدفاع والخارجية قدّما **مناشدة شخصية** إلى القيادة السعودية*"[33].

أُقحِم بندر في هذه اللعبة من التلاعب على الألفاظ. وكما أوضح فريه: "كان الأمير بندر في الوسط؛ فقد أبلغ ولي العهد أنّ الرئيس ونائب الرئيس سيتقدمان بذلك الطلب، وبعد ذلك اجتمعا ولم يتقدّما به. إنّني واثق من أنّ ولي العهد قال له، *ما الذي*

يجري هنا؟!"[34]. وقد أبدى الأمير انـــزعاجه من هذه المسألة بوضوح، ملمّحاً إلى أنّ نفاق مساعدي كلينتون كان عقبة دائمة.

قـــال جورج تينت، مدير وكالة الاستخبارات الأميركية السابق، عن فريه: "في الخُبر يمكنك أن ترى قيم فريه بوضوح"[35]. وقد كافح فريه في الواقع تحت عبء هذه النكسات. ولأنّه يدرك عواقب التورّط الإيراني في تفجير الخُبر على السياسة الخارجية الأميركـــية، قـــال لساندي بيرغر: "إذا أردتنا أن نوقف هذا التحقيق إذ يجب علينا ألا نـــتدخّل في السياسة، لا بأس في ذلك. الشيء الوحيد الذي استثمرته في هذا التحقيق أنّكـــم طلبـــتم مني إجراء التحقيق وأبلغت العائلات أنّني سأبذل كل ما أستطيع. إذا تغيّـــرت الأمـــور الآن، فـــإنّني أتقبّل ذلك، لكن عندئذ عليّ أن أتوجّه إلى العائلات وأبلغهم أنّني لم أعد أستطيع القيام بذلك... لن أبلغهم لماذا، لكن عليّ أن أبلغهم لأنّني جلست معهم يومين وهم يبكون... وأبلغتهم أنّني سأبذل كل ما في وسعي. الآن إذا تغير موقف الجانب الأميركي، فلا بأس، لكن عليكم أن تخبروني بذلك"[36].

غـــير أنّـــه لم يصدر أمر مباشر إلى فريه بإنهاء تحقيق الخُبر ولاحظ بندر أنّه كلما ذُكـــر اسم فريه، اضطرب ساندي بيرغر، وأنّه قال في وقت ما إن ليس لدى فريه أي حـــس سياســـي وأنّـــه، "لا يفقه شيئاً في السياسة الخارجية ويمكن أن يدفع الولايات المتحدة إلى الحرب"[37].

كان بندر في تعاملاته مع ساندي يدرك جيّداً حقل الألغام الذي يمثّله تحقيق الخُبر للـــسياسة الخارجية. ففي أثناء إحدى زيارات فريه المبكّرة إلى المملكة، انتحى به بندر جانباً وقال له بصراحة: "لدينا الدليل، لكنّني سأكون نـــزيهاً معك، إنّنا لا نريد متابعة الأمـــر من الناحية السياسة، لا نريد أن نُتّهم بدفعكم نحو الحرب". كان الأمير يدرك بوضـــوح أنّ الأسلوب الشُّرَطي في قضية الخُبر يخاطر بحدّ ذاته بإحداث ضغط لتوجيه ضـــربة عسكرية، وكذلك كان البيت الأبيض الذي "غضب عندما تابع فريه الحقائق، وسو رئيس الجهاز الأول في مكافحة الإرهاب، وعمله يحتّم عليه متابعة الحقائق"[38].

بما أنّ مسؤولي البنتاغون كانوا يقولون من دون الكشف عن أسمائهم إنّ مجموعة مـــن خارج المملكة أو حكومة أجنبية هي التي تقف وراء التفجير، وإنّهم يحقّقون في علاقـــات العـــراق أو إيران بذلك، كان بيرغر حذراً من إقامة ارتباط مباشر بإيران، وبخاصـــة أن وزيـــر الدفاع وليام بيري قال: "إذا تبيّن لنا أنّ هناك بلداً آخر كمصدر

للتفجير، فإنّ علينا الانتقام"[39]. في 2 أغسطس 1996، ألمح بيري، في حديث إلى وسائل الإعلام، إلى تورّط إيراني في الهجوم وذكر أنّ حجم المتفجّرة وتعقيدها يدلان على وجود تورّط دولي في هذا الاعتداء[40]. وباعتراف بيرغر نفسه: "كان بندر يسأل دائماً، *أخبروني ما الذي ستفعلونه بالمعلومات إذا شاركناكم بها*"[41]. من الواضح أنّ السعوديين كانوا قلقين بشأن مدى تعطّش الأميركيين إلى العدالة وعواقب أن يتسرّب إلى العلن أنّ شخصيّات بارزة في القيادة الإيرانية تقف وراء تفجير المنشأة الأميركية.

لم يكن الوضع غير مألوف بالنسبة إلى الأمير بندر. ففي الفترة الممهّدة لحرب الخليج، عُهد إليه تحديد مدى العزم الأميركي قبل أن يوافق الملك فهد على السماح بمجيء قوات أميركية إلى المملكة العربية السعودية. فالمملكة لا يمكنها تحمّل إزعاج إيران، لا في ذلك الوقت ولا في شأن الخُبر، من دون دعم أميركا مئة بالمئة. وكما أشار في إحدى المقابلات في معرض الحديث عن العديد من الهجمات التي نفّذت في المملكة العربية السعودية: "إنّهم لا يهاجمون الغربيين. إنّهم يهاجموننا لأنّنا أصدقاؤكم"[42]. لكن في حين أنّ إدارة بوش وقفت بقوّة خلف حلفائها السعوديين، فإنّ إدارة كلينتون أدارت ظهرها لهم.

عندما أحبط فريه، أخذ الأمور على عاتقه. ومن دون علم كلينتون المسبق[43]، طلب من الرئيس السابق جورج إيتش دبليو بوش التدخّل لدى السعوديين، ودبّر غداء في يوم سبت في منزل بندر في مكلين بين الرئيس السابق وولي العهد الأمير عبد الله. يذكر فريه الحدث وكلمات الرئيس السابق: "قال، *يسعدني أن أقوم بذلك*، لكنّه أضاف، *هل سيوقعك ذلك في مشاكل؟* فأجبت، *لا يهم، عليّ أن أتقدّم بهذا الطلب ولا يسعني التوجّه إلى أحد سواك للقيام به*"[44].

يوم الاثنين الذي تلا هذا الغداء، دعا ولي العهد فريه، والسفير ويتش فاولر، وديل واطسون، رئيس مكافحة الإرهاب في "الأف بي آي"، إلى الاجتماع به في مكلين. هنا أوضح فريه مجدداً ما الذي كان يُطلب، مشدّداً على أنّ "الأف بي آي" لم يكن بحاجة إلى المعلومات فحسب، وإنما إلى الموافقة السعودية على استخدامها كدليل أيضاً. أبلغ ولي العهد الأمير عبد الله: "إنّني أعتزم استخدام تلك المعلومات لتوجيه الاتهام إلى أشخاص، بمن فيهم أياً يكن من أستطيع توجيه الاتهام إليه في إيران، بالمسؤولية عن هذه الجرائم". ووفقاً لفريه، التفت ولي العهد إلى بندر وقال: "اتصل

بأخي واطلب منه أن يتيح للأف بـــي آي مقابلة هؤلاء الشهود"[45]. هكذا بعد سنتين من التقيّد بالبيروقراطية، حصل "الأف بـــي آي" على ما عرضه السعوديون وحاولوا منحهم إياه منذ وقوع الهجوم.

نتـــيجة لهذا التعاون، وجّهت وزارة العدل اتهاماً رسمياً في 22 يونيو 2001 لثلاثة عـــشر متهماً سعودياً بقتل تسعة عشر أميركياً في تفجير الخُبر[46]. واشتمل الاتهام أيضاً على ما مجموعه ثلاث وثمانون إشارة إلى الحكومة الإيرانية[47]. وكان ذلك اليوم نفسه آخر أيام لويس فريه كمدير لمكتب التحقيقات الفيدرالي (أف بـــي آي). وبعد أيام، انتهت فترة التقادم القانونية عن معظم التهم الجرمية.

كـــرّر بندر طوال التحقيق سؤال الإدارة إذا كانت تريد حقاً المعلومات التي يحـــتاج إليها فريه بشدّة. وأوضح بندر عواقب الحصول على المعلومات وعدم فعل أي شيء بها بجلاء: يجب اتخاذ إجراء أو من الأفضل لجميع الأطراف عدم الكشف عن الأمر. لكن المفارقة أنّ وزارة الخارجية الأميركية كانت مشغولة في التودّد إلى إيـــران. وقد ظهرت رغبة إدارة كلينتون في إصلاح العلاقات مع إيران على شكل إشـــارات صـــغيرة واختلافات متكتّمة، ولكن يمكن تحديدها بوضوح في الخطاب واللغـــة الرسمية. كما أنّ الأميركيين قلّلوا أمام الرأي العام من شكوكهم أنّ إيران متورّطة في تفجير الخُبر[48].

من الإشارات القوية على لين الإدارة في تحقيق الخُبر ما اتضح عند حدوث خرق كبير في تحقيق "الأف بـــي آي" في مارس 1997. فقد أوقف الكنديون هاني الصايغ، وهـــو ســـعودي شيعي ومشتبه أنّه مراقِب وفقاً لأقوال المحتجزين الآخرين في المملكة. حرص فريه على جلبه إلى واشنطن لاستجوابه باعتباره الحلقة البشرية الأولى في سلسلة قـــد تقود إلى المنفّذين. لكن في سبتمبر 1997، استبعدت وزارة العدل توجيه الاتهام، وذكرت رفض المتهم التعاون والافتقار إلى شهود الإثبات. وقد أفيد أنّ بندر أبلغ أحد معارفه أنّ البيت الأبيض تلقّى هذا التطوّر كأنّه "هدية من السماء"[49].

في سنة 1997 تزايد اقتناع السعوديين أنّ الإدارة تعمّدت ترك التحقيق يسير على غـــير هدى فيما ركّزت جهودها على تحسين الروابط مع الحكومة المعتدلة في إيران، علـــى الرغم من أنّ العداء لأميركا هو الموضوع الأساسي لحشد الجماهير بالنسبة إلى النظام الإيراني، وأنّ إيران تجاهلت العروض الأميركية بشكل متكرّر.

"يجب ألا يفلت الجبناء الذين ارتكبوا هذا العمل الإجرامي من العقاب"[50]. كانت هذه كلمات الرئيس كلينتون فور معرفته بتفجير الخُبر. وزُعم أيضاً أنّ "الهجوم على العسكريين الأميركيين في الخارج ليس مجرّد جريمة. بل هو عمل حربي"[51]. مع ذلك، على الرغم من قوة هذه البيانات العلنية وتزايد الأدلة أنّ إيران هي الراعي الأجنبي لتفجير الخُبر، فقد اختارت الإدارة الأميركية تخفيف التحذير من السفر إلى إيران، ورفع العقوبات عن شركات النفط الأجنبية العاملة في إيران، وأخيراً رفع إيران عن لائحة المصدّرين الرئيسيين للمخدّرات[52].

شدّد بندر على الاختلاف بين الإدارات الجمهورية السابقة والموقف الواهم شديد التسييس لإدارة كلينتون. "لو كان جورج إيتش دبليو بوش أو ريغن رئيسين وأصرّا، مثلما أصرّ فريق كلينتون، علينا لكشف كل أوراقنا بشأن كل ما لدينا، وإذا توفّر الدليل الذي حصلوا عليه بشكل مستقل، لتمّ غزو إيران. إنّني واثق من ذلك".

في تقييم واضح لما حدث داخل البيت الأبيض في ذلك الوقت، لاحظ الأمير بمدّة: "أرادت إدارة كلينتون الربح في الجانبين. قلت، *يمكننا وقف هذا التحقيق في مرحلة معيّنة وتولّي ما تبقّى منه. لدينا أشخاص أمسكنا بهم، ولدينا أيضاً أشخاص نعتقد أنّهم ضالعون لكنّهم ليسوا في قبضتنا لأنهم فارّون، واستناداً إلى ما نعرفه الآن، سنقوم بمعاقبة من أمسكنا بهم وسنبحث عن الفارّين. وإذا ألقينا القبض عليهم، سنعرف حتماً من يقف خلف الأمر ثم سنتخذ إجراء سياسياً أو عسكرياً ونغلق القضية*". لكن إدارة كلينتون لاذت بالصمت، باستثناء البيانات الصحفية بين الحين والآخر[53].

في أبريل 1999، أصدر الرئيس كلينتون بياناً يمدّ فيه يده إلى إيران بشكل صريح. كان ردّ فعل فريه على هذا التودّد لمهندسي تفجير الخُبر متوقّعاً. هزّ رأسه وقال: "الرسالة التي نبعث بها إلى إيران هي أنّنا سنتسامح معهم على إرسال عملائهم، وهم عملاء قادرون ميدانياً، لأنّنا نريد علاقة أفضل بهم. لم يبدُ ذلك معقولاً بالنسبة إلي، ولا بالنسبة إلى بندر، لا من الناحية الأخلاقية أو الناحية السياسية. ومع ذلك، هذا ما كنّا نقاتل لأجله طوال تلك المدّة". وكان فريه يشير إلى اعتقاد "الأف بي آي"، مدعوماً بأدلّة جيّدة، أنّ الإيرانيين كانوا يرسلون عملاء نشيطين لوزارة الاستخبارات والأمن إلى الولايات المتحدة بتعيينهم في مناصب اسمية كمدرّبين لفرق المصارعة

الإيرانية. وقد زُعم أنّه طلب وقف أخذ بصمات هذه الفرق وتصويرها لأنّ الولايات المتحدة تريد تحسين العلاقات[54].

بعــد سنتين، اقتنع فريه أنّ الإدارة تخلّت عن كل مصالحها في التحقيق في انفجار الخُبر. ويبدو أنّ الثابت الوحيد في تفجير الخُبر هو السياسة الأميركية المائلة نحو طهران. ففــي أثــناء التحقــيق، أجرى عملاء "الأف بــي آي" مقابلات مع ثمانية مواطنين ســعوديين حــدّدت الحكــومة السعودية أنّهم منفّذو التفجير. في الحديث عن هذه المقــابلات، قال فريه: "اعترفوا بتواطئهم في هذا العمل، وكشفوا عن صلة مسؤولين إيــرانيين كبار في تمويل الهجوم وتخطيطه". وأكّد فريه أيضاً أنّ رواياتهم يؤيّدها شهود وأدلــة أخــرى. أخــيراً، أشار إلى أنّ المشبوهين سمّوا أيضاً أعضاء الوكالة العسكرية والإعلامــية الــذين ساعدوا في انتقاء الخُبر كهدف، ودفعوا تكاليف تدريب المجموعة والمتفجّرات"[55].

شــعر بــندر بالحزن من أنّ ردّ فعل ساندي بيرغر المفاجئ على المعلومات التي كــشف عــنها فريه أنّ هناك إصبعاً إيرانية على الزناد مؤشراً لا لبس فيه على كيفية تعامــل الإدارة مــع قــضية الخُبر. فهؤلاء المشبوهون لم يؤكّدوا تورّطهم في الهجوم فحسب، بل وصفوا أيضاً كيف أمر الإيرانيون بالهجــوم ودعموه وموّلوه[56]. وقال بندر: "لقد شهدت أنا وفريه أسوأ سوء استغلال للسلطة! عــندما كانوا يدفعون ويضغطون، ثم أعطيناهم ما يضغطون للحصول عليه، بدلاً من أن يهلّل ســاندي بيرغــر ويقــول، *لديكم المعلومات، ولديكم أداة التنفيذ، هيّا بنا نردّ*، قال، ***من يعلم بــذلك أيضاً؟*** فكّرْ في ذلك من ناحية تاريخية. مــن *يعلــم بذلك أيضاً*؟ بعبارة أخرى، إذا لم يكن هناك أحد آخر يعلم به، أبق فمك مغلقاً. ومــا الــذي نتحدّث عنه؟ إنّها أرواح أميركية فُقــدت. والسياسيون الأميركيون يقولون إنّنا نــريد الانــتقام مــن ذلك، أياً تكن النتائج!



ساندي بيرغر، مستشار الأمن القومي خلال إدارة كلينتون

ويقولــون *لمن*؟ لعائلات الذين قتلوا!". كيف يمكن التوفيق بين موقف البيت الأبيض وكلمــات كلينتون عند تبلّغه نبأ التفجير، "يجب ألا يفلت الجبناء الذين ارتكبوا هذا العمل الإجرامي من العقاب. دعوني أقول مجدداً: سنلاحقهم. فأميركا تهتم لأبنائها"[57].

شــدّد بــندر على أنّ فريه كان غاضباً. وأوضح بندر منذ ذلك الحين بشكل لا لــبس فيه أنّ بيرغر أراد من فريه الاحتفاظ بالمعلومات لنفسه، قائلاً ما معناه: "إذا لم يكــن هناك أحد آخر يعلم بذلك [تورّط الإيرانيين]، أبقِ فمك مغلقاً. وعلّق بندر أنّ ذلــك يــناقض تماماً ردّ فعل كلينتون الأول على التفجير. "كانت كلمات كلينتون المحــدّدة، *أيــاً تكن النتائج، لا يهمنا، الأمر لا يتعلّق بالسياسة*. وعندما عُرفت ما هي النــتائج، قالوا، *من يعلم بذلك أيضاً؟*". وعزّز بندر هذا التعليق بشكل متكرّر كما في مقابلة مع "السي أن أن"، عندما ذكر بوضوح: "انهارت الأمور لأنّنا عندما وصلنا إلى اللحظــة الحرجة. عندما كانت واشنطن تقول لنا، *أعطونا كل شيء أيّا تكن النتائج*، كــنّا نقــول لهم، *ربما لن يعجبكم ما ستحصلون عليه!* وأخيراً عندما اطلعوا على ما لدينا، أفلتوا الكرة وهذا هو حيث نحن الآن"[58].

إن الخــوف من الإرهاب السائد جداً اليوم لم يخرج من كهف في أفغانستان في ســنة 2001. فقــد كان يختمر تحت السطح في الشرق الأوسط منذ مدة طويلة، وما تفجــير الخُبر سوى مؤشّر صارخ على هذا التهديد. في ذلك الوقت وصف أسامة ابن لادن قــتل تسعة عشر أميركياً من سلاح الجوّ أنّه "جدير بالثناء". غير أنّه جرى تجاهل تفجــير الخُــبر، وألقــت وســائل الإعلام الأميركية اللوم في ذلك على عدم التعاون الــسعودي. وقال أحد الخبراء في الإرهاب: "قدّم تفجير الخُبر المفاتيح التي فتحت عالم الإرهاب الجديد. فكل ما تحتاج إلى معرفته عن شبكة الإرهاب الجديدة، والتعاون بين كل الطوائف والفئات، وصعود التطرّف في المملكة العربية السعودية - كان موجوداً في تلك القضية"[59].

قال فريه عن دور بندر في تحقيق الخُبر، "كنت محظوظاً جداً لكسب ثقة وتعاون الأمــير بندر بن سلطان الذي كان دوره حاسماً في تحقيق أهداف الأف بــي آي من التحقــيق في قضية الخُبر. ونظراً إلى دعم بندر وجهوده الشخصية، تمكّن الأف بــي آي من إقامة مكتب له في الرياض". وشدّد فريه: "وبناء على تلك العلاقة وملاحظاتي والأحكــام الــتي كوّنتها في تلك الفترة، فإنّني أعتقد أنّ لدي وصفاً قوياً ودقيقاً جداً

وقدرة على وصف شخصيّته وأهمية الدور الذي لعبه في تلك النتيجة. وأعتقد أنّه كان محـــورياً في إحقاق العدالة وضمان بقاء العلاقات بين بلدينا في هذه المسألة على المسار الصحيح"[60].

يتناقض المديح الوافر الذي أغدقه فريه على التعاون السعودي ودور بندر الصُّلب مع الاتهامات التي أوردها كتاب **العصر المقدّس للإرهاب** (*The Sacred Age of Terror*) لدانيال بنجامين وستيفن سايمون، وكلاهما عملا لدى مستشار كلينتون للأمن القومي، ساندي بيرغر. فقد زعما أنّ بندر خدع فريه وأوهمه أنّ البيت الأبيض غير مهتمّ كثيراً في محـــاولات فـــريه المحمومة لحل تفجير أبراج الخُبر وضلّل فريه مراراً. كما ادّعى أنّ "قضية أبراج الخُبر فاقمت الحقد بين فريه وفريق الأمن القومي لدى كلينتون، ما أعاق جهـــود الحكـــومة لمكافحة الإرهاب"[61]. أخيراً، خلصا إلى أنّ الأمير كان يرمي من تـــضليل فريه إلى "بذر الشقاق بين الحكومة"، وأنّ هذا التضليل قاد فريه إلى الاستنتاج أنّ البيت الأبيض غير مهتم كثيراً بالقضية التي كان شديد الالتزام بها[62].

مـــن الناحية العملية، أصبح إضعاف التحقيق في أبراج الخُبر المثال الأوضح على انعدام الثقة الطويل والعداء المستحكم بين كلينتون وفريه، وهو عداء ذو جذور عميقة وصفها سندي بلومنتال في كتابه، **حروب كلينتون** (*The Clinton Wars*): "تعامل لـــويس فـــريه طـــوال سنوات مع البيت الأبيض كعدوّه، وبدا أنّ عداء فريه ونوّابه مستحكم بكلينتون"[63]. وفي أثناء التحقيق، ظهرت العداوة بين البيت الأبيض و"الأف بـــي آي". وأفيد عن أنّ كراهية فريه للرئيس تحوّلت إلى صدع عميق وأنّ "عدم ثقته بالبـــيت الأبيض ازدادت قوة بحيث أعمته وجعلته عرضة للتلاعب به"[64]. وقد نشأت تلك العداوة في جانب منها من دعم فريه الشخصي للمجلس المستقل للتحقيق في جمع أمـــوال الحـــزب الديمقراطي في أعقاب فضيحة حملة كلينتون – غور المالية. ومن غير المفاجـــئ أن يفـــاد أنّ البيت الأبيض يكره "الأف بـــي آي" وكان فاتراً بشأن متابعة قضية الخُبر[65].

عندما أبلغت الرئيس كلينتون عن مزاعم فريه اللاذعة بشأن تعاون البيت الأبيض مـــع تحقيق الخُبر، صمت لحظة قبل أن يجيب بقوة: "هل رأيت ردّ دانيال بنجامين على ذلـــك، أعتقد أنّه لدي هنا". ففي رسالة إلى محرّر صحيفة وول ستريت جورنال بشأن تفجـــير الخُبر والبيت الأبيض، رأى بنجامين أنّه في ما يتعلّق بتفجير الخُبر وانتقاد فريه

الـرئيس كلينتون والبيت الأبيض، شرع فريه في "قضية عداء شخصي تتصاعد ببطء" وأنّ مديـر "الأف بـي آي" السابق كان مخادعاً في الإيحاء أنّ إدارة كلينتون رفضت دعـم الادعـاء [على إيران كراعية لتفجير الخبر] والإشارة إلى أنّه كان على الادّعاء انتظار الإدارة الجديدة لتوجيه التهم الجرمية عن هذه الجرائم[66].

بعد ذلك شرع الرئيس كلينتون في دحض شخصي بارد ومتعمّد لادّعاءات فريه قـائلاً: "طلـبت شخصيّاً من ولي العهد السماح للأف بـي آي بمقابلة المشبوهين. ولـويس فريه كاذب". وضرب كلينتون الغاضب بقبضته على مكتبه. "إنّه جمهوري متعصّب من الجناح اليميني، وقد أفسد الأف بـي آي. اتصل اثنان من أعوانه الكبار بالأف بـي آي قبل 9/11 وقالا، *لدينا هنا عرب يقودون الطائرات ولا يتدرّبون على الإقـلاع أو الهـبوط*، ولم يـتم فعل شيء حيال ذلك في مقرّ قيادة الأف بـي آي المركزي. كل ذلك موجود في الصحافة، هذه هي طريقة لويس فريه في تحريف الأمور [انتقاد]".

وقال كلينتون مؤكّداً أنّ طريقة تعامل فريه معه عندما فاز الجمهوريون بالأغلبية في الكونغـرس كانت بمثابة تكتيك تحويلي صرف، "لويس فريه هو أسوأ من عيّنته في منصب على الإطلاق ولا أصدّق كل ما يقوله". وزعم الرئيس السابق أنّ فريه "تعرّض لنقد شديد من الجمهوريين لأنّهم لم يحلّوا تفجير أطلنطا؛ وخسروا أموالاً نقدية كبيرة في عملـية ضبط للمخدّرات؛ وأفسدوا الكثير من الأشياء في مختبراتهم للطب الشرعي؛ ونـسفوا تماماً بعض القضايا الكبرى الأخرى". وعلّل كلينتون الآن أنّ فريه قرّر عندما فاز الجمهوريون اليمينيون في الكونغرس أنّ أفضل طريقة لنيل حظوة لديهم وإبعادهم عن مضايقته "هي مهاجمتي من خلال الأف بـي آي وهو ما فعله. وما قاله لك ليس صحيحاً البتة!".

وأوضح كلينتون أن لا إدارته ولا إدارة بوش وجّهت الاتهام إلى أي إيراني. وقد اعتـرف أنّ الإدارتين كانتا تعلمان أنّ الإيرانيين يدعمون حزب الله السعودي، وقال: "تخلّص السعوديون من الأشخاص المتورّطين في العمل. وأعتقد صراحة أنّهم ربما كانوا متـردّدين في أن يـصبح ذلك [الخُبر] سبباً لحرب بين الولايات المتحدة وإيران. لكنْ، لـيس صحيحاً أنّنا لم نحاول تسهيل ذلك التحقيق. وقد طلبت شخصياً من ولي العهد وهـذا هـو ردّ دانيال بنجامين على مقالة لويس فريه. لقد وضع بنجامين كتاباً عن

الإرهـــاب حظـــي بتقدير كبير، وكان أحد العاملين في قسم الإرهاب في إدارة الأمن القومي". ثم ناولني كلينتون نسخة من ردّ بنجامين وقال: "إنّ ما يقوله هنا هو الحقيقة. ويمكن أن تنسب إليّ كل ما يقوله هنا"[67].

بالعـــودة إلى إحـــباطات التحقيق في تفجير الخُبر وجوره والطريقة التي عومل بها فريه من قبل رؤسائه السياسيين، لاحظ بندر بطريقة تهكّمية أنّ كلينتون، الذي أعيقت تـــسميتيه الأولِيين لمدير الأف بـــي آي، انتقى فريه مديراً لذلك المكتب لأنّه اعتقد أنّ ذلك سيرضي الجمهوريين. "انتقاه لأسباب سياسية؛ وهو عميل سابق للأف بـــي آي عيّنه جورج إيتش دبليو بوش قاضياً. فبعد أن واجه مشكلة مع مرشّحيه الأولين لإدارة الأف بـــــي آي، فكّر في تعيين أحد يُظهر أن ليس لديه ما يخفيه. لم يبالِ لويس فريه بالنـــتائج وكرهه كلينتون لأجل ذلك. في تحقيقي وايت ووتر ومونيكا لوينسكي، لم يبذل القاضي لويس فريه قصارى جهده للإساءة إلى بيل كلينتون، لكنّه استخدم نفوذه للتدخّل في عملية التحقيق".

وقال بندر عن التحقيق: "كان مستشارو كلينتون يشيرون إليه بالقول، *لا، علينا التطلّع إلى الكونغرس، والعائلات، والرأي العام*، لكن ما أزعج فريه أكثر من أي شيء آخـــر هـــو أنّهم جعلوه يعد عائلات الذين قُتل أبناؤهم بألا يدع حجراً من دون أن يقلـــبه، وأن يمـــضي حتى النهاية. وبعد ذلك أدرك أنّهم كانوا يكذبون عليه لأنّهم لا يريدون الذهاب بعيداً إلى ذلك الحدّ. إنّنا جميعاً أولاد كبار في السياسة، لكنّنا منحناهم الطـــريقة للتوقّف حيث وصلوا، قبل أن يتفاقم الأمر إلى أزمة عالمية خطيرة، فرفضوا". وفي الهـــام للألعاب التي مارسها فريق كلينتون قال الأمير: "أرادوا النجاح في الأمرين: أرادوا أن يظهـــروا كأنّهم مستعدّون للمضي قدماً حتى النهاية، لكن عندما تبيّنت لهم العـــواقب، قالوا، *إنّ لويس فريه مجنون! ليس لديه حسّ سياسي. لماذا يفعل ذلك؟* لم يكن هو الذي يفعل ذلك، بل هم الذين دفعوه لهذا الأمر".

وفي خلاصـــة رأيـــه عـــن كيفية تعامل إدارة كلينتون مع فريه قال بندر: "لقد اســـتغلّوه. رأوا أنّ لديه مصداقية، وأنّه جمهوري، وكان قاضياً، وأنّه مدير الأف بـــي آي. لكنّهم استغلّوه قائلين، *توجّه إلى العائلات وانظر إلى عيونهم مباشرة وقل، أبلغني الـــرئيس أنّنا سنمضي في متابعة هذه القضية حتى نصل إلى المجرمين أيًا تكن النتائج*". وخـــتم بـــندر: "صدّق لويس ذلك ثم اكتشف أنّه يكذب على هؤلاء الأشخاص لأنّ

صانع القرار لم يكن يقصد ذلك. وهذا مصدر الصدام، شعر لويس بالألم لأنّه استُغلّ. كــان يعتقد أنّ مسؤولية الحكومة القصوى هي حماية شعبها". وما لم يتمّ قوله هو أنّ إدارة كلينتون فشلت في حماية الشعب الأميركي.

إنّ انحسار الأضواء عن بندر في واشنطن في حقبة كلينتون سمحت له بالشروع في اثـنين من أعظم المنجزات الدبلوماسية في حياته المهنية: تقديم مفجّري(*) لوكربـي، وتـسهيل رفع عقوبات الأمم المتحدة عن ليبيا(**) في ما بعد، وهما إنجازان تحققا على الرغم من شكوك الحكومتين الأميركية والبريطانية العميقة. امتُدح عمل بندر في قضية لوكربــــي كتطبيق مثالي للدبلوماسية الخلاّقة. فقد كان الأمير يسبح عكس تيارات المــناخ السياسي التي حالت دون إحراز أي تقدّم خلال عشر سنوات وحقّق النجاح في مهمّة مخيفة تحاشاها العديد من رجال الدولة.

في سنة 1995، لجأ العقيد معمّر القذافي إلى المملكة العربية السعودية للمساعدة في حــل نــزاع لوكربــي الطويل، والعالق في طريق مسدود منذ سبع سنوات. أوضح رحاب مسعود، مفوّض الشؤون السياسية في السفارة السعودية في واشنطن دي سي، ومــرافق بــندر في رحلاته العديدة الذي حضر كل الاجتماعات بين الأمير والفاعلين الأساســيين في مفاوضات لوكربــي، أنّ مصالح المملكة العربية السعودية في مساعدة ليبيا تنبع من الإحباط من عدم إحراز تقدّم في القضية الفلسطينية، وأشار أنّ ولي العهد الأمــير عــبد الله كــان قد تولّى للتوّ المقاليد بعد تعرّض أخيه الملك فهد لسلسلة من الــسكتات في ســنة 1995. وعند الحديث عن الخلاف المستحكم بشأن لوكربــي، لاحظ مسعود: "كان ذلك مدخلاً جديداً إلى القضايا العالمية. كانت الأمور سيّئة جداً في عملــية السلام في الشرق الأوسط. وكنا بحاجة إلى حلحلة شيء ما". لكنّه قال إنّ إحــضار الــولايات المــتحدة والمملكة المتحدة إلى طاولة المفاوضات لم يكن سهلاً. وأوضــح أنّ إحجــام الدولــتين عن السعي للتوصّل إلى حل سببه الشواغل الداخلية

(*) فــي 21 ديــسمبر 1988، بعيد السابعة ببضع دقائق، انفجرت قنبلة في البدن الأمامي لطائرة رحلــة بانــام 103 فوق بلدة لوكربي الاسكتلندية الهادئة. وأدّى ذلك الانفجار إلى مقتل مئتين وسبعين شخصاً من عشرين بلداً، وفي وقت مبكّر من التحقيقات اللاحقة، ربطت الأدلة عميلي استخبارات ليبيين بالتفجير.

(**) فرض مجلس الأمن الدولي عقوبات على ليبيا في سنة 1992 – حظراً على السفر وبعض قطع الغيار – للضغط على طرابلس كي تسلّم مشبوهين مطلوبين في تفجير لوكربي.

بالدرجـــة الأولى. فقـــد اعـــتقدت إدارة الرئيس كلينتون أنّ القضية خلافية ومن غير الحكمـــة الـــتعامل معها فيما الانتخابات تلوح في الأفق، في حين أبلغ رئيس الوزراء الـــبريطاني، جـــون ميجور، السعوديين أنّه إذا انخرط في القضية فسوف يلتهمه جناح تاتشر في حزبه ويستخدم اليسار ذلك لإضعافه في الانتخابات القادمة[68]. وعندما رأى الـــسعوديون الواقـــع الـــسياسي في واشنطن ولندن، لم يَكن أمامهم من خيار سوى التراجع.

في ســـنة 1997، تغيّـــر المشهد السياسي في الغرب. في مايو 1997، أصبح زعيم حـــزب العمـــال طوني بلير رئيساً للوزراء وكان بيل كلينتون في بداية ولايته الثانية - والأخـــيرة. في تلـــك اللحظة وجدت المملكة العربية السعودية، كما يقول مسعود، الفرصة سانحة للتغلّب على العقبات التي أعاقت الجهود الأولى لإيجاد أرضية مشتركة. لكن المملكة كانت تدرك أيضاً أن حظوظها في المفاوضات ضعيفة في أحسن الأحوال. كانـــت المملكـــة العربية السعودية بحاجة إلى سلاح سرّي، شخص من طراز خاص ويتمـــتّع بالمـــنعة السياسية. وأوضح مسعود: "وهل يوجد رمز أفضل من مانديلا؟ إنّه تجسيد للمبادئ الأخلاقية"[69].

في أكتوبر 1997، في أثناء توقّف في الطريق إلى اجتماع رؤساء الحكومات الذي ســـيعقد في أدنـــبره باسكتلندا - غير بعيد عن مكان انفجار الطائرة المنكوبة - توجّه نلـــسون مانـــديلا إلى ليبيا في زيارة رسمية حظيت بتغطية إعلامية واسعة، مع ما يحمله ذلك من مخاطر إغضاب القوى الغربية[70].

عـــندما تحـــدّثت مـــع مانديلا عن الرحلة إلى ليبيا، ضحك ووصف كيف تمت الـــرحلة. في أعقاب الإعلان عن جولته المزمعة للقاء ببعض الأصدقاء القدامى، ومنهم القذافي وعرفات وكاسترو، نصحته واشنطن بقوة بعدم الذهاب. وقد شدّد على ذلك بإحـــساس مميّز بالفخر الممزوج بالكرامة في صوته قائلاً: "قالوا، *لا تذهب إلى القذافي؛ إذا ذهـــبت إلـــيه فسنتخذ إجراءات جادة ضدّك*. قلت، *بإمكانكم القيام بذلك، أنني ذاهب إلى القذافي*. الأميركيون متعجرفون، كما تعلم، وذهبت ولم يحدث شيء"[71].

في أثـــناء هـــذه الـــزيارة في سنة 1997 إلى طرابلس فاتح مانديلا القذافي بشأن تـــسويته المقترحة: إمكانية محاكمة المشتبه بهما في قضية لوكربـــي في بلد محايد. وفي مقابـــل تـــسليم الليبيين المشتبه بهما، أبلغ مانديلا القذافي أنّ الأمم المتحدة تدعو لإنهاء

العقــوبات المفروضــة علــى ليبيا. وكان مانديلا قد اقترح هذه التسوية بالفعل على الرئيس كلينتون ورئيس الوزراء طوني بلير، بدعم نظري من القذافي، وبعد ذلك تمكّن الــزعيم الإفريقــي الكبير من استخدام منبر محادثات أدنبره للحصول على دعم أوسع لمــبادرته. وكحافــز إضافي، قدّم مانديلا في طريق عودته من أدنبره إلى القذافي أعلى وسام تمنحه جنوب إفريقيا، وسام الرجاء الصالح المُذهب، في 29 أكتوبر.

عندما قدّم مانديلا وسام الرجاء الصالح إلى العقيد القذفي، وفي أثناء امتداحه أيــضاً أنّــه "زعــيم أخلاقي ضد الاضطهاد"، أسبغ على الزعيم الليبــي سلطة أخلاقية، وبالتالي قدّم له الموقف المبدئي الذي يمكن أن يفاوض منه القذافي. وأكّد جــيكس جيرول لاحقاً أنّ ذلك كان جزءاً من استراتيجية مانديلا قائلاً: "الخطأ الــذي يرتكبه العديدون بشأن القذافي، وحكومتنا منهم، أنّ من الأفضل جعله في صــفّك بدلاً من معاملته كشخص غريب الأطوار لا يفهم في السياسة. وقد أدرك مانديلا ذلك جيداً. ثمة جانب ساذج في القذافي؛ فسياسته بأكملها تستند إلى هذه الشخصية الدونكيشوتية. لذا فإنّ منحه وساماً من قبل مانديلا يعني الكثير بالنسبة إليه. كان يثق بنا. والقيام بذلك يجعله يدرك أنّنا نحترمه، ولكن عليه أن يحافظ على كلمته معنا وأن نتصرّف بكرامة"[72].



شكّل احترام معمر القذافي لمانديلا دفعاً حاسماً للتغلب على مأزق لوكربي

غـــير أنّ الحصول على ثقة القذافي كان جزءاً فقط من استراتيجية مانديلا. فقد خاطب القذافي بقسوة مراراً، مطالباً أن يظهر احترامه للأمم المتحدة. ولاحظ مساعدو "الأخ الزعيم" أنّه لم يُوبَّخ البتة على هذا النحو من قبل، وذهلوا من قسوة مانديلا[73]. غـــير أنّ القـــذافي، احتـــراماً لزميل ثوري نضج ليصبح رجل دولة يحترم العالم، تقبّل الانتقاد بشجاعة.

كان من الواضح أنّ إدراك مانديلا الحاجة إلى احترام الخصم، وذلك شيء ورثه مـــن زمـــن وجوده في السجن، يعني الحثّ على اتباع استراتيجية ذات أسس سياسية وأخلاقـــية ســـليمة في قضية لوكربـــي. وقد ساعد ذلك بدوره جهود بندر وجيروِل التكتيكية، ما أدى إلى نهاية ناجحة لما اعتُبر مهمّة مستحيلة حتى الآن.

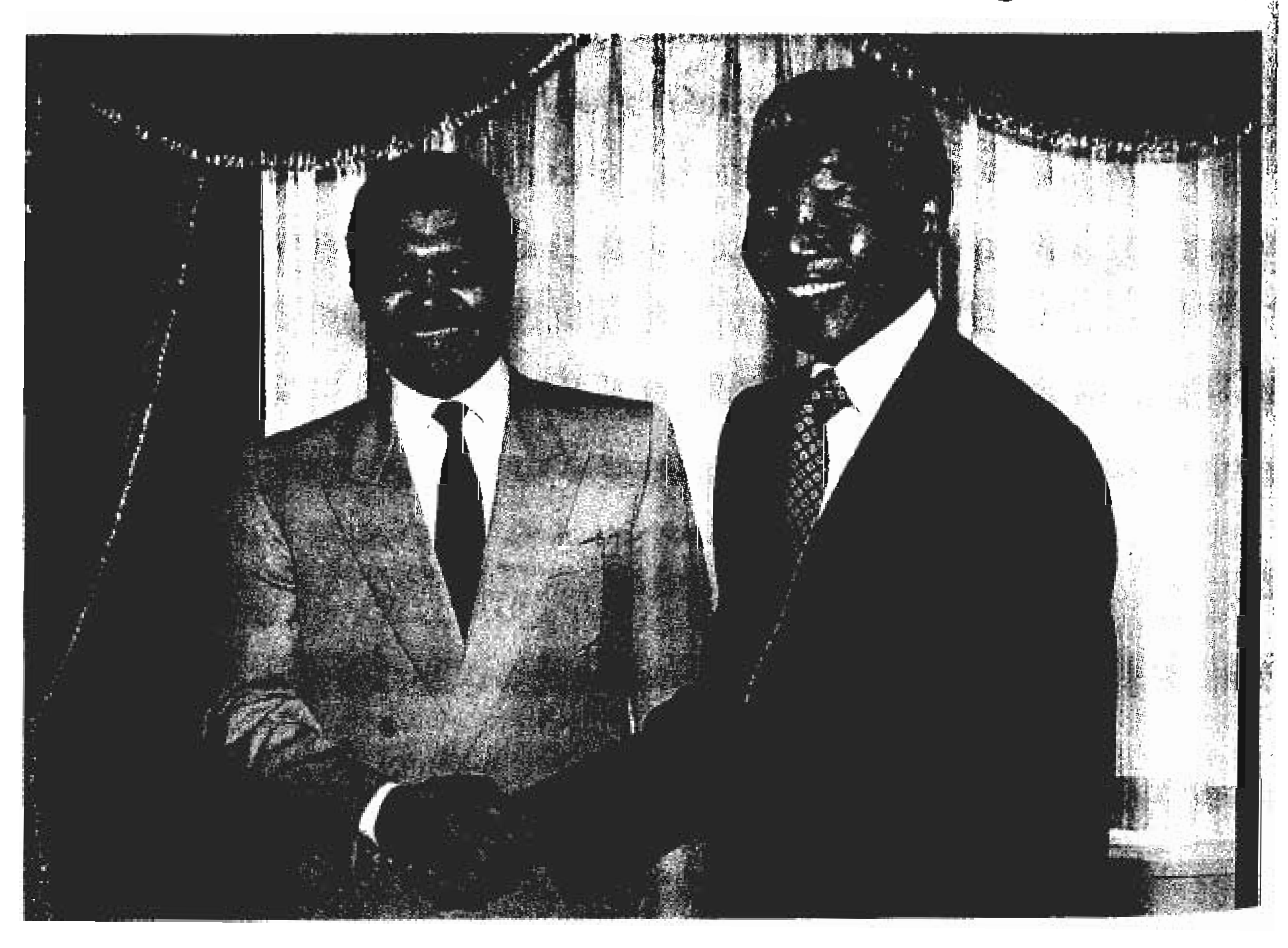
بُعيد تقديم مانديلا وسام الرجاء الصالح إلى القذافي، أُطلِق مساران دبلوماسيان توأمان أثمرا في نهاية المطاف عن إنهاء استعصاء قضية لوكربـــي. فبناء على اقتراح من ولي العهد الأمير عبد الله، فاتح بندر الزعيم الجنوب إفريقي للتعبير عن حماسته للتسوية المقترحة وعرض المساعدة؛ فوافق مانديلا بسرعة. عندما أجريتُ مقابلة مع جـــيروِل بـــشأن لوكربـــــي اعترف: "بدأنا المفاوضات بعد خطاب مانديلا في طرابلس. فقد فاتَحَنَا السعوديون ليقولوا إنّهم مهتمّون، ورأينا أنّ من المفيد العمل معهـــم لأنّ السعوديين قريبون من الأميركيين. ووجودهم يضفي شيئاً من الراحة والاعتدال".

أوضح مسعود في تقييم حسنات هذا الزواج السياسي، "عند النظر إلى ذلك من وجهـــة نظـــر محلّـــل سياســـي، كانت الولايات المتحدة وبريطانيا بحاجة إلى تغطية خاصـــرتهما اليسرى. وهنا تكمن قوّة مانديلا. ونحن نوجد في يمين الوسط. لذا فكّرنا أنّ في وسعنا في ما بيننا تقديم الدعم السياسي الذي يسمح للرئيس الأميركي فضلاً عن رئـــيس الـــوزراء الـــبريطاني التعامل مع هذه القضية". فالمملكة تحمل الورقة العربية الإسلامية، ولمانديلا علاقات جيدة جداً مع بريطانيا، لذا كان التصوّر أنّه بوجود بندر داخـــل الدائرة السياسة والاجتماعية في واشنطن، فإنّ هناك فرصة كبيرة لنجاح هذا المزيج السرّي[74].

بعـــد ذلك، كوّن جيروِل وبندر فريقاً للقيام بسلسلة من الزيارات إلى ليبيا، والولايات المتحدة، والمملكة المتحدة، والأمم المتحدة، وقد عُقِدت محادثات سرّية

علـــى مدى خمسة عشر شهراً من دون أي إعلان. وعمل جيرول وبندر معاً على تجمـــيع التـــرتيبات اللوجستية لاتفاق لوكربـــي. وفي مقابل رفع عقوبات الأمم المتحدة التي كانت تشلّ ليبيا في ذلك الوقت، تتمّ محاكمة المشتبه بهما، عبد الباسط علي المقراحي والأمين خليفة فحيمة وفقاً للقانون الاسكتلندي في محاكمة محايدة في هولندا.

في مارس 1998، زار الرئيس كلينتون الرئيس مانديلا (اسمه المفضّل الآن ماديبا*) في جوهانسبورغ. يذكر جيرول: "كان كلينتون في زيارة دولة هنا، وكان الأمير بندر في البلد أيضاً. اجتمع ماديبا مع الرئيس كلينتون وأثار قضية لوكربـــي معه. وفي أثناء ذلـــك، دعـــونا بندر للانضمام إلى الاجتماع. ظننت أنّ من المهم أن يسمع كلينتون القصّة الحقيقية كما هي. وقد فوجئ ماديبا عندما اكتشف أنّ رئيس الولايات المتحدة لم يكن على اطلاع تامّ على الأمر بأكمله".



بندر ونلسون مانديلا

(*) يطلـــق على نلسون مانديلا اسم ماديبا في جنوب إفريقيا. وهو لقب شرفي اعتمده الذكور القدامى في قبيلة مانديلا. لكن ثمة ماديبا واحد بالنسبة إلى مواطني جنوب إفريقيا.

قـــال جـــيرول مبتسماً: "كاد مستشار الأمن القومي ساندي بيرغر يصاب بنوبة قلبـــية لأنّ الـــرئيس يـــتحدّث في شيء لم يُطلع عليه من قبل"[75]. وأيّد مسعود رواية جـــيرول، وكان حاضراً أيضاً الاجتماع، وأكّد لاحقاً أنّ الرئيس بدا غير مطلع على الـــتقدّم الـــذي أحـــرز في مفاوضـــات لوكربـــي. وأوضح مسعود أنّه عند حصول الاجـــتماع، كانت ليبيا قد قدّمت بالفعل تعهّداً خطيّاً بقبول المحاكمة بموجب القانون الاســـكتلندي، ووافقـــت علـــى سجن المتهمين في اسكتلندا إذا أُدينا. وقال: "بل إنّ الرئيس لم يكن على علم أنّ لدينا هذه الالتزامات الخطيّة"[76].

يعـــتقد بندر أنّ ساندي بيرغر ربما لم يطلع الرئيس كلينتون على مبادرة مانديلا بـــشأن لوكربـــــي حتى جاء اجتماع جنوب إفريقيا. فقد كشف سابقاً أنّه يعتقد أنّ فـــريق كلينتون لم يكن يخدم الرئيس جيّداً لأنّه يفرط في حماية رئيسه. وعندما قابلت كلينـــتون وســـألته إذا لم يكن قد اطلع على رسالة كتبها مانديلا إلى بيرغر قبل عدّة أشـــهر عن "اتفاق مبدئي" تمّ التوصّل إليه مع القذافي ولم يتمّ الردّ عليها، تجنّب الرئيس السابق السؤال، فلم ينفِ ولم يؤكّد. وقال: "كان القذافي يريد إنهاء القضية، لكنّه كان في موقف حرج في ذلك الوقت لأنّ المطلوب تسليمهما إلى المحاكمة ينحدران من قبيلة مختلفة. لذا كان من الصعب عليه تسليمهما من دون أن يحدث بعض الأسى السياسي في ليبـــيا". وأوضح كلينتون أنّه أبلغ مانديلا رغبته في رفع العقوبات وتطبيع العلاقات مـــع ليبـــيا بعد حل لوكربـــي وقضية أسلحة الدمار الشامل. ولاحظ: "لكن لم تكن هناك طريقة يمكن أن تجدي، بصرف النظر عما يرغب في دفعه لتعويض الضحايا، من دون تسليم المتهمين إلى المحاكمة"[77].

ناشـــد مانـــديلا، كمـــا قال، الرئيس كلينتون التصالح مع كوبا وإيران أيضاً. وأوضح مسعود لاحقاً: "كانت صورة أميركا في المنطقة تعاني من العقوبات الممتدة من البحر المتوسّط إلى خليج البنغال: لبنان وسوريا والعراق وإيران وباكستان والهند. وهـــناك عقوبات على ليبيا وعقوبات على السودان. قلنا لكلينتون: "بالله عليك، لا يمكـــن إدارة سياسة خارجية تعاقب الشعب يميناً ويساراً، ثم تنتظر لترى كيف تسير الأمـــور. عليك إشراك الناس؛ هذا هو مفهوم السياسة الخارجية بأكمله"[78]. لم يتم الكشف عن ردّ فعل كلينتون، لكن سياسته الخارجية اتبعت أسلوباً أكثر إشراكاً في ما تبقى من ولايته.

كان التهديد الأكبر لنجاح اتفاق لوكربـي مناخ الشك وانعدام الثقة القائم بين القـذافي والغرب. فعلى الرغم من موافقة كلينتون وبلير والقذافي نظرياً على الشروط المقترحة، فإنّ أميركا وبريطانيا كانتا تشكّان في صدق الليبيين والتزامهم. وكان القذافي بـدوره متـردّداً في المخاطرة بتسليم المشتبه بهما، اعتقاداً منه أنّ مساعي المفاوضات مؤامـرة لـتدمير ليبيا، واقتناعاً أنّ "الإمبرياليين" الغربيين سيتراجعون عن دورهم في الصفقة.

وخلال المفاوضات الطويلة، واجه جيروِل وبندر العديد من المواقف الصعبة. قال جيروِل: "لن أرغب في العيش في بلده؛ فلديه أفكار غريبة عن كيفية سير العالم". لكنه كان مقتنعاً أنّ لدى القذافي إحساساً قوياً بالكرامة والعزّة. "كان يتصل في وقت متأخّر من الليل ويسأل إذا كان يمكننا التحدّث مجدداً. لقد كان متعباً في هذه المسألة"[79].

في أثـناء المفاوضـات، طبّق كل طرف مواطن قوّته. كان نلسون مانديلا يطلع كلينـتون وبلـير على المسار، فيما انخرط بندر وجيروِل في مهمّة تهدئة القذافي كثير الـشكوك والـذي لا يمكن توقّع موقفه في الغالب. وقد ظهر دليل على هذا التقلّب بصورة غير متوقّعة في أثناء مقابلة مع طوني إدواردز، الذي كان مسؤولاً عن مشروع الـيمامة. أوضح إدواردز كيف اتصل به بندر عصر أحد الأيام وخلال الحديث الذي دار لاحقـاً قال: "أتعرف إلى أين أنا ذاهب غداً؟ إنّني ذاهب إلى ليبيا لمقابلة القذافي، *القائـد العظيم*". وأوضح إدواردز: "أبلغني كل شيء عنه، ما يحبّ، وكيف لا يمكنك أن تعرف مزاجه، وماذا سيقول، أو ماذا سيفعل، وكيف يجب عليك أن تكون صبوراً جـداً وتنتقـي اللحظة المناسبة". وحاول في الواقع أن يجرّب عليّ ما سيقوله له بشأن السبب الذي يدعوه إلى تسليم المشتبه بهما[80].

في هذه المرحلة، كانت طائرة بندر الخاصة تقوم بأشواط منتظمة حول العالم من جـنوب إفريقيا إلى الولايات المتحدة، وبريطانيا، وتونس، وإلى ليبيا في مراحل لاحقة. وطـوال هذا البرنامج كثير التطلّب، أثبت الرئيس مانديلا أنّه الشخص المحوري الذي أبقـى الجميع حول طاولة المفاوضات. وفيما كنّا نناقش تكرّر زيارات بندر وجيروِل إلى ليبـيا ومنها، أوضح جيروِل أنّه لم يكن في وسعك الطيران إلى ليبيا مباشرة بسبب العقوبات. وأنّه في معظم الأوقات كان يسافر إلى لندن أو الرياض أو جدة للقاء بندر، وكانـا يطـيران معـاً في طائرة الأمير إلى تونس، وبعد ذلك تكون بانتظارهما رحلة

تـــستغرق أربــع أو خمس ساعات إلى طرابلس. وصاح قائلاً إنّها "لم تكن رحلة مسلّية"[81].

أكّـــد الأمير فيصل بن تركي، صهر الأمير بندر، وكان يرافقه في رحلاته إلى ليبيا في أثـــناء مفاوضـــات لوكربـــي، رواية جيروِل عن المهمّات الأولى عبر تونس. "كنّا نـــركب حافلة - في رحلة تستغرق خمس ساعات إلى طرابلس - إذ لم تكن الطائرة تـــستطيع الهبوط في ليبيا في ذلك الوقت بسبب عقوبات الأمم المتحدة". وتابع فيصل: "وبعـــد ذلك كنّا نقابل القذافي، لكن في بعض الأحيان كان يمرّ يومان قبل أن يقابلنا، وكان علينا أن ننتظر".

وتحدّث فيصل عن دور مانديلا: "كان جيكس يحضر الاجتماعات لكنّه لم يكن يتحدّث كثيراً، كان يحضر كممثّل لجنوب إفريقيا في المفاوضات. لكنّها كانت بحاجة إلى وزن، لـــذا كان لدينا الرئيس مانديلا، بسبب مكانته ولأنّه القائد الأكبر في العالم" وتابـــع فيصل: "إذا حاول القذافي التراجع عن شيء، كان مانديلا يتدخّل، تعرف كم كـــان فـــصيحاً". وخـــتم بالقول: "تعرف كيف تكون الأمور مختلفة عندما يتحدّث مانـــديلا مع القذافي. كان الأمير بندر مهذّباً فعليه التحلّي بالدبلوماسية، لكنّك تعرف مانديلا!"[82].

في الحـــديث عن طول المفاوضات، قال جيروِل إنّه يعتقد أنّه توجّه إلى طرابلس بـــرفقة بـــندر ما بين عشر وخمس عشرة مرة، وأوضح أنّ معظم الاجتماعات كانت تعقد في خيم. وفي إحدى المرات، كانت الخيمة منصوبة قرب بقايا مقرّه الرسمي الخالي مـــنذ ضـــربته قنبلة أميركية قبل عقد من الزمن. وقال جيروِل: "يعمل العقيد بطرائق غـــريبة. كـــنّا نصل إلى طرابلس ونلبث ننتظر وننتظر، وكنّا نتناول أكواباً صغيرة من الشاي. وفجأة تصلنا رسالة أنّ علينا التوجّه إلى مطار طرابلس وأن نطير من هناك إلى مكـــان الاجـــتماع. لقد عقدنا عدة اجتماعات مع العقيد في عدة أماكن، ولأنّه كان يحملـــنا على السهر حتى ساعة متقدّمة من الليل، قال له بندر ذات مرة، *علينا أن ننهي هذه المسألة؛ فقدومنا أنا وجيكس إلى هنا ليس مزحة*"[83].

أيّـــد هذه الرواية الدكتور سعيد الكرمي الذي يذكر كيف أخذ القذافي حاشية بندر ذات مرة إلى مركز اجتماعات خرِب: "كان المكان غير لائق، وقد أبقوا الحاشية تنتظـــر هناك ساعات قبل أن يأخذوها إلى خيمة في الصحراء عند العصر". وأضاف:

"كان من المفترض أن يغادروا في تلك الليلة، لكنّه طلب منهم البقاء لإنهاء الحوار، لذا اضطر الفريق إلى البقاء حتى اليوم التالي بالملابس نفسها"[84]. وكشف فيصل أنّ الليبيين تعمّـــدوا وضع أجهزة تنصّت في غرفهم. "كانوا يستمعون إلى كل شيء؛ كان ذلك غير معقول البتة. كان في وسعك أن ترى أجهزة التنصّت. لذا كنت أنا ورحاب نخرج ونكـــتب أشـــياء مثل، *لنغادر هذا المكان*، لكن رحاب كان يقول بعد ذلك، *عليك التحلّي بالدبلوماسية يا فيصل*"[85].

قالـــت الأميرة ريما، ابنة بندر وزوجة فيصل: "كان فيصل سريع الغضب في ذلك الوقت، وعديم الصبر، وشديد الإقدام، أما الآن فلا شيء يزعجه"[86]. وأكّد فيصل: "لم أعد كذلك بسبب تأثير الأمير بندر فيّ". وبالإشارة إلى المفاوضات الطويلة مع القذافي، ذكر فيصل: "كان هناك أكثر من عشر رحلات، لقد كانت عمليّة طويلة ومرهقة". ثم هـــزّ رأسه وقال عن القذافي: "تقنع الرجل ويوافق على شيء فنعود، ثم يغيّر رأيه. لذا نـــرجع لإقناعه، ليغيّر رأيه بعد ذلك مجدداً. لقد كان الأمر مزعجاً، لكنه [الأمير بندر] حقّق نتيجة في النهاية"[87].

لم تكـــن هذه العملية الصعبة مفاجئة. فغالباً ما وصف القذافي "الأخ القائد" أنّه مـــثالي ساذج. ويصفه جيرول أنّه "دونكيشوت غريب بعض الشيء"؛ ويقول آخرون إنّه زئبقي، وميلودرامي، وثوري شديد التديّن[88]. مع ذلك أثار القذافي إعجاب بندر. "الـــتفاوض معـــه مهمّة صعبة، لكنّه يجبرك على احترامه لأنه يعرف ما الذي يتحدّث عـــنه. وهـــو يمتلك قدرة غير عادية على إثارة القضايا والتفاصيل التي قد لا تدور في خلـــدك، لتكتـــشف مقـــدار أهميـــتها بعد أن تبحثها. وهكذا حصل على التنازلات الأميركية والبريطانية التي ربما لم تكن ممكنة"[89].

تواصلت الدبلوماسية بين بندر وجيرول ومانديلا والقذافي مدّة ستة عشر شهراً، وعلى الرغم من تحفّظات القذافي، أبلغ مانديلا، الذي سافر إلى ليبيا خصيصاً للإعلان عن الاتفاق، العالم في 19 مارس 1999 أنّ ليبيا ستقدّم للأمم المتحدة تاريخاً ثابتاً لتسليم المشتبه بهما.

عند سرد الأحداث التي أحاطت بالنهاية العملية للاتفاق مع القذافي قال جيرول: "في يـــوم ســـفر ماديبا إلى طرابلس، أعلن [القذافي] الاتفاق أمام شعبه بأسلوبه المعهود مـــستخدماً قصـــصاً رمزية من التوراة والقرآن وقال، *لو طلب منا مانديلا أن نضحّي*

بأولادنا لفعلنا ذلك، لأنّ الناس إذا لم يحافظوا على كلمتهم فإنّهم سيخذلون مانديلا وفهد. وأضاف بشكل مخيف، *وسيقع ذلك على عاتقي بندر وجيكس*!". وقال جيرول: "جاء الاجتماع الأخير بعد التوصل إلى الاتفاق، فقد دعيت والأمير بندر إلى ليبيا لنكون هناك عند تسليم المشتبه بهما إلى الأمم المتحدة". وتابع: "مشينا معهما حتى الطائرة. لم يكن القذافي هناك. لديه اعتزاز كما تعلم، لذا من غير المتوقّع أن يكون هناك. بعد ذلك انتقلنا عبر الطائرة إلى مكان في جنوب الصحراء حيث أمضينا ليلة ممتعة معه لاختتام المسألة بأكملها".

مع أنّ مانديلا يؤكّد أنّ جيرول وبندر لعبا دورين رئيسيين في التفاوض على الحل، فقد حرص جيرول على التشديد على أهمية العلاقة الشخصية بين مانديلا والقذافي. "كان الأمر بأكمله يتوقّف على ثقة القذافي بماديبا، ولم يكن ليتم شيء لولا ذلك". وأضاف: "كان الأمر صعباً جداً لأنّ القذافي لا يثق بالغرب بقدر عدم ثقة الغرب به، وكانت دائماً كلمة مانديلا؛ كنّا نقول، *يمكننا أن نؤكّد لك أنّه إذا قال بلير لماديبا إنّه سيفعل كذا وكذا، فإنّه سيفعله*".

لتأكيد هذه النقطة، حثّ جيرول مانديلا قائلاً: "لقد تحدّثت بالفعل إلى شيراك وجورج بوش الأب، وميجور؛ وتذكر أنّك كنت تقول لي دائماً إنّ الجميع موافقون على



الأمير سلطان، ورئيس الوزراء البريطاني جون ميجور، وبندر

إمكانيــة عقد محكمة في بلد ثالث، باستثناء ميجور الذي قال إنّ ذلك سيكون إهانة للنظام القانوني البريطاني"[90]. وتدخّل مانديلا: "على الرغم من أنّ ميجور رجل ممتاز، فقــد كــان مــن المعارضين، لكنّنا أقنعناه أنّ على بريطانيا أن تكون السبّاقة في ذلك الــوقت إلى تطبيع العلاقات مع القذافي. والشخص الآخر الذي بحثت المسألة معه هو الرئيس كلينتون لأنّه قال لي، *لا يمكنك أن تثق بالقذافي*. فقلت، *لا، ربما لا تستطيع أن تثق به. لقد تعاملت معه، ويمكنني أن أقول لك إنّه عندما يقول شيئاً فإنّ لديه ما يكفي من المصداقية ليعرف أنّ التراجع عن ذلك يعني تدمير مصداقيته*"[91].

وحول إذا ما كان العقيد القذافي سيسلم بالفعل المشتبه بهما عندما يحين الوقت، أكّد مانديلا للرئيس الأميركي شخصياً: "نعم ليس لدي أدنى شكّ في أنّه سيسلّمهما"، وردّ كلينتون على ذلك: "إذا كنت تعتقد ذلك، فسأدع الأمر لك"[92].

وقد سلّم القذافي المشتبه بهما بالفعل، وفي سنة 1999، وجدت محكمة في هولندا، برئاســة قضاة اسكتلنديين، أنّ عبد الباسط علي محمد المقراحي مذنب وحكمت عليه بالــسجن مدى الحياة لتفجير رحلة بانام 103 فوق لوكربــي في سنة 1988. وأقرّت ليبيا بالمسؤولية عن الانفجار ووافقت على دفع 10 ملايين دولار كتعويض لذوي كل من الضحايا المئتين والسبعين.

وعــن النتيجة قال بندر: "وضعت موافقة ليبيا على تسليم المشتبه بهما في قضية لوكربــي حــدّاً لفــصل طويل ومؤلم عانى منه الشعب الليبــي بالإضافة إلى أُسَرِ الضحايا"[93].

فــتحت الــنهاية الناجحة لمفاوضات لوكربــي حقبة جديدة في علاقات ليبيا بالغــرب. وفي ديــسمبر 2003، أعلنت ليبيا عن تخليها عن متابعة مساعيها النووية أو الكيميائية أو البيولوجية، وفتحت حدودها أمام التفتيش الدولي.

عــندما تعمّقت في تدخّلات بندر الدبلوماسية في أثناء ولايتي كلينتون، اتضح لي أنّ تدفّــق المعلــومات المــتعلّقة بالتطوّرات الدولية لم يكن مقيّداً من جانب الإدارة فحسب، بل إنّ المعلومات كانت مقيّدة داخل الإدارة نفسها. وقد أثّرت هذه الأسيجة الداخلــية ســلباً في العلاقات الخارجية، وقادت بندر إلى الاعتقاد، كما أفادت إلسا والــش في صحيفة ذا نيويوركر، أنّ أعضاء فريق السياسة الخارجية الضعيف كانوا إما مسيّسين جداً وإما متعجرفين ثقافياً.

في السنوات الأخيرة من رئاسة كلينتون، بدا النزاع بين الفلسطينيين والإسرائيليين عالقاً في طريق مسدود يسوده العنف والكآبة. وبما أنّ كلينتون كان يتوق إلى دفع محادثات السلام للحركة، فقد حوّل اهتمامه باتجاه سوريا. في يناير 2000، اجتمع رئيس الوزراء الإسرائيلي إيهود باراك بوزير الخارجية السوري فاروق الشرع في شفردزتاون، وست فرجينيا، بدعوة من الرئيس كلينتون لحلّ الخلافات الحدودية بين إسرائيل وسوريا والعنف المتواصل في لبنان.

غير أنّ محادثات شفردزتاون لم تحرز أي تقدّم. فقد تقدّم باراك بمطالب رفضها السوريون، في حين أكّد الشرع أنّ النتيجة الوحيدة المقبولة هي انسحاب إسرائيل التامّ إلى حدود ما قبل 1967، ما سمّي وديعة رابين.

على الرغم من فشل محادثات شفردزتاون، كان كلينتون عازماً على جمع السوريين والإسرائيليين معاً مرّة أخيرة. غير أنّه طلب المساعدة هذه المرة.

يقول بندر: "تلقّيت مكالمة في يوم جمعة في مارس 2000، وسئلت، *هل يمكنك المجيء إلى البيت الأبيض غداً؟ الرئيس يريد الاجتماع بك*".

استغرب بندر التوقيت المقترح في صباح يوم السبت، لكنّه وافق بسرعة. وبما أنّه سيعقد في المكتب البيضاوي - أي زيارة رسمية - سأل من سيكون حاضراً. وعندما علم أنّ بيرغر سيكون موجوداً، أبلغ بندر البيت الأبيض أنّ رحاب مسعود سيرافقه. وافق البيت الأبيض لكنّهم شدّدوا: "نرجو أن تبقي الأمر سرّاً، لا تبلغ وزارة الخارجية أو سواها".

فور وصول بندر، طلب منه كلينتون إيصال رسالة إلى الأسد.

سأل بندر: "هل هي رسالة أقدّمها كانطباع ما؟ أم رسالة منك إلى الأسد مباشرة؟".

قال كلينتون: "لا، منّي إليه".

ردّ بندر: "حسناً، لكن إذا كانت هذه الرسالة منك إليه مباشرة، أرجو أن تكرّر الرسالة لأنّني لا أريد أن أتصرّف باستقلالية. إذا كانت انطباعاً عامّاً وعلي أن أوصله بطريقتي فذلك شيء، أما إذا كانت منك إليه مباشرة، فسيدوّنها رحاب".

وهكذا دوّن مسعود رسالة كلينتون. ثم طلب بيرغر من بندر مجدداً: "لا تبلغ وزارة الخارجية".

غـادر بندر إلى الرياض في تلك الليلة للتشاور مع ولي العهد الأمير عبد الله. كانت الرسالة التي سيسلّمها مصمّمة لإقناع الرئيس حافظ الأسد بحضور اجتماع قمـة في جنيف كمقدّمة لخطة أوسع للسلام بين إسرائيل والدول العربية. وكانت الرسـالة تفـيد أنّه إذا وافق الأسد على العودة إلى طاولة المفاوضات مرة أخيرة، فسيضمن كلينتون انسحاب إسرائيل من مرتفعات الجولان حتى الحدود التي احتلت في حـرب 1967. غير أنّه قال إنّ موافقة باراك تستند إلى وقف العنف في جنوب لبـنان. وكـان اختيار بندر ليحمل الرسالة استراتيجيًّا بحدّ ذاته: لقد وافق إيهود بـاراك بالفعـل سرّاً على ضلوع الأمير، والأسد معروف أنّه يثق بالمملكة العربية السعودية، وخاصة ببندر.

عـندما أثار بندر في أثناء اجتماعه مع الرئيس الأسد موضوع القتال في جنوب لبنان، ابتسم الأسد وقال إنّ في وسعهم الاهتمام لهذه المسألة"[95]. وبعدما فعل بندر ما طُلـب مـنه، نقل موافقة الأسد على الشروط الأميركية إلى بيرغر، وعاد إلى واشنطن معتقداً أنّ عمليّة السلام ربما بدأت تحقّق تقدّماً في النهاية.

مع ذلك، لم يتمّ التوصّل إلى اتفاق على الرغم من اجتماع دام ثلاث ساعات بين كلينـتون والأسد في جنيف: فقد رفض الزعيم السوري اقتراحات كلينتون من دون تفكـير. وانهارت المحادثات تماماً بحيث أوفد ولي العهد بندر للتحدّث إلى الأسد، مخافة أن يعـتقد أنّ الـسعوديين متواطئون بطريقة ما لتقويض الموقف السوري. وفي ذلك الاجـتماع، علـم بندر أنّ كلينتون استغلّه، وأنّ الرسالة التي سلّمها بندر - ضمانة كلينـتون أنّه حصل على موافقة باراك على الانسحاب إلى ما حدود ما قبل 1967 - كانـت مجـرّد حـيلة لإرجاع السوريين إلى طاولة المفاوضات. ولم يضلّل كلينتون الـسوريين فحـسب، بل خدع الإسرائيليين أيضاً بإيحائه أنّ الأسد مستعدّ للتفاوض، رغم علمه بموقف الأسد المتشدّد.

قـال الأسد لبندر: "كلينتون يعرف ماذا أريد. والله يعلم أنّه يعلم ماذا أريد، لقد تحدّثنا خمس عشرة مرة!".

وقـال بندر بدوره بعد عودته من اجتماعه مع الأسد: "لتذهب هذه الإدارة إلى الجحـيم". ومع ذلك، لم يكن بندر يعلم حتى ذلك الوقت مقدار انقطاع الاتصالات داخل أروقة الحكم الأميركي.



مادلين أولبرايت تحيي ولي العهد الأمير عبد الله خلال زيارتها للمملكة

مـــن المـــدهش أنّ وزيرة الخارجية أولـــبرايت لم تكـــن على علم البتة بمهمّة الأمـــير الـــسرّية إلى سوريا والرسالة التي طُلـــب مـــنه تسليمها. ولم يكن المبعوث الخـــاص إلى الشرق الأوسط دنيس روس الـــذي تفاوض مع باراك لصالح أولبرايت علـــى علم بها أيضاً. مع ذلك كتب روس في كتابه **السلام المفقود**، "طلبنا من الأمير بـــندر مقابلة الأسد وربما أساء الأسد فهم مـــا قاله بندر، أو أساء الأمير بندر فهم ما قلناه"[96].

عـــند قراءة رواية روس الثانوية عن اجتماع الأمير بكلينتون وبيرغر، ردّ بندر بحدّة: "ما هذا الهراء عن نحن [طلبنا]؟! لم يكن يعرف في ذلك الوقت أنّه طُلب مني القيام بذلك!".

بعد أيام على قمة جنيف، اجتمع بندر بأولبرايت التي كانت قد عادت لتوّها من لندن لحضور عشاء في واشنطن. يذكر بندر: "خلال العشاء ضحكنا عندما قالت إنّها الـــتقت باللـــورد ليفي، وهو ممن يجمعون الأموال لطوني بلير ومبعوثه الشخصي إلى الـــشرق الأوســـط، عندما كانت في إنكلترا لإلقاء محاضرة. قال لها، *إنني أقيم حفل عشاء؛ وسيأتي الدوق فلان إلى العشاء، واللورد فلان، والوزير فلان، وأودّ أن تحضري يـــا معالي السيدة الوزيرة*. أبلغتني مادلين وهي تضحك من قلبها، *ظننت أنّه كريه وأنّه يطـــرح الأسماء، لذا استمتعت عندما قلت له، آسفة جدا يا سعادة اللورد، لا أستطيع؛ لدي عشاء غداً مع أمير في واشنطن*".

فـــيما تقـــدّم العـــشاء، انـــتقل الحديث إلى فشل محادثات جنيف التي حضرتها أولـــبرايت. كانت منـــزعجة بوضوح من الأسد وأبلغت بندر أنّ الأسد كان يطلب باستمرار قبل المحادثات أن يعرف ما هو موقف باراك النهائي. وفي نهاية المطاف أرسل

دنيس روس لمعرفة ذلك. وأدرك بندر من تعليقات أولبرايت أنّ الأسد يحاول التأكّد مما إذا كان كلينتون نجح في الضغط على باراك للانسحاب من مرتفعات الجولان حتى حدود 4 يونيو 1967. هذا هو في النهاية ما عرف كلينتون أنّ الأسد يريده، وكان مضمون رسالته التي نقلها بندر إلى الرئيس السوري.

وكما أكّد الأمير: "كان جوهر الرسالة التي نقلتها من كلينتون إلى الأسد قول كلينتون، *إنّني أعرف ماذا تريد. وسأعمل مع باراك. وإذا حصلت من باراك على ما أعتقد أنك تحتاج إليه، فسأطلب عقد قمة بينك وبيني*. لذا كان السرّ إما أن أتلقّى مكالمة تقول، *حسناً، لنعقد القمة*، وسأطلب من السوريين الحضور، وإما أن تقول، *لا داعي للقمّة، دعونا نجري مزيداً من المحادثات*. والرسالة التي حصلت عليها، *لنعقد هذه القمّة*، وهو ما يعني بالنسبة إلى الأسد أنّ لدينا اتفاقاً. لذا جاء الأسد إلى جنيف معتقداً أنّه توصّل إلى اتفاق مع كلينتون".

لم يكن من الصعب الاستنتاج من أفعال الرئيس الأسد في جنيف أنّ العرض الأصلي لم يعد على الطاولة، بسبب فشل ما في المفاوضات بين باراك والولايات المتحدة. غير أنّ ما أذهل بندر أنّ أولبرايت كانت غافلة عن أنّ تعهّدات صريحة من كلينتون قُدّمت إلى الأسد كحافز له على حضور قمة جنيف.

وأوضحت الوزيرة أولبرايت أنّه تقرّر إرسال روس إلى إسرائيل لتأمين موافقة باراك على الالتزام بوديعة رابين. مع ذلك تبين لبندر أنّ أولبرايت لم تكن تعرف شيئاً عن مهمّته في سوريا. وعندما أخبرها عن رحلته، أصيبت بصدمة تامّة: "لقد كذب عليّ ساندي بيرغر اللعين. لأسلخنّ جلده!"، وصاحت: "لا أصدّق! أتعني أنّك ذهبت لمقابلة الأسد؟".

أجاب بندر: "نعم".

ردّت أولبرايت: "ذلك يفسّر لي ردّ فعل الأسد". وفي إشارة إلى رفض الأسد التفاوض البتة، قالت: "كنت غاضبة جداً منه، لرده، ولأنّه خدع الرئيس".

اتصل بندر بروس في اليوم التالي ليوضح ما حصل في اجتماعه مع أولبرايت. وشدّد بندر أنّه بعد محادثاته مع أولبرايت وروس، أكّد الاثنان له أنّهما لم يفهما سبب فشل القمة إلا عندئذ.



رحاب مسعود خلال مؤتمر صحفي في سفارة المملكة العربية السعودية في واشنطن

وأكّد رحاب مسعود، بوصفه كاتب الملاحظات في الاجتماع الذي تمّ مع كلينتون وبيرغر، أنّه دوّن ملاحظة فورية تؤكّد ضمان الرئيس الصريح أنّه يؤكّد أنّ باراك تعهّد بالموافقة على خطّ 4 يونيو 1967 - وديعة رابين - التي أشار الرئيس كلينتون بأنّها "التزام رابين غير المباشر"[97].

غير أنّ مجلّة نيويوركر أفادت: "تحدّث ناطق باسم إدارة كلينتون عن أنّ كلينتون وبيرغر لا يذكران تحديداً الاجتماع الرسمي في المكتب البيضاوي، قائلاً، *صحيح أنّنا طلبنا مساعدة بندر، لكن من غير الصحيح أنّ كلينتون قال إنّه يستطيع الحصول على حدود 1967*"[98]. بالمقابل، كان تقييم بندر لموقف الإدارة صريحاً: "قرّر فريق كلينتون الاستفادة من الموقفين. فقالوا إنّهم حاولوا وإنّ الفشل بسبب الفريق الآخر؛ وأنا أقول إنّها فشلت لأنّهم لم ينسّقوا رسالتهم ولم تكن تلك المرّة الأولى".

عندما قابلت الرئيس كلينتون، سألته عن سبب حجب هذه المبادرة عن وزارة الخارجية، فأجاب: "لا أذكر ذلك. ربما يذكر ساندي وبندر ذلك، لكنّني لا أذكره".

وفقاً لكلينتون، كان إخفاق اجتماع قمّة جنيف مبتذلاً. فقد قال: "ما حدث حقّاً هو أنّ التوقيت كان غير مناسب للجميع. كانت لدينا فرصة للتوصل إلى سلام في يناير 2000 عندما أراد باراك الاجتماع. فقد أملى الوقت وقرّر أنّه لن ينجز شيئاً مع عرفات وأراد أن ينتهي من سوريا أولاً". وكان الرئيس يشير إلى خطة باراك لتأمين السلام مع سوريا، وهي خطوة فسّرت على أنّها - إذا ما نجحت - نوع من عزل زعيم منظمة التحرير الفلسطينية، وكسب مزيد من الوقت ممّا يؤخّر تنفيذ اتفاقات أوسلو *الأرض مقابل السلام* التي حاولت إسرائيل تكراراً إعادة التفاوض عليها. وفي حين قدّم باراك وأولبرايت ضمانات للرئيس الأسد بوضع وديعة رابين على الطاولة في محادثات يناير في شفردزتاون، وست فيرجينيا، فإنّ باراك تراجع عن ضمانته وأدخل تعديلات قوّضت محادثات السلام.


رئيس الوزراء الإسرائيلي ايهود باراك

في ما يتعلّق بهذه الأحداث، كان كلينتون شديد الانتقاد لباراك، وأوضح كيف أبلغه أنّ الوقت بدأ ينفد لأنّ الأسد لن يساعده. وكان كلينتون يعتقد أنّ الأسد لن يعرّض خلافة ابنه للخطر. وعندما جاء باراك إلى شفردزتاون، كان يتعرّض لضغوط كبيرة في إسرائيل. ولاحظ كلينتون: "قرّر [باراك] أنّ عليه البقاء هناك أسبوعاً من دون تقديم أي تنازلات، وتلك إهانة كبيرة للسوريين الذين وافقوا على المجيء في رمضان إلى هذه البلدة الباردة في وست فيرجينيا. وقد أساء الإسرائيليون التصرّف. وفي جنيف عندما كان باراك مستعداً في النهاية لتقديم ما رأيت فيه عرضاً مقنعاً جدّاً يمكن أن يؤدي إلى حل سريع، لم يبدِ الأسد رغبة في سماعه. لكنّني رأيت في ذلك الوقت أنّ الخطأ يكمن في التوقيت أكثر من أي شيء آخر".

وفي محاولة أخيرة لتفسير المنطق الذي دفع الأسد للتراجع في قمة جنيف، أوضح كلينتون أنّ الأسد توفّي بعد نحو عشرة أسابيع، ورأى أنّ الأسد كان يخشى أن يموت تاركاً اتفاق تسوية وحده يمتلك القوة الكافية لتنفيذه، فإنّ ابنه، بشار الأسد لن يستطيع تولي السلطة: "إذ إنّ الطائفة العلوية تشكّل أقلية وتعتمد على الجيش لدعمها. لقد كان ذلك مأساويًّا حقاً إذ كان في وسعهما إنجاز ذلك الاتفاق لكنّ توقيتهما لم يكونا مناسبين"[99].

كان بندر أكثر تحديداً. قدّم كلينتون للأسد ضمانة لا لبس فيها أنّ باراك سيوافق على الانسحاب من كل الأرض السورية التي تحتفظ بها إسرائيل منذ سنة 1967 ثم فشل في التنفيذ.

بانتخاب جورج دبليو بوش في نوفمبر 2000، تفاءل بندر أنّ البيت الأبيض سيعود مجدداً إلى السياسة الخارجية الفاعلة. فقد كانت الإدارة المشكّلة من العديد من أعضاء حكومة جورج إيتش دبليو بوش تعد بتصويب العلاقة بين الولايات المتحدة والمملكة العربية السعودية. غير أنّ شخصية إدارة جورج دبليو بوش أثارت تحدّيات جديدة لبندر.

لا شك في أنّ العلاقة الأميركية السعودية ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالنفط والأمن، وأنّ لهذين العاملين تأثيراً ملازماً في السلام في الشرق الأوسط. وقد لعب بندر كمواطن يجمع بين الثقافتين دوراً أساسياً في مبادرات السلام المختلفة التي برزت في أثناء وجوده كسفير في الولايات المتحدة. لكن في أواخر أغسطس 2001، كان موقع الأمير سبباً في جعله مبعوثاً في واحد من أكثر الأحداث إثارة للتحدي في تاريخ العلاقات الأميركية السعودية.

رداً على اجتماعات بوش المتكرّرة مع أريل شارون ورفضه الاجتماع بياسر عرفات، رفض ولي العهد الأمير عبد الله الطلبات المتكرّرة لزيارة البيت الأبيض. وفي مقابلة في يونيو 2001 مع صحيفة فايننشال تايمز، وبّخ الأمير عبد الله إدارة بوش موحياً أنّ الدور الأميركي في حل أزمة الشرق الأوسط أصبح سلبيًّا جداً بحيث يتعيّن على المملكة العربية السعودية أن توفّر القيادة[100].

كان الأمير عبد الله غاضباً من تصريح بوش أنّ "الإسرائيليين لن يتفاوضوا تحت التهديد الإرهابي، الأمر بهذه البساطة؛ وإذا كان الفلسطينيون مهتمّين في الحوار، فإنّني أحثّ السيّد عرفات بقوّة على بذل 100 بالمئة من الجهد... لوقف النشاط الإرهابي. وأعتقد أنّ في وسعه القيام بعمل أفضل في هذا الصدد"[101].

فسّر الأمير عبد الله هذه الملاحظات أنّها تسامح مع إسرائيل والإدانة الظالمة للفلسطينيين. وتصاعد غضبه بعد مشاهدة الفيلم المحزن عن الإغارة الإسرائيلية على الضفة الغربية في 23 أغسطس الذي يظهر جندياً إسرائيلياً طارحاً امرأة فلسطينية على الأرض ويدوس بجزمته على رأسها.

كان ردّ فعل الأمير عبد الله عاطفياً وفورياً وحاداً. اتصل ببندر الذي كان في منزله في أسبن يشاهد التقرير المتلفز نفسه[102]. وطلب منه وليّ العهد أن يسلّم بنفسه رسالة تهديد من خمس وعشرين صفحة إلى الرئيس. وهي تفيد: "نحن نعتقد أنّ هناك قراراً استراتيجياً اتخذته الولايات المتحدة أنّ مصالحها الاستراتيجية في الشرق الأوسط تستند 100 بالمئة إلى شارون. ذلك من حقّ أميركا، لكنّ المملكة العربية السعودية لا يمكنها أن تقبل القرار. وابتداءً من اليوم *أنتم من طريق وأنا في طريق كما يقولون*. من الآن فصاعداً، سنحمي مصالحنا القومية بصرف النظر عن موقع المصالح الأميركية في المنطقة"[103].


كالشقيقين – جورج دبليو بوش وبندر

فاجـــأت رســـالة الأمير عبد الله الإدارة الأميركية. فهي تهدّد بتدمير الصداقة القيمة التي تـــربط بـــين أميركا والمملكة العربية السعودية، بسبب شعور الأمير عبد الله بعدم اهتمام أميركا في أسوأ الأحوال، وانحيازها إلى جانب إسرائيل في أحـــسنها. وهـــدّد ولي العهد بقطع التعاون الأمني والمخابراتي مع الولايات المتحدة بالإضافة إلى إعادة النظر في الاتفاقات العسكرية. وكان التغيّـــر في المـــناخ فورياً: عاد رئيس الأركان الـــسعودي إلى الرياض بعد يوم واحد فقط من وصـــوله إلى واشنطن، ومن دون أن يلتقي أيّ مسؤول أميركي، وألغى أربعون ضابطاً سعودياً مـــن ذوي الـــرتب الكبيرة رحلة إلى واشنطن أعدّت للتباحث بشأن المراجعة السنوية للعلاقات العسكرية.

وعلـــى الفور رُفضت دعوة موجّهة إلى الأمير عبد الله لزيارة الولايات المتحدة. وقال الأمير تركي الفيصل(*) ببلاغة: "استحوذ ذلك على انتباههم"[104].

أُجبِـــرت إدارة بـــوش على إعادة النظر بسرعة في نهجها تجاه عملية السلام في الـــشرق الأوســـط. وبلغ التصدّع في العلاقات بين الإدارة الأميركية والمملكة العربية الـــسّعودية مـــن الحـــدّة بحيث أفادت صحيفة نيويورك تايمز أنّ الرئيس جورج بوش الأب - وهو يحظى بتقدير كبير لدى السعوديين - تحدّث بنفسه مع الأمير عبد الله في محاولـــة لطمأنـــته أنّ ابـــنه، الرئيس، سيقوم بالعمل الصحيح لأنّ "قلبه في المكان الصحيح"[105].

خلال ست وثلاثين ساعة من تقديم رسالة الأمير عبد الله إلى بوش، عاد بندر إلى الـــرياض لتـــسليم ردّ بوش على ولي العهد، وهو رسالة من صفحتين تعد بالتحرّك في

(*) الـــسفير السعودي السابق في لندن والسفير السعودي الذي تلا الأمير بندر في الولايات المتحدة. وهو أيضاً شقيق زوجة الأمير بندر.

الشرق الأوسط[106]. وكانت الرسالة تحتوي على ما يسعى له السعوديون بالضبط أي دلـيل على رئيس أميركي إنساني ذي نهج منصف تجاه الأزمة الإسرائيلية الفلسطينية. كمـا تعهّـدت الرسالة برؤية قابلة للتطبيق تدعم إقامة دولة فلسطينية وتشجب كل أعمال العنف ضدّ الإسرائيليين والفلسطينيين على حدٍّ سواء.

وقـال مسؤولون سعوديون إنّ رسالة بوش تضمّنت الإعلان: "إنّني أرفض هذا التحيّـز غير الأميركي وغير العادي الذي يكون فيه دم الطفل الإسرائيلي أغلى وأقدس مـن دم الطفل الفلسطيني. وأرفض القول أنّه عندما تقتل فلسطينياً يكون ذلك دفاعاً عن النفس؛ وعندما يقتل فلسطيني إسرائيلياً يكون ذلك عملاً إرهابياً"[107].

كـان وقـع الرسالة مؤثّراً جداً في قيادات المجتمع السعودي، وارتفعت مصداقية بـوش داخـل المملكة العربية السعودية. وفي قراءة بين السطور، كان بندر مقتنعاً أنّ موقـف إدارة بـوش في الرسـالة إلى الأمير عبد الله لم يتطوّر في ست وثلاثين ساعة فحسب. وقال: "لا بدّ أنّ ذلك شيء كانت الإدارة تفكّر فيه، ولم تتشاركه مع أحد، وإنّما كانت تنتظر الوقت المناسب".

عـرض الأمير عبد الله ردّ بوش على القادة العرب الآخرين، بمن فيهم الرئيسين المـصري والـسوري، والملك عبد الله، ودعا عرفات إلى الرياض لقراءة رسالة بوش. وتلقّى بندر تعليمات على الفور بإعادة بناء العلاقات الأميركية السعودية، وهي مهمّة مرحّب بها بعد أن أمر بإيقاد النار تحت أصدقائه في واشنطن. وتذكر المصادر أنّه عندما قـال المـسؤولون للأمير، "لقد أخفتمونا"، ردّ ببراعة: "إلى الجحيم بكم، لقد أخفنا أنفسنا!".

حمـل بندر معه من الرياض أيضاً أمل الأمير عبد الله أن يقول الرئيس علناً ما أورده في رسالته. وكان يتوقّع أن تتحوّل محتويات الرسالة إلى سياسة. وعلى سبيل طمأنـة الـرئيس إلى قوة رسالته ودعم العالم العربـي للعاطفة التي أبداها، أرسل أيـضاً إلى واشنطن تعهّداً مكتوباً من عرفات إرضاء لمطالب بوش لإحياء محادثات السلام.

ووفقـاً لصحيفة واشنطن بوست، كان بندر سعيداً جداً وأعلن: "فجأة ساورني الإحـساس نفـسه الذي شعرت به عندما كنّا ذاهبين إلى مدريد، أنّنا سنشهد مبادرة كبيرة هنا يمكن أن تنقذنا جميعاً من أنفسنا، على الأغلب، ومن بعضنا بعضاً"[108].

بعد أيام، قاد مختطفون طائرتين وانقضا بهما على برجي مركز التجارة العالمية في نيويورك.

قُــتل 2,752 أميركياً، وماتت أيضاً فرصة إحلال السلام في الشرق الأوسط. فقد دُفــنت كــل الآمال في إحياء عملية السلام في الشرق الأوسط تحت أنقاض البرجين. وعبّر بندر عن حزنه: "لا أتصوّر أن هناك طريقة للإضرار بالإسلام أو بالمملكة العربية السعودية أكثر من ذلك".

الفصل العاشر

9/11: الكارثة

﴿ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ * وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ *
لَا تُبْقِى وَلَا تَذَرُ * لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ *
عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴾

القرآن الكريم (المدثر: 26 - 30)

حقيقة: كان خمسة عشر شخصاً من التسعة عشر الذين نفّذوا الهجمات المأساوية الشنيعة في 11 سبتمبر 2001 سعوديين.

وُضعت القوى المحرّكة الراسخة للعلاقات الدولية جانباً عندما وقعت الضربة إذ شعر الأميركيون بألم لا يزال ملموساً حتى اليوم. وفجأة أصبح بندر والمملكة العربية السعودية في قفص الاتهام، في مواجهة اتهامات وسائل الإعلام بضلوعهما المزعوم في هذه الجريمة المنكرة.

عند سماع نبأ الهجمات، أصيب بندر والسعوديون بصدمة. وكان ردّ فعلهم الأول أنّه من غير المعقول أن يكون هناك أي سعودي بين الخاطفين التسعة عشر[1]. وعندما تأكّدت الحقيقة الرهيبة، ردّت المملكة غير مصدّقة إمكانية تورّطهم في عمل إرهابي فظيع. بل إنّ السعوديين أشاروا إلى أنّ الخاطفين رجال من "الجنوب" ومن مجموعة قبلية ذات صلات قوية باليمن؛ وأنّهم ليسوا "سعوديين صالحين"[2]. وقد تمّ تجاهل هذا الدفاع غير المناسب باستهزاء.

غيّر السعوديون اتجاههم، وبعد أنّ تخلّوا عن المبادرة إلى الصحافة الغربية التي أصبحت فجأة معادية بشكل مفهوم، حاولوا الدفاع عن أنفسهم أمام الموجة تلو الموجة من الانتقادات. وحاول بندر تجنّب وسائل الإعلام فيما يضع استراتيجية للوقوف أمام التهديد المتنامي الذي يواجه العلاقات الأميركية السعودية. لكن، تواصل تعاظم مناخ عدم الثقة.

ومـــع تفجّـــر الاتهامات بالتواطؤ والملامة في وسائل الإعلام، ألقي الضوء على التباعد الثقافي بين المملكة العربية السعودية والولايات المتحدة. فتحدّثت مجلة تايم عن أنّ "غياب الديمقراطية وحرّية التعبير، ومساواة المرأة، والتنوّع الديني في المملكة العربية الـــسعودية لا يجعلـــها حليفاً محبوباً بالنسبة إلى الأميركيين"[3]. بل إنّ مؤيّدي المملكة العـــربية السعودية كتبوا، "إنّه نظام سلطوي وهو ذو سجلّ سيئ في حقوق الإنسان. ولـــيس فـــيه حـــرّية دينية. ويعاقب المجرمين ببتر أعضائهم وقطع رؤوسهم. وتتعاون الحكومة أحياناً مع الولايات المتحدة في مكافحة الإرهاب وأحياناً لا تتعاون"[4]. وتركّز الآن المـــناخ الملـــتهب في الولايات المتحدة، ورعب 9/11، والرغبة في الانتقام للثلاثة آلاف أميركي تقريباً الذين قتلوا، على مشاركة سعوديين في هذا الهجوم الفظيع.

أدّى وجـــود خمسة عشر سعودياً بين المختطفين التسعة عشر إلى تصوير المملكة كمـــرتع للإرهاب، وطالب الرأي العام الأميركي بتقديم اعتذار. وقد وقع على عاتق بندر التعبير عن الغضب السعودي من هجوم القاعدة وتقديم التعازي إلى الذين فُقدوا في هـــذا العمل الإرهابـــي الوحشي. كان صريحاً في إدانته حيث قال: "خلال عشرين عامـــاً، لم أشهد حادثة أشدّ إيلاماً وقبحاً في حـــياتي مقارنة بما حصل في 9/11. لقد كان 9/11 مأساة بكل المقاييس، لكنّه شرّ أيضاً"[5]. لكـــن ســـرعان ما ضاعت تعليقات بندر في خـــضمّ الإحساس الأميركي الواسع بالصدمة والرغبة في العقاب.


11 أيلول/سبتمبر 2001، برجا مركز التجارية العالمي

وسرعان ما تعمّق الاعتقاد في الولايات المـــتحدة أنّ علـــى المملكة العربيّة السعودية الـــدفاع عـــن نفسها وأنّها كانت قانعة في التعامل مع التهديد الإرهابـــي، وأنّها لم تبذل ما فيه الكفاية. وحاولت دعوى قضائية رفعتها ســـتمئة عائلة من عائلات ضحايا 11 سبتمبر الـــربط بين أبرز شخصيتين في العائلة المالكة الـــسعودية و9/11. ونـــصت الإقـــرارات

والـــشهادات الـــواردة في الدعوى القضائية على أنّ السعوديين دفعوا إلى ابن لادن في أعقـــاب الهجمـــات على القوات الأميركية في المملكة العربية السعودية، بما في ذلك تفجير الخُبر. وفي لندن، زعمت صحيفة "صنداي تايمز" أنّ ذلك بلغ 300 مليون دولار "كأمـــوال للحمايـــة" دُفعت إلى شبكة أسامة بن لادن الإرهابية وحكومة طالبان في أفغانستان[6].

في 13 ســـبتمبر 2001، بعـــد يـــومين فقط على وقوع الهجمات، دخّن الرئيس جورج دبليو بوش سيجاراً على شرفة ترومان في البيت الأبيض مع بندر. فثارت ثائرة الصحافة وانتقدت بوش بعنف لأنّه تحدّث مع سفير عربـــي. وكثرت التلميحات إلى وجود مؤامرة. وافترض معظمها أنّ موضوع النقاش على شرفة ترومان في تلك الليلة كـــان المغـــادرة الوشيكة لرحلات تقلّ 148 مواطناً سعودياً بعيد 9/11، وبعضهم من أفراد عائلة ابن لادن.

رفـــض بـــندر في وقت لاحق التخمين أنّه بحث هذا الإخلاء مع الرئيس في تلك اللـــيلة علـــى شـــرفة ترومان. وفي مقابلة مع تيم روسيرت في برنامج **ميت ذا برس**، أوضـــح بندر أنّه قدّم طلب إخلاء المواطنين السعوديين إلى "الأف بـــي آي" مباشرة. وعـــندما حـــصل علـــى موافقته، اتصل بمنسّق مجلس الأمن القومي الخاص بمكافحة الإرهاب، ريتشارد كلارك، الذي قال: "ليس لدي أي مانع إذا كان الأف بـــي آي لا يمانع". وبالتالي أجيز ذلك.

في حين أنّ هذه الخطوة السعودية قد تكون ذات نوايا طيّبة، فقد فسّرت بسرعة لا على أنّها غير حسّاسة فحسب، بل ربما تنطوي على جريمة تهريب إرهابيين محتملين يمكـــن أن تستجوبهم الأجهزة الأمنية. فبناء على طلب ولي العهد الأمير عبد الله تنظيم إخلاء أفراد عائلة ابن لادن، أثار بندر من دون قصد سلسلة من مزاعم المؤامرة الزائفة.

أوضح بندر في تبرير إخلاء المواطنين السعوديين: "كان لدينا هؤلاء الأشخاص في الـــبلد، وكـــثير منهم من أقارب عائلة ابن لادن الذين يدرسون في المدارس، وبعضهم مراهقون، وبعضهم ملتحقون بالجامعات. طلبنا إذناً من الأف بـــي آي. وكان هؤلاء الأشخاص مفرّقين في كل أنحاء أميركا، وخشينا في ظل الغضب العارم في ذلك الوقت أن يتعرّضوا للأذى. وكانت الطائرات الأخرى لمسؤولين سعوديين يمضون إجازاتهم. فقد كان عليهم جميعاً العودة إلى مراكزهم الرسمية في الوطن بعد وقوع هذه الكارثة"[7].

ردّاً على تخمين الصحافة أنّ هذه الرحلات تشير بطريقة ما إلى مؤامرة معقّدة بين بوش والسعوديين، قال بندر: "فكّروا في الأمر بطريقة منطقية. أتظنّون أنّنا في *جمهورية من جمهوريات الموز*، حيث يمكنني أن آخذ 148 مواطناً سعودياً وأضعهم في طائرة وأهرّبهم إلى الخارج من دون أن يعلم أحد؟". مع ذلك، فإنّ الصحافة لم تلقِ أي بالٍ لإنكاره.

في وقت لاحق وجد بندر الراحة في النتائج التي توصّلت إليها لجنة 9/11 بشأن رحلات عائلة ابن لادن قائلاً: "لقد أصدرت لجنة 9/11 بياناً تقول فيه إنّ الأف بي آي خلص إلى أنّه لم يسمح بمغادرة أحد على متن هذه الرحلات الست يريد الأف بي آي استجوابه بشأن هجمات 9/11، أو خلص الأف بي آي لاحقاً أنّه كان متورّطاً في الهجمات. وذكر البيان أيضاً أنّ مسؤولين أمنيين بالدرجة الأولى تفحّصوا الرحلات السعودية، ولكن تفحّصها الأف بي آي أيضاً للتثبّت من أنّ الأشخاص المسافرين في هذه الرحلات لا يشكّلون تهديداً للأمن القومي".

وأكّد بندر: "لم يُسمح لأحد يريده الأف بي آي في ما يتعلّق بالتحقيق في 9/11 بمغادرة البلد. المأساة أنّ لجنة 9/11 تقول ذلك، والأف بي آي يقول ذلك، ولا يزال هناك أشخاص يضعون كتباً تشير إلى أنّهم هرّبوهم"[8].

وتعزيزاً لهذه الرسالة، ذكر بندر في بيان صحفي كيف برّأت اللجنة المملكة العربية السعودية: "وعلى الرغم من اتهامات كريغ أونغر، ومايكل مور، وغيرهما، فإنّ الأف بي آي يحقق في الرحلات الجوية التي تلت 9/11 وأعادت مواطنين سعوديين، بمن فيهم أفراد من عائلة ابن لادن، إلى الوطن، *ولم يغادر أحد ذو صلات بالإرهاب على متن هذه الرحلات*".

وواصل البيان الصحفي، "وفقاً للجنة 9/11: *أولاً، لم نجد أي دليل على أنّ رحلات طيران مواطنين سعوديين، محلية أم دولية، جرت قبل إعادة فتح المجال الجوي الوطني في صباح 13 سبتمبر 2001. بل خلافاً لذلك، تمّت كل الرحلات التي حدّدناها بعد إعادة فتح المجال الجوي. ثانياً، لم نجد أي دليل على وجود تدخّل سياسي... لم يذكر أي من المسؤولين الذين استجوبناهم أي تدخّل أو توجيه في هذه المسألة من أي مسؤول سياسي. ثالثاً، نعتقد أنّ الأف بي آي أجرى تفحّصاً كافياً للمواطنين السعوديين*



بندر ووزير الخارجية سعود الفيصل كئيبان خلال مؤتمر صحفي في 19 أيلول/سبتمبر، 2001

الذين غادروا الولايات المتحدة على متن هذه الرحلات العارضة. وقد أعلمت الحكومة السعودية بطلبات الأف بـي آي تحديد هوية المسافرين والتدقيق فيها مقابل مختلف قواعد البيانات قبل مغادرة الرحلات ووافقت على ذلك. وتحقّق ممثّل إدارة الطيران المدني الذي يعمل في مركز عمليات الأف بـي آي أنّ الأف بـي آي على علم بهذه الرحلات للمواطنين السعوديين وتمكّن من تفحّص المسافرين قبل أن يسمح لهم بالمغادرة".

وشدّد البيان الصحفي على أنّ "الأف بـي آي استجوب كل الأشخاص الذين يهمّونه علـى متن هذه الرحلات قبل مغادرتهم. وخلص إلى أنه لا يوجد أحد من المسافرين على صلة بهجمات 9/11 ولم يُعثر منذ ذلك الوقت على أي دليل لتغيير ما توصّل إليه. وقد أكّدت مراجعتنا للمواطنين السعوديين المعنيين أنّه لم يغادر أحد ذو صلات معروفة بالإرهاب على متن هذه الرحلات"[9].

أما بالنسبة إلى الحديث الذي دار بين بندر والرئيس، فقد أجاب الأمير أنّه تماشياً مع العرف الدبلوماسي: "ما لم يعطِ رئيس الولايات المتحدة إذناً بالكشف عن مضمونه، وإلى أن يعطيه، فإنّني لا أستطيع أن أفعل ذلك"[10].

تــضرّرت أجواء العلاقات الأميركية السعودية بشدّة. فقد كان امتداح المملكة العــربية الــسعودية في الكابيتول هول يؤدي إلى النقد. وكما قال السفير فريمان عند التعلــيق على الوضع العام في الولايات المتحدة: "إنّ قول أي شيء لطيف عن المملكة العربية السعودية يستدعي التوبيخ. في حين أنّ قول أي شيء قاسٍ يكسب النقاط"[11]. وكـــان تهجّـــم الكونغرس ووسائل الإعلام الأميركية على المملكة العربية السعودية، والـــتهجّم المقابل لقادة الرأي ووسائل الإعلام السعودية على الولايات المتحدة هدّاماً بطبـــيعة الحـــال. فقد أزعجت التقارير المبالغ فيها ومزاعم التآمر المتحيّزة كلا البلدين وساعدت المتطرّفين[12]. وساد التململ من المملكة العربية السعودية، والدافع لتحميلها المسؤولية عن الإرهاب في العالم أجمع، لا سيما أحداث 11 سبتمبر.

لاحـــظ السفير ريتشارد مورفي أنّ الهجمات أطلقت تياراً متواصلاً من الاتهامات ضـــدّ الـــرياض، عندما ظهر على السطح استياء واشنطن المضمر منذ أمد طويل من المملكة العربية السعودية[13].

لكنْ، في أعقاب إدانة بندر الرسمية للهجمات الإرهابية الفظيعة في 9/11، والبيان أنّ المملكة ليست غير متورّطة في هذه الهجمات فحسب، بل إنّها ستفعل أيضاً كل ما يلـــزم لإلحاق الهزيمة بالقاعدة والإرهاب، صدر بيان من وزير الداخلية السعودية الأمير نايـــف. ادّعى الأمير نايف أنّ الصهاينة مسؤولون عن هجمات 9/11 الإرهابية قائلاً: "إنّنا نضع علامات استفهام كبيرة ونسأل من ارتكب أحداث 11 سبتمبر ومن استفاد مـــن هذه الأحداث؟ أعتقد أنّ الصهاينة يقفون وراء هذه الهجمات"[14]. أغضب هذا الـــزعم المدهش الولايات المتحدة. وفي مقابلة عن 9/11، ذكّر تيم روسيرت بندر أنّ ولي العهـــد الأمير عبد الله قال أيضاً عبر التلفزيون السعودي أنّ الصهاينة يقفون وراء الهجمـــات. فردّ بندر: "الصهاينة ليسوا وراءها. لقد هزّنا 9/11 من جذورنا. إنّه عمل شرّير نفّذه أشرار كانوا يستهدفون بلدكم لكنّهم يستهدفون العلاقة بين بلدينا أيضاً".

لكن الضرر وقع بالفعل.

تواصـــلت المزاعم بشأن التواطؤ السعودي في 9/11. هل ساند أعضاء من العائلة المالكـــة السعودية الهجوم الذي شنّته القاعدة؟ هل دفعت المملكة العربية السعودية إلى القاعـــدة لحماية نفسها من الهجمات الإرهابية[15]؟ وهل تصل التبرّعات الخيرية داخل المملكة إلى الإرهابيين؟ وهل المدارس الإسلامية التي تموّلها المملكة العربية السعودية تعلّم

ثقافة معادية لليهود وتوفّر أرضاً خصبة للإرهابيين؟ وهل تمتنع المملكة عن التعاون مع "السي آي أيه" و"الأف بـــي آي؟". كان فحوى التغطية الإعلامية يبثّ رائحة بشعة من اللاتسامح الثقافي والديني.

ســـعى بـــندر بشكل متكرّر لإبعاد الإسلام عن أسامة بن لادن والقاعدة و9/11 قائلاً: "يمكنني أن أؤكّد لكم أنّ هؤلاء الأشرار التسعة عشر الذين ارتكبوا جريمة 9/11 لا يمثّلون الإسلام"[16]. كما ردّ بندر بحدّة على الإيحاء بالتواطؤ السعودي في 11 سبتمبر بقـــوله: "إنّ فكـــرة قيام الحكومة السعودية بتمويل 11 سبتمبر أو تنظيمه أو حتى إنّها كانـــت تعرف به حقودة وكاذبة بشكل صارخ"[17]. وذكر بندر أيضاً: "في 9 أو 10 ســـبتمبر 2001، كـــان الأشخاص الذين تسمّيهم المملكة العربية السعودية إرهابيين يُـــسمّون في الولايات المتحدة والبلدان الأوروبية عموماً منشقّين. وفي 12 سبتمبر 2001، سمّـــت الولايات المتحدة وأوروبا الأشخاص أنفسهم إرهابيين وسألتنا، *لماذا لا تفعلون شـــيئاً حيالهم؟*"[18]. وفي توضيح متأخّر للتحدّيات التي تواجه السعوديين، سأل بندر: "أصبحت الأولوية: أين نركز؟ محاربة الإرهابيين، أو محاولة الإمساك بأموالهم، أو شرح موقفنا إلى الشعب الأميركي، إلى ما هنالك"[19].

أعطـــيت نظريات المؤامرة مزيداً من الصدقية عندما أصدر الكونغرس تقريراً عن 9/11 يبرّئ المملكة العربية السعودية ويقول: "لم نعثر على أي دليل أنّ الحكومة العربية الـــسعودية كمؤسّـــسة، أو مسؤولين كبار داخل الحكومة السعودية، موّلوا القاعدة". لكـــن تمّ التعتـــيم على بعض صفحاته. وقال السيناتور بات روبرتس (جمهوري عن كانـــساس)، رئـــيس لجنة مجلس الشيوخ للاستخبارات، إنّ ثماني وعشرين صفحة في تقرير من تسعمئة صفحة قد حرّرت لتجنّب إحراج المملكة العربية السعودية[20].

طلـــب بندر من البيت الأبيض الكشف عن محتوى هذه الصفحات بقوله: "أولاً انتقدتنا مصادر مغفلة. والآن نُنتقد بأوراق فارغة. فبعض الأشخاص يستخدمون ثماني وعـــشرين صفحة مشطوبة من تقرير من تسعمئة صفحة للطعن في بلدنا وشعبنا. ليس لـــدى المملكة العربية السعودية ما تخفيه. ويمكننا التعامل مع الأسئلة في العلن، لكن لا يمكننا الردّ على أوراق فارغة"[21].

اعـــتُقد أنّ لـــبّ الثماني والعشرين صفحة يبحث في الصلات بين الخمسة عشر خاطفاً سعودياً والحكومة السعودية وعملائها. وظُنّ أنّ الصفحات ربما تشير إلى الدعم

المـالي الـذي أفـيد أنّ الأمـراء السعوديين الكبار قدّموه إلى ابن لادن من أواسط التسعينيّات، التمويل الذي يزعم أنّه ساهم إلى حدّ ما في اختيار القاعدة أهدافاً أميركية بـدلاً مـن أهداف سعودية. واعتُقد أيضاً أنّ تلك الصفحات تحتوي على معلومات استخبارية جُمعت سرّاً، ربما عبر جهاز استخبارات أجنبـي آخر. وكشف المعلومات قـد يعـرّض العملـيات المستمرّة للخطر. واكتفى بوش في رفضه الكشف عن هذه العلومات بالقول إنّ نشر هذه الصفحات "يساعد العدوّ"[22].

ازدادت الـشكوك بـشأن المملكة الخليجية[23]. وعندما كشفت وكالة الصحافة الفرنسية أنّ الأوراق السرية تتعلّق بالسياسة السعودية لدعم الأصولية، واللاّمبالاة تجاه شـبكة القاعدة الإرهابية على الرغم من التنبيهات الأميركية، والإيحاء أنّ عمر بيومي، وهـو شـريك لاثنين من الخاطفين، قد يكون عميلاً حكومياً سعودياً، تلقّت المملكة ضـربة أخـرى[24]. مع ذلك أصرّ بندر على أنّ "القاعدة جماعة تسعى لتدمير المملكة العـربية السعودية فضلاً عن الولايات المتحدة. فبأي منطق ندعم جماعة تحاول قتلنا؟"[25]. وعلى الرغم من تبرئة المملكة في تقرير الكونغرس، فإنّ نظريات المؤامرة لم تختفِ.

قال أحد المسؤولين الأميركيين: "إنّه أمر مزعج حقّاً. فهو لا يقول إنّ جهات أو مواطنين سعوديين متورطون في 9/11 فحسب، بل الحكومة [السعودية] أيضاً". ويبدو أنّ ذلـك ما أكّده عادل الجبير، مستشار ولي العهد السعودي الأمير عبد الله للسياسة الخارجـية(*)، الـذي قال في مقابلة إنّ هناك آلاف الأفراد في العائلة المالكة، ومع أنّ تحقيقاً حكومياً داخلياً كشف "أخطاء ارتكبها بعضهم"، فإنّ مثل هذه الأخطاء ليست جزءاً من أي مؤامرة حكومية بالتأكيد[26]. وتقدّمت مجلّة نيو ريبابلك بذلك خطوة إلى الأمـام مشيرة إلى أنّ الأوراق المشطوبة تُحمل "الصلات بين مخطّط خطف الطائرات ومـستويات عالـية جـداً في العائلة المالكة السعودية". ونقلت أيضاً عن مسؤول لم تكـشف عن اسمه قوله: "هناك الكثير في الصفحات الثماني والعشرين غير المال. الكل يطـارد المؤسّـسات الخيريـة. وعليك ملاحقة الصلات المباشرة بمستويات عالية في الحكـومة السعودية. إنّنا لا نتحدّث عن عناصر مارقة، بل نتحدّث عن شبكة منسّقة تـصل الخاطفين مباشرة بأماكن عديدة في الحكومة السعودية. وإذا عُرِضت الأوراق

(*) عـيّن مؤخّراً سفيرا للمملكة العربية السعودية في واشنطن بعد استقالة الأمير تركي الفيصل من منصبه – المترجم.

الـثماني والعشرون على الملأ فليس لدي أدنى شكّ في أنّ العلاقة بأكملها مع المملكة العربية السعودية ستتغيّر بين ليلة وضحاها"[27].

لكـن تلـك العلاقة تغيّرت بالفعل. وكما قال بندر: "رأيت كل شيء قمت به طوال ثماني عشر سنة في هذا البلد ينهار أمام عينيّ"[28].

على الرغم من تبرئة لجنة 9/11 المكوّنة من الحزبين، استمرّ تردّد موجات الصدمة الـناتجة عـن هجمات القاعدة الإرهابية المروّعة التي دمّرت مركز التجارة العالمي في نـيويورك، وأحدثت أضراراً في مبنى البنتاغون في واشنطن دي سي، وشكّلت وسائل الإعلام الأميركية مركزها محدثة عاصفة من المشاعر المناوئة للمملكة العربية السعودية. وقد زعم سايمور في عرض حظي بقراءة واسعة في مجلّة نيويوركر، مدعوماً بتسريبات مـن "مسؤول في الاستخبارات" لم يكشف عن اسمه، أنّ النظام السعودي "انتقل إلى الجانب المظلم"[29].

وفي صـفحات الـرأي في الصحف في كل أنحاء البلاد، ردّد مثقّفون غاضبون اللازمـة ذاتهـا[30]. وأطلقت قصص عن وجود بندر على شرفة ترومان، والمؤامرات المتـصوّرة من وجود صلات أعمال بين بوش والسعوديين، لا سيما مجموعة كارلايل(*)، وخـروج أفراد عائلة ابن لادن، موجة من الإدانات بشأن خيانة السعوديين في الحرب على الإرهاب[31].

في فـيلم "فرنهايت 9/11"، تطرّق مايكل مور إلى العلاقة بين بندر وعائلة بوش. وقـد اشتُمّ من فيلم مور الذي تعرّض لقمع مفهوم قبل الحملة الانتخابية القادمة إثارة العواطـف علـى غرار وسائل الإعلام. وقيل إنّ الرئيس بوش وصديقه بندر: "السفير المعروف في العائلة باسم بندر بوش، حاولا تغطية مدى التورّط السعودي في الإرهاب. لكـن الحقـيقة الـتي كشفها السيد مور هي أنّ السيد بوش... متورّط بعمق، مالياً وشخصياً، مع النخب الأجنبية، ومع السعوديين على وجه التحديد"[32].

تكرّر تصوير علاقة بندر ببوش في وسائل الإعلام الأميركية أنّها عقبة في وجه العدالة والحـرب علـى الإرهـاب. "ما دام آل بوش في الحكم، لن يستطيع أحد تسمية الأشياء بأسمائها. إنّ العائلة المالكة السعودية ترعى الإرهاب وتنشره، ويجب وضع حدّ لذلك"[33].

(*) مجموعة كارلايل شركة عالمية خاصة. كان وزير الخارجية الأسبق جيمس بيكر كبير المحامين فيها، وجورج إيتش دبليو بوش من كبار مستشاريها منذ 9/11.

وفي الحملـــة الدعائـــية التي أعقبت الفيلم، أعلن مور أنّه لم يكن يعتزم صنع فيلم سياســـي. غير أنّه تخلّى عن حذره عندما أجرى معه مات لور مقابلة في برنامج "ديت لاين" على محطّة "أن بـــي سي". فعندما سئل: "أليس هذا الفليم هجوماً مباشراً على جورج دبليو بوش؟". اعترف مور ضاحكاً: "إذا عبّرت بتلك الطريقة، نعم إنّه كذلك بالطبع".

في هـــذا الـــوقت سعى صوت عاقل منفرد للبروز وسط المناخ المعادي للمملكة العـــربية السعودية. ففي تبادل للرسائل الإلكترونية مع كريغ أونغر(**)، المناوئ الملتزم لـــبوش، والمعـــادي لآل سعود، حاولت راشيل برونسون شرح خلفية الاجتماع بين الـــرئيس وبندر على شرفة ترومان بعد 9/11 مباشرة: "لنحرص على وضع الأمور في نـــصابها. كان اجتماع 9/13 مقرّراً قبل 9/11. ففي صيف 2001، كانت الحكومتان الـــسعودية والأميركية منهمكتين في نـــزاع صاخب بشأن سياسة بوش تجاه إسرائيل. وفي أغسطس 2001، هدّد ولي العهد السعودي بقطع العلاقات. وردّ بوش برسالة إلى ولي العهـــد يعبّـــر فيها عن اعتقاده بوجوب حصول الفلسطينيين على دولة... وكان اجتماع 13 سبتمبر معدّاً للتحدّث عن القضية الفلسطينية الإسرائيلية. وقد أهمل جدول الأعمال بطبيعة الحال بعد 9/11. فهناك مشاكل أكثر إلحاحاً للتحادث بشأنها"[34].

تلعب وسائل الإعلام دوراً هائلاً في التطوّرات على المسرح العالمي. فهي مسؤولة إلى حـــدّ كـــبير عن استغلال الفجوة الثقافية، والجهل وسوء الفهم الناتجين عنها بين المملكـــة العـــربية السعودية والولايات المتحدة. وقد تأمّل بندر في هذا الموقف المعقّد بطـــريقة مـــرحة عندما قال: "إنّنا ثقافتان مختلفتان؛ الرئيس يوقع كلبه، فيتصدّر ذلك الأخبار في كل أنحاء أميركا. وفي المساء يحلّل الأمر، هل أوقعه عمداً؟ هل كان يمسك بأذنـــيه؟ هـــل ركله؟ ليست لدي مشكلة في ذلك. فأنا بعد عشرين عاماً أستمتع في الاســـتماع إلى هـــذه الأشـــياء". إنّ أسلوبـــي تقديم الأخبار مختلفان جداً في وسائل الإعـــلام الأميركية والسعودية. ففي حين تفحّصت وسائل الإعلام الغربية التدابير التي

(**)فـــي مقـــال، "إنقـــاذ السعوديين" في مجلّة "فانتي فير" في أكتوبر 2003، انتقد غريغ أونغر بشدّة تـــرحيل المواطنـــين السعوديين بعد 11 سبتمبر. وهو أيضاً مؤلّف كتاب "آل بوش وآل سعود: العلاقة السرية بين أقوى عائلتين حاكمتين في العالم (House of Bush, House of Saud: The Secret Relationship Between the World's Two Most Powerful Dynasties (New York: Scribner, 2004).

اتخــذت في أعقاب 9/11 بتفصيل شديد، فإنّه يتمّ الإفادة عن بنود شديدة الأهمية من الأخــبار بطــريقة عابرة في المملكة العربية السعودية ويمكن ألا تحظى بأي اهتمام في وســائل الإعــلام الغربية. وأوضح بندر: "في المملكة العربية السعودية، هل أمسكنا بالخمـــسة بالمـــئة الذين ينفّذون الأعمال السيئة، الخمسة بالمئة الفاسدين؟ نعم، انتهى النقاش، و لم يعد ذلك خبراً. لنتابع حياتنا؛ وليعاقب من تجب معاقبته، وليُعد إلى المجتمع من يعلن توبته. ما أقصد أن أقوله أنّنا نعبّر عن أنفسنا بطرائق مختلفة".

يـــبرز الخطر عندما تصبح وسائل الإعلام منحازة وتبدأ بتقديم التقارير عما تريد سماعهـــا فقط. وقد علّق بندر المحبط على تأثير ذلك في بلده: "ما يثير غضبـــي هو أنّ رئيس الولايات المتحدة يقول، *إنّهم أصدقاؤنا ويتعاونون معنا*. ويقول وزير الخارجية، ووزير الدفاع، ومستشارة الأمن القومي، ومدير السي آي أيه، ومدير الأف بـــي آي الشيء نفسه، ولا يشكّل ذلك خبراً. ويقول مسؤول كبير في الأف بـــي آي، *إنّهم لا يـــتعاونون* فيكون ذلك هو الخبر. فتسأل نفسك أحياناً، *من الذي يدير هذه الحكومة اللعينة؟*"[35].

وقـــد أيّد روبرت جوردان، السفير الأميركي في المملكة العربية السعودية، هذه الفكرة باختصار عندما عبّر عن إحباطه من وسائل الإعلام بقوله: "سئمت من الأخبار الأميركـــية المـــضلّلة عن عدم التعاون السعودي في الحرب على الإرهاب". ووصف التقارير أنّها غير صحيحة واتهم بعض المراسلين الأميركيين بالبحث عن كبش فداء[36].

غير أنّ وسائل الإعلام حصلت على شيء آخر. فقد كُشف أنّ الشيكات الموقّعة من قبل زوجة بندر، الأميرة هيفاء، والمسلّمة كمعونة خيرية إلى أمّ أردنية لستة أطفال، ماجـــدة إبراهيم أحمد، قد صُرفت في الواقع واستُخدمت لتمويل اثنين من إرهابيي 9/11، خالد المحضار ونواف الحزمي[37].

أثـــار الكـــشف عـــن هذه القنبلة صخباً. فهذا المال الذي كان يهدف إلى دفع تكاليف علاج حالة الغدّة الدرقية عند أحمد، حُوّل في الظاهر إلى منظّم أنشطة القاعدة عمـــر البيومـــي عبر أسامة باسنان[38]، الزوج السعودي للمستلمة المسمّاة. وقد أرسل بندر تكاليف العملية الابتدائية البالغة 15,000 دولار كمعونة في أبريل 1998، وغطّت هيفاء تكاليف متابعة المعالجة بشيكات بقيمة 2,000 دولار في الشهر ابتداء من نوفمبر 1999 وانتهاء بمايو 2002 [39]. و لم يلتق بندر ولا زوجته بتلك المرأة قطّ.

قد يبدو من غير العادي بالنسبة إلى الغربيين أن تنتقل هذه المبالغ من يد إلى أخرى بطريقة اعتباطية. لكن كما أوضح أحد النقّاد: "التبرّعات الخيرية للمحتاجين واجب على المسلمين ويحضّ عليها القرآن؛ وتتصدّق الأميرة هيفاء وزوجها بالكثير"[40]. وأوضحت الأميرة هيفاء كمسلمة متديّنة: "يدعوننا ديننا إلى التصدّق على المحتاج، وهو من الأشياء التي لا يعلن عنها؛ فأنت تقدّم المساعدة فحسب، ويُكتب لك ذلك"[41].

قالت ميمي بورك، سكرتيرة السفارة السعودية في ذلك الوقت: "أقحمت هيفاء في الصحف، وكان ذلك فظيعاً"[42]. فهي أمّ لثمانية أولاد وجدّة لاثنين، ولعلّها من أكثر الأهداف التي يمكن أن تتناولها الصحف تعرّضاً للانجراح. فخلافاً لشخصية زوجها الاجتماعية، كانت هيفاء تؤثر عدم حضور مآدب العشاء الرسمية، وتتجنّب التصوير لأسباب ثقافية. وقد أفاد فيكتور شيبلي، محرّر صحيفة واشنطن ديبلومات، أنّ المسؤولين السعوديين يطلبون تقليدياً ألا تصوّر صحيفته الأميرات في الأحداث العامّة[43].

صُدمت الأميرة هيفاء بالأحداث العلنية جداً التي أحاطت بعملها الخيري، فأبلغت صحيفة نيويورك تايمز: "أقل ما يمكن أن أقوله هو أنّني أغضب عندما يعتقد بعض الأشخاص أنّني مرتبطة بالإرهابيين، فيما كان كل ما أريده هو تقديم بعض المساعدة لمن يحتاج إليها"[44]. وكان لدى الأميرة هيفاء سبب وجيه لشعورها بالغضب. فقد أوضحت في أحد التصاريح: "إنّني أجد الاتهامات أنّني تبرّعت بالأموال إلى الإرهابيين فظيعة وغير مسؤولة البتة. لقد قُتل والدي، الملك فيصل، في عمل إرهابي. هذا وقت يجدر أن يجتمع فيه الناس معاً لمحاربة بلية الإرهاب لكي لا يعاني الآخرون من فقدان أحبّائهم"[45].

على الرغم من احتجاجات الأميرة هيفاء، واصلت الصحافة عنادها وقسوتها. وفي إحدى فورات النقد اللاذع المعهودة، كتب مات ولش في صحيفة ناشيونال بوست الكندية، "إنّني أسمّي أوّل مرشّحين للطرد من البلد: الأمير بندر بن سلطان، السفير السعودي في الولايات المتحدة، وزوجته الأميرة هيفاء الفيصل"[46].

عن تألّم الأميرة هيفاء من الحادثة، تذكر ميمي بورك: "كان من الصعب جداً اجتياز تلك السنة، لكنّها حافظت على المصالح الخيرية لمؤسسة موزاييك؛ لقد قلبت الأمور حقاً وجعلت منها منبراً عظيماً للشرق الأوسط بأكمله عقب 9/11". فالأميرة

هـــيفاء ترأس مؤسسة موزاييك التي أسّستها زوجات السفراء العرب في سنة 1998. وهـــي تجمع الأموال لقضايا أميركية ودولية. وأضافت بورك: "احتشد الجميع خلفها وأظهروا دعمهم لها؛ وقد عنى ذلك الكثير لها"[47]. مع ذلك كان لهذا الأمر انعكاسات ســلبية في الصحافة، عندما اكتشفت أنّ باربرا بوش وألما باول - وكلاهما صديقتان مقـــرّبتان مـــن الأميرة هيفاء - اتصلتا وعبّرتا عن تأييدهما لها وتعاطفهما معها. فقد فُسّرت هذه الأعمال التي تنمّ عن الصداقة في صحيفة نيويورك تايمز بهذه الطريقة: "غير أنّ أكثر عروض الإدارة إحراجاً جاء من الجانب النسائي"[48].

دافـــع كـــولن باول أيضاً علناً عن الأميرة هيفاء وزوجها قائلاً: "إنّهما صديقان قـــديمان لي، وأعتقد أنّ من المستبعد جداً أن يقدّم الأمير بندر أو الأميرة هيفاء المال إلى أفـــراد أو منظّمات تقوم بأنشطة إرهابية". وأضاف ملاحظة نبيهة موجّهة بوضوح إلى التغطـــية الكثـــيفة للصحافة: "أعتقد أنّه يجب النظر إلى هذه المسألة وسماع آراء كل الأطـــراف، ومعـــرفة ما هي المعلومات والأدلة قبل أن يسرع الأشخاص إلى استنتاج حـــدوث خطأ أم لا"[49]. غير أنّ أحداً لم يكترث لنصيحة باول، فعلى الرغم من تقرير صـــحيفة نيويورك تايمز في أواخر سنة 2002 أنّ الأف بـــي آي لم يجد أي دليل على أنّ المـــال ذهـــب إلى الخاطفين[50]، وعلى الرغم من أنّ لجنة 9/11 برّأت ساحة الأميرة هـــيفاء أيضاً بقولها إنّها لم تجد أي دليل على أنّها قدّمت المال "بصورة مباشرة أو غير مباشـــرة" إلى مؤامـــرة 11 سبتمبر[51]، فقد وقع الضرر بالفعل. كان الضرر الذي لحق بالعلاقات الأميركية السعودية حادّاً. وغيّرت الدعاية السلبية الرأي العام الأميركي تماماً تجـــاه المملكـــة العـــربية السعودية. وأفادت صحيفة واشنطن بوست أنّ 54 بالمئة من الأميركيين ينظرون إلى المملكة العربية السعودية على أنّها دولة تدعم الإرهاب، مقارنة بـــنحو 35 بالمـــئة فقط لديهم اعتقاد مماثل عن سوريا، وهي دولة لا تزال على لائحة وزارة الخارجية للدول الداعمة للإرهاب منذ 29 ديسمبر 1979[52]. وأعلنت الصحيفة أيـــضاً أن مهاجمـــة السعوديين بلغت مرحلة مثيرة للسخرية، وكتبت أن ربط الأميرة هـــيفاء بإرهابيـــي 9/11 كـــان "واهياً جداً ولا أساس له بحيث يعادل محاكاة ساخرة للـــذنب بالارتباط". ورأت بعد ذلك أنّ هذه الإثارة المحمومة ضدّ المملكة "ما هي إلا آخـــر مثال على ارتكاب الكونغرس والبيروقراطية الفيدرالية عملاً غير مسؤول، وقيام وسائل الإعلام بنشره ليس إلا"[53].

خلال جولة لإلقاء محاضرات تهدف إلى تقديم الآراء السعودية بشأن 11 سبتمبر، أكّد بندر أنّ "مأساة وجريمة 9/11 كان لها هدف واحد: دقّ إسفين بين الولايات المتحدة والمملكة العربية السعودية"[54]. وبعد ذلك بشهر، في أعقاب نشر تقرير لجنة 9/11، صرّح الأمير: "أكّدت لجنة 9/11 ما كنّا نقوله طوال الوقت. لقد كشفت البيانات الواضحة لهذه اللجنة المستقلّة المشكّلة من الحزبين زيف الخرافات التي نشرت الشكوك والمخاوف من المملكة العربية السعودية"[55].

أوجز السفير الأميركي السابق في المملكة العربية السعودية، تشاس دبليو فريمان، ما تسرّعت وسائل الإعلام في استغلاله عندما قال: "ثمة انفصال كبير بين المزاج الشعبي والمصلحة القومية"[56]. فدائرة النفوذ السعودي في الولايات المتحدة، وأفضل وصف لها هو التأثير الهرمي، الذي ازداد كثيراً وتضخّم في أثناء وجود بندر كسفير، كانت محدودة على العموم بالطبقات العليا من المجتمع الأميركي؛ أي أنّ التأثير كان من الأعلى إلى أسفل.

بعبارة أخرى: "تحتاج المملكة العربية السعودية إلى التأثير في القلّة التي تؤثّر في الكثرة، بدلاً من الحاجة إلى التأثير في الكثرة التي تستجيب لها القلّة"[57]. أُخذت هذه الملاحظة من استراتيجية جي كروفورد كوك المقترحة للعلاقات العامّة ووسائل الإعلام الخاصة بالمملكة العربية السعودية في الولايات المتحدة الموضوعة قبل عدّة عقود، وهي الاستراتيجية التي اتبعها بندر بثقة في الأشهر التي أعقبت 9/11. وتعكس ملاحظات كوك بدقّة طبيعة العلاقة السعودية الأميركية - الطاقة للأمن - التي تشمل الفاعلين فقط في السياسة الخارجية على العموم.

أدّى 9/11 إلى تحطيم هذا النظام الهرمي الهشّ. سحب البساط من تحت المملكة العربية السعودية وتحويل جهل الشعب الأميركي للمجتمع السعودي والدين الإسلامي، فضلاً عن صداقتها الطويلة مع القيادة الأميركية ضدّها. لذا صار من المهمّ بالنسبة إلى المملكة العربية السعودية الوصول إلى الشعب الأميركي، وشرح الطبيعة الحقيقية للإسلام والثقافة العربية، قبل أن تبدأ الصور النمطية الخطيرة بالإجابة عن العديد من الأسئلة التي أثارتها هجمات 11 سبتمبر في الوعي العام.

هذه الأسئلة، إلى جانب عدم اتصال المملكة العربية السعودية سابقاً بالشعب الأميركي، فتحت الباب أمام تخمينات وسائل الإعلام المقيتة والخبيثة في الغالب. وكما

أشار السفير تشاس فريمان: "نجح تشويه صورة المملكة العربية السعودية في أعين الرأي العام الأميركي... وقد تحقّق ذلك لأنّ العلاقة السعودية الأميركية كانت ذات قاعدة ضيّقة أساساً، وليست لديها وسائل إعلام جماهيرية أو بعد جماهيري واسع... وأخذ 9/11 هذه العلاقة ذات القاعدة الضيقة وفجأة جعل الشعب في كلا البلدين شديد الاهتمام لها"[58].

ولاحظ مارك بيرلمان في صحيفة ذا فوروارد أنّه قبل 9/11، "كانت المملكة العربية السعودية معروفة أساساً كأحد الحلفاء العرب المعتدلين للولايات المتحدة ومصدرها الرئيسي للنفط. والآن تُصَوَّر على أنّها مكان استيلاد الإرهابيين والقناة المالية للإرهاب الإسلامي"[59]. ولاحظت صحيفة لوس أنجلس تايمز أيضاً أنّ "المشرّعين ووسائل الإعلام شنّوا أشرس الهجمات [ضدّ السعوديين]، بما في ذلك الصفحات الافتتاحية في وول ستريت جورنال وواشنطن تايمز وويكلي ستاندرد، بالإضافة إلى أعمدة المعلّقين البارزين من المحافظين الجدد مثل غافني وتشارلز كروثامر من واشنطن بوست، الذين تربطهم علاقات وثيقة بحزب الليكود الإسرائيلي الذي لطالما نظر إلى تحالف الرياض مع واشنطن بمثابة تهديد استراتيجي"[60]. وقد ضخّمت تعليقات الطرفين الصحفية المخاوف السعودية من وجود تلاعب متنام وخطير في موقف العلاقات العامّة في الولايات المتحدة لمصلحة إسرائيل. ومما لا شك فيه أنّ اللوبي الإسرائيلي استفاد من عواقب 9/11 المعادية للعرب والتي أذكتها وسائل الإعلام؛ فقد ضعف أكبر خصومها، اللوبي العربي، بشدّة في أعين الجمهور. وعانت العلاقة الأميركية السعودية من توتّر هائل.

في وجه هذه السلبية الشديدة التي تتردّد في كل الصحافة الأميركية، ومع الاعتقاد الذي يجيش منذ مدة طويلة في أوساط العرب أنّ وسائل الإعلام الأميركية تخضع لسيطرة الجالية اليهودية، وممثّليها في المنظّمات الصحفية، أنتجت بذرة الاستياء هذه، نظرية مفادها أنّ اللوبي اليهودي ومؤيّديه ينظمان هجوماً صاعقاً في وسائل الإعلام ضدّ المملكة العربية السعودية[61]. وشعر العديد من المسؤولين السعوديين أنّ "الجماعات المعادية للمملكة العربية السعودية وغيرهم ممن لديهم ارتباطات باللوبي الصهيوني في واشنطن يسعون لتأليب الرأي العام الأميركي على المملكة العربية السعودية والعرب والمسلمين"[62].


السفير
ريتشارد مورفي

أوضح السفير الأميركي الأسبق في المملكة العربية السعودية ريتشارد مورفي كيف كانت الصحافة الأميركية تُحدث مناخاً من عدم الثقة داخل المملكة العربية السعودية، ويبرز مستوى الاستياء الذي يشعر به السعوديون من الهجوم المتواصل منذ هجمات 9/11. ورأى أنّ هذا الهجوم أكّد أسوأ مخاوفهم لأنّهم مقتنعون تماماً من أنّ اليهود يسيطرون على وسائل الإعلام الغربية[63]. أيا تكن الحقيقة، فقد أثبت 9/11 أنّه عامل مُحفّز لضعف سوء فهم الشريكين المختلفين جداً في العلاقة الأميركية السعودية.

وكما لاحظ بندر بحزن: "إنّ أخطر وأشر ما في 9/11 هو أنّه لأول مرة يهزّ الثقة القائمة بين الشعبين السعودي والأميركي"[64].

وعلّق الرئيس الأسبق جيمي كارتر على الشعور المتنامي في الولايات المتحدة أنّ "السعوديين ليسوا أهلاً للثقة كما كنّا نعتقد سابقاً في حماية أنفسهم وحمايتنا من تهديد الإرهاب. فلا يزال هناك في الواقع إحساس أنّ الحكومة السعودية تواصل بالسرّ تمويل عناصر في المملكة العربية السعودية تدعم الجماعات الإرهابية"[65]. بل إنّ الصحافة خمّنت أنّ السعوديين دفعوا إلى الجماعات الراديكالية لترك المملكة العربية السعودية وشأنها. وعندما بحثت ذلك مع الدكتور هنري كيسنجر، تحدّث عن دور الصحافة المحوري في انعدام الثقة العامّ في العلاقات الأميركية السعودية. وأرجع جانباً كبيراً من ذلك القلق إلى المدارس الدينية المحافظة جداً، وتدفّق الأموال السعودية التي وجدت طريقها إلى القاعدة؛ غير أنّه أقرّ أيضاً أنّ الحكومة السعودية قد أحكمت ضوابطها المالية كثيراً، وأنّ النظام السعودي يعمل على تصحيح القضايا الرئيسية. وأعرب كيسنجر عن اعتقاده أنّ السعوديين "يسعون بصدق لتحسين الأمور"[66].

عندما سئل بندر في مقابلة عن أموال الحماية السعودية المحتملة التي دُفعت إلى القاعدة، أجاب ببساطة: "إنّها قصة جذّابة. وأعتقد أنّها قصة ممتعة. لكنّها غير صحيحة". ومضى ليشرح بشكل واضح: "إنّها غير صحيحة لأنّنا لم نقلق البتة بشأن

تـــأثير هذه المنظّمات في بلدنا. ربما دفعنا إلى أشخاص لأسباب أخرى. على سبيل المثال، عندما نشبت مشاكل بين الفلسطينيين والأردنيين، ربما قلنا، *خذوا هذا، وخذوا ذاك. فـــضّوا الاشتباك، وليترك كل منكما الآخر*. وربما دفعنا إلى أشخاص آخرين ليتحوّلوا من ثوريين إلى مواطنين جيّدين. لكنّنا لم ندفع البتة بمعنى *حماية نفسي؛ دعني وشأني*"[67].

وقـــد أصدر عادل الجبير بياناً يتناول الدور الذي يضطلع به آل سعود في الحرب على الإرهاب ويقول: "إنّنا لا نلاحق الإرهابيين فحسب، وإنّما أيضاً نلاحق الأموال والعقلـــية اللـــتين تـــدعمانهم أو تتغاضيان عن أعمالهم"[68]. وكدليل على ذلك وعلى تأكـــيدات كيسنجر أنّ السعوديين يقومون بالفعل بعمل حاسم وفعّال، أوقف آلاف الأئمّـــة الذين انتهكوا منع الدعوة إلى عدم التسامح عن العمل أو أحيلوا إلى التدريب، كما طُوِّرت الكتب الدراسية والمناهج.

وفي مـــواجهة المزاعم المستمرّة المتعلّقة بالتمويل السعودي للإرهاب، ذكّر بندر محاوريه: "قبل سنة أو اثنتين، كانت المملكة العربية السعودية هي التي جاءت وخبطت علـــى الطـــاولات في واشنطن قائلة، *لقد تعقّبنا أموالاً يفترض أنّها ذاهبة إلى الأعمال الخيرية، لكنّنا لا نعرف إلى أين تذهب. ويمكننا أن نتعقّبها إلى أوروبا وسويسرا، لكن مـــا إن تصل إلى أميركا حتى نفقد أثرها*. لكنّهم قالوا لنا إنّهم لا يستطيعون التدقيق في هذه الحسابات بموجب القانون"[69].

أحـــدث المناخ السائد منذ 9/11 ثورة في النهجين السعودي والأميركي في تعقّب الأمـــوال، ويتعاون البلدان معاً تعاوناً وثيقاً. وأكّد موظّف في وزارة الخزانة الأميركية "أنّـــنا أنشأنا علاقة عمل وثيقة مع السعوديين للتعامل مع تمويل الإرهابيين على وجه الخـــصوص"(*). بـــل لاحـــظ تقرير صادر عن الفريق الخاص للعمل المالي أنّ الأنظمة السعودية المطبّقة حديثاً للتشديد على إساءة استخدام الجمعيات الخيرية في المملكة "ربما تتجاوز ما هو معمول به في أي بلد في العالم"[70].

أكّـــد جـــيمس بيكر هذا الشعور مشيراً إلى أنّه عمل مع السعوديين خلال أربع إدارات بصفات مختلفة، وشدّد على أنّ السعوديين "أصدقاء جيّدون لنا"، وحرص على إبـــراز الروابط القوية التي تكوّنت في أثناء حرب الخليج الأولى والدعم الذي لقيناه من

(*) خـــوان ســـي زارات، نائب مساعد الوزير، المكتب التنفيذي لتمويل الإرهابيين والجرائم المالية، وزارة الخزانة الأميركية.

المملكة العربية السعودية. ومع ذلك، وعلى ضوء النفور الذي أبداه الجمهور ووسائل الإعــلام الأميركية تجاه المملكة في أعقاب 9/11، شدّد بيكر على أنّ السعوديين بحاجة إلى تحسين صورهم العامّة[71].

وعندما سئل الرئيس الأسبق كارتر عن شعوره بشأن منحى العلاقات الأميركية السعودية في أعقاب أحداث 9/11 المروّعة، قال بصراحة: "أعتقد أنّ العلاقة بين العائلة المالكة السعودية والحكومة الأميركية – أي مع الرئيس ونائب الرئيس ووزير الدفاع – جــيّدة جــداً". وتابــع قائلاً: "أجد أنّ لدينا ولدى السعوديين سبباً مشتركاً ومبرّراً لمكافحة الإرهاب، لكنّني أرى أيضاً أنّ بعض الإسلاميين المتشدّدين مرتبطون بالأعمال الإرهابــية. وأنّ خمــسة عشر من التسعة عشر الذين قاموا بهجمات 9/11 من المملكة العــربية الــسعودية، وتلك حقيقة لا يزال يتذكّرها الكثير من المواطنين". وبعد إجمال المخــاوف المــشتركة التي برزت بعد 9/11، خلص الرئيس الأسبق: "لكنّ إحساسي الشخصي بالصداقة والولاء امتناناً للملكة العربية السعودية لم يفتر"[72].

في تبرئة المملكة العربية السعودية من الادّعاءات أنّها ساعدت على تمويل هجوم القاعدة، ذكر تقرير لجنة 9/11: "لم نجد أي دليل على أنّ الحكومة السعودية كمؤسّسة أو مــسؤولين ســعوديين كباراً موّلوا المنظّمة بشكل فردي"[73]. يُعتَبر زعيم القاعدة، أسامة بن لادن، كعضو سابق في عائلة سعودية واسعة الثراء والنفوذ، السبب الأساسي للشكوك الأميركية في المملكة العربية السعودية. وغالباً ما تتغاضى الصحافة الأميركية عن أنّ هذا الرمز الدولي للكراهية وانعدام التسامح طُرد من المملكة في سنة 1991 لأنّ معتقداته الخلافية لم تكن موضع ترحاب أو قبول.

في ســنة 1994، تــبرّأت عائلة ابن لادن من أسامة قانونياً وسحبت منه الجنسية الــسعودية. وجُمّــدت كل أصوله المالية في المملكة منذ ذلك التاريخ فما بعد. وكما أوضــح بــندر: "اجــتمعت عائلته معه، فأبلغهم أنّهم جميعاً منتهكون للمقدّسات، وفاســدون، ... لــذا تــبرّأوا منه قانونياً، وعندما فعلوا ذلك، سحبت منه الحكومة الجنــسية". إنّ عائلــة ابــن لادن لا تدعم أسامة بن لادن وكذلك المملكة. بل إنّهم يخجلون من إيديولوجيّته المتعصّبة. ومع ذلك ثمة في الغرب رابط ملازم يفترض الذنب.

لا يمكــن إنكــار وجــود صلة بين أسامة بن لادن والعائلة المالكة السعودية في الماضــي؛ غــير أنّ مــا لا يدركه الجمهور الأميركي هو أنّ الإدارة الأميركية كانت


أسامة بن لادن

متورّطة أيضاً مع هذا الشخص الذي أصبح زعيماً متطرّفاً لاحقاً. وكما أوضح بندر في مقابلة مع برنامج **فرونت لاين**، "كان ابن لادن يأتي إلينا عندما كانت أميركا - وشدّد على أميركا - تساعد عبر السي آي أيه والمملكة العربية السعودية، إخواننا المجاهدين في أفغانستان للتخلّص من قوات الاتحاد السوفياتي العلمانية الشيوعية. فجاء أسامة بن لادن وقال، *شكراً لكم، شكراً لأنكم أحضرتم الأميركيين لمساعدتنا على التخلّص من السوفيات العلمانيين الملحدين*"[74].

تمّ التغاضي عن أسامة بن لادن عندما كانت الشيوعية تعتبر أعظم الشرور. ولم يكن بالنسبة إلى السعوديين أكثر من مسبّب للإحراج غير مرحب به. يقول بندر: "لم نعطه البتة الوزن الذي يعطيه إليه الجميع اليوم. كنّا نظنّ أنّه مجرّد إزعاج، وأنّه مضرّ بصورة المملكة العربية السعودية والإسلام وعائلته. لم نكن نعتقد أنّه ابن لادن الذي يقوم بكل هذه الأشياء". لم يُثرْ لدي انطباعاً أنّه يمكن أن يكون قائداً لأي شيء. بل إنّني في ذلك الوقت اعتقدت أنّه لا يستطيع أن يقود ثماني بطّات في الشارع".

يحاول بندر في المقابلات إزالة الوهم لدى الجمهور الأميركي عن سلطة أسامة بن لادن وأتباعه في الشرق الأوسط بالقول: "أنتم تجعلون طول قامة هذا الرجل عشرين قدماً... لو كنت قوياً كقوة ابن لادن، ورسالتي قوية كقوة رسالة ابن لادن، وأتباعي كثراً كأتباع ابن لادن، فلماذا أختبئ في كهف في أفغانستان؟ سأذهب إلى حيث يحسب لي حساب. سآتي إلى المملكة العربية السعودية، وأقود ثورة... وأجعل أتباعي يتولّون السلطة!"[75].

أدى 11 سبتمبر إلى قيام أميركا بالطعن في ذلك البلد بدلاً من أن تقدّم إليه الدعم الذي يحتاج إليه لمقاتلة عدوّ مشترك. قبل 9/11، كانت المملكة العربية السعودية تتعرّض للهجوم بسبب سياسات حقوق الإنسان وحرية التعبير، وفي ذلك تعارض أشار إليه بندر بقوله: "يبلغني بين الحين والآخر بعض المتذاكين في وسائل الإعلام هنا

[أميركا] أنّكم *لو تعطون فقط الناس حرية التعبير فلن يذهبوا ويفجّروا الآخرين*. يا أصدقائي، نحن لم نسمح لهؤلاء القوم بالتحدّث لأنّنا نعرف ما سيقولون، وعندما سمعتموهم يتحدّثون، كان 9/11 هو الجواب. لدينا سبب لمنع هؤلاء الأشخاص من التعبير عن آرائهم، لا نريد الأشخاص الذين يبثّون الحقد والعنف، لكي لا يعملوا أو يعمل بعض الأغرار بها"[76].

في حقبة ما بعد 9/11، اتضح بسرعة أنّ بطء الإصلاح في المملكة العربية السعودية لم يعد مقبولاً في واشنطن، وبخاصة في ضوء الموقف العامّ السلبي تجاه المملكة. وأكّد السفير ريتشارد مورفي على أنّ السعوديين كانوا متردّدين حتى بعد 9/11 في التعاون مع السلطات الأميركية، بل إنّهم أصرّوا على إنكار وجود مشكلة إرهاب داخل المملكة العربية السعودية. وكانوا بطيئين في الاعتراف أنّ الإسلام الجهادي يشكّل تهديداً. لكن تلقّت المملكة ضربة أيقظتها[77].

لم تغيّر الحكومة السعودية سياستها بشكل جذري، وتوافق على مزيد من التعاون مع الولايات المتحدة إلا بعد وقوع هجوم انتحاري في 12 مايو 2003، حيث تمّ تفجير ثلاث سيارات مليئة بالمتفجّرات في مجمّع سكني في الرياض ما أدى إلى مقتل خمسة وثلاثين شخصاً وجرح مئتين. عندئذ، وبعد سنوات من التراخي والتعتيم، بدأ النظام السعودي يتحرّك بقوة ضدّ الإرهاب. وفي اعتراف ملحوظ، قال أحد الشبان السعوديين: "لم يعنِ 9/11 شيئاً في المملكة العربية السعودية. وبعضهم لم يصدّق أنّ هناك أي سعودي متورّط فيه؛ واعتقد آخرون أنّها مؤامرة أو أنّ أميركا تستحق هذا العمل بسبب وقوفها إلى جانب إسرائيل. لقد كان 12 مايو بمثابة 9/11 لدينا. وكان علينا منذ ذلك الحين الإقرار أنّ القاعدة ليست خيالاً. إنّها هنا"[78]. لقد هزّت تفجيرات 12 مايو الناس وأبعدتهم عن قناعاتهم[79]. وأعلن ولي العهد الأمير عبد الله: "ليس هناك مكان للإرهاب". وتعهّد بتدمير الجماعة المسؤولة عن ذلك[80].

في أعقاب تفجيرات مايو 2003، بدأ السعوديون أخيراً يتعاملون مع المجالات التي تثير المخاوف، واكتسبت الحرب على الإرهاب داخل المملكة زخماً جديداً. أقرّت المملكة العربية السعودية أنّ هناك سعوديين متورطين، وأنّه قد يكون للقاعدة خلايا في المملكة[81]. وبدأت قوات الأمن تطارد هذه الخلايا. وصُرف نحو ألفين من أشدّ رجال الدين تطرّفاً، أو ألحقوا ببرامج إعادة تدريب. وبدأ القادة الدينيون يقولون إنّ القاعدة

تخالف التعاليم الإسلامية. وشدّدت المملكة أيضاً على تمويل الإرهابيين، وصارت الآن تمتثل بصرامة لمعظم القوانين الدولية المتعلّقة بالتمويل. وأغلقت المملكة بعض الجمعيات الخيريــة المشبوهة، وجعلت التمويل خارج المملكة مخالفاً للقانون. وبدأت تتعاون مع "الأف بـــي آي"، و"الــسي آي أيه" بدرجة أكبر من ذي قبل[82]. وقد دفعت هذه المــبادرات تــوماس ليــبمان لأن يكتب: "من الواضح أنّ المملكة العربية السعودية أصــبحت الآن مجتمعاً دينامياً. فهناك مزيد من النقاش. لقد تلقّى السعوديون الرسالة بوجــوب اتخاذ إجراءات صارمة. وأجري إصلاح كبير للمناهج الدراسية. وثمة مزيد مــن قنوات الانفتاح السياسي. ويعمل السعوديون مع العالم الخارجي. وازداد اطلاع الناس على المعلومات"[83].

قـــدّم بـــندر في سنة 2004 التحديد الحاسم للنهج السعودي تجاه الإرهاب. ففي بـــيان جـــريء وشديد الانتقاد عن الحرب على الإرهاب، عبّر عن توبيخ قاسٍ لبعض المـــسؤولين عن الأمن في المملكة العربية السعودية، وطالب بحرب شاملة على القاعدة. وفي مقالـــة قـــوية في صحيفة الوطن السعودية الإصلاحية، رأى بندر أنّه لم تتمّ تعبئة المجتمع السعودي ولا الدولة لهذا النضال بشكل تامّ[84].

كتب بندر: "الحرب تعني... إنّها حرب لا تعني الرقّة، بل القسوة". وحدّد الأمير العدو بوضوح قائلاً: "إذا تعاملنا معهم بتردّد على أمل أنّهم شبّان مسلمون مضلّلون، وأنّ الحـــل هـــو دعـــوتهم إلى اتباع سواء السبيل، على أمل أن يثوبوا إلى رشدهم، فسنخسر هذه الحرب، وذلك يعني أن نخسر كل شيء أنجزته هذه الدولة وهذا الشعب في السنوات الستمئة السابقة". وبعد أن استبعد بصراحة الميل على أعلى مستويات العائلة المالكـــة الـــسعودية إلى إلقـــاء اللوم في الهجمات الإرهابية على المملكة على جهات خارجية، طالب بندر: "كفى لوم الآخرين عندما يكمن السبب داخل صفوفنا!"[85].

كـــان البـــيان المتشدّد الذي أصدره بندر إرهاصاً بحدوث تغيّر في المملكة العربية السعودية، ليس أقلّه تعيينه من قبل الملك عبد الله في 16 أكتوبر 2005 أميناً عاماً لمجلس الأمـــن الـــوطني، برتبة وزير في الحكومة. ولمجلس الأمن الوطني تفويض بتغطية الأمن الـــوطني للمملكة بأوسع معنى، لذا تحوّل مجلس الأمن الوطني الذي أعيدت هيكلته إلى أقوى هيئة لصناعة السياسات في المملكة[86]. لم يكن في وسع بندر بصفته سفيراً سوى محاولة الردّ على الانتقادات الموجّهة إلى المملكة في أعقاب 9/11؛ أما بصفته أميناً عاماً

لمجلس الأمن الوطني المسؤول عن السياسة الأمنية، ففي وسعه الآن المشاركة بشكل مباشر في التحوّل اللازم جداً للمملكة. ومن الممكن الآن أن يعجّل نفوذ بندر في تحقيق التغيّر الذي تحتاج إليه المملكة كثيراً.

مع ذلك، اتخذت وسائل الإعلام الأميركية موقفاً لامبالياً من التزام المملكة العربية السعودية في الحملة على القاعدة والإرهاب. فأشارت إلى أنّها تساهلت حتى الآن في التسامح غير الرسمي مع القاعدة، ولاحظت أنّ "الرقابة الحكومية المتراخية على المؤسّسات الخيرية والأموال التي ترسلها إلى الخارج تسمح بتدفّق مبالغ كبيرة إلى تدريب الإرهابيين وعملياتهم. لقد تغاضى الحكّام السعوديون عن العمليات الإرهابية ما دامت موجّهة خارج حدودهم". وخلصت صحيفة نيويورك تايمز إلى أنّ المملكة لم تبدأ إجراءاتها الصارمة ضدّ الخلايا الإرهابية داخل المملكة إلا "عندما وسّعت القاعدة أهدافها لتشمل مواقع وأشخاصاً داخل المملكة العربية السعودية نفسها"[87]. مع ذلك، أصدر مجلس العلاقات الخارجية تقريراً يشير فيه إلى أنّ قوانين الحكومة السعودية الجديدة للرقابة على غسيل الأموال والتبرّعات تلبّي المعايير الدولية في العديد من النواحي أو تتجاوزها[88].

ثمة تغيّر حاصل في المملكة العربية السعودية، لكنّه بطيء بالضرورة لكي يجاري شعبها. وكما أوضح بندر: "إنّنا البلد الوحيد في العالم الذي تكون فيه الحكومة ريادية والشعب أكثر تحفّظاً. ومعظم المشاكل التي نواجهها هي أنّنا نريد التقدّم إلى الأمام. لكنّنا لسنا متعجرفين جداً بحيث نعتقد أنّنا سنتقدّم إلى الأمام بصرف النظر عما يفكّر فيه شعبنا"[89].

من الواضح أنّ هناك عناصر متطرّفة ضمن الفئة المتشدّدة المحافظة. يقول بندر موافقاً: "يوجد في المملكة العربية السعودية نوع خاصّ من المتطرّفين والمتعصّبين، وحتى المحرّضين على الكراهية. وهي ليست فريدة في ذلك... لكن الشكل المحلي للإفراط في المحافظة كان ولا يزال انعزالياً بطبيعته. وهمّه الرئيسي هو إبقاء المملكة خارج الحركة باتجاه الحداثة التي يعتبرونها تهديداً للنقاء الأخلاقي للإسلام. وتعاليمهم ليست إيديولوجية القاعدة التوسّعية العالمية، بل إيديولوجية انعزالية ومناهضة للحداثة"[90].

يجب عدم الخلط بين هذه الأقلّيات والقاعدة التي تشكّل إيديولوجيّتها تهديداً للمملكة العربية السعودية بقدر تهديدها للعالم الغربي. وقد سعى وزير الخارجية السعودي، الأمير سعود الفيصل، لشرح ذلك عندما قال: "يمكن إيجاز الإيديولوجية

التي تعتمدها القاعدة باعتقادها ببطلان شرعية كل حكومات البلدان الإسلامية، وبخاصة المملكة العربية السعودية، من أجل إعادة إنشاء الخلافة الإسلامية التي تكون القاعدة في طليعتها. ويدعو أحدث أشكال هذا المخطّط إلى تدمير الدولة السعودية"[91].

يثير هذا الوضع الديني والسياسي المعقّد في الشرق الأوسط دهشة العالم الغربي في الغالب. وقد أوضحت كارول ديفين مولين عدم اليقين عند العديد من الأميركيين عندما قالت: "يمثّل الدين الإسلامي لغزاً لمعظم الأميركيين، وبخاصة في أعقاب الاعتداءات التي ارتكبها الإسلاميون الراديكاليون. وهناك الكثير من البيانات التي تنشر وتضيف المزيد من الالتباس. هل الإسلام دين *سلام* كما يؤكّد الرئيس بوش باستمرار، أو وعاء للعنف الجهادي؟"[92].

لم تكن هجمات 9/11 الشيء الوحيد الذي قاد إلى التشكيك في الإسلام في وسائل الإعلام، وما صاحب ذلك من تمثيلات متضاربة ومسيئة في الغالب، بل ما نتج عنها من حرب على الإرهاب أيضاً. فقد صرّح مدير الأبحاث في مجلس العلاقات الأميركية الإسلامية بصراحة: "تجري مساواة الحرب على الإرهاب بالحرب على الإسلام. وعلى الرغم من أنّ البيت الأبيض لا ينفك يشير إلى أن الحال ليست كذلك، فإنّ العديد من الذين يدعمونه لا يستطيعون التفكير في ذلك بطريقة أخرى"[93]. ولا شكّ في أنّ المواقف الانعزالية والداعية إلى الحرب داخل الإدارة لا تساهم في التثقيف الإيجابي للشعب الأميركي في ما يتعلّق بالمفاهيم غير الصحيحة الراهنة عن الإسلام.

من المهمّ أن يفهم الغرب أنّ المملكة العربية السعودية تدين بقيمها المحافظة الثابتة إلى دورها كحافظ للإسلام. وإقراراً بهذا الدور، اتخذ الملك السعودي لقب خادم الحرمين الشريفين، لذا فإنّ هناك شعوراً حادّاً بالسلبية الحالية المتولّدة في الغرب تجاه الإسلام في المملكة العربية السعودية. وفي كلمة مؤثّرة أمام مجلس الشؤون العالمية في هيوستن، رأى بندر أنّه لم تختطف الطائرات وحدها في 11 سبتمبر. "إنّني هنا لأبلغكم كسعودي فخور، وعربي فخور، ومؤمن شديد الإيمان بديني الإسلامي، لقد قرّر هؤلاء الأشخاص اختطاف دين عظيم ولن نسمح لهم أن ينجحوا في ذلك"[94].

إنّ أعمال القاعدة ومواقفها القتالية، ومعارضتها المعتقدات البديلة، تنتهك المقدّسات. وقد عبّر بندر عن ذلك ببساطة شديدة بقوله: "عندما يتحدث أشخاص [القاعدة] عن قدوم الكفّار، ذلك انتهاك للمقدّسات لأنّ الإسلام يسمّيهم أهل كتاب.

وعلـيك أن تـؤمن باليهودية والمسيحية. وأنا إذا لم أعترف، كمسلم، بالمسيحية أو اليهودية كدين من عند الله، وبأنبياء الله، فإنّني لا أعود مؤمناً بصورة تلقائية".

ويتابع بندر الدفاع عن دينه وعن سمعته التي شوّهتها القاعدة فيقول: "الحقيقة التي لا مراء فيها هنا هي أنّ الإسلام دين صالح. إنّه دين السلام والتسامح... وما أقوله هو أنّـك لا تستطيع الحكم على الإسلام أو العرب أو المملكة العربية السعودية من خلال ابن لادن أو خمسة عشر شخصاً، أو مئة شخص"[95].

بُعـيد ردّ المملكة على هجمات 12 مايو، أطلق بندر حملة علاقات عامّة ضخمة تولّتها شركة كورفيس كميونيكيشن للعلاقات العامّة في واشنطن دي سي، وتركّزت هـذه الحملة على موضوع "القيم التي نتقاسمها". وكانت إعلاناً تلفزيونياً بقيمة عدّة ملايـين دولار عُـرض في عشرين مدينة كبرى في كل أنحاء البلد، وكان أولها يحمل العـنوان الرئيـسي "أميركـا، إنّنا حزينون معك"[96]. كما شارك بندر في سلسلة من المحاضـرات الـتي حظـيت بتغطية إعلامية كبيرة في كل أنحاء أميركا، وقد تناولت الموضوعات التي أثارها هجمات 9/11. وقد سمحت له أن يعترف للجمهور أنّ 9/11 أصابت السعوديين بصدمة شديدة. وقال: "يلزمنا وقت طويل لنخرج من الصدمة"[97]. وأشـار أيـضاً إلى أنّ المملكة استجوبت أكثر من ألف شخص منذ 9/11، واعتقلت أكثر من خمسمئة مشبوه، ونجحت في تسلّم عدد من أعضاء القاعدة من بلدان أخرى لـيواجهوا العدالـة. وأكّد أيضاً على تجميد الحسابات المصرفية للمشتبه بهم، وتطبيق أنظمـة مـصرفية صارمة، وخلص إلى أنّ "المملكة العربية السعودية لديها اليوم أقسى القـوانين والأنظمـة لمكافحة الإرهاب في العالم"[98]. وشدّد بندر على أنّ التعاون بين الـسلطات المالية والأجهزة الأمنية السعودية والأميركية قد تسارع، مضيفاً أنّ "9/11 كـان عمـلاً شرّيراً نفّذ لتدمير صورة وحقيقة دين عظيم. الإسلام دين عظيم، ونحن فخـورون أن نكـون مسلمين"[99]. وسلّط بندر الضوء أيضاً على التدابير المتخذة في المملكة للتعامل مع المخاوف بشأن مناهجها التربوية. وأشار إلى أنّ نسبة 85 بالمئة من المـنهج لا تـثير مـشاكل، لكن أزيلت نسبة 10 بالمئة أي تلك التي تقف على الحدّ الفاصل، ونسبة 5 بالمئة غير المقبولة[100].

في ظـل هذا الجوّ الناتج عن 9/11 والمشحون جداً بالخوف والجهل، تبرز الأهمية الحـيوية لحملـة العلاقـات العامّة السعودية الحالية التي تبلغ قيمتها عدّة ملايين من

الدولارات. وقد أوجز نيل بوش* بيأس مأزق العلاقات العامّة السعودية في سنة 2002 عندما قال: "ينظر الرأي العامّ الأميركي إلى العرب كإرهابيين وكرجال صحراء. وأرجو أن يرى الأميركيون العرب والمسلمين كما أراهم. العرب يخسرون معركة العلاقات العامة في أميركا... والرأي العام يصيغ السياسة العامة بصورة دراماتيكية. وينطبق ذلك على الولايات المتحدة، وعلى هذا الجزء من العالم وعلى كل مكان"[101].

في حديث إلى صحيفة "واشنطن تايمز" قال بندر: "أعتقد أنّ العلاقات السعودية مع الولايات المتحدة ستفشل أو تتواصل استناداً إلى مقدار نجاحنا في الوصول إلى الأميركيين في بيوتهم وقراهم. وإذا فشلنا هناك، فإنّ كل ما نفعله مع الكيان السياسي الأميركي والنخب، ومن حكومة إلى حكومة سيكون خارجاً عن الموضوع"[102].

بعد مراقبة حملة العلاقات العامّة، علّق المحلّلون: "لم يكن السعوديون يهتمّون لصورتهم العامّة في الخارج، لم يكن هناك ما يدعوهم للاهتمام بجدّية. فقد كانوا قادرين على عدم المبالاة بانتقادات سياساتهم الخارجية والمحلية بحصانة، لأنّهم يعومون على ربع احتياطيات العالم المعروفة من النفط"[103]. لكن، مع هجوم وسائل الإعلام على المملكة العربية السعودية، والافتقار إلى قاعدة عريضة من التأييد للعلاقة الأميركية السعودية، لم يكن هناك تفهّم عامّ للمملكة. "فقد كانت المملكة في ذلك الوقت مجتمعاً مغلقاً إلى حدٍّ كبير"[104]. وأدى الإخفاق في تثقيف الغرب عن تعقيدات الثقافة والدين في المملكة العربية السعودية، إلى جانب المضاعفات الجانبية لهجمات 9/11 إلى دفع السعوديين لإعادة تحسين صورتهم في العالم الغربي.

ونظراً إلى الانقسام الثقافي الشديد بين المملكة العربية السعودية والولايات المتحدة، فقد كان هجوم العلاقات العامّة السعودية عملاً شاقّاً منذ البداية. ويقول مايكل بتروزيلو، الشريك الإداري لشركة كورفيس كميونيكيشن، في ما يتعلّق بهذه المهمّة المخيفة: "لديهم شيئان في مصلحتهم. الأول إدارة بوش التي وضعت السعوديين خارج حدود الانتقاد. ثانياً، بندر السعودي غير السعودي"[105].

فُسِّرَت رغبة السعوديين في الخصوصية، أو الابتعاد عن المديح العامّ، أو التوبيخ في الغرب، أنها دليل على أنّ هناك شيئاً يخفونه. وقد تناول بندر ابتعاد المملكة العربية

(*) نيل بوش هو الأخ الأصغر للرئيس جورج دبليو بوش والحاكم جيب بوش. وهو رجل أعمال مقره تكساس.

السعودية عن وسائل الإعلام - وهو موقف واجهت أميركا صعوبات جمّة في التكيّف معه - وقال مستنتجاً: "أتذكرون الصومال؟ عندما نزل المارينز على الشاطئ التقى بهم طاقم من السي أن أن. تلك هي الثقافة. إذا كنّا لا نتماشى مع تلك الثقافة، وكنتم لا تروننا نتماهى معها، أرجوكم لا ترتكبوا الخطأ المميت أننا لا نفعل شيئاً. إنّنا نفعل الكثير"[106].

* * *

مع أنّ أحداث 9/11 المرعبة غيّرت - ربما إلى الأبد - منحى العلاقات الأميركية السعودية، وقوّضت الجهود الدبلوماسية التي بذلها بندر في العقدين السابقين، فإنّ من تأثيراتها الملموسة ما ظهر في المشكلة الفلسطينية الإسرائيلية الصعبة. فقبل 9/11 مباشرة، كان بندر منهمكاً في وضع صيغة سلام جديدة مع إدارة بوش يمكن أن تحدث تقدّماً في عملية السلام المتوقّفة. كان بندر يعدّ في منزله في مكلين للاجتماع المقرّر مع بوش في 13 سبتمبر 2001، قانعاً أنّ المبادرة الجديدة يمكن أن تبثّ الأمل مجدداً في الشرق الأوسط. وشاهد الطائرتين تصطدمان بالبرجين التوأمين مباشرة على التلفاز.

أدّت هجمات 9/11 التي نفّذتها القاعدة إلى حجب أي مبادرة سلام يمكن أن توقف الأعمال العدائية المتواصلة بين الفلسطينيين والإسرائيليين. فقد ركّزت إدارة بوش بشكل مفهوم على "الحرب على الإرهاب"، ووضع اهتمام الرئيس للسلام والأمن في الشرق الأوسط جانباً على الفور.

من المُلام؟ من الذي يمكن أن تستهدفه أميركا رغبةً في الانتقام؟ بعد الحملة السريعة والناجحة في أفغانستان لإقصاء طالبان عن السلطة - على الرغم من عدم تمكّنها من القبض على أسامة بن لادن - أخذت إدارة بوش تبحث عن مزيد من الأجوبة. أشار البنتاغون، الذي لا يزال يشعر بالحساسية تجاه هجوم 9/11 على القلب التجاري والعسكري في أميركا، بإصبع الاتهام إلى العراق، مقتنعاً بأدلّة ساقها مكتب الخطط الخاصّة بإيحاء من المحافظين الجدد. وفي سنة 2003، شنّت القوّات العسكرية الأميركية والبريطانية حملة "الصدمة والرهبة" وأطيح بصدّام حسين عن السلطة.

مضت ثلاث سنوات، ولم تظهر المقاومة التي تلت الحرب العراقية أي إشارة إلى احتمال التراجع. وحدث بعض التحرّك داخل الإدارة باتجاه حل الوضع الفلسطيني الإسرائيلي. غير أنّه في نظر العديد من العرب، كان تحركاً بعيداً عن السلام والعدل.

فـــزيارة شارون إلى الولايات المتحدة في أبريل 2004 ودعم بوش خطته المثيرة للجدل، الداعـــية إلى الانسحاب الأحادي من قطاع غزة وأجزاء من الضفة الغربية، إلى جانب اســـتبعاد الرئيس حقّ الفلسطينيين في العودة إلى الأراضي التي فقدوها في سنة 1948، أدّت إلى ردود مختلطة، واستُقبلت بعدم تصديق شامل تقريباً في العالم العربـــي.

أفـــيد بجـــوّ من عدم التصديق أنّ رئيس الوزراء الإسرائيلي اجتمع ببوش في 14 أبـــريل 2004 و"خرج سعيداً جداً. ففي نهاية الاجتماع، حصل شارون على ضمانتين يرغب فيهما كثيراً، ولم يحلم والد بوش في منحهما قبل ثلاث عشرة سنة في مدريد". لقـــد وافـــق جورج دبليو بوش على عودة اللاجئين الفلسطينيين إلى دولة فلسطينية جديدة، لا إلى ديارهم وأرضهم في إسرائيل؛ وذكر الرئيس أنّ هناك بعض المستوطنات الـــتي يجـــب أن تبقـــى، على الرغم من السياسة الأميركية القديمة التي تعتبر أنّ هذه المستوطنات غير قانونية أو تشكّل عقبة أمام السلام[107].

أحدثت أنباء إذعان بوش بركاناً من الصخب في الشرق الأوسط، وسعت إدارة بـــوش بسرعة لتخفيف مدى اتفاقها مع شارون. فطمأن وزير الخارجية باول، ووزير الخارجية الأردني مروان المعشر أنّ بوش لم يكن يملي شروط تسوية سلمية نهائية، وأبلغ البيت الأبيض بندر أنّ "كل قضايا الوضع النهائي بين الفلسطينيين والإسرائيليين يجب أن تبقى بالضبط، قضايا الوضع النهائي، ويتمّ التفاوض عليها بين الطرفين"[108].

عندما سئل هنري كيسنجر عن رأيه بشأن خطوة بوش غير المتوقّعة، أجاب: "إنّ اقتـــراح شارون خطوة بنّاءة إلى الأمام، ومعبر إلى تسوية في نهاية المطاف، وربما فرصة لـــبعث صيغة الأرض مقابل السلام في المستقبل، وهي الصيغة التي بحثت بجدّية أولاً في مدريـــد، واستُمدّت من القرار 242"[109]. وأكّد كيسنجر على أنّ "الأمن هو القضية الجوهـــرية، وهو أمر لا يمكن إيجاد حل له بسهولة"[110]. وذلك هو الشعور الذي غالباً ما عبّر عنه بندر.

يقول برنت سكوكروفت: "ما حدث، لا سيما في أعقاب 9/11، هو أنّ شارون كان ماهراً جداً. فكلما بدا أنّ ثمة شيئاً سيبدأ، أرسل المتشددون في الجانب الفلسطيني انـــتحارياً أو شـــيئاً ما. وبعد ذلك يتخذ شارون إجراءات صارمة ويدخل الأراضي الفلـــسطينية ويقـــول [للأميركـــيين]، *إنني أخوض حربكم؛ إنني أخوض الحرب على الإرهاب، وعليكم أن تساعدوني*. فيقول الرئيس، *حاضر*".



رئيس الوزراء الإسرائيلي أريبل شارون

واعترف سكوكروفت أنّه أبلغ كوندوليزا رايس في مناقشة معها: "إنّكم تقومون بجعل المتطرّفين يتحكمون بالعملية، لأنّهم يستطيعون أن يتوقّفوا ساعة يشاؤون، ولأنّكم تستمعون إلى شارون وتسمحون له بالقول يجب الحصول على الأمن أولاً. إذا كان الأمن شرطاً مسبقاً، فلن تصلوا إلى أي مكان". ولاحظ بعناية: "لكن هذا ما كان يجري في الجوهر". لقد أقرّ بوش وفريقه مبادرة شارون.

لم يكن انتقاد سكوكروفت لموقف الإدارة من مكائد شارون مقنعاً. فقد زعم أنّ موافقة بوش على اقتراح شارون كانت محرجة، نظراً إلى أنه لم يستطع لاحقاً تأمين الموافقة عليها من حكومته. وسرعان ما ارتدّت مبادرة بوش من دون ذلك التأييد. وأكّد سكوكروفت بكآبة: "لكن الضرر قد وقع. لقد غيّرنا موقفاً اتخذناه منذ خمسين عاماً: ألا نحكم على النتيجة مسبقاً"[111].

كان إحباط بندر من عدم تقدّم عملية السلام في أعقاب 11 سبتمبر واضحاً جداً. ففي إشارة مباشرة إلى تجدّد العنف في الشرق الأوسط ومحاولات ولي العهد ضخّ زخم جديد في العملية في مزرعة كروفورد قبل شهر واحد فقط من 9/11، ذكر بندر: "عندما تتحرّك عملية السلام، يكون هناك استعداد لقبول الكثير. لكن عندما تتوقّف العملية، ويكون ذلك مقروناً بسلوك إسرائيلي مذلّ للفلسطينيين، ويرى الناس ذلك

نهاراً جهاراً ولا يتخذ الأميركيون موقفاً متعالياً، فإنّ كل ذلك يُحدث واقعاً قاسياً في الشارع. لكنّ الردّ هو وجوب التحرّك" بل إنّه حثّ الولايات المتحدة بصراحة قائلاً: "إذا أفسد العرب الأمور، أبلغونا. وإذا أفسدها إسرائيل، أبلغوها"[112].

حاول السفير ريتشارد مورفي شرح استياء السعوديين من البيت الأبيض قائلاً: "القضية الفلسطينية هي مفتاح فهم الإحباط السعودي. لقد صدموا فعلاً عندما قرّرت الإدارة الابتعاد عن القضية لأنهم اعتقدوا أنّ بوش سيسير على خطى والده بالتأكيد. وأعرف أنّ فلسطين هي أولى أولويات ولي العهد الأمير عبد الله، بحيث تتقدّم كثيراً على العراق"[113].

أقرّ الرئيس الأسبق كارتر - في مقابلتي معه - بجهود بندر المستمرّة بعيداً عن الأضواء لتعزيز السلام. وأبرز محاولاته الشخصية في كامب ديفيد لتأمين حل للنزاع الإسرائيلي الفلسطيني وقال بفخر ظاهر: "الشهر القادم هو الذكرى السنوية الخامسة والعشرين للمعاهدة بين إسرائيل ومصر، ولم يتمّ انتهاك كلمة واحدة فيها البتة. إنّها لا تزال رمزاً لما يمكن عمله، لقد استنبطنا معالجة عادلة للفلسطينيين في الوقت نفسه". ولاحظ كارتر أنّ "شارون وبوش ألقياها في سلّة المهملات"[114].

في تخمين في ما إذا كان بوش اتخذ شخصياً قرار الموافقة على اقتراح شارون وتغيير السياسة الأميركية القائمة في الشرق الأوسط قال السفير مورفي: "إنّه الرئيس الذي يقول بفخر، *أنا لا أميّز بدقّة!* ويقول فريق البيت الأبيض إنّ إسرائيل لم تبد استعداداً قط في السنوات السبع والثلاثين منذ حرب الأيام الستة للانسحاب من مستوطناتها". وتابع مورفي بعدم تصديق واضح: "وها هو، أبو المستوطنات، الشخصية الأشدّ تصلّباً، يقول إنّه سيتخلّى عن غزة وبعض المستوطنات في الضفة الغربية. فكيف يمكن أن نقول لا لذلك؟!". غير أنّ مورفي أضاف بصراحة: "لا أصدّق شارون؛ أعتقد أنّ هذا الرجل وقف لمدّة خمسين عاماً وراء أشياء أخرى، لكن هذا؟ أعلم أنّه تحدّث عن استعداده لتسويات مؤلمة، لكنّه وعد بإزالة البؤر الاستيطانية غير القانونية التي أنشئت منذ أن أصبح رئيساً للوزراء. ووعد بفعل ذلك قبل أكثر من سنة ولم يحدث شيء بعد. لذا فإنّني أتحفّظ، تلطيفاً للقول، على ما قد يفعله"[115].

من المفاجئ أنّ بندر كان متفائلاً بشأن موافقة بوش على خطة شارون المثيرة للجدل، وهي الانسحاب من غزة وأجزاء من الضفة الغربية، مع الاحتفاظ ببعض

المستوطنات فيها. وفي ردّ محسوب قال: "إنّني متفائل. لا يمكنك أن تنظر إلى الكأس على أنها نصف فارغة؛ يجب أن تكون نصف ممتلئة. ماذا لدينا أيضاً؟ ما الخيارات الأخرى؟ أعني... هل نذهب إلى الحرب؟ لدينا ما يكفي من الأبرياء الذين يتعرّضون للأذى في كلا الجانبين. إذا غادر الإسرائيليون غزة، فسيكون ذلك أمراً مهمّاً في اعتقادي، لأنّني أرحّب بأي انسحاب يقوم به الإسرائيليون من الأراضي العربية المحتلة"[116]. ولاحظ أنّه لا يزال هناك الكثير للتفاوض عليه. غير أنّ المفاوضات تلقّت ضربة بوفاة الرئيس عرفات، ومرض رئيس الوزراء شارون.

لوحظ قبل ستّة أشهر من وفاة عرفات أنّ "السلام بين إسرائيل وجيرانها ممكن، وتثبت تجربة الأردن ذلك من دون شكّ. إنّ الشعبين الإسرائيلي والفلسطيني بحاجة ماسة إلى زعماء فلسطينيين يفعلون ما رفض عرفات فعله مرات عدة، أي اتخاذ خطوات جريئة لإنهاء سفك الدماء المتواصل والأسى"[117].

لا يمكن التشكيك في منجزات عرفات كقائد ثوري؛ لكن، مع تغيّر الأوقات - كما ربما يوضح رفضه اقتراح كلينتون - باراك - تراجعت قدرة عرفات كصانع سلام، والأهم من ذلك في مسائل الحكم اليومية لبلده. لقد أمدّ القضيّة الفلسطينية بقوّة كبيرة كقائد ثوري. لكنّه لم يكن قادراً على أن يقدّم الرعاية الصحية الأولية، أو الخدمات العامة، أو البنية التحتية العملية، أو الأسس لاقتصاد قابل للحياة. وبغيابه، وتحت حزن الوطن، ووسط المخاوف من تسلّم المتشدّدين الفلسطينيين زمام الأمور، أفادت مجلة تايم: "هناك أيضاً بارقة أمل ضئيلة في العالم، الأمل في أنّ وفاة الزعيم الفلسطيني العنيد قد تقدّم فرصة لكسر الجمود في النزاع الإسرائيلي الفلسطيني"[118].

يبدو أنّ احتمالات السلام تراجعت كثيراً بعد أن أصبحت حكومة حماس واقعاً في أعقاب الانتخابات الفلسطينية، ومجيء حكومة إسرائيلية ضعيفة في أعقاب تعرّض شارون لسكتة دماغية وسقوطه في سبات.

ليس من الواضح إذا كان الوضع الراهن الأخير سيؤذن بتراجع بطيء من جانب الرئيس الأميركي، يعكس موقفه السابق من النأي بنفسه عن التدخّل في القضية الإسرائيلية الفلسطينية. فلا تزال ذكريات 9/11 ماثلة في الأذهان. ولا يزال تركيز إدارة بوش منصبّاً على "الحرب على الإرهاب"، والحاجة إلى فضّ الاشتباك في العراق لإعادة القوات الأميركية إلى الوطن. وبوجود حماس في السلطة في

فلـــسطين، ومحاولة محمود عباس بسط سلطته كرئيس، يبدو المجال محدوداً لإطلاق مبادرة جديدة.

إنّ احـــتمال الـــسلام في فلسطين، من وجهة نظر بندر، في سبات مؤقّت، لكنّ رغبـــته في إيجـــاد حل لم تفتر. ومع اندلاع العنف بين حزب الله وإسرائيل وما ذاقته إســـرائيل مـــن أهوال الحرب في لبنان، ارتدى بندر عباءة صانع السلام بدوره الجديد كأمين عام لمجلس الأمن الوطني السعودي.

ففـــي اجتماع بندر مع وزيرة الخارجية الأميركية كوندوليزا رايس في 23 يوليو 2006، قدّم إليها مناشدة جادّة من الملك عبد الله لكي تلجم أميركا إسرائيل وتتوسّط وقفـــاً لإطـــلاق النار يحمي الأبرياء. وذلك بالنسبة إلى بندر يؤذن بتحدٍّ جديد شديد الـــتطلّب وحـــيوي، فيما ينخرط في مسعى دبلوماسي آخر لإحلال السلام في شرق أوسط على شفير نـــزاع شامل.

الفصل الحادي عشر

الأصدقاء وحاشية السفر

"إذا فعل المرء أفضل ما لديه، هل يعود هناك من شيء؟".

الجنرال جورج أس. باتون

(1885 - 1945)

في أثناء العمل كسفير ومبعوث للملك فهد وولي العهد الأمير عبد الله، كان على بندر احتمال برنامج سفر مرهق، يحتّم السفر المتكرّر عبر الأطلسي بين المملكة العربية السعودية، وواشنطن، وكثير من الأماكن في العالم وفق ما تمليه الأحداث. وقد تمكّن بندر من التعامل مع هذه التحديات بإحضار العائلة والأصدقاء معه على حدٍّ سواء. ولعب أفراد العائلة - لا سيما زوج ابنته الأمير فيصل وأخوه الأمير سلمان - دور المساند والداعم في سفرات الأمير الواسعة. وغالباً ما وجد ابناه خالد وفيصل نفسيهما يجوبان العالم من دون سابق إنذار. بل إنّ فهداً، الذي أخذ إجازة لمدّة عام قبل التوجّه إلى كلية إيتون، رافق والده معظم تلك السنة، على الرغم من أنّه تحت وصاية طالب سابق من كلية إيتون يعدّه أكاديمياً لدخول الكلية.

غير أنّ أصدقاء بندر في السفر هم الذين مكّنوا الأمير من تحمّل ضغوط جدول المواعيد المحموم، واجتياز العالم بمختلف الاتجاهات. وقد وصفت كبرى بنات بندر، الأميرة لولو حاشية السفر، التي كانت تتكوّن حتى وقت قريب من فرد داتون وجو رامسي وبوب ليلاك وسعيد الكرمي وطارق الشواف وروب ديكون إليوت، أنّها "واحته الصغيرة. إنّهم مثل إخوانه. وهو قريب جداً منهم"[1].

وقالت جيري بيبري، كسكرتيرة سابقة لبندر، عن هذه المجموعة: "إنّه يجب أن يحيط نفسه بمجموعة كاملة من الأشخاص الذين لديهم مواصفات عمل لا توضع البتة على الورق؛ نادي سفر للرجال"[2]. وغالباً ما وُصفت هذه المجموعة أنّها "مجموعة سفر" بندر. وقد وفّر هؤلاء الأصدقاء والمؤتمنون نقطة مرجعية دائمة شديدة القيمة

للأمير في أثناء رحلاته بعيداً عن البيت. وأكّد ليلاك في تقييم قيمتهم بالنسبة إلى بندر، "مجموعة السفر مصطلح جيد، لكنني أعتقد أنّ ذلك في حالة تمكّن كل واحد منا من السفر معه، الأهم من ذلك أنّه يثق بنا. الثقة والولاء، من الصعب جداً التأكّد من ذلك. على سبيل المثال، عندما يمضي وقتاً مع الصحافيين أو حتى رجال الأعمال أو الدبلوماسيين، عليه أن يكون حذراً".

وفي التأمّل في كيفية تمكّن حاشية السفر من إبقاء قدمي بندر على الأرض بمرور السنين، قال ليلاك: "أعتقد أنّه يحاول استخدامنا كمجموعة من الأشخاص المطلعين جيّداً الذين يستطيع استخدامهم كمجلس استطلاع ويثق بهم. يمكنه أن يطلق بعض بالونات الاختبار، ويدعنا نصوّب عليها. ولا توجد لدى أحد من المجموعة هواجس بشأن التصويب عليها. فليس علينا الإمساك عن إبداء الرأي بسبب موقعه كعضو في العائلة المالكة السعودية، وتقديم الاحترام الذي يظهره له بعض مواطنيه".

وتابع ليلاك: "كنّا معه في كل أنواع المواقف، لذا لا نمانع في القول إنّ هذه ليست فكرة جيدة جداً، إنّها هراء؛ هل فكّرت في الغاية منها؟". تكون هذه الانتقادات والآراء والملاحظات متاحة، وبخاصة من فرِد داتون وجو رامسي. وكما لاحظ ليلاك: "لا سيما فرد الذي لديه إرث سياسي طويل. ليس لدى جو الخلفية السياسية نفسها مثل فرد، لكن منذ أن تقاعد من سلاح الجو، أصبح قارئاً نهماً، وأعتقد أنّه تلميذ لفرد، لذا أصبح جو فطناً جداً ولا يُمسك عن إبداء رأيه. ويبدي سعيد الكرمي مزيداً من الملاحظات عندما يتعلّق الأمر بما يحدث في العالم العربي، لكنّه يُمسك كثيراً ويترك فرد وجو يشرحان"[3]. ولاحظ طارق الشوّاف عند الحديث عن حاشية السفر واستعداد المجموعة لتحدّي بندر في مختلف القضايا أنّ "هذا هو ما تحتاج إليه؛ أنت لا تحتاج إلى من يقول نعم. وفي أثناء عملي مع بندر، وهو لا علاقة له بالسياسة، غالباً ما كنت أختلف معه؛ وهذا يشكّل جزءاً من الاحترام الذي يكنّه لي لأنّه يعرف أنّني أقول



الكولونيل في سلاح الجو الأميركي جو رامسي

الحقـــيقة. إنّني أعرف عمّه، ولي العهد الأمير عبد الله، منذ مدّة طويلة كصديق، ولديه اقتباس يستخدمه دائماً: *صديقك من صدَقك لا من صدّقك*"[4].

تمّـــت، جرى في فصول سابقة، تغطية علاقة ليلاك بالأمير. بدأ عمله مع بندر في أثناء إدخال طائرات أف – 5 إلى المملكة، والصراع لتأمين طائرات أواكس. لكن ما لم يظهـــر هـــو أنّه كوميدي المجموعة. ففي أثناء تبادل التمنّيات في التجمّع التقليدي بمناســـبة الـــسنة الجديدة في أسبن، يقدّم ليلاك دائماً أداء يُحرِج زوجته جان، عندما يقترح التمنّي التالي:

عندما تولّي أيام التزلّج وتُدبر،
وتبتعد عن هذه الدنيا وترحل،
أتمنّى أن يدفنوك رأساً على عقب،
لكي يركلك هذا العالم اللعِب[5]*!*

وبعد ذلك يقف بوب رأساً على عقب. لكن عند تحديد العلاقة بين بندر وبوب وجـــان، لا يـــوجد أفـــضل من كلمات الأمير الموجزة: "آل ليلاك؟ إنّهم من العائلة حتماً!".

أقـــام جـــون رامسي، مدرّب بندر عندما ذهب إلى قاعدة لاكلاند لسلاح الجو، علاقة صداقة سرعان ما توطّدت عراها عندما عُـــيّن في المملكة في سنة 1971. وعندما تقاعد مـــن الخدمة العسكرية في سنة 1991، أصبح مستشاراً إدارياً. ولاحظ رامسي: "سرعان ما أصبحت السفارة [السعودية] زبوني الوحيد، إذ إنّـــني أمضي الكثير من وقتي أجوب العالم مع بـــندر". وعند الحديث عن صداقته مع الأمير علـــى مرّ السنين، قال رامسي: "إنّه الشخص نفـــسه منذ أن التقيت به أول مرة حتى الآن. لقـــد نـــضج وازداد حكمة، لكنّه لا يزال هو نفـــسه، إلى حـــدّ كبير، ودوداً ويقظاً وكريماً ومحبًّا لرواية القصص وشخصيّة رابحة"[6].

بوب ليلاك يؤدي دوراً على الثلج
خلال حفلة رأس السنة في أسبن

من الأعضاء الآخرين في حاشية السفر الدكتور طارق الشواف. وهو رجل أعمال(*) مقرّب جداً من بندر، ومعجب بإنكلترا ولديه بيوت في إنكلترا وأميركا والمملكة العربية السعودية. وقد وصفته لولو أنّه "شخصية مميّزة، ومتساهل، ورائع"[7]. التقى طارق وبندر لمدّة وجيزة في سنة 1967 في فندق دورشستر في لندن في أثناء زيارة رسمية قام بها الملك فيصل. لكن في سنة 1978، دعي بندر إلى عشاء استضافه طارق في لوس أنجلس. ويقول طارق الشواف: "وما زلنا أصدقاء منذ ذلك الوقت"[8].

يروي بندر كيف دعاه الشواف إلى العشاء في لوس أنجلس، إلى جانب مجموعة من السينمائيين المشهورين. بعد عشاء ممتاز، تناولوا الحلوى والقهوة وهمّوا بالرحيل. ويتابع بندر: "طلب طارق الحساب. نظر إلى الفاتورة ثم بدأ يبحث عن محفظته، وينقل يديه من جيب إلى آخر. لاحظت أنّه بدأ يشعر بالخوف. سأل إذا كان يريد أحد مزيداً من القهوة. لم يرد أحد القهوة، لذا طلب من النادل أن يحضر ماء".

أدرك بندر ورطة الشواف فاستأذن كأنّه يريد الذهاب إلى الحمّام، فدفع الحساب وعاد إلى الطاولة. وفي لحظة من التمثيل الإيمائي، أعاد الأمير تمثيل المشهد الفكاهي للشواف وهو يبحث يائساً في جيوبه، مرة بعد أخرى، محاولاً العثور على محفظته. وأوضح بندر أنّه والشواف كانا العربيين الوحيدين الجالسين إلى المائدة، لذا مال الشواف نحوه وقال بالعربية: "أيمكنني أن أزعجك؟".

فسأل بندر: "بماذا يمكنني أن أخدمك؟".

قال الشواف: "لقد نسيت محفظتي. هل تمانع في دفع الحساب وسأعيد إليك المبلغ لاحقاً؟".

ردّ بندر متظاهراً عدم الفهم: "لكنّك أنت من دعوتني، وأنا لم أدعُك. اذهب ووقّع لدى النادي".

فأجاب الشواف: "لكنّهم لا يقبلون توقيعي".

(*) طارق الشواف رئيس مجلس إدارة ومؤسّس شركة الخدمات الاستشارية السعودية، وهي أقدم وأكبر شركة هندسة معمارية في المملكة العربية السعودية، حيث تضمّ أكثر من ستمئة موظّف تقني وإداري. يوجد مقرّ الشركة الرئيسي في الرياض، ولديها مكاتب في الدمام وجدة، وفرعان في لندن ولوس أنجلس. كما أنّها تقدّم خدمات هندسية لمختلف البلدان الإفريقية والآسيوية.

تابع بندر مازحاً: "لم أكن أعرف في ذلك الوقت لماذا؟ والآن أعرف لماذا لا يدفع البتة!".

واصل بندر مناكفة الشواف قائلاً: "إنّني آسف يا طارق، محفظتي ليست معي أيضاً".

في محاولة لإيجاد مخرج من هذه الورطة، طلب الشواف مزيداً من القهوة حتى صار على الجميع الرحيل في النهاية، لذا نهضوا للمغادرة. فنظر الشواف إلى النادل الذي قال له: "شكراً لكم على قدومكم".

أوضح بندر: "عندئذ فقط أدرك طارق أنّ الحساب قد دُفع! لكن، كانت تلك المرة الوحيدة التي اقترب فيها طارق من الدفع، ومنذ ذلك الحين لم يعد يقوم حتى بالمحاولة!"[9].

وكمهندس، عمل طارق على مساعدة بندر في عدد من المشاريع، كما في سنة 1983 عندما طُلب منه تقدير تكاليف قصر في الرياض. اعتقد الشواف أنّ السعر مبالغ فيه، فاستدرج عروض خمس شركات أميركية، بما في ذلك الشركة التي قدّمت العرض الأصلي. وقد سرّ عندما تقدّمت تلك الشركة برقم أدنى بكثير من العرض الأصلي مقابل العمل نفسه. وفي وقت لاحق، عمل الشواف بصفته مدير التصميم في ذلك المشروع، مثلما فعل في منزل بندر في أسبن سنة 1978. وساعد أيضاً على إنشاء قصر الأمير في جدّة وبيته الريفي في غليمبتون.

ومن الأصدقاء المقرّبين لبندر والمؤتمنين لديه الدكتور سعيد الكرمي، الذي توفي في 6 يونيو 2005 في سنّ السابعة والستين. ولد الكرمي في عكا في فلسطين، وتعلّم في مدرسة العراق الثانوية في دمشق، والجامعة الأميركية في بيروت قبل الحصول على درجة دكتور في الطب من جامعة جورج تاون. وقد دعي إلى البقاء فيها كأستاذ، وبعد عام عاد إلى الأردن كاختصاصي في الجهاز البولي. عمل في الجيش الأردني برتبة رائد لمدة أربع سنوات، ورئيساً لقسم الجهاز البولي في مركز الملك



الدكتور طارق الشواف، صديق بندر المخلص

حسين الطبي. أنجز الكرمي أول زراعة لكلية في الأردن في سنة 1972، لكنّه شعر بالإحباط بعد خمس سنوات من انعدام التسهيلات فالتحق بجامعة مريلند كأستاذ مساعد. وفي سنة 1979، أصبح سعيد أستاذاً لطبّ الجهاز البولي والجراحة في جامعة واشنطن، حيث أجرى أكثر من ستمئة عملية زراعة كلية في منطقة واشنطن. وسمّي أستاذاً متقاعداً في الجامعة في سنة 1995[10].

التقى الكرمي ببندر أول مرة في سنة 1981، وأصبحا صديقين. غير أنّ الكرمي عانى من مشاكل صحية خطيرة في سنة 1994، في أعقاب عملية زراعة قلب، فتقاعد الكرمي عن ممارسة الطب وبدأ يرافق الأمير بشكل منتظم، ويقول عن ذلك: "كنت أسافر مع الأمير من قبل، لكن ليس كثيراً. لذا عندما تقاعدت عن ممارسة الطب، قال الأمير، *هذا عظيم - يمكننا السفر معاً*. ونحن نسافر معاً منذ ذلك الوقت وهو صديق عزيز"[11].

ومن الأشخاص الأذكياء الذين لديهم عقلية قانونية ثاقبة وموهبة طبيعية في التعامل مع الوسائل، وأحد أقرب أصدقاء بندر، فرِد داتون. وقد توفي في 25 يونيو 2005 في سنّ الثانية والثمانين. كانت علاقته مع بندر عميقة وصادقة، وقد ساعد على تشكيل صورته وإبرازها؛ ولم يكن داتون يتورّع عن توجيه الانتقاد إذا لزم ذلك.

من التنويه الذي كُتب عن هذه الشخصية النافذة في واشنطن، ما وصفته صحيفة واشنطن بوست أنّه "لاعب البوكر المارق العابث الأصلع". وقد وُصِف ذات يوم أنّه "فرِد العرب"، وقد عمل كواحد ممن يمارسون الضغط بدأب بعيداً عن الأضواء كمضاعف للقوة يمهّد الطريق أمام الآخرين - لا سيما بندر - لكي يظهروا على المسرح. لقد كان فرِد داتون في الواقع السلاح السرّي للمملكة العربية السعودية في واشنطن.

أشارت صحيفة واشنطن بوست إلى مهنته العسكرية: "في أثناء الحرب العالمية الثانية، خدم في مشاة الجيش وجُرح وأسر في معركة بلج. وقد مُنح لاحقاً وسام جرحى الحرب، والنجمة البرونزية. خدم لدى كبير المستشارين القانونيين في الجيش في أثناء الحرب الكورية، وكان مركزه في اليابان"[12]. ويحمل داتون أيضاً أثر شظيّة قرب قلبه. تقول جيري بييري: "إنّه المفكّر في المجموعة من دون شكّ. ولعلّه يعرف بندر بقدر ما يعرفه الجميع"[13].

يروي داتون: "كنت مساعداً خاصاً للرئيس جون أف. كنيدي، ثم عُيِّنت وزيراً للعلاقـــات مـــع الكونغرس وبقيت في منصبـــي حتى اغتيال كنيدي". وعمل داتون لاحقـــاً مـــع روبرت كنيدي، وعندما اغتيل، رجع إلى ممارسة المحاماة في كاليفورنيا. فطلب منه أحد عملائه، شركة موبيل أويل، التوجّه إلى المملكة العربية السعودية ليعمل كمستـــشار قانوني للملك فيصل في الولايات المتحدة وإدارة العلاقات مع الكونغرس. فأصبح داتون المستشار الرئيسي للمملكة في واشنطن[14]. وبوفاة الدكتور الكرمي وفرد داتون، تغيّرت طبيعة حاشية السفر و لم تعد كما كانت عليه.

كـــان أحدث عضو في حاشية السفر، روبرت ديكون إليوت. وهو زميل دراسة بندر في كلية كرانول ومقرّب جداً إليه. وكانت تلك العلاقة حميمة بحيث أصبح بندر بمـــثابة فرد من أفراد عائلة ديكون إليوت. بعد فترة من الخدمة في سلاح الجوّ الملكي، انضمّ ديكون إليوت إلى شركة بريتيش إيروسبيس في المملكة العربية السعودية في سنة 1985 كمـــدرّب طـــيران. غير أنّ الأمور لم تجرِ على ما يرام في حياته الشخصية عند عـــودته إلى المملكة المتحدة فوقع الطلاق بينه وبين زوجته.


روب ديكون اليوت

علم بندر بمحنة ديكون إليوت بطريقة ما واقتـــرح الالتقاء به. يقول ديكون إليوت الذي كـــان والداه بمثابة والدين بديلين لبندر في أثناء دراسته في كرانول: "تناولنا الغداء مع بندر، أنا وأمـــي وأبـــي. وقدّم إليّ زوجين من أزرار الأكمـــام. فنـــزعت زرّي كمّي قميصي – وهمـــا هدية تلقيتها عند مغادرة سلاح الجوّ العمـــاني – وقلت، *لقد أعطيتني زرّي أكمام*، ففـــي إمكانـــك أن تأخذ هذين. وهو لا يزال يضعهما حتى اليوم". وعندما كانوا يهمّون بالـــذهاب، قال له بندر: "عندما تحصل على إجازتك(*) تعال لرؤيتي في أميركا". أسرّ لي ديكـــون إليوت: "كان ذلك جيّداً، لكن لم يكن لدي ثمن تذكرة الطائرة في ذلك الوقت. وعندما حان الوقت واتصلت به، أرسل سائقاً ومعه تذكرة سفر فانطلقت".

(*) كان ديكون إليوت يدرس للحصول على إجازة طيّار نقل جوّي في ذلك الوقت.

يقــول ديكون عن تلك الرحلة الأولى: "بعد سبعة أو ثمانية أيام، جلست وبندر قرب بركة السباحة في أسبن، وأحضرت كل سجلاّت الطيران، وبيان سيرتي، ورسائل توصــية، وغيرها... وتبادلنا حديثاً مؤثّراً عن آخر عشر سنوات تقريباً، وعن تقلّبات الحياة، وكان من الواضح أنّ أموري سيّئة".

أشــار بندر إلى كومة سجلاّت طيران ديكون إليوت ورسائله وقال: "ضع كل هذه الأشياء جانباً. لا أعتقد أنّنا سنحتاج إليها. لَمِ لا نقوم ببعض الأعمال معاً؟".

أجاب ديكون إليوت: "ما هي؟".

فقــال بــندر: "دعــنا أولاً نعطيك مقدّم أتعابك لتتمكّن من تسديد مصاريفك ورعاية عائلتك، ثم نفكّر في شيء".

وختم ديكون إليوت: "وهكذا تمّت الأمور". ومنذ ذلك الوقت انخرط في سلسلة مــن المشاريع على مرّ السنين، بما في ذلك مسؤوليّته عن تجديد طائرة بندر الشخصية إيرباص 340 وإدارة الطواقم[15].

غــير أنّه في أعقاب ذلك اللقاء في أسبن، أُدخل ديكون إليوت في حاشية السفر وهو يسافر الآن كثيراً مع الأمير.

في أثناء العمل الدبلوماسي، كوّن بندر العديد من الصداقات في كل أنحاء العالم. لكــن لا تكــتمل أي مراجعة لأصدقائه من دون ذكر علاقة خاصة تطوّرت في أثناء عمــل الأمير في واشنطن، علاقته الودية مع عائلة بوش وجورج هيربرت واكر بوش على وجه الخصوص.

يــتلخّص قرب بندر من جورج بوش أيضاً في اللقب الذي يتكرّر إطلاقه عليه، "بــندر بوش". ويعتقد أنّ أول من أطلق هذا اللقب الصحافي في صحيفة نيويورك تايمز وليام سافاير[16] في مقالة نقدية نشرت في أثناء حرب الخليج الأولى[17]. يقدّم هذا المزج البسيط لاسمي بندر وجورج إيتش دبليو بوش تشخيصاً لغوياً مناسباً جداً لصداقتهما. غــير أنّ الرئيس نفسه هو الذي تحدّث عن بندر بوش، مؤكّداً بالتالي على أنّه جزء من العائلة. يقول بوش: "إنّنا نحبّه. ونسعد بوجوده معنا. إنّه اجتماعي وحيوي. وهو أشبه ما يكون بابن". وهذا القول العاطفي بَيِّنٌ بذاته[18].

مــع ذلــك اســتخدمت وسائل الإعلام العلاقة القائمة بين بندر وعائلة بوش وأساءت استخدامها تبعاً للمناخ السياسي السائد. ففي أعقاب 9/11، قُدّم تعبير بندر



بندر مع صديقيه المقربين جورج وباربرا بوش

بوش في مقالات نقدية عن العائلتين الحاكمتين؛ عائلة بوش وآل سعود. وتدفّق الخطاب المعادي للسعوديين بكثافة وسرعة من كتّاب ومراسلين من أمثال روبرت بير، ومات ولش، وكريغ أونغر، ومايكل مور، ومورين داود، ومايكل إيزيكوف. وعلّق وليام سافاير منتقداً العلاقة: "عندما يقول الأمير بندر *اقفز*، يسأل جورج بوش *ما الارتفاع*؟"[19].

وسعى بعض هؤلاء الصحافيين أيضاً لتحويل الموجب إلى سالب، مثل كريغ أونغر ومايكل مور. وكما لاحظ توماس ليبمان رافضاً مزاعم أونغر ومور: "ليس من المفاجئ أن تكون عائلة حقّقت ثروهّا من العمل في مجال النفط قريبة من السعوديين؛ ولم يكشف النقاب عن أي علاقة غير ملائمة على حدّ علمي"[20].

وعن موضوع وسائل الإعلام ومحاولاهّا التشهير ببندر والرئيسين، الأب والابن، ربما يكون من الملائم الاختتام بكلمة أخيرة قالها جورج إيتش دبليو بوش وزوجته عن سلوك وسائل الإعلام. فعند بحث الانتقاد الدائم للعلاقة الوثيقة بين بندر وعائلات بوش، ذكر جورج إيتش دبليو بوش بصوت جازم لا يخفي غضبه: "عندما افتروا [وسائل الإعلام] على هيفاء، ولاحقوها بمزاعم جائرة تماماً، كالقول إنّها إرهابية وما إلى هنالك، جهرت باربرا بصوهّا وكذلك أنا. كان ذلك في وقت اعتُبر كل شيء سعودي مسيئاً، وكان ذلك ظلماً فاضحاً". وتابع الرئيس: "ولا تزال نيويورك تايمز تفعل ذلك وأنا أشعر بالغضب من طريقة معاملتها للمملكة العربية السعودية". وقد برزت على الفور العبارة التي استخدمها عن بندر في أول المقابلة، الولاء لطيار خلفي[21].

يعتقد السير ريتشارد إيفانز أنّ الفترة التي أمضاها جورج بوش نائباً للرئيس، في إدارة ريغن، كانت العامل، الحافز الابتدائي، في علاقة بندر – بوش. يقول بندر: "كنت أتناول الغداء مع جورج بوش كل شهر أو اثنين عندما كان نائباً للرئيس. كان مهتماً للسياسة الخارجية ورأي العالم الخارجي في ما يجري في أميركا؛ وأصبحنا صديقين مقرّبين. كانت تلك الأغدية طريقاً باتجاهين؛ يعرف منّي ما يجري من وجهة نظري ومن منظور بلدي، وأعرف منه الكثير لأنّني أكنّ له الكثير من التقدير".

أوضح إيفانـــز أنّه عند تنصيب جورج إيتش دبليو بوش، كانت العلاقة وطيدة، وتواصل تطوّرها. ولاحظ أيضاً: "يمكنني القول إنّه كان لبوش الأب تأثير رعوي تقريباً في بـــندر، أكثر من تأثير ريغن. ومن الصعب وصف ذلك. لقد أنشأ صداقة مع عائلة بوش بأكملها، لا مع بوش الأب فحسب"[22].

أكّد هنري كيسنجر أنّ "العلاقة الشخصية بين بندر وعائلة بوش قوية جداً. إنّهم مـــتقاربون جداً"[23]. وقد عزّز جو رامسي تعليقات كيسنجر. فعند الحديث عن لقب الأمـــير بندر بوش، أبلغني رامسي: "كنت وفرِد داتون نتندّر أنّ بندر متزوّج من عائلة بوش؛ إنّه من عائلة بوش قلباً وقالباً"[24].

أكّـــد بوش أنّه عندما كان نائباً للرئيس، تواصلت لقاءاته ببندر بعد اجتماعهما الأول. وأضاف: "أعجبت بالأمير بندر ووجدت أنّه مثّل جيّد جداً للرأي السعودي. ولطالمـــا شـــعرت أنّه على علاقة ممتازة بالملك فهد، ولدي الشعور نفسه تجاه علاقته [بالملـــك الحـــالي] عبد الله، تستنتج ذلك مباشرة منه". وبعدما تناول البعد السياسي لعلاقـــتهما، تابـــع بوش: "إنّه صديق وهو يعرف بلدنا جيّداً. ويعرف عيوبنا ومواطن قوّتنا، وأنا واثق أنّه يعكسها بدقّة عندما ينقلها إلى حكومته"[25].

روى بـــندر طرفة توضح العلاقة الودية بينهما. "ذات يوم عندما كان جورج لا يزال نائباً للرئيس، اتصل بـــي وقال، *ماذا لديك في الغد؟* قلت له، *أيًا يكن ما سأفعله في الغـــد، أعـــتقد أنّـــني لـــن أفعله بعد الآن*. وأصبحت تلك الجملة هي العبارة التي اســـتخدمها عـــندما أصبح رئيساً. عندما أتلقّى منه اتصالاً يقول، *ماذا لديك في الغد؟* أجـــيب دائماً، *أيًا يكن، لن أقوم به بعد الآن*. في هذه المناسبة قال، *لنذهب إلى صيد السمك*. لذا جئت إلى البيت الأبيض واستقللنا مروحية. طرنا إلى الشواطئ الجنوبية في مريلند وتوجّهنا إلى منـــزل صديق للانضمام إلى صديقه وزوجته وباربرا بوش".

اعتـــرف بـــندر قـــائلاً: "صيد السمك ليس من هواياتي. فلدي حساسية على الأطعمـــة البحرية؛ ولا أحبّ صيد السمك، ولا أحبّ البحر كثيراً، لا سيما إذا كان عليّ أن أعمل؛ وهو يدفعني للعمل وللتصيّد معه". ولاحظ بندر: "ما علق في ذهني عن تلك الزيارة، بعيداً عن أنني كنت الوحيد الذي تصيّد سمكة في ذلك اليوم، هو أنّنا بعد أن جلسنا لتناول الغداء - وذلك يخبرك الكثير عن جورج إيتش دبليو بوش - قفز عن المائـــدة وأســـرع مبتعداً. فوجئنا جميعاً، لكنّه سرعان ما عاد وجلس. سألته، *هل كل*

شيء على ما يرام؟ فقال، *نعم، أردت فقط التأكّد من أنّ الطعام قُدّم إلى رجال الأمن الذين يرافقونك*".

وأكّد بندر: "يخبرك ذلك الكثير عن هذا الرجل. فها هو نائب رئيس أميركا يتناول الغداء مع أمير عربي، ويبدي اهتمامه لرجال الأمن، *هل قُدّم إليهم الطعام؟ هل تتمّ العناية بهم؟* لقد أثّر فيّ ذلك كثيراً، وهو يرجع إلى الولاء".

وختم بندر: "اعتنِ برجالك يعتنوا بك".

روى بندر حادثة أخرى عن جورج إيتش دبليو بوش، حصلت سنة 1989، عندما تولّى بوش للتوّ منصبه كرئيس. أبلغه بندر أنّ الملك فهد يرغب في الزيارة. وفي أثناء اجتماعه بالرئيس بوش، قال بندر: "إنّنا نقيم معرضاً عن المملكة العربية السعودية في واشنطن، هل يمكننا أن ندرجه في زيارة الدولة؟". وافق بوش وعرض إذا جاء الملك فهد فسأحضر الافتتاح معه. أقيم المعرض الذي دعي "المملكة العربية السعودية: الأمس واليوم"(*) في مركز المؤتمرات في واشنطن دي سي، وعَرَضَ مصنوعات يدوية سعودية، وأزياء وطنية، وأدوات موسيقية، وقدم فيه راقصون رقصات تراثية. وقد عُرض بالفعل في لندن وباريس ومدريد وموسكو وفي العالم العربي. غير أنّ التخطيط للزيارة سرعان ما اضطرب بسبب الأحداث في الشرق الأوسط، وأرجئت زيارة الدولة. اتصل البيت الأبيض ببندر موضحاً أنّه على الرغم من أنّ الرئيس وعد بحضور افتتاح المعرض، فإنّه لن يكون من الملائم للرئيس الحضور إذا لم يتمكّن الملك من القدوم.

قبل أسبوع من الافتتاح، تلقّى بندر اتصالاً غير متوقّع من جون سنونو، كبير الموظّفين، حيث قال: "مرحباً يا بندر. صديقك [الرئيس بوش] يسأل إذا قام بزيارة مفاجئة إلى المعرض، فهل يحدث ذلك صداعاً؟".

تبيّن أنّ الرئيس قال: "لقد وعدت بندر أن أذهب لحضور المعرض. والملك فهد لن يأتي، وسنرسل كوايل للافتتاح الرسمي. غير أنّني أودّ الذهاب بشكل شخصي لأطلع على ما يعرضونه".

(*) أبلغت دانا روراباشر مجلس النواب بشأن المعرض في 24 يوليو 1989. وخلافاً للعديد من المعارض المصمّمة للترويج لتجارة، كان معرضاً ثقافياً لمساعدة الجمهور الأميركي على تفهّم ثقافة المملكة وشعبها. وأقيم المعرض الذي بلغت مساحته مئة ألف قدم مربع في واشنطن بين 29 يوليو و20 أغسطس 1989.

فأجاب بندر: "أبلغه أنّه على الرحب والسعة في أي وقت من هذا الأسبوع".

قال سنونو: "لم تفهم قصدي. إنّه يتحدّث عن الليلة".

أجاب بندر: "الليلة، أمهلني نصف ساعة".

أسرع بندر إلى مركز المؤتمرات، لكن عندما وصل كانت الفوضى تعمّ المكان. كان الحرس الرئاسي موجوداً هناك إذ وصل الرئيس بالفعل بصحبة برنت سكوكروفت وجون سـنونو. أمـضى بوش بعد ذلك نحو أربعين دقيقة متجوّلاً في المعرض برفقة بندر. يقول بـندر: "يظهـر لك ذلك قوّة العلاقة بيني وبين الرئيس جورج إيتش دبليو بوش. وبحلول أغسطس 1990 والغزو العراقي للكويت، أصبحت صلتنا وثيقة جداً".

أكّدت الأميرة هيفاء قوّة علاقتهما مع عائلة بوش عندما قالت: "المحبة قائمة، ولا تفتر"[26]. وعزّزت الأميرة لولو تعليقات والدها: "عندما نـزورهم، كأنّنا نـزور عماً أو عمّـة. أحبّ آل بوش، بصرف النظر عن أنّهم أصدقاء والدي". وتابعت الأميرة: "المسألة ليست مسألة مكانة معهم، إنّها مسألة من أنت كشخص، لا من أنت في هذا العـالم. وإذا أحبّوك، تعرف أنّهم يحبّونك. وطريقة عمل عائلتهم وتفاعلها شبيهة جداً بطـريقة عمـل عائلتـنا وتفاعلها، لأنّ لديهم والداً عظيماً؛ لديهم كل قضايا السفر والعلاقات الاجتماعية والصورة العامة، لكنّهم كعائلة يشكّلون وحدة لا يستطيع أحد اختراقها. ويقفون، بعضهم إلى جانب بعض، أياً يكن الأمر"[27].

مـن الناحـية الاجتماعية، كان لبندر تأثير كبير في أسرة بوش على مرّ السنين. وتـتحدّث السيّدة بوش بمحبة كبيرة عن زيارة بندر إلى كِنبَنْكبورت، حيث "أحدث عاصـفة". وروت كـيف أعلن بندر أنّه سيطهو الغداء في اليوم التالي. نبّهته السيّدة بـوش: "لا يمكـنك أن تفعـل ذلك. إنّنا أسرة صغيرة جداً وقد تزعج العاملين، فهم حسّاسون بشأن الطهو". تغاضى بندر عن تنبيهاتها قائلاً: "لا، سأفعل ذلك". وأوضح الـرئيس بوش: "الطاهي عندنا فلبيني كان يطهو لي في البيت الأبيض، إنه رجل رائع". لم ينـزعج الطاهي أرييل البتة، بل انضمّ إلى اللهو في ذلك الصباح في المطبخ.

ضـحكت السـيّدة بوش وهي تقول: "وما عرفته بعد ذلك أنّ الصباح بأكمله انقـضى وبندر يدخّن السيجار في المطبخ. وقد أحدث ذلك كثيراً من الإثارة لأنّني لا أسمح لرئيس الولايات المتحدة - السابق أو الحالي - بالتدخين في المنـزل! جلب معه كل شيء بما في ذلك القدور. وقد طهوا وضحكوا، كما لم يضحكوا من قبل".



جورج بوش يفاجئ بندر بزيارة غير منتظرة لمعرض "المملكة العربية السعودية: "أمس واليوم"

وتابعت السيدة بوش: "طهوا الكثير وتمّ الإعلان عن غداء كبير وذهبنا. وكما قلت استمرّ الضحك ثلاث ساعات في المطبخ، وفي تلك الليلة عندما غادر قال، *القدور والمقالي لكم*"[28]. في كتاب **تأمّلات: الحياة بعد البيت الأبيض** (*Reflections: Life after the White House*)، كتبت باربرا بوش عن الزيارة: "عندما حانت اللحظة الحاسمة، توجّهنا إلى غرفة الطعام، إلى أكبر وجبة رأيتها في حياتي. لا يمكنني حقاً أن أذكر ما أكلنا، لكنّه أعدّ الكثير بحيث أنّ نيل [ابنها] قدم بدعوة مني في المساء وحصل على قدور من الطعام، فأعاد تسخينها وقدّمها إلى عشرة ضيوف. وبقي مزيد من الطعام". وظهر كل شيء في استدراك السيّدة بوش عندما كتبت: "لبث بندر أربعاً وعشرين ساعة فقط لكنّه كوّن صداقة مدى الحياة"[29].

ثمة العديد من النوادر المهمّة التي تضفي الحقيقة على تلك الجملة الأخيرة. كان يتمّ تبادل الدعوات بشكل متكرّر للاحتفال بمناسبات شخصية بين أسرتي بوش وبندر. غير أنّ واحدة على وجه الخصوص علقت في ذهن الرئيس وهي عندما سافرت ابنته إلى المملكة العربية السعودية كضيفة على بندر لحضور زفاف ابنته الأميرة ريما. فقد

دعـــا بندر دوروثي بوش لتمثيل عائلة بوش، لأنّ السيّدة بوش لم تستطع القدوم. وفي تلك المناسبة، وجّه الدعوة إلى حفلة العروس إلى نحو ثلاثة آلاف أم وابنة هنّ صديقات العائلـــة. ويذكـــر الرئيس أنّه على الرغم من أنّ بندر استقبل كل هؤلاء الأصدقاء من العـــالم العربـــي والولايات المتحدة وأمكنة أخرى، فقد "أدخلوا دورو في وسطهم وبقيت مع الأمير بندر؛ وقد اعتبرنا ذلك لفتة رائعة"[30].

لعل القصة الأوسع تداولاً عن الصداقة بين الأميرة هيفاء ودوروثي بوش هي الدعـــوة الـــتي وجّهتها الأميرة إلى دوروثي وأبنائها في سنة 1990. كانت الأميرة هـــيفاء تعرف بأمر طلاق دوروثي ورجوعها إلى البيت الأبيض، وتعرف أيضاً أن الـــرئيس والـــسيّدة بوش سيقومان بتفقّد القوات الأميركية في المملكة في مناسبة الشكر، قبيل تحرير الكويت. لذا دعت دوروثي بوش لتحتفل بمناسبة الشكر معها ومـــع عائلتها في مزرعة في فيرجينيا. وكان لتلك اللفتة الكريمة تجاه دوروثي تأثير كـــبير في جـــورج وباربـــرا بـــوش. فعـــندما وصل الرئيس إلى الرياض وشاهد بـــندر، عانقه، وانتحى به جانباً والتأثّر بادٍ عليه، وقال بعاطفة صادقة: "أنتم أناس طيّبون"[31].

في الـــسنوات الأربع التي أمضاها الرئيس بوش في الحكم، حظي باحترام كبير في المملكة. فقد وفّر له كونه رجل نفط مصلحة مشتركة، لكنّ رؤيته المتوازنة في الشرق الأوســـط، ونهجـــه الشخصي في القيادة سمحا له بتكوين صداقات في العالم العربـــي بـــسهولة. وكمـــا كتب بوب وودوارد، شعر بندر أنّ لدى بوش رؤية متوازنة تجاه الـــشرق الأوســـط، وأنّه لم يكن متعاطفاً مع إسرائيل ولا متمسّكاً بمصالحها بشكل حـــصري[32]. وقـــد عزّز ذلك موقف الرئيس. غير أنّ الأهم من ذلك أنّه قاد القوّات الأميركـــية إلى الدفاع عن المملكة في أزمة الخليج. ولكل تلك الأسباب - وغيرها - كان بندر يريد أن يفوز صديقه بولاية ثانية.

في 2 نوفمبر 1992، في الليلة التي شهدت ذروة السباق الانتخابـــي بين بوش وكلينتون، كان بندر محاطاً بأصدقائه، فرِد داتون، وجو رامسي، والدكتور سعيد الكرمـــي. جلس يشاهد النتائج بتفاؤل أعمى على أمل أن يخرج بوش من السباق فائزاً. غير أنّ حاشية بندر ذات البصيرة السياسية كانت تدرك قبل وقت طويل أنّ الأوراق ستسقط.

قـــال رامسي: "كان بندر يؤيّد بوش ولا مراء في ذلك. ولو كنت هناك في تلك الليلة في هيوستن، لبدا كل شيء واضحاً، حيث إن الجميع يعرفون أنّ بوش سيخسر. لكنّه كان متعلقاً بالأوهام"[33].

يذكـــر الكرمي حماوة تلك الليلة: "كنّا جميعاً نشاهد الانتخابات، واتصل بوش ببـــندر عـــند الساعة السادسة وقال، *لا يبدو الأمر جيداً*. فأجاب بندر، *لا، يا سيادة الـــرئيس، انتظر قليلاً، ستكون الأمور أفضل*". هزّ الكرمي رأسه وقال: "لكن عندما ظهرت النتائج، سقطت الولاية تلو الأخرى"[34].

اعترف داتون: "كان الأمر شاقاً عليه"[35].

في الـــساعات الأولى من 3 نوفمبر، عند الساعة 12:40 بعد منتصف الليل، وفيما كانـــت مشاعره مضطربة، كتب بندر رسالة تفيض بالمشاعر إلى صديقه جورج إيتش دبليو بوش.

> **لقـــد كـــنت نعـــم الصديق في السنوات الاثنتي عشرة الماضية، وأشعر بقوّة صـــداقتنا بحـــيث أرى لزاماً عليّ أن أكتب إليك في هذا اليوم المهم في مسيرتك الـــسياسية، وأشاركك في مشاعري كصديق مخلص ومعجب وشاهد منصف على الـــتاريخ. وأياً تكن النتائج اليوم، فأنت إنسان شريف، وصديق مخلص، وقائد ذو منـــزلة تاريخـــية كـــان العـــالم محظوظاً جداً لأنّك أمسكت بدفّة القيادة في أثناء اللحظات التاريخية.**

وتابـــع بـــندر رسالته المعبّرة عن أفكاره الشخصية في صفحتين، وأشار إلى بطل تاريخي آخر، السير ونستون تشرشل، فكتب:

> **... لا تـــنسَ أنّ القائـــد العظيم في الحرب العالمية الثانية، ونستون تشرشل، خـــسر الانـــتخابات بعد شهرين من تحقيق الانتصار العظيم في الحرب العالمية الثانية، لكنّ ذلك لم يُنقص من عظمته.**

وخـــتم بندر رسالته بقوله إنّه لا يزال يعتقد في قرارة نفسه أنّ الرئيس يمكن أن ينتزع الفوز في الانتخابات، مضيفاً:

> لكن إذا لم يحدث ذلك يا صديقي، فقد أصبت العظمة وأتطلع وعائلتي قدماً إلى رؤيـــتك وعائلـــتك في منزلنا الريفي في أسبن قريباً، بصرف النظر عما يحدث اليوم. حظاً سعيداً وليباركك الله، ويبارك عائلتك ووطنك العظيم[36].

كانت أفعال بندر وردود أفعاله في تلك الليلة المشؤومة فريدة إذ كما اعتقد جو رامسي بذكاء، "إنها المرة الوحيدة في علاقته مع بوش التي يسمح فيها أن يأتي حكمه السوي وفطرته في المرتبة الثانية بعد عواطفه. وذلك غير معهود عنه"[37].

كان كل أعضاء حاشية سفر الأمير في تلك الليلة في هيوستن يستطيعون أن يروا أنّ رغبة بندر في فوز جورج بوش تتجاوز مجرّد تمثيل المصالح السعودية.

في كلمة وجّهها جورج بوش عبر الراديو في 7 نوفمبر 1992، عن هزيمته في الانتخابات، بدأ بالإشارة إلى تشرشل، مثلما فعل بندر قبل ثلاثة أيام في رسالته إلى الرئيس. بدأ بالقول: "في سنة 1945، هُزم ونستون تشرشل في الانتخابات. فقال، *لقد منحتُ وسام الإعفاء من الخدمة*. وذلك هو الموقف نفسه تماماً الذي أجد فيه نفسي اليوم. وأعترف أنّه ليس الموقف الذي كنت أفضله، لكنّه حكم أحترمه"[38].

على الرغم من الموقف اللاسياسي، كان بندر مرتبطاً بشدّة بمعسكر بوش على المستوى الشخصي وبالحزب الجمهوري، وهو موقف يشكل خطراً عليه كدبلوماسي ولا شكّ في أنّه ميّز علاقته ببيل كلينتون. عند الحديث عن روابط الأمير بجورج إيتش دبليو بوش، لاحظ داتون: "كنت أعارض ذلك بشدة. كنت أقول في سنة 1992، وقال العديد من الأشخاص، *جورج إيتش دبليو بوش سيخسر الانتخابات*؛ وقد ربحها كلينتون. لكنّ بندر لم يشأ الإقرار بذلك؛ فقد كان إخلاصه ومحبته لجورج بوش قويّين جداً"[39].

وأكّد رامسي أنّه وداتون كانا شديدي الانتقاد لولاء بندر لبوش وأنّه قال للأمير بصراحة: "لقد كنت قادراً على الفصل بين عواطفك والعالم الواقعي، لكن ذلك كله خرج من النافذة عندما أحببت بوش"[40].

في أعقاب خسارة بوش أمام كلينتون، اجتمع بندر بالرئيس لاحقاً في كامب ديفيد حيث قال له: "سألني الملك فهد إذا كان هناك أي شيء يمكننا أن نفعله لك قبل أن تغادر منصبك".

أجاب بوش: "بندر، لو سألتني ذلك في اليوم التالي للانتخابات لقلت، *اقطعوا العلاقات مع أميركا ولا تعملوا مع هذا الرئيس الجديد*. لكن أحمد الله أنّك تتحدّث إليّ في ديسمبر".

في ذلك الوقت، كان بوش وبندر يتنـزهان في الغابة. فقال بوش: "أبلغ صديقي الملك فهد أنّه إذا كان هناك شيء أستطيع أن أطلبه، وأستطيع أن أضمن أنّه سيفعله لي، أرجو أن تساعدوا هذا الرئيس الجديد. إنّه شابّ وتعوزه الخبرة؛ إذا نجح نجحت أميركا، وإذا نجحت أميركا فذلك جيّد للمملكة العربية السعودية. وإذا فشل، فشلت أميركا، وإذا فشلت أميركا، فسيكون ذلك سيّئاً للمملكة".

قال بندر: "يا له من رجل". وروى أنّه في تلك اللحظة سرت قشعريرة في جسده. "يا له من رجل استثنائي عظيم. إنّه يطلب مني أن أساعد الرجل الذي هزمه بسبب القضية والمبادئ". وتابع بندر: "جورج إيتش دبليو بوش رجل يحافظ على الأخلاق القديمة، وعندما رويت تلك القصة أمام كلينتون بعدما أصبح رئيساً، تأثّر كثيراً. وللتوّ حرص على أن يطلع موظّفو الأمن القومي بوش على كل شيء طوال الوقت. ذلك يخبر الكثير عن الرجل، جورج إيتش دبليو بوش".

كانت مشاعر الكآبة اللاحقة التي أصابت بندر في أعقاب هزيمة بوش تنبع من الصداقة العميقة، والإخلاص الذي يشعر به كل منهما تجاه الآخر. وفي الحديث عن ذلك الوفاء قال الكرمي: "الإخلاص كل شيء بالنسبة إلى بندر، ولن ينسى الاستعداد الذي أبداه بوش الأب للمجيء ومساعدة المملكة العربية السعودية، أي الدفاع عن المملكة العربية السعودية سنة 1991. ويعرف بندر أنّ ذلك كان حقيقياً، وليس نابعاً من أي اعتبار جغرافي. والرابطة التي نشأت بين بندر وبوش في أثناء حشد القوّات استعداداً لحرب الخليج الأولى لا يمكن فصمها، على الأقل في عقل بندر"[41].

في عشاء وداعي أقامه الرئيس بوش في البيت الأبيض قبل مغادرته، دعا عشرين شخصاً من أوثق أصدقائه. وكان بندر الأجنبي الوحيد من بين العشرين شخصاً. يروي بندر: "كنت في المملكة عندما تلقّيت اتصالاً ينقل لي رغبة الرئيس في التحدّث إلي، لذا اتصلت به من هناك. لم يكن يعرف أنّني في المملكة؛ كان ذلك عند الثانية بعد منتصف الليل تقريباً حسب التوقيت السعودي، ونحو السابعة مساء في واشنطن".

قال الرئيس: "مرحباً يا بندر".

قال بندر: "مرحباً يا سيادة الرئيس، كيف حالك؟".

قال بوش: "اسمع يا صديقي، ماذا لديك مساء غد؟".

أجاب بندر: "أياً يكن، لن أقوم به بعد الآن".

قـــال بـــوش: "لقد دعوت غداً مجموعة صغيرة من الأصدقاء، سيأتي إلى العشاء لوداعي عشرون شخصاً فقط، وأحب أن تأتي إذا كنت تملك الوقت الكافي. وإذا كان لديك شيء آخر فلا تشغل بالك".

قال بندر: "لا، لا يا سيادة الرئيس، سأكون هناك".

الـــتقط بـــندر الهاتف على الفور واتصل بالملك فهد، الذي طلب منه التوجّه إلى واشنطن الليلة لحضور العشاء.

ويذكـــر بـــندر: "بعد ثلاث ساعات، طرت إلى واشنطن، وتوجّهت إلى البيت الأبـــيض مباشـــرة. في أثـــناء ذلك، أبلغ أحدهم الرئيس أنني كنت في المملكة العربية الـــسعودية عندما اتصل بـــي، لذا تفاجأ عندما دخلت الغرفة. وضع يده على كتفي وقال، *ظننت أنك في المملكة*. قلت، *كنت يا سيادة الرئيس*".

بعـــد تـــناول العشاء في البيت الأبيض، أسرع بندر إلى بيته في واشنطن ليقول "مرحباً وإلى اللقاء" للأميرة هيفاء قبل العودة على الفور إلى المملكة العربية السعودية.

كـــان بندر بوش يدعى دائماً إلى ذكرى الميلاد، والذكريات السنوية في منـــزل بـــوش. وقد أفيد أنّه "عندما احتفل جورج الأب وباربرا بذكرى زواجهما الخمسين، كان [بندر] الشخص الوحيد الذي دعي في تلك الأمسية من خارج عائلة بوش"[42].

ومؤخّراً، في يونيو 2000، كان الأمير بين الضيوف في حفل ذكرى ميلاد باربرا بوش الخامس والسبعين الذي نظّمه زوجها في كنبَنْكْبورت. كانت السيّدة بوش تعلم أنّ عائلتها ستحضر - الأولاد الخمسة والأحفاد الأربعة عشر جميعاً - لكنّها فوجئت عـــندما وجدت 185 ضيفاً من بينهم كولن باول وبندر[43]. وعند الحديث عن ذكرى ميلاد باربرا بوش الثمانين الذي حضره بندر أيضاً، قالت ميمي بورك، سكرتيرة الأمير لـــسنوات عـــدة: "باربرا بوش من المعجبين الكبار بالأمير بندر. لقد كان حفلاً عائلياً أساساً، واعتبر بندر من العائلة"[44].

وحـــضر الأميران بندر وهيفاء، وابنتهما الأميرة لولو، أيضاً حفلاً نظّمه الرئيس جورج دبليو بوش في البيت الأبيض احتفالاً بذكرى زواج والدته ووالده الستين. كان حـــدثاً خاصّاً، عشاء رسمياً في البيت الأبيض مع العائلة والزعماء الأجانب السابقين، والشخـــصيات الرئيسية في إدارته. كشفت التقارير الصحفية أنّ 130 ضيفاً دُعيُوا إلى الحفل من بينهم رئيس الوزراء الكندي السابق بريان ملروني ورئيس الوزراء البريطاني

السابق جون ميجور. غير أنّ التقارير الصحفية اللاحقة لم تلاحظ أنّه عند وصول بندر مع الأميرة هيفاء وابنتهما الأميرة لولو، ارتدى الأمير قناعاً لمايكل مور أخرجه من تحت سترته التوكسيدو. وفي هذا التنكّر غير المألوف، اعتذر بندر للرئيس قائلاً: "لن يستطيع الأمير بندر المجيء للأسف وطلب مني أن أحضر بدلاً منه". تردّد الضحك في الحفل. غير أنّه لا يستطيع إلاّ صديق مقرّب تنفيذ هذا المزاح نظراً إلى العداوة بين الرئيس ومايكل مور.

يتردّد صدى التدريب العسكري المنضبط الذي تلقّاه بندر وجورج إيتش دبليو بوش في سنّ مبكّرة، وخبرتهما في الطيران، وتفهّمهما لقيمة الرفقة في صداقتهما، مع إحساسهما العميق بالولاء والعائلة والضيافة.

كوّن بندر في سنوات عمله كسفير صداقة وثيقة أخرى. فقد عرف كولن باول بندر منذ خمس وعشرين سنة. يقول عن ذلك: "التقينا في سنة 1979 عندما كنت عميداً شاباً أجول في المنطقة مع قائدي في ذلك الوقت. كنّا في الظهران في المملكة العربية السعودية مع مجموعة من الضبّاط السعوديين. فجأة فُتح الباب ودخل هذا الضابط السعودي في سلاح الجوّ، أعتقد أنّه كان رائداً في ذلك الوقت، لكنّه بدا أعلى من رائد حيث إنّ الحاضرين وقفوا بهدوء عندما دخل. كان ذلك أول لقاء لي ببندر".

وتابع باول: "بعد ذلك بسنة، جاء إلى واشنطن، وتعرّفت إليه على أساس مهني لا على أساس شخصي... وكنّا نلعب كرة المضرب معاً". ولم يستطع باول أن يقاوم إضافة: "ولم يكن لاعباً جيّداً جداً". وأوضح: "أصبحنا صديقين. ومرّت السنوات: وعدت إلى العمل مع كاسبار واينبيرغر سنة 1983. وكان بندر يوطّد مكانته ببطء باعتباره صلة الوصل الرئيسية مع الحكومة السعودية. وصرنا نتفاهم معاً".

وفي متابعة روايته عن تلك العلاقة، قال باول: "أصبحت نائب مستشار الأمن القومي سنة 1987، ثم مستشار الأمن القومي أواخر سنة 1987 ورئيس هيئة الأركان المشتركة أواخر سنة 1989. وكانت لدينا كثير من المغامرات في تلك السنوات"[45]. في مكتب الأمير في الرياض، توجد صورة فوتوغرافية لباول بلباس القتال كتب عليها الجنرال: "إلى صديقي بندر. مع إعجابي ومع كل الذكريات الرائعة لمغامراتنا معاً. *يلزم رجل ليعرف رجلاً*". وشرح باول أنّ معظم الأميركيين يفهمون القول: "يلزم مهذار ليعرف مهذاراً". وبالإشارة إلى ذلك المثل، أوضح باول: "كنت أقول له، *الأمر*


الشريكان في لعبة المغرب
كولين باول وبندر

الـــرائع في شأن صداقتنا هو أنني أعرف يا بندر متى تكذب عليّ وأنت تعرف أنني أعرف أنك تكذب، والعكـــس صحيح. أنت تعرف متى أكذب عليك وأعـــرف أنـــك تعرف أنني أكذب. وكنّا نضحك علـــى ذلـــك". وتابع باول: "كنّا معاً في كثير من الأمـــور، كممثّلين متخصّصين لحكومتينا، من دون أن ننـــسى ذلـــك، ولكن على المستوى الشخصي أيضاً"[46].

لا يـــوجد مؤشّر أفضل على الصداقة الوثيقة التي ربطت بين الأميرين بندر وهيفاء بكولن باول، من استضافتهما باول في حفل عشاء رسمي متلألئ في منـــــزلهما الـــرائع في مكلـــين على شرف كولن باول، في أعقاب تقاعده كوزير للخارجـــية. حضر المأدبة ستون ضيفاً من أصدقاء بندر وباول، منهم ريتشارد أرميتاج(*) وفـــرانك كارلوتـــشي(**) وطوم كلانسي(↓) وسام دونالدسون(↓↓) وألان غرينسبان(⇓) ومجموعة من الشيوخ البارزين والمسؤولين في الحكومة والسفراء وزوجاتهم.

(*) نائب وزير الخارجية السابق (2001 - 2005)، ونائب مساعد وزير الدفاع لشؤون شرق آسيا والمحيط الهادئ (1981 - 1983).

(**) رئـيس مجلـس إدارة متقاعد حالياً، وسابقاً، رئيس مجلس إدارة مجموعة كارلايل (1993 - 2003)، ووزيـر الدفاع السابق (1987 - 1989). وكان أيضاً مستشار الأمن القومي للرئيس رونالد ريغن قبل توليه وزارة الدفاع.

↓ روائـي حظي كتابه الأول "مطاردة أكتوبر الأحمر" بشهرة عالمية كبيرة وصور للسينما. ومنذ ذلـك الحـين كتب كلانسي العديد من الكتب الأكثر مبيعاً، وبعد انتهاء الحرب الباردة، تتركّز رواياته وأبحاثه الأخيرة على الشرق الأوسط.

↓↓ سـام دونالدسـون مذيع ربط ثان في برنامج "برايم تايم لايف"، وعضو هيئة حوار منتظم في برنامج "ذيس ويك"، وصحافي إذاعي رئيسي.

⇓ شـغل ألان غرينـسبان منـصبه في 19 يونيو 2004 كرئيس لمجلس حكّام نظام الاحتياطي الفيدرالـي للمرة الخامسة. وقد تقلّد هذا المنصب أول مرة لشغل ولاية غير منتهية في المجلس فـي 11 أغـسطس 1987. وأعيد تعيينه بعد ذلك في المجلس لمدة أربع عشرة سنة بدأت في 1 فبراير 1992 وانتهت في 31 يناير 2006. وهكذا خدم غرينسبان رئيساً لمجلس حكام نظام الاحتياطي الفيدرالي ثماني عشرة سنة وخمسة أشهر، وهي ثاني أطول مدّة كرئيس مجلس.

في أثـــناء العـــشاء الخاص والحميم، قدّم بندر شهادة بليغة على صداقته الوثيقة بكـــولن باول قائلاً بشكل مازح: "إنّه الرجل الوحيد الذي أعرف، والمسؤول الوحيد في الحكومة الأميركية، الذي لديه أمير كسكرتير". وعندما هدأ الضحك، أشار بندر: "لكي أظهر لكم كم يسيء استخدام سلطته، أجريت اليوم اجتماعين في الجوار هنا - في وزارة الخارجـــية والبيت الأبيض - وكان عليّ أن أسرع وأوجز في الحديث لكي أتوجّه إلى منـــزله حاملاً مخطّط الجلوس لكي يقول ما يجب عمله".

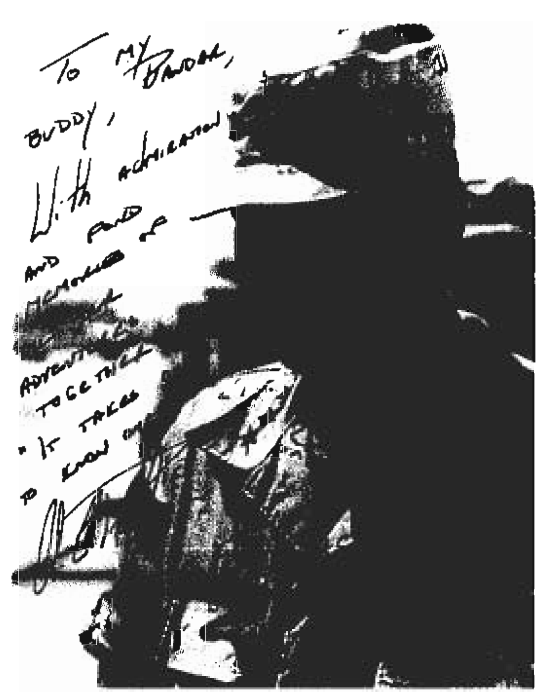
وتابـــع بندر: "أقول جاداً، لقد التقيت بكثير من الأشخاص في حياتي، كملوك، ورؤســـاء أحزاب شيوعية سابقين، ورؤساء، ورؤساء حكومات، وغيرهم، وقلّة منهم أنظـــر إليهم باحترام كبير وإعجاب - وبقدر ما يؤلمني أن أقول - وبمحبّة أيضاً، مثلما أنظـــر إلى هذا الرجل العظيم. لقد شهدنا أوقاتاً جيّدة وأوقاتاً سيّئة معاً. عندما تكون المغادرة سهلة هناك العديد من الأشخاص مثل كولن باول، ولكن عندما تكون قاسية، لا يوجد سوى القليل القليل منهم، ويا صديقي كولن، سنفتقدك، لكن الوقت عصيب وأنت تعلم أنّنا سنعود إليك جميعاً من أجل النصح والتوجيه".

وفي امـــتداح هـــازل للدعم الذي قدّمته ألما باول إلى زوجها، قال بندر مناكفاً: "الـــسبب الوحـــيد لنجاحـــنا أنـــا وكولن هو أنّنا تزوّجنا ممن أرفع مقاماً منّا؛ ونحن محظوظان جداً". وفي الملاحظات الختامية كشف بندر الطبيعة الحقيقية لإعجابه بباول وصـــداقته معه عندما قال: "يشرّفني تكريم هذا الرجل العظيم والصديق العظيم. وأودّ تـــذكير الجميع أنّ النار تضفي الدفء على الجسم لكنّ الصداقة تغمر القلب بالدفء؛ ولقد غمرت قلوب كثير من الأشخاص في العالم بالدفء يا كولن"[47].

وفي الردّ، ذكّر باول مضيفه أنّهما خدما معاً في ظل خمسة رؤساء منذ أن التقيا لأوّل مـــرة في قاعدة جويّة في المملكة العربية السعودية سنة 1979، عندما دخل رائد شاب إلى اجـــتماع مرتدياً بذلة الطيران مع وشاحه الأحمر المعهود. "أصبحنا صديقين في ذلك اليوم، وهي صداقة استمرّت خمساً وعشرين سنة، في الأوقات الطيّبة، وأوقات التحدي، وأوقات الفـــرص. وإنّـــني أقدّر صداقة لا تربطني بك وحدك، يا صديقي العزيز، بل ببلدك وقادة بلدك. إنّها علاقة صمدت أمام اختبار الزمن وعادت بالفائدة على بلدينا".

وتابـــع باول تنويهه قائلاً: "إنّ جوهر علاقتنا ليس ما نفعله معاً. ولا أعتقد أنّني أغالي إذا قلت إنني أنا والأمير مثل أخوين، وهكذا نحن منذ سنوات عديدة".

كان باول عازماً على ممارسة إحدى ألاعيبه، فذكر أنّه أعطى الأمير صورة له لكي يعلّقها في السفارة، لكنّه أشار إلى أنّها اختفت. وأوضح باول: "في سنة ليست ببعيدة، قدّم إليّ بندر هدية، وكانت هدية جميلة انتظرتها بشغف لأنّه قال إنّني سأعجب بها! وتبيّن أنّها صورة لبندر في إطار فضي جميل، ولطالما فكّرت *كيف سأردّ له الهدية؟*".



إلى صديقي بندر، مع إعجابي، ومع كل الذكريات الرائعة لمغامراتنا معاً. "يلزم رجل ليعرف رجلاً".

في هذه اللحظة أدخل العاملون لدى الأمير صورة كبيرة لكولن باول قدّمها إلى بندر قائلاً: "هذه الصورة بدلاً من الصورة المفقودة؛ ويجب أن تعلّق في مكان يستطيع أن يرى بندر أنّها تنظر إليه لتذكّره أنّني ما زلت أراقبه"[48]. وعندما هدأ الضحك، ذكّر باول الحضور أنّ اليوم هو أيضاً ذكرى ميلاد الأمير وقدّم إليه تمثال بافالو برونزياً صغيراً رائعاً.

بعد العشاء قُدِّم ترفيه فنيّ في غرفة الاستقبال الرائعة، حيث أمتعت روبرتا فلاك الحضور بمجموعة من أعمالها الناجحة، بما في ذلك أحد أعمالها الذي وضعته خصيصاً لنلسون مانديلا. وبما أنّها من الفنّانين المعتادين في السهرات الاجتماعية التي يقيمها بندر، فقد نشأت صداقة بينهما. عندما سئلت فلاك كيف تجد بندر، أجابت على الفور: "أعتقد أنّه الدبلوماسي البارع على كل المستويات، الشخصية وسواها. إنّه مستمع جيد. وهو أكثر من دبلوماسي، إنّه يتحلّى بروح عالمية. وهو ليس فاتناً فحسب، لكن ثمة شيء يتوهّج في شخصيّته. ومع الأمير بندر، ما تراه هو ما تحصل عليه". وتوقّفت فلاك لفترة وجيزة ثم أضافت: "إنّه رائع وجذّاب".

ثم أبرزت فلاك قدرة الأمير على جعل المرء يشعر أنّه مهتمّ جداً لما يقول. وأكّدت: "يمكن الاعتماد على الأمير أن يكون صادقاً ونزيهاً قدر المستطاع. وهو يتحلّى بالكرامة والاستقامة والذكاء. إنّه رجل رائع، وأمير لديه القدرة على التواضع إلى أبعد الحدود. وهو يحب الحياة ويحب أبناءه، إنّه والد صالح وجدّ صالح"[49].

يتمتّع بندر بصداقات راسخة مع العديد من زعماء العالم، لكنّه يكنّ تقديراً خاصاً لمارغريت تاتشر. كما أنّ صداقته مع الأمير تشارلز وثيقة جداً، وقد وجّه تشارلز دعوة شخصية إلى بندر لحضور زواجه من كاميلا باركر باولز في أبريل 2005[50]. ويمكن تتبّع تلك الصداقة إلى تجربتهما في كرانول (كان تشارلز يتدرّب أيضاً في قاعدة سلاح الجوّ الملكي في كرانول) وانبهار تشارلز بالإسلام.

غير أنّ علاقة بندر بالرئيس السابق نلسون مانديلا خاصّة جداً بالفعل. إنّهما قريبان بشكل مدهش. وينظر بندر إلى مانديلا كمعلّم ورجل دولة من الطراز العالمي، في حين يرى مانديلا أن بندر يتحلّى بدفء، وذكاء، وإخلاص استثنائي. ولعل أفضل ما يوضح عمق العلاقة بينهما قرار مانديلا دعوة بندر إلى حضور زواجه من السيدة غراكا ماتشل يوم احتفاله بذكرى ميلاده الثمانين، وهو يوم امتلأت فيه بريتوريا برؤساء الدول الزائرين الذين لبّوا الدعوة إلى حضور حفل ذكرى ميلاده في وقت لاحق من تلك الليلة.

يذكر مانديلا: "عندما تزوّجت زوجتي واحتفلت بذكرى ميلادي الثمانين، دعوت بندر. كانت مجموعة منتقاة فحسب"[51]. في الواقع، كان الزواج شأناً عائلياً، إذا استثنينا الرئيس مبيكي، ورئيس الأساقفة دزموند توتو، وبندر.

ويروي بندر: "تلقّيت اتصالاً من مانديلا. كنّا في بريتوريا للاحتفال بذكرى ميلاده الثمانين، فقال، *إذا لم يكن لديك ما يشغلك، أود أن تأتي في الصباح إلى القصر الرئاسي في بريتوريا. لدي اجتماع عائلي لأولادي وأحفادي*".

وهكذا في صباح اليوم التالي توجّه بندر إلى القصر وأمضى بعض الوقت مع مانديلا وعائلته.

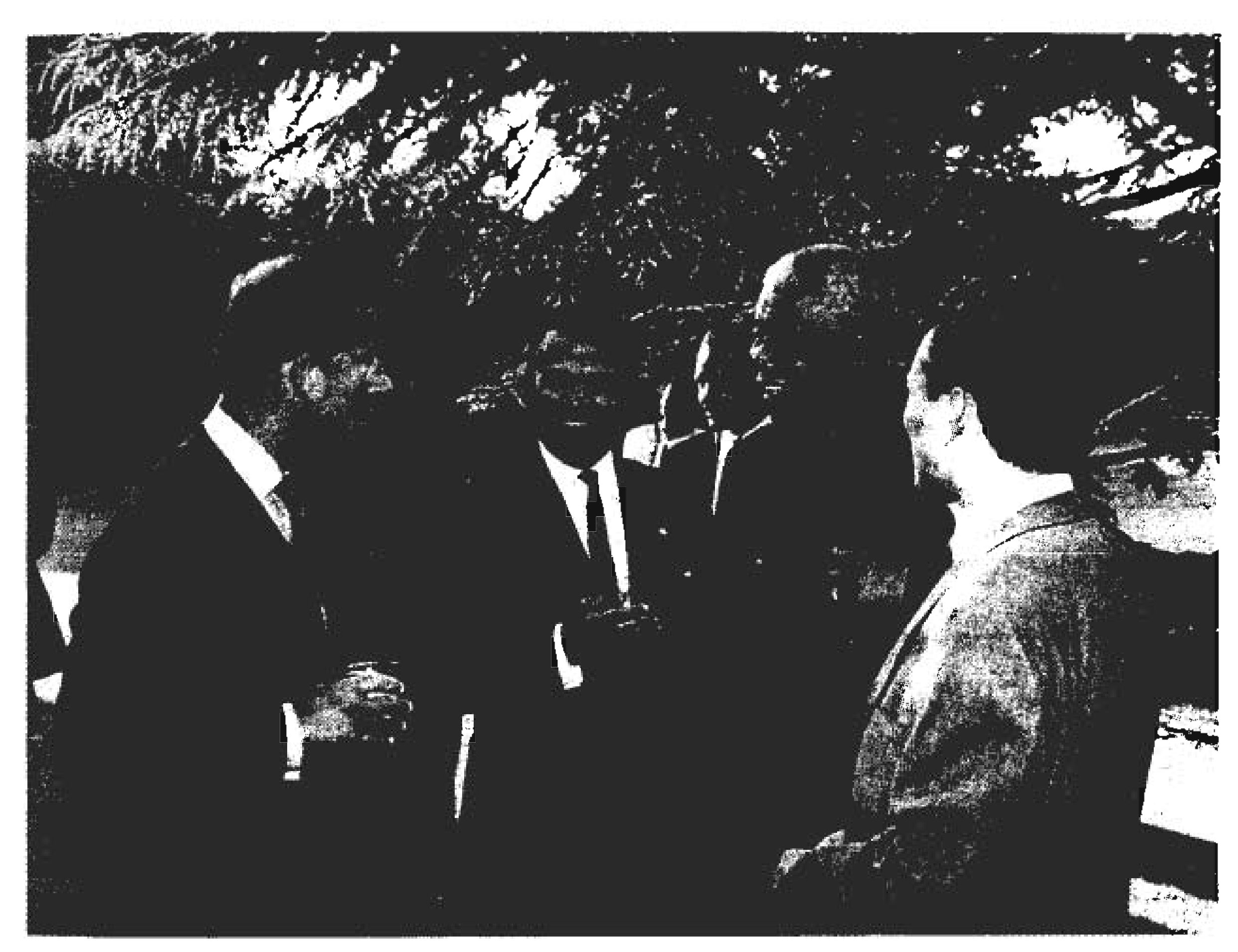
وفي أثناء ذلك، انتحى مانديلا ببندر جانباً وسأله: "ما لديك بعد ظهر اليوم؟".

أجاب بندر: "لا شيء يا سيادة الرئيس، سأرتاح وأعدّ نفسي للحفل الكبير".

فقال مانديلا: "أتعتقد أنّ في وسعك المجيء لنشرب الشاي معاً؟".

فكّر بندر: "ذلك لطف منه، لكن تكتنفه الغرابة. لقد شربت للتو الشاي معه ومع أبنائه وأحفاده، وسأتناول العشاء معه في الحفل، فلماذا يريدني أن آتي لشرب الشاي؟".

ولّما لم يكن يرغب في رفض دعوة أو فرصة لتمضية الوقت مع مانديلا، سأل بندر: "في أي وقت؟".



بندر مع اثنين من أقرب أصدقائه: نلسون مانديلا والأمير تشارلز في منزل بندر في غليمبتون بارك

أجاب مانديلا: "في الرابعة في جوهانسبرغ، في منـــزلي الخاص، لا القصر الرئاسي".

قال بندر: "حسناً".

قـــال مانديلا فيما بندر يغادر: "أريد أن أخبرك شيئاً، بيني وبينك. لا تخبر أحداً، سأتزوّج بعد ظهر اليوم".

صاح بندر: "ماذا؟! رائع! لكن هل الأمر صحيح؟".

"نعـــم، نعم، أجاب مانديلا". ووجه الدعوة إلى بندر لحضور زواجه عصر ذلك اليوم.

وفـــيما كانا يخرجان، قال مانديلا: "أريدك أن تلتقي بأحدهم؛ سجّاني. وهو رجل أبيض قادم للاحتفال بذكرى ميلادي الثمانين. لديه بعض الهدايا لي. دعنا نذهب ونرى".

قـــدّم السجّان لمانديلا بعض الشامبو وصابون الحمّام، من النوع نفسه الذي كان يهرّبه لمانديلا عندما كان في السجن. فكّر بندر في سرّه: "يا له من رجل، حتى سجّانه جاء ليحتفل معه"[52].

عـــندما عاد بندر إلى بريتوريا، قرّر أن يتوجّه إلى غرفته وألا يقابل أحداً، حتى لا يزلّ ويفشي سرّ زواج مانديلا. لكن بُعيد وصوله، تلقّى اتصالاً من مبيكي الذي أبلغه أنّـــه دعي إلى الشاي مع الرئيس في الرابعة عصراً. قال بندر: "حسناً، أراك عندئذ". لم يذكر شيئاً عن الزواج، ولا مبيكي الذي لم يكن على علم بالحفل المزمع.

في وقـــت لاحق من ذلك اليوم توجّه بندر إلى منـــزل مانديلا حيث كان هناك عشرة مراسلين ومصوّرين، يلتقطون صوراً لكل من يدخل البيت أو يخرج منه إذ اليوم ذكـــرى مـــيلاده. خـــرج مانديلا والسيدة ماتشل للقائه وقدّماه إلى العائلة. وكشف مانديلا أنّه قدّم إلى عائلتها ثلاثين بقرة كمهر.

لم يكن بندر يدرك أنّ حفل الزواج سيقتصر على عدد صغير، "ظللت أنتظر بقية الـــضيوف لأنّ المديـــنة مليـــئة بالمشاهير من كل أنحاء العالم، و لم يأت أحد. انتظرت الشخصيات المهمّة، و لم يأت أحد. وانتظرت المسؤولين الآخرين في حكومته، لكن لم يـــأت أحد. كان هناك ثلاثون شخصاً على الأكثر. وكلّهم من عائلته أو عائلتها، و لم يكن هناك ضيوف غير توتو ومبيكي وأنا".

دُهش بندر من الطبيعة الحصرية للجمع وذُهِل عندما عرف أنّ مانديلا دعا إماماً مـــسلماً، وقسيـــساً بروتستانتياً، وحاخاماً، وكاهنة هندوسية لإجراء مراسم الزواج. "كان الأمر سورياليًاً حقّاً، و لم أكن أعرف ماذا أفعل. فكّرت أنّه ربما كان يجدر بـــي عدم المجيء. لكن فجأة أدركت أنّني واحد من العائلة"[53].

تـــرأس القدّاس رئيس الكنيسة الميثودية، الأسقف مفومي داندالا، يساعده صديق مانـــديلا ومستودع أسراره رئيس الأساقفة دزموند توتو، الذي بارك الزواج. وذكر أحـــد المراســـلين لاحقـــاً أنّ مانديلا ارتدى أحد قمصانه المميّزة، وأنّ السيّدة ماتشل ارتدت فستاناً قطنيّاً طويلاً أبيض اللون ومطرّزاً بخيط ذهبـــي. وفي نهاية الحفل، تبادل الـــزوجان الـــسعيدان الخاتمين والقبلات، ثمّ باركهما الشيخ نذير محمد، رئيس مجلس القضاء الإسلامي، وكريشني ناناتشاند، ممثّلة الدين الهندوسي، والحاخام الأكبر سيريل هاريس[54].

ويذكر بندر: "كنت واحداً من ثلاثين شاهداً. وقد تزوّج ماديبا والسيدة ماتشل وفقـــاً للـــديانات الهندوســـية والإسلامية والمسيحية واليهودية. وذلك أغرب حدث اجتماعي شخصي تاريخي أشهده في حياتي"[55].

عـــندما طلـــبت من مانديلا لاحقاً أن يؤكّد زواجه وفقاً لأربع ديانات مختلفة، أجـــاب ببـــساطة: "ذلك صحيح، حرصت على ألا أستبعد أي ديانة كبرى لأنّ تلك طـــريقة لتوحـــيد البلد ووضع كل هذه الديانات على قدم المساواة"[56]. كانت التفاتة شخصية غير عادية، لكن مانديلا كان فخوراً بالتسامح الديني الذي تبديه حكومته التي تضم عدة وزراء مسلمين، وكان مهتماً لشأن التوتّر المتصاعد بين المسيحيين والمسلمين في جـــنوب إفـــريقيا. وهـــو يؤمن بشدّة أنّ جنوب إفريقيا يمكنها أن تساعد في ردم الانقسام الديني في العالم اليوم[57].

في نهايـــة الحفـــل، الـــتفت مانديلا إلى رئيس الأساقفة توتو وأشار إليه بابتسامة عريضة قائلاً: "هذا هو الرجل الذي دفعني للإقدام على ذلك. كنّا سعيدين بالعيش معاً وأشـــعر أنّني مسنّ على الزواج مجدداً. ولم تكن السيدة ماتشل ترغب في الزواج. غير أنّـــك ألحـــت أنّني قدوة تحتذى للشبان وأنّ عيشنا معاً يمكن أن يفهمه الكثيرون أنّه عيش في الخطيئة. لذا علينا أن نلومه على زواجنا".

وقـــال مانديلا لبندر: "ظل هذا الرجل يلحّ عليّ ويلحّ قائلاً، *أنت قدوة للشعب والـــشبان. إنّـــنا نبلغهم أنّنا مبتلون بالإيدز [في جنوب إفريقيا]، ويجب ألا تفعلوا شيئاً خـــارج الـــزواج. ماذا يسعنا أن نبلغهم عندما يقولون، انظروا إلى رئيسنا وبطلنا، إنّه يقيم مع امرأته*. لذا اضطررت إلى الزواج لأتخلّص من إلحاحه"[58].

وعـــندما سُئِل مانديلا لماذا دعا بندر إلى الانضمام إلى مثل هذا الزواج الحميم، أجـــاب: "إنّني خارج التداول الآن، لكن كلما خطّطت لشيء كبير، يكون دائماً في البال. الأمير بندر صديقي"[59].

عـــندما كان بندر يغادر حفل الزواج قال: "أتمانع إذا أبلغت جلالة الملك وولي العهد بهذا الزواج؟".

أجاب مانديلا: "لا، على الاطلاق. يمكنك إبلاغهما الآن".

"وماذا إذا سألتني الصحافة؟".

قال مانديلا: "يمكنك تأكيده، لكنّنا لا نريد أن يتحدّث أحد عن التفاصيل".

بعـــد أن ودّع بندر مانديلا، أراد العودة إلى بريتوريا للإعداد لحفل ذكرى ميلاد مانـــديلا في وقـــت لاحق من مساء اليوم نفسه. يذكر الأمير كم كان منهكاً عاطفياً وجـــسدياً ويريد الحصول على بعض النوم قبل حفل ذكرى الميلاد. عندما غادر بندر

بسيارته، حلّ ربطة العنق وأشعل سيجاره. "ظننت أنّني أسير في حديقة حيوانات! فجأة أصبح هناك مئات المصوّرين والمراسلين بدلاً من عشرة. بدا الأمر أشبه بأعمال الشغب. كان الجميع يدفعون كاميراتهم في وجهي. لقد انتظروا طيلة بعد الظهر والصورة الوحيدة التي حصلوا عليها صورتي".

بعد الهروب من شغب وسائل الإعلام عند مغادرة حفل زواج مانديلا، عاد بندر إلى الفندق. وفور وصوله رنّ الهاتف. يقول بندر: "أُبلِغْت أنّ مدير السي أن أن يتصل من أطلنطا".

قال المدير: "سمعنا إشاعات عن أنّ الرئيس مانديلا تزوّج للتوّ، لكن لم يؤكّد أحد ذلك. وفهمنا أنّك كنت هناك، وشاهدك طاقمنا خارجاً من منزله؛ أيمكنك أن تساعدنا، أرجوك؟".

قال بندر: "كيف سمعت الشائعات؟ عبر الهاتف؟".

ردّ مدير السي أن أن: "لا. الجميع يتزاحمون لتوكيد الخبر، لكن لا أحد يجرؤ على قول شيء بشأن مانديلا. إنّنا بحاجة إلى تأكيد".

أجاب بندر: "نعم، أستطيع أن أؤكّد لك أنّه تزوّج".

سأل مدير السي أن أن: "هل أنت مستعدّ للخروج على الهواء مع السي أن أن في خبر عاجل؟". وعندما وافق بندر، قال: "سأرسل إليك طاقماً".

ردّ بندر: "لن أتحدّث على الهواء، ولن أتحدّث أمام الكاميرا".

"يا إلهي". قال المدير محبطاً. "أيمكنك أن تتحدّث إلى مراسل عبر الهاتف؟".

أجاب بندر: "بالتأكيد، لكن لا يمكنني أن أقول سوى أنّني كنت هناك، وأنّه تزوّج، ومن تزوّج. لكن لا تسألني: من كان حاضراً، وما اسماؤهم، وماذا حدث، وما إلى هنالك".

أجاب المدير: "لا بأس، أي شيء، لكن تحدّث إلينا أولاً أرجوك".

يذكر بندر أنّه شغّل التلفزة على محطة السي أن أن ليجد عنواناً يفيد: "خبر عاجل، الرئيس مانديلا تزوّج ولدينا توكيد خاص". وتابع أحد المراسلين: "كان الأمير بندر، السفير السعودي في الولايات المتحدة، وهو صديق مقرّب إلى مانديلا، من القلّة التي حضرت الزواج وقد وافق على التحدّث إلينا". وفيما الخطّ لا يزال مفتوحاً، سأل: "سموّ الأمير بندر، هل يمكنك أن تسمعني؟".

"نعم". أجاب بندر.

"هل الخبر صحيح؟".

"نعم، الرئيس مانديلا تزوّج عصر هذا اليوم. أرجو له ولعروسه الخير والسعادة. إنّه يوم سعيد لأنّ ذكرى ميلاده وحفل زواجه في اليوم نفسه".

ثم سأل المراسل: "هل كنت حاضراً شخصياً؟".

أجاب بندر: "بالطبع كنت حاضراً، وكان هناك بعض الأصدقاء والعائلة".

وسأل المراسل: "كيف كانت العائلة؟".

قال بندر: "لا أستطيع أن أخبرك. إذا أراد الأصدقاء والعائلة التحدّث، فذلك حقّهم لا حقّي".

تابع المراسل المحبط: "سؤال أخير، ما عدد الأشخاص الذين حضروا؟".

"بين عشرين وثلاثين شخصاً".

"هذا العدد فقط؟".

"نعم".

"حسناً، ماذا تعرف عن الزواج؟".

ردّ بندر بفظاظة: "لي أن أعرف، ولك أن تكتشف ذلك بنفسك! إلى اللقاء"[60].

منذ أن أنشأ الرئيس السابق لجنوب إفريقيا مؤسّسة نلسون مانديلا سنة 1999، عقد العديد من الاجتماعات، وأجرى الكثير من المكالمات الهاتفية مع زعماء العالم، وسافر إلى العديد من بلدان العالم، وقد نظّمت ذلك كله سكرتيرته المخلصة زلدا لو غرانج. وكان يسافر حتى عهد قريب بشكل متكرّر إلى بريطانيا والولايات المتحدة والشرق الأوسط، وغالباً بطائرة الأمير بندر الخاصة[61]. وفي أثناء اجتماعي بنلسون مانديلا وجيكس جيرول، ذكّره جيكس أنّ طائرة بندر كانت متاحة له دائماً. فوافق مانديلا بسرعة قائلاً: "ذلك صحيح جداً. لم يتردّد البتة، وهو الذي يعرض في معظم الأحيان؛ لا أعرف كيف يسمع عنا في بعض الأحيان ويتقدّم بعرضه"[62].

أكّد جيمس بيكر هذا الكرم الذي يتحلّى به بندر وقال: "أحضر الأمير بندر نلسون مانديلا إلى معهد رايس بطائرته الخاصة وحظيت تلك الزيارة بنجاح فريد"[63]. وفي تلك المناسبة، كان بندر يرافق مانديلا. وفيما كان يجيب عن أسئلة الحضور، سأله فتى في الثانية عشرة "كيف يريد أن يُذكر، وماذا يوجد في قلبه؟". فأجاب مانديلا: "لا

أريد أن أذكر كملاك. أنا رجل عادي لدي مواطن ضعف، لست قدّيساً، ما لم تكن تعتقد أنّ القدّيس عاصٍ يواصل المحاولة"[64].

خلافاً للعديد من طائرات المسؤولين التنفيذيين، نادراً ما تمكث طائرة بندر إيرباص 340 ذات الأربعة محرّكات على المدرج طويلاً. فهي تُستغلّ كثيراً، حيث تطير نحو ألف ساعة في السنة[65]. ويُظهِر فحص سجلات الطائرة الجوية أنّ المسافة السنوية الـتي تقطعها بالأميال تكفي لنقلها إلى القمر وإعادها كل عام، فضلاً عن السفر حول الكرة الأرضية ثلاث مرات، وتستهلك هذه الرحلات ما يقرب من 1.8 مليون غالون من الوقود سنوياً. ويشمل سجل طيران الطائرة وجهات متنوّعة مثل أغادير، وعمّان، وأنكوراج، وكيب تاون، والدار البيضاء، وهونولولو، وإسلام أباد، وريو دي جانيرو، وسانتا لوتشيا، وطرابلس، وكسيان.

تولّى روبرت ديكون إليوت مسؤولية الإشراف على إعادة تجهيز طائرة بندر قبل أن يتسلّمها. فقد أمضى اثني عشر شهراً يخطط بدقة لكل تفاصيل تصميم الطائرة. وهو جدول عمل طموح تمّ ضمن الموازنة المرصودة وفي الوقت المحدّد. وفي لفتة استعراضية، تمّ توقيت تسليم الطائرة في واشنطن بحيث يتطابق مع ذكرى ميلاد بندر في 2 مارس 1998[66].

وفي حين يتولّى روبرت ديكون إليوت مسؤولية طائرة بندر وأطقمها، يتولّى ريتشي توماس تنظيم العمليات اليومية، وهو طيّار موهوب ذو سجل طيران استثنائي. ويمكن القول إنّه من أكثر القادة السابقين لفريق رد أرو خبرة، وهو فريق عرض للألعاب البهلوانية الجوية في سلاح الجو الملكي. وتحتاج الطائرة إلى طاقمين: أحدهما أميركي والآخر بريطاني، يعمل الطاقم شهراً ويرتاح شهراً. وكل الأطقم الأميركية من الطيارين السابقين في الفرقة 89 أو الطائرة الرئاسية[67].

شهدت طائرة بندر أيضاً العديد من الزوّار المميّزين. يذكر طاهي الطائرة، هنري بوهم: "ركب الرئيس جورج بوش الأب والسيدة بوش الطائرة في العديد من المناسبات، وكذلك وزيرا الخارجية بيكر وباول"[68]. وعرضت علي كبيرة المضيفات جينا برستون صوراً فوتوغرافية التقطت من واشنطن إلى هيوستن. كان ضيوف بندر في الطائرة في تلك المناسبة يحضرون جنازة ريغن في كاتدرائية واشنطن الوطنية، وهم في طريقهم إلى هيوستن لحضور ذكرى ميلاد الرئيس بوش الثمانين. وأوضحت: "كان

لديـــنا الرئيس غورباتشيف، والرئيس بوش وزوجته، ووزير الخارجية بيكر وزوجته، والجنـــرال سكوكروفت، ومغني الأوبرا الأيرلندي رونان تينان، الذي أدّى في الكنيسة في أثناء الجنازة"[69].

وقـــد زُيِّنَت الطائرة بأشرطة التهنئة، والرايات، والبالونات احتفاء بذكرى ميلاد الرئيس بوش، وارتدى طاقم الطائرة بأكمله أزياء رعاة البقر في تلك المناسبة. وكانت الموســيقى مـــن نوع الكونتري (الريفية)، وضمّت طاولة الغداء في مركزها كعكتي ذكرى ميلاد - كعكة كنموذج للبيت الأبيض بالشوكولا البيضاء، وأخرى على هيئة فـــيل الحزب الجمهوري بالشوكولا الداكنة – وقد أخذهما السيدة بوش معها عندما وصولوا إلى هيوستن[70].

المـــزاح، والظرَف، والميل إلى المرح أوجه دائمة الحضور في شخصية بندر. وثمة حادثة وقعت على متن الطائرة توضح تماماً حسّ الفكاهة لديه.

الأمير فيصل بن تركي، صهر الأمير بندر، يصاب بالتوتّر في أثناء الطيران، ويكره عملـــية الإقلاع على وجه الخصوص. عند الإعداد للمغادرة في أثناء جولة للخطابة، تمّ إشـــعار أنّ الأمـــير بندر سيحضر. وبعد قليل حضر الحرّاس الشخصيون وغيرهم من الموظّفين وعبروا المقصورة باتجاه الجزء الخلفي للطائرة.

أعلـــنت الضحكة الواسعة وكلمة الترحيب القلبية "مرحباً بالجميع" عن ظهور الأمير الاســـتثنائي في المقصورة. نهض الجميع واختلطت تعابير الترحيب وتراوحت بين، "مساء الخير يا صاحب السمو الملكي"، و"مرحباً بالأمير بندر"، وأخيراً الترحاب المألوف، "مرحباً بـــالمعلّم". غـــير أنّ الأمير بدلاً من أن يجلس في مقعده أعلن أنّه سيتوجّه إلى مقابلة الطيّار وتقدّم نحو حجرة القيادة، والتفت إلى ديكون إليوت وغمزه، قبل أن يختفي عن الأنظار.

عندئذ أخذت الطائرة تتحرّك. وكالعادة، بدا فيصل خائفاً من الإقلاع الوشيك. وفـــيما درجـــت الطائرة على المدرج، اتضح التقدّم على الشاشة العملاقة عند القاطع الأمامـــي، إذ ثمة خمس أو ستّ كاميرات خارجية موضوعة في مواقع استراتيجية توفّر مـــشاهد مـــن جوانب الطائرة كافّة. وفي نهاية المدرج، توقّفت الطائرة مؤقّتاً استعداداً للإقلاع.

وفيما أعدّ الجميع أنفسهم لصخب المحرّكات المألوف وحلّ المكابح، جاء إعلان غير متوقّع من كابتن الطائرة، الطيار آل تيرنر. قال بلهجته الإنكليزية الممتازة: "سيداتي



من اليسار إلى اليمين: ابنه فهد، صهره الأمير فيصل بن تركي، وابناه فيصل وعبد العزيز

سادتي، الأمير بندر سيتولّى القيادة حتى بلوغ الطائرة ارتفاع الطيران. استعدّوا للإقلاع. طاقم المقصورة، الرجاء الجلوس في أماكنكم". ولم تكد تنتهي الرسالة حتى ارتفعت وتيرة المحرّكات، وأسرعت الطائرة على المدرج. بدا الرعب ظاهراً على وجه الأمير فيصل، وازداد قلقه عندما استجمعت الطائرة سرعتها.

جاء الآن إعلان آخر من حجرة القيادة، بثبات يا صاحب السمو، أبقِ الاتجاه إلى الأمام إلى أن أشير عليك بالموافقة. وتواصل التعليق من حجرة القيادة. تسعون عقدة، مئة عقدة، استعدّ للدوران، (توقّف مؤقّت)، انعطف (ثم تنبيه) بثبات، هكذا، انتبه إلى جانبك الأيمن يا صاحب السموّ، على مهل، ممتاز! تواصلت هذه التعليقات من حجرة القيادة فيما الطائرة ترتفع. امتقع لون الأمير فيصل المرتبك، وبدا واضحاً أنّه غير مستمتع بالتجربة.

في هذه اللحظة، ظهر وجه بندر بخبث في المقصورة. نظر باتجاه ديكون إليوت وغمز غمزة تآمرية فيما جلس على مقعده. وبدا واضحاً أنّه لم يكن يقود الطائرة.

انفجـــر جمـــيع من في المقصورة بالضحك، وصفّقوا مستمتعين بهذه المزحة. وظهرت علامات الارتياح على وجه فيصل. وعندما أدرك أنّه كان ضحية مزحة بندر العملية، أطلق سيلاً من اللعنات بالعربية، لكن سرعان ما انفرجت أساريره وعاودت الابتسامة الظهـــور على وجهه. لقد أظهر بندر ميله إلى المرح، وهي خصلة غالباً ما أفادت عنها وســـائل الإعلام كما في كتاب **القادة** عندما كتب بوب وودوارد: "كان الأمير سلساً وودوداً، وقـــد أثّـــر في الدوائـــر الـــسياسية والإعلامية بالسيجار والهدايا والدعوات والمعلومات والقصص المثيرة والمزحات العملية. وكان في وسعه أن يكون مرحاً وقاسياً على حدٍّ سواء"[71].

في هذا الفصل الموجز لم أتمكّن سوى من المرور بشكل عابر على صداقات بندر، أي العلاقـــات الـــتي نـــسجها علـــى مـــرّ أربعة عقود تقريباً، كطيّار حربـــي أولاً وكدبلوماســـي ورجـــل دولة لاحقاً. وهناك أيضاً العديد من أصدقاء الصبا مثل أحد أعـــضاء حاشيته الحالية، العميد فيصل الفقي، وهو شاعر موهوب وضابط في سلاح الجـــوّ، والمطرب السعودي العربـــي الشهير محمّد عبدو. كما أنّ أعضاء حاشية سفر بندر، الذين قدّمت نبذة عنهم، لا يكوّنون سوى جزء صغير من رفاق السفر، إذ هناك الكـــثير مـــن المؤتمنين السعوديين على أسراره والضبّاط والأطبّاء وأفراد العائلة الذين يسافرون معه.

إنّ من يمتلك حضور بندر الرابح، وكرم نفسه، واهتمامه الحقيقي للناس، يكسب الأصدقاء بسهولة من كل طبقات المجتمع ومشاربه. وقد تبيّن لي من كثير ممن قابلتهم، مـــن موظّفين ورجال دولة على حدٍّ سواء، أنّ من الأوجه المتكرّرة لبندر قدرته على جعل الجميع يشعرون أنّهم مميّزون، أياً كان موقفهم. لكن إخلاصه الذي لا يتذبذب، ممـــزوجاً بحسّه الفكاهي، لا يجعله صديقاً عظيماً لمن يعرفونه فحسب، وإنّما يجعله هذا دبلوماسياً بارعاً أيضاً.

الفصل الثاني عشر

الحياة الخاصة بالأمير بندر

"حبّ العائلة أعظم نعمة في الحياة"

مجهول

العناصر الأكثر أهمية في الحياة بالنسبة إلى بندر هي المملكة العربية السعودية، وعائلته، ودينه، وكلها متشابكة.

في ديسمبر 1972، تزوّج بندر بالأميرة هيفاء، ابنة عاهل المملكة العربية السعودية الملك فيصل. وقد أوضحت الأميرة هيفاء كيف التقيا قائلة: "كان بندر مع أخي في كرانول. وكان أخي يحدّثني عنه، ويحدّثه عنّي؛ وذلك في سنة 1966. ومنذ ذلك الوقت شعرت لسبب أو لآخر أنّه الرجل الذي سأتزوّجه، ولا أعرف لماذا حقاً. أعتقد أنّك عندما تلتقي بشخص ما، إما أن تنسجم معه وإما لا تنسجم، وبدا أنّنا منسجمان تماماً".

أسندت هيفاء قرارها جزئياً الزواج ببندر إلى معرفتها بأبيه. وقد أوضحت: "كان والده يرافق والدي دائماً، ويسافر معه ويأتي إلى منزلنا. ربما لأنّه يشبه والده في ضحكته، وحسّ الفكاهة لديه، ولطفه، وذكائه. كما أنّه كثير السّفر وأنا كذلك، وهكذا حدث التوافق. لا أستطيع القول إنّ الأمر يعود إلى شيء واحد، لكن، حدث التوافق".

تمّ الزواج وفقاً للتقاليد في منزل والد العروس، قصر الملك فيصل. وعلى الرغم من أنّ الحدث كان رائعاً، فقد أكّدت الأميرة حصول العديد من الزيجات في ذلك اليوم. وأوضحت: "كان هناك في الواقع خمسة عرسان وخمس عرائس". وبعد الزواج أُقيم حفل كبير، حفل للنساء يأتي خلاله العريس وقسم من عائلته لأخذ العروس. وتذكر الأميرة هيفاء، "كانت العادة أن تُقضى الليلة الأولى في قصر الملك، وفي اليوم التالي، الذي يسمّى التحوال، تغادر العروس مع زوجها لقضاء شهر العسل. وقد بدأنا

رحلتـــنا بسويسرا". وتابعت الأميرة، "ثم انتقلنا إلى فرنسا، وأخيراً إلى تونس. وعندما عـــدنا إلى المملكـــة وإلى القاعدة الجوية التي عيّن فيها بندر في الظهران، كنت حاملاً بابنتي لولو"[1].

للأمير بندر والأميرة هيفاء ثمانية أبناء وبنات: ولدت لولو في سبتمبر 1973، وريما في يونـــيو 1975، وخالد في يوليو 1977، وفيصل في أكتوبر 1980، ونورا في سبتمبر 1984، وفهد في يوليو 1987، وحصّة في أبريل 1993، وأخيراً عبد العزيز في أغسطس 1994. وأوضـــح الأمـــير فيصل، "يسمّى الأربعة الكبار الأصيليين لأنّهم ترعرعوا معاً عندما كان والدي في سلاح الجوّ في المملكة، وفي الولايات المتحدة بين الحين والآخر، قـــبل أن ينـــتقل إلى واشنطن دي سي، لذا شهدنا كلا الجانبين في والدي. والأربعة الـــصغار يسمّون البدلاء. فقد نشأوا في واشنطن دي سي عندما كان سفيراً، لذا فإنّنا [الأصـــيلون] ســـعوديون أكثـــر، وهم [البدلاء] أميركيون أكثر. مع ذلك نحن جميعاً سعوديون جداً مع اختلافات صغيرة"[2].



بندر مسترخياً مع أبنائه خالد وفيصل وفهد في مزرعة العائلة في مريلند

مـع ذلـك لا يُعـرف على نطاق واسع أنّ للأميرين بندر وهيفاء مجموعة ثالثة من الأبـناء، إذ "تكفـلا" اثنتين أخريين. سلمى ابنة أحد العاملين لدى بندر وقد توفّيت أمها فـيما كانت تعمل لدى بندر، وتوفي والدها أيضاً بعد أن "تكفلها" بندر. طلب أقاربها من بـندر العناية بها، وأصبحت فرداً من العائلة منذ ذلك الحين. و"تكفّل" أيضاً جان غارسيا لكي تتمكّن من الزواج ببوب ليلاك عندما كان يخدم في المملكة العربية السعودية.

تـزوّج جـان وبـوب في مايو 1976، لكن زواجهما لم يكن عادياً. تمّ الزواج الاسـتثنائيّ في المملكـة، وكان حدثاً قلّما شهده زوجان مسيحيان. اقترح بندر أن يتـزوّجا في منـزله في الخُبر. لكن، لكي يتم الزواج، كان على الأمير أن يصبح وصيّاً قانونياً عليها.

أوضـح بـوب ليلاك: "ثمة قواعد يجب اتباعها في المملكة لكي يتمّ الزواج وفقاً للشريعة. فعقد الزواج اتفاق يتمّ بين والد العروس والعريس. ولكي تتزوّج جان، يجب أن يكون والدها أو الوصي القانوني عليها في المملكة. لكن والدها كان في كاليفورنيا. لـذا لكـي يتمّ الزواج، وهو ما أراده بندر وكذلك نحن، اتبعنا إجراء قانونياً أصبح بموجبه بندر وصياً عليها".



بندر مع ابنته المتبناة جان غارسيا وهي تطعم بوب ليلاك خلال حفل زفافهما

وتابع ليلاك: "من الناحية التقنية، أصبح لدى بندر شكل من أشكال الوكالة المحدودة التي تمكّنه من تقديمها للزواج بي".

حصل الزوجان على وكالة من والد جان في كاليفورنيا يجعل فيها بندر وصياً قانونياً على جان، وحملت الوثيقة توقيع وزير الخارجية الأميركي الدكتور هنري كيسنجر، وصدّقت عليها الحكومتان الأميركية والسعودية. وعندئذ أصبح في وسعهما أن يطلبا من القاضي توثيق عقد الزواج بين بوب ليلاك وبندر بوصفه وكيلاً عن جان.

نعم يقول ليلاك: "كان العقد بيني وبين بندر".

ارتدى ليلاك الثوب السعودي ودفع إلى العروس مهراً معجّله عشرة ريالات، قدّمها إلى بندر كوكيل قانوني عن جان لإتمام هذا القسم من عملية الزواج[3]. وأضاف ليلاك مبتسماً: "كما نصّ العقد على أنّ مؤجّل المهر يبلغ عشرة ريالات أيضاً. أي أنّني أستطيع الخروج من هذا الزواج بدفع عشرة ريالات فقط"[4].

عند الحديث عن مكانة جان في العائلة أكّدت ريما: "بما أنّ والدي "تكفّل" جان، فهي، قانونياً، أختي الكبيرة. وقد أصبحت هذه نكتة في العائلة إذ كلما أجرى والدي اتفاقاً، أو اشترك في مشروع جديد، أبلغنا أنّ ذلك سيكون جزءاً من ميراث جان". وعلى نحو مماثل، تذكر ريما أنّه كلما أساء أحد الأطفال السلوك، كان بندر يقول: "سأبلغ أختك الكبرى".

وكشفت ريما وهي تصف أبناء الأميرين بندر وهيفاء: "لولو، الكبرى، هي الفنّانة في العائلة، واختصاصها الرسم التجريدي؛ كما أنّها مصوّرة فوتوغرافية بارعة. عندما كنّا أصغر سناً كانت شقيقتي لولو أكثر إبداعاً، وكنت أكثر بلادة. درست وقرأت وأحببت المتاحف، لكن لم تكن لدي موهبة فنية. ولطالما اهتممت لعلم الآثار. وأدرك الآن أنّني خلاّقة بطرائق مختلفة، حيث أنظر إلى الأشياء بطريقة غير تقليدية". ووصفت ريما نفسها أنّها "ابنة أبيها" وهو ما لم تدركه إلا عندما تزوّجت. وتذكر شقيقتها الكبرى لولو أنّه في أثناء حفل زفاف ريما على الأمير فيصل، علّق والدها متعمّداً جناحي سلاح الجو الملكي على فستانها. وكان لذلك أهميّة شخصية كبيرة للأمير بندر، إذ أكّد لاحقاً أنّه اعتبر لحظة تعليق جناحي سلاح الجوّ على صدره أحد الأحداث الخطيرة في حياته. وتكرار المناسبة بتعليق شعار سلاح الجوّ الملكي السعودي على فستان ابنته هو العلامة القصوى على موافقته. وتعتزّ ريما بهذين الجناحين كرمز على قوّة الرابطة بين الوالد وابنته.

يلـــي خالد الأختين الكبريين في العائلة، وترى ريما أنّه على صورة والدها. تقول ريمـــا: "خالـــد شـــبيه بوالدي عندما كان شاباً". ومع أنّ شخصيّتيهما مختلفتان، فإنّ حضوره وجاذبيّته يطغيان على الحديث تماماً، مثل والده. لديه ميل طبيعي إلى السلطة، وهـــو ذكـــي وفـــاتن. عُـــيّن خالد مؤخّراً رئيساً لمجلس إدارة شركة دايم بونج لويد للهندســـة، وهي مشروع مشترك مع الشركة الهندية بونج لويد، وستعمل في الهندسة وشـــراء المشاريع وإنشائها في قطاع الهيدروكربون والطاقة والكيمياء والماء والصرف الصحيّ؛ البنية التحتية المدنية والمشاريع الصناعية في المملكة العربية السعودية[5].

قارنت ريما بين الأخوين خالد وفيصل وشخصيتي ستار وورز، C3PO وR2D2. قالـــت: "إنّهمـــا دائمـــا الاختلاف، لكنّهما أفضل صديقين. التحق خالد بإيتون، ثم بأكسفورد، وأخيراً بساندهيرست، لذا فإنّه الوحيد الذي يمتلك لكنة إنكليزية نموذجية. إنّـــه يمثّل الجانب الأكثر جدية في والدي، في حين أنّ فيصل يمثّل الجانب الأميركي في والـــدي، وهـــو من المؤيّدين المتحمّسين جداً لفريق دالاس كاوبويز[6]. ولأنّ بندر من عـــشّاق فـــريق كاوبويز، فقد طليت طائرته الإيرباص 340 بلوني الكاوبويز الأزرق والفـــضي. وقد حفز شغف بندر رئيس فريق كاوبويز، جيري جونـــز، على القول: "يكنّ لاعبونا احتراماً كبيراً للأمير بندر منذ ست عشرة سنة، وربما يعتقدون أنّه يمتلك الفريق"[7]. بل نقل عن بندر قوله: "إنّني مشجّع الفريق الدولي رقم واحد"[8].



بندر مع ابنيه خالد وفيصل خلال مباراة دالاس كاوبويز

علّـــق موقع فريق دالاس كاوبويز، على الإنترنت، على زيارة قام بها بندر لغرفة ملابـــس الفـــريق والقبض على صدام حسين قائلاً: "كم كان من الملائم للأمير بندر، ســـفير المملكة العربية السعودية ومشجّع الكاوبويز، أن يدخل غرفة ملابس الفريق مع جيري جونـــز ويقول مفتوناً بتلك اللحظة، *قبضنا على صدام في الصباح، وفزنا على فـــريق ردسكنـــز بعد الظهر. يا له من يوم عظيم!*[9]. ويوضح الأمير فيصل بن بندر ما الذي حفز اهتمامه بكرة القدم الأميركية قائلاً: "عندما كنت صغيراً جداً، كان والدي يأخذني معه إلى مباريات فريق كاوبويز. وكنّا نشاهد الكاوبويز على التلفزيون. كان أول فـــريق نعـــرفه. لكن عندما كبرنا ازداد نجاحهم، وبالتالي صرت أحبّهم من تلقاء نفـــسي. الآن، أول مـــا تشاهده عندما تدخل شقتي مقام كبير لفريق كاوبويز. لدي نظّـــارات، بـــل لـــدي زجاجـــات كوكا كولا لكل بطولة (سوبر بولز) فزنا بها في السبعينيات والتسعينيات وعليها خوذة صغيرة"[10].

عـــن المجموعة الثانية من أولاد بندر، "البدلاء"، تقول ريما: "نورا ذكية جداً جداً باستعمال الكلمات. إنّها كاتبة وشاعرة". وفهد رياضي متحمّس، واعترفت أنّه يحب الكـــتابة أيضاً ككتابة قصص الخيال العلمي القصيرة، وأوضح بندر مع ذلك أنّه مثل نورا يحبّ أن يعبّر عن نفسه بالشعر.

وقال بندر عن موهبة فهد الشعرية: "أتأثّر كثيراً عندما يلقي فهد قصيدة ما. غير أنّ الطيار الحربـــي في داخلي، والعربـــي في داخلي، والرجولة في داخلي، تحول دون أن أعبّر عن مشاعري وأشعر بالحزن حيال ذلك. وقد كتب فهد قصيدة بعد مشاهدته الحـــرب في العراق على التلفزيون. أخبرتني عنها هيفاء". وطلب بندر لاحقاً من فهد إلقاء القصيدة، وعندما فرغ فهد، فكّر بندر، "يا الله، هذا الرجل أكثر نضجاً من كل زعمـــاء العالم". وأوضح بندر: "كان فهد يتكلّم عن الحرب بمعناها غير السياسي، إنّه ليس مع الحرب ولا ضدّها، وليس مع صدام. كل ما كان يعبّر عنه - وهي قصيدة جمـــيلة أشـــعر بالألم كلما تذكّرتها - هو لماذا ندفع ثمن حماقات الكبار؟ إنّها قوية جداً".

نجـــح فهـــد في امتحان الدخول إلى إيتون، وأظهر اهتماماً قوياً للعمارة منذ أن التحق بالمدرسة سنة 2004، وهو أمر أظهر فيه والده موهبة كبيرة. وسيدرس العمارة في الجامعة البريطانية.

يقــدّر حــصّة وعــبد العزيز، أصغر الأبناء، كل الأشياء التي يستمتع بها الشبان الصغار: الرياضة، واستخدام الحاسوب، والمطالعة.

كان غياب بندر المتكرّر لمتابعة المهامّ الدبلوماسية في أثناء عمله كسفير يحتّم على الأمــيرة هــيفاء أن تعمل بمثابة السند للأسرة. في سنوات الزواج الأولى، كانت حياة الأميريــن بندر وهيفاء حياة عائلية نموذجية إلى حدٍّ ما، إذا استثنينا قيود سلاح الجوّ، حيث يذهب بندر إلى العمل في الصباح ويعود في المساء، وغالباً ما يكون غير مشغول في عطــلات نهاية الأسبوع. تقول ريما عن تلك السنوات: "عندما كان طيّاراً حربياً، كــان يعود إلى البيت وينعزل عن العمل. لم يكن لديه شيء يحمله معه إلى البيت. لذا كنا نقيم حفلات شواء في عطلة نهاية الأسبوع، ونسبح، ونشاهد كرة القدم معاً. وعندما يكون في إجازة، يبتعد عن العمل إذ ليس في استطاعته الطيران عندما يكون معنا"[11].

أمّن بقاء هيفاء معظم الوقت مع العائلة في مكلين، فيرجينيا، طوال عقدين قبل أن يــستقيل بندر من عمله كسفير، الاستقرار لا للأبناء فحسب، وإنّما لبندر أيضاً. فقد كان يكتفي بتحمّل أعباء احتياجات المملكة العربية السعودية التي لا تنقطع، ورحلاته المتكرّرة والطويلة إلى المملكة، مرتاحاً من عدم تحمّل مزيد من الأعباء من البيت، لعلمه أنّ الأمــيرة هــيفاء موجودة مع العائلة. وقد امتدحت ليندا وير، مديرة قصر بندر في المغرب، الأميرين بندر وهيفاء على التوازن العائلي الذي حقّقاه قائلة: "لقد أنجزا عملاً مدهشاً جداً مع أبنائهما"[12].

بــرز الإحــساس بالتوازن، على الرغم من متطلّبات عمل بندر، في أثناء عشاء عائلــي عــادي في واشنطن في سنة 2003. رنّ الهاتف وأجاب بندر. رفع بصره عن الهاتــف وطلب من أبنائه الكبار توضيب حقائبهم لأنّهم "ذاهبون إلى المملكة العربية السعودية في الغد". فقالوا حاضر فحسب، كما لو أنّ ذلك حدث متكرّر. سأل أحد الــضيوف الأميرة هيفاء إذا كانت ستذهب أيضاً. فأجابت على الفور أنّ الصغار في المدرســة وهــم بحاجــة إلى بقائها في واشنطن. وقد شدّدت جيري بيري، سكرتيرة الأمــيرة هيفاء، على أنّ الأميرة "تُكَمِّل الأمير بندر بطريقة غير عادية" ثم كشفت عن السعادة التي تغمرها كلما عاد بندر من رحلة في الخارج[13].

الــرحلات المتكــرّرة بين الشرق والغرب، والخبرة كطيّار حربــي – تدرّب في المملكــة المتحدة والولايات المتحدة والمملكة العربية السعودية – مكّنتا الأمير بندر من

اكتـــساب القدرة على الانغماس في كل ثقافة بسهولة مدهشة. وقد شدّدت ابنته ربما علـــى براعته في الانتقال من العالم السعودي إلى العالم الغربـــي بسلاسة شديدة قائلة: "إنّه يعمل بشكل ممتاز في كل منهما"[14].

لكـــن على الرغم من جهود الأميرين بندر وهيفاء في الحفاظ على عائلة مستقرّة، أينما كانوا موجودين، وبصرف النظر عن نداءات الواجب التي تدعو بندر، وما ينتج عـــنها من غياب على مرّ السنين، فقد حظيت العائلة بنصيبها من المعاناة. ففيما كان الأولاد مقيمين مع الأميرة هيفاء في منـــزل العائلة في جدّة، وقع حادث سيارة مروّع مع نورا وفهد.

تروي الأميرة الحادثة: "كان فهد في الرابعة من العمر، وقد تعرّضا لحادث رهيب عندما اصطدمت سيارة ستيشن بسيّارتهما. نجا الطفلان، لكنّ المربّيتين والسائق قتلوا. أصيب فهد بكسور في فخذه وجروح في خدّه؛ وأصيبت نورا بارتجاج بسيط وجروح في وجهها عند حاجبيها، لكنّهما كانا بخير والحمد لله. كان ذلك حدثاً كبيراً لكلينا، حيث كدنا نفقد الطفلين".

أوضـــحت الأميرة هيفاء أنّ بندر كان في الولايات المتحدة في ذلك الوقت، فيما كانت هي تزور والدها في المملكة في شهر رمضان. ووقع الحادث قبيل الإفطار. قالت الأمـــيرة: "كـــان السائق الآخر مستعجلاً للوصول إلى حيث يريد لأنّه صائم، وكان الطفـــلان ذاهبين إلى القصر الذي تقيم فيه والدتي. فاصطدم بهم. وأمضى فهد عشرة أيام في المستشفى"[15].

ذكـــر بـــندر تلك الحادثة قائلاً: "كان وقتاً عصيباً. توفّيت المربّية بعد أن نقلت الطفلـــين إلى الرصـــيف حرصـــاً على سلامتهما. ثم جلست وماتت". وأوضح بندر والانفعـــال بـــاد علـــيه: "كنت في واشنطن، تلقّيت اتصالاً من الأميرة تخبرني فيه أنّ الصغيرين تعرّضا لحادث سيارة، لكن الأمر ليس خطيراً. وقالت إنّهما بخير، لذا طلبت مـــنها أن تبقـــيني على اطلاع. وكنت أعتزم التحدّث إليهما بأسرع ما يمكنني لأبقى مطلعاً على الموقف. ثم اتصل بـــي أخي ليخبرني أنّهما بخير، ففكّرت، *لم يتصل بـــي إذا كانـــا بخير؟* عندئذ شعرت بالقلق. لذا قلت له، *لا تعبث معي، أنا لست طفلاً؛ هل توفّـــيا؟ إذا كان كذلك أخبرني الآن*. كانت لدي شكوكي، وازداد إحساسي بالقلق، لذا قرّرت التوجّه إلى جدّة على الفور".

وتابــع بــندر: "عــندما وصلت إلى هناك، توجّهت إلى المستشفى على الفور. وعــندما دخلت، كانا في الغرفة نفسها يضحكان ويمرحان، فشعرت بالراحة، وعندئذ أبلغــتني هــيفاء أنّ الثلاثة الآخرين توفّوا. لو كنت عرفت ذلك لاعتقدت أنّهما ماتا أيضاً. شعرت بصدمة قوية، وهزّني أنّهما كانا قريبين من الموت".

أوضــحت الأميرة هيفاء لبندر أنّ المارّة نقلا الطفلين إلى مستشفى عسكري و لم يعرف أحد من هما. ثم قالت له الأميرة: "الطبيب يريد أن يسلّم عليك، وهو يتطلّع إلى اللقاء بك".

قال الطبيب السعودي الشاب للأمير: "هل تذكرني؟".

أجــاب بــندر: "بــصراحة، لا، لا أذكرك، لكنّ زوجتي تقول إنّك اهتممت للطفلين. شكراً جزيلاً لك على ما فعلت".

اتخــذت القــصة بعداً جديداً عندما شرح الطبيب: "إنّي أنتظر هذه المناسبة منذ زمــن طويل". ثم أبلغ بندر كيف أنّه كان من الطلاب الذين بعثتهم الحكومة للدراسة في أميركــا. وعــندما أنهى دراسته كجرّاح تجميلي، طلبت الجامعة منه أن يتابع مقرراً إضافياً لتعزيز مهاراته. لذا كتب إلى الملحق التربوي السعودي طالباً السماح له بالبقاء سنة إضافية يعود بعدها إلى المملكة العربية السعودية. أُبلِغ الطبيب الشاب بتعذّر ذلك بــسبب البيروقراطية التقليدية. ومع أنّه تابع ملاحقة قضيته بالتردّد على السفارة، لكنّه لم يحقّق أي تقدّم.

وقــبل بــضعة أيام من عودته إلى الوطن، اقترح عليه بعض الأصدقاء الكتابة إلى السفير السعودي، وهو ما فعله. ويذكر بندر: "في يوم مغادرته إلى المطار، تلقّى اتصالاً مــن مكتبــي يُفيد أنني وافقت على التمديد. لذا أكمل المقرّر، لكنّني لم ألتقِ به. غير أنّــني عــندما التقــيت به، كان يقوم بالعناية بطفلي". أذهلت المصادفة الأمير بندر. ولاحــظ الطبــيب ببــساطة: "إنّني مدين لك بالكثير بحيث أسعدني جدّاً تمكنني من مساعدتك".

فور تولّي الأمير بندر دوره الدبلوماسي في واشنطن، عهد إليه الملك فهد بالعديد مــن المهــامّ كمــبعوث له، وغالباً إلى الرؤساء الأميركيين وزعماء العالم الآخرين. وتسارعت فترات غيابه عن البيت. وأعاقت متطلّبات الواجب منح بندر الوقت الذي كــان يتمنّــى أن يخصّصه لعائلته. في أثناء حديث فيما الأمير لا يزال سفيراً، لاحظت

ريما: "في عمله الآن، ليس لديه رفاهية العودة إلى المنـــزل والارتياح. إنّه عمل متواصل أربعاً وعشرين ساعة، لذا عندما يتمكّن من توفير الوقت والجهد لنا، نقدّر ذلك كثيراً. لا أعـــتقد أنّ الأربعـــة الصغار حصلوا على الفرص نفسها [التي حصل عليها الأربعة الكبار]، لكنّه يدرك ذلك في العلاقة التي يكوّنها معهم، ويفرد لهم بعض الوقت، وذلك أمر عظيم لأنّه كثير المشاغل. ومن الممتع مشاهدته طليقاً معهم"[16].

غـــير أنّ بـــندر يستخدم المرح أيضاً في تربية أبنائه. وتؤكّد ريما مبتسمة: "إنّه لا يأخـــذ نفسه على محمل الجدّ، وكلّما تجاوزنا الحدّ يقول، *من تظنّون أنفسكم؟ ارجعوا عـــشر خطوات إلى الوراء وفكّروا في الأمر*. يجعلني ذلك أضحك ويعيد كل شيء إلى نـــصابه". مـــن الواضح أنّ بندر يحاول دائماً وضع الضوابط أمام أبنائه وإعادتهم إلى الواقع، مثلما تفعل معه حاشية السفر.

ويسلّط الأمير فيصل الضوء على استخدام والده المرح قائلاً: "إنّ قسماً كبيراً من علاقتـــنا بـــه له علاقة بالمرح، إنّه دائم المزاح معنا. حتى عندما كنا صغاراً، كان هناك القليل من المرح في كل شيء. وإذا كنّا في مأزق، حوّل الأمر دائماً إلى مزاح".

ومـــن الأمثلة التي يذكرها فيصل: "أذكر أنّني كسرت أنفي في أثناء ممارسة لعبة الحائط* عندما كنت في إيتون. كان هناك من يحاول دفعي عندما ضربني أحدهم بمرفقه على أنفي وكسره. أذكر أنّني توتّرت لأنّني لا أخبر أمي البتة أنّني تأذّيت لأنّها تصاب بالذعر".

وأوضح فيصل الفارق بين أمّه وأبيه قائلاً: "أذكر أنّ أمي عرفت بالأمر وأمضت ســـاعة تكلّمـــني عبر الهاتف". غير أنّ الاتصال بالأمير بندر كان مختلفاً جداً. ضحك فيـــصل وهو يتحدث: "تلقيت اتصالاً لمدة دقيقتين من والدي، وقد هوّن ذلك الأمر كثيراً".

اتصل بندر بابنه وقال: "سمعت أنّك كسرت أنفك".

"نعم يا سيّدي". أجاب فيصل.

"هل أنت بخير". سأل بندر.

"نعم". قال فيصل.

(*) نوع من كرة القدم التي تمارس في إيتون إزاء حائط منحن على ملعب ضيّق.

سأل بندر: "كيف كسرته؟".

أبلغه فيصل قصة لعبة الحائط.

سأل بندر: "هل كُسر أنفه؟".

"ليس بعد". أجاب فيصل.

"جيد". قال بندر.

وذكر فيصل ضاحكاً: "انتهت المكالمة، لكنّها أتاحت لي فرصة الضحك وتجاوز الأمر".

قبل استقالة بندر من عمله كسفير، كان يتحدّث كثيراً عن أنّه لم يتمكّن من تمضية المزيد من الوقت مع العائلة. وعندما قلت إنّ أبناءه يدركون متطلّبات عمله تماماً، قال: "ذلك يجعل الأمر أسوأ وأشدّ إيلاماً، إنّه الولاء". وكان ردّ الأميرة هيفاء على ما هو مطلوب من بندر وغيابه المتكرّر شديد الصلابة: "أنا فخورة جداً به، والأولاد فخورون ومعجبون جداً به، لأنّهم يعرفون ما الذي يقوم به. وعلى الرغم من أنّه يمضي وقتاً طويلاً بعيداً عنهم، فإنّهم يقدّرون أنّ ذلك هو عمله و لم يثر غيابه أي مشكلة قط"[17]. في الواقع، تكيّفت العائلة جيّداً مع جدول مواعيد بندر الحافل، لكن عندما يكون في البيت، فإنّه يسعى جاهداً لتكون حياة العائلة طبيعية.

تقدّم إحدى الليالي في مكلين إطلالة على هذه الحياة الطبيعية. الهاتف يرنّ كل خمس أو عشر دقائق، وبين الحين والآخر تُقدَّم إلى بندر بحرص مجموعة من المستندات والملاحظات والأوراق التي يحضرها رئيس الخدم على صينية فضيّة. فيقرأها ويستوعبها فيما يتابع الحديث ويجري مكالمات هاتفية. ويراقب نحو ست قنوات إخبارية - سعودية وأميركية وعربية - ويتابع حصّة التي تشكو من أنّ أحداً لم يأكل من الطعام الذي أعدّته مع المربية. ويقفز تركي، حفيده، عليه بعدما قال له بندر: "تعال أيها الشقي". وهو لا يزال يراقب حاسوبه المحمول. وكما قال فيصل: "يمكن أن يتحدّث مع الملك الآن، ثم يدخل ابن أختي أو ابنتها الغرفة فيصبح مثل الولد مجدداً"[18].



بندر مع حفيدته سارة

وفي اعتراف بالضغوط الملقاة على الأمير، والمتطلّبات التي لا تتوقّف وتفرض عبئاً ثقيلاً تفاقمه الحاجة إلى التعامل مع يوم العمل في الرياض فضلاً عن واشنطن، قالت ريما: "عندما كنا أصغر سناً كان المرح غير مقصود، أما الآن فأعتقد أنّه يدرك أكثر متى تكون اللحظة خاصة. ويرجع ذلك إلى كل الأشياء التي يعرفها والدي ويتعامل معها طوال الليل. وهو لا ينقل إلينا عبئها، بل يبقيه لنفسه. وفي حين أنّ الأربعة الأول يلاحظون ذلك، فإنّ البدلاء لا يرون الأمر بالطريقة نفسها دائماً. لكنّه يحاول إيجاد الوقت للأربعة الصغار متى كان ذلك ممكناً، على الرغم من أنّ هناك الكثير من الشواغل التي تستحوذ على تفكيره".

على الرغم من كبر العائلة، فإنّ ريما توضح أنّ والدها لا يزال يتعامل معهم كأفراد. في ما يتعلّق بالمدرسة، يحبّ فهد ولولو أن يُسأَلا ماذا فعلا في المدرسة، في حين أنّ الأولاد الآخرين يعلمون أنّ في وسعهم مفاتحته في أي وقت إذا كان الأمر ضرورياً، لكنّ بندر لا يسألهم عن المدرسة. وتقول ريما: "بعد إجراء امتحان ما لا يقول، *كيف فعلت؟* بل يعود إليك أمر إخباره. لكن والديّ لا يلحّان في السؤال، *يجب أن تحصل على هذه الدرجات، أو يجب أن تفعل هذا أو ذاك*. بل يقول والدي، *كل ما أطلبه منكم هو النجاح، وإذا فعلتم ذلك وكنتم راضين فإنّني راضٍ. وإذا كنتم راضين وحصلتم على درجة أ، فذلك يرضيني. لكنّني لن أقوم بعملكم ولن أقود حياتكم، لذا الخيار عائد إليكم.* لم يكن هناك أي ضغط"[19].

عندما سألت ما هي التطلّعات التي لديهما لأبنائهما، قالت الأميرة هيفاء: "أعتقد، أن يحبّوا ما يقومون به، وأن يبرعوا فيه، وأن يكونوا سعداء بما يفعلون. وأظنّ أنّهم لن يتميّزوا ويبرعوا إذا فرضت تطلّعاتك عليهم". وبعد ذلك عرضت الأميرة هيفاء فلسفتها في الحياة في ما يتعلّق بتربية أبنائها: "هناك ثلاثة أمور مهمة: الاحترام، أي احترام الأطفال لوالديهما، أو احترام الوالدين لأطفالهما، والانضباط، يجب أن يكون هناك انضباط في حياة عائلتك. والأمر الثالث المهمّ هو الدين. إذا لم تكن تخشى شيئاً في الحياة سوى



بندر يؤدي الصلاة

الله، يكــون لديك انضباط. وإذا لم تكن تخشى الله، فأنت لا تخشى شيئاً، ولن تحسب حساب شيء"[20].

تعلّق هيفاء على أهمية الدين الإسلامي في أسرة بندر. إنّه يحيط بكل شيء. تقول ريمــا: "ما أقدّره في أبــي، لا سيما عندما يتعلّق الأمر بالدين، أنّ إيمانه قوي، لكنّه لا يفرضه علينا". وتوضح ريما أنّه غالباً ما يقول لأبنائه: "لكم دينكم ولكم حياتكم، ما أقدّمه إليكم هو المهارات والتقنيات التي أعرفها وهذا كل شيء".

شهدت هذا التأثير في الشهور الأولى بعد إقدامي على كتابة السيرة الذاتية للأمير بــندر. ففــي نهاية سنة 2003، دعيت وزوجتي ويندي إلى إفطار مع بندر وعائلته في شــهر رمــضان. عند وصولنا إلى مكلين، توجّهنا إلى الغرفة المغربية، هي غرفة كبيرة مــستطيلة رائعة مزيّنة بأسلوب المجلس العربــي التقليدي، بمقاعدها المنجّدة التي تواجه مركز الغرفة وجدرانها نصف المبلّطة بالفسيفساء.

عــندما دخلــنا الغرفة، لاحظت بعض الأشخاص في الناحية المزجّجة المجاورة، ورأيت بندر يقرأ لولديه فهد وعبد العزيز. وفيما كنت أنتظر، جلت بنظري إلى الصور الفوتوغرافية العديدة للعائلة الموضوعة على الطاولات في صدر الغرفة. وقد برزت من بيــنها صورة الأمير سلطان والد الأمير بندر، لكن كانت هناك أيضاً صورة موقّعة من الرئيس جورج دبليو إيتش بوش، وباربرا بوش، والرئيس جورج بوش، ولورا بوش.

بعــد قلــيل دخلت الأميرة هيفاء الغرفة ورحّبت بنا. بدت مرتاحة وأنيقة بالزي السعودي التقليدي، وقد أخبرت ويندي أنّها ترتديه في واشنطن خلال شهر رمضان. وأوضــحت الأميرة أنّ الأمير يتلو القرآن، وهو أمر يحبّ أن يؤدّيه كل يوم ما أمكنه ذلك في شهر رمضان. وبعد ذلك رافقتنا الأميرة إلى مقعدينا، ووضع أحد الخدم صينية تحتوي على التمر وكوبين من الماء وكوبين من العصير وفنجانين زجاجيين من القهوة العربية التقليدية، المنكّهة بحبوب الهال، على إحدى الطاولات أمامنا استعداداً للإفطار.

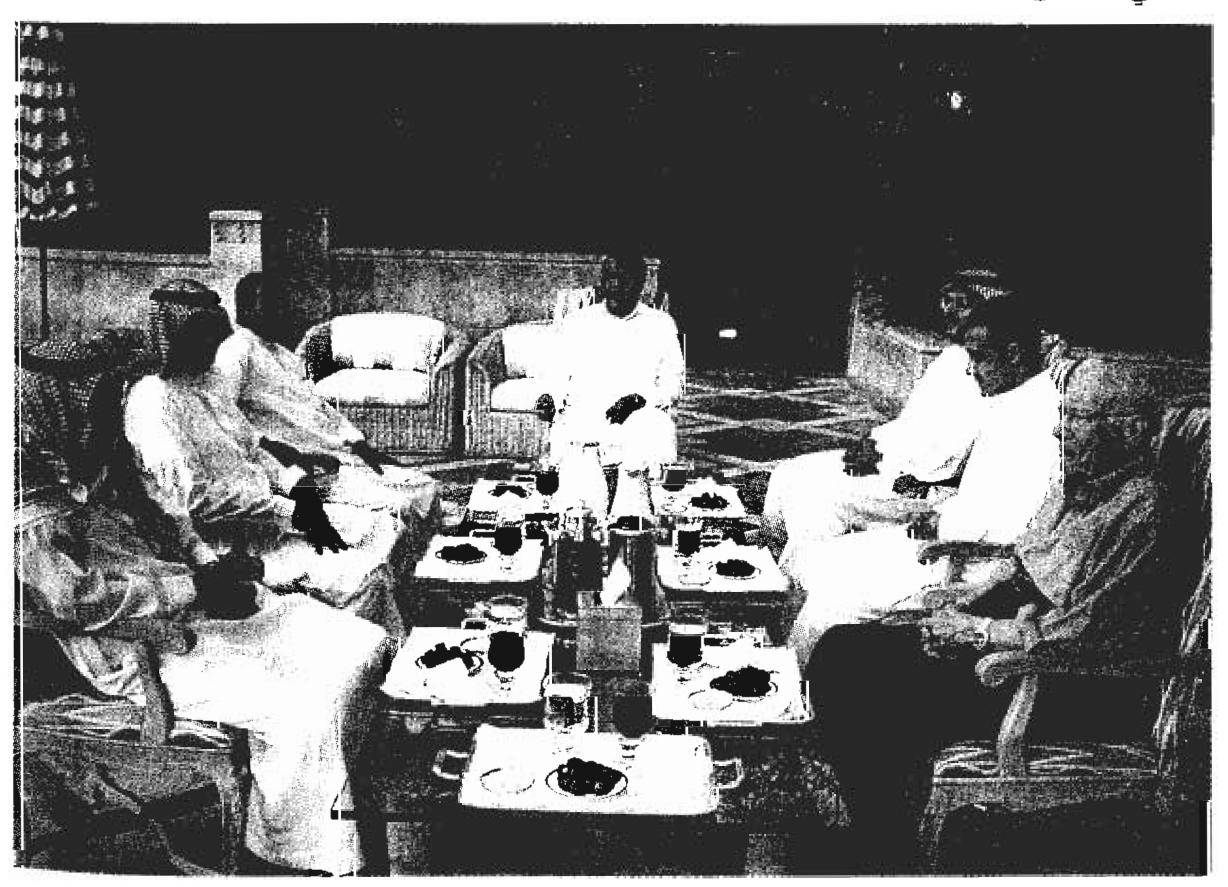
انضممت أنا وويندي إلى الأميرة هيفاء في الجانب الأيمن من الغرفة عندما دخلنا، لكــنّها أوضــحت أنّ عليّ أن أنضمّ إلى الأمير بندر في الجهة المقابلة من الغرفة عندما يــأتي، حــيث يجلــس الــرجال. وبعد بضع دقائق دخل بندر الغرفة، أشرق وجهه وارتــسمت علــى محيّاه ابتسامة عريضة عندما رآنا. وسرعان ما تحوّلت المصافحة إلى عــناق وانتقلنا إلى مكاننا الملائم. وانضمّ إلينا كل الأولاد في هذا الاجتماع العائلي.

يكفـــي القـــول إنّنا تبادلنا المجاملات إلى أن ذكّر فهد الجائع والده أنّ الوقت قد حان للإفطار. وأكّدت الأميرة هيفاء أنّ موعد الإفطار قد حان بالفعل، فدعى الأمير الجميع للبدء بتناول الطعام. وبدأ الجميع بالتمر والمشروبات.

بعـــد ذلك أخذني بندر جانباً وأراني المصاحف الموضوعة على الطاولة في الغرفة المزجّجة حيث كان يتلو لولديه. وأشار إلى سجادات الصلاة وأوضح أنّه كان يؤمّ بهم الصلاة.

وعندما توجّهنا لننضمّ إلى بقية العائلة في الأسفل، أمسك بندر بكتفي وقال: "إنّ تمكّـــني من تلاوة القرآن الكريم بهذه الطريقة في شهر رمضان يعوّض عن الأوقات التي أغيب فيها لمتابعة الواجبات الرسمية؛ إنّه وقت مميّز جداً يزيد من حلاوته أنّني لم أتمكّن مـــن فعل ذلك مع والدي". بدا التأثّر في صوته جلياً، واتضح أنّ بندر يعتزّ بهذا الوقت المميّز مع أولاده.

تركت الضغوط آثارها في بندر على مرّ السنين. وبالنظر إلى إنجازاته على المسرح العالمي، يمكن أن يُعزى ميله إلى الكآبة - الذي يعترف به - إلى نجاحه، لإنجاز أكثر مما



إفطار شهر رمضان مع (مع عقارب الساعة من اليسار) الأمير محمد، طارق شواف، الجنرال شاثري، د. مجيد، ابنه الأمير خالد، وفرد داتون

هــو مطلوب. غير أنّ هناك عوامل، منها عمليات الظهر الجراحية العديدة التي تحمّلها في أعقاب حادثة الطيران سنة 1977. ففي السنين التالية، كانت مشاكل الظهر تعاود الظهور مسبّبة الألم والقلق في آن معاً. وكلما مضت سنة ازدادت حاله سوءاً، إلى أن شـخّص مستـشار في تقـويم العظـم وجود تكلّس في العمود الفقري يضغط على الأعصاب ويسبّب له الآلام المبرّحة. وفي أعقاب عملية اشتملت على تفتيت النماءات العظمـية المحيطة بالأعصاب، وهو إجراء دقيق وخطر للغاية، أفاد الجرّاح أنّ الأعصاب سرعان ما استعادت لون العافية المائل إلى الزهري بدلاً من الرمادي.

في هذه الفترة بالذات شهد بندر أول حالة اكتئاب شديد، وهي حالة اعترف أنّه ظنّ سابقاً أنّها تعود إلى ضعف الشخصية. وفي إحدى الحالات الكبرى لبث في غرفته مـدة أسـبوعين قبل أن يتمكّن من إخراج نفسه من حالة الاكتئاب. وعانى بندر من حالـة أخـرى سنة 1995 بعد السكتة التي أصابت الملك فهد، راعيه منذ مدّة طويلة وصديقه. يذكر بندر كيف أنّ الملك كلّفه قبل خمس عشرة دقيقة من إصابته بالسكتة بالاجتماع بجون ميجور وبيل كلينتون. وفي التعليق على تلك السكتة، وعَجْز الملك في ما بعد، قال بندر إنّه لم يعد يملك الطاقة على العمل أو الرغبة في ذلك. أراد أن يختلي بنفـسه، لكنّه يدرك أنّ لديه واجبات تجاه بلده. ومع ذلك لم يستطع تجنّب الاكتئاب الحادّ الذي عانى منه نتيجة لذلك[21].

غـير أنّ بـندر طلب مشورة اختصاصي هذه المرّة وتعافى بالتوجّه إلى أسبن في إجازة قصيرة مع عائلته. بعيد الوصول إلى هناك، جمع بندر زوجته وأبناءه وصارحهم بحقـيقة مـشكلته، وأبلغهم أنّه بحاجة إلى مساعدتهم. كان ذلك الاعتراف شاقّاً على بـندر، لكـنّه خـرج معـافى ومتجدّد النشاط بعد إجازة لمدّة شهرين في غليمبتون ومرّاكش.

عـند الحديث عن الميول الاكتئابية عند الأمير بندر، أوحت الأميرة لولو أنّ دائرة أصدقاء بندر - حاشية السفر - كانت بمثابة ترياق فعّال من "سودائه"(*). وتعليقاً على الـضغوط التي شهدها الأمير، قالت لولو: "أعتقد أنّه كان عليه أن يكون بعيداً بسبب

(*) لـم يُعـرف صـراع ونـستون تـشرشل مع الكآبة إلا بعد وفاته، عندما كشف عن ذلك طبيبه الشخصي، لورد موران. وقد أشار تشرشل إلى هذه النوبات بالسوداء (black dog). وثمة مقولة مقنعة توحي أنّ سوداء تشرشل والميول الاكتئابية للعديد من العظماء، مثل تولستوي ولوثر، ربما ألهمت إنجازاتهم الكبيرة.

طبيعة عمله، أو يعتقد أنّ عليه الابتعاد". وفي إشارة غير مباشرة إلى اكتئاب بندر، قالت لولو: "يقولون إنّه يلزم ندفة ثلج واحدة لإحداث انهيار ثلجي"[22].

كانت لولو تلمّح إلى المعلومات شديدة الحساسية التي تعرض على بندر، وغالباً ما يكون عليه مواجهة المشاكل التي يجب أن يجد لها حلاً، ولا يستطيع أن يتشاركها مع أحد. وباعتماد الأسلوب الدبلوماسي السعودي التقليدي – العمل بعيداً عن الأضواء – ازداد الضغط، ويمكن أن تسبّب "ندفة الثلج الإضافية" أحياناً دخول بندر في حالة من اليأس وانعدام الثقة بالنفس. ويقول ابنه فيصل معترفاً بضعف أبيه: "يصعب علينا ذلك في كثير من الأحيان لأنّنا نعرف متى يكون غير سعيد، عندما يكون هناك خلل ما، ونعرف أنّه لا يستطيع التحدّث عنه، لذا لا نسأل"[23].

لم تغفل وسائل الإعلام عن حالات الاكتئاب التي تصيب بندر. وقد أفيد في أواخر سنة 2002 أنّه في أعقاب 9/11، بعد الانهيار الفعلي لكل ما عمل لأجله في واشنطن في العقدين الماضيين، "لم يكن من المستغرب أن يبتعد الأمير عن الأضواء في السنة الماضية. وتفيد الشائعات في الرياض أنه يعاني من اكتئاب، وأنه أمضى شهوراً بعيداً عن واشنطن"[24].

تناول كولن باول، كصديق مقرّب، اكتئاب بندر وشعوره بانعدام الأمن عندما أكّد: "إنّه عميق الجذور ولا يمكن تغييره. لديه خوف شديد من الموت. وقد شهدت حالتين مرضيّتين ألمّتا به". وضخّم باول تعليقاته قائلاً: "إنّه يلاحقه. ولا أعرف إذا كان اكتئاباً مزمناً ذا طبيعة طبيّة، أم تقلّبات في المزاج بسبب الأحداث، مقابل الاكتئاب السريري أو الطبي". وعند الحديث عن العوامل التي يعتقد أنّها تفسّر شخصية بندر وميله إلى الاكتئاب، أضاف باول: "إنّها الموت وانعدام الأمن ومكانته في العائلة". وعندما لاحظت أنّ شبح الاكتئاب ظهر بعد حادثة الطيران ومشكلة ظهره، ردّ باول: "لقد ألحّت عليه مشكلة ظهره لسنوات؛ ثم خضع لعملية منذ فترة غير بعيدة، و لم يخبرني عندما سألته عنها".

قيل إنّه لو لم يصبح الأمير بندر طيّاراً حربياً أو مبعوثاً ملكياً، لبرع كمعماري. يوافق على ذلك من دون شروط طارق الشواف، وهو مهندس محترف عمل في بناء العديد من منازل الأمير. وكان جو رامسي، وهو من الأصدقاء المقرّبين، جاداً عندما قال: "لقد فوّت بندر النداء. كان يجدر به أن يكون معمارياً أو بنّاء بيوت"[25]. منذ

البيت الأول المتواضع المكوّن من غرفة نوم واحدة الذي بناه بندر عندما كان طيّاراً حربياً في الظهران، إلى القصور المنيفة التي يمتلكها الآن، اهتمّ بشكل شخصي لتصميم كل منها وبنائها. فهو يتحمّس لمخطّطات المعماريين، ويستطيع أن يتصوّر المباني الناتجة. وكما يذكر حلاّقه جون فلتري(*): "لدي شغف بالعمارة، والأمير بندر أيضاً". وروى فلتري بعد ذلك أنّ بندر، عندما علم باهتمامه للعمارة، أخرج مخطّطات قصر يعتزم تشييده في المملكة وبحثها معه مدّة أربع ساعات[26].

يمتلك بندر منازل فخمة في كل أنحاء العالم، وهي وحدها تستحقّ كتاباً. ويقدّم تصميم كل من المنازل نظرة عميقة إلى خلفيته الثقافية الهجينة، وهي تجسّد موهبته العالمية وإحاطته المدهشة بالتفاصيل كافة. يمزج كل منزل المناظر القائمة ويستخدم موادّ وأساليب بناء محلية. وبالتالي لديه بيت ريفي خشبي، مزرعة هلا، في أسبن؛ وقصور عربية في الرياض وجدة ومرّاكش والرباط؛ ومنزل ريفي فخم في غليمبتون في أكسفوردشير.

أعجب جورج وباربرا بوش بالعناية في ترميم المنزل الرئيسي في غليمبتون بارك حيث تمّ تعليم كل حجر ليعاد وضعه في مكانه الصحيح في أثناء التجديد[27]. وذكر بيتر براون، مدير العقار، أنّ "إعادة إنشاء المنزل كانت عملاً كبيراً جداً، وأشرف على تفكيك المنزل حجراً حجراً للتثبّت من إعادة استخدام أكبر قدر ممكن من المواد الأصلية، بما في ذلك جملونات السقف، عند إعادة بنائه"[28].

لكن نهج بندر تجاه شراء غليمبتون وإعادة إنشائها يقدّم نظرة عميقة عن طبيعته. عندما قابلت الرئيس السابق بوش وزوجته، روت السيدة بوش قصة إقدام بندر على شراء غليمبتون قائلة: "عندما اشتراها، ثار الكثير من الانتقاد مثل، *لا نريد عربياً* ونحو ذلك. لذا فإنّ أول ما أقدم عليه هو إصلاح القرية بأكملها". وأضاف الرئيس بوش: "اشترى القرية وأصلح بيوت الجميع". وتابعت السيّدة بوش: "عهد إلى كل العاطلين عن العمل بأعمال السمكرة وبناء السقوف والكهرباء، فوفّر لهم الأعمال وأصلح منازلهم، لذا عندما جاءت الصحف البريطانية وسألت، *ما رأيكم أنّ أميراً عربياً اشتراكم؟* أجابوا، *نعتقد أنّه عظيم*"[29].

(*) يقص جون فلتري شعر الأمير في كل أنحاء العالم منذ وصوله إلى واشنطن دي سي. وقد قصّ شعره في الخامسة صباح اليوم الذي أصبح فيه بندر سفيراً ولا يزال يقصّه منذ ذلك الوقت.

تتميّز كل بيوت بندر بالضخامة بحيث تتسع لثمانية أبناء ومربّياهم وابنته "بالكفالة"، وللضيوف - تبلغ مساحة البيت الرئيسي في أسبن نحو خمسة ألف وخمسمئة قدم مربع [5500 متر مربع تقريباً] - لكن البيوت ليست متطفّلة. فالطرقات الريفية الخاصة الواسعة تخفي وراءها غليمبتون بارك وأسبن، في حين أنّ قصريه في الرياض وجدة موجودان خلف جدران مرتفعة سميكة تضمن الخصوصية وتعزّز الأمن.

عقاراته الواسعة منسّقة بشكل رائع ومزروعة في الغالب. ثمة نحو ألف وخمسمئة شجرة نخيل في الرياض؛ وبساتين تضمّ العديد من الفاكهة المدارية في قصره في مرّاكش؛ وأغنام وماشية عالية الجودة، ومنزل للصيد ونحو ستة عشر ألف طائر تَدرُج في غليمبتون بارك وأرضه التي تبلغ مساحتها ألفين وخمسمئة أكر.

قال بيتر براون: "في أحد مواسم الصيد في غليمبتون، دعا الأمير بندر الرئيس بوش الأب الذي كانت ترافقه حراسة كبيرة". وتابع والسرور باد عليه: "بعد البدء بالصيد، أصاب الرئيس بوش طائراً فهوى نحو الحراسة فانتشرت كما يجب. وعلّق بندر مازحاً أمام الرئيس، *إنني أشكّك في برودة حراستك الأمنية تحت النيران*"[30].

التجوّل مشياً في أراضي أي من بيوت الأمير قد يقود إلى أمر غير متوقّع؛ بناء غير مُجد أو غريب. فقد بنى بندر، على سبيل المثال، منزلاً من الطين في أرض قصره في الرياض ليذكّر نفسه بجذوره. وهو نسخة طبق الأصل عن الكوخ الذي عاش فيه في أثناء



معتزل بندر في أكسفوردشير في غليمبتون بارك

نشأته، على الرغم من أنّ هذا المنزل مليء بالأدوات العصرية إلى جانب المزايا التقليدية. وقد بني على الطريقة العربية التقليدية، حيث يبدو من مظهره أنّه مبني من الطين والقش. وتوجد في مدخله الكبير سجّادات عربية تقليدية، تمتدّ إلى غرفة الاستقبال الرئيسية المؤثّثة على طريقة المجالس التقليدية. وتشرف هذه الغرفة على بركة وأرض محاطتين بجدران يوجد فيها خيمة بدوية. وقد نزل فيها الأمير تشارلز وكاميلا، دوقة كورنول، في أبريل 2006 في أثناء زيارتهما إلى المملكة العربية السعودية.

غير أنّ المنزل الطيني يحتوي على مفاجأة. تقول باربرا بوش: "يضمّ غرفة على شكل قاعات الكاوبوي إلى جانب مسرح حديث كبير يماثل كثيراً بساطة البيت نفسه"[31]. هنا يستطيع بندر أن يستمتع بالأفلام السينمائية القديمة التي يحبّها، على الرغم من أنّ الاسترخاء هنا لا يمكن أن يكون تاماً. فأمام كرسيّه مباشرة في وسط المسرح، توجد ست شاشات تلفزة، موضوعة بذكاء على مستوى الأرض خلف صفّ المقاعد أمامه، تعرض الأخبار العاجلة من الغرب والشرق على حدٍّ سواء.

وصف روبرت ديكون إليوت مبنى غريباً آخر، بيتاً ريفياً مسقوفاً بالقشّ قرب البحيرة في أرض غليمبتون بارك. وذكر أنّ والديه كانا يعيشان قبل سنوات عديدة في بيت ريفي قرب أندوفر، وهو منزل تردّد عليه الأمير كثيراً خلال أيام الدراسة. كان منزلهم أبيض صغيراً مسقوفاً بقشّ تقليدي. قال ديكون إليوت: "أخبرني بندر، *سيكون لدي واحد من هذه المنازل في حديقتي ذات يوم*". وقال ديكون إليوت إنّ الأمير اتصل به عندما كان يجدّد غليمبتون بارك وقال: "هل يمكنك أن ترسل إلي صورة عن بيت وايت روز؟". ففعل ديكون إليوت ذلك. "وبعد ذلك علمت ببناء بيت ريفي صغير قرب البحيرة في غليمبتون، وهو صورة طبق الأصل عن منزل والدي"[32].

يذكر جيمس بيكر زيارة قام بها لمنزل بندر في أسبن حيث شيّد الأمير بناء مستطيلاً بعيداً عن المنزل الرئيسيّ، بناء غريباً آخر. كان البناء مفروشاً بمجموعة واسعة من تحف الهنود والكاوبوي الأصلية، ويحمل اسم "كوخ الدبّ" المناسب، إذ يوجد داخل الباب مباشرة دبّ أسمر اصطاده بندر بنفسه. وقال بيكر مازحاً: "أبلغته أنّه ربما طلب تقييده قبل أن يطلق عليه النار، وأنّه كان في المطاردة مدعوماً باثني عشر رجل أمن مسلّحين بالرشاشات والأسلحة الفردية". وتابع: "دعوت الأمير إلى مزرعتي في تكساس، وطرنا فوقه لكي تُتاح له فرصة رؤيتها بشكل ملائم". غير أنّ بندر قال

عندما طارا فوقها: "يبدو أنّه بيت صغير". ابتسم بيكر عندما ذكر أنّه أصغر قليلاً من كوخ الدب الذي يشكّل مجرّد إضافة صغيرة إلى عقار بندر في أسبن[33]. وقد كتب بيكر مازحاً في كتاب ضيوف بندر: "إنّ مزرعتك الصغيرة الرائعة والمتواضعة تذكّرني بكوخنا في وايومنغ! شكراً على تمضية وقت ممتع"[34].

وفي كتاب الضيوف نفسه، كتب بيل ريتشاردسون، وزير الطاقة الأميركي الأسبق: "شكراً على:

مساعدتك في أسعار النفط.

- ضيافتك في أعظم عقار في العالم.
- صداقتك للولايات المتحدة".

ومن المداخل العديدة في كتاب الضيوف في كوخ الدب، استخرجت مدخل الرئيس جيمي كارتر الذي كتب: "لقد كانت زيارة عظيمة أخرى. التزلّج، والجمال، وكرم الضيافة، والسرور الذي أدخلته على عائلتنا. شكراً مرّة أخرى". بعد مرور مدّة طويلة على مغادرة كارتر البيت الأبيض، عرف بندر أن الرئيس الأسبق وزوجته اتخذا هواية التزلّج. وقد اعترف إليّ كارتر: "لم أشاهد مزالج الثلج حتى بلغت الثانية والستين من العمر، عندما بدأت بالتزلج. ثم بعث لي بندر أنّ لديه منزلاً للتزلّج في أسبن".





بندر صائد الدببة

بعد ذلك بثلاث سنوات، أخذ كارتر عائلته بأكملها إلى أسبن، وأقاموا في منزل التزلّج لدى بندر. ويقول بندر عن زيارته: "كنّا جالسين حول مائدة الفطور ذات مرة، وكان معي أحفادي الصغار الذين يحبّون التزلّج". وضحك عندما قال: "كل جدّ يتوق دائماً إلى تعابير الحبّ من أحفاده". وأوضح الرئيس الأسبق كيف أنّ مزرعة بندر مجهّزة جيّداً بأجهزة الألعاب الفيديوية وشاشات التلفزة الكبيرة، هي جنّة للأطفال. ثم روى حواراً مع أحد أحفاده، جيريمي.

قال جيريمي: "هل ستموت ذات يوم؟".

أجاب كارتر: "الموت مكتوب على الجميع، لكن أرجو أن يكون ذلك في وقت بعيد في المستقبل".

وضحك الرئيس كارتر واعترف: "لقد كانت ضربة لغروري الذاتي نوعاً ما"[35].

يحظى الأمن المحيط ببندر وعائلته وبيوته بأهمية فائقة، إذ تعرّض لعدّة محاولات اغتيال على مر السنين. وقد علّق بندر في ما يشبه التوكيد غير المبالي على محاولة اغتياله في لندن في أواخر السبعينيات: "أذكرها لأنّ المرّة الأولى لا تنسى، أما المرات الأخرى فلم تعلق في ذاكرتي". وأوضح الأمير أنّه في أثناء قيادته السيارة سنة 1978 أو 1979، "نظرت ووجدت تلك السيارة إلى جانبي، وكان فيها رجل يصوّب مسدّساً نحوي!". وكرّر بندر مصدوماً: "عليّ!". وتابع قائلاً: "وأنت لا تتصرّف آلياً، بل تفكّر، *لماذا يصوّب أحدهم مسدّساً نحوك؟* لذا انحنيت بشكل غريزي. وعندما نظرت كان قد توارى، وظننت أنّه خيّل إلي! لكن كان هناك ثقب الرصاصة التي دخلت من أحد جانبي السيّارة وخرجت من الجانب الآخر. لذا قلت للسائق، *انعطف واسلك الاتجاه الآخر*، ولأنّه إنكليزي أصيل، قال، *معذرة يا سيّدي؟* فقلت، *لا تعتذر بل انعطف!* ففعل ونقلني إلى مكان آخر".

ونتيجة لذلك، تضمّ بيوت بندر مجموعة من التدابير الأمنية الحديثة التي تحول دون دخول الزوّار غير المرحّب بهم.

عند تصميم الحيّز الداخلي للبيوت، يحرص بندر دائماً على راحة عائلته وأصدقائه وزوّاره الآخرين. وقد وضع على مرّ السنين صيغة ملائمة بحيث توجد عناصر مشتركة في كل بيت. تتميّز القاعات الرسمية التي يُستقبل فيها أعضاء العائلة المالكة والدبلوماسيّون والضيوف المميّزون بالزخرفة الغنية. فثمة غرفة صينية في قصر الرياض

مليئة بالكنوز التي تضمّ الخزف والمنحوتات وحاجباً خشبياً ضخماً منقوشاً من خشب الورد. والمجلس الرئيسي هنا جميل، مزيّن باللونين الكحلي والأبيض، وتفترش أرضه سجّادة من الحرير.

يوجد في كل بيت قاعة واسعة غير رسمية لتسلية العائلة والأصدقاء. وتضمّ هذه عادة بركة سباحة داخلية وتقع في طبقة سفلية بعيداً عن القاعات الرسمية. وثمة منطقة جلوس دائماً في أحد طرفيها، وجدار يضمّ شاشات تلفزة وأجهزة موسيقية عالية التقنية، وفي كل غرفة طعام تشكّل جزءاً لا يتجزّأ منها. ويتّبع مقرّ إقامة السفير في واشنطن، الذي أخلاه بندر، والقصر في جدة، هذا التصميم، وغليمبتون بارك شبيه به. ويتيح الحيّز الضخم للأولاد، والأحفاد، والمربيات، والأصدقاء، والموظّفين التحرّك بحرية، أو الاسترخاء في أماكن مختلفة من دون تطفّل أحد على الآخر.

يستمتع بندر بالرفقة، وكثيراً ما تنضمّ حاشية السفر إليه في المساء، وكذلك أفراد عائلته. لذا جرى التفكير مليّاً في استيعاب ضيوفه الكثر، إما داخل البيت الرئيسي أو القصر، وإما في الفيلات الفخمة المقامة على الأرض المحيطة. تقول ريما: "والدي معماري محبَط. فما من مبنى كامل قطّ لأنّه ينظر دائماً في طرائق تحسينه ليبعث على الراحة أكثر، عن طريق تهديم الجدران وما شابه. وهو يعيد البناء على الدوام ويضيف مزيداً من الأشياء. وغايته دائماً منح الآخرين مزيداً من الراحة. وأنا أجد ذلك رائعاً حقاً. إنّه يفعل ذلك من أجل الآخرين دائماً، وغالباً ما أشعر بإغراء القول، *افعل ذلك لنفسك، انسَ أمرنا جميعاً وافعله لنفسك*"[36].

يمكن القول إنّ بندر فعل ذلك بالضبط في غليمبتون بارك. فثمة جوّ مميّز من الرجولة في هذا القصر الإنكليزي. قاعة الدخول الكبيرة مليئة بالتحف واللوحات التي تعود إلى حقب مختلفة. لكن المذهل جداً مجموعة الأسلحة - الغدّارات والسيوف والخناجر والرماح - الموزّعة في تناظر تامّ على كل جدران "قاعة الدرج"[37]. وقد أوضح بيتر براون، مدير العقار: "لطالما رغب الأمير بندر في أن يكون غليمبتون بيتاً رجولياً. هناك مجموعة الأسلحة داخل القاعة الرئيسية، التي تضمّ أسلحة نارية مقلّدة. ومن غرائب القانون أنّ الأسلحة النارية القديمة لا تتطلّب شهادات، في حين أنّ النسخ المقلّدة تتطلّب شهادات، حتى تلك التي لا تعمل. غير أنّ ذلك لم يُكتشف إلا بعد أن عُرض فائض الأسلحة [من غليمبتون] للبيع في مزاد علني في لندن، وبدأت الشرطة

تحقّــق في مصدر هذه الأسلحة غير القانونية"[38]. واضطر براون لاحقاً إلى إرسال كل الأســلحة المشتراة للقاعة الرئيسية إلى بيرمنغهام لتأكيد أنّها لا تعمل، وهو عمل كبير نظراً إلى ترسانة الأسلحة المعلّقة في البهو الرئيسي في غليمبتون.

أينما كان الأمير بندر في العالم، فهو يحبّ أن يختلط بالمجتمع المحلي. وهو يستمتع على وجه الخصوص بأخذ الأصدقاء والعائلة إلى المطاعم المجاورة. ومن المطاعم الصغيرة المفــضّلة في واشنطن "بكنغ غورميه إن" الكائن في مركز تسوّق غير متميّز في نورث فيرجينـــيا. وفي أكسفوردشير، يحبّ بندر ارتياد مطعم هندي صغير في قرية محليّة، وفي إحـــدى المناسبات عندما زاره جورج إيتش دبليو بوش في جدة، أخذه بندر إلى مطعم بيتزا محلي.

يتميّـــز الأمير بندر بالجود والكرم، وليس أدلّ على ذلك من تبرّعاته السخيّة إلى المؤسّـــسات والجمعيات الخيرية والأفراد. هناك التبرّعات الكبيرة التي تظهر في العلن، مـــثل تمـــويله شراء جهاز تصوير مقطعي محوسب لمستشفى أسبن فالي بكلفة مليون دولار، ووحـــدة للإصابات والرضوض في المستشفى نفسه. وعند الحديث عن مركز الإصابات والرضوض، قال وليام جوردان الثالث، محامي بندر في أسبن في كولورادو، "اتـــصلوا بـــــي من المستشفى وقالوا، *إنّ غرفة الحوادث لدينا غير مناسبة البتة، وقد أجرى جرّاحنا بحثاً بشأنها وعلينا تحديث التجهيزات بتكلفة تبلغ 350,000 دولار. هل يستطيع الأمير المساهمة في هذا المبلغ؟* قلت، *سأتحدّث إليه*".

وصـــف جوردان ردّ بندر على طلب المساهمة عندما عرضه عليه. قال بندر: "ما المبلغ الذي يريدون جمعه؟".

أجاب جوردان: "الغرفة بأكملها والتجهيزات الحديثة تكلّف 350,000 دولار".

قال بندر من دون تردّد: "اشترِ كل شيء".

وتابع جوردان: "وهكذا اشترى كل شيء، وعندما تذهب إلى المستشفى اليوم، تجـــد اسمه على أعلى المجلس الشرفي. وإذا توجّهت إلى غرفة الطوارئ، وبجانبها غرفة الحوادث، تجد لوحة لم يطلبها البتة، لكنّه اشترى الغرفة بأكملها". واعترف جوردان: "لو كان المبلغ 1,350,000 دولار، لقال، *اشترِ كل شيء*"[39].

غير أنّ تلك اللفتة ليست سوى مثال على كرم بندر في أسبن. ومن الأنشطة التي يـــدعمها ولا تحظـــى بإعلان كبير تقديم إجازات في أسبن للأطفال الذين يعانون من

السـرطان. كمـا يدعم أيضاً جمعية خيرية أخرى للأطفال الذين يعانون من السرطان تدعى سيلفر ليننغ، تديرها لاعبة التنس المتقاعدة أندريا جاغر[40].

يقـول ريك دين، الرئيس الحالي لمؤسّسة "أسبن ماونتن رسكيو"، وزوجته لندن، وهـي مـتطوّعة أيضاً: "الأمير بندر رجل مدهش. ولولا مساعدته لما كانت ماونتن رسـكيو قـادرة على العمل"[41]. وثمة كثير من الأمثلة على كرم بندر وسخائه، مثل جمعـية المحاربين القدامى والعيادة التابعة لها في أسبن، تقديراً للدور الأميركي في حرب الخليج الأولى. وبالتالي ليس من المفاجئ أن تكتب صحيفة أسبن ديلي نيوز أنّ "جهود الأمـير بـندر بـن سلطان الخيرية ذات جذور عميقة في أسبن. ولا مجال للنقاش في تبرّعات بندر السخية للجمعيات والمؤسّسات الخيرية في أسبن"[42].

يقـول بيتـر جاي، وهو سفير بريطاني سابق في واشنطن، إنّ بندر وافق بطريقة مماثلـة علـى دعم جامعة أكسفورد بروكس في إنكلترا. فقد كان جاي يحاول جمع الأموال لتطوير الجامعة بإنشاء كلية الصحة والرعاية الاجتماعية. وهي مصمّمة للتركيز علـى كـل المهـارات الداعمة للرعاية الصحية مثل الممرّضات والقابلات (الدايات) والمعالجين الفيزيائيين، واختصاصيي رعاية المصابين بالسرطان.

يـروي جـاي: "أوضحت أنّني أبحث عن محسن كبير. فتطوّع الأمير بندر على الفـور بتقديم مليون ونصف المليون جنيه لتعليم الرعاية بمرضى السرطان. وبعد ذلك تحرّكنا بسرعة لإتمام التفاصيل وقُضي الأمر!"[43]. وفي بيان صحفي، أفادت الجامعة أنّ مساهمة الأمير بندر، وهي الأكبر التي تقدّم إلى الجامعة، موّلت "كرسي صاحب السموّ الملكـي الأمير سلطان للرعاية بالسرطان" في كلية أكسفورد بروكس للصحة والرعاية الاجتماعية، وقد سُمّي كذلك تكريماً لوالد الأمير بندر[44].

ومـن تبرّعات بندر الأخرى في العالم الأكاديمي قيامه بتمويل كرسيين في جامعة جونـز هوبكنـز في بالتيمور، ميرلند، واحد للدراسات الدولية والآخر للدراسات البيئية.

يكنُّ بندر تقديراً كبيراً لسلاح الجوّ الملكي على التدريب الذي تلقّاه في كرانوِل، في تلـك الفتـرة التكوينية من حياته، لذلك قدّم تبرّعاً سخياً بعد ذلك بعدة سنوات. يذكر السير ريتشارد جونـز، مارشال سلاح الجوّ والقيّم على قلعة وندسور ورئيس مجلس أمناء متحف سلاح الجوّ الملكي، هندون في لندن: "قبل خمس أو ست سنوات،

وضع مجلس أمناء المتحف رؤية للمستقبل. وهي تشمل إنشاء حظيرة طائرات كبيرة جديدة تدعى *معالم على طريق الطيران* تسجّل مئة عام من الطيران العسكري".

وأوضح جونز: "توجّهنا إلى صندوق هيريتيج لوتري لكن كان عليك أن تجمع قسماً من المال بنفسك، وكان ذلك تحدياً كبيراً". هنا تابع القصة طوني إدورادز، وهو عضو في مجلس الأمناء أيضاً وقد التقى ببندر في أثناء برنامج اليمامة تورنيدو. فأطلع الأمير بندر على مشروع المتحف وقال: "أيمكنك أن ترشدني إلى أين يمكن أن أتوجّه بحثاً عن المال لدعم متحف سلاح الجوّ؟".

بعد أن تحدّثا عن عدد من الأشخاص، قال بندر: "لم تطلب منّي. ماذا عني؟ ما الذي يلزم للبدء؟".

أجاب إدورادز: "يلزم نحو ثلاثمئة وخمسين ألفاً".

اعترف إدواردز: "كان هناك جدال إن كان المطلوب ثلاثمئة وخمسين ألف دولار أو جنيه، وتمّ ترتيب زيارة للأمير إلى المتحف. تبيّن أن المطلوب ثلاثمئة وخمسون ألف جنيه وهو المبلغ الذي بُدِئ به المشروع. ثم دخل رعاة آخرون من الكويت والشرق الأوسط. لذا جمعنا نحو 1.1 مليون جنيه، وقدّم صندوق اللوتري مبلغاً مماثلاً ومضى المشروع".

وقال إدواردز: "لو لم يقدّم بندر ذلك المبلغ لما تم البدء بالمشروع. يا له من كرم!"[45].

لكن، مع أنّ كرم بندر بتقديم المال حاتمي، فإنّ احترام الأمير للقريبين منه ورعايته لهم يكشفان عن تعاطفه الحقيقي مع الآخرين. وكل الأمثلة على كرمه تتمّ بهدوء من دون أن يعرف بها أحد.

ذكرت ميمي بورك، إحدى سكرتيرات الأمير، أنّها التقت قبل عدّة سنوات بسكرتيرة سفير بلد إفريقي، فقالت لها: "أتذكرين عندما أصبح سفيري عميداً للسلك الدبلوماسي؟". كان بلده فقيراً جداً ولم يكن في وسعه تحمّل أعباء واجبات عميد السلك، فأرسلوا رسائل إلى كل السفراء، مع ما يترتب على ذلك من إحراج، يقولون فيها: "هلا تتبرّعون من فضلكم بمئتي دولار لمساعدتنا على القيام بهذا العمل؟".

قدّمت بورك الطلب إلى بندر فقال: "ميمي، دعينا ندفع عن السنة كلها. لن أرسل شيكاً بمئتي دولار فقط إلى هذا الرجل". وقالت بورك إنّ بندر كتب رسالة رقيقة إلى السفير يقول فيها: "مبروك لأنّك أصبحت عميد السلك الدبلوماسي وهذه

مـــساهمتي". بعـــد عشر سنوات، عندما التقت ميمي بتلك السكرتيرة مجدداً، قالت: "بكيـــنا جمـــيعاً عندما تسلّمنا الشيك، كان أفضل صنيع يُقْدِم عليه أحد. فقد خفّف كـــثيراً مـــن الضغط كوننا بلداً فقيراً نحظى بهذا المنصب ونريد أداء عملنا على أكمل وجه. لقد قدّم إلينا الأمير المبلغ بأكمله وسهّل عملنا كثيراً".

وخـــتمت بورك: "لم يحصل على أي اعتراف بالفضل على ذلك، و لم يعلم أحد به. لكنْ، لدي قصص كثيرة مثل هذه"[46].

عـــندما علم جون فلتري، حلاق الأمير، أنّني أقوم بكتابة سيرة حياة الأمير بندر، أصـــرّ علـــى أن أجري مقابلة معه، وقال لي بصوت مثقل بالعاطفة: "هذا الرجل غير معقول! إنّه يأخذني معه في أسفاره، إنني حلاق عادي صغير، أيمكنك أن تتخيّل ذلك؟ لقـــد ســـافرت معه إلى سويسرا، وكاليفورنيا عدّة مرّات، وهاواي، والمملكة العربية السعودية، وإفريقيا... إلى كل مكان".

وقال فلتري: "أريد أن أخبرك عن عظمة هذا الرجل. إنّني أمارس هذا العمل منذ مـــدة طـــويلة، وبدأت أملّ منه، لذا فكّرت في أن أبيعه. على كل حال، لم أقم بالأمر الـــصحيح وتعرّضت للاحتيال وانتهى بـــي الأمر خالي الوفاض. لم أبلغ الأمير بذلك، لكنّني قلت إنّني أحاول أن أبدأ عملاً جديداً".

تابـــع فلتري: "بعد يومين تلقّيت اتصالاً من بنك ريغز، وأبلغني أحدهم أنّ الأمير بـــندر يريد من البنك أن يقرضني المال وأنّه يقف خلفي. وكان الأمير يريد أن يعطيني 300,000 دولار لأبـــدأ. لم أســـتخدم المال، لكنْ، فكّر في الأمر، أنا حلاق صغير من الشارع، فكّر في مقدار سموّ ذلك، في الثقة الكبيرة التي محضني إياها. سأذكر دائماً أنّه عرض عليّ تلك المساعدة"[47].

لكـــن الأمـــير لا يمـــنح المحيطين به الدعم المالي فحسب. بل يمنحهم الإحساس بالاهتمام والرعاية. وقد اتضح ذلك عندما نـــزلت ضيفاً في قصره في مراكش. روت لي مديرة القصر، ليندا وير، حادثة توضح طريقة اهتمامه بجلاء.

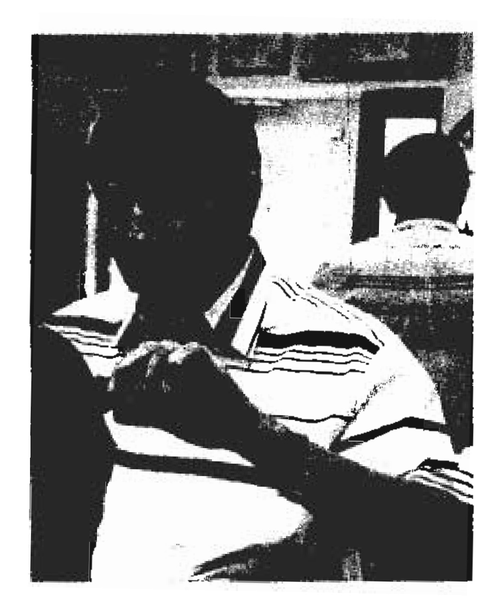
ذكرت وير أنّ ابنتها الصغرى، صوفي، انضمّت إليها في مراكش بعد أن أجرت عملـــية جراحية كبيرة لسرطان في عنق الرحم، لكن كان عليها العودة لتجري جراحة أخـــرى. وقالـــت ويـــر: "عندما يصل [الأمير بندر]، كان يسأل عنها دائماً. لم تكن موجودة عندما جاء، وعندما لم يقل شيئاً، لم أفاتحه بالأمر".

بعـــد نصف ساعة تقريباً، رنّ الهاتف في غرفة المؤونة وقال بندر لوير: "كيف حال ابنتك يا لين؟".

أجابـــت وير: "في الواقع يا صاحب السموّ، ســـافرت صـــوفي إلى بريطانيا أمس لأنّها تعاني من مشكلة صحية صغيرة، لكنّها ستعود بعد أسبوع".

سأل بندر: "ما المشكلة؟".

أجابـــت ليندا: "إنّها مصابة بسرطان في عنق الـــرحم، لكـــنّها تراجع جرّاحاً شهيراً، ونعتقد، إن شاء الله، أنّها ستكون المعالجة الأخيرة".



حلاق بندر، جون فلتري

ساد صمت مؤقّت قبل أن يقول الأمير: "أريدها أن تحصل على رأي طبـــيّ آخر".

أجابـــت وير: "ذلك لطف كبير منك يا صاحب السموّ. إنّها ذاهبة بمفردها وقد رتبنا الأمر".

قاطعها الأمير: "لا، أريدها أن تحصل على رأي طبـــي آخر".

وقالـــت وير: "كم كان ذلك لطيفاً. إنّه رجل شديد الاهتمام. أن يتصل بـــي ويسألني عنها، وأن يتذكّر أن صوفي غير موجودة! ذلك مميّز جداً"[48].

وأجرى بندر الترتيبات اللازمة للحصول على الرأي الآخر.

في مـــثال آخر على مراعاة الأمير للآخرين واهتمامه لهم، تحدّث أحد العاملين في فريق بندر، الذي يسافر كثيراً مع الأمير، عن كرمه، وحضوره الآسر. أوضح أنّه بينما كان مسافراً مع بندر، علم العميد، قبيل وصولهم إلى هيوستن قادمين من واشنطن، أنّ أمـــه المقـــيمة في جـــدة مريضة جداً، أصيبت بعدد من السكتات. أبلغ العميد الأمير بالوضـــع وطلب منه السماح له بالتوجّه إلى المملكة العربية السعودية فور وصولهم إلى هيوستن.

سأل بندر: "كيف تنوي التوجّه إلى جدة؟".

أوضـــح العميد أنّ عليه ركوب العديد من الطائرات، وأنّ الطريق الأسرع يعني العودة إلى واشنطن، وركوب طائرة إلى لندن، وطائرة أخرى إلى القاهرة، ثم طائرة إلى جدة. ونظراً إلى خطورة الموقف، استبعد الأمير هذه الخيارات، وأجرى ترتيبات أخرى على عجل.

ركب العميد الطائرة التالية إلى اشنطن من هيوستن، حيث تمّت مرافقته إلى رحلة علــى متن طيران "بريتيش إير وايز" إلى لندن. وعندما وصل إلى مطار هيثرو، نُقل إلى مروحيّة أقلّته إلى مطار ستانستيد مباشرة، وكانت هناك طائرة خاصة جاهزة لنقله على الفور إلى جدة. وختم العميد: "كان ذلك مثالاً فقط على إنسانية الأمير بندر". وأكّد أنّه لم يُفرَد بهذه المعاملة: "إنّها الطريقة التي يرعى بها الأمير بندر العاملين معه"[49].

أكّد العديد من العاملين مع بندر هذه الملاحظة التي أدلى بها العميد، لكنّني سمعت ذلك أيضاً من الدكتور سعيد الكرمي الذي قال عن طبع الأمير: "إنّه دائم التهذيب مع الجمــيع. وخــلال أربع وعشرين سنة، لم أشاهد بندر يوبّخ أياً من العاملين أو يرفع صوته في وجههم في أي وقت"[50].

وقــدّم مدير مكتب التحقيقات الفيدرالي السابق لويس فريه تقييماً ثاقباً للأمير عندما قال: "تعلّمت أن تقييم الأشخاص في السلطة يتمّ وفقاً لطريقة تعاملهم مع موظّفيهم. ومن الأشــياء الــتي ألاحظها - ربما لأنّني كنت عميلاً سرياً قبل عدّة سنوات - ومن طرائق الحكــم علــى الناس، لا سيما الذين لديهم سلطة، النظر إلى كيفية تعاملهم مع من يعمل لــديهم. وعندما أريد أن أعرف أي شيء عن أحد في واشنطن لا أعرفه، أسأل عملائي، *تحدّثوا إلى المحيطين به بالتفصيل وأبلغوني أي نوع من الأشخاص* هو، وكان يأتيني الخبر أنّه *رجل جيّد، يراعي الآخرين، لطيف، مغفّل، رهيب، لئيم*".

وبالعــودة الآن إلى بــندر، تابع فريه: "إنّها قاعدة عامة سريعة جداً. وسيخبرك عملائي الذين تعاملوا معه الأمر نفسه. إنّه يعتني دائماً باحتياجات حرسه الأمني أولاً، وأعتقد أنّ ذلك يدلّ على شخصيته"[51].

وفي إيــضاح آخــر لاهــتمام بندر لأصدقائه وإخلاصه لهم، عندما فقد نلسون مانــديلا ابنه ماكغاتو بالإيدز في يناير 2005، كشف عن ذلك بشجاعة أمام العالم. لم يتــصل بــندر بمانــديلا ويقدّم له تعازيه فحسب، بل شعر أيضاً أنّ عليه أن يقدّمها شخــصياً. وفي أثناء زيارته، قال نلسون مانديلا مبتسماً إلى الأمير الذي يسنده بيده، "لقد شرّفني وأسعدني العمل معك ولك. وأعتبر نفسي محظوظاً لأنّني صديقك". وقال مانــديلا مازحاً إنّه كان في حضرة أهمّ رجل في العالم عندما كان بصحبة بندر. وردّ بــندر التحــية بقــوله: "الرئيس يحظى باحترام وتقدير عاليين. إنّه ليس زعيم إفريقيا فحسب، وإنّما العالم بأكمله"[52].

هــذه اللفــتة الرائعة هي في الواقع إثبات على الحكمة التي يردّدها بندر: "كل أصدقائي مخلصون لي لأنّني مخلص لهم"[53].

ومــن الأمثلة المدهشة على رغبة بندر في مساندة الآخرين الأقل حظاً منه رعايته المالية لمشروع لايف سايكل رينجر في جنوب إفريقيا. بعد التطوير ونجاح التجارب في زيمبابوي، طوّر منظّم الأعمال البريطاني مايك نورمان عربة إسعاف مكوّنة من درّاجة ناريــة ومــركبة جانبــية كبديل سهل الصيانة وعالي المردودية بالنسبة إلى التكاليف للمــركبات رباعية الدفع، ويمكن أن تساعد المجتمعات الريفية في بلدان العالم الثالث. لفــت روبرت ديكون إليوت نظر بندر إلى هذا المشروع، فأدرك إمكاناته على الفور وعــرض دعمــه الكامــل ورعايــته له. وأيّد نلسون مانديلا أيضاً الفوائد الإنسانية للمشروع وأصبح راعيه المشارك.

يــوجد لدى شركة إنتاج رينجر الآن مصنع في قرية كنغ وليام في جنوب إفريقيا ووحــدة بحث وتطوير في إنكلترا. وهي تنتج، بالإضافة إلى عربات الإسعاف المكوّنة مــن درّاجة نارية ومركبة جانبية، أجهزة تنقية متحرّكة للماء، ودور سينما متحرّكة لتثقــيف المــناطق الــريفية عن فيروس الإيدز. ويمكن القول إنّه بفضل إنسانية بندر ومنتجات رينجر، تحسّنت نوعية حياة العديد من الأشخاص في أنحاء العالم الثالث.

وقــد أبلغــني الرئيس كارتر قصة أخرى غير معروفة كثيراً عن كرم بندر. قال كارتــر: "في كــل عام أصنع شيئاً لكي يبيعه مركز كارتر في مزاد علني. أنا ماهر في الــنجارة فأصنع الأثاث. وفي إحدى السنوات نقشت مجموعة شطرنج، وصنعت علبة من خشب الكرز. بطّنتها زوجتي بالمخمل، وفيها مكان يتسع لكل قطع الشطرنج. لذا قدّمــتها إلى مركــز كارتر لبيعها في مزاد علني، وزايد بندر على تلك المجموعة. دفع 141,000 دولار مقابــل مجموعة شطرنج! وهكذا فإنّه يمتلك اليوم إحدى مجموعات الشطرنج التي صنعتها، والوحيدة التي بعتها!".

وختم كارتر: "لعلّها الوحيدة التي نقشها رئيس سابق بيديه"[54].

تحدّث جورج إيتش دبليو بوش أيضاً عن أعمال الأمير الخيرية فقال: "يُكثر بندر مــن عمل الخير. ومن السهل جداً المحاولة معه بسبب ثرائه الواسع. لذا أعتقد أنّ من المهــمّ أن يُنظــر إلــيه كشخص يرغب في مساندة الجمعيات الخيرية، وأن يكون ممن أدعــوهم مــنارات في مساعدة الآخرين. إنّ لديه دفئاً شخصياً وقلباً كريماً". وأكدت

السيدة بوش: "إنّه يتعفّف عن ذكر محاسنه تواضعاً، لكن يجب أن يعرف العالم عن كرمه"[55].

غير أنّ بندر يلاحظ عندما يتحدّث عن أعماله الخيرية أنّ وسائل الإعلام تقدّم انطباعاً خاطئاً عن سجلّه الخيري. ففي حين أنّ الصحافة الغربية غالباً ما تورد أخباراً عن تبرّعاته الخيرية في الغرب، فإنّ بندر يؤكّد أنّه في مقابل كل دولار يتبرّع به في الغرب، يقدّم عشرة دولارات دعماً للمشاريع الخيرية في العالم العربي.

يقول بندر في محاولة لتقديم الأسباب الكامنة وراء أعماله الخيرية: "عندما تمتلك كل شيء، فإنّ أرفع ما يمكن أن تصل إليه في الحياة هو أن تمدّ يد العطاء إلى الآخرين. هذه هي أسمى المراتب، أن تتمكّن من تقديم العطاء إلى الآخرين"[56].

الفصل الثالث عشر

بندر:
الكشف عن اللغز

لا يهمّ مقدار ضيق الباب،
وما العقوبات الواردة في لفافة الورق،
إنّني سيّد مصيري،
وأنا القيّم على روحي.[1]

"إنفكتوس"، وليام إيرنست هنلي
(1903 - 1849)

عـندما سـألت نلسون مانديلا إذا كانت إنفكتوس من القصائد المفضّلة لديه، أجـاب علـى الفور: "هذا صحيح... إنّني أحب تلك القصيدة كثيراً، لكنّني لم أعد أذكـرها بدقّـة". ثم ألقى مانديلا الأبيات الأربعة الواردة أعلاه، مشدّداً على البيتين الآخيرين، اللذين كرّرهما[2].

وعـند التأمّل في متطلّبات جدول الأعمال القاسي كسفير ومبعوث للملك وولي العهـد، غالباً ما كان بندر يعبّر عن رغبته أيضاً في أن يصبح سيّد مصيره وأن يخصّص بعـض الوقت لنفسه. وتساءل: "أليس رائعاً أن أكون متسكّعاً *على الشاطئ* لأمضي اثـني عـشر شهراً مع نفسي وعائلتي؟". وقد استخدم الدكتور سعيد الكرمي العبارة نفسها في أوائل سنة 2004 عندما تساءلت عمّا يمكن أن يرغب بندر في عمله لاحقاً.

مـن الواضـح أنّ بـندر كان يرنو إلى التحرّر من ضغوط العمل الدبلوماسي المتواصـل. ومع أنّه كان يمتلك سلطة كبيرة في أثناء عمله طوال عقدين كسفير، فإنّ هـذه السلطة لم تكن من دون تكلفة، فقد كان مجبراً على التضحية بحرّيته الشخصية. وقـد عبّر فرانسيس بيكون عن ذلك ببلاغة شديدة: "من المستغرب الرغبة في السعي وراء السلطة وفقد الحرية"[3].

يستطيع المرء أن يفهم لماذا كان يُحْسَد قرار نلسون مانديلا الشجاع بالتخلي عن منـــصبه بعد ولاية واحدة، وسعيه بعد ذلك للابتعاد عن الحياة العامّة. وغالباً ما صفّق الأمـــير لذلك القرار. ومع اتضاح رغبة بندر المتزايدة في الابتعاد عن الدور الذي شغله منذ أكثر من عقدين، أصبح جلياً أيضاً في أوائل سنة 2004 أنّه سيُقدم عاجلاً أم آجلاً علـــى خطـــوة نلسون مانديلا الجريئة، وهي الابتعاد عن الأضواء والدخول في عالمه الخاص وتذوّق طعم الحرية الذي قد يحمله التقاعد معه. ومع أنّ هذا الهروب قد يكون مؤقّـــتاً، فإنّه سيمنحه فترة استراحة يتحرّر فيها من الضغوط والتحديات التي رافقت دوره المنهك.

تعـــزّز هـــذا التقدير في لقاء ثنائي آخر مع الأمير بندر - قرابة الساعة الثالثة بعد منتـــصف الليل - عندما تحوّل النقاش فجأة من العموميات إلى جوانب السلطة. فقال بـــندر مـــن دون أي تنبيه: "المال لا يعطي السلطة، لكنّ السلطة يمكن أن تعطيك كل المال الذي تريد في هذا العالم. لكن، إذا كانت لديك السلطة ولا تمارسها، فإنّها تكون عديمـــة الجـــدوى. وإذا افترضـــت أنّ لديك السلطة، لذا يمكنك ممارستها، لكنّك لم تمارسها بطريقة تمكّنك من حماية حريتك، فما فائدة السلطة؟ يمكنك أن ترضي الجميع باستثناء نفسك".

ولاحظ أنّ هذه "المسألة المعقّدة هنا تصبح واجباً. لديك السلطة لأن تكون حراً، ويمكـــنك أن تمارس حريتك لأنّك تملك المال، ثم تتدخل الواجبات ولا يجديك الأمران شـــيئاً. فبـــصرف النظـــر عما تمتلكه من سلطة ومال، عندما يكون لديك إحساس بالـــواجب، تبدأ بالتضحية بما لا يضحّي به الآخرون، الذين ليس لديهم قدر ما لديك مـــن ســـلطة ومال، لكنّهم يريدون حماية حريتهم". وكانت هناك إشارة انتقاد لبعض أترابه السعوديين عندما قال: "ويرجع ذلك إلى حقيقتين بسيطتين: ليس هناك شيء حرّ ولا شيء يأتي بالاختيار".

يشعر بندر بإحساس ملزم بالواجب تجاه المملكة العربية السعودية، وهو إحساس يعبّر عنه بندر بوضوح بقوله: "إنّني مقتنع أنّني أدّيت واجبـــي... مضاعفاً!". ثم طرح الـــسؤال التقريـــري التالي: "يسأل الناس، *هل أحببت في يوم من الأيام؟* نعم أحببت. وحبـــــي أولاً وأخيراً هو للمملكة العربية السعودية. وقد تعلّمت على مرّ السنين أنّه عبء ثقيل جداً. المشكلة هي أنّك عندما تحب، لا تفكّر كما يلي: *هل ينصفني الحبيب*

أم لا؟ وهـــل يحـــسن إلي أم لا؟ إنّه حبّ غير مشروط. لكنّك تصل إلى مرحلة تقول عندها، *إلى متى؟*".

وفي تأمّله في ما يمكن أن يحمله له المستقبل قال: "إذا بقيت فذلك لأنّ هناك شيئاً أستطيع القيام به، وأصارحك القول إني لا أتصوّر الآن ما قد يكون مهماً جداً وحيوياً جداً لبلدي، بحيث لا يستطيعون فعله من دوني. وعندئذ عليّ أن أفعله. لكن يجب أن أكون مقتنعاً بذلك"[4].

وأوضـــح بندر أنّه إذا أخذ على عاتقه مثل هذا الالتزام، فيجب أن يترك له مجالاً لكي يخصّص بعض الوقت لعائلته. وبهذا المعنى يمكن القول إنّه وصل إلى نقطة تحوّل في حياته، وأصبح عازماً على تحديد أهداف شخصية واضحة تقيم تسوية بين دوره كأب وزوج، وإخلاصــه الدائم للواجب واحتياجات المملكة التي يحب. بل إنّني شعرت أنّ بـــندر تحـدّث بالفعل عن رغبته الشخصية إلى الملك فهد وولي العهد الأمير عبد الله، والأمـــير سلطان. وبدا واضحاً أنّ بندر يقف على قمة تغيير ما، على تحوّل قد يشهد تخلّيه عن قلب مسرح الأحداث في الدبلوماسية العالمية.

برز إحساس بندر العميق بالواجب مجدداً في أثناء المقابلة التي أجريتها مع حلاقه، جـــون فلتـــري. "إنّه يتحدّث إلي بعفوية، حيث نكون بمفردنا. ويدور الحديث حول الأشـــياء التي يرتاح الناس عادة إلى التحدّث عنها مع حلاقيهم. أقول له طوال الوقت، أنت الأمير، لكنّك عامل مُجِد". وتابع فلتري بعد استغراقه في التفكير قائلاً: "مَن غيره يذهب إلى المملكة العربية السعودية ويعود في يوم واحد؟ لا أحد يريد تلك الحياة! إنّه شـــديد الإخلاص لبلده وعمله؛ ولا يأخذ إجازة قط. إنّه يعمل طوال الوقت". وختم فلتري بملاحظة تحدث صدى في النفس: "إنّني أذهب إلى لندن معه وأمضي وقتاً ممتعاً، لكنّه يعمل. من العامل المُجد الآن!"[5].

بالعـــودة إلى التأمّلات في السلطة والمال قال بندر: "يعتقد الناس أنّه كلما ازداد المـــرء قـــوة وثراء، ازدادت قدرته على الانتقاء والاختيار. وحقيقة الأمر أنّ خياراتك تـــصبح محـــدودة أكثر إذ ينتظر منك أن تفعل أموراً عدة. ويأتي كل ذلك كجزء من الـــصفقة. يمكنك بالطبع أن تصبح مثل هوارد هيوز وتحبس نفسك في أعلى فندق، أو يمكـــنك أن تصبح مثل بيل غيتس وتقرّر أن تستأجر طائرة عندما تسافر لا أن تمتلك واحـــدة، أو يمكن أن تكون ثرياً ذا ميول اجتماعية وترغب في إظهار كل شيء. لكن

مـــا يعتدّ به هو كيف يمكنك أن تمزج كل هذه الأشياء معاً، المال والحرية والأصدقاء القدامى ونمط الحياة... إنّها معادلة معقّدة".

وتابـــع قائلاً: "أتعرف أنّني لا أريد أن يكون الأمر مختلفاً عما هو عليه. فسيكون من المضجر أن أعيش حياة تقليدية أو أن أسلك الطريق السهل". وتوقّف هنيهة مجدداً قبل أن يقول: "من الممتع أن تتمكّن من الجلوس في البيت الأبيض ويكون لك دور في القرارات الحاسمة، لكنّني أستمتع أيضاً بالاجتماع مع أصدقاء الدفعة 96 في أسبن".

"صحيح أيضاً، عندما تأخذ الجانب الآخر من المعادلة، أنّ *السلطة المطلقة مفسدة مطلقـــة*. وكلمـــا ازددت سلطة، ازدادت صعوبة عمل المكابح عليك. بعبارة أخرى، عليك أن تجدّ في تشغيل المكابح لتوقف إغراء الحصول على مزيد من السلطة". ويرى بـــندر أنّ السلطة مخدّر؛ لكن ما يثير التناقض الظاهري أنّ اعترافه بإغراء السلطة يقدّم إلـــيه الترياق. وعندما تأمّلت كلمات بندر والتشابهات بينه وبين ميكيافيلي، تذكّرت لاحقـــاً أنّ القانون الأخلاقي الوحيد الذي يتبعه أي أمير ميكيافيلي هو الحصول على الـــسلطة والاحـــتفاظ بها وتوسيعها، وأن ليس من حدود تقف في وجه تحقيق ذلك الهدف[6]. هل يكون ذلك مفتاحاً لفهم شخصية بندر؟

اتـــضحت إحدى المعالجات لهذا النقص في شخصية بندر عندما تحدّث عن دائرة أصدقائه، الأشخاص القريبين منه والمستعدين لتثبيت قدميه على الأرض وحقن جوّ من الواقعـــية في حـــياته. وعند الحديث عن هؤلاء الأصدقاء قال: "السؤال هو، *هل كان استبقائي لهم قدراً أم تخطيطاً؟*". وقد أجاب نفسه على الفور قائلاً: "إنّني بحاجة إليهم إذ كلما ارتفعت ازدادت سلطتك وقلّت فرص سماعك هذه الأشياء".

توقّـــف التخمين بشأن مستقبل بندر منذ مدة طويلة عند تقاعده ثم تعيينه لاحقاً كـــأمين عـــام لمجلس الأمن الوطني السعودي، لكنّه كان شائعاً في أكتوبر 2004. ففي الأشهر التي أعقبت حواري مع بندر في الرياض، وفي مسعى لاكتشاف الحقيقة بشأن مـــستقبله، طرحت السؤال تكراراً على أصدقائه وزملائه: "ماذا يلي؟". وفي أحد هذه الحـــوارات، رأى الدكتور سعيد الكرمي أنّه "ربما يسعى للهرب من الإجهاد المتواصل الذي يفرضه عليه دوره الحالي. إنّه يخضع للكثير من الإجهاد. فعليه أن يواجه ضغوطاً لا تلـــين في دوره الحـــالي يومـــياً"[8]. لكنّه أقرّ أنّه إذا ما حدث ذلك، فقد يتولّى دور مستـــشار لـــولي العهد أو وزير الخارجية؛ أو حتى دور وزير من دون حقيبة؛ مبعوث

خاصّ. وخلافاً لكلام الدكتور الكرمي المنتقى بعناية، كان الأمير فيصل بن تركي أكثر صراحة بقوله: "دعني أصارحك القول، لقد أصبح منصب السفير إلى الولايات المتحدة صغيراً جداً عليه. ولطالما فعل أكثر من ذلك، لكنّه يحتاج إلى فعله في إطار عمل آخر. أعني أنّ عشرين عاماً في عمل واحد فترة طويلة جداً"[9].

عندما سألت الكرمي عما إذا كانت عملية اختيار خليفة للأمير كسفير في واشنطن قد بدأت بالفعل، لم يتحدث عن بديل إذا ما تنحّى بندر أو استُدعي إلى المملكة "الولايات المتحدة هي الشيء الأهم بالنسبة إلى المملكة في هذه المرحلة. وما دام ذلك المنصب مهماً فسيبقى بندر". بدا واضحاً أنّ الكرمي لم يكن يتوقّع أي تغيير في دور الأمير في المستقبل القريب. ولدعم هذا الاستنتاج، تابع بحكمة: "لا يزال الشرق الأوسط في حالة فوضى، ولا يزال العراق في فوضى، وما زلنا لا نعرف إلى أين نحن ماضون، وما زالت المشكلة الإسرائيلية العربية من دون حل، ولا يزال لديه الكثير من العمل"[10].

وعندما سألت برنت سكوكروفت عما يشعر أنّ بندر سيفعله بعد عمله الطويل كسفير إلى الولايات المتحدة أجاب: "أتوقّع أن يدخل الحكومة إذا ما استُحدث منصب ما. إنّه السفير الوحيد الذي اضطلع بذلك الدور؛ أما أسلافه جميعاً فكانوا دبلوماسيين عاديين. وهو فريد بهذا المعنى"[11]. وردّد الدكتور هنري كيسنجر هذا الرأي. فقد لاحظ أنّ صلات بندر في واشنطن ليست فريدة فحسب وعلاقته بعائلة بوش ليست خاصة جداً فحسب، بل "هناك حاجة إليه في دوره كسفير في الوقت الحاضر، في أعقاب 9/11. ولا أستطيع أن أعرف من يمكن أن يحلّ محلّه. وأعتقد أنّ بندر أفضل المرشّحين للاستمرار في ذلك الدور في السنوات القليلة القادمة". وعلّل ذلك بقوله إنّ لبندر كثيراً من الصلات مع الحكومة في خمس إدارات بحيث يصعب استبداله[12].

وفي تقدير متباين عما أورده سكوكروفت وكيسنجر، قال لويس فريه: "الدور الذي أراه فيه، إذا لم يصبح الملك، وهو ما يحب كثيرون هنا أن يروه؛ كم سيكون قائداً تقدّمياً وذكياً ومتنوّراً، هو أن يصبح شبيهاً بمانديلا. أي أن يصبح رجل دولة كبيراً يستطيع التدخّل والمساعدة في إصلاح أوضاع صعبة جداً قد تخرج عن السيطرة بسهولة"[13]. ومن الآراء الأخرى بشأن مستقبل بندر ما قدّمه الرئيس السابق بيل

كلينتون عندما قال: "أعتقد أنّه يفهم العالمين اللذين عاش فيهما بقدر ما يفهمهما كل من أعرف، ويدرك ما يحفظ التوازن بينهما، وذلك عمله كدبلوماسي. وعندما لا يعود دبلوماســياً، عليه التفكير في كيفية تغيير الأمور...". وقد ألمح كلينتون إلى الحاجة إلى إدخال تغيير في المملكة، فقال لبندر: "لقد أنعمت الحياة عليك وشهدت الكثير، لكنّك لا تــزال شابّاً. أعتقد أنّ عليك أن تمضي وقتاً طويلاً في التفكير في شأن ما تعتقد أنّ المملكــة العــربية السعودية يجب أن تكون عليه بعد عشرين سنة، وما يجب أن يكون علــيه الشرق الأوسط، وما يجب عمله لكي يصبح كذلك، فما من نظام يبقى ساكناً إلى الأبد"[14].

رأى كولن باول أن عودة بندر المحتملة إلى المملكة يمكن أن تنطوي على احتمال أن يــشغل دوراً شــبيهاً بدور مستشار الأمن القومي. فقد قال: "إنّ سبب خروجه بمثل هذ الفكرة أنّ هذا الدور لا يتطلّب إدارة جهاز بيروقراطي أو منظّمة ما. فهو يفضّل عملاً بلا حقيبة. وعمل مستشار الأمن الوطني عمل ينطوي على شيء من التحرّك بخفّة"[15].

رأى الــسفير ريتشارد مورفي أنّه على الرغم من أنّ بندر اضطلع بمسؤولية أوسع بكثير كسفير جوّال للملك فهد، ولاحقاً لولي العهد الأمير عبد الله، فقد وافق على أنّه لا يستطيع مواصلة أداء الدور الحالي كسفير إلى أجل غير محدّد. لكنّه عزّز ملاحظات باول عن تولّي بندر منصب مستشار للأمن الوطني. "في الثمانينيات، كان بندر صريحاً جداً بشأن إنشاء مجلس للأمن القومي، وأنّه سيكون مستشار الأمن الوطني في الرياض. بل كان لديه رسم لطاولة مجلس الأمن القومي وللكراسي، لذا فقد فكّر في هذا الأمر. لكــن ذلــك لم يحــدث. وقد قلت لبعض أعضاء العائلة المالكة، *إنّني لا أفهم كيف تعملــون، كيف تنفّذ القرارات التي يتخذها الملك أو ولي العهد، من الذي يتابعها؟ ما الهيكلية الموجودة هناك؟ وعلى حدّ علمي، على الرغم من وجود مجالس اقتصادية عليا، ومجلــس أعلــى هــنا ومجلس أعلى هناك، فإنّه لا يوجد شيء يعمل كهيئة تنسيقية، كشرطي على الهيكل الحكومي*. في إحدى المراحل، كان ذلك هو الحل، وكان يحاول طرحه وأعتقد أنّه وجد نفسه في ذلك الدور"[16]. وكانت كلمات مورفي بمثابة توقع.

ازدادت قناعتي أنّ بندر يحاول التقاعد كسفير، مع ذلك أُقنعت أنّ ذلك سيكون فتــرة لاسترداد العافية فحسب. فثمة مؤشّرات قوية على أنّ عليه العودة في النهاية إلى المملكــة والاضــطلاع بدور جديد، على الرغم من رغبته في توازن أفضل بين العمل

والحـــياة. فإحساسه بالواجب قوي جداً. وبعد مراجعة تعليقات مراقبين آخرين لبندر، توصّلت إلى قناعة أنّ ملاحظة ريتشارد مورفي عن تولّي الأمير نوعاً من مهمّة مستشار الأمـــن الوطني قد تكون أقرب إلى الهدف. وذلك ينسجم مع اقتراح باول منصباً من دون حقيبة، ربما يشمل دوره كمبعوث لولي العهد.

في الإجابـــة عن سؤالي "إلى أين تراه ذاهباً؟". قال الأمير فيصل بن تركي، صهر الأمـــير بـــندر: "بصراحة، إنّه أحد أبرز السياسيين في العالم. وأعتقد أنّ بندر سيكون مفيداً أكثر في المملكة في هذه المرحلة بسبب ما طرأ عليها من تحديث". وحرص فيصل علـــى التشديد على قدرة الأمير على قيادة عملية التغيير في المملكة العربية السعودية. وتابـــع بقـــناعة: "يجب أن يكون هناك بسبب نفوذه. ويجب أن يكون هناك بسبب العلاقـــة الاســـتراتيجية مـــع الولايات المتحدة؛ وليس من الضروري له أن يكون هنا [واشـــنطن]". ورأى أنّ عـــودة بندر إلى المملكة لن تضرّ بعلاقاته في واشنطن، لكنّه خلـــص إلى أنّ انتقاله إلى المملكة العربية السعودية ضروري. فهو يعتبر أنّ لدى بندر القـــدرة على مساعدة المملكة الآن، وفي إمكانه تقديم مساهمة فريدة إلى تطوّر بلده في المـــستقبل. وفي ملاحظـــة تنبيهية، أشار فيصل إلى أنّ بندر يعي في دعوته إلى تحديث المملكـــة الدروس المستقاة من سقوط سلطة الشاه في إيران، أو "اتباع خطى الأتراك". وشدّد فيصل مجدداً على وجوب أن يكون بندر هناك، "كمستشار خاص لولي العهد، أو كمستـــشار للأمن الوطني لدى ولي العهد، أو في منصب يستطيع من خلاله تقديم المشورة".

النقطة الأساسية في مقولة الأمير فيصل هي أن بندر بتوليه دور مستشار، يمكنه أن يكـــون في واشـــنطن ذات يوم للاجتماع بالرئيس وتقديم رسالة، لكن يمكنه العودة بـــسرعة إلى المملكـــة للعمل مع ولي العهد، وليكون على اتصال مباشر معه في معظم الأوقـــات. وخـــتم فيصل: "إنّهم يعلمون أنّ الأمير بندر مهمّ جداً بالنسبة إليهم، لا بـــسبب أميركـــا وما إلى هنالك، بل بسبب ما فعله لبلده، وخبرته ومعرفته. وسيقدّم إليهم النصح من أجل خير المملكة العربية السعودية".

هـــذه الأمـــثلة عن المشاكل الكامنة التي تواجهها المملكة قدّمت إلى الأمام تقييم الأمـــير فيـــصل الوجيز بشأن الحاجة إلى بندر للمساعدة عندما قال: "إنها بحاجة إلى تحـــديث"[17]. وأقـــرّ طارق الشواف على نحو مماثل أنّ الأمير وصل إلى نقطة تحوّل في

حـــياته. "أعتقد أنّ انتخاب بوش شكّل نهاية جميلة ورائعة لجانب الولايات المتحدة في حـــياته، لكنّ التحدي الكبير القادم ربما يكون الأكبر في حياته، لأنّهم لن يسمحوا له بالوصول إلى حيث يحلم".

وتابـــع الـــشواف: "عندما يرجع إلى المملكة الآن، لن تصبح السياسة الخارجية الأميركـــية هـــي التحدي، بل التحدي هو تفسير ما يجب أن نفعله في بلدنا. وهو لا يـــتعلّق فقط بالحديث عن البلد، حتى إذا تناولناه من وجهة نظر أنانية جداً، إنّه يتعلّق بالعائلة المالكة ومكانتها، ثم بالبلد". وتابع الشوّاف شرحه فيما أنا كلي آذان صاغية: "لا يمكنـــنا المتابعة على هذه الحال، هناك مشاكل ويجب أن يحدث، وسيحدث، تغيير جذري"[18].

ردّد كـــولن باول كلام الشواف قائلاً: "المملكة تحتاج إلى تغيير، وقد تحدّثت مع بندر عن ذلك كثيراً".

لم يكـــن لإعـــادة انتخاب جورج دبليو بوش في نوفمبر 2004، واستمرار إدارة الحـــزب الجمهوري تأثير كبير في توقيت مغادرة بندر واشنطن. لكن المؤشّرات على فتـــرة من التغيّر الدراماتيكي في حياة بندر ازدادت قوة. وصار هناك توقّع حقيقي أنّ اتخاذ قرار كبير قد يكون وشيكاً.

في أوائـــل ديمسبر 2004، ظهر دليل آخر على نية بندر في أثناء حوار في منـــزله في غليمبتون. قال: "هذه هي المشكلة الآن في العمل مع زعماء العالم. لم يعودوا كباراً أو نابـــضين بالحـــياة كمـــا كانـــوا من قبل. الأمر مضجر، إنّهم يفكّرون في الأشياء التكتيكـــية اليومية، وغابت الرؤية الكبيرة". وتابع بألم: "كان القادة قادة حقيقيين في تلك الأيام".

عـــندما انـــتقل بـــندر في تأمّلاته إلى التركيز على الركود الشخصي المؤلم قال: "عـــندما تصبح هناك، وتفعل هذا وتقول ذاك - أسوأ ما يمكن أن يحدث لأحد في أي عمـــل أو مهنة أن يتوقّف عن الشعور بالإثارة أو الإعجاب أو المفاجأة - يحين وقت الانتقال إلى عمل شيء آخر. وإذا كنت لا تزال تشعر بالإثارة والمفاجأة، فلا بأس في الاستمرار.

عـــندما زار ولي العهـــد الأمير عبد الله كروفورد في أبريل 2005، تزايد وضوح العلامات على أنّ بندر يسعى للهروب من متطلّبات منصبه. وعندما تحدّثت مع بعض

العاملين لدى الأمير في منزله في مكلين، أسرّوا أنّ الأغراض الشخصية يجري توضيبها، وأبدوا قلقهم من أنّ الأمير قد يغادر. وعندما التقى مايكل بتروزيللو من شركة كورفيس كوميونيكيشن بالأمير بندر في مكلين، ذكر: "عندما رأيت أنّ كل صور عائلته واللوحات قد نزعت، قلت له، *أرجو يا صاحب السموّ أن تكون في صدد تغيير الديكور!*".

بعد ذلك بوقت قصير، وصل بندر وعائلته إلى غليمبتون في إجازة صيفية في الظاهر. لكنّني اكتشفت أنّ ولديه الصغيرين التحقا بمدارس محلية في منطقة غليمبتون. مع ذلك لم يظهر أي إعلان رسمي في المملكة العربية السعودية يؤكّد تقاعده. وأسرّ بندر إلى أصدقائه أنّه عقد سلسلة من الاجتماعات مع ولي العهد، وتلا النقاش تبادل التحيات والحديث عن العائلة والأصدقاء والعموميات، قبل أن يدخل في صلب الموضوع. ظنّ ولي العهد ومستشاروه أنّ بندر يحاول المناورة للحصول على دور كبير في الحكومة بدلاً من الاستقالة والتقاعد.

صدر إعلان رسمي عن وزارة الخارجية في 20 أبريل 2005 يؤكّد أنّ خادم الحرمين قبل طلب بندر إعفائه من واجباته لأسباب خاصة. وأبرز ذلك البيان الرسمي أيضاً خدمة الأمير المميزة التي دامت أكثر من خمس وعشرين سنة، وأظهر فيها كفاءة استثنائية وقدّم خدمات جلّى إلى الملك وبلده[20]. وأكّد أيضاً أنّ خليفة بندر سيكون الأمير تركي بن فيصل، شقيق زوجته، الذي كان سفير المملكة إلى لندن في السنوات الثلاث الماضية. وقبل أن يتولى منصب السفير إلى لندن، ترأس الأمير تركي المخابرات السعودية مدة عشرين عاماً. وفي تعليق على الأسلوب الشخصي لكل منهما، أفيد بشكل ملائم أنّه "إذا كان بندر هو جيمس بوند السعودي، فإنّ تركي هو جورج سمايلي المملكة [بشهرة جون لو كير]"[21].

ويذكر بعض أوثق أصدقاء بندر أنّه عندما كان يتناول العشاء مع الأمير تركي ابن ناصر، في أثناء التفاوض مع ولي العهد، ساد المرح عندما لاحظ تركي ضاحكاً من استقالة بندر: "يجب أن تدخل كتاب غينس للأرقام القياسية. لم يستقل أحد في المملكة العربية السعودية من قبل. فإما أن يعاد تعيينهم وإما أن يموتوا في منصبهم وإما أن يفصلوا!". لا شك في أنّ عدم تصديق الدوافع من وراء استقالة بندر لم يكن بيّناً داخل المملكة فحسب، بل حفز أيضاً الكثير من التخمين في وسائل الإعلام.

ظهر ردّ الفعل على الأخبار في واشنطن على الفور. فقد أصدر البيت الأبيض بياناً وصف بندر أنّه "داعية لا يكلّ للروابط الوثيقة، والعلاقات الدافئة، والتفاهم المتبادل" بين البلدين، وأنّ الظرف والمرح يتممان حكمته[22]. في غضون ذلك خمّنت الصحافة بشأن الأسباب المحتملة لمغادرته. بعضها ألمح إلى ضعف الصحة والاكتئاب، في حين رأت صحف أخرى أنّها مناورة سياسية، وقيل إنّه أمل في أن يصبح وزير الاستخبارات، وهو منصب تولاه الأمير تركي بن فيصل مدة طويلة[23].

قبل أن يستقيل بندر، تحدّث غير مرّة عن ندمه لأنّه لم يتمكّن من تمضية وقت أطول مع عائلته. وعندما لوحظ أنّ أبناءه يتفهّمون تماماً المطالب التي يتحمّل أعباءها، قال بندر: "ذلك يزيد الأمر سوءاً ويجعله أشدّ إيلاماً، إنّه الولاء. لا أريد أن أمنحهم وقتي عندما أصبح في الثمانين من العمر، حيث يضطرون إلى حملي من مكان إلى آخر. أريد أن أمنحهم بعض الوقت الأساسي عندما أكون موجوداً لأجلهم مثلما كانوا موجودين لأجلي طوال كل تلك السنوات".

على الرغم من توقه إلى فترة من الراحة من الميدان السياسي لتمضية مزيد من الوقت مع عائلته، فقد بدا أنّه من الصعب التصديق أن يكون مثل هذا الهدف قابلاً للتحقيق، بينما عمل العائلة هو السياسة، ووالده هو ولي العهد. فالأدلّة على الافتراض أنّ بندر سيعود في نهاية المطاف إلى خدمة بلده، حتى إذا لم يعترف بذلك بنفسه، تنبع من تعليقاته إلى حدّ ما. فقد قال: "من دون تبجّح، هناك أشياء لا يستطيع أحد في هذا البلد القيام بها سواي. وهنا تكمن الخطورة؛ فصنّاع القرار يعرفون الوتر الحساس لدي. وهؤلاء الأشخاص يعرفون أنّه إذا كانت هناك حاجة ملحّة إلي، لأداء عمل شديد الأهمية للمملكة العربية السعودية، فسيتغلّب عندئذ إحساسي بالواجب. وسأكون هناك في قرارة نفسي، مهما حاولت أن أنكر ذلك". لذا حتى بعد تخلّي بندر عن دوره كسفير إلى الولايات المتحدة، يمكن العودة إليه بين الحين والآخر لأداء مهمّات ضرورية للمملكة العربية السعودية. واعترف: "أعرف أنّني لا أستطيع أن أقول لا، وعلى الرغم من أنّني أستطيع تبريرها فإنّني لن أفعل ذلك"[24].

أقرّ الشواف أنّ بندر يحنّ إلى السيطرة على مصيره، والتقاعد مثل مانديلا، فقد اعترف أنّه "لا يستطيع، فالمملكة العربية السعودية ليست جنوب إفريقيا. كما أنّ لديه مشكلة كبرى؛ فهو لا يستطيع أن يقول لا للأمير عبد الله أو للأمير سلطان"[25].

لم يكد يمضي شهران على الإعلان الرسمي عن استقالته حتى عيّن بندر أميناً عاماً لمجلس الأمن الوطني، وهو منصب يدعوه إلى لعب دور كبير في مستقبل المملكة العربية السعودية.

غالباً ما حاولت الصحافة الغربية أن تنسب إلى بندر خصائص الشخصيات التاريخية في تحليل شخصيته، متتبّعة أوجه الشبه التي تراها قائمة بين الأمير وشخصيات مثل ونستون تشرشل، وتاليران، وغاتسبي، وميكيافيلي، وتوماس إدوارد لورنس، وإلى حدّ أقل رونالد ريغن ونلسون مانديلا. ثمة شيء من الحقيقة في كل من هذه المزاعم، مع ذلك فإنها جميعاً أقنعة مناسبة في نهاية المطاف. لكنّها ليست انعكاسات دقيقة لشخصيّته الحقيقية.

إنّ العوامل التي تجعل بندر ما هو عليه اليوم هي المفاتيح لفهم اللغز. وبالعودة إلى الوراء، توصّلت إلى الاستنتاج أنّ انعدام الأمن الذي تطوّر لدى الأمير في صغره، دفعه لأن ينشد إنجاز أكثر مما هو مطلوب. كما أنّ تعدّد النساء اللواتي كان لهنّ تأثير في نشأته ساعد على تشكيل شخصيّته، ومنحه منظوراً مميّزاً. فقد طوّرت هذه التأثيرات النسائية في الأمير عقلية مميّزة، ومنحته شعوراً حدسياً صقل موهبته الرائعة والقاطعة في تقييم الأشخاص والمشاكل.

إنّ معلوماتي الشخصية عن بندر في أثناء الوقت الذي أمضيناه معاً في كلية سلاح الجوّ الملكي في كرانول في سنّ الشباب، إلى جانب تعلّق الأمير العاطفي الصريح بتلك الفترة التكوينية من حياته، والولاء الشديد للأصدقاء العديدين الذين اكتسبهم في أثناء التدريب العسكري، تقنعني أنّ تشكيل رجل الدولة البارع الذي هو عليه اليوم يدين بالكثير إلى تلك التجربة الغنية. فقد غُرست القيم والمعايير والانضباط في تلميذ الضابط الذي كان عازماً على إثبات نفسه بمفرده.

مع ذلك فإنّني مقتنع بأنّ سرّ كشف لغز بندر، على الرغم من أنّ شخصيّته ميالة إلى الغرب، يكمن في تراثه الوطني.

تشكّل المملكة العربية السعودية تناقضاً استثنائياً في العالم الحديث، وتجسّد شخصية بندر الملغزة. فكلاهما منجذبان إلى التحديث الغربي والتقاليد الدينية الشرقية. ومع ذلك فإنّ هذا الانقسام يجعل الثقافة البدوية السعودية دائمة التغيّر، وتمتلك انسيابية رائعة. وبدلاً من أن تكون هذه الانسيابية تناقضاً مقيتاً، يمكن القول

إنّهـا نعمة مباركة لمن يعيش في منطقة هي موطن الديانات السماوية الثلاث، والعديد من الأعراق والمعتقدات السياسية والمصالح الاقتصادية.

إنّ بندر دبلوماسي بدوي بالمعنى الحقيقي، دائم التنقّل في كل أنحاء العالم، وعائم بـين التقالـيد التي ينتمي إليها والثقافة الغربية التي يعمل فيها. وعند الحكم عليه من المـنظورين الغربـي والشرقي، فإنّه يقع بشكل خادع في منطقة فاصلة بين الثقافتين. ومـع ذلك هنا تكمن مواهبه البدوية الحقيقية، وإيمانه الصادق، والعائلة المحبّة، ودائرة الأصدقاء التي تشكّل واحة السفر الخاصة به.

قدّم الأمير بنفسه نظرة شخصية ثاقبة إلى قدرة بندر على الارتفاع فوق الانقسام الـثقافي العربـي/الغربـي، عندما لاحظ في إشارة بارعة على قدرته على تجاوز الثقافات، "هذا هو الفرق. أعتقد أنّ قلّة قليلة من الأشخاص تستطيع الانتقال من ذلك الوضع إلى هذا وتدخل كليهما وتخرج منهما بارتياح".

وقال بندر: "أشعر بارتياح وأنا أضع ربطة العنق البيضاء وأرتدي البذلة بقدر مـا أشعر بالارتياح وأنا أرتدي الزي السعودي". لكنّه أضاف بسرعة: "إنّه ليس بالأمـر السهل. لا أعرف كيف، لكنّني حقّقت ذلك وأشعر بالارتياح له". وتابع معـتمداً نظرة فلسفية: "ما الذي يتطلّبة ذلك، المجموع الكلي لحياتي؟ ليس هناك شـيء واحـد أحدث ذلك، بل المجموع الكلي. وأنا أؤمن حقاً، كما كان ينقل كنيدي، *بعض الاشخاص يرون الأشياء كما هي ويسألون لماذا، وأنا أتخيّل الأشياء وأسأل لَم لا؟* ".

علـى الـرغم مـن قدرة بندر على الانسلال بين الشرق والغرب بسهولة غير مقـصودة، فإنّـه لا يزال عليه المحافظة على الاتصال بالواقع. ويوضح وجود أصدقائه كيف يحافظ الأمير على الاتصال بالعالم الحقيقي. وعن هؤلاء الأصدقاء يقول: "أعتقد أنّه كلما قلّ مثل هؤلاء الأشخاص المحيطين بمن يمتلك السلطة، ازداد ميله إلى ارتكاب الأخطـاء. فأنت تحتاج إلى من ينـزلك إلى أرض الواقع ويقول، *هل تعلم؟ كان ذلك الأداء عظيماً لكنّك أغفلت هذا الأمر، وأخطأت في ذاك*. ستفاجأ كم يساهم ذلك في نجـاح المرء لأنّ الناس سيعجبون بأدائك، وبمقدار العملية والواقعية اللتين تتميّز بهما أو كيفية تعاملك مع الوضع"[26].

وكما قال فرِد داتون: "إنّه لا يدفع لي لأقول نعم"[27].

كنت شاهداً على الأهمية التي يوليها بندر لأصدقائه لا سيما زملاؤه القدامى منذ أيام كرانول، وذلك في أثناء لمّ شمل أعدّ له بندر في مزرعته في أسبن. فقد فوجئ الستة عشر شخصاً الذين حضروا الاجتماع بمقدار دفء الأمير. فعلى امتداد عطلة نهاية الأسبوع، أعدّ بندر العديد من الأنشطة وأظهر كرم ضيافة رائعاً. وفي نهاية تلك الرحلة احترنا كيف يمكننا أن نظهر له تقديرنا فاشتركنا معاً في شراء قطعة أصيلة من الفنّ الهندي الأهلي - قناع هندي من صنع أحد أحفاد الزعيم سيتنغ بُل - وقدّمناها إلى بندر في الليلة الأخيرة.

تأثّر بندر كثيراً بهذه الالتفاتة، فعلق ردّه في ذهني عندما قال: "لم يكن ذلك ضرورياً حقاً، ليتكم تعرفون مقدار ما تعنيه لي...". هنا تلاشى صوته تأثّراً، وفي تلك اللحظة، ساد إحساس ملموس بالرضى. لقد شعر بندر باسترخاء تامّ وهو محاط بأصدقائه القدامى، ومتحرر من الضغوط اليومية التي كان يواجهها في ذلك الوقت. فهنا يوجد أصدقاء يحبّونه ويعرفونه لما كان عليه، لا لموقعه السياسي.

عند التحدّث في لمّ الشمل عن الإحساس العميق، والعاطفة التي يكنّها لزملائه في كرانوِل، بدا بعض المرح في صوت بندر وهو يتساءل كيف يمكنه أن يشعر بالارتياح مع زملائه في كرانوِل بعد كل تلك السنين، ومع ذلك يتعامل بسهولة مع عالم الدبلوماسية المليء بالغرور. ففي بيئة يُعَامل فيها الأمير كنظير، يحظى بقليل من البروتوكول الواجب بسبب مكانته ويخاطَب دائماً بلقب بن، وهو اللقب الذي مُنح له في كرانوِل. وفي العالم "الحقيقي" يُعَامل باحترام جمّ وفقاً للبروتوكول، ويمتلك سلطة عظيمة. وفي تحليل لنفسه قال بندر: "يجب أن يكون هناك شيء صلب داخلك وأن تكون مرتاحاً مع نفسك. وإذا لم تكن تشعر بالراحة في داخلك فلا يمكنك إدخال التغييرات؛ الانتقال السريع المطلوب في دوري الحالي".

وللتعبير عن هذه النقطة بمزيد من الوضوح، لجأ بندر إلى رواية إحدى الطرف. "هناك شخص يدعى جورج شولتز. كان مسؤولاً عن المكتب العام في عهد نيكسون، وهو منصب غير حكومي. وكان أستاذاً للاقتصاد في شيكاغو، وفي نهاية عهد نيكسون، أصبح وزيراً للعمل".

تدفّقت الآن الكلمات بسرعة عندما تابع بندر بدأب.



بندر يستضيف لم شمل كرانولِ، في منزله في أسبن

"خـــسر فورد الانتخابات وعاد شولتز إلى القطاع الخاص. وانتهى به الأمر إلى رئاســـة شركة بكتل، وهي شركة ضخمة. عند التعامل مع المملكة العربية السعودية، كان يتعامل مع الحكومة ومع أرامكو، ونسج صداقة عظيمة مع السيّد سليمان العليان(*). وقـــد بدأ العليان كسائق شاحنة في أرامكو، لكنّه كان ذكياً وأصبح غنياً جداً. كان شولتز والعليان يقضيان الإجازة معاً ويصطحبان زوجتيهما. وعندما كان شولتز يقصد المملكة للعمل، ينـــزل عند العليان، وعندما كان العليان يتوجّه إلى سان فرانسيسكو، يقـــيم عـــند شـــولتز. أعني أن الزوجتين كانتا كالأختين وكانا [أي العليان وشولتز]

(*) توفي سليمان صالح العليان في 4 يوليو 2002 في الولايات المتحدة. على الرغم من أنّه أمضى أكثر من خمس وخمسين سنة في بناء شركات في المملكة، فإنّه عمل كجسر بين الولايات المتحدة والعالم العربي، لا سيما عندما تتعرض العلاقات الأميركية السعودية للتحدي والاختبار. وقيل إنّ العلـــيان كان مواطناً سعودياً فخوراً، لكنه ارتبط في حياته بصداقته لأميركا. وكان ملتزماً بدوام العلاقـــة الأميـــركية السعودية بقدر ما كان ملتزماً بالمحافظة على روابطه الشخصية والتجارية وعلاقاته مع شركائه وأصدقائه الأميركيين. لم يكن دبلوماسياً محترفاً لكنه كان رجل دولة، رجلاً يدرك العلاقات التي تعود بالخير العميم ويقدّرها ويعمل على تقويتها.

كالأخــوين. ولا يمكن أن تكون العلاقة أوثق من ذلك. في سنة 1982، أصبح شولتز وزيــراً للخارجــية. كان العليان في نيويورك عندما أعلن عن ذلك، لذا التقط الهاتف واتصل بصديقه".

"مرحباً يا جورج، كيف حالك؟". قال العليان.

"مرحباً سيّد عليان". وشدّد الأمير لم يقل سليمان بل سيد عليان.

ذهــل العليان باللهجة الرسمية التي اتخذها ردّ شولتز، فقال له: "تهانينا. إذا كان لدينا الوقت فسأعرّج على واشنطن وأقدّم إليك وإلى بوني تهنئتي".

"في الحقــيقة كنت سأتصل بك لكي تأتي لرؤيتي". أجاب شولتز. "لمَ لا تأتي إلى المنــزل بعد ظهر غد؟".

قال العليان: "حسناً، أراك لاحقاً".

تــوجّه العلــيان إلى منـــزل شولتز حيث التقت الزوجتان كالأختين، فتعانقتا وقــبّلت إحداهما الأخرى. لكنّ شولتز كان جافياً وبعيداً. وظنّ العليان أنّه ربما كان منحــرف المزاج. وجلس الجميع لتناول الشاي والبسكويت، لكنّ شولتز لم يظهر أي دفء.

وفــيما كان العليان وزوجته يتهيّئان للرحيل، خاطب شولتز العليان باسمه الأول سليمان. وكانت المرّة الوحيدة التي يناديه باسمه الأول طوال تلك الليلة.

قال شولتز: "إنّنا أصدقاء منذ مدة طويلة. لكنّني أقدّر كثيراً، كبادرة صداقة، ألا تتصل بــي في البيت أو في المكتب، ما دمت وزيراً للخارجية".

ران صــمت محرج. وقال العليان مذهولاً: "ما هذا الهراء الذي تتحدّث عنه؟". عندئذ نهضت السيدة شولتز وغادرت الغرفة.

وسأل العليان: "هل تمزح يا جورج؟".

فأجاب شولتز: "لا، لا أمزح. ومن الآن فصاعداً أنا وزير الخارجية لا جورج".

فقال العليان بعد صمت طويل: "أتعرف يا جورج؟ لا تشرّفني مصافحتك. وأنا خارج. في إمكانك أن تذهب إلى الجحيم".

وبعــد أن غـــادر على الفور، اتصل العليان ببندر من سيارته؛ وكان يفترض أن يتوجّه إلى المطار لكنّه غيّر طريقه وسأل إذا كان في وسعه المجيء للاجتماع به بدلاً من ذلك. وأوضح بندر: "لذا فإنّني أخبرك بشيء علمته من أحد المشاركين مباشرة".

سأل العليان بندر: "ماذا تستنتج من ذلك؟".

فقـال بـندر: "إنّها ليست إشارة طيبة. وإنّني سعيد لأنّك أخبرتني لنستعدّ لهذا الخسيس".

وفي نهايـة قصة شولتز قال بندر: "هذا هو الفارق بين البشر. سئل جورج بوش الأب عـندما كان رئيساً، *هل صحيح أنّ الأمير بندر يعتبر عضواً في حكومتك؟* فقال جورج بوش، *غير صحيح على الإطلاق، لكنّ الأمير بندر صديق عزيز من بلد صديق ولا أخجل من دعوته صديقي*. انتهى النقاش". وتابع بندر: "مع جورج بوش، نجم عن صـداقتنا ثمن سياسي كبير. كان يسعدني، وأنا أفهم السياسة، لو قال فقط، *إنّه ليس عـضواً في حكـومتي؛ ذلـك أمر خاطئ*. انتهى النقاش. لم يكن عليه أن يخطو تلك الخطـوة الإضـافية. فلماذا فعل ذلك؟ الإخلاص! إذا أظهرت الإخلاص، يمكنك أن تتوقّعه. لكن، لا تطلبه إذا كنت غير راغب في تقديمه. الإخلاص طريق باتجاهين. ولا يقتـصر وجـوده عـندما تكون الأمور على ما يرام. فما يعتدّ به وقوفك إلى جانب أحدهم عندما لا تسير الأمور على ما يرام".

يتسم الأمير بندر بذكاء حادّ، ودهاء ويتقن حبك الخطط. مع ذلك لديه إخلاص لعائلـته، وأصدقائه، وآل سعود، ودينه، وبلده. وقد استخدم مجموعة مواهبه - ظرفه، وشخصيته المحبّبة، وحضوره الطاغي، وثقته بنفسه، وشخصيّته القوية - في أثناء خدمته المملكة كسفيرها إلى واشنطن، يدفعه في ذلك إحساسه بانعدام الأمن ورغبته في خدمة الملـك. واكتسب بندر الحكمة عبر عقود من التركيز على دوره كدبلوماسي، ولعب على لوحة مفاتيح السلطة بشكل مثير للإعجاب سعياً وراء النجاح.

كما فصّلنا في الفصل الخامس، بعد أن أبلغ بندر وزير الخارجية جورج شولتز أنّه ذاهـب إلى الصين للمساعدة في وقف تدفّق الأسلحة على إيران سنة 1985، أشرف علـى "أجـرأ مغامرة تمويهية تقدم عليها السياسة الخارجية السعودية في ذلك العقد". وعـندما كـان في بيجنغ لإجراء محادثات في الظاهر بشأن الحدّ من الأسلحة وشراء الأسـلحة التي تريد الصين بيعها إلى إيران، انسلّ للتفاوض على شراء أكبر الصواريخ البالـستية وسيطة المدى في الشرق الأوسط. وقد زُعم ببلاغة: "هذا هو بندر الشرقي الـذي يـنفّذ دبلوماسية ملكه السرية ويأمل في ألا يمسك به الأميركيون. وهو الأمير نفـسه الذي أقنع البيت الأبيض في عهد ريغن بتشارك معلومات الأقمار الاصطناعية

الاستخبارية الحسّاسة مع العراق، وهي عملية بدأت في غرفة الجلوس في بيت بندر في أثناء الحرب الإيرانية العراقية، والأمير نفسه الذي أجبر على التوجّه إلى وزارة الخارجية في سنة 1986، والاعتذار عن نقل حكومته قنابل تزن ألفي باوند باعتبارها سهوة"[28].

كانت الحقيقة مختلفة جداً... لإقناع العراق بالقيام بمزيد من عمليات القصف في أثناء الحرب الإيرانية العراقية، فوّضت إدارة ريغن المملكة العربية السعودية سراً بنقل القنابل الأميركية إلى العراق وشجّعت السعوديين على تزويد صدّام بطائرات مقاتلة بريطانية أيضاً. وفي وقت لاحق من ذلك الشهر وفقاً لتقارير سرية، نقلت المملكة العربية السعودية ألفاً وخمسمئة قنبلة زنة ألفي باوند إلى العراق. وتبين أن نقل الأسلحة ينتهك قانون الرقابة على صادرات الأسلحة، وهو قانون فيدرالي يمنع البلد المتلقّي من نقل الذخائر أميركية المصدر إلى بلد ثالث من دون إذن خطي من الولايات المتحدة. وعندما تجري مثل أعمال النقل هذه، يتطلّب القانون نفسه أن يبلغ الرئيس الكونغرس على الفور. وبالاعتراف بالسهو، حمى الأمير في الواقع عملية للسي آي أيه، وبالتالي كسب مزيداً من الأصدقاء في واشنطن، ليس أقلّهم مدير السي آي أيه بيل كيسي[29].

من المهم الإشارة إلى التباين القائم بين تطبيق المعايير الأخلاقية على فرد مقابل تطبيق المعايير الأخلاقية على دولة أو أمة. وكما عبّر عن ذلك ألكسندر هاملتون: "إنّ القاعدة الأخلاقية لا تطبّق بشكل دقيق على الدول مثلما تطبّق على الأفراد... فملايين الأشخاص الحاضرين والأجيال المستقبلية معنيون بالتدابير الحالية لحكومة ما، في حين أن نتائج العمل الشخصي الذي يؤدّيه الفرد تنتهي مع نهاية حياته"[30]. وقد تبيّن أن بندر يعتقد بهذا النمط من التفكير عندما قال: "إنّني أميل إلى ألكسندر هاملتون أكثر من ميلي إلى الديمقراطي الجفرسوني"[31].

شرع ماكيافيلي بالكتاب الكلاسيكي لهذا النوع من الفلسفة السياسية عندما كتب **الأمير**. وقد رأى أنّه "عندما تتوقّف سلامة البلد على اتخاذ قرار، يجب ألا يُسمح بغلبة أي اعتبارات تتعلّق بالعدل أو الظلم، أو الإنسانية أو القسوة، أو المجد أو العار"[32]. وفي كتاب شبح ولسون (Wilson Ghost)، يرى روبرت مكنمارا وجيمس بلايت أنّ ميكيافيلي لن يشعر بالتوجّس بقدر ما شعر به ترومان حيال استخدام القنبلة الذرية، وهي مقولة تستند إلى أنّ حجم الأرواح البشرية التي أنقذت أكبر من تلك التي سقطت نتيجة هذا العمل التدميري[33].

اتفــق أنّــي عثرت عَرَضَاً على بحث قدّمه بندر لنيل شهادة الماجستير في جامعة جونــــز هوبكنــــز في بالتــيمور، مــريلند. وفي هذه الرسالة، يعتنق بندر نظرية ميكيافيلـــي، ويــتوقّف بـــشكل خاص عند وجهة النظر الأخلاقية، أو الافتقار إليها، ويبدي تقبّله لفكرة أنّ الأعمال التي تنفّذ للصالح العامّ لا يمكن أن تخضع للمساءلة وفقاً للمقياس الأخلاقي. وليس هناك دليل أوضح على ذلك مما اختار الأمير الشاب أن يبدأ به رسالته:

> "عليه (الأمير) ألا يفكّر قط في سوء السمعة الذي سيلحق به جرّاء هذه الآثام التي من دونها يمكن أن ينقذ الدولة بصعوبة. فإذا فكّر المرء في كل ما هو حسن، فــسيجد أنّ اتـــباع شيء يبدو صالحاً يجرّ عليه الخراب، واتباع شيء آخر، يبدو آثماً، يجلب له الأمن والرخاء".
>
> ميكيافيلي[34].

يمكن أن يظهر تأييد بندر أسلوب ميكيافيلي في الدبلوماسية، في عمله لأكثر من عقـــدين من الزمن، كرجل دولة يهتم لخير البشر. فتقبّل أنّ من واجبات رجل الدولة الأساسية التي لا تتزعزع، حماية منعة دولته وأمنها وسلطتها، أقرّ بندر أنّ القوة اللازمة للاضطلاع بهذه المهمة توجد في القدرة على اتخاذ القرار البراغماتي، بصرف النظر عن صعوبة الظروف، وتنفيذه.

إنّ إيمـــان بندر أنّ القيام بما هو ضروري لتحقيق النتيجة المنشودة للصالح العامّ، ينـــبع من تفهّم ما الذي يحرّك القائمين بالسلطة. وفي إشارة إلى الادعاءات والمجاملات في السياسة الدولية كتب بندر: "إنّ مثل هذه الافتراضات بتجاوز الأخلاق ما هي إلا واجهات تحجب الوصفات الميكيافيلية للبقاء"[35].

مـــع ذلـــك فقـــد كتب بندر المتفائل أولاً والبراغماتي ثانياً: "إنّ الحجم المخيف للـــسلطة الحديثة نفسها، ربما يفرض القانون الأخلاقي الذي يتجاوز الأهداف الضيّقة لأي دولة. وقد نقلت الظروف الموضوعية لأي حياة دولية حديثة هذا الموضوع بعيداً جداً عن البروج العاجية للمجتمع الأكاديمي"[36].

طرحت سؤالاً في بداية هذا الكتاب: "هل الأمير بندر رجل سلام؟ رجل مبادئ، وضـــمير، وصـــواب أخلاقي؟". أعتقد أنّه رجل سلام حقاً. غير أنّني سألت أيضاً هل يجـــب تصويره بمثابة "أمير ميكيافيلي، أمير يفتقر إلى الأخلاق السياسية، تحكمه النفعية

فقــط، رجــل يمكن القول إنّه عجّل بحدوث حرب الخليج الأولى وسهّل جهود بوش الاستباقية وغزو العراق؟".

من المحيّر أنّ الجواب يجب أن يكون نعم. وربما يمكن إيضاح ذلك على أفضل نحو في تسلسل الأحداث التي حرّكها قبيل الانتخابات الرئاسية في نوفمبر 2004.

كــنت ضــيفاً في عــشاء غــير رسمي دعا إليه بندر في 28 أغسطس 2004 في غليمبــتون. وكان بندر وضيوفه يشاهدون حصول كيلي هولمز على ميداليتها الأولمبية الثانــية في ســباق الألف وخمسمئة متر على شاشة تلفزة ضخمة. تضم غرفة وسائل الإعــلام لــدى الأمير شاشة رئيسية على كل من جانبيها شاشتان صغيرتان. وكانت الشاشات الصغيرة تعرض قنوات إخبارية أميركية وعربية، وفجأة لفت انتباه بندر خبر علــى محطة سي أن أن الإخبارية. وكشف الخبر أنّ الأف بــي آي يحقّق إذا ما كان لاري فــرانكلين، وهــو موظّف متوسّط في البنتاغون، قد زوّد إسرائيل، عبر أيباك، بتوجيه رئاسي بشأن السياسة الأميركية تجاه إيران[37].

كــشف تفتــيش مكتب فرانكلين ومنــزله من قبل عملاء الأف بــي آي عن وجــود ثلاث وثمانين وثيقة تحمل تصنيف سري جداً، وسري وتمتدّ على ثلاثة عقود. أُوقــف فرانكلين على الفور ثم خضع لضغوط للعمل كمخبر "للأف بــي آي" على أيــباك، دعماً لتحقيق سابق. وفي النهاية اتُّهم وأُدين بإفشاء معلومات سرية جداً إلى موظفين في أيــباك، وحُكِم عليه بالسجن لمدة اثني عشر عاماً وسبعة أشهر.


لاري فرانكلين

وتبــيّن أنّ الأف بــــي آي يحقّــق في تــسريبات اســتخباراتية إلى إسرائيل مصدرها البنــتاغون مــنذ سنة 2001[38]. وسرعان ما اتــضح أنّ التحقــيق بأمــر فرانكلين، أيباك، إسرائيل لا يتعلّق بقضية تجسّس فحسب.

وفيما كان بندر يشاهد التغطية الإخبارية لقــضية فــرانكلين، ازداد انتعاشــه ونشاطه. وعــندما أنكر الناطق باسم السفارة الإسرائيلية

المـزاعم عن تورّط إسرائيل أنّها "عارية عن الصحة تماماً ومسيئة"، ضحك بندر وقال: "سيقولون ذلك، أليس كذلك؟".

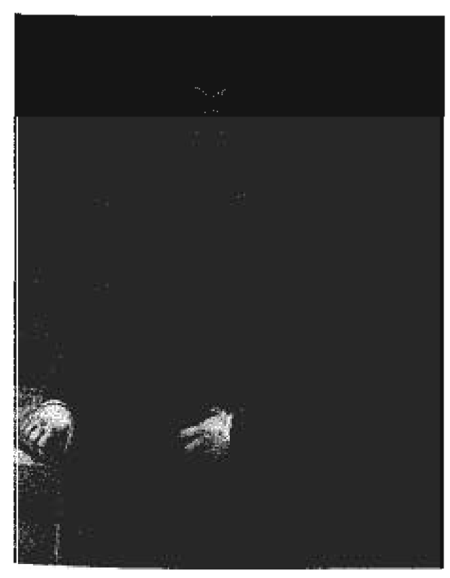
تابع تقرير سي أن أن: "وقد صدر بيان عن أيباك الليلة ينكر بشدّة أن يكون قد لعب أي دور في أي نوع من التجسّس. *إننا نأخذ مسؤوليتنا كمواطنين أميركيين على محمل الجدّ*. ولن نتغاضى ولو لثانية واحدة عن أي انتهاك للقانون الأميركي أو نتسامح معـه". وقد رفض بندر ذلك الردّ: "فلتكن كلماتك ناعمة وحلوة لأنّك لا تعرف متى ستضطر إلى ابتلاعها".

نظـراً إلى أنّ مؤتمـر الحزب الجمهوري كان بعد بضعة أيام، تابع المراسل: "بدا مسؤولو الاستخبارات منـزعجين لأنّ هذا الأمر تسرّب، كما أنّهم يشتبهون بدوافع سياسـية محتملة؛ ويعتقدون أنّ أحدهم ربما يحاول إحراج الإدارة عشية مؤتمر الحزب الجمهوري".

ارتـسمت ابتـسامة واسعة على وجه بندر. وبدا ذلك محيّراً بالنظر إلى الضرر المحتمل الذي يمكن أن يسبّبه هذا الخبر للرئيس بوش. وعندما سئل إذا كان قلقاً بشأن السقوط السياسي للرئيس، أجاب بندر أنّه يمكن أن يكون مفيداً في الواقع.

أوضـح بندر أنّ توقيت التسريب قد يكون مضرّاً بالديمقراطيين إذ قد تعتقد وسـائل الإعـلام أنّه خبر مسرّب من قبلهم، ومصمّم لصرف الأنظار عن مؤتمر الحـزب الجمهوري. لكن، بدا واضحاً أنّ بندر مسرور من احتمال إجراء تحقيق معقّـد يمكـن أن يعيق قدرة أيباك على العمل ويحدث المخاوف بشأن ارتباطاته بالحكومة الإسرائيلية.

كـان واضحاً أن دوغلاس فيث، المسؤول عن فـرانكلين، وبول وولفويتز، نائب وزير الدفاع، قد يتعرّضان للنقد بسبب أنشطة فرانكلين، سواء أكان لهمـا علاقـة بذلك أم لا. واحتمال إضعاف هذين الشخـصين، ومن المعروف أنّ كليهما من المحافظين الجدد المؤيدين لإسرائيل، سيعزّز مصالح بندر ويؤدّي إلى حـدوث تغييرات في الإدارة الجمهورية التالية، بافتراض إعادة انتخاب الرئيس بوش.



ميكيافيلي

فـــيما كان الضيوف يتناولون العشاء، سأل بندر بهدوء: "ترى من أين تسرّب ذلك الخـــبر؟". وبعـــد ذلـــك قدّم أحد الضيوف على العشاء، محرّر صحيفة "الحياة" وأسبوعية "الوسط" الصادرتين في لندن، وكلاهما ملك لوالده الأمير سلطان وأخيه الأمير خالد.

بـــدا واضحاً من تعليقات بندر أنّه كان يعرف بأمر التحقيقات التي يجريها الأف بـــي آي قبل وقت طويل من ظهور الخبر. هل كان بندر يلمّح إلى أنّه المصدر؟ وهل تعمّـــد بندر بذر قصة فرانكلين للإضرار بأيباك، وتعجيل حدوث خضّة في البنتاغون، وربما مساعدة الرئيس بوش في حملته الانتخابية؟ بدا الأمر كذلك. فقلت: "ربما كانت المقارنة التي عقدتها بينك وبين ميكيافيلي دقيقة في النهاية".

هزّ بندر كتفيه وقال: "إنّني لا أحسن تهجئة اسم ميكيافيلي"[39].

لكن إذا كان بندر مصدر التسريب، فلا بد من وجود سبب آخر خلفه، فهو لن يقدم على تعريض احتمالات فوز الرئيس بوش للضرر.

لكـــن بـــندر خـــبير في لعب الشطرنج. وشدّد الدكتور سعيد الكرمي على قوّة التحليل عند بندر بقوله: "لديه الصبر والقدرة على تقليب قضية في ذهنه، كأنّه يمارس لعبة شطرنج، محاولاً توقّع الخطوة التي يجب أن يخطوها بعد ثلاثين نقلة من الآن"[40].

عـــزّزت هـــذه الآراء الشكّ أنّ بندر قد يكون مهندس التسريب المتعلّق بتحقيق الأف بـــي آي مع فرانكلين. وقد أشار إلى أنّه قد يكون للتحقيق تأثير في توازن القوة داخـــل إدارة جـــورج دبليو بوش، وفي المتشدّدين داخل البنتاغون، وفي عملية السلام الفلـــسطينية، وفي نفوذ إسرائيل وأيباك في السياسة الخارجية الأميركية. وهي تغييرات يمكن أن تعمل لصالحه، وبالتالي لصالح المملكة العربية السعودية.

لقـــد كـــان بندر غاضباً من انقلاب سياسة الرئيس بوش الخارجية المفاجئة تجاه عملـــية السلام الإسرائيلية الفلسطينية. فقد نتج عن زيارة شارون إلى واشنطن صدور بيان قوي يدعم سياسة الانسحاب الأحادي، بما في ذلك الموافقة على "الجدار الأمني" المثير للخلاف، ورفض حقّ عودة الفلسطينيين إلى أراضيهم.

وفيما تكشّفت قصّة فرانكلين وأصبحت متداولة علناً، كذلك انكشف الصراع علـــى السلطة بين المحافظين الجدد في الإدارة الأميركية الموجودين في البنتاغون، وبين مجلـــس الأمن القومي والتقليديين في السي آي أيه ووزارة الخارجية[41]. فقد كان وزير الخارجية كولن باول ونائبه، ريتشارد أرميتاج، ينفران من المحافظين الجدد في البنتاغون

الـــذين تفوّقوا على باول المعتدل في حرب العراق، وزُعم أنّهم أمسكوا بزمام الأمور بنجاح في عملية السلام في الشرق الأوسط والسياسة الخارجية في أعقاب 9/11[42].

لا يمكـــن إنكار أنّ التحقيق وضع فرانكلين ورؤساءه من المحافظين الجدد وسط دوّامـــة مـــن الخلافـــات. ومـــن المعقول أن يكون بندر حريصاً على الإضرار بهؤلاء المسؤولين أو إزاحتهم.

فبافتـــراض انتصار الجمهوريين - وهو ما كان بندر ينتظره - يمكن توقّع إجراء تغـــييرات بُعيد ظهور نتيجة الانتخابات، وربما تمكّنت وزارة الخارجية البراغماتية من استعادة السيطرة السياسة الخارجية الأميركية على الشرق الأوسط، وهي نتيجة يصفّق لهـــا بـــندر. وغالباً ما عبّر بندر في مجالس خاصة عن الإحباط من أنّ عصبة المحافظين الجـــدد كانـــت تفسد دائماً جهود تحقيق تسوية عادلة للمشكلة الفلسطينية في إدارة جورج دبليو بوش الأولى.

أمـــا بالنـــسبة إلى أيـــباك، فمن المعروف عموماً في الكونغرس أنّ أيباك هي قوة الضغط الأبرز في الولايات المتحدة. وتسبق فعالية المجموعة أيَّ مجموعات عمل سياسية أخرى بسنوات ضوئية، وقد تكرّر نـــزاع بندر مع هذه المجموعة خلال تولّيه منصبه.

ســـارت الانـــتخابات لمـــصلحة بوش، كما أمل الأمير، ولم يتضرّر الرئيس من التـــسريب. غـــير أنّ الـــضرر الذي لحق بمصالح إسرائيل كان بيّناً. فقد دعت العصبة المناهضة للذم، وهي منظّمة يهودية بارزة مؤيّدة لإسرائيل، لتعيين مدعٍ خاص لتحرّي التـــسريبات الـــتي حدثت في التحقيق الذي يجريه الأف بـــي آي لأنّها تلوّث صورة إســـرائيل[43]. كمـــا أثّر التسريب مؤقّتاً في التعاون الاستخباراتي بين الولايات المتحدة وإســـرائيل. فقد عملت أجهزة الاستخبارات الإسرائيلية بشكل وثيق مع السي آي أيه وغيرهـــا مـــن هيئات الاستخبارات الأميركية منذ عقود، وقدّمت معلومات قيّمة عن الإرهاب الدولي. وكانت قضية بولارد سنة 1985 قد أدّت إلى انقطاع مؤقّت في ذلك الـــتعاون[44]؛ وفي أعقاب حادثة فرانكلين، أوردت بعض المصادر أنّ الولايات المتحدة بدأت مجدداً تحدّياً من تبادل المعلومات الاستخبارية مع إسرائيل[45].

شهد العاملون في إدارة بوش تغييرات مهمة في وزارة الدفاع، على الرغم من الضربة التي تلقّوها برحيل وزير الخارجية المعتدل كولن باول. ففي أعقاب تسرّب أخبار التحقيق الذي امتدّ لسنتين، خرج اثنان من أكبر المحافظين الجدد، غادر بول


ستيف روزن

وولفويتـــز لـــيرأس البنك الدولي، وتقاعد دوغلاس فيث[46].

وماذا عن ستيف روزن وكيث وايزمان من أيباك؟

في أثـــناء وضع هذا الكتاب، يواجه الاثنان محاكمة في ســبتمبر 2006، حـــيث تحاكمها وزارة العدل بموجب قانـــون التجسس في حقبة الحرب العالمية الأولى - وهو قانـــون نـــادر الاســـتعمال وغامض النص يحظر توزيع *معلـــومات دفاعية قومية* سرية[47]. كما أنّه بإبعاد روزن ووايزمان، لم تتمكّن أيباك من النأي بنفسها عنهما[48]. وقد أفيد أنّهما سيقولان إنّ نشاطهما التجسّسي المزعوم لـــيس عملـــية شـــرّيرة نفّـــذاها بشكل مستقلّ عن أيباك، لكنّها كانت معروفة من رؤسائهما وتحظى بموافقتهما[49]. وإذا نجح روزن ووايزمان في ربط أيباك بأنشطتهما، وإذا أُدينا، فسيفتح ذلك احتمالاً لا يلقى الترحاب في إجراء تحقيق فيدرالي أوسع بكثير في دور أيـــباك في مساعدة السلوك الإجرامي والتحريض عليه. ولا شكّ في أنّ ذلك يتجاوز كثيراً ما قد يكون بندر توقّعه عندما شرع في موضوع التسريب[50].

في محاولة ظاهرة لكي تنأى أيباك بنفسها عن أي أعمال تغضب الأف بـــي آي وإدارة بوش، أوردت وسائل الإعلام الإسرائيلية أنّ أيباك كبحت مسعى الضغط الذي يقـــوم لمـــصلحة إسرائيل[51]. كما أنّها استخدمت مسؤولين سابقين في وزارة الدفاع يعملون الآن لدى شركة محاماة في واشنطن، هاوري محدودة المسؤولية، تقدّم المشورة لمنظّمات الضغط وتراجع ممارساتها.

لا يمكـــن أن يكـــون تأثير التسريب أفضل مما هو عليه بالنسبة إلى بندر. فما بدأ كمحاكمـــة تجـــسّس علـــى نطاق ضيّق أوهن اللوبـــي القوي جداً المؤيّد لإسرائيل، والذي أثّر في اتجاه السياسة الأميركية في الشرق الأوسط منذ عقود.

يـــبدو أنّه كان لدى بندر جدول أعمال أوسع بكثير وأكثر طموحاً عندما رفع الغطـــاء عمـــا برز كأكبر عملية تجسّس إسرائيلية على الولايات المتحدة منذ توقيف بـــولارد في نوفمبر 1985. تذكّرت ما قالته الأميرة لولو عن بندر: "أعتقد أنّ ما ينساه الجميع هو أنّ والدي لا يفعل شيئاً عرَضاً، لا شيء"[52].

لقـد نجح بندر في الدفع قدماً بالعديد من القضايا في جدول أعماله؛ كتأمين فوز الجمهوريين لصالح آل بوش في الانتخابات الرئاسية الأميركية، والإضرار بموقف أيباك القوي، وخفض نفوذ المحافظين الجدد، وغرس بذور الشكّ وانعدام الثقة بين الولايات المتحدة وإسرائيل.

ربمـا يكون استخدام بندر الصحافة في الماضي الإثبات الأخير على مهندس تـسريب فرانكلين. فقد سرّب بندر سنة 1991 إلى محرّر صحيفة "صنداي تايمز"، أنـدرو نيل، رسالة الرئيس جورج إيتش دبليو بوش إلى صدام حسين لضمان عدم انـسحاب صدام حسين من الكويت، وبالتالي ذهاب أميركا إلى الحرب. وقد نجح في ذلك أيضاً.

وعلى نحو مماثل، قرّر تسريب المعلومات إلى محطة سي بـي أس عبر صحيفة عـربية في لندن يملكها والده وأخوه، وقد التقيت برئيس تحريرها على العشاء في غليمبـتون. وهـو في الواقع عمل كاد الأمير يعترف به في غليمبتون عندما قال عرَضـاً: "مـن المفيد في بعض الأحيان أن يكون لديك مصدر صديق في وسائل الإعلام".

اسـتناداً إلى الأدلـة التي اكتشفت منذ ملاحظاته الأولية بشأن قضية فرانكلين، واعترافه اللاحق، فلا مجال للشكّ في أنّ بندر هو مصدر تسريب قصة فرانكلين.

بعد إيضاح مزايا بندر الميكيافيلية برواية معاصرة، فإنّني أعتقد مع ذلك أنّ في وسـعنا أن نفصل بندر الاستقامة والنـزاهة عن أمير دبلوماسية المكر والظلّ غير الأخلاقـي، والأخير هو القناع الذي يضطر إلى اعتماده لتنفيذ دوره كدبلوماسي ومـبعوث لـصالح المملكـة العربية السعودية. والأول يعترف بجوهر الرجل ذي الـضمير، والمـبادئ النبيلة، والإنسانية، والتواضع الذي يعتقد أنّ دوره، وقَدَره، الـسعي مـن أجـل قـضية الـسلام، وبذل ما في وسعه في عالم يمزّقه النـزاع والاضطراب.

إنّ حياته رواية يمتزج فيها الخيال بالواقع. ولعل أروع ما فيها ارتقاءه من غياهب النسيان النسبـي داخل العائلة المالكة السعودية ليصبح واحداً من أقوى اللاعبين على المسرح السياسي العالمي.

مع ذلك يتجنّب بندر الاعتراف علناً بعمله، قانعاً أن يُعرَف أنّه حقّق النجاح.

ردّدت ذلك زوجته الأميرة هيفاء بقولها: "لا أعتقد أنّه يبحث عن التقدير بالمعنى الواسع للكلمة. وأعتقد أنّ التقدير الذي يحظى به بالفعل هو إنجازه عمله بشكل جيد جداً". وأوضحت بعد ذلك: "إنّه رجل إنجاز أكثر من أي شيء آخر. وإذا أدى عمله على أفضل وجه، فإنّ ذلك تقدير عظيم لنفسه وهو لا يبحث عن أي مكافأة. إنّه لا يبالي إذا لم يحظَ بالتقدير، ولم يحصل على مكافأة. المهم بالنسبة إليه أن يتقن عمله، وينجح في أداء ما يُطلب منه"[53].

وباستعارة عبارة تي إي لورنس، بندر رجل يحلم وعيناه مفتوحتان، ويعمل من دون كلل خلف ستار من السرية، ويحكمه إحساس عميق بالمسؤولية والرغبة في "أن يحدث تأثيراً". كما أنّ الأمير في التزامه الدقيق بتطبيق فريضة الزكاة، لا يتطلّع إلى تقدير لقاء ما يقوم به. وعلى الرغم من إغفال جهوده إلى حدّ كبير كصانع سلام، فإنّه قانع أنّه حقّق غرضه.

بعد التحدّث إلى نظراء الأمير، وعائلته، ومن يعملون معه عن قرب أو لديه، توصّلت إلى قناعة أنّه غالباً ما يستخدم حسّه الفكاهي كقناع يخفي وراءه الألم الذي يشعر به بسبب ضياع الفرص، كما هي الحال في استمرار فشل عملية السلام الإسرائيلي الفلسطيني. وغالباً ما ضعفت رغبة بندر في الاستمرار، بفعل الضغوط الهائلة التي يشعر بها، وعدم قدرته على تشارك العبء بسبب الحساسية المفرطة للعمل الذي يقوم به. وقد أصبح من الصعب عليه بشكل متزايد إخفاء الإرهاق الذي أصابه، إلى أن تقاعد سنة 2005.

لكن ما قاله صديق بندر، طارق الشواف، يعبّر بفصاحة شديدة عن الرجل الذي يدعى بندر بن سلطان. ففي تعليق أخير على الحاجة إلى إدخال تغيير في المملكة العربية السعودية، وفي إشارة إلى الاحترام الذي يحظى به بندر، ذكر الشواف أنّه قدّم قبل عدة سنوات إلى بندر، وكان في ذلك الوقت في مستشفى في الظهران يعالج من المشكلة التي يعاني منها في ظهره، كتاباً عن العائلة المالكة وحكم الإسلام. وقد كتب الشواف إهداء على الجانب الداخلي من غلاف الكتاب. وبعد سنوات عديدة شاهد الشواف الكتاب في مكتبة بندر في الرياض. وفي ما يلي نص الإهداء: "إلى الأمير بندر، أمير رجائنا. لأنّ بلدنا يقع في الشرق الأوسط، فإنّ هناك كثيراً من المشاكل التي تواجهه. وأنا أعتقد أنّك ستفعل شيئاً حيالها ذات يوم".

أوضـــح الشوّاف: "كان بندر قومياً عربياً ثابتاً حتى حرب الخليج التي زعزعت إيمانـــه بالقومية العربية. وهو لا يزال قومياً الآن ولكن بطريقة مختلفة. وإنّني سعيد جداً لأنّ الكـــتاب لا يـــزال هناك، ولأنّني سأظهره له ذات يوم. فهو لا يزال أمير رجائنا. ونحن في بلدنا وفي العالم العربـــي ككل بحاجة إلى الأمل، وهو أملنا"[54].

الفصل الرابع عشر

حياة جديدة

"إنّنا نسعى وراء السلام لأنّنا نعلم أنّ السلام هو مناخ الحرية"

دوايت دي إيزنهاور (1953 - 1961)

أصــرّ بندر على أنّ دوره الجديد كأمين عام لمجلس الأمن القومي في 16 أكتوبر 2005 كــان أبعــد شيء عن تفكيره عندما توجّه مع عائلته إلى غليمبتون لمدة ثلاثة أشهر. وعندما سئل إذا كان ذلك أثّر في عائلته، اعترف بندر بصراحة: "بشكل سيئ. يمكنك أن تعبث بكل شيء باستثناء حياة عائلتك. والدليل على أنّني كنت جادّاً عندما تركت، وأنّه لم تكن لديّ أي فكرة عن أنّني سأعود عما قريب - ولم أكن أرغب في هــذا العمــل - أنّني استقررت في إنكلترا. سجّلنا أولادنا في مدرسة في إنكلترا. ولن نقــدم على تسجيل أولادنا في مدرسة ونحن نعرف أنّنا سننتقل عما قريب إلى المملكة العــربية السعودية. وقد بدأت أفكّر كيف أشغل نفسي؟ ربما بالقراءة، وربما بالكتابة، والــسفر مع العائلة". كانت العائلة لا تزال تفرغ حقائبها عندما أجرى الملك عبد الله المكالمة التي غيّرت حياة بندر؛ العودة إلى الواجب.

ضــحك بــندر عندما تذكّر أنّه بعد ذلك بعدّة أشهر، بعد أن عادت العائلة إلى المملكــة، قــال ابــنه الصغير عبد العزيز، وقد التحق بثلاثة مدارس في ثلاثة أشهر، واشنطن، وإنكلترا، والمملكة العربية السعودية للأميرة هيفاء: "ما خطب والدي؟ لماذا لا يستطيع المحافظة على عمل؟".

أصــبح الأمــير بعد توليه منصبه الجديد أحد أقوى الشخصيات في المملكة العربية الــسعودية، حــيث نقلت الصحافة السعودية عن *مصادر مطلعة* أنّ مجلس الأمن الوطني ســيتمتّع بــسلطات واســعة، بما في ذلك حقّ إعلان حالة الطوارئ والحرب، وتفحّص الأجهــزة الأمنــية، والتعامل مع الفساد وإهمال الواجب العام[1]. وصف بندر مجلس الأمن الــوطني أنّــه "مــزيج من الأمن الوطني، والمجلس الاقتصادي الوطني، والأمن الداخلي".

وتـــشمل ســـلطات المجلس الجديد الإشراف المباشر على الشؤون الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والعسكرية والأمنية والإعلامية والدولية لضمان الأمن الوطني الشامل للبلد"[2].

يتوقّع من مجلس الأمن الوطني السعودي الجديد أن يحدّد بدقة كل المصادر المحتملة للـــتهديدات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية التي تواجه المملكة الآن وفي المستقبل. وتعقيـــباً على الدور الجديد، قال بندر: "إنّه صعب ويستحوذ على الفكر تماماً. فكما يقولـــون لا راحة للشقي". هناك خطّ سياسي دقيق يجب سلوكه في التعامل مع الكثير من الوزارات والهيئات السعودية، وقد شدّد بندر أمام محاليه بشأن مجلس الأمن الوطني أنّ دوره لا يشكّل تهديداً، وإنّما يهدف إلى التنسيق والمتابعة لضمان تنفيذ السياسات. غير أنّ سلطة بندر سلطة عليا، فهو يتحدّث نيابة عن جلالة الملك.

مـــع تعـــيين بندر، حدثت تغيّرات في علاقة المملكة بالعالم الخارجي. ففي 11 ديسمبر 2005، ولم يكد بعد يمضي شهران على تعيينه أميناً عاماً، انضمّت المملكة إلى مـــنظّمة الـــتجارة العالمـــية. وقد كان بندر في دوره السابق كسفير ناشطاً في إقناع الإدارات المتعاقبة بدعم المملكة في تقدّمها لعضوية منظّمة التجارة العالمية. وعمل أيضاً مـــع رئـــيس الوزراء البريطاني طوني بلير وحكومته، لا سيما عندما أصبح بلير رئيساً للاتحاد الأوروبـــي، وبالتالي يستطيع التأثير في دعم انضمام المملكة إلى منظّمة التجارة العالمية في أوساط الدول الأوروبية الأخرى الأعضاء في الاتحاد الأوروبـــي.

وفي أعقـــاب تعيين بندر أميناً عاماً لمجلس الأمن الوطني، بعد إعادة هيكلته كجزء مـــن حملـــة المملكة على الإرهاب*، سرعان ما انغمس بندر في الدبلوماسية المكّوكية مجـــدداً. وتوسّـــط بـــندر بـــنجاح بين الأميركيين والفرنسيين (الرئيس جاك شيراك) والسوريين واللبنانيين والأمم المتحدة (كوفي أنان) وغيرهم من الأطراف المعنية.

ومـــن أولى مهمّاته محاولة حل الاستعصاء القائم بين الأمم المتحدة وسورية بشأن التحقـــيق في اغتيال رفيق الحريري بتفجير ضخم في فبراير 2005. لاحظ بندر، "كان الحريـــري صديقاً مقرّباً جداً وقد عملنا معاً طوال الوقت منذ سنة 1983. وقد تألّمت كثيراً وتأذّيت من الطريقة التي اغتيل فيها".

(*) الملـــك عـــبد الله هـــو رئـــيس مجلس الأمن الوطني، وولي العهد الأمير سلطان نائب الرئيس. والأعـــضاء الآخـــرون هـــم: نائـــب قائد الحرس الوطني، ووزيرا الداخلية والخارجية ورئيس الاستخبارات العامّة.

ردّ أمـين مجلس الأمن الدولي على هذا العمل الفظيع في 7 أبريل 2005، بالقرار 1595، بإنشاء لجنة تحقيق دولية. غير أنّه عندما أشار فريق التحقيق التابع للأمم المتحدة بأصـابع الاتهـام إلى بعض المسؤولين الأمنيين اللبنانيين، جرى اعتقالهم على الفور في لبـنان، لكـن، رفضت الحكومة وصول الأمم المتحدة إلى مسؤوليها. و لم تتراجع إلا بـضغط شـديد مـن مجلس الأمن الدولي. فسُمح لرئيس لجنة التحقيق التابعة للأمم المـتحدة، ميلـيس، في نهاية المطاف باستجواب المسؤولين المشتبه بضلوعهم في مقتل الحريري. غير أنّه تبيّن أنّ هذه الاستجوابات غير ناجحة في سورية، فطلب ميليس أن يعاد استجوابهم في لبنان.

أوضـح بـندر: "قـال الـسوريون إنّ ذلك إهانة"[3]. و لم يشأ اللبنانيون تحمّل المسؤولية، إذا ما تعرّض المسؤولون السوريون لأي أذى، إذ كانوا قلقين أنّهم سيلامون على ذلك ما يؤدّي إلى حرب مع سورية. وأكّد بندر: "أردت أن يُستَجوبوا فحسب. لم أكـن أهـتم لمكـان الاستجواب. لذا تقدّمنا باقتراح أن يتمّ الاستجواب خارج المنطقة". وقد اقتُرحت جنيف وفيينّا، وكلّف الملك عبد الله بندر بإقناع الرئيس بشار الأسـد "بحكمـة ذلـك" إذ من مصلحة سورية ألا تقام أي دعوى[4]. ونجح بندر في الحصول على موافقة الأسد. وأُجري الاستجواب في فيينّا.

ذكـر بـندر: "مـا مـن أحد كان يمكنه أن يفعل ذلك سوى المملكة العربية السعودية، إذ رفض السوريون الاستماع إلى أحد غيرها. وقد سهّل ذلك علاقتي بوالد الأسد".

عـندما سئل بندر إذا كان الرئيس متورّطاً شخصياً باغتيال الحريري قال: "هناك سـؤال، *كيف يمكن أن تقع مثل هذه العملية الكبيرة في نظام شديد المركزية من دون علم الأسد، أو تفويضه، أو معرفته بالأمر لاحقاً؟* لكن تمّ الاتفاق - لا تتدخّلوا بشأن الأسـد - واعملـوا فقط مع المسؤولين السوريين الذين كانت لديهم صلات وثيقة بالقـادة الأمنـيين اللبنانـيين، ودعوا الأمور تسير". ورأى بندر أنّه إذا أُدين هؤلاء المسؤولون، تصبح المسألة عندئذ، "كيف يمكن أن يقدم هؤلاء المسؤولون الكبار على ذلـك مـن دون علم الأسد؟". وتابع بندر بشكل براغماتي: "وإذا لم يدانوا، يكون الأسـد بريئاً". وختم بندر أنّه إذا أدين المسؤولون الأمنيون السوريون، تصبح المسألة خطيرة بسبب مناصبهم العالية.

في حـــين أنّ مهمّة بندر كمبعوث للملك عبد الله لكسر الجمود في تحقيق الأمم المـــتحدة في اغتيال الحريري، حجبت دوره كأمين عام لمجلس الأمن الوطني في الأشهر الأولى مـــن تـــسلّمه المنصب، فإنّه كان مع ذلك منغمساً تماماً في إنشاء البنية التحتية اللازمة لدعم عمله الجديد. غير أنّ مسؤولية بندر تُخبر بحدوث تغيير.

في 7 و8 ديسمبر، اجتمع قادة منظّمة المؤتمر الإسلامي في مكة المكرمة في المملكة. وفي خـــتام القمـــة أصدروا إعلاناً حظي بردّ إيجابـــي على العموم من البيت الأبيض الـــذي رحّب "بالبيان القيّم الصادر عن منظّمة المؤتمر الإسلامي بخصوص الحرب على الإرهـــاب والتطـــرّف. وقـــد أدان الإعلان الإرهاب، وشدّد على ضرورة تجريم كل جوانب الإرهاب، بما في ذلك تمويله، ورفض أي تبرير للقتل المتعمّد للمدنيين الأبرياء. كمـــا أدان إعـــلان منظّمة المؤتمر الإسلامي التطرّف، ودعا إلى وضع مناهج مدرسية "تقوّي قيم التفهّم والتسامح والحوار والتعدّدية"[5].

أعلـــنت القمة أيضاً سياسة عالمية تدعو إلى التسامح الديني والاعتدال والتعايش السلمي للمسلمين البالغ عددهم 1.7 مليار نسمة داخل العالم الإسلامي وخارجه. وقد كانـــت بـــصمات بندر في هذا الإعلان واضحة، حيث تردّد صدى بيانه الجريء عن الحاجـــة إلى شـــنّ حرب شاملة على الإرهاب عندما كان سفيراً في واشنطن، وعلى الإرهابيين الناشئين داخل المملكة العربية السعودية أيضاً. كما أنّ النص المتعلّق بالمناهج المدرسية يحمل شيئاً من تسامح بندر الثقافي ومواقفه الداعية إلى التفاهم بين الأديان.

وفي قمـــة مجلـــس التعاون الخليجي في ديسمبر 2005 - سمّيت قمّة فهد تكريماً للملك الراحل فهد - ظهر تأثير بندر عندما أنهى قادة المجلس قمّتهم بالدعوة إلى إخلاء الـــشرق الأوسط من الأسلحة النووية. فوسط الضغط الدولي المتنامي على إيران بشأن بـــرنامجها النووي، حثّ الأمين العام لمجلس التعاون الخليجي عبد الرحمن العطية طهران على إبقاء المنطقة خالية من الأسلحة النووية[6].

مـــن الواضـــح أنّ بندر، باعتباره مهندس برنامج اليمامة في أواسط الثمانينيات، حـــصل على الرضى الشخصي في الأشهر القليلة الأولى له في منصبه عندما وافق على قيام المملكة العربية السعودية بشراء المقاتلة الأوروبية المعروفة باسم تايفون. وقال بندر: "تمّ الاتفـــاق في زيارة قام بها طوني بلير لولي العهد الأمير عبد الله. غير أنّ عليّ - في دوري كـــأمين عام - التحقّق من أنّها منسجمة مع السياسة الدفاعية. وكان عليّ أن

أضع موافقتي عليها". أوضح بندر أنّه قيّم البدائل. كان سلاح الجوّ الملكي السعودي قد رفض الطائرة الفرنسية رافاييل، لذا، فإنّ الخيار الوحيد هو طائرة أف – 35 الأميركية (المقاتلة الضاربة الشبح والأسرع من الصوت أف – 35 من إنتاج لوكهيد مارتن، وتسمّى لايتننغ 2)، وطائرة أف – 22 رابتور (مقاتلة سلاح الجو الأميركي المتفوّقة من الجيل القادم). غير أنّ بندر استبعد أف – 22 لأنّ "الولايات المتحدة لن تبيعها لأحد، إذ إنّها الطائرة الأحدث". بالمقابل فإنّ تأخّر برنامج إنتاج أف – 35 واختبارها، ولأنّها طائرة بمحرّك واحد، جعل سلاح الجوّ الملكي السعودي يستبعد هذا الخيار لأنّه اشترط أصلاً طائرة بمحرّكين. وهكذا تثبّت بندر بسرعة من أنّ طائرة تايفون – المحدّثة لتوفير قدرة ضاربة – هي الخيار العملي الوحيد، وأجاز شراءها بموجب برنامج اليمامة. وأوضح بندر أيضاً أنّ السياسة السعودية تقضي بالشراء من عدد من الدول لكي لا تخضع المملكة للقيود المطبّقة على الطائرات، كما كانت الحال في الغالب مع الطائرات الأميركية.

ومن الأنشطة الأخرى التي تفتح آفاقاً جديدة يلعب فيها بندر دوراً، إنشاء مدينة الملك عبد الله الاقتصادية. وهي مشروع اقتصادي يكلّف 26 مليار دولار ويقع على البحر الأحمر، على بعد نحو 50 كيلومتراً إلى الشمال من جدة. وقد صمّم هذا المشروع العملاق الذي بدأت أعمال الإنشاء فيه في 21 ديسمبر 2005 لتوسيع الاقتصاد، واستحداث فرص العمل، وتحفيز الاستثمار الأجنبي، والتجارة العالمية والصناعة.

ومن التهديدات الأشدّ إنذاراً بالسوء للمنطقة رغبة إيران في الحصول على القدرة النووية، وهي ما أبرزته قمة مجلس التعاون الخليجي. وقد بلغت هذه الرغبة مرحلة الأزمة في أوائل سنة 2006، وحفزت جولة أخرى من دبلوماسية بندر المكّوكية بطلب من الملك عبد الله.

يعتقد العديد من الأشخاص أنّ إيران تسعى لتطوير أسلحة نووية، وأنّ رفضها الكشف عن تفاصيل برنامجها النووي يؤدّي إلى التهديد بتوجيه ضربة عسكرية إلى منشآتها النووية، تشنّها إسرائيل أو الولايات المتحدة. وخوفاً من أن يُحدث ذلك الإجراء العسكري الأميركي ضدّ إيران الفوضى في المنطقة، طلبت المملكة العربية السعودية من روسيا عرقلة أي رهان أميركي على تأمين تغطية من الأمم المتحدة لشنّ

أي هجوم. واجتمع بندر بوزير الخارجية الروسي سيرجي لافروف في موسكو في 4 أبريل، حيث "حثّ روسيا على العمل لمنع اعتماد مجلس الأمن الدولي قراراً يمكن أن تستخدمه الولايات المتحدة كتبرير لشنّ هجوم عسكري لضرب المنشآت النووية الإيرانية"[7].

وفي وقت لاحق زار الأمين العام لمجلس الأمن القومي الإيراني، علي لاريجاني، المملكة العربية السعودية في 12 أبريل 2006، حيث استضافه بندر - نظيره السعودي - لبحث العلاقات الثنائية وآخر التطوّرات في المنطقة، لا سيما الوضع في لبنان[8]. وبعد اجتماع لاريجاني ببندر، توجّه لاريجاني إلى الصين وروسيا وواشنطن ولندن وباريس في مسعى لتنفيس احتقان الوضع. وقد رأى بندر أنّ القدر تدخّل هنا لوضعه في مركز الأزمة الدولية، حيث يلعب دور الوسيط، وهو دور برع فيه. وقد زار بندر واشنطن للاجتماع بوزيرة الخارجية كوندوليزا رايس، وبعد هذه الزيارة اتخذت الولايات المتحدة موقفاً أقلّ عدائية، متراجعة عن الخيارات العسكرية، ومشدّدة على الرغبة في التوصّل إلى حل دبلوماسي مع إيران. لكن بتفاقم الوضع في لبنان لارتباط سلاح حزب الله بإيران، فإنّ الوضع المعقّد يشكّل اختباراً دبلوماسياً هائلاً لبندر.

عندما سئل إذا كان يعتقد أنّ التطمينات الإيرانية أنّهم لا يسعون لتطوير أسلحة نووية صادقة، أجاب بطريقة براغماتية: "ليس لهيئة المحلّفين دور هنا". لكنّه ختم بالقول: "المنطقة لا تحتمل مواجهة عسكرية أخرى". وربما كانت تلك كلمات توقعية، حيث بدأت الأزمة اللبنانية تخرج عن السيطرة.

مع اندلاع العنف في الشرق الأوسط في أعقاب اختطاف حزب الله جنديين من جنود الجيش الإسرائيلي في 12 يوليو 2006، وإطلاق مئات من صواريخ الكاتيوشا على إسرائيل التي ردّت بقصف جوي وبري وبحري واسع على لبنان، فإنّ احتمالات حدوث نزاع أوسع تبدو واقعية وتنذر بالشرور. وعندما اجتمعت ببندر على غداء متأخّر في 14 يوليو 2006، بدا عليه التوجّس من تقارير وسائل الإعلام عن الهجمات الجوية الإسرائيلية على المناطق التي يسيطر عليها حزب الله في بيروت، وعلى البنية التحتية اللبنانية - الجسور والمنشآت النفطية، ومحطات توليد الكهرباء، ومطار بيروت الدولي. وردّاً على ذلك، أعلن زعيم حزب الله، الشيخ حسن نصر الله "حرباً مفتوحة"

على إسرائيل. وفي لحظة شعور أنّ هذا الوضع مرّ مع بندر من قبل، بدت الأمور كأنّها تعـود إلى بيروت الخاضعة للمعاملة الوحشية سنة 1983 عندما نجح في التفاوض على وقف لإطلاق النار في أثناء الحرب الأهلية.

يزعم الآن أنّ حزب الله ربما يمتلك عشرة آلاف صاروخ زوّدته بها سورية. لكن، جاءت بعد ذلك تقارير عن هجوم شنّه حزب الله على سفينة حربية إسرائيلية كانت قبالة شـواطئ بيروت؛ وادّعى الجيش الإسرائيلي أنّ السفينة ضُربت بصاروخ سي 802 موجّه بالرادار زوّدته إيران إلى حزب الله. وتحدّث العميد في الجيش الإسرائيلي إيدو نحوشتان متـشائماً: "إنّـنا نرى في هذا الهجوم بصمات واضحة جداً على التدخّل الإيراني"[9]. وتخـشى إسرائيل من استخدام الصواريخ إيرانية الصنع من طراز زلزال، التي يقدّر أنّ مداها يفوق مئتي كيلومتر، ما يسمح لحزب الله باستهداف تل أبيب[10]. كما زُعم أنّ الجيش الإسرائيلي دمّر أحد صواريخ زلزال بينما كان حزب الله يعدّ لإطلاقه[11].

في اجـتماع مجموعة الثمانية في سان بطرسبورغ، قال الرئيس بوش: "إنّني أدعو سـورية إلى ممارسـة نفوذها على حزب الله". واتهم السفير الإسرائيلي في الولايات المتحدة إيران وسورية بتنسيق الهجمات التي يشنّها حزب الله، وحذّر من أنّهما "تلعبان بالنار"[12]. وفي ردّ على ذلك دعا السفير السوري في لندن، في مقابلة مع البـي بـي سي، حزب الله إلى وقف إطلاق الصواريخ على إسرائيل[13].

مع ذلك فإنّ شبح وقوع نـزاع إقليمي واسع النطاق يرفض أن يتلاشى، حيث يهـدّد اجـتماع الأحداث بجرّ سورية وإيران والولايات المتحدة. وإلى جانب اغتيال الحريري وتسليح سورية لحزب الله، أفادت صحيفة واشنطن بوست، "الرئيس محمود أحمـدي نجـاد يعـرف ما يريد: الأسلحة النووية، ووسائل إطلاقها، وقمع الحرية في الداخل، ونشر الإرهاب في الخارج"[14].

عـندما لوحظ أنّ الأزمة الحالية تعود إلى الإرث الذي خلّفه عرفات في أعقاب رفـضه عرض كلينتون/باراك للسلام في كامب ديفيد، هزّ بندر رأسه بالموافقة وقال: "لقد كانت جريمة".

وفي تقيـيم متـشائم للوضـع الذي رأى أنّه بدأ يخرج عن السيطرة، قال بندر بأسف: "لقد أخذت الفرص تتلاشى. هناك الكثير من اللاعبين. القوى الكبرى لاعبة، والفلسطينيون منقسمون، والإسرائيليون منقسمون بين المتشدّدين ومن يسعون للسلام

عــن طريق المفاوضات، وثمة قيادة جديدة في إسرائيل. لقد أصبح البحث عن السلام شديد التعقيد". لكن، لا يمكن عدم تصوّر عودته إلى دوره كصانع سلام عما قريب. فهــو القائــل: "لا يمكنني أن أتصوّر عندما يتخرّج أحفادي من المدرسة أو يلتحقون بالجامعة ويسألونني، *لماذا فشلت في حلّ هذه المسألة يا جدّي؟*".

ربمــا لــيس على المملكة العربية السعودية وحدها أن تعتبر بندر "أمير رجائنا". فالشرق الأوسط بأكمله بحاجة إلى مهاراته، كدبلوماسي ووسيط على حدٍّ سواء. فقد يــبدو بــندر في بعــض الأحيان صوت العقل الوحيد الذي ينشد سماعه في صخب الفوضى.

الهوامش

المقدّمة

1. خطاب ألقاه الأمير بندر أمام مجلس الشؤون العالمية في بيرمنغهام، ألباما، 26 سبتمبر 2003.
2. مقابلة مع الرئيس الأسبق جيمي كارتر في مركز كارتر، أطلنطا، جورجيا، 19 مارس 2004.
3. مقابلة مع وزير الخارجية السابق كولن باول في وزارة الخارجية، واشنطن دي سي، 5 نوفمبر 2004.
4. Bob Woodward. *Plan of Attack.* New York: Simon & Schuster, 2004.
5. *Chambers Concise Dictionary.* London: Chambers Harrap Publishers Ltd., 1997.
6. مقابلة مع لويس جاي. فريه، مدير مكتب التحقيقات الفيدرالي (1993 - 2001) في ولمنغتون، دلوير، 11 مارس 2004.
7. Matt Welsh. "Is Bandar Bush Above the Law?" *National Post*, April 19, 2003.
8. Robert Baer. Sleeping with the Devil—How Washington Sold Our Souls for Saudi Crude. New York: Crown Publishers, 2003: 63.
9. Cynthia Dettelbach. "Saudi Ambassador' s City Club Talk Sheds Little Light." *Cleveland Jewish News*, December 2, 2003.
10. Patrick E. Tyler. "Double Exposure: Saudi Arabia' s Man in Washington." New York Times, June 7, 1992.

1. من هو الأمير بندر؟

1. T. E. Lawrence. *The Seven Pillars of Wisdom: A Triumph.* New York: Anchor, 1991.
2. مقابلة مع فرد داتون في فندق دورشستر، لندن، 26 أغسطس 2004.
3. مقابلة مع الأميرة ريما ابنة بندر في مكلين، 19 فبراير و9 مارس 2004.
4. انظر الهامش رقم 2.
5. المصدر نفسه.
6. David B. Ottaway. "Been There, Done That: One of the Great Cold Warriors Faces the Dawn of a New Era." *Washington P ost*, July 21, 1996و.
7. مقابلة مع الأميرة هيفاء بنت فيصل بن عبد العزيز في مكلين، فيرجينيا، 28 أكتوبر 2003.
8. Elsa Walsh. "The Prince: How the Saudi Ambassador Became Washington's Indispensable, Operator." *The New Yorker*, March 24, 2003.
9. انظر الهامش 2.
10. انظر الهامش 6.
11. مقابلة مع الجنرال فيصل المفقي في مراكش، 26 يونيو 2004.
12. المصدر نفسه.

13. انظر الهامش 8.
14. مقابلة مع الرقيب كن آدامز في ليسنغهام، لنكولنشاير، 14 يناير 2004.
15. مقابلة مع جون وترفول في برايتون، ساسكس، 26 فبراير 2004.
16. مقابلة مع مارتن شوري في لنكولن، 2 ديسمبر 2003.
17. انظر الهامش 14.
18. المصدر نفسه.
19. انظر الهامش 15.
20. مقابلة مع السيدة غريث إليوت في سانت ليونارد أون سي، ساسكس، 18 يناير 2005.
21. الفريق الجوي ديكون إليوت (1914 - 1997).
22. مقابلة مع روبرت ديكون إليوت في جدة، المملكة العربية السعودية، مايو 2004.
23. انظر الهامش 20 أعلاه.
24. انظر الهامش 22 اعلاه.
25. تقرير كلية كرانول التابعة لسلاح الجوّ الملكي، 1968 - تلميذ الضابط الطيّار بندر ابن سلطان.
26. مقابلة عبر الهاتف مع العميد الجوي ويلسون ميتكاف، المملكة المتحدة، الملحق العسكري، موسكو، 12 فبراير 2004.
27. تقرير مقرّر دراسي في كلية كرانول عن التلميذ الضابط بندر بن سلطان أعدّه المدرّب الرقيب كن آدامز.
28. انظر الهامش 15.
29. تقرير مقرّر دراسي في كلية كرانول عن التلميذ الضابط بندر بن سلطان أعدّه مدرّب الطيران الملازم الطيار طوني يول.
30. مقابلة مع مارشال الجوّ السير ريتشارد جونــز، 12 يناير 2004.
31. تقرير التخرّج من كلية سلاح الجوّ الملكي عن التلميذ الضابط بندر بن سلطان، 1969.

2. الأمير طيّار حربي

1. مقابلة مع مارشال الجوّ السير ريتشارد جونــز، 12 يناير 2004.
2. مقابلة مع العقيد كيث فيلبس في أسبن، 31 ديسمبر 2004.
3. مقابلة مع فهد المحقاني في واشنطن دي سي، 4 نوفمبر 2004.
4. مقابلة مع العقيد روبرت ليلاك في وودستوك، أكسفوردشير، 27 أغسطس 2004.
5. كلمة الأمير بندر أمام مجلس الشؤون العالمية، هيوستن، تكساس، 5 ديسمبر 2003.
6. مقابلة مع العقيد جو رامسي في واشنطن دي سي، 29 أكتوبر 2003.
7. كلمة الأمير بندر أمام جنرال داينمكس، فورت ورث ديفيجن، 31 مارس 1989.
8. انظر الهامش 6.
9. انظر الهامش 2.
10. انظر الهامش 6.
11. مقابلة مع الدكتور هنري كيسنجر في نيويورك، 27 أبريل 2004.

12. انظر الهامش 6.
13. James Perry Stevenson. *McDonnell Douglas F-15 Eagle*. Fallbrook, Calif.: Aero Publishers, 1978.
14. Seth P. Tillman. The United States in the Middle East: Interest and Obstacles. Bloomington: Indiana University Press, 1982: 99.
15. كانت جداول الحيازة ستتأخّر من دون بيع طائرات أف – 15 إلى المملكة العربية السعودية.
انظر Mitchell Geoffrey Bard. *The Water's Edge and Beyond: Defining the Limits to Domestic Influence, on United States Middle East Policy*. New Brunswick, N.J.: Transaction Publishers, 1991: 37.
16. المصدر نفسه، ص. 45.
17. المصدر نفسه، ص. 46.
18. "The Tornados in the Desert: A Flying Piano with Resonance." *The Economist*, July 16, 1988.
19. Stephen N. Connor. Questions and Comments on the President's Authorization of U.S. Sale of F-15 Planes for the Defense of Saudi Arabia: Pending before the U.S. Congress. Maryland. 1978.
20. *Washington Post*, April 21, 1978، (عنوان المقالة غير معروف).
21. Speech by President Jimmy Carter, May 5, 1978. State Department Bulletin, July 1978: 20.
22. Bard, p. 45
23. State Department Bulletin, April 1978: 22.
24. Bard, p. 37.
25. انظر الهامش 14.
26. مقابلة مع الرئيس الأسبق جيمي كارتر في مركز كارتر، أطلنطا، جورجيا، 19 مارس 2004.
27. Bard, p. 35.
28. Saudi Arabia in the 1980's: Foreign Policy, Security and Oil. Washington D.C.: The Brookings Institution, 1981: 18.
29. David Howard Goldberg and Bernard K. Johnpoll. *Foreign Policy and Ethnic Interest Groups*: American and Canadian Jews Lobby for Israel. New York: Greenwood Press, 1990: 65.
30. Hoag Levins. *Arab Re ach: Th e Secret War against Israel*. New York: Doubleday, 1983: 10.
31. انظر الهامش 26.
32. كلمة بندر أمام ماكدونل دوغلاس، 9 يناير 1989.
33. انظر الهامش 26.
34. المصدر نفسه.
35. المصدر نفسه.
36. Patrick E. Tyler. "Double Exposure." New York Times, June 7, 1992.

37. المصدر نفسه.
38. Tillman, p. 100.
39. New York Times, May 8, 1978 (عنوان المقالة غير معروف).
40. Tillman, p. 101.
41. المصدر نفسه، ص. 101.
42. Bard, p. 45.
43. U.S. Congress. Congressional Record–Senate S 7833 May 19, 1978; U.S. Senate. Proceedings in Closed Session. Monday, May 15, 1978, 2:04 p.m. to 4:27 p.m.
44. مؤتمر الرئيس، التقرير السنوي (السنة المنتهية في 31 مارس 1979): 5.
45. Levins, p. 13.

3. رأس جبل الجليد

1. Nicholas Laham. Selling AWACS to Saudi Arabia: The Reagan Administration and the Balancing of America's Competing Interests in the Middle East. Westport, Conn: Praeger, 2002: 90.
2. George Crile. Charlie Wilson' s War. New York: Atlantic Monthly Press, 2003: 236-237.
3. Peter Schweizer. Victory: The Reagan Administration's Secret Strategy That Hastened the Collapse *of the Soviet Union*. New York: Atlantic Monthly Press, 1996: 26.
4. Hedrick Smith. *The Power Game: How Washington Works*. New York: Random House, 1988: 219
5. مقابلة مع العقيد روبرت ليلاك في وودستوك، أكسفوردشير، 27 أغسطس، 2004.
6. Steven Emerson. The American House of Saud: The Secret Petrodollar Connection. New York: Franklin Watts, 1985: 176.
7. Rachel Bronson. "The U.S.-Saudi Love Affair Predates Bush." *Los Angeles Times*. July 9, 2004.
8. Bernard Gwertzman. "U.S. Decides to Sell Equipment to Saudis to Bolster F-15 Jets." *New York Times*, March 7, 1981.
9. Nadav Safran. *Saudi Arabia: The Ceaseless Quest for Security*. Ithaca and London: Cornell University Press, 1988: 437.
10. انظر الهامش 5.
11 انظر الهامش 7.
12. Rachel Bronson. "Recall, Reagan had Riyadh to Thank." *Daily Star*, June 19, 2004.
13. Schweizer, R 50-51.
14. Mitchell Geoffrey Bard. The Water's Edge and Beyond: Defining the Limits to Domestic Influence *in United States Middle East Policy*. New Brunswick, NJ: Transaction Publishers. 1991: 103.
15. انظر الهامش 6.
16. Laham, p. 13.
17. Smith, p.220.

18. مقابلة مع فرِد داتون في فندق دورشستر، لندن، 26 أغسطس 2004.
19. المصدر نفسه.
20. مقابلة مع السفير ريتشارد مورفي في نيويورك، 28 أبريل 2004.
21. Howard Blum. The Gold of Exodus: The Discovery of the True Mount Sinai. New York: Pocket Books, 1999: 13.
22. Safcan, p. 436.
23. "A Fighter Pilot Turned Negotiator." *Time*, October 10, 1983.
24. انظر الهامش 18.
25. المصدر نفسه.
26. Emerson, p. 195.
27. William D. Hartung. *And Weapons For All.* New York: HarperCollins, 1994: 97.
28. كلمة الأمير بندر أمام الجنرال داينمكس، فورت وورث ديفيجن، 31 مارس 1989.
29. David E. Long. The United States and Saudi Arabia: Ambivalent Allies. Boulder and London: Westview Press, 1985: 65.
30. انظر الهامش 5.
31. Laurence I. Barrett. *Gambling with History: Reagan in the White House.* New York: Doubleday, 1983: 267.
32. Ronald Reagan. *An American Life.* New York: Simon & Schuster, 1990.
33. Lou Cannon. *President Reagan: The Role of a Lifetime.* New York: Simon & Schuster, 1991: 393.
34. Laham, p. 128.
35. Public Papers of Presidents of the United States: Ronald Reagan 1981. Washington, D.C.: United States Government Printing Office: 867.
36. Donnie Radcliffe. Ambassador with the Royal Touch. Donnie Radcliffe. *Washington Post*, February 16, 1984.
37. Smith, p. 221.
38. Seth P. Tillman. The United States in the Middle East: Interests and Obstacles. Bloomington: Indiana University Press, 1982: 52.
39. انظر الهامش 27.
40. انظر الهامش 5.
41. انظر الهامش 31.
42. المصدر نفسه، ص 231.
43. Smith, p. 231.
44. Howard M. Sachar. *A History of the Jews in America.* New York: Vintage. 1993.
45. ملاحظات تلت اجتماعاً مع مسؤولين سابقين في الأمن القومي بشأن بيع طائرات أواكس وغيرها من المعدّات الدفاعية إلى المملكة العربية السعودية. إدارة المحفوظات والسجلات الوطنية الأميركية، 5 أكتوبر 1981.
46. Barrett, p. 275.
47. المصدر نفسه.
48. "The Arming of Saudi Arabia." Transcript of *Frontline*, February 16, 1993.

49. المصدر نفسه.

50. Smith, p. 222.

51. المصدر نفسه، ص. 221.

52. Barrett, p. 445.

53. Charles McC. Mathias Jr. "Ethnic Groups and Foreign Policy." *Foreign Affairs*, Summer1981, p. 60.

54. Blum, 14-15.

55. Barrett, p. 276.

56. S.CON.RES.35: A concurrent resolution expressing the objection of the Congress to the proposed sale of certain defense articles, together with associated spare parts and equipment and related defense services, to the kingdom of Saudi Arabia. Sponsor: Sen Packwood, Bob [OR] Introduced September 17, 1981. S.CON.RES.37: A concurrent resolution disapproving the proposed sales to Saudi Arabia of E-3A Airborne Warning and Control System (AWACS) aircraft, conformal fuel tanks for F-15 aircraft, AIM-9L Sidewinder missiles, and Boeing 707 aerial refueling aircraft. Sponsor: Sen Packwood, Bob [OR]. Introduced October 1, 1981

57. نقاش مع نائب وزير الخارجية الأميركي ريتشارد أرميتاج في مكلين، فيرجينيا، 2 مارس 2005.

58. انظر الهامش 5.

59. انظر الهامش 18.

60. David Howard Goldberg and Bernard K. Johnpoll. *Foreign Policy and Ethnic Interest Groups*: American and Canadian Jews Lobby for Israel. New York: Greenwood Press, 1990: 73.

61. انظر الهامش 18.

62. Smith, pp. 216-217.

63. Kathleen Christison. "Blind Spots: Official U.S. Myths about the Middle East." *Journal of Palestine Studies*, Winter 1988, p. 50.

64. المصدر نفسه، ص. 124.

65. New York Times, December 2, 1982 (عنوان المقالة غير معروف).

66. U.S. Congress. Congressional Record–Senate, Robert Byrd, January 4, 1992.

67. Donald Neff. Fallen Pillars: U.S. Policy towards Palestine and Israel Since 1945. Washington D.C.: Institute for Palestine Studies, 1995: 185.

68. انظر الهامش 5.

69. مقابلة مع العقيد كيث فيلبس في أسبن، 31 ديسمبر 2004.

70. Smith, p. 601.

71. تجــدر الإشـارة إلى أنّ الأمير بندر يكتب أيضاً رسائل شخصية عندما تكون القضايا عزيزة عليه. "عند الثانية بعد منتصف الليل، لم يستطع [الأمير بندر] النوم فكتب رسالة إلى بوش عبّر فيها عن امتنانه له لإنقاذ بلده. كتب، *أنت صديقي مدى الحياة وأحد أفراد العائلة*. انظر Elsa Walsh. "The Prince." The New Yorker, March 24, 2003,p. 52.

72. Roulah Khalaf. "The Prince Whose Fairytale Went Sour." *Financial Times*, November 29,2002.

73. James A. Baker III. The Politics of Diplomacy—Revolution, War and Peace 1989-1992. New York: G. P. Putnam' s Sons, 1995.
74. David Plotz. "Saudi Ambassador Prince Bandar: Why Washington' s Smoothest Diplomat Is Falling from Favor." *Slate*, October 24, 2001.
75. حوار مع الأمير بندر في لَمّ شمل الدفعة 96 في أسبن، أغسطس 2002.
76. موقع أكاديمية الإنجازات على الإنترنت، www.achievement.org/autodoc/page/pow0pro-1.

4. سنوات المكيدة

1. Midge Decter. *Rumsfeld: A Personal Portrait*. New York: HarperCollins, 2003: 93
2. Bob Woodward. *Veil: The Secret Wars of the CIA 1981-1987*. London: Simon & Schuster Ltd., 1987: 397-398.
3. Peter W. Wilson and Douglas F. Graham. *Saudi Arabia—The Coming Storm*. New York M.E. Sharpe, 1994: 325-326.
4. Holly Sklar. *Washington's War on Nicaragua*. Cambridge, Mass.: South End Press, 1988: 325.
5. Lolly Weymouth. "A Prince Who Would Make Peace; Saudi Arabia's Bandar Worries about American-Israeli Ties." *Washington Post*, December 4, 1983.
6. Donnie Radcliffe. "Ambassador with the Royal Touch." *Washington Post*. February 16, 1984.
7. "A Fighter Pilot Turned Negotiator." *Time*, October 10, 1983.
8. انظر الهامش 6.
9. Andrew E. Busch. "Ronald Reagan and the Defeat of the Soviet Empire." *Presidential Studies Quarterly*, March 27, 1997.
10. Peter Schweizer. Victory: The Reagan Administration's Secret Strategy That Hastened the Collapse *of the Soviet Union*. Atlantic Monthly Press, 1996: 28.
11. Steve Coll. Ghost Wars: The Secret History of the CIA, Afghanistan, and Bin Laden, from the Soviet *Invasion to September 10, 2001*. New York: Penguin Press, 2004: 97.
12. Rachel Bronson. "Recall, Reagan Had Riyadh to Thank." *Daily Star*, June 19, 2004.
13. Ambassador Charles W. Freeman. "A Relationship in Transition–and Then 9/11." Saudi-American Forum Interview.
14. William E. Pemberton. Exit with Honor: The Life and Presidency of Ronald Reagan. New York: M. E. Sharpe, 1998.
15. Lou Cannon. *President Reagan: The Role of a Lifetime*. New York: PublicAffairs, 2000: 384.
16. تقرير لجان الكونغرس التي تحقّق في قضية إيران - كونترا، ص. 38.
17. Lawrence E. Walsh. Firewall: The Iran-Contra Conspiracy and Cover-Up. New York: W.W. Norton, 1997: 19.
18. Cannon, p. 385.
19. Oliver L. North and William Novak Under Fire: An American Story. New York Harper-Collins, 1991: 242.
20. Robert McFarlane, North Trial Testimony, March 13, 1989, p. 3933. انظر أيضاً Theodore Draper. *A Very Thin Line: The Iran-Contra Affairs*. New York: Hill and Wang, 1991: 81.

21. محاضــر نــــزعت عــنها صفة السرية لمجموعة التخطيط في مجلس الأمن القومي، 25 يونيو 1984.

22. Memorandum for the Record from Sporkin, June 26,1984, ALV 035917; and Lawrence E. Walsh. Final Report of the Independent Counsel for Iran/Contra Matters. Washington, D.C., August 4, 1993.

23. Cynthia J. Arnson. Crossroads: Congress, the President, and Central America, 1976-1993. University Park: Pennsylvania State University Press, 1993: 174. انظر أيضاً محاضر نــزعت عنها صفة السرية لمجموعة التخطيط في مجلس الأمن القومي، 25 يونيو 1984، ص. 14.

24. Richard Reeves. President Reagan: The Triumph of Imagination. New York: Simon & Schuster, 2005: 221

25. President' s Special Review Board. The Tower Commission Report. New York: Bantam Books and Times Books, 1987: 458-459; and McFarlane hearings, p. 17. ووفقـــاً لمصدر سعودي (وأكّد الأمير بندر لي ذلك) لم "يعرض" ماكفرلين المال بل التمسه. انظـــر David Hoffman and Bob Woodward. "McFarlane Said to Solicit Contra Aid from Saudis." *Washington Post*, May 14, 1987.

26. Walsh, *Final Report*.

27. Draper, p. _______.

28. Cannon, p. 335.

29. William M. LeoGrande. Our Own Backyard: The United States in Central America, *1977-1992*. Chapel Hill: University of North Carolina Press, 1998.

30. Robert McFarlane, Select Committees Testimony, May 11, 1987, p. 38-39; and McFarlane, North Trial Testimony, March 13, 1989, p. 4203-4204.

31. McFarlane, North Trial Testimony, March 10, 1989, p. 3933.

32. مقابلة مع الأمير بندر في برنامج *نايت ووتش* على تلفزيون سي بـــي أس نيوز.

33. Cannon, p. 636.

34. Sklar, p. 227.

35. Lee Michael Katz. "Prince Charming." The Washingtonian, November 2000.

36. Patrick E. Tyler. "Double Exposure: Saudi Arabia' s Man in Washington." *New York Times*, June 7, 1992.

37. من لائحة التهم الموجّهة إلى كاسبر واينبرغر.

38. Walsh, *Firewall*, pp. 391-392.

39. المصدر نفسه، ص 389.

40. انظر الهامش 32.

41. Jim Lobe. "The Bewilderment of Prince Bandar." Asia Times, November 29, 2002.

42. Hala Jaber. *Hezbollah*. New York: Columbia University Press, 1997: 69.

43. Woodward, pp. 394-398.

44. Howard Blum. The Gold of Exodus: The Discovery of the True Mount Sinai. New York: Pocket Books, 1999: 151-153.

45. Sklar, p. 226.

46. William Blum. "Ronald Reagan' s Legacy: Eight Years of CIA Covert Action." *Covert Action Quarterly*, Winter 1990.
47. انظر الهامش 42.
48. Thomas Powers. "Intelligence Wars: American Secret History from Hitler to Al-Qaeda." *New York Review of Books*, December 2002, pp. 276-277.
49. مقابلـــة مع بوب وودوارد أجراها بيل مويرز. *Frontline*: "Target America." October 4, 2001.
50. Paul Lashmar and Patrick Fitzgerald. "The Saudi Cesspit." *New Statesman & Society*, December 1, 1996. 51. Woodward, p. 96.
52. مقابلة مع فرد داتون في فندق دورشستر، لندن، 26 أغسطس 2004.
53. Woodward, p. 97.
54. انظر الهامش 52.
55. المصدر نفسه.
56. Michael Kilian. "Nancy Reagan Noted for Style, Understated Influence." *Chicago Tribune*, July 6, 2004.
57. Nancy Reagan. *My Turn: The Memoirs of Nancy Reagan*. New York: Random House, 1989:60.
58. المصدر نفسه، ص. 61.
59. Julie Wolf. "Nancy Reagan." Public Broadcasting Service, PBS Online.
60. Dr. Peter David Beter. Audio Letter ® No. 76.Washington D.C.: Audio Books, Inc., June 30, 1982.
61. المصدر نفسه.
62. Sam Donaldson. ABC Evening News, June 25, 1982.
63. Lolly Weymouth. "A Prince Who Would Make Peace; Saudi Arabia' s Bandar Worries about American-Israeli Ties." *Washington Post*, December 4, 1983.
64. "The Power Behind the Throne: A Wife' s Tale." *U.S. News & World Report*, July, 20, 1992.
65. Walsh, p. ___.
66. انظر الهامش 7.

5. بندر تاجر سلاح

1. كلمة الأمير بندر أمام ماكدونل دوغلاس، 9 يناير 1989.
2. المصدر نفسه.
3. Farhang Rajaee. *The Iran-Iraq War: The Politics of Aggression*. Gainesville: University of Florida Press, 1993: 200.
4. مقابلة مع لورد باول بايزووتر في كوين آنز غيت، لندن، 26 مايو 2004.
5. مقابلة مع طوني إدواردز، الرئيس السابق لهيئة مبيعات الصادرات الدفاعية البريطانية في نادي سلاح الجوّ الملكي، بيكاديلي، لندن، 15 أكتوبر 2004.
6. مقابلة مع السير ريتشارد إيفانـــز، رئيس شركة بريتيش إيروسبيس سيستمز، لندن، 10 فبراير 2004.

7. David E. Long. The United States and Saudi Arabia: Ambivalent Allies. Boulder and London: Westview Press, 1985: 45.

8. المصدر نفسه، ص 46.

9. انظر الهامش 6.

10. *The Observer* (London), May 10, 1992; "Saudi Arabia: Princes Fight It Out." *Indigo Intelligence Newsletter*, October 6, 1994; and Anthony Sampson, "Arms and the Middle Men." *Times Newspapers*. October 12, 1994.

11. Anthony H Cordesman. *Saudi Arabia: Guarding the Desert Kingdom*. Boulder and London: Westview Press, 1997: 157.

12. *Flight*, December 8, 1984.

13. انظر الهامش 5.

14. *The Observer* (London), March 19, 1989.

15. Saudi Prince May Sign £3bn Arms Contract Next Week. **The Times** (London), September 9, 1985, p. 8.

16. Chrissie Hirst. "The Arabian Connection: The UK Arms Trade to Saudi Arabia." Campaign Against Arms Trade (CAAT) website: www.caat.org.uk/publicaitons/countries/saudi-arabia.php.

17. انظر الهامش 1.

18. انظر الهامش 16.

19. Julie Flint. "Massive Saudi Weapons Deal Draws Unwanted Attention to BAe Systems." *Daily Star* (Lebanon), December 9, 2003.

20. "Tornado Rip-Off: Adam Raphael Investigates Britain's Biggest-ever Arms Deal and the Middlemen Who Fixed It." *The Observer* (London), March 19, 1989, p. 9.

21. *The Economist*, July 16, 1988.

22. انظر الهامش 19. و Nick Cohen. "The Curse of Black Gold" *The New Statesman* June 2, 2003, p. 25ff.

23. *The Independent* (London), March 12, 1992, and June 24, 1997.

24. انظر الهامش 16.

25. انظر الهامش 10.

26. انظر الهامش 5.

27. Royal Decree No. M/14, 1997; Council of Ministers Resolution No.1275, 17.9.75.

28. David Leigh and Rob Evans. "Arms Firm's £60m Slush Fund." The Guardian (London), May 4, 2004.

29. انظر الهامش 19.

30. انظر الهامش 11.

31. انظر الهامش 5.

32. W. Seth Carus and Edward N. Luttwak. Ballistic Missiles in the Third World: Threat and Response. New York: Praeger. 1990.

33. Yitzhak Shichor. East Wind over Arabia: Origins and Implications of the Sino-Saudi Missile *Deal*. Los Angeles: Center for Chinese Studies, University of California Press, 1989: 26.

34. مقابلة مع الأمير بندر، CBS News *Nightwatch*.
35. William Safire. "Those Chinese Missiles." *New York Times*, February 23, 1989; U.S. Congress. Congressional Record, 101st Cong., 1st Sess., 1989, p. S5448.
36. مقابلة مع السفير ريتشارد مورفي في نيويورك، 7 أبريل 2006.
37. James Mann. About Face: A History of America's Curious Relationship with China, from Nixon *to Clinton*. New York: Alfred A. Knopf, 1999: 169-170.
38. The Independent (London), April 2, 1988 (عنوان المقالة غير معروف).
39. مقابلة مع وزير الخارجية كولن باول في وزارة الخارجية، واشنطن دي سي، 5 نوفمبر 2004.
40. Mark Erickson Daryl, Joseph E. Goldberg, Stephen H. Gotowicki, et al. *An Historical Encyclopedia of the Arab-Israeli Conflict*. Westport, Conn.: Greenwood, 1996: 119.
41. Susanne Hoeber Rudolph. *Transnational Religion and Fading States*. Boulder and London: Westview Press, 1997.
42. Charles J. Hanlet. "Where Are the Saudis' Missiles? Saudis' Missiles Drop from Sight." Associated Press, May 12, 1997.
43. مقابلـــة مع الأمير بندر بن سلطان في "Saudis Withheld Missiles to Spare Civilians." *Washington Times*, June 10, 1991, p. 3.
44. Jim Hoagland. "The Turtle Snaps Back." Washington P ost. April 13, 1988, p. 2.
45. المصدر نفسه.
46. مقابلة مع الأمير بندر أجراها تشارلي روز على CBS News *Nightwatch*.
47. Shichor, p. 30.
48. "Saudi CSS-2 Missiles Now Operational." *Flight International*, June 12, 1990, pp. 12-13.
49. R. Bates Gill. Chinese Arms Transfers: Purposes, Patterns, and Prospects in the New World Order. Westport, Conn: Praeger 1992: 114.
50. Shichor, p. 41.
51. الأمير بندر في مقابلة مع جون ماكلولن في برنامج "وجهاً لوجه" (*One on One*).
52. Youssef M. Ibrahim. "Saudis Reaffirm a Right to Vary Arms Dealings." *New York Times*. July 28, 1988.
53. "Saudis Warn Iran They May Use Chinese Missiles." *New York Times*, April 28, 1988, p. 1.
54. Bill Gertz. "Saudis Withheld Missile to Spare Civilians." *Washington Times*, June 10, 1991, p. A4.
55. Akaki Dvali. *Will Saudi Arabia Acquire Nuclear Weapons?* Monterey, Calif.: Center for Nonproliferation Studies, 2004.

6. نظام عالمي جديد

1. Report of Congressional Committee Investigating the Iran-Contra Affair. Washington D.C.: Government Printing Office, 1987: Vol. 1, Appendix A.
2. Robert Parry. "Missing U.S.-Iraq History." December 16, 2003. www.change-links.org/missingfacts1.htm.

3. R.P.H. King. *The United Nations and the Iran-Iraq War, 1980-1986*. New York: Ford Foundation.1987: 19-20.

7. الخليج ينفجر

1. Dennis Menos. Arms over Diplomacy: Reflections on the Persian Gulf War.Westport, Conn.: Praeger, 1992: 3.
2. مقابلة مع الجنرال برنت سكوكروفت في واشنطن دي سي، 7 مايو 2004.
3. George Bush and Brent Scowcroft. A World Transformed. New York: Alfred A. Knopf, 1998:325.
4. Gregory Crane. *Thucydides and the Ancient Simplicity: The Limits of Political Realism*. Los Angeles: University of California Press, 1998.
5. مقابلة مع لورد تشارلز باول في كوين آنز غيت، لندن، 6 مايو 2004.
6. المصدر نفسه.
7. انظر الهامش 2.
8. George Crile. *My Enemy's Enemy*. New York: Grove/Atlantic, 2003: 236.
9. William Head and Earl H. Tilford. The Eagle in the Desert: Looking Back on U.S. Involvement *in the Persian Gulf War*. Westport, Conn.: Praeger, 1996: 39.
10. انظر الهامش 2.
11. "April Glaspie-Saddam Hussein Conversation 1990: Excerpts from Iraqi Document on Meeting with U.S. Envoy." *New York Times International*, September 23, 1990.
12. Dan Goodgame. "1990: The Two George Bushes." *Time*, January 2, 1990.
13. Robert Parry. "Saddam's 'Green Light'; October Surprise X-Files" (Part 5). The Consortium, www.consortiumnews.com/archive/xfile5.html.
14. William Blum. *Killing Hope: U.S. Military and CIA Interventions since World War II*. Munroe, Me: Common Courage Press. 2004; Sartre. "The Dubious U.S. State Department: State Department Running as Usual Purge the Ranks, Change the Policy." Rense.com, October 12, 2003.
15. Michael R. Gordon and General Bernard E. Trainor. *The General's War*. New York: Little, Brown and Co./Bay Back Books, 1995: 26.
16. المصدر نفسه، ص. 22 – 23.
17. David B. Ottaway. "Been There, Done That: One of the Great Cold Warriors Faces Yawn of a New Era." *Washington Post*, July 21, 1996.
18. مقابلة مع وزير الخارجية كولن باول في وزارة الخارجية، واشنطن دي سي، 5 نوفمبر 2004.
19. Roxanne Roberts. "The Saudi Envoy's Supersonic Diplomatic Course." *Washington Post*, August 16, 1990.
20. مقابلة مع الأمير بندر أجراها روجر مود.
21. مقابلة مع الأمير بندر في برنامج John McLaughlin's *One on One*, PBS.
22. مقابلة مع الأمير بندر في برنامج *Larry King Live*, CNN.
23. James A. Blackwell Jr, Michael J. Mazarr, and Don M. Snider. *Desert Storm: The Gulf War and What We Learned*. Boulder and London: Westview Press. 1993: 29.

24. Karl Von Vorys. American Foreign Policy: Consensus at Home, Leadership Abroad. Praeger, Westport, Conn.: 1997: 55.
25. Turi Munthe. *The Saddam Hussein Reader*. New York: Thunders Mouth Press, 2002:227-228.
26. Bob Woodward. *The Commanders*. New York: Touchstone/Simon & Schuster, 1991: 202.
27. Kenneth Pollack. *The Threatening Storm: The Case for Invading Iraq*. New York: Random House. 2002: 31.
28. Woodward, p. 204.
29. المصدر نفسه، ص 239.
30. مقابلة مع ضابط الصف سمير بن فهد بن تركي في الدار البيضاء، 21 أبريل 2005.
31. انظر الهامش 19.
32. انظر الهامش 21.
33. Daniel Pipes. The Hidden Hand: Middle East Fears of Conspiracy. New York: St. Martin's Press, 1998: 354.
34. *New York Times*. February 27, 1991 (عنوان المقالة غير معروف).
35. Carter Center Briefing. "Crisis in the Gulf," segment one, 23:17.
36. المصدر نفسه.
37. Bush and Scowcroft, p. 305.
38. المصدر نفسه، ص 320.
39. Michael Watkins. Breakthrough International Negotiation: How Great Negotiators Transformed the World's Toughest Post-Cold War Conflicts. San Francisco: Jossey-Bass, 2001: 187.
40. Paul Aarts. "The New Oil Order: Built on Sand?" *Arab Studies Quarterly* 16(2):1; 1994.
41. Mary McGory. "A Christmas Card from Prince Bandar." *Washington Post*, December 16,1990, P. K.01.
42. Brian Whitaker. "Saddam: Serpent in the Garden of Eden." *The Guardian Unlimited*. January 12, 2001; Lindsey Hilsum. "Cartoons and Oil." *The New Statesman*, February 13, 2006.
43. انظر الهامش 35.
44. انظر الهامش 22.
45. HRH General Khaled bin Sultan and Patrick Seale. *Desert Warrior: A Personal View of the* Gulf War by the Joint Force Commander. New York: HarperCollins, 1995: 27.
46. انظر الهامش 2.
47. المصدر نفسه.
48. Michael A. Palmer. Guardians of the Gulf: A History of America's Expanding Role in the Persian *Gulf*, 1883-1992. New York: Touchstone Books, 1999: 117.
49. Randall M. Miller and Steve A. Yetiv. The Persian Gulf Crisis.Westport, Conn.: Greenwood Press, 1997: 13; Bob Woodward. The Commanders. New York:

Touchstone Books/Simon & Schuster, 1991: 240; Richard L. Russell. A Saudi .Nuclear Option?" Survival 43(2): 70; 2001

.50 انظر الهامش 2.

.51 Colin Powell with Joseph E. Persico. *Colin Powell—A Soldier's Way: An .Autobiography*. London: Hutchinson, 1995: 465

.52 Gary R. Hess. Presidential Decisions for War: Korea, Vietnam, and the Persian Gulf .(The American Moment). Baltimore: John Hopkins University Press, 2001: 166

.53 .Gordon and Trainor, p. 40

.54 انظر الهامش 2.

.55 Judith Miller. "Saudis Tell of Iraq Hot-Line Drama." *New York Times*, October 4, .Palmer, p. 168 .56 .1990, p. A15

.57 Crisis in the Persian Gulf Region: U.S. Policy Options and Implications. U.S. .Congress, Senate, SASC, S. Hrg. 101-1071, sess. 101/2, p. 645; Palmer, p. 168

.58 .Woodward, p. 240

.59 Dr. Nasser Rachid and Dr. Esber Shaheen. *Saudi Arabia and the Gulf War*. .International Institute of Technology, 1992: 172

.60 .Amatzia Baram. *Iraq's Ro ad to War*. London: Palgrave MacMillan, 1996

.61 .Gordon and Trainor, p. 49

.62 انظر الهامش 21.

.63 .Bush and Scowcroft, p. 374

.64 المصدر نفسه، ص 374.

.65 .CNN News, August 5, 1990

.66 Daniel Pipes. "The Scandal of U.S.-Saudi Relations." *The National Interest*, Winter .2002

.67 General H. Norman Schwarzkopf and Peter Petre. *It Doesn't Take a Hero*. New .York: Linda Grey/Bantam Books, 1992: 277

.68 المصدر نفسه، ص. 389.

.69 .Schwarzkopf and Petre, pp. 302-306

.70 Peter W. Wilson and Douglas F. Graham. *Saudi Arabia—The Coming Storm*. New .York: M.E. Sharpe, 1994: 112-113

.71 .Schwarzkopf and Petre, pp. 304-305

.72 مقابلة مع الأمير بندر في برنامج ABC News *Nightline* by Ted Koppel.

.73 المصدر نفسه.

.74 انظر الهامش 2.

.75 انظر الهامش 5.

.76 مقابلة مع السير ريتشارد إيفانـــز، رئيس مجلس إدارة شركة بريتيش إيروسبيس سيستمز، في لندن، 10 فبراير 2004.

.77 Margaret Thatcher. *The Downing Street Years*. New York: HarperCollins, 1995: .820

.78 انظر الهامش 2.

.79 انظر الهامش 76.

80. James Addison Baker and Thomas M. Defrank. *The Politics of Diplomacy: Revolution, War and Peace 1989-1992*. New York: Putnam, 1995: 290.
81. انظر الهامش 76.
82. انظر الهامش 2.
83. "Challenges to Security in Southwest Asia." Speech by Prince Bandar bin Sultan, Tampa, Florida, May 20, 1993.
84. bin Sultan and Seale, p. 24.
85. Wilson and Graham, p. ___.
86. انظر الهامش 21.
87. Murrey Marder. "Operation Washington Shield." *Nieman Reports* 1999; 53(4): 57.
88. Thomas A. McCain and Leonard Shyles. The 1,000 Hour War: Communication in the Gulf. Westport, Conn.: Greenwood Press. 1994: 39.
89. مقابلة مع الأمير بندر في برنامج CBS News *Nightwatch*.
90. Anthony Lewis. "To See Ourselves: The Failings of the Press in the Gulf War." *New York Times*, May 6, 1991, p. A15.
91. انظر الهامش 87.
92. Bush and Scowcroft, p. 439.
93. انظر الهامش 22.
94. The World Today: Crisis in the Gulf, CNN, 1990.
95. Judith Miller. God has Ninety Nine Names: Reporting from a Militant Middle East. New York: Touchstone Books, 1997: 520.
96. Wilson and Graham, p. 115.
97. Prince Bandar bin Sultan al-Saud. "An Open Letter to King Hussein." *Washington Post*, September 26, 1990, p. A25.
98. انظر الهامش 21.
99. مقابلة مع الدكتور سعيد الكرمي في تشيفي تشيس، مريلند، 27 يناير 2004.
100. Bush and Scowcroft, p. 373.
101. Gary A. Donaldson. *America a t War since 1945*. New York: Praeger 1996: 165.
102. Bush and Scowcroft, p. 427.
103. المصدر نفسه ص 389.
104. المصدر نفسه ص 401.
105. انظر الهامش 18.
106. المصدر نفسه.
107. Bush and Scowcroft, pp. 414-415.
108. Baker and Defrank, p. 354.
109. Donald Kagan. While America Sleeps: Self Delusion, Military Weakness, and the Threat to *Peace Today*. New York: St. Martin' s Griffin, 2001: 252.
110. Donaldson, p. 164.
111. Bush and Scowcroft, p. 420.
112. انظر الهامش 110.

113. انظر الهامش 111.

114. Woodward, p. 370.

115. Baker and Defrank, p. 372.

116. Schwarzkopf and Petre, p. 408.

117. المصدر نفسه، ص. 417 – 418.

118. Baker and Defrank, p. 386.

119. Gordon and Trainor, p. ___.

120. مقابلة مع وزير الخارجية جيمس بيكر في هيوستن، تكساس، 2 مارس 2004.

121. Wilson and Graham, pp. 115-116.

122. كلمة بندر أمام منتدى اتحاد سلاح الجوّ في فندق وستفورد ريجنسي، 10 يونيو 1992.

123. bin Sultan and Seale, p. 161.

124. George Bush. "A Nation Blessed: Persian Gulf War as Turning Point in US Military History." *Naval War College Review*, Autumn 2001. Commencement address delivered on June 15, 2001, to the Naval War College graduating class of 2001.

125. Sarah Graham-Brown. *Sanctioning Saddam: The Politics of Intervention in Iraq*. London: I.B. Tauris. 1999: 3.

126. Gordon and Trainor, p. ___.

127. انظر الهامش 124.

128. انظر الهامش 35.

129. انظر الهامش 124.

130. انظر الهامش 126.

131. انظر الهامش 124.

132. انظر الهامش 76.

133. George H.W. Bush Presidential Library.

134. James Baker. The Gulf War: An In-Depth Examination of the 1990-91 Persian Gulf Crisis. Oral History: The Decision Makers. *Frontline*.

135. مقابلة عبر الهاتف مع أندرو نيل في 21 مارس 2006.

8. السلام في الشرق الأوسط

1. "Saudi Prince Says the Kingdom is at a Crossroads." *The Daily Star* (Lebanon), May 21, 2004.

2. رســـالة ضـــمانات وزير الخارجية جيمس بيكر إلى الفلسطينيين، 18 أكتوبر 1991. أعيدت طباعتها في William B. Quandt. *Peace Process: American Diplomacy and the Arab-Israeli Conflict since 1967*. New York and Berkeley: The Brookings Institution & University of California Press, 1993: 50.

3. Robert O. Freedman. The Middle East and the Peace Process: The Impact of the Oslo Accords. Gainesville: University Press of Florida, 1998: 376.

4. مقابلة مع الجنرال برنت سكوكروفت في واشنطن دي سي، 7 مايو 2004.

.5 Abdulaziz Bashir and Stephen Wright. "Saudi Arabia: Foreign Policy after the Gulf War." *Middle East Policy* I (1): 112; 1992.

.6 Thomas L. Friedman. *From Beirut to Jerusalem*. New York: Anchor, 1990: 536.

7. مقابلة مع الدكتور سعيد الكرمي في تشيفي تشيس، مريلند، 27 يناير 2004.

.8 George Bush and Brent Scowcroft. *A World Transformed*. New York: Alfred A. Knopf, 1998:490.

.9 Kathleen Christison. Perceptions of Palestine: Their Influence on Middle East Policy. Berkeley and Los Angeles: University of California Press, 1999: 243.

.10 Friedman, p. 537.

.11 Said K. Aburish. Arafat: From Defender to Dictator. New York: Bloomsbury USA, 1999:p. 240.

12. مقابلة مع الرئيس الأسبق جورج إيتش دبليو بوش في هيوستن، تكساس، 20 فبراير 2004.

13. كلمة الأمير بندر أمام مجلس الشؤون العالمية في هيوستن، تكساس، 5 ديسمبر 2003.

.14 Mark Matthews. "Envoy' s Madrid Role Shows Saudi' s Diplomatic Muscle." *Baltimore Sun*, November 5, 1991.

.15 Frank Greve. "The Politic Prince." *Philadelphia Inquirer*, November 8, 1991.

16. مقابلة مع وزير الخارجية جيمس بيكر الثالث في هيوستن، تكساس، 2 مارس 2004.

17. كلمة محضّرة للأمير بندر بن سلطان، مجلس رجال الأعمال الأميركيين السعوديين، واشنطن دي سي، 2 أكتوبر 1996.

18. المصدر نفسه.

19. ملاحظات أدلى بها الأمير بندر بن سلطان أمام مؤتمر العُمَد، واشنطن دي سي، 22 يناير 2003.

.20 Munther J. Haddadin. "Water in the Middle East Peace Process." The Geographical Journal 168 (4): 324; 2002.

.21 Herbert C. Kelman. "Building a Sustainable Peace: The Limits of Pragmatism in the Israeli-Palestinian Negotiations." *Peace and Conflict* 5 (2): 101; 1999.

.22 Jacinta Sanders. "Honest Brokers? American and Norwegian Facilitation of Israeli-Palestinian Negotiations." *Arab Studies Quarterly* 21 (2): 1999.

23. مقابلة مع السفير إدوارد جيرجيان في جامعة رايس في هيوستن، تكساس، 2 مارس 2004.

24. المصدر نفسه.

.25 Daniel Pipes. "Why Oslo' s Hopes Turned to Dust." *The New York Post*, September 9, 2003.

26. مقابلة مع الدكتور سعيد الكرمي في تشيفي تشيس، مريلند، 27 يناير 2004.

.27 John T. Rourke and Mark A. Boyer. "Palestinians: A Nation without a State." In *World Politics*: International Politics on the World Stage. New York: McGraw-Hill, 2002: 105.

.28 Robert G. Kaiser and David B. Ottaway. "Saudi Leader' s Anger Revealed Shaky Ties; Bush' s Response Eased a Deep Rift on Mideast Policy; Then Came September 11." *Washington Post*, February 10, 2002, p. A.01.

.29 Sami G. Hajjar. "The Israel-Syria Track." *Middle East Policy* VI (3) 112; 1999.

30. ملاحظات الأمير بندر على اجتماع في البيت الأبيض مع الرئيس كلينتون، 7 نوفمبر 1998.

31. المصدر نفسه.

32. "Israel Continuing Settlement Activities, Evading Wye River Memorandum, Palestine Observer Tells General Assembly Special Session." Science Blog. GA/9542, February 5, 1999.

33. Richard H. Curtiss. "Both Parties Now Are Waiting to Assign the Blame for Failure of the Middle East Peace Process. *Washington Report on Middle East Affairs*, December 1999.

34. مقابلة مع الدكتور هنري كيسنجر في نيويورك، 27 أبريل 2004.

35. "Showstopper on Arafat: Prompting Reflections on Palestinian Leadership." *American Students for Israel*, September 28, 2003.

36. انظر الهامش 7.

37. Alan Dershowitz. *The Case for Israel*. Hoboken, N.J.: John Wiley & Sons, 2003: 117.

38. Barry Rubin and Judith Colp Rubin *Yasir Arafat: A Political Biography*. New York: Oxford University Press, 2003: 185.

39. Steve Berley. "Dual Anniversaries of Accord and Strife Point to Path of Hope." *San Francisco Chronicle*, July 25, 2004.

40. Rubin and Rubin, p. 200.

41. Bill Clinton. *My Life*: New York: Alfred A Knopf, 2004: 938.

42. Fares Al-Braizat. "Muslims and Democracy: An Empirical Critique of Fukuyama's Culturalist Approach." *International Journal of Comparative Sociology*, 2002; Fareed Zakaria. "How to Save the Arab World." *Newsweek*, December 24, 2001.

43. انظر الهامش 16.

44. مقابلة مع لورد بايزووتر تشارلز باول في كوين آنــز غيت، لندن، 26 مايو 2004.

45. Hendrick Hertzberg. "Fade from Black." *The New Yorker*, December 17, 2001.

46. مقابلة مع الرئيس السابق بيل كلينتون في نيويورك، 10 فبراير 2005.

47. المصدر نفسه.

48. انظر الهامش 7.

49. انظر الهامش 40.

50. "The Prince: How the Saudi Ambassador Became Washington' s Indispensable Operator." *The New Yorker*, March 24, 2003.

51. انظر الهامش 19.

52. J.D. Hayworth. "Bandar' s Delusions." *Washington Times*, April 14, 2002, p. B05.

53. انظر الهامش 34.

54. مقابلة مع السفير ريتشارد مورفي في نيويورك، 28 أبريل 2004.

55. انظر الهامش 4.

9. الأمير الذي لا يُقهر

1. مقابلة مع السير ريتشارد إيفانــز، رئيس مجلس إدارة شركة بريتيش إيروسبيس سيستمز، في لندن، 10 فبراير 2004.

2. مقابلة مع بتينا جيلبرت، سكرتيرة الأمير بندر 1982 - 1999، في واشنطن دي سي، 5 نوفمبر 2004.

3. مقابلة مع شيري كوبر، سكرتيرة الأمير بندر، في واشنطن دي سي، 4 سبتمبر 2004.
4. Elsa Walsh. "Louis Freeh' s Last Case." *The New Yorker*, May 14, 2001.
5. مقابلة مع العقيد جو رامسي في واشنطن دي سي، 29 أكتوبر 2003.
6. Gerald Posner. Why America Slept: The Failure to Prevent 9/11. New York: Random House, 2003; 107.
7. Louis J. Freeh. "Remember Khobar Towers: Nineteen American Heroes Still Await American Justice." *Wall Street Journal*, May 20, 2003.
8. Rich Lowrie. "Clinton & Khobar: One of the Keys to Understanding the War over the War on Terrorism." *National Online Review*, November 3, 2003.
9. انظر الهامش 4.
10. مقابلة مع لويس فريه مدير مكتب التحقيقات الفيدرالي، 1993 – 2001 في واشنطن، دلوير، 11 مارس 2004.
11. انظر الهامش 10.
12. Thomas Blood. Madam Secretary: A Biography of Madeleine Albright. New York: St. Martin' s Press, 1997: 106.
13. انظر الهامش 10.
14. المصدر نفسه.
15. انظر الهامش 4.
16. انظر الهامش 10.
17. Richard Lowry. "America' s Unspecial Relationship: A Cold Look at the Saudis." *National Review*, February 25, 2002.
18. انظر الهامش 10.
19. Josh Pollack. "Anti-Americanism in Contemporary Saudi Arabia." *Middle East Review of International Affairs* (MERIA), December 2003.
20. Robert G. Kaiser and David B. Ottaway. "Oil for Security Fueled Close Ties: But Major Differences Led to Tensions." *Washington Post*, February 11, 2002; p. A01.
21. "Looking for Answers." Transcript of a Frontline Interview with Martin Smith and Lowell Bergman. *New York Times*, October 9, 2002.
22. انظر الهامش 10.
23. "Furious Saudis Reject U.S. 9/11 Claims Agencies." *Guardian Unlimited*, July 25, 2003.
24. انظر الهامش 10.
25. "Louis Freeh Praises Saudi Cooperation on Khobar Investigation." *PR Newswire*, October 9, 2002.
26. انظر الهامش 10.
27. انظر الهامش 25.
28. انظر الهامش 10.
29. انظر الهامش 25.
30. انظر الهامش 10.

31. المصدر نفسه.
32. انظر الهامش 4.
33. المصدر نفسه.
34. انظر الهامش 10.
35. انظر الهامش 4.
36. انظر الهامش 10.
37. انظر الهامش 4.
38. المصدر نفسه.
39. Bruce Maddy-Weitzman. *Middle East Contemporary Survey: 1996*, volume 20. Boulder and London: Westview Press, 1998: 583.
40. Alfred B. Prados. "CRS Issue Brief 93113: Saudi Arabia: Post-War Issues and U.S. Relations." Foreign Affairs and National Defense Division, December 2, 1996.
41. انظر الهامش 4.
42. نـــسخة عن مقابلة الأمير بندر مع ديفيد برينكلي في برنامج ABC's This Week, July 7, 1996.
43. Cynthia Grenier. "The Last Case of Louis Freeh." *WorldNetDaily*, May 21, 2001.
44. انظر الهامش 10.
45. انظر الهامش 4.
46. Ronald Kessler. *The Bureau: The Secret History of the FBI.* New York: St. Martin's Press, 2002.
47. William A. Mayer. "Not Home Freeh–Clinton and the Khobar Towers Investigation." E&P PipelineNews.org, October 12, 2005.
48. Thomas Lippman. Madeleine Albright and the New American Diplomacy. Boulder and London: Westview Press, 179.
49. انظر الهامش 4.
50. "Freeh Links Iran to Khobar Bombing." www.CabalofDoom.com, December 19, 2003.
51. انظر الهامش 8.
52. انظر الهامش 50.
53. U.S. Department of State daily press briefing by James P. Ruben, March 31, 1998.
54. انظر الهامش 10.
55. المصدر نفسه.
56. انظر الهامش 47.
57. انظر الهامش 8.
58. مقابلة مع الأمير بندر بن سلطان أجراها أندرسون كوبر، سي أن أن، 14 مايو 2003.
59. انظر الهامش 25.
60. انظر الهامش 60.
61. David Johnston and Thom Shanker. "Saudis Sought to Divide Clinton Team over '96 Bombing, Aides Say." *New York Times*, October 2, 2002.

62. Carl Limbacher. "Saudis Misled FBI Chief Freeh, Clinton Aides Say." FreeRepublic.com, October 1, 2002.
63. Sidney Blumenthal. *The Clinton Wars*. New York: Viking Press, 2003: 663.
64. Daniel Benjamin and Steven Simon. *The Age of Sacred Terror*. New York: Random House, 2002: 301.
65. انظر الهامش 8.
66. Daniel Benjamin. Letters to the Editor: Khobar Bombing and the Clinton White House. Wall Street Journal, May 27, 2003.
67. مقابلة مع الرئيس السابق بيل كلينتون في نيويورك، 10 فبراير 2005.
68. Lyn Boyd-Judson. *Foreign Policy Analysis* "Strategic Moral Diplomacy: Mandela, Qaddafi, and the Lockerbie Negotiations." 1: 73-97; 2005.
69. المصدر نفسه.
70. Ray Hartley "The Turning of Gaddafi." *Sunday Times* (South Africa), April 11, 1999.
71. مقابلة مع نلسون مانديلا في كيب تاون، جنوب إفريقيا، 2 فبراير 2004.
72. مقابلة مع البروفسور جيكس جيرول في كيب تاون، جنوب إفريقيا، 2 فبراير 2004.
73. انظر الهامش 68.
74. المصدر نفسه.
75. انظر الهامش 72.
76. انظر الهامش 68.
77. انظر الهامش 67.
78. انظر الهامش 68.
79. المصدر نفسه.
80. مقابلة مع طوني إدواردز، الرئيس السابق لهيئة الصادرات الدفاعية، المملكة المتحدة، في نادي سلاح الجوّ الملكي، بيكاديلي، 15 أكتوبر 2004.
81. انظر الهامش 72.
82. مقابلة مع الأمير فيصل بن تركي في مكلين، فيرجينيا، 4 مارس 2004.
83. انظر الهامش 72.
84. مقابلة مع الدكتور سعيد الكرمي في تشيفي تشيس، مريلند، فيرجينيا، 19 فبراير 2004.
85. انظر الهامش 82.
86. مقابلة مع الأميرة ريما بنت بندر في مكلين، فيرجينيا، 19 فبراير و9 مارس 2004.
87. انظر الهامش 82.
88. انظر الهامش 68.
89. الشرق الأوسط (لندن)، 4 سبتمبر 1998 (عنوان المقالة غير معروف).
90. انظر الهامش 72.
91. انظر الهامش 71.
92. انظر الهامش 70.
93. خطاب الأمير بندر بن سلطان أمام مجلس رجال الأعمال الأميركي السعودي، واشنطن دي سي، 2 أكتوبر 1996.

94. Elsa Walsh. "The Prince: How the Saudi Ambassador Became Washington' s Indispensable Operator." *The New Yorker*, March 24, 2003.

95. المصدر نفسه.

96. Dennis Ross. The Missing Peace: The Inside Story of the Fight for Middle East Peace. New York: Farrar, Straus & Giroux, 2004.

97. Bill Clinton. *My Life*. New York: Alfred A Knopf, 2004: 883.

98. انظر الهامش 94.

99. انظر الهامش 67.

100. انظر الهامش 16.

101. Robert G. Kaiser and David B. Ottaway. "Saudi Leader' s Anger Revealed Shaky Ties; Bush' s Response Eased a Deep Rift on Mideast Policy; Then Came Sept. 11." *Washington Post*, February 10, 2002, p. A01.

102. David Farber. "Saudi/U.S. Relations on a Razor Edge." *Washington Post*, February 10, 2002.

103. انظر الهامش 101.

104. "Saudi Prince Says the Kingdom Is at a Crossroads." *The Daily Star* (Lebanon), May 21, 2004.

105. "The Bush Royal Family and the Saudi Royal Family Could Hardly Be Closer." *Foreign Relations*, January 24, 2002.

106. James Heartfield. "A House of Cards." *Spiked*, May 14, 2003.

107. انظر الهامش 101.

108. المصدر نفسه.

10. 9/11 الكارثة

1. "Remembering Hume Horan (1934-2004). Extract from Hume Horan, 'Saudi Arabia: A Successful Anomaly (So Far),' The American Enterprise." *Middle East Quarterly*, Fall 2004, pp. 32-35.

2. "U.S.-Saudi Anti-terror Cooperation on the Rise: An Interview with Ambassador Richard W. Murphy." Saudi-U.S. Relations Information Service, May 3, 2004.

3. Tony Karon. "Person of the Week: Adel al-Jubeir." *Time*, December 5, 2002.

4. Richard Cohen. "Saudi Switcheroo." *Washington Post*, November 28, 2002, p. A47.

5. ملاحظات الأمير بندر بن سلطان أمام مؤتمر العُمَد، واشنطن دي سي، 22 يناير 2003.

6. Amrith Mago. "Saudis Paid Off Osama bin Laden and 9/11 Terrorists." *Jewish Institute for National Security Affairs* (JINSA) Online, September 6, 2002.

7. "Issues in Context: Prince Bandar Meets the Press." *Saudi-U.S. Relations Information Service*, April 26, 2004.

8. المصدر نفسه.

9. "Saudi Arabia in 9-11 Commission Report." *PRNewswire*, July 22, 2004.

10. انظر الهامش 7.

11. Ahmad Faruqui. "Scapegoating Saudi Arabia for 9/11." *The Daily Times*, (Pakistan), December 16, 2003.

12. Anthony H. Cordesman. "Ten Reasons for Reforging the U.S. and Saudi Relationship." Saudi-American Forum, February 1, 2004.

13. Khaled Dawoud. "Squeezing Saudi Arabia." *Al-Ahram Weekly Online*, December 24, 2003.

14. نسخة عن مقابلة مع الأمير نايف، وزير الداخلية في المملكة العربية السعودية، **السياسة** (الكويت)، 29 نوفمبر 2002.

15. Mark Steyn. "Bought-Off as We' re Destroyed." *The Spectator*, November 28, 2002.

16. انظر الهامش 5.

17. "Furious Saudis Reject US 9/11 Claims." *Guardian Unlimited* (London), July 25, 2003.

18. "U.S.-Saudi Relations: In Transition?" Address by Prince Bandar to the World Affairs Council, Los Angeles, September 22, 2003.

19. "Prince Bandar Ibn Sultan: We Were Telling You They Were Terrorists and the West Was Calling Them Dissidents." *Ain-Al-Yaqeen*, October 3, 2003.

20. "Bandar Hits 9/11 Report." *Washington Times*, July 29, 2003, p. A14.

21. انظر الهامش 17.

22. Simon Henderson. "The September 11 Congressional Report: A Sea Change in U.S.-Saudi Relations?" The Washington Institute f or Near East Policy, July 30, 2003.

23. "9/11 Probe Clears Saudi Arabia." BBC News, June 17, 2004.

24. "Bush Administration Censors 28 Pages on Saudi Arabia' s Role from 9/11 Report." *Agence France-Presse*, July 25, 2003.

25. انظر الهامش 20.

26. Josh Meyer. "Classified 9/11 Material Implicates Saudi Government, Officials Say." *Los Angeles Times*, August 2, 2003.

27. John B. Judis and Spencer Ackerman. 28 Pages. *New Republic*, January 8, 2003.

28. مقابلة مع الأمير بندر أجرتها *Los Angeles Times*, September 24, 2003.

29. Seymour M. Hersh. "King' s Ransom: How Vulnerable are the Saudi Royals." *The New Yorker*, October 22, 2001.

30. Evan Thomas and Christopher Dickey. "The Saudi Game." *Newsweek*, November 19, 2001.

31. Jim Lobe. "The Bewilderment of Prince Bandar." *Asia Times*, November 29, 2002.

32. Paul Krugman. "Michael Moore' s Public Service." ABS/CBS Interactive, July 2, 2004.

33. Bill Gallagher. "Saudi Connections to Bushes Make Action Highly Unlikely." *Niagara Falls Reporter*, January 22, 2002.

34. تبادل للرسائل عبر البريد الإلكتروني بين راشيل برونسون وكريغ أونغر. الموضوع: 9/11 أخّر الهجوم على العراق، 8 يوليو 2004.

35. انظر الهامش 18.

36. James Morrison. "Defending the Saudis." *Washington Times*, February 12, 2002.

37. Jerry Seper. "Princess' s Cash Went to Al Qaeda 'Advance Man.' " *Washington Times*, November 26, 2002.

38. Craig Unger. "Saving the Saudis." *Vanity Fair*, October 2003.

39. Patrick E. Tyler. "Explaining Gift, Saudi Envoy Voices Pain for Strained Ties." *New York Times*, November 27, 2002.

40. Robert Baer. Sleeping with the Devil—How Washington Sold Our Souls for Saudi Crude. New York: Crown, 2003: 62-68.

41. Patrick E. Tyler. "Explaining Gift, Saudi Envoy Voices Pain for Strained Ties." *New York Times*, November 27, 2002.

42. مقابلة مع ميمي بورك، سكرتيرة الأمير بندر الخاصة، في واشنطن دي سي، 29 يناير 2004.

43. Elizabeth Wolfe. "Weathering Criticism, Saudi Ambassador' s Wife Questions Own Charitable History." *Detroit News*, November 28, 2002.

44. "Saudi-U.S. Ties Sorely Tested as U.S. Fails to Dampen Media Sniping." *IslamOnline & News Agencies*, November 27, 2002.

45. انظر الهامش 42.

46. Matt Welsh. "Is Bandar Bush Above the Law?" *National Post*, April 19, 2003.

47. مقابلة مع ميمي بورك، سكرتيرة الأمير بندر الخاصة، في واشنطن دي سي، 29 يناير 2004.

48. Daniel Pipes. "Government for Sale (to the Saudis.)" *New York Post*, December 3, 2002.

49. انظر الهامش 43.

50. Timothy L. O' Brien. "Inquiry at Bank Looks at Accounts of Diplomats." *New York Times*, April 2, 2004.

51. Ken Guggenheim. "Commission Finds No Evidence of Saudi Funding of Sept. 11 Hijackers." San Diego Union Tribune, June 16, 2004.

52. *Washington Post*, "Saudis Seen as Supporting Terror, Poll Shows." February 26, 2002; Joseph A. Kechichian. "Testing the Saudi 'Will to Power' : Challenges Confronting Prince Abdallah." *Middle East Policy Council Journal*, Winter 2003.

53. المصدر نفسه.

54. كلمة ألقاها الأمير بندر أمام مجلس الشؤون العالمية في بيرمنغهام ألباما، 26 سبتمبر 2003.

55. "Facts about Saudi Arabia in 9/11 Commission Report." *PRNewswire*, July 22, 2004.

56. "A Relationship in Transition—and Then 9/11." Saudi-American Forum interview, Ambassador Chas W. Freeman.

57. J. Crawford Cook. "A Program for 1980 and Beyond." Cook, Ruef, Spann & Weiser, Inc., November 1, 1979.

58. انظر الهامش 55.

59. انظر الهامش 61.

60. انظر الهامش 26.

61. Marc Perelman. "Defensive Saudis Lash Out at 'Zionist' and U.S. Critics." *Forward*, December 28, 2001.

62. انظر الهامش 37.

63. انظر الهامش 67.
64. انظر الهامش 18.
65. مقابلة مع الرئيس الأسبق جيمي كارتر في مركز كارتر في أطلنطا، جورجيا، 19 مارس 2004.
66. مقابلة مع الدكتور هنري كيسنجر في نيويورك، 27 أبريل 2004.
67. Lowell Bergman. Transcript of *Frontline* interview: Saudi Time Bomb?, November 15, 2001.
68. AboutSaudiArabia.net, March 17, 2004.
69. انظر الهامش 18.
70. انظر الهامش 67.
71. مقابلة مع وزير الخارجية جيمس بيكر الثالث في هيوستن، تكساس، 2 مارس 2004.
72. انظر الهامش 64.
73. The 9/11 Commission Report: Final Report of the National Commission on Terrorist Attacks *upon the United States*. New York and London: W.W. Norton & Company, 2004.
74. Prince Bandar bin Sultan. *Frontline* interview with Lowell Bergman, September 2001.
75. المصدر نفسه.
76. كلمة الأمير بندر أمام مجلس الشؤون العالمية في هيوستن، تكساس، 5 ديسمبر 2003.
77. انظر الهامش 13.
78. Fareed Zakaria. "The Saudi Trap: A Trip through the Kingdom Reveals What Really Needs to Be Done in the War on Terror." *Newsweek*, June 28, 2003.
79. انظر الهامش 13.
80. انظر الهامش1.
81. "U.S.-Saudi Anti-terror Cooperation on the Rise: An interview with Ambassador Richard W. Murphy." Council on Foreign Relations, April 23, 2004.
82. "U.S.-Saudi Relations: Transcript of an Online Discussion with Rachel Bronson." *Washington Post*, June 21, 2004.
83. "U.S.-Saudi Relations: A Glass Half Empty, Or Half Full? An Interview with Thomas Lippman." Saudi-U.S. Relations Information Service, August 26, 2004.
84. "A Diplomat's Call for War." *Washington Post*, June 6, 2004, p. B04.
85. Tony Karon. "Saudis Wrestle with Qaeda Demons." *Time*, June 16, 2004.
86. Judith Apter Klinghoffer. "Prince Bandar Is the New Saudi NSC Secretary." George Mason University, October 21, 2005.
87. "Saudis in Terror's Shadow." Editorial. *New York Times*, June 28, 2004.
88. انظر الهامش 77.
89. انظر الهامش 73.
90. ملاحظات وزير الخارجية السعودي الأمير سعود الفيصل أمام هيئة السياسة الخارجية، ومجلس رجال الأعمال الأميركي السعودي، 26 أبريل 2004.
91. المصدر نفسه.

92. Carol Devine-Molin. "Understanding the Roots of Militant Islam." *GOPUSA News*, November 25, 2002.
93. Mary Beth Sheridan. "Bias against Muslims up 70%: Radio Talk Shows, Iraq War among Reasons, Study Finds." *Washington Post*, May 3, 2004. p. A12
94. انظر الهامش 75.
95. انظر الهامش 73.
96. Jihane Ayed. "Saudi Arabia: Friends of America." http://nw08.american.edu/~zaharna/jihanesite/index.html, April 30, 2004.
97. انظر الهامش 7.
98. انظر الهامش 17.
99. Damian Guevara. "Saudi Envoy Visits Cleveland, Defends His Country's Leaders." *The Plain Dealer* (Cleveland), December 16, 2003.
100. انظر الهامشين 7 و18.
101. Jake Tapper. "Neil Bush Says Arab P.R Machine Not as Good as Israel's." Salon.com, January 24, 2002.
102. "Saudi Arabia Lacks Commercial Appeal as Stations Reject Ads." *Washington Times*, April 30, 2002.
103. المصدر نفسه.
104. انظر الهامش 55.
105. Roger Franklin. "Saudis Spin Like a Well-Oiled Machine." *The Age* (Melbourne), June 23, 2002.
106. انظر الهامش 18.
107. Michael Brown. "Bush Embraces Sharon's Vision." *Middle East International Magazine*, April 29, 2004.
108. "Bush May Offer Jordan's King Assurances on Mideast." Reuters, April 27, 2004.
109. The White House: A National Security Strategy for a New Century. October 1998: 52.
110. انظر الهامش 65.
111. مقابلة مع الجنرال برنت سكوكروفت في واشنطن دي سي، 7 مايو 2004.
112. Patrick E. Tyler. "A Nation Challenged: The Family; Fearing Harm, bin Laden Kin Fled From U.S." *New York Times*, September 30, 2001
113. انظر الهامش 60.
114. انظر الهامش 64.
115. مقابلة مع السفير ريتشارد مورفي في نيويورك، 28 أبريل 2004.
116. Olivier Knox. "Prince Bandar Denies Oil-Price Deal To Help Bush." *Middle East Online*, April 22, 2004.
117. Steve Berley. "Dual Anniversaries of Accord and Strife Point to Path of Hope." *San Francisco Chronicle*, July 25, 2004.
118. "Yasser Arafat 1929-2004." *Time*, November 22, 2004, p. 38.

11. الأصدقاء وحاشية السفر

1. مقابلة مع الأميرة لولو ابنة بندر في مكلين فيرجينيا، 18 فبراير 2004
2. مقابلة مع جيري بييري، سكرتيرة الأميرة هيفاء، في واشنطن دي سي، 9 مارس 2004.
3. مقابلة مع العقيد روبرت ليلاك في وودستوك، أكسفوردشير، 27 أغسطس 2004.
4. اجتماع مع طارق الشواف في غليمبتون، 1 ديسمبر 2004.
5. انظر الهامش 3.
6. مقابلة مع العقيد جو رامسي في واشنطن دي سي، 29 أكتوبر 2003.
7. انظر الهامش 1.
8. مقابلة مع طارق الشواف في الطريق من مراكش إلى لندن، 5 نوفمبر 2003.
9. المصدر نفسه
10. Yvonne Shinhoster Lamb. "Transplant Specialist Said Karmi, 67, Dies." *Washington Post*, June 11, 2005.
11. مقابلة مع الدكتور سعيد الكرمي في تشفي تشيس، مريلند، 11 مارس 2004.
12. Patricia Sullivan. "Frederick Dutton Dies; Power Broker, Presidential Aide." *Washington Post*, June 26, 2005, p. C10.
13. انظر الهامش 2.
14. مقابلة مع فرِد داتون في فندق دورشستر، لندن، 26 أغسطس 2004.
15. مقابلة مع روبرت ديكون إليوت في جدة، المملكة العربية السعودية، 11 مايو 2004.
16. Lee Michael Katz. "Prince Charming." *The Washingtonian*, November, 2000.
17. William Safire. "Bandarbush" (Essay). *New York Times*, April 20, 1992.
18. مقابلـــة مع الرئيس جورج إيتش دبليو بوش والسيدة باربرا بوش في هيوستن، تكساس، 20 فبراير 2004.
19. انظر الهامش 17.
20. Thomas W. Lippman. "Outlook: The Fall of the House of Saud?" Online discussion at *WashingtonPost*.com, June 14, 2004.
21. انظر الهامش 18.
22. مقابلة مع السير ريتشارد إيفانـــز، رئيس مجلس إدارة شركة بريتيش إيروسبيس سيستمز، في لندن، 10 فبراير 2004.
23. مقابلة مع الدكتور هنري كيسنجر في نيويورك، 27 أبريل 2004.
24. انظر الهامش 6.
25. انظر الهامش 18.
26. مقابلة مع الأميرة هيفاء ابنة فيصل بن عبد العزيز في مكلين، فيرجينيا، 28 أكتوبر 2003.
27. انظر الهامش 1.
28. انظر الهامش 18.
29. Barbara Bush. Reflections: Life after the White House. New York: Scribner 2003: 233-234.
30. انظر الهامش 18.

31. Evan Thomas and Christopher Dickey. "The Saudi Game." *Newsweek*, November 19, 2001.
32. Bob Woodward. *The Commanders*. New York: Touchstone/Simon & Schuster, 1991.
33. انظر الهامش 6.
34. انظر الهامش 11.
35. انظر الهامش 14.
36. رسالة من الأمير بندر إلى جورج إيتش دبليو بوش، كتبت في 3 نوفمبر 1992.
37. انظر الهامش 6.
38. Transcript of an address delivered by President Bush, as recorded by News Transcripts Inc., Washington, D.C., November 7, ___.
39. انظر الهامش 14.
40. انظر الهامش 6.
41. انظر الهامش 11.
42. Robert Baer. Sleeping with the Devil—How Washington Sold Our Souls for Saudi Crude. New York: Crown, 2003: 62-68.
43. Helen Thomas. Thanks for the Memories, Mr. President: Wit and Wisdom from the Front Row *at the White House*. New York: Scribner, 2003.
44. مقابلة مع ميمي بورك، السكرتيرة الخاصة للأمير بندر، في واشنطن دي سي، 5 نوفمبر 2004.
45. مقابلة مع وزير الخارجية كولن باول في وزارة الخارجية، واشنطن دي سي، 5 نوفمبر 2004.
46. المصدر نفسه.
47. كلمة الأمير بندر في حفل عشاء بمناسبة تقاعد وزير الخارجية كولن باول في مكلين، فيرجينيا، 2 مارس 2005.
48. كلمة وزير الخارجية كولن باول في حفل عشاء في مكلين، فيرجينيا، 2 مارس 2005.
49. مقابلة مع روبرتا فلاك في نيويورك، 5 مايو 2004.
50. Sarah Lyall. "Charles and Camilla, Married at Last." *New York Times*, April 10, 2005.
51. مقابلة مع الرئيس نلسون مانديلا في كيب تاون، جنوب إفريقيا، 2 فبراير 2004.
52. مقابلة مع الأمير بندر في غليمبتون، أكسفوردشير، في نوفمبر 2003.
53. المصدر نفسه
54. "Married." *Sunday Times* (South Africa), July 19, 1998
55. انظر الهامش 52.
56. انظر الهامش 51.
57. "Mandela at 85." *The Observer*, July 6, 2003.
58. انظر الهامش 52.
59. انظر الهامش 51.
60. انظر الهامش 52.
61. انظر الهامش 57.

62. مقابلة مع الرئيس نلسون مانديلا والبروفسور جيكس جيرول في كيب تاون، جنوب إفريقيا، 2 فبراير 2004.
63. مقابلة مع وزير الخارجية جيمس بيكر الثالث في هيوستن، تكساس، 2 مارس 2004.
64. Transcript of Nelson Mandela address, "The Issue of Conflict Resolution," at Rice University, Houston, October 26, 2002
65. مقابلة مع ريتشي توماس في مطار دولز، فيرجينيا، 29 يناير 2004
66. مقابلة مع روبرت ديكون إليوت، 6 أكتوبر 2003.
67. انظر الهامش 65.
68. مقابلة مع هنري بوهم، الطبّاخ في طائرة الأمير بندر إيرباص أ 340، في مراكش، المغرب، 25 يونيو 2004.
69. مقابلة مع جينا برستون، المضيفة الأولى في طائرة الأمير بندر، في مراكش، المغرب، 25 يونيو 2004.
70. انظر الهامش 68.
71. Woodward, p. 200.

12. الحياة الشخصية للأمير بندر

1. مقابلة مع الأميرة هيفاء ابنة فيصل بن عبد العزيز في مكلين، فيرجينيا، 28 أكتوبر 2003.
2. مقابلة مع الأمير فيصل بن بندر في مكلين، فيرجينيا، 19 فبراير 2004.
3. مقابلة مع جان ليلاك في بالم سبرينغز، كاليفورنيا، 12 ديسمبر 2003.
4. مقابلة مع العقيد روبرت ليلاك في بالم سبرينغز، كاليفورنيا، 12 ديسمبر 2003.
5. "Punj Lloyd, S Arabian Prince Deal." *Business Standard* (Mumbai), May 15, 2006.
6. المصدر نفسه.
7. مقابلة مع جيري جونـــز، مالك فريق دالاس كاوبويز، في دالاس، تكساس، 28 أبريل 2005.
8. William Gildea. "Saudi Prince Bandar Has Cowboy Spirit." *Washington Post*, June 20, 1994.
9. Mickey Spagnola. "Balancing Things Out." DallasCowboys.com, December 15, 2003.
10. انظر الهامش 2.
11. مقابلة مع الأميرة ريما ابنة بندر في مكلين، فيرجينيا، 19 فبراير 2004.
12. مقابلة مع ليندا وير في مراكش، المغرب، 26 يونيو 2004.
13. مقابلـــة مـــع جيري بيري، السكرتيرة الخاصة للأميرة هيفاء، في مكاتب مؤسسة موزاييك، مكلين، فيرجينيا، 9 مارس 2004.
14. مقابلة مع الأميرة لولو ابنة بندر في مكلين، فيرجينيا، 18 فبراير 2004.
15. انظر الهامش 1.
16. انظر الهامش 11.
17. انظر الهامش 1.
18. انظر الهامش 2.

19. انظر الهامش 11.
20. انظر الهامش 1.
21. مقابلة مع الأمير بندر في الرياض، 13 نوفمبر 2004.
22. انظر الهامش 14.
23. انظر الهامش 2.
24. Roulah Khalaf. "The Prince Whose Fairytale Went Sour." *Financial Times*, November 29, 2002.
25. مقابلة مع العقيد جو رامسي في واشنطن دي سي، 29 أكتوبر 2003.
26. مقابلة مع جون فلتري، حلاق الأمير بندر، في مكلين، فيرجينيا، 3 نوفمبر 2004.
27. مقابلـــة مع الرئيس جورج إيتش دبليو بوش والسيدة باربرا بوش في هيوستن، تكساس، 20 فبراير 2004.
28. مقابلة مع العقيد روبرت براون في غليمبتون، أكسفوردشير، 4 نوفمبر 2003.
29. انظر الهامش 27.
30. انظر الهامش 28.
31. انظر الهامش 27.
32. مقابلة مع روبرت ديكون إليوت في جدّة، المملكة العربية السعودية، 11 مايو 2004.
33. مقابلة وزير الخارجية الأسبق جيمس بيكر الثالث في هيوستن، تكساس، 2 مارس 2004.
34. مـــدخل كتبه وزير الخارجية الأسبق جيمس بيكر الثالث في كتاب الضيوف في بير كابين، أسبن، كولورادو.
35. مقابلة مع الرئيس الأسبق جيمي كارتر في مركز كارتر، أطلنطا، جورجيا، 19 مارس 2004.
36. مقابلة مع الأميرة ريما ابنة بندر في مكلين، فيرجينيا، 19 فبراير 2004.
37. John Martin Robinson. *Glympton Park Estate: A History*. Chichester: Phillimore & Co. Ltd., 1998.
38. انظر الهامش 28.
39. مقابلة مع ويلي جوردان في غليمبتون بارك، أكسفوردشير، 23 نوفمبر 2004.
40. Alex Markels. "Winners: A Kid Champion Champions Kids." *Tennis Magazine*, 1994.
41. مقابلة مع ريك ولاندون دين في تي ليزي 7 رانش، أسبن، كولورادو، 31 ديسمبر 2005.
42. Rick Carroll. "Prince with Aspen Ties in Delicate Situation in Terrorism War." *Aspen Daily News*, October 18, 2001.
43. مقابلة مع بيتر جاي، السفير البريطاني السابق في واشنطن، 14 ديسمبر 2004.
44. Oxford Brookes University press release, January 21, 2005.
45. مقابلة مع طوني إدواردز رئيس هيئة المبيعات الدفاعية في نادي سلاح الجوّ الملكي، بيكاديلي، لندن، 15 أكتوبر 2005.
46. مقابلتان مع ميمي بورك في واشنطن دي سي، 29 يناير و17 فبراير 2004.
47. انظر الهامش 26.
48. مقابلة مع ليندا وير في قصر العزيزية، مراكش، المغرب، 29 يونيو 2004.

49. مقابلـــتان مع الجنرال أصيل "Gen. Aseel" في سفارة المملكة العربية السعودية، واشنطن دي سي، 11/10 مارس 2004.
50. مقابلتان مع الدكتور سعيد الكرمي في تشيفي تشيس، مريلند، 27 يناير و11 مارس **2004**.
51. مقابلـــة مـــع لويس فريه، مدير مكتب التحقيقات الفيدرالي (1993 - 2001) في ولمنغتون، دلوير، 11 مارس 2004.
52. Nalisha Kalideen. "Sympathetic Saudi Ambassador Visits Mandela." *The Star* (South Africa), January 18, 2005.
53. مقابلة مع روبرت ديكون إليوت في جدة، المملكة العربية السعودية، 13 مايو 2004.
54. انظر الهامش 35.
55. مقابلـــة مع الرئيس جورج إيتش دبليو بوش والسيدة باربرا بوش في هيوستن، تكساس، 20 فبراير 2004.
56. انظر الهامش 13.

13. الكشف عن اللغز

1. من القصيدة المفضّلة لدى نلسون مانديلا، "إنفكتوس".
2. مقابلة مع الرئيس نلسون مانديلا في كيب تاون، جنوب إفريقيا، 2 فبراير 2004.
3. Francis Bacon. Essays II, Of Great Place.
4. مقابلة مع الأمير بندر في الرياض، 13 أكتوبر 2004.
5. مقابلة مع جون فلتري، حلاق الأمير بندر، في مكلين، فيرجينيا، 3 نوفمبر 2004.
6. Niccolo Machiavelli. *The Prince*. New York: Oxford University Press, 1998: 145.
7. انظر الهامش 7.
8. مقابلة مع الدكتور سعيد الكرمي، تشيفي تشيس، مريلند، 11 مارس 2004.
9. مقابلة مع الأمير فيصل بن بندر في مكلين، فيرجينيا، 9 مارس 2004.
10. انظر الهامش 8.
11. مقابلة مع برنت سكوكروفت في واشنطن دي سي، 7 مايو 2004.
12. مقابلة مع الدكتور هنري كيسنجر في نيويورك، 27 أبريل 2004.
13. مقابلـــة مـــع لويس فريه، مدير مكتب التحقيقات الفيدرالي (1993 - 2001) في ولمنغتون، دلوير، 11 مارس 2004.
14. مقابلة مع الرئيس السابق بيل كلينتون في نيويورك، 10 فبراير 2005.
15. مقابلة مع وزير الخارجية كولن باول في وزارة الخارجية، واشنطن دي سي، 5 نوفمبر 2004.
16. مقابلة مع السفير ريتشارد مورفي في نيويورك، 28 أبريل 2004.
17. انظر الهامش 9.
18. اجتماع مع طارق الشواف في مكلين، فيرجينيا، 3 نوفمبر 2004.
19. انظر الهامش 15.
20. Foreign Ministry Issues Official Statement. SPA. Riyadh, July 20, 2005.
21. John R. Bradley. "Why the Saudi Envoy Really Went Home." *Asia Times*, July 29, 2005.

22. James Morrison. "Bandar Resigns." Embassy Row. *Washington Times*, July 21, 2005.
23. Paul Richter. "Saudi Ambassador to U.S. Resigns." *Los Angeles Times*, July 20, 2005
24. انظر الهامش 4.
25. انظر الهامش 18.
26. انظر الهامش 4.
27. غداء مع فرد داتون في واشنطن دي سي، 14 سبتمبر 2004.
28. Patrick E. Tyler. "Double Exposure: Saudi Arabia' s Man in Washington." *New York Times*, June 7, 1992.
29. Murray Waas and Craig Unger. "Annals of Government–How the U.S. Armed Iraq." The *New Yorker*, November 2, 1992.
30. Stanley Hoffman. Duties Beyond Borders: On the Limits and Possibilities of Ethical International Politics. Syracuse, NY: Syracuse University Press, 1982: 18
31. Elsa Walsh. "The Prince: How the Saudi Ambassador Became Washington' s Indispensable Operator." *The New Yorker*, March 24, 2003.
32. Niccolo Machiavelli. *Discourses*, Part 3. New York: Modern Library. 1950: 528; Hoffman, p. 24.
33. Robert S. McNamara and James G. Blight. *Wilson's Ghost*. New York: Public Affairs, 2001:39.
34. Niccolo Machiavelli. *The Prince*. Angelo M. Codevilla. Yale University Press. 1997. Chapter 15, Pg. 58.
35. Bandar bin Sultan. "National Power and Morality." January 5, 1980.
36. المصدر نفسه.
37. "FBI Probes Pentagon Spy Case." CBS Broadcasting Inc. August 27, 2004.
38. Tom Barry. "Douglas Feith: Portrait of a neo-conservative." Antiwar.com, September 15, 2004.
39. حديث على العشاء مع الأمير بندر في غليمبتون، أكسفوردشير، 28 أغسطس 2004.
40. مقابلة مع الدكتور سعيد الكرمي، تشيفي تشيس، مريلند، 27 فبراير 2004.
41. Allen Ruff. "AIPACGate and Washington Infighting: Israel' s U.S. Spy Den." *Against the Current*. Volume XIX, Number 5, November/December 2004.
42. Robert Scheer. "Israel' s Albatross: US Neocons." The Nation. August 31, 2004.
43. James Petras. "Them or Us: AIPAC on Trial." *CounterPunch*. January 7, 2006.
44. Bill Gertz. "Pentagon Aide Draws Scrutiny from FBI." *The Washington Times*. August 28, 2004.
45. The Franklin/AIPAC Spy Case Page. JonathanPollard.Org. October 4, 2004.
46. "Controversial Feith leaving Pentagon Post." The Washington Times. January 26, 2005.
47. Michael Isikoff. "At Issue: Classified Leaks." *Newsweek*. March 20, 2006.
48. Caroline Glick. "Our World: Trial of American Jewry." *The Jerusalem Post*. January 31, 2006.
49. "Michael Saba. Pollard in Perspective." *Washington Report*, July 14, 1986, 12.

50. James Petras. "Them or Us: AIPAC on Trial." *CounterPunch*. January 7, 2006.
51. انظر الهامش 48؛ Jeffrey Goldberg. "Real Insiders. A pro-Israel lobby and an F.B.I. Sting." *The New Yorker*. July 4, 2005.
52. مقابلة مع الأميرة لولو ابنة بندر في مكلين، فيرجينيا، 18 فبراير 2004.

14. حياة جديدة

1. Sayed Rashid Husain, "Saudi NSC to Have Extensive Powers." Dawn, Kerachi, Pakistan, October 20, 2005.
2. Dr. Ali Alyami and Micha van Waesberghe. "New NSC: Saudi Royals Vie for Power." The Centre for Democracy & Human Rights in Saudi Arabia, October 24, 2005.
3. Leila Hatoum. "Mehlis, Daoudi Finalize Plans to Question Syrian Officials. Identity of five Headed for Vienna Shrouded in Secrecy." *Daly Star*, Lebanon, November 28, 2005.
4. Jihad el Khazen. "King Abdullah: We Intervened to Reach the Vienna-Exit upon Assad's Insistence." *Al-Hayat*, November 29, 2005.
5. بيان بشأن إعلان مؤتمر قمة منظمة المؤتمر الإسلامي صادر عن مكتب الحافة في البيت الأبيض، 12 ديسمبر 2005.
6. Sayed Qamar Hasan. "GCC Calls for Nuclear-Free Middle East." *Arab News*, Abu Dhabi, December 20 2005.
7. "Riyadh Seeks Russian Help to Prevent US Strike on Tehran." (AFP) *Khaleej Times*, UAE, April 11, 2006.
8. "Ranking Iranian Official Visits Saudi Arabia Later Saturday." Qatar News Agency, July 15, 2006.
9. Greg Myre. "Israel Widens Scope of Attacks Across Lebanon." *New York Times*, July 16, 2006.
10. Amos Harel. "IDF Concerned Missiles Could Hit Central Israel." *Haaretz*, Tel Aviv, July 17, 2006.
11. Yuval Azoulay, Amos Harel and Yoav Stern. "Eleven Wounded When Haifa Building Collapses Following Rocket Strike." Haaretz Service and Agencies, July 17, 2006.
12. Nicholas Kralev. "Iran, Syria Called Playing With Fire." *Washington Times*, July 14, 2006.
13. Associated Press. "Syria Calls for Hezbollah Cease Fire." *Jerusalem Post*, July 14, 2006.
14. Richard Perle. "Why Did Bush Blink on Iran? (Ask Condi)." *Washington Post*, June 25, 2006.